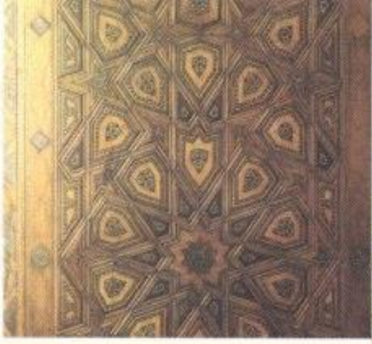
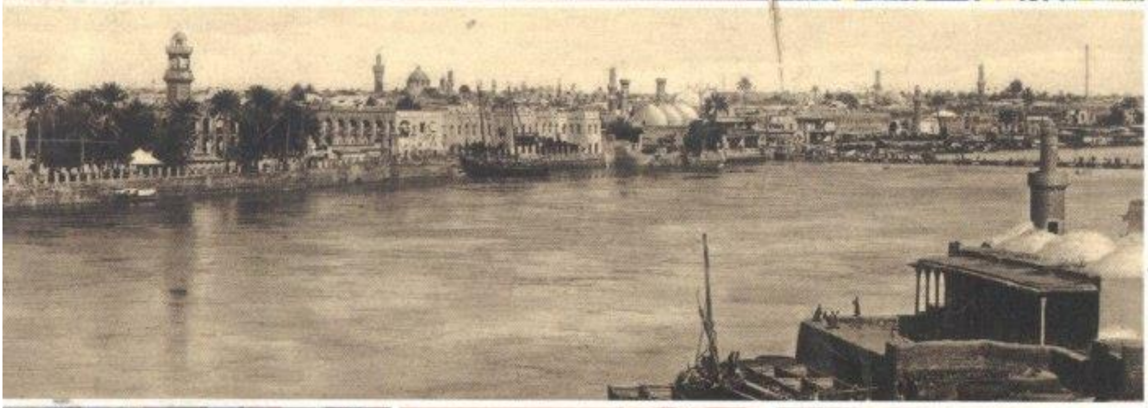
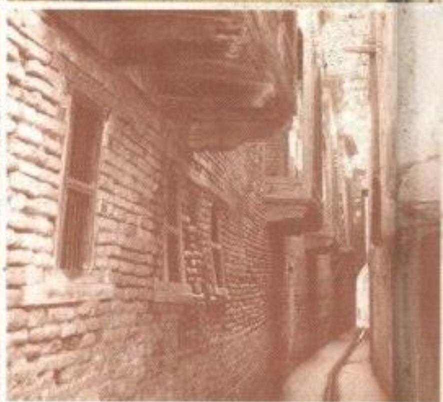
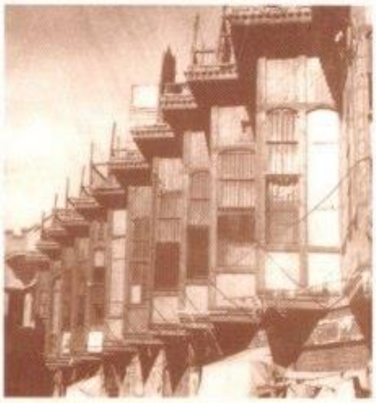



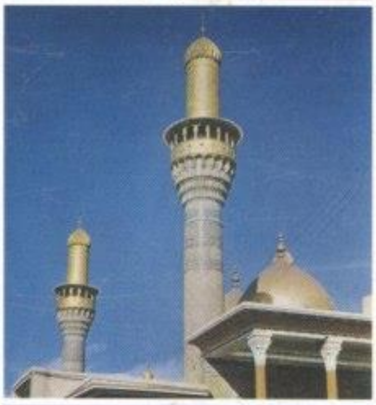
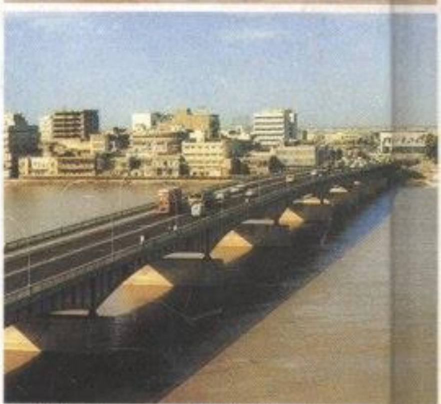
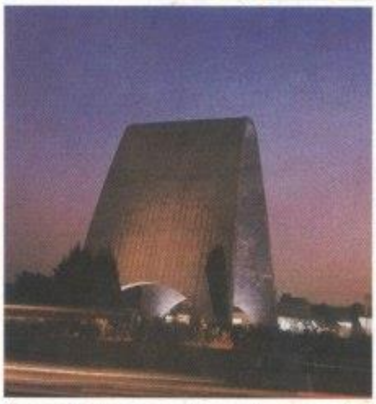
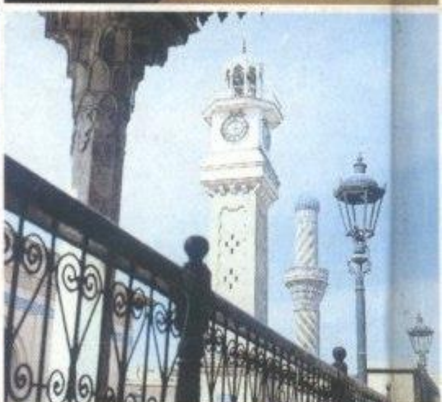




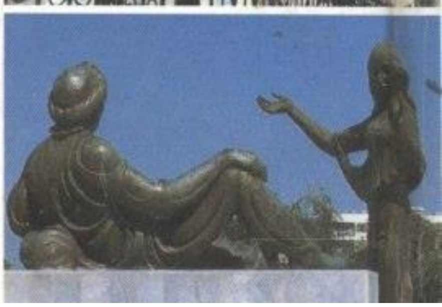




محمد مكية

بغداد

بغداد

قامت بنشره

نقابة المهندسين العراقية

على نفقة

مؤسسة كولبنكيان

١٩٦٩

البحوث من اعداد

الدكتور مصطفى جواد
الدكتور احمد سوسه
الدكتور محمد مكيه
الاستاذ ناجي معروف

أشرفت على التنفيذ لجنة مؤلفة من الاستاذ المهندس سعيد علي مظلوم والدكتور المهندس رمزي سلمان • إخراج وطبع مؤسسة رمزي للطباعة

بغداد عاصمة الدولة العباسية الطويلة الآماد ووارثة بابل السامية وسلوقية اليونانية والمدائن الساسانية ذات تاريخ زاهر ومستقبل باهر وحضارة مجيدة ، وآثار بديعة عتيدة ، وهي الى ذلك من المدن العالمية التي قارعت الأحداث وقارعتها ، وقاومت الزمن وقاومها ، ورأت من ماجريات التاريخ ، ووجوه أهل الحرب وأهل السياسة ورجال العلم والفنون والأسراب والكياسة ما قل أن رأته عاصمة من عواصم الدنيا ، وإن سميت « مدينة السلام » .

هذه العاصمة العظيمة وهذه المدينة الجسيمة قامت بدور في تاريخ الشرق على اختلاف ضروبه وأنواعه من تاريخ للحرب وتاريخ للثقافة الاجتماعية وتاريخ للعلوم والفنون وتاريخ للآداب في شعرها ونثرها فضلا عن التاريخ السياسي كانت حرية بأن تؤلف لها عشرات تواريخ ، وتسجل حضاراتها بمئات سجلات ، ويكشف عن وجهها الحضاري بما تظهر به للعالمين وضاحة الجبين ، وأعجوبة للناظرين والقارئين ، وفتنة للمستطلعين والمستبينين، ويوصف تراثها العلمي والأدبي للمحققين الباحثين ، فاسمها لا يزال يرن في أذن الدهور ، ورسمها لا يزال متعالياً على تعاقب العصور ، وكتابها ألف ليلة وليلة ما فتيء يداعب أذهان السمار ، في مختلف البلدان والأقطار ، وعجائبها وطرائفها لا تزال تتردد في الأخبار ، وما أجمل قول من سأل صاحبه قديماً : هل رأيت بغداد ؟ فقال : لا . فقال له : ما رأيت الدنيا ولا رأيت الناس ، وقال آخر : بغداد حاضرة الدنيا أي بلدها المتمدن .

وقد وصفت بغداد بأنها كانت من أعظم المدن هندسة وإحكاماً ، والتئاماً والتحاماً ، قال الجاحظ وهو كبير كتاب العرب ووصافهم : « رأيت المدن العظام بالشام والروم وغيرهما فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً ولا أجود استدارة ولا أوسع أبواباً ولا أجود فصلاً من مدينة أبي جعفر كأنما صبت في قالب وكأنما أفرغت إفراغاً » .

وقال أحمد بن الحارث : « صورت بغداد لملك الروم — أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها في غربيها وشرقيها فكان يعجب من وضع شوارع الجانب الشرقي خصوصاً من شارع الميدان وشارع سويقة نصر بن مالك الخزاعي والقصور التي في الأسواق والشوارع من سويقة نصر الى قنطرة البردان وكان إذا طابت نفسه دعا بصورة شارع نصر ويقول : لم أر صورة شيء من الأبنية أحسن منه » .

قال هذا القول وهو قيصر بيزنطة وملك العمارات الفخمة وصاحب المباني الضخمة ، وقد أخذت بغداد اليوم تستعيد مكانتها الضائعة ، وتجدد حضارتها الرائعة في جميع مناحي التمدن في الهندسة والعلوم والفنون والآداب ، فأبناؤها اليوم هم أحفاد أولئك الذين أعلوا حضارتها ، وأعموا تجارتها وجعلوها زاهرة زاهية ، في

جميع شؤون الحياة المدنية ومختلف الوجوه الحضارية .

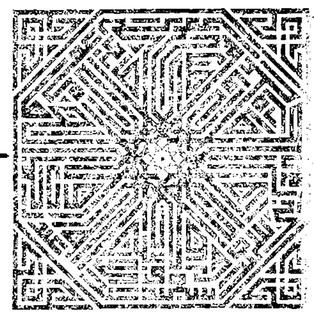
ولقد كان من الغفلة والجفوة أن تظل بغداد العظيمة الكريمة عديمة من كتاب تاريخ جامع مركز يؤرخ خططها ويذكر نمطها ، ويسجل هندستها وحضارتها العابرة والغابرة ، ويصف مجدها وتراثها ، وينعث آثارها ويجمل أخبارها ، ويبين وجهها الوضيء ، وفنها المضيء ، فهيأ الله لها همة « نقابة المهندسين العراقيين » التي ما فتئت تهتبل الفرص بمعارضها ومحاضراتها ، لتظهر بغداد في مظهرها اللائق الرائق ، ومجدها العريق الفائق ، ثم تطورت هذه الهمة الشماء إلى تبنيها فكرة التأسيس والبناء ، والتأليف والانشاء ، ففاوضت مؤسسة « كولبنكيان » ذات السيرة المجيدة في الانفاق على المنشآت العلمية والمنشآت الفنية والمنشآت الرياضية وعلى المعاهد الخيرية في الشرق والغرب ، لخدمة الانسانية جمعاء ، فاوضتها في إطلاق مبلغ من المال ينفق على وضع كتاب لبغداد يمثل تلكم الوجوه الحضارية المشرقة قديمها وحديثها، معززاً بصور الآثار القائمة، مؤيداً بالمباحث اللازمة ، فاستجابت المؤسسة لهذه الدعوة استجابة رضاً واستبشار، على عادتها الكريمة وسيرتها المستقيمة ، وأرصدت لتأليف الكتاب وطبعه عشرة آلاف دينار ، فأضافت حسنة جديدة الى حسناتها العديدة .

وقد ندبت نقابة المهندسين البارعة جماعة من المختصين بتاريخ بغداد وحضارتها للقيام بتأليف الكتاب وهم كاتب هذا التقدير والدكتور أحمد سوسه والدكتور محمد مكيه والاستاذ ناجي معروف فأسندت موضوع خطط بغداد في مختلف عصورها لمصطفى جواد وأحمد سوسه معاً وإرواء بغداد قديماً وحديثاً إلى أحمد سوسه وثقافة بغداد إلى ناجي معروف والفن العماري في بغداد والتراث البغدادي للرسم التصويري إلى محمد مكيه ووكلت ترتيب الكتاب وتنظيم طباعته الفنية إلى الاستاذ سعيد علي مظلوم والدكتور رمزي سلمان ، وقد نهض جميعهم بما أسند ووكل اليهم أحسن نهوض وأتمه فجاء الكتاب بحمد الله وعونه نموذجاً حسناً للتصنيف والتأليف ومثالاً مستحسناً للترتيب والتنظيم وإماماً للبراعة والبداعة في التحبير والتصوير .

ولم يكن المؤكد الاستيعاب والاستقصاء فذلك يحتاج الى عدة مجلدات وإنما كان المراد الايجاز الوافي ، والاعتبار الكافي ، لجلاء وجه الحضارة البغدادية قديمها وحديثها ، مع مراعاة ما يستلزم ذلك الجلاء من التمهيد والتوطيد ، والبيان والايضاح ، وإنه ليسعنا في ختام التقديم كل السعة أن نقدم أنا وزملائي الشكر الأوفى لمؤسسة كولبنكيان على منحتها الأدبية الفائقة ولنقابة المهندسين على تبنيها فكرة التأليف وحرصها الحميد على اخراجها هذا الكتاب العلمي الأدبي الفني هذا الاخراج الرائع النافع والله الموفق للصواب .

مصطفى جواد

رئيس لجنة تأليف الكتاب



تخطيط بغداد

في مختلف عصورها

الدكتور مصطفى جواد
الدكتور احمد سوسه

١

بغداد في أدوارها الأولى

تسمية بغداد :

اختلف المؤرخون قديماً وحديثاً في بيان اسم « بغداد » وتعيين معناه ، فمنهم من قال إن أصله « بعل جاد » باللغة البابلية ومعناه « معسكر بعل » ، ومنهم من قال إنه « بعل داد » ، أي الآله الشمس ، ومنهم من قال إنه كلداني وإن أصله « بلداد » ، و« بل » اسم الآله الكلداني و« داد » كلمة آرامية معناها « الفتك » ، ويذهب هؤلاء الى أنه حدث على عهد بختنصر (٦٠٤ ــ ٥٦٢ ق.م.) ملحمة عظيمة ظفر فيها بأعدائه ، فأنشأ هذه القرية تخليداً لظفره وسميت باسم الصنم « بل » ، ومنهم من يقول بأن الاسم بابلي من عهد حمورابي في القرن الثامن عشر قبل الميلاد وأن أصله « بيت كدادا » ، أي بيت الغنم ؛ ويرى بعض الباحثين أن كلمة بغداد آرية الأصل وأن الكشيين استعملوها أول مرة في مستهل الألف الثاني قبل الميلاد ومعناها « عطية الآله » . والفرس يفسرونها على عادتهم ويرجعونها الى أصل فارسي هو « باغ داد » ، أي بستان ذادويه أو « بغ دادي » ، أي الصنم بغ أعطاني ، أو « باغ أي داد » وهو اسم بستان أنشاه كسرى أنوشروان (٥٣٢ــ٥٧٩م) في هذه البقعة فسميت القرية باسمه ، وقيل: كان اسم ملك الصين « بغ » فكان تجار الصين اذا انصرفوا الى بلادهم بأرباحهم الوافرة من سوق بغداد قالوا «بغ داد » ، أي هذا الربح من عطية الملك ، وهو أضعف الأقوال وأبعدها عن الاحتمال .

وقد ورد اسم بغداد في أخبار فتح العرب للعراق فى الثلث الأول من القرن السابع للميلاد وأخبار الدولة الأموية، وقد ذكر المؤرخون عدة أسباب حملت أبا جعفر المنصور على تأسيس مدينته المعروفة بمدينة السلام ، والذي يهمنا في هذا البحث الموجز هو أنه عزم عزماً أكيداً على إنشاء مدينة حصينة بين عدة قرى مسكونة مزدهرة وهي بغداد العتيقة البابلية وسونايا الآرامية التي من بقاياها الاسلامية اليوم مسجد المنطقة بين بغداد والكاظمية ، والخطابية وشرفانية وبناورا وورثالا وبراثا وقطفتا التي هي اليوم « محلة المشاهدة » بالجانب الغربي من بغداد ، والوردانية ، وقد اختير لموضع المدينة مزرعة تعرف بالمباركة تيمناً باسمها على عادة العرب فى التفاؤل بالأسماء ، وكانت المزرعة ملكا لستين شخصا من أهل بغداد فعوضهم المنصور عنها بالنقد ، وكانت هذه المزرعة فى موضع البساتين المنسوبة في أيامنا الى الراحل عبد الحسين الجلبي بين المنطقة والكاظمية في الجانب الغربي من بغداد .

هندسة مدينة المنصور وبناؤها :

وأحضر المنصور المهندسين والبنائين والذراعين والمساحين والفعلة والصناع من النجارين والحدادين والحفارين وكتب الى كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئاً من البناء فحضره مائة الف من أصناف المهن والصناعات ، فمثل لهم صورة المدينة الحصينة التي يريد إنشاءها وطلب أن يراها بالاختطاط رأي العين ، فخطت له بخطوط مهندسة فأمر أن يوضع على تلك الخطوط حب القطن ويصب عليه نفط وتوقد فيه النار ، فامتثلوا أمره واضطرمت النار فيها حسب الخطوط فتأملها والنار تشتعل فيها فتحققها وعرف رسمها .

وكان الذين وضعوا تصميم المدينة وهندسوها وأشرفوا على بنائها على حسب قول اليعقوبي في كتاب البلدان أربعة من المهندسين هم عبد الله بن محرز وعمران بن الوضاح وشهاب بن كثير والحجاج بن يوسف (١) بحضرة نوبخت وابراهيم بن محمد الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب، ثم قسم المنصور عمل البناء ارباعاً في ارباض المدينة وهي مساكن الناس ومرافقهم كالأسواق والحوانيت والحمامات والمساجد وجعلها قطائع، وهي جمع قطيعة أي أرض مفوضة محدودة، وأمر أن تكون الحوانيت واسعة ويكون عرض الشارع خمسين ذراعاً بالسوداء والدرب ست عشرة ذراعاً (٢) ، وأوعز ان ينوا في جميع الأرباض والأسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفى به في كل ناحية ومحلة، وأمرهم جميعاً ان يجعلوا من القطائع التي أقطعها القواد والجنود ورجال الدولة مساحة ذرعاً معلوماً كما اقطع التجار أرضا يبنونها وينزلونها ولسوقة الناس وأهل البلدان، وقسم الأرباض أربعة أرباع وقلد للقيام بكل ربع رجلا من المهندسين وأعطى أصحاب كل ربع مبلغ ما يصير لصاحب كل قطيعة من الذرع ومبلغ ما لعمل الاسواق في ربض ربض.

وذكر الخطيب البغدادي أن المهندس الذي خط بغداد هو أبو أرطاة (الحجاج بن أرطاة) مع معاونين من أهل الكوفة وذكر أن هذا الحجاج كان عربياً قحطانياً نخعياً كوفياً، وقد قام بأكثر هندسة بغداد ونصب قبلة جامعها، وكان مع علمه بالهندسة أحد علماء الحديث النبوي والحافظين له والراوية له والمحدثين به وكان شريفاً سرياً مصاحباً لأبي جعفر المنصور، ثم جعله من بطانة ابنه المهدي ورافق المهدي الى البلاد التي حكم فيها وهو ولي العهد كالري وتوفي بها وكان المهدي بها والياً. وقال الطبري في خبر بناء مدينة السلام إن المنصور أمر باختيار قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقه والأمانة والمعرفة بالهندسة فكان ممن حضر لذلك الحجاج بن أرطاة وأبو حنيفة النعمان بن ثابت. وقد ذكر اليعقوبي أن المنصور قلد ربع المدينة الممتد من باب الكوفة الى باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك كله المسيب بن زهير والربيع مولاه وعمران بن الوضاح المهندس، والربع من باب الكوفة الى باب الشام سليمان بن مجالد وواضحاً مولاه وعبدالله بن محرز المهندس، والربع من باب الشام الى الجسر على منتهى دجلة حرب بن عبد الله وغزوان مولاه والحجاج بن يوسف المهندس، ومن باب خراسان الى الجسر الذي على دجلة ماراً في الشارع على دجلة هشام بن عمرو التغلبي وعمارة بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس، ووقع الى كل أصحاب ربع ما يصير لكل رجل من الذرع ولمن معه من أصحابه وما قدره للحوانيت والأسواق في كل ربض وأمرهم أن يجعلوا في كل ربض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل، وأن يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه والرجل الذي ينزله أو أهل البلد الذي يسكنونه. وذكر المسعودي في «مروج الذهب» أنه كان يعمل في كل يوم خمسون ألف رجل في بناء المدينة.

وابتدأ المنصور بناء مدينته بأوائل شهر آب «اغسطس» سنة ٧٦٢م الموافقة لجمادي الأولى سنة ١٤٥هـ، ولاتزال العادة جارية في العراق أن يبدأ البناء اختياراً في شهر من أشهر الصيف. غير أن بعض المؤرخين وهو اليعقوبي ينفرد بخبر أن المنصور اختط مدينته في شهر ربيع الأول سنة ١٤١هـ أي شهر تموز سنة ٧٥٨م، وذكر مؤلف كتاب «التوفيقات الالهامية» أن المنصور بدأ بانشاء مدينته في شهر ربيع الآخر سنة ١٤٥هـ الموافق لشهر تموز سنة ٧٦٢م وهو من أشهر الصيف أيضا، وتم بناء بغداد المنصور أي مدينة السلام في أربع سنوات وشهرين الا يوماً واحداً. والسبب في هذا الاختلاف أن من المؤرخين من يعد تاريخ الاختطاط ابتداء للانشاء ومنهم من يعد تاريخ الانشاء هو الابتداء.

---

(١) لقد وهم بعض الباحثين في تعيين شخصية الحجاج بن يوسف فظنوه الحجاج بن يوسف بن مطر الحكيم المترجم المشهور المذكور في أخبار الحكماء للقفطي وغيره وقد عاصر الرشيد والمأمون في حين ان المقصود هنا الحجاج بن أرطاة الذي ذكره الطبري والخطيب البغدادي وهما شخصيتان مختلفتان كما سيأتي بيانه.

(٢) تساوي الذراع حوالي نصف متر.

وأمر المنصور بضرب اللبن التام المربع الذي قياسه ذراع في ذراع ووزن الواحدة منه مائتا رطل أي زهاء مائتي كيلوغرام وبضرب اللبن المنصف الذي قياسه في الطول ذراع وفي العرض نصف ذراع ووزن الواحدة منه مائة رطل ، وقد جاء في بعض التواريخ أن وزن اللبنة الواحدة من اللبن العظام كان ١١٧ رطلا كما سياتي بيانه . وحفرت آبار لأخذ الماء منها في ضرب اللبن وغيره وكذلك شرع في طبخ اللبن ليكون آجراً ، لأن أكثر منشآت المدينة كانت مبنية باللبن وأقلها كان مبنياً بالآجر ، وقدحاول المنصور أن ينقض ايوان كسرى بالمدائن والقصر الأبيض فيها وينقل آجرهما الى موضع بغداد لاتمام مدينته وجرب ذلك فوجد أن نفقات النقض والنقل أكثر من ضرب لبنه وطبخه قرب المدينة فأعرض عن ذلك .

وقيل مدت قناة من نهر كرخايا وهو نهر كان مشتقاً قبل إنشاء المدينة يستمد ماءه من نهر يأخذ من الفرات وجرت القناة باحكام هندسي الى داخل المدينة للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وسيشار الى ذلك في الكلام على إرواء المدينة ، والظاهر لنا أن القناة اشتقت بعد الفراغ من بناء المدينة ، ولو كانت قد عملت في اثناء الانشاء ما احتاجوا الى حفر الآبار المشار اليها .

وقد سميت هذه المدينة « مدينة المنصور » و« مدينة السلام » تفاؤلا بالسلامة والأمان من الخطر والعدوان ، وقد تسمى « دار السلام » وهو اسم مقتبس من القرآن الكريم ، واذا أطلق لفظ « المدينة » فانما يراد به مدينة المنصور ، وسميت أيضاً « الزوراء » لأن المنصور لما عمرها جعل الأبواب الداخلة الآتي ذكرها بعد هذا مزورة عن الأبواب الخارجة أي ليست على سمتها . واشتقاق هذه الصفة يؤيد هذا المعنى، ويؤيد أيضاً كون جامعها مزوراً عن القبلة ، في قول بعضهم . وكانت النفقات على إنشاء مدينة المنصور وحدها أربعة ملايين درهم وثمانيمائة وثمانين درهما وقيل إنها كانت ١٨ مليون درهم وفيها مبالغة ظاهرة .

وأقطع المنصور ذوي قرابته وذريته وقواده ورجال دولته قطائع حول المدينة تزيد عدتها على أربع وخمسين قطيعة ، وللمقطع أن يتصرف بقطيعته فيجعلها بستاناً أو يبني فيها داراً أو قصراً أو يجعلها سوقاً وخاناً ومستغلات أخرى ، وقسم ما حول المدينة الى أرباض والربض تقسيم هندسي للمدينة وهو أوسع من القطيعة ، ففي القطيعة ينظر الى التملك وفي الربض ينظر الى المساحات التقريبية ويكون في الربض قصور ودور وأسواق ، وقد ذكر أن ربض حرب بن عبدالله البلخي أحد قواد المنصور كان أوسع الأرباض بالجانب الغربي وأوسعها وأكثرها دروباً وأسواقاً ، وان قطيعة الربيع بن يونس بالجانب الغربي جعلها أسواقاً ومستغلات أخرى فأقطعه المنصور أرضاً جديدة بالقرب من الرصافة بالجانب الشرقي ، والعباس بن محمد بن علي العباسي جعل قطيعته بين الصراتين بالجانب الغربي بستاناً كما سنشير إليه من أمر المنصور له بذلك ، فاستقطع أرضاً بالجانب الشرقي قرب الرصافة أيضاً . وقد أحصيت دروب الجانب الغربي وسككه فكانت ستة آلاف وأحصيت المساجد فكانت ثلاثين ألف مسجد والحمامات عشرة آلاف حمام ، وفي هذا الاحصاء مبالغة إلا اذا كانت الحمامات شخصية .

وصف مدينة السلام :

كانت مدينة السلام التي أنشأها أبو جعفر المنصور مدورة مثل عدة مدن أنشئت قديماً قبلها كمدينة الحضر والمدائن ومثل الحصون الآشورية . ولم تكن هي إلا حصناً جباراً فيه جميع مرافق المقاومة عند الحصار وأسباب العيش والمصابرة، وأصح الأقوال في سعة المدينة ومساحتها هو أنها تبلغ (٢١ر٩١٦ر٣٣٨) ذراعاً مربعة أي (٥ر٣١٤ر٢٦٢) متراً مربعاً أو (٢١٢٦) مشارة ، وعلى هذا يكون طول قطر محيط المدينة (٥٢٨٣) ذراعاً أو (٢٦١٥) متراً وطول الدائرة بحسب هذه الأبعاد (١٦٥٩٧) ذراعاً أو (٨١٣٢) متراً .

وجعل للمدينة أربعة أبواب كبار كل بابين منهما متقابلان والطريق بينهما يقسم المدينة قسمين ، فصارت المدينة

بالطريقين المتعامدين المتقاطعين أربعة أرباع ولذلك كانت عمارة أرباضها أرباعاً أيضاً ، كما تقدم ، فالباب الشرقي سمي « باب خراسان » وسمي أحياناً « باب الدولة » لأنه كان يؤدي الى طريق خراسان ولأن ثورة العباسيين وخطة إنشاء الدولة كانتا في خراسان. ويقابل باب خراسان من الغرب « باب الكوفة » لوقوع الكوفة في الغرب من مدينة السلام. وكان في جنوب المدينة « باب البصرة » لأنه مؤدٍ الى جهة البصرة ، ويقابله من الشمال « باب الشام ».

ويرد في أخبار بغداد ذكر أبواب عدة غير ما ذكرناه منها كباب التبن وباب حرب وباب الأنبار وباب قطربل وباب الشعير وباب الحديد وباب المحول وباب الكرخ من أبواب الجانب الغربي. وكانت هذه الأبواب منافذ وطرقاً ومداخل لأرباض مدينة المنصور التي أشرنا اليها آنفاً ، وقد ذهبت هذه الأسماء قبل عدة عصور وهي غير معروفة الآن.

وبني للمدينة باللبن سوران اثنان تفصل بينهما أرض خالية من البناء أعدت لحركات الدفاع تسمى « الفصيل » كأنه مفصول عن العمارة أو فاصل للسور عن العمارة ، والسوران أحدهما أعلى من الآخر بما يقارب النصف ، فكان ارتفاع السور الأعظم مع الشرفات المدورة (١) (وهو الأقرب الى الأبواب الداخلية) ستين ذراعاً بالذراع السوداء ، وطول الذراع السوداء بقياسهم مائة وعشرون أصبعاً والستون ذراعاً تساوي ثلاثين متراً على وجه التقريب ، وكان عرض السور من أسفله عشرين ذراعاً أي نحو عشرة أمتار وقيل عرضه من أسفل خمسين ذراعاً أي نحو خمسة وعشرين متراً وهو الراجح ، وكان عرضه يقل في الارتفاع بعد ثلثه وبعد ثلثيه حتى يصير في أعلاه خمسة وعشرين ذراعاً ، أي زهاء اثني عشر متراً ، وكان يوضع في كل ساف من أسواف السور مائة ألف واثنتان وستون ألف لبنة من اللبن العظام المعروف باسم الجعفري المربع الذي وزن كل لبنة منه مائة وسبعة عشر رطلاً ، أي زهاء ١١٧ كيلوغراماً ، ومساحتها ذراع في ذراع ، والسبب في ضخامة هذا السور وثخانته كونه من اللبن ، فان نقب أسوار اللبن في الحصار وهدمها بالمنجنيق أسهل من غيرها. وكان على السور الأعظم شرف مدورة وأبراج عدتها ١١٣ برجاً ، بين كل بابين من الأبواب الداخلية ثمانية وعشرون برجاً ، وبين باب البصرة وباب الكوفة خاصة ٢٩ برجاً ، وارتفاع كل برج فوق السور خمس أذرع. أما السور الخارج ، وهو السور الصغير ، فكان من اللبن كالسور الأعظم عرضه في أسفله نحو عشرين ذراعاً وارتفاعه خمس وثلاثون ذراعاً ، أي نحو سبعة عشر متراً.

وحفر حول المدينة خندق عريض عميق وله مسناة محكمة عالية من جهة المدينة مبنية بالآجر والصاروج وهو مادة بنائية كالسمنت في القوة واللون وأجري فيه الماء من قناة تأخذ ماءها من نهر اسمه كرخايا وكرخايا يستمد ماءه من نهر يأتي من الفرات.

وجلب المنصور لأبواب مدينته رتاجات من الحديد لا يغلق الرتاج الواحد منها ولا يفتحه إلا جماعة رجال لضخامته ، فقد كان الفارس يدخل منه بالعلم والرامح بالرمح الطويل من غير أن يميل الأول العلم ولا أن يثني الثاني رمحه ، فرتاج باب خراسان الخارجي كان قد جيء به من الشام من عمل الفراعنة ، ورتاج باب الكوفة جيء به من الكوفة وهو من عمل خالد بن عبدالله القسري واليها أيام هشام بن عبدالملك وعمل هو رتاجاً لباب الشام وكان أضعف الأبواب ، أما باب البصرة فيظهر أنه وضع فيه رتاج من أرتجة خمسة أمر المنصور بجلبها من واسط وهي أبواب الحجاج وكان الحجاج وجدها على مدينة بازاء واسط كانت تعرف بزندورد.

وجعل للأبواب الأربعة دهاليز أربعة عظيمة كلها آزاج أي عقود وطول كل دهليز ثمانون ذراعاً وعرضه عشرون ذراعاً ، وعقودها من الآجر والجص لتكون رصينة حصينة ، فكان الداخل اذا دخل أحد الأبواب وجد الدهليز على يساره ، ولتصور الباب ودهليزه ينبغي مشاهدة « باب الظفرية » الحالي المعروف بالباب الوسطاني في شرقي بغداد ، غير

---

(١) الشرفات جمع الشرفة وهي نتوءات من البناء تكون على حافة السور العليا وحافة سطوح الدور للزينة والاطلاع من حولها.

أن الداخل من باب الظفرية يعطف نحو اليمين لا نحو اليسار .

وكان فوق كل عقد من عقود أبواب السور الكبير الداخلي مجلس له درج مبني على السور فكان الصعود اليه من تلك الدرج ، وكان على كل مجلس قبة شاهقة عظيمة ارتفاعها خمسون ذراعاً ، أي نحو خمسة وعشرين متراً ، فيها زخارف ونقوش وعلى أعلاها تمثال تديره الريح ، وكان الجالس فيها يشرف على نواح بعيدة كثيرة ويشاهد ما ينبغي أن يشاهده المدافع عند الحصار ، وكان يصعد الى هذه القبة وأمثالها سيراً أو ركوباً على الدواب لضخامتها ، فكان الصعود على عقود مبنية بالجص والآجر او باللبن الكبار ، وكانت العقود متراكبة على هيأة آزاج بعضها أعلى من بعض ، فداخل الآزاج لجند الرابطة والحرس ، وظهورها عليها المصعد الموصل الى القباب التي على الأبواب . وعلى المصعد أبواب تغلق وتفتح ، فكان أبو جعفر المنصور إذا أراد النظر الى الماء ومن يقبل من ناحية الشرق جلس في قبة باب خراسان ، وإذا أحب النظر الى ما حول مدينته من الغرب وما والاه جلس في قبة باب الشام ، وإذا أحب النظر الى الجنوب ومن يقبل من تلك الناحية جلس في قبة باب البصرة ، وإذا أحب النظر الى البساتين والمزارع جلس في قبة باب الكوفة .

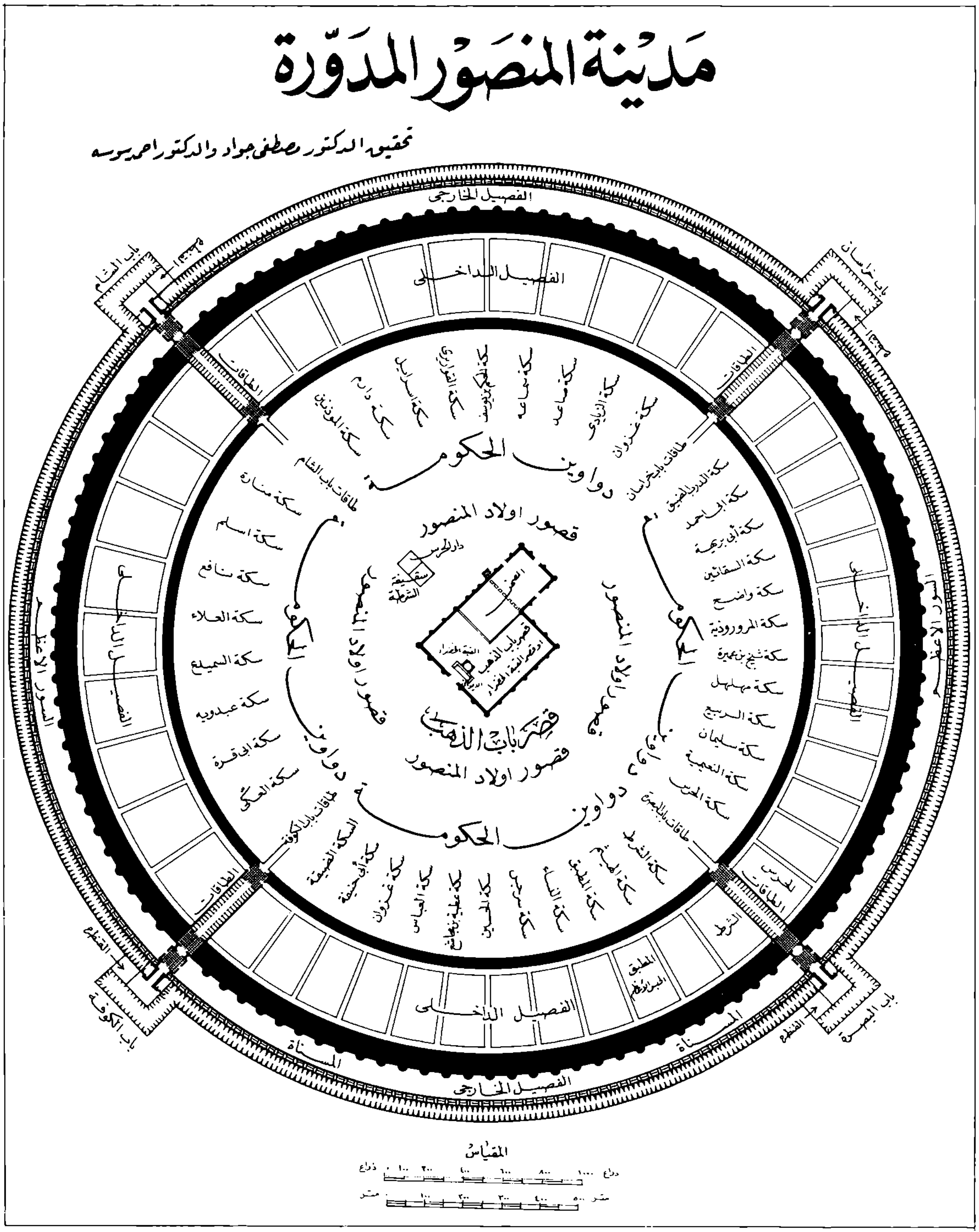
مدينة المنصور من الداخل :

قد ذكرنا آنفاً مساحة مدينة المنصور وسوريها وخندقها وأبوابها الخارجية الأربعة والآن نذكر ما في داخلها على طريقة « السياحة » ونصفها ، وذلك أن الذي كان يدخل من بابها الشرقي وهو باب خراسان يرى للباب من الاستحكامات مثل ما يشاهده اليوم في باب الظفرية المعروف بالباب الوسطاني ، وقد أشرنا الى ذلك من قبل ، فاذا عبر قنطرة الخندق الى الباب وجد عند الباب في أيام المنصور قائداً اسمه مسلمة بن صهيب الغساني في ألف جندي ، كما هي الحال في الأبواب الثلاثة الأخرى فقد كان على باب الشام سليمان بن مجالد في ألف جندي وعلى باب الكوفة خالد العكي في ألف جندي وعلى باب البصرة أبو الأزهر التميمي والثلاثة منهم أنسابهم عربية صريحة . وكان رتاج الباب من الحديد كما قدمنا ذكره في وصف الأبواب ، وكان الباب كبيراً شاهقاً وهو أحد أبواب السور الصغير المذكور آنفاً (وسماه اليعقوبي باب الفصيل) ، فاذا جاوز السائح الباب عطف على يساره فيسير في دهليز أزج معقود بالآجر والجص عرضه عشرون ذراعاً وطوله ثلاثون ذراعاً وهذا الدهليز يفضي الى رحبة مفروشة بالحصى طولها ستون ذراعاً وعرضها أربعون ذراعاً ، ولها في جانبيها ، الجنوبي والشمالي ، حائطان متوازيان ينتهيان عند باب في آخر الرحبة وهو الباب الذي يراه الداخل . وفي كل من الحائطين باب يفضي الى فصيل عرضه ستون ذراعاً وقيل مائة ذراع بالسوداء ، أي زهاء خمسين متراً ، فمن يمين الداخل من باب خراسان فصيل باب الشام وعن يساره فصيل باب البصرة ، وهذا الباب الشاهق الثاني هو باب السور الكبير ولذلك يسمى باب المدينة ، مع ان الباب الأول هو باب الفصيل ، فيدخل الداخل من الباب المذكور في دهليز أزج آخر معقود بالآجر والجص أيضاً طوله عشرون ذراعاً وعرضه اثنتا عشرة ذراعاً ويؤدي الى رحبة مربعة عرضها كطولها عشرون ذراعاً في مثلها ، فعلى يمين الماشي فيها طريق يؤدي الى باب الشام وعلى يساره طريق يؤدي الى باب البصرة في فصيل ثان يدور في داخل المدينة كدورة الفصيل الأول ، عرضه خمس وعشرون ذراعاً ، وفي هذا الفصيل تكون أبواب سكك مدينة المنصور التي يسكنها سكان المدينة الذين أجاز لهم المنصور الاقامة فيها، وجعل المنصور الأسواق في طاقات المدينة من كل جانب ومنها سوق القصابين . ثم يدخل السائر من باب ساج كبير فردين الى طاقات عدتها ثلاثة وخمسون طاقاً وعرض الواحد منها خمس عشرة ذراعاً وطولها مائتا ذراع ، أي زهاء مائة متر ، ثم يخرج من الطاقات الى رحبة مربعة مساحتها عشرون ذراعاً في عشرين ذراعاً فمن يمينه طريق يفضي الى فصيل ثالث ويؤدي الى رحبة مماثلة لها يسلك اليها من باب الشام، ورحبة باب الشام فيها طريق يؤدي الى رحبة ثالثة يسار اليها من باب الكوفة ومنها الى نظيرتها الرابعة في طريق باب البصرة ، وفي الفصيل الثالث تشرع أبواب لعدة سكك . واذا خرج السائر من الرحبة نحو الجنوب دخل في طاقات صغيرة ثم دهليز وسور ثالث يخرج منه الى رحبة دائرة حول قصر المنصور

المعروف بباب الذهب ومسجد المنصور الذي عرف بجامع المنصور .

وهذه الفصلان والأبواب والدهاليز والرحبات التي ذكرناها لطريق باب خراسان من أوله الى قصر المنصور لها نظائر في طرق أبواب المدينة الثلاثة الأخرى ، باب الشام وباب الكوفة وباب البصرة . وكانت طرق المدينة ضيقة وفي سنة ١٥٧هـ (٧٧٣م) وسع المنصور الطرق وجعلها على أربعين ذراعاً وأمر بهدم ما زاد من الدور على ذلك المقدار .

ومما قدمنا من وصف الاستحكامات التحصينية لمدينة المنصور يظهر للقارىء أنها كانت من أمنع الحصون العظيمة في الشرق بالقرون الوسطى وأعجبها عمارة وهندسة وفخامة وضخامة . (أنظر صورة مدينة المنصور المدورة) .



قصر المنصور (قصر الذهب) وجامعه :

وبنى المنصور في وسط مدينته في الرحبة الوسطى قصراً بالآجر سماه « قصر الذهب » وسمى بابه « باب الذهب » وأنشأ بلصقه مسجداً واسعاً . وكانت مساحة القصر أربعمائة ذراع في أربعمائة ومساحة المسجد مائتين فى مائتين، وكان في صدر القصر إيوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وفى صدر الايوان مجلس مساحته عشرون ذراعاً في عشرين وارتفاع الايوان عشرون ذراعاً وعلى سطح الايوان مجلس مثله وفوق المجلس القبة الخضراء، وارتفاع الايوان الى أول عقد القبة عشرون ذراعاً، وارتفاع المجلس والقبة الخضراء ستون ذراعاً، قال الخطيب البغدادي: «فصار السمك من الأرض الى رأس القبة الخضراء ثمانين ذراعاً ، وكان على رأس القبة تمثال فرس عليه فارس في يده رمح واتخذ المنصور في قصره ديواناً لنفسه».

أما المسجد فقد أنشأه المنصور من اللبن والطين كما ذكر الخطيب ، وجعل لأروقة المسجد أساطين من الخشب كانت كل اسطوانة منها قطعتين معقبتين بالعقب والغراء وضبات الحديد إلا خمس اسطوانات أو ستاً كانت عند منارة الجامع فقد كانت تلك الاسطوانات ملفقة من خشب الأساطين وبنى لنفسه مقصورة فيه ليصلي فيها ويحتمي بها. وقد نقض هارون الرشيد في خلافته المسجد سنة ١٩٢هـ (٨٠٧م) وأعاد بناءه بالآجر والجص وكتب عليه اسمه مع ذكر الآمر بالبناء واسم البناء واسم النجار، وكان ذلك ظاهراً فى القرن الخامس للهجرة على جدار المسجد من الخارج مما يلي باب خراسان .

وفي سنة ٢٦٠هـ على عهد الخليفة المعتمد على الله أضيف ديوان المنصور المعروف بدار القطان من قصره الى المسجد لتوسيعه، ثم زاد بدر مولى المعتضد في الجامع من قصر المنصور أيضاً المسقطات التي نسبت اليه فدعيت بالبدرية. ثم أضاف المعتضد بالله سنة ٢٨٠هـ من القصر بمقدار المسجد الأول أو نحوه بعد أن بناه على هيأة المسجد وفتح بينهما في الجدار سبعة عشر طاقاً، منها الى الصحن ثلاثة عشر طاقاً والى الأروقة أربعة طاقات وحول المنبر والمحراب والمقصورة الى المسجد الجديد ، وذلك لأن المسجد كان يضيق بالمصلين فى صلاة الجمعة . وكان يوم الجمعة إذ ذاك وما بعد ذاك كيوم العيد في غير بغداد في كثرة المصلين واجتماع الناس من كل حدب وصوب. (أنظر مخطط الجامع ومراحل تطور بنائه) .

ولم يكن في الرحبة الوسطى التي فيها قصر المنصور ومسجده بناء ولا دار ولا مسكن لأحد إلا داراً من جهة باب الشام وسقيفة كبيرة ممتدة على أعمدة مبنية بالآجر والجص ، فكان صاحب الشرطة يجلس فى الدار وصاحب الحرس يقيم في السقيفة ، وكان حول الرحبة منازل على خط دائر وهي منازل أولاد المنصور الأصاغر ومنازل القريبين من خدمته وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج ، أي التجهيزات ، وديوان الاحشام ، أي الأتباع ، وديوان النفقات وديوان الصدقات ، أي الزكاة .

وقسم المنصور مدينته على شوارع محدودة أو دروب سماها « السكك » يسكنها الذين اختارهم المنصور ومنهم موظفوه ومواليه كسكة الشرط وسكة سجنه المعروف بالمطبق ، وهو السجن الأعظم الذي أسسه المنصور وأحكم سوره ، وكان للسكك أبواب وثيقة من طرفيها ، واحتفر في المدينة نفقاً يمتد تحت الأرض الى مسافة فرسخين خارج المدينة أعده للهرب إن حاصره عدوه ودخل عليه في مدينته الحصينة .

نظافة مدينة المنصور :

وأمر المنصور أن تكنس رحاب المدينة فى كل يوم ووكل ذلك الى الفراشين فكانوا يكنسونها ويحملون التراب الى خارج المدينة ، وأمر بمنع الدواب من المرور في الرحاب لئلا تروث في أثناء سيرها فتوسخ الرحاب وما تجتازه من الأبواب ، ولم يستثن من ركوب الدواب في المرور بالرحاب إلا المنصور نفسه وعمه داود بن علي لأنه كان مصاباً بالنقرس فكان يسار به في محفة على دابتين وإلا ابنه محمد المهدي لأنه ولي العهد .

إرواء مدينة المنصور:

لما بنى المنصور مدينته لم يفكر في سحب المياه من جداول الري لقربها من دجلة فكانت المدينة ترتوى بماء الروايا وهي جلود تملأ ماءاً وكانت تنقل الى المدينة على بغال ، ولما شعر بصعوبة نقل الماء في الروايا ورأى ما تحدثه البغال من الأوساخ أمر رجلين من العالمين بمد القني وهما « شميس » و« خلاد » بان يمدا قناتين من دجلة الى داخل المدينة ،وأمر أيضاً بمد قناة من نهر دجيل وقناة من نهر كرخايا وجرهما الى المدينة في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها وكانت كل قناة منها تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب فضلاً عن الأرباض خارج المدينة وتجري صيفاً وشتاءاً لا ينقطع ماؤها في وقت من الأوقات لاحكام هندستها . ولزيادة الارواء حفرت آبار للشرب تستمد ماءها من القنوات المذكورة . وقد ذكرنا سابقاً أن خندق المدينة كان يستمد ماءه من قناة مشتقة من نهر كرخايا ، فكان من السهولة بمكان أخذ فرع من تلك القناة وتوجيهها نحو داخل المدينة ، وقد أمر المنصور أيضاً بغرس الأشجار في القطيعة العباسية ، وهي موضع بين يدي قصر المنصور من جهة باب البصرة ، خارج المدينة . فكان الجالس في مجلس باب البصرة المقام فوق باب السور على الصفة المقدم ذكرها من قبل يطل على فرعي نهر الصراة وبينهما العباسية الزاهرة بساتينها ومزارعها البهيجة .

موقع مدينة المنصور من بغداد الحالية:

اختلف المؤرخون الخططيون في تعيين موقع مدينة المنصور من بغداد الحالية ، فقد زالت آثار المدينة منذ قرون عديدة واندثرت معالمها منذ عصور طويلة ولم يبق من مبانيها وأسوارها وحوائط فصلانها وخندقها ومسناتها وأبوابها الداخلة أوأبوابها الخارجة أي أثر كائناً ما كان ، وحسبك من خرابها أن جامعها ، وهو معبد مقدس ، لم يبق منه آجرة واحدة ولا حرف واحد مما عليه من الكتابات ، فهو مجهول الموقع كسائر منشآت المدينة المقدم ذكرها ، ولذلك كثر خطأ المعنيين لأراضيها بالنسبة الى الأرضين الحالية ، وأقدم الواهمين في التعيين هو الاستاذ المؤرخ الخططي كي لي سترانج في خرائطه التي رسمها للجانب الغربي من بغداد ، فقد تصور موضعها أسفل مما كان فيه على الحقيقة ، حتى ليظن الناظر الى سورها الجنوبي أنه قد قارب محلة الجعيفر الحالية ، التي هي « الرملة » في العصور العباسية ، مع أن بينها وبين مدينة المنصور القسم الأسفل من الكرخ أولاً ومحلة باب البصرة الكبيرة ثانية ، وقد قلد أكثر الباحثين في خطط بغداد الاستاذ لي سترانج في تعيينه هذا فانزلوها في خرائطهم عن موضعها مئات امتار كما فعل هو .

وكان على الاستاذ لي سترانج ان يعلم أولاً أن مدينة المنصور من الغرب كانت تقابل محلة الرصافة من الشرق وأن الرصافة كانت مجاورة لمحلة الامام أبي حنيفة التي انشئت حول تربته ومقبرته ، كما يفهم من معجم البلدان لياقوت ، فبتعيين الرصافة كان ينبغي ان تعين مدينة السلام ، نعني مدينة المنصور ، وعلى ذلك تكون الرصافة في محلة هيبة خاتون وما حولها من شاطىء دجلة ، فاذا مددنا خطاً مستقيماً الى الغرب عابراً نهر دجلة فانه يمر في وسط مدينة المنصور من الجانب الغربي ، منه يظهر أن المدينة كانت قريبة من مقابر قريش ، أي الكاظمية الحالية ، وأن أكثر مواضعها اصبحت بساتين ومزارع ، منها بستان عبد الحسين جلبي ، ثم جرى عليها تغيير مستدام بسبب تقدم العمران وتكرار الاغراق من فيضان الفرات ودجلة .

هذا ولم يحاول من وكلت اليهم شؤون الآثار بالعراق ان يسبروا الأرض بالجانب الغربي لعلهم يجدوا أثراً للخندق أو المسناة أوْ للسور أو لاحدى الدور ، فيمكن تحديد موضع بغداد تحديداً يزيل هذه البلبلة ويبطل الآراء البعيدة عن الصواب ، وذلك مما يؤسف عليه أشد الأسف ، وقد كان الأستاذ هرزفلد أقرب المعينين لموقع مدينة السلام من الصواب، وقد اجتهدنا أن نضعها في خارطتنا في الموضع الذي رأيناه أقرب الى التحديد الصحيح ، ورفعنا موضعها عما كان في

خرائطنا السابقة ، لأن مجرى الخر الحالي الذي هو في أعلاه بقية مجرى نهر الصراة وموصله بنهر عيسى كان في خرائطنا الأولى يدخل مدينة المنصور، وذلك محال لأنه يوازي سورها على بعد من الجنوب والشرق، ولأن المنصور كما جاء في الأخبار رأى صياداً قد اصطاد منه سمكة وهو ينظر اليه من فوق أحد الأبواب — نعني أبواب مدينته (انظر خارطة بغداد في أول أدوارها العباسية بالنسبة لمعالم بغداد الحالية — بغداد قديماً وحديثاً) .

إنشاء الرصافة في الجانب الشرقي من بغداد :

كان المنصور قد عزم أن ينشيء للمهدي محلة كبيرة في الجانب الغربي من بغداد بشرقي مدينته المدورة وقدر ذلك وعزم عليه ، وكان المهدي بعد قدومه بغداد يقيم في قصر يشرف على دجلة ولم يكن فخم البناء ، ثم عدل المنصور عن هذه الفكرة فقرر جعل المحلة في الجانب الشرقي من بغداد ليسيطر على الجند بجعلهم قسمين شرقياً وغربياً .

لم يذكر المؤرخون عن المنصور السبب في تسميته القسم الشرقي من بغداد مما انشأه هو باسم « الرصافة » وهذا الوزن (فعاله) باللغة العربية يدل على « البقية » من الشيء الكثير ، وهي إما من رصف الحجارة وإما بمعنى المنبت والمغرس. ونحن نحسب أن المنصور سمى هذا القسم من المدينة بهذا الاسم تقليداً لأخيه السفاح فانه بنى بالانبار بناءاً سماه « الرصافة » وعرف باسم (رصافة أبي العباس) . وأبو العباس السفاح قلد بهذه التسمية هشام بن عبد الملك الخليفة الأموي فانه أنشأ « رصافة الشام » في غرب الفرات وغربي الرقة بينها وبين الفرات زهاء عشرين كيلومتراً .

والسبب في إنشاء الرصافة قرب قبر الامام أبي حنيفة المتوفي سنة ١٥٠هـ أن المهدي بن المنصور قدم من المحمدية بالري على والده ببغداد في شوال سنة ١٥١هـ ، (تشرين الأول سنة ٧٦٨م) وكان معه جيش ووفدت عليه وفود فأمره بان يعسكر في الجانب الشرقي ويبني له ولأصحابه دوراً وينشيء مرافق أخرى وقيل إن المنصور هو الذي أنشأ له ذلك ، فسكن الرصافة قبل أن تسمى بهذا الاسم ، وبنى له سوراً وحفر خندقاً واتخذ ميداناً وغرس بستاناً وأجرى الى الرصافة الماء من نهر يستمد ماءه من جدول النهروان الآخذ من دجلة . وسمي هذا القسم الجديد من البناء أيضاً « عسكر المهدي » ، إلا ان اسم « الرصافة » كثر في الاستعمال فترك الناس الاسم الآخر .

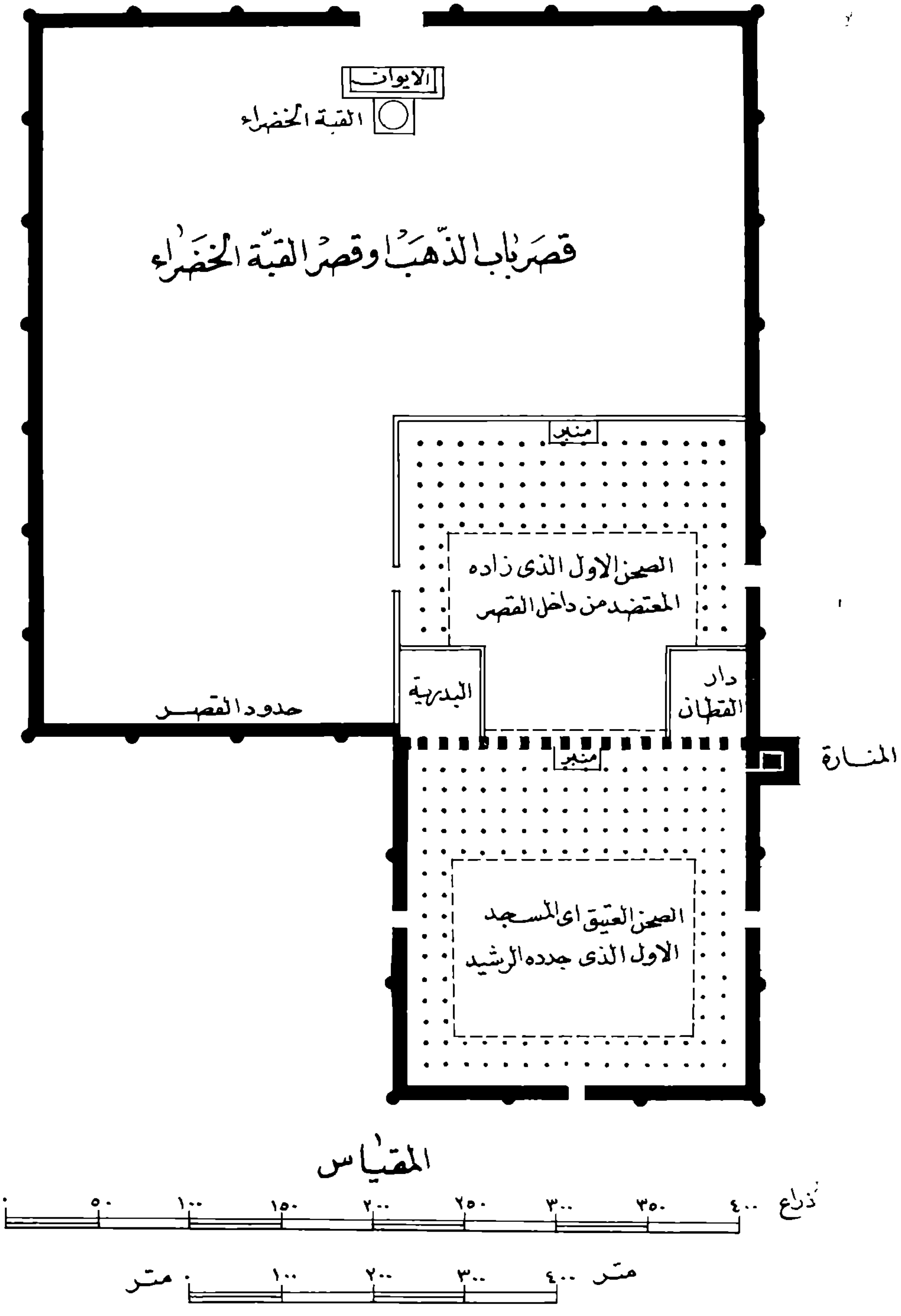
وأول ما اختط المهدي من أبنيته « المسجد الجامع » الذي عرف بعد ذلك بجامع الرصافة وجامع المهدي وجعله أكبر من جامع أبيه بمدينة السلام وأحسن رونقاً ، والى جانبه بنى قصره الذي عرف بعد ذلك بقصر الرصافة وقصر المهدي وكمل البناء سنة ١٥٤هـ وقيل سنة ١٥٩هـ . وكانت أكثر الأبنية من الرهوص وهي الأطيان التي يبنى بها يجعل بعضها على بعض كما هو معروف اليوم إلا الجامع والقصر فانهما بنيا بالآجر . وأقطع المنصور أخوته وقواد جيشه في الجانب الشرقي حول الرصافة بعد إقطاعه إياهم من الجانب الغربي وقسمت القطائع هنا كما قسمت هناك ، وتنافس الناس في سكنى الرصافة وما حولها لمحبتهم للمهدي ولتوسعته عليهم بالأموال والعطايا ولأن الجانب الشرقي كان أوسع الجانبين أرضاً ، وصارت الرصافة وحدها بقدر مدينة المنصور ، ولأن من المقطعين من جعلوا قطائعهم بالجانب الغربي بساتين وأسواقاً ومستغلات وغير ذلك من المرافق ، وكانت بين القطائع منازل الجند وسائر الناس من التناء « الملاكين » والتجار ، وهي أكثر من سبع وثلاثين قطيعة . وكان في الجانب الشرقي حسب قول الخطيب البغدادي أربعة آلاف درب وسكة وخمسة عشر الف مسجد وخمسة آلاف حمام ، والظاهر أن طريقة الاحصاء التي انتهجوها كانت غير محكمة وأخذ فيها جانب الافتخار والمبالغة . ومد المنصور جسراً من الزوارق بين مدينته في الجانب الغربي والرصافة في الجانب الشرقي وجسراً آخر أسفله للذين يعبرون من الجانب الغربي الى الجانب الشرقي .

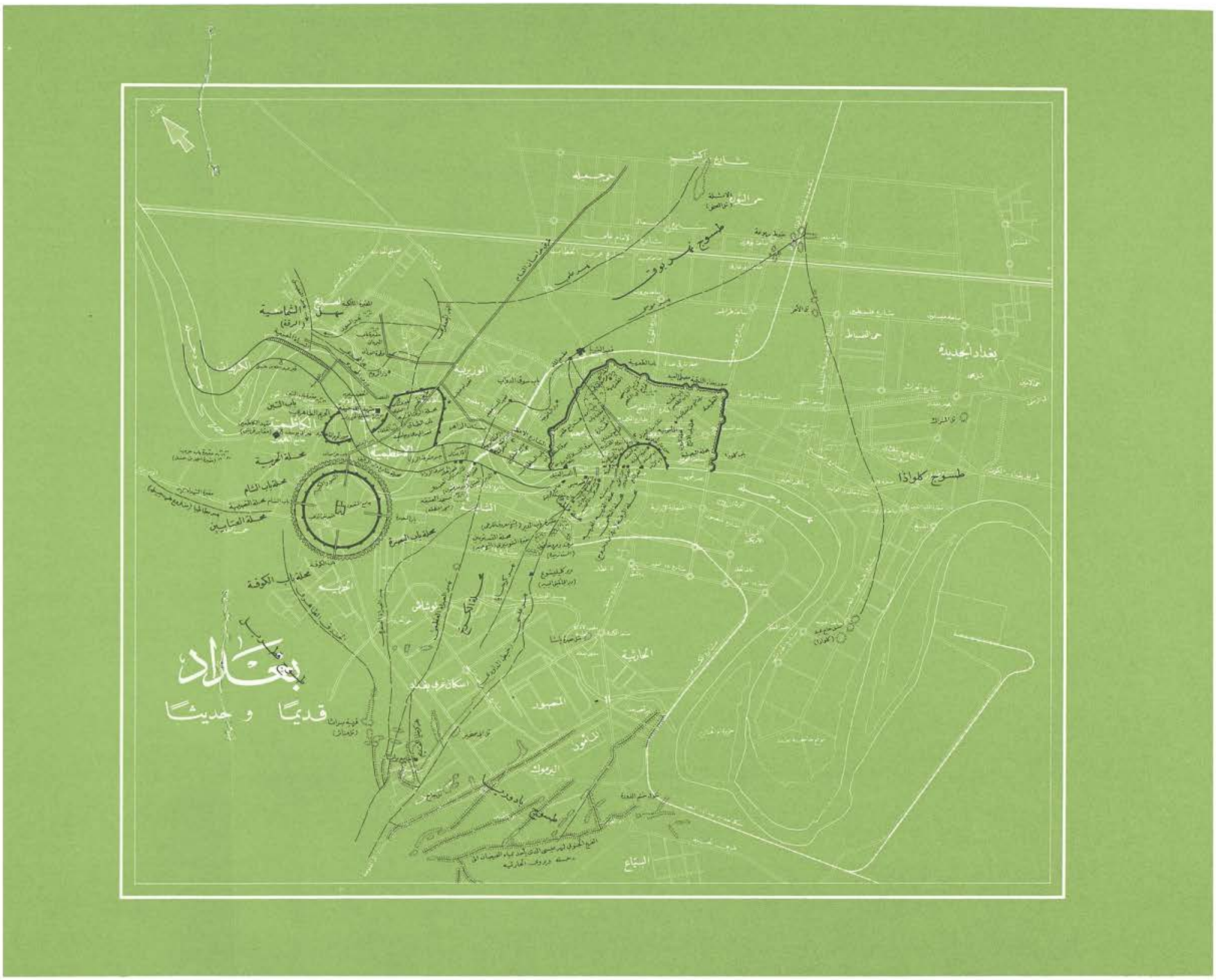
عمارة الكرخ في الجانب الغربي :

الكرخ بالفارسية معناه الدار والقصر ، وقال ياقوت الحموي : « ما أظن الكرخ عربية ، إنما هي نبطية » ، وأكثر

مخطط لجامع المنصور ومراحل تطور بنائه

تحقيق للدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة




بغداد
قديمًا و حديثًا
بغداد الجديدة
الكاظمية
الأعظمية
الوزيرية
المنصور
اليرموك
البياع

الكلمات النبطية بالعراق آرامية الأصل ، وفي العراق عدة مواضع عرفت باسم « الكرخ » وهي مضافة الى أسماء آرامية مثل كرخ باجدا وكرخ سامراء أو مضافة الى غيرها مثل « كرخ ميسان » ، كما أن في أسماء انهار الجانب الغربي « كرخايا » وهو آرامي كذلك ، ومنها « كرخيني » (كركوك) فيجوز أن الفرس أخذوه من الآراميين .

والكرخ قرية قديمة كانت في بعض مواضع كرخ العباسيين وكان يمر بالقرب منها نهر الصراة ونهر الرفيل الذي عرف بعد انشاء مدينة المنصور بنهر عيسى بن علي العباسي ، وفي سنة ١٥٧هـ (٧٧٣م) نقل المنصور أسواق مدينته الى مواضع في خارجها لأن المدينة ضاقت بالتجار والباعة ولأن دخاخينهم كانت ترتفع فتسود حيطان المدينة ويتأذى المنصور بالدخان ، فعزم على إخراج السوق من المدينة وأمر إبراهيم بن حبيش الكوفي وخراش بن المسيب اليماني بذلك وأوعز اليهما أن يبنيا ما بين الصراة ونهر عيسى سوقاً وأن يجعلاها صفوفاً ويرتبا كل صف في موضعه وقال : « إجعلا سوق القصابين في آخر الأسواق فانهم سفهاء وفي أيديهم الحديد القاطع » ، وأمر أن يبنى لهم مسجد يجمعون فيه يوم الجمعة ولا يدخلوا المدينة للصلاة في جامعها ، وقلد المنصور ذلك الوضاح بن شبا فبنى القصر الذي يقال له قصر الوضاح والمسجد فيه ، ووضع المنصور على هؤلاء غلة من الضريبة على قدر الصناعة ، ولما كثر الناس ضاقت عليهم الصفوف فقالوا لابراهيم بن حبيش وخراش بن المسيب : « قد ضاقت علينا هذه الصفوف ونحن نتسع ونبني لأنفسنا أسواقاً من أموالنا ونؤدي عنها الاجارة » ، فأجيبوا الى ذلك فاتسعوا في البناء والأسواق ، وذكر الخطيب البغدادي أن الذي بنى سوق الكرخ هو الربيع مولى المنصور وانه بناه من مال المنصور ، وبنيت أيضاً أسواق في الشرقية وباب الشعير والمحول من أرباض المدينة ، إلا ان الكرخ نمى بسرعة بالسكان والتجار فامتدت سوقه العظمى من قصر وضاح صاحب خزانة السلاح الى ما يقابل سوق الثلاثاء في الجانب الشرقي طولاً بمقدار فرسخين ، أي زهاء عشرة كيلومترات ، واستمر نقل الأسواق من مدينة المنصور الى الخارج الى أيام المهدي فان « سوق درب البطيخ » كانت في درب من دروب المدينة يعرف بدرب الأساكفة ودرب يعرف بدرب الزيت ودرب يعرف بدرب العاج فنقلت الى داخل الكرخ في أيام خلافة المهدي .

واتصلت عمارة الكرخ وأسواقه بقرية « سونايا » الآرامية التي سميت بالعتيقة لتقدمها عصراً على مدينة المنصور وعرفت أيضاً بمشهدها المعروف اليوم بمشهد المنطقة بين الكاظمية وبغداد وقد تقدمت الاشارة اليها ، واتصلت من الجنوب بموضع الديارات النصرانية الغربية كـ « دير كليليشوع » و « الدير العتيق » وهو الدير المبني على قرن نهر الصراة في مصبه الى دجلة ويعرف في تاريخ النصرانية بـ « دير مارفثيون » ، واتصل الكرخ من الجنوب بقرية « قطفتا » من القرى الآرامية العتيقة وكانت في محلة المشاهدة الحالية كما أشرنا اليه سابقاً وهي الأرض التي دفن فيها الشيخ معروف الكرخي ، ومقبرته عرفت بمقبرة الدير أي « دير كليليشوع » المقدم ذكره .

قصر الخلد :

ذكر بعض المؤرخين أن المنصور بعد إتمام مدينته وتحويله الأسواق منها وتوسيعه شوارعها ابتنى في سنة ١٥٧هـ قصراً على شاطىء دجلة فوق مصب الصراة بقليل ووراء باب خراسان، واختار هذا الاسم تشبيهاً له بجنة الخلد لما يحويه من كل منظر رائق وغرض غريب وسماه به تفاؤلاً بخلود ملكه وبقاء الخلافة في بنيه ، ولم تذكر التواريخ ما كان في الخلد من البنيان ، وقد جرت العادة أن لا يخلو قصر من القصور ولا دار من الدور الفخمة من إيوان ، وقد بقيت هذه العادة الانشائية ببغداد وأهل السواد الى العصور الأخيرة وزالت قبل ثلاثين سنة من تأليف هذا الكتاب .

وكان بناء الخلد قد تولاه الربيع بن يونس حاجب المنصور وأبان بن صدقة واشتهر من أخباره حفلة عرس الأمير هارون بن المهدي قبل أن يتولى الخلافة وهو الرشيد ، لما تزوج زبيدة بنت جعفر استعد له والده المهدي ما لم يستعد لأحد من العباسيين قبله من الآلات والآنية والفرش والمتاع والقماش والطيب والجوهر والخدم والوصائف ، وأعد لزبيدة درع من اللؤلؤ ، وهي شبه القميص ، تفوق حد الوصف ، وحشر الناس من الآفاق وفرق من الأموال في ذلك

العرس ما لم يتصور أن بيوت الأموال تخرجه وكانت أواني الذهب تملأ دراهم وأواني الفضة تملأ دنانير ويدفع ذلك لوجوه الناس الى غير ذلك من نوافج المسك وقطع العنبر وخلع الوشي. وكان ذلك العرس في المحرم من سنة ١٦٥هـ (٧٨١م)، وهذه الوليمة إحدى ولائم الاسلام الثلاث الكبرى، وهي أولاهن والثانية وليمة المأمون في زواجه بوران بنت الحسن بن سهل والثالثة وليمة المتوكل في طهور ابنه أبي عبد الله الزبير قبل خلافته وهو المعتز بالله وكانت في قصر المتوكل «بركوار» بقادسية سامراء.

قصر عيسى:

ومن القصور الفخمة ذوات المرافق الكثيرة التي بنيت في عهد أبي جعفر المنصور «قصر عيسى» وهو الأمير عيسى بن علي بن عبدالله بن العباس عم المنصور، وهو أول قصر بناه الهاشميون العباسيون ببغداد وقد أنشأه عيسى عند مصب نهر الرفيل في دجلة بالجانب الغربي من أرض بغداد، وذلك أن المنصور أقطعه هذه القطيعة المطلة على دجلة فبنى فيها وغرس وأنشأ ما شاء، وكان في موضع قصره قصر ساساني أنشأه سابور الثاني المعروف بذي الأكتاف في القرن الرابع للميلاد، وجاءت أخباره في حوادث أول غزو العرب المسلمين للعراق بقيادة خالد بن الوليد سنة ٢٣هـ (٦٣٤م)، قال البلاذري في كتابه «فتوح البلدان»: «عبر المسلمون جسراً كان معقوداً عند قصر سابور الذي يعرف اليوم بقصر عيسى بن علي». قال مؤلف مراصد الاطلاع: «نهر الرفيل اسم لأعلى النهر الكبير المعروف بنهر عيسى القديم، وكان يرمي فاضله الى الصراة فاستخرج عيسى بن علي هذا البز الذي يرمي الى دجلة عند قصره ليكون جارياً عنده فسمي بنهرعيسى لذلك». وكانت ولادة الأمير عيسى سنة ٨٣هـ وتوفي سنة ١٦٤هـ ودفن في مقابر قريش «الكاظمية الحالية».

وقد ذكر في التاريخ أن المنصور زار عمه عيسى بن علي في قصره هذا ومعه أربعة آلاف رجل فتغدى عنده هو وجميع خاصته ودفع الى كل جندي زنبيل فيه خبز وربع جدي ودجاجة وفرخان وبيض ولحم بارد وحلاوى فانصرفوا كلهم مسمطين ذلك، فلما أراد المنصور أن ينصرف قال لعمه عيسى: «يا أبا العباس لي حاجة. قال عيسى: ما هي يا أمير المؤمنين فأمرك طاعة؟ قال: تهب لي هذا القصر. قال: ما بي بخل عليك به ولكني أكره أن يقول الناس إن أمير المؤمنين زار عمه فأخرجه من قصره وشرده وشرد عياله فان فيه من حرم أمير المؤمنين، يعني نساءاً ذوات قرابة منه، ومواليه أربعة آلاف نفس فان لم يكن بد من أخذه فليأمر لي أمير المؤمنين بفضاء يسعني ويسعهم أضرب فيه مضارب وخيماً أنقلهم إليها الى أن أبني لهم ما يواريهم» فكف المنصور عن طمعه ونهض وانصرف.

ولما كان نهر عيسى أو نهر الرفيل على الصحيح يصب عند القصر، وكان رباط البسطامي المنشأ بعد ذلك مطلاً على النهر وكان الرباط نفسه مقابلاً لمسجد قمرية المعروف حتى اليوم بجامع قمرية على شاطىء دجلة بالجانب الغربي علمنا أن قصر عيسى ومصب النهر كانا قرب جامع قمرية المذكور من محلة الشيخ بشار الحالية.

وقد تغير موضع القصر وقطيعة عيسى حتى ذكر ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) أن المسمى قصر عيسى هو في أيامه في وسط العمارة في الجانب الغربي وليس للقصر أثر إنما هناك محلة كبيرة ذات سوق تسمى قصر عيسى، وذكر الخطيب البغدادي أن قطيعة عيسى كانت تمتد من القصر نحو الشمال وتصل الى قرن الصراة أي مصب نهر الصراة في دجلة وكان في الشرق من باب خراسان من أبواب مدينة المنصور، وشاركه فيها عيسى بن جعفر وجعفر بن أبي جعفر من الأمراء العباسيين أيضاً، وكانت قطيعة جعفر بن أبي جعفر في الأعلى.

قصر القرار:

ولعل القرار أخذ من الآية ٣٩ من سورة غافر الكريمة «وإن الآخرة هي دار القرار» ولا وجاهة لما ذكره لسترانج من أن معناه المياه المستقرة أو البركة، فقد كان على مياه جارية نعني مياه دجلة. وقد ذكر الخطيب البغدادي

«القرار» في مقدمة تاريخه الخططية قال ناقلاً : «وأما شاطىء دجلة من قرن الصراة الى الجسر (الأعلى) الى باب خراسان فذلك الخلد، ثم ما بعده الى الجسر (الأسفل) فهو القرار نزله المنصور في آخر أيامه ثم أوطنه الأمين».

والظاهر أن قصر القرار في أيام المنصور لم يكن ذا بناء ضخم فان الخطيب نفسه قال في موضع آخر ناقلاً : «إن موضع السجن الجديد كان قد دخل في بناء زبيدة أم جعفر على عهد ابنها محمد الأمين وهو البناء الذي سمته القرار». وهذا يعني أن قصر القرار أو دار القرار قد اتخذ في بعض أرضها السجن الجديد وأن زبيدة هي التي أقامت البناء وسكنه الأمين كما جاء في الخبر الأول، ويسمى أحياناً «قصر زبيدة» كما جاء في تاريخ الطبري غير مرة، في حوادث حصار طاهر بن الحسين للأمين سنة ١٩٨هـ (٨١٣م) وغيرها، ففي الطبري أن إبراهيم بن المهدي كان نازلاً مع محمد الأمين في مدينة المنصور في قصره بباب الذهب لما حصره طاهر بن الحسين فخرج الأمين ذات ليلة من القصر يريد أن يتفرج من الضيق الذي هو فيه فصار الى قصر القرار في قرن نهر الصراة أسفل قصر الخلد في جوف الليل ثم أرسل الى إبراهيم فجاء اليه فقال له يا ابراهيم : أما ترى طيب هذه الليلة وحسن القمر وضوءه في الماء، فهل لك في الشرب؟ وشرب نبيذاً.

وإذ كانت عمارة القرار قد قامت على يد زبيدة على عهد ابنها الأمين علمنا أنه بني له فيه «مجلس لم تر العرب والعجم مثله قد صورت فيه كل التصاوير وذهب سقفه وحيطانه وأبوابه وعلقت على أبوابه ستور معصفرة مذهبة وفرش بمثل ذلك من الفرش، فلما فرغ من جميع أسبابه وعرف الأمين ذلك اختار له يوماً، وتقدم بأن يؤمر الندماء والشعراء بالحضور غدوة ذلك اليوم ليشربوا النبيذ فيه صباحاً، فلم يتخلف أحد منهم وكان فيمن حضروا أبو نواس فدخلوا المجلس فرأوا بناءاً لم يروا مثله قط : من إيوان مشرف فائح فاسح، يسافر فيه البصر وقد بيض حتى صار لونه كلون البيضة ثم ذهب بالابريز المخالف بينه باللازورد وجعلت له أبواب عظام ومصاريع غلاظ تتلألأ فيها مسامير الذهب وقد دبيت رؤوس المسامير بالجواهر النفيسة، وفرش بفرش كأنها صبغ الدم ونقش بتصاوير الذهب وتماثيل العقبان، ولصد فيه العنبر الأشهب والكافور المصعد وعجين المسك فيه وصنوف الفاكهة والشمامات والتزايين، فدعوا له وأثنوا عليه وجلسوا في مقاعدهم على مراتبهم ومنزلة كل منهم. وبعد أن طعموا وشربوا مدت الستائر ومن ورائها المغنيات والمطربات وفي آخر النهار دعا بعشرة آلاف دينار موضوعة فى صواني فأمر بنثرها عليهم فنثرت وانتهبوها».

ولما لاحت الغلبة لطاهر بن الحسين سنة ١٩٧هـ (٨١٢م) عرضت على الأمين مبالغ مقدارها «مليونا درهم» ثمناً لأنقاض ما في القرار وما جاوره من المباني، فلم يوافق على ذلك، قال الطبري : «وكانت السقوف مذهبة فحرقها أصحاب طاهر كلها وقتلوا من العراة والنهابة بشراً كثيراً ... وفي ذلك قال بعض الشعراء :

أقول وقد دنوت من الفرار ... سقيت الغيث يا قصر القرار
رمتك يد الزمان بسهم عين ... فصرت ملوحاً بدخان نار
أبن لي عن جميعك أين حلوا ... وأين رمى بهم بعد المزار؟!

قصر جعفر بن يحيى البرمكي «الجعفري» :

ومن القصور التي اشتهرت في دور بغداد الأول قصر جعفر بن يحيى البرمكي وزير هارون الرشيد فقد ذكر تاج الدين علي بن أنجب المعروف بابن الساعي المؤرخ البغدادي الكبير في كتابه «نساء الخلفاء» أن جعفر بن يحيى البرمكي كان كثير المحبة للقيان، مستهتراً باللذات مقبلاً على اللهو والقصف، واشتهر ذلك عنه، وطعن الناس عليه بسببه، فخلا به والده يحيى بن خالد البرمكي ونصح له باتخاذ قصر بالجانب الشرقي يجمع فيه ندماءه وقيانه، ويبعد عن أعين العامة وتخفى أموره على الخاصة، فاتخذ جعفر قصراً في الجانب المذكور واسع الفناء والفضاء معتدل الهواء طيب الثرى ما بين رياض زاهرة ومياه جارية، بعيداً عن أصوات الناس ودخاخينهم والروائح المنتنة. وقد أبان التحقيق الخططي

الحديث أن القصر كان على شاطىء دجلة فى أرض شارع المستنصر الحالي قرب منتصفه وجعل للقصر بستاناً ذا رياض مريعة مخصبة غرس فيه من أنواع الشجر ما يثمر بكل ثمر بديع ، وبالغ في الانفاق عليه بعد جمع الصناع وأهل الحرف ، ولما قارب الفراغ من بنائه انحدر اليه ومعه أصحابه ومنهم مؤنس بن عمران ، فلم يستحسنه ووجده مثل القصور الأخرى ، ونصح له بأن يجعله باسم المأمون ويأخذ النفقات من هارون الرشيد. وكان في هذا القصر ثلاثمائة وستين مرفقاً ما بين مجلس ومستشرف (بالكون) وحجرة وموضع خيش للتبرد بالصيف وخزانة ، وقد جلب لكل مقصورة فرش على مقدار بنائها ، فمثل جعفر بين يدي الرشيد وذكر له أنه بنى القصر للمأمون فتسكنه معه حواضنه ودایاته وجواريه وقهرمانته ، وأنه يحتاج الى اكمال أثاثه الى خزائن الخليفة ، فأمر الخليفة باجابته الى طلبه وترك القصر له ولم يزل جعفر يتردد إليه في كل أوقات أفراحه الى أيام فتك الرشيد بالبرامكة ، وكان إذ ذاك يسمى « القصر الجعفري » ، ولما قتل جعفر صار القصر الى المأمون ، فوجده من أكمل القصور وأبهاها لاطلاله على دجلة وجماله في النظر واشتماله على الرياض وأنواع الشجر وأفانين الزهر ، فطابت له سكناه واتخذه موضع صيد وقنص ومنتزهاً ، واقتطع من البرية المتصلة به من الشرق أرضاً جعلها ميداناً للركض وللعب بالكرة والصولجان وحلبة السباق وأنشأ حيراً ، أي حديقة حيوان ، لجمع الوحوش فيها مما يصطادها ، وفتح للقصر باباً شرقياً وبنى عليه منظرة تشرف على مسافات واسعة وخصوصاً طريق خراسان ، وأجرى الى ذلك نهراً ساقه من نهر المعلى وابتنى عليه وقريباً منه منازل برسم خاصته وأصحابه وحاشيته فسميت المأمونية، وهي المحلة الكبيرة التي بقيت ببغداد معمورة الى هذه الأيام وهي محلة عقد القشل ومحلة الهيتاويين ومحلة صبايغ الآل ، لأن اسمها قد زال منذ عدة عصور .

وكان المأمون مع والده هارون بخراسان حين توفي والده سنة ١٩٣هـ (٨٠٨م) فبويع أخوه الأمين ببغداد وبويع المأمون بخراسان وجرت الفتن المشهورة في التاريخ حتى قتل الأمين سنة ١٩٨هـ ، ولما وصل خبرقتله الى أخيه المأمون هناك أرسل الحسن بن سهل نائباً عنه بالعراق لتدبير الأمور ولتدوير الشؤون فنزل الحسن القصر المأموني ، ثم تزوج المأمون بوران بنت الحسن بن سهل ، وأجل حفلة العرس ثم قدم بغدادسنة ٢٠٤هـ (٨١٩م) وسكن قصر الخلد بالجانب الغربي ، وبقي الحسن بن سهل في القصر المأموني ، وبعد احتفال عرس المأمون بفم الصلح نقلت السيدة بوران الى بغداد فأنزلت في القصر المذكور وطلب الحسن بن سهل القصر من المأمون فكتبه باسمه فوسعه الحسن بما أضافه إليه مما حوله وغلب عليه اسمه فسمي « القصر الحسني » ، ثم ابتاع هذا القصر الأمير الموفق بالله بن المتوكل ونزله وصار الى ابنه الخليفة المعتضد بالله فهدمه وأعاد إنشاءه وزاد فيه ومده الى حد « نهر بين » ثم نزله المكتفي . هذا ما ذكره ابن الساعي ، وذكر الخطيب البغدادي بالرواية عن هلال بن المحسن الصابي وغيره أن القصر صار بالوراثة الى السيدة بوران بنت الحسن بن سهل فاستنزلها عنه الخليفة المعتضد بالله فرممته وجصصته وبيضته وفرشته بأنفس الفرش المذهبة وأحسنها والنمارق المقصبة وعلقت على أبوابه أصنافاً من الستور المزخرفة وملأت خزائنه بكل ما يخدم به الخلفاء من الطرف ورتبت فيه من الخدم والجواري ما تدعو الحاجة إليه ثم سلمته إليه فاستحسنه المعتضد ثم استضاف اليه سنة ٢٨٨هـ (٩٠٠م) مما جاوره لتكبيره وتوسيعه واتخاذه مقراً للخلافة ، وبنى عليه سوراً وحصنه واتخذ حوله منازل كثيرة ودوراً واقتطع من البرية قطعة فجعلها ميداناً عوضاً من الميدان الأول الذي أدخله في العمارة وأنفق عليه مالاً عظيماً ، وأمر أن يبنى فيه مطامير وهي سجون من سراديب عميقة مظلمة ، وقد رسمها هو بنفسه للصناع فبنيت بناءاً على غاية ما يكون من الاحكام والضيق وجعلها محابس لأعداء الدولة والمجرمين .

وصار القصر بعد وفاة المعتضد بالله الى ابنه المكتفي بالله في سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م) فسكنه وأمر بهدم المطامير التي بناها والده وأمر أن يبنى مكانها مسجد جامع ، وكان الناس من أهل الجانب الشرقي قبل ذلك يصلون صلاة الجمعة فى بعض مرافق القصر ولا رسم للمسجد فيصلون ويخرجون ، وتم بناء المسجد الذي أمر ببنائه المكتفي وهو أصل المسجد الذي

عرف باسم « جامع القصر » و « جامع الخليفة » و « جامع الخلفاء » ، وقد دل التحقيق الخططي الحديث على أنه المسجد الذي بنيت فيه في أيام المغول الايلخانيين المنارة الفخمة القائمة حتى اليوم المعروفة بمنارة سوق الغزل وعرف هو عند العامة بجامع سوق الغزل .

قصر التاج :

وكان المعتضد قد جمع الرجال لحفر أسس قصر يبنيه على شاطىء دجلة في أرض القصر الحسني المذكور ، واتفق خروجه الى مدينة آمد سنة ٢٨٦هـ (٨٩٩م) فلما عاد رأى الدخان يرتفع الى أبنية دار الخلافة فكره أن يستمر على البناء، وبنى قصر الثريا الآتي ذكره وقصر الفردوس ، ثم مات وأخذ ابنه المكتفي بالله في تنفيذ الفكرة فأمر بنقض القصر الكامل في سامراء ونقض ما بقي من القصر الأبيض الذي انشأه كسرى أنو شروان في القرن السادس للميلاد ونقل آجرهما الى بغداد وأدخل في مواد بناء هذا القصر الجديد الذي سمي « قصر التاج » ونسب اليه الجامع المقدم ذكره فسمي « جامع القصر » كما ذكرناه آنفاً . وجعل لقصر التاج مسناة عظيمة طاعنة الى وسط نهر دجلة وضاربة في قرارها، وجعل وجهه مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشر أساطين خمس أذرع ، كذا قال ياقوت الحموي في معجم البلدان وهو وصف ناقص بعبارة قاصرة ، وبنى المكتفي أيضاً داراً ومرافق لها ومنها قبة على أساطين رخام عرفت بقبة الحمار لأنه كان يصعد اليها في مدرج حولها كمنارة جامع سامراء على حمار صغير الجرم وكانت عالية مثل نصف دائرة . وفي أيام الخليفة المقتفي لأمر الله في منتصف القرن السادس للهجرة وقعت صاعقة على دار الخلافة فى الدار التي أنشأها المقتفي وتأججت فيها النار وبقيت تتقد فيها تسعة أيام فاحترقت هي والقبة ، ولما أطفئت النار ظهرت الدار كالفحم ، ثم أعاد المقتفي بناء القبة على الصورة الأولى ولكن بالجص والآجر دون الأساطين الرخام وأهمل إتمامها حتى مات . وبقيت الدار كذلك الى سنة ٥٧٤هـ (١١٧٨م) فأمر الخليفة المستضيء بالله بنقضها وابراز المسناة التي بين يديها الى أن يحاذي بها مسناة قصر التاج ، وأدخلت انقاض قصر التاج وغيرها في إنشاه هذه المسناة . ولم يبق من التاج القديم الا اسمه في أواخر أيام الدولة العباسية وكان يطلق على الصحن الذي تجري فيه مبايعة الخلفاء على شاطىء دجلة من دار الخلافة المذكورة.

دار الخلافة في أيام المقتدر بالله سنة ٣٠٥هـ (٩١٧م) :

أثبت التحقيق الخططي الحديث أن دار الخلافة العباسية في عصورها الأخيرة كانت شبه نصف دائرة على دجلة بين شارع السموأل الحالي ومسجد السيد سلطان علي ومحلة المربعة في الطول وبين دجلة وشارع الجمهورية الحديث في العرض، وقد دخل فيها داخل سنة ٣٠٥هـ من أحد أبوابها الشرقية وهو باب العامة الأعظم فرأى في أول دخوله داراً تعرف بخان الخيل وهي دار أكثرها أروقة (كالريات) بأساطين من الرخام ورأى فيها صفين من الخيل من الجانب الأيمن خمسمائة فرس عليها خمسمائة سرج فيها ذهب وفضة بغير أغطية ومن الجانب الأيسر خمسمائة فرس عليها أغشية ديباج (جلال) بالبراقع الطوال ، وكل فرس في يدي رجل ببزة جميلة ، وكانت تلك الدار مجاورة لحير الوحوش وقد أخرجت من حيرها فرأى فيها أنواع الحيوانات وهي تسرح وتتقرب من المارين وتأكل ما يقدمونه إليها من طعام ، ثم خرج من هذه الدار الى دار فيها أربعة فيلة مزينة بالديباج والوشي ، وعلى كل فيل ثمانية رجال من أهل السند والزراقين بالنار ، ثم خرج منها الى دار فيها مائة سبع، خمسون على اليمين وخمسون على اليسار وكل منها في يد سباع، وقد جعل في رؤوسها وأعناقها الحديد ، ثم أفضى الى جوسق يعرف بالجوسق المحدث وهو دار بين بساتين في وسطها بركة رصاص قلعي طولها ثلاثون ذراعاً وعرضها عشرون فيها أربعة طيارات صغار (وهي نوع من السفن) وفي الطيارات مجالس (مقاعد) مزينة بالقماش الدبيقي المطرز وأغطيتها قماش دبيقي مذهب ، وحواليها نهر رصاص قلعي أحسن من الفضة المجلوة ، وحوالي هذه البركة بستان فيه ميادين مغروس فيها نخل عدته أربعمائة نخلة طول كل نخلة خمس أذرع وقد لبست

جميعها بخشب الساج المنقوش من الأرض الى حد رؤوسها وذلك التلبيس قائم بحلق من الشبه (البرنج) المذهب وجميع النخل حامل بأنواع البسر (الخلال الملون) وكان في جوانب البستان أترج حامل ودستنبويه مقفع وهو أترج زكي الرائحة وغير ذلك . ثم انتقل الى دار تعرف بدار الشجرة وفيها شجرة صناعية من الفضة وزنها خمسمائة ألف درهم في وسط بركة كبيرة مدورة فيها ماء صاف وللشجرة ثمانية عشر غصناً أكثرها من الفضة ومنها ما هو مذهب وأوراقها مختلفة الألوان لكل غصن منها شاخات كثيرة عليها طيور وعصافير من كل نوع مذهبة ومفضضة وهي تهدر وتصفر ، والأغصان تتمايل في أوقات وورقها يتحرك كما يتحرك ورق الشجر بالريح ، وفي جانب الدار على يمين البركة تماثيل خمسة عشر فارساً على تماثيل خمسة عشر فرساً وقد ألبسوا الديباج وغيره وجعل في أيديهم رماح قصار وهم يدورون على خط واحد خبباً وتقريباً فيرون كأن كل واحد منهم قاصد الى صاحبه . وفي الجانب الأيسر من البركة مثل ذلك ، ومن هذا الموضع انتقل الى قصر الفردوس فرأى في دهاليزه عشرة آلاف جوشن مذهبة معلقة وفيه من الآلات والفرش ما لا يحصى ، ثم خرج منه الى ممر طوله ثلاثمائة ذراع قد علق في جانبيه نحو من عشرة آلاف درقة وخوذة وبيضة ودرع وجعبة محلاة وقسي ، وقد وقف زهاء ألفي خادم (مملوك) من البيض والسود صفين يميناً وشمالاً ، وبعد أن يجتاز تلك المواضع ويتم في طوافه رؤية (٢٣) قصراً يفضي الى الصحن التسعيني ويرى فيه الغلمان الحجرية ، أي حراس داخل القصر وهم في سلاح كامل وبزة حسنة وهيأة رائعة وفي أيديهم الجروخ والطبرزينات والاعمدة والدبابيس ، ثم يرى الخليفة المقتدر جالساً في التاج مما يلي دجلة وعليه ثياب دبيقية مطرزة بالذهب وهو جالس على سرير من الآبنوس قد فرش بالقماش الدبيقي المطرز بالذهب وعلى رأسه قلنسوة طويلة ، وعلى يمنة السرير تسعة عقود مثل السبح معلقة وعلى يسرة تسعة أخرى من أفخر الجواهر وأعظمها قيمة ، يغلب ضوؤها على ضوء النهار ، أما الستور الديباج المذهبة بالطرز الجليلة المصورة بالجامات والفيلة والخيل والجمال والسباع ومناظر الطرد والستور الأخرى على اختلاف أنواعها فكانت ثمانية وثلاثين ألف ستر منها اثنا عشر ألفاً وخمسمائة ستر من الستور الديباج المذهبة ، وأما عدد البسط على اختلاف أشكالها في الممرات والصحون سوى ما في المقاصير والمجالس من البطريات والديبقيات اثنان وعشرون ألف قطعة . وأما الخدم الخصيان فكانت عدتهم أحد عشر ألف خادم من البيض الصقالبة والروم والأحباش وعدد الحجاب سبعمائة حاجب وعدد الغلمان السودان المقاتلين الملازمين لدار الخلافة أربعة آلاف غلام .

قصر الثريا :

لما كره المعتضد بالله الاستمرار على البناء في داخل دار الخلافة كما ذكرناه آنفاً ، ابتنى على مسافة نحو من ميلين الى الشرق من دار الخلافة قصراً سماه « الثريا » وكان بنياناً فخماً عالي الشرفات على نهر موسى من فروع نهر بين وابتنى تحت قصور دار الخلافة نفقاً جعله آزاجاً أي عقوداً طويلة تحت سطح الأرض وأوصله الى قصر الثريا فكانت جواريه وسراريه وحرمه يمشين فيه ، واتخذ قرب القصر حيراً للوحوش وبساتين ذات أشجار مثمرة وحدائق مزهرة ، وقد ذكرنا آنفاً ما يفيد أن المعتضد ابتنى الثريا بعد سنة ٢٨٦هـ وهذا قول ياقوت في معجم البلدان مع أن الطبري ذكر الثريا في أخبار سنة ٢٨٤هـ (٨٩٧م) ، فعلى هذا القول يكون قصر الثريا قد بني قبل ذلك التاريخ . وحدث عنه نجبة بن علي نديمه قال : « كان المعتضد يقول كثيراً ، لما بني الثريا : « أتعلم أن بناءاً من أبنية الخلفاء يشبه هذا البناء او ما يعادله في محل أو موقع ؟ أما تراني قاعداً على سريري ، يعرض علي وزيري ، ويصاد بين يدي صيد البر والبحر ، كأني في وسط المتصيد».
وذكر حمزة الاصبهاني في تاريخه أن فرسان المقتدر شغبوا عليه في شهر ربيع الأول من سنة ٣١٧هـ وظلوا يشغبون حتى صاروا الى القصر المعروف بالثريا فأحرقوا أكثره وانتهبوا ما فيه من الخزائن وأخربوا القبة والقصر المعروف بالاترجة

والكوكب وسلبوا ما كان فيه من الآلة والمتاع والوحش والطير . وقد ذكر المسعودي في « مروج الذهب » أن المعتضد أنفق على قصره هذا أربعمائة ألف دينار وكان طول القصر ثلاثة فراسخ (١٥ كيلومترا) .

قصر المعتصم بالله :

أنشأه المعتصم على نهر موسى بالجانب الشرقي من بغداد بالميدان وبنى فيه إيواناً منقوشاً بالفسيفساء ، قال الخطيب البغدادي : « وفي الجانب الشرقي نهر موسى يأخذ من نهر بين . . . ويمر نهر موسى أيضاً الى قصر المعتصم بالله فيحمل منه هناك نهر يمر الى سوق العطش . . . ويمر نهر موسى أيضاً ملاصقاً لقصر المعتصم الى أن يخرج الى شارع عمرو الرومي ثم يدخل بستان الزاهر فيسقيه ويصب في دجلة أسفل البستان » . وقد اتخذ المعتصم لقصره هذا بستاناً فيه أنواع من الرياحين والغروس فكان المعتصم يتمشى فيه للتنزه . وذكر غيره أنه كان للعباسة أخته وعمره ولما فرغ منه جلس فيه وجمع أهل بيته وأصحابه وأمر أن يلبس الناس المدعوون كلهم الديباج ، وجعل سريره في الايوان المنقوش بالفسيفساء وكان في صدر الايوان صورة عنقاء ، فجلس على سرير مرصع بأنواع الجواهر ، وعلى رأسه التاج الذي فيه الدرة اليتيمة وفي الايوان أسرة من الآبنوس عن يمينه وعن يساره من حد السرير الذي عليه المعتصم الى باب الايوان ، فكلما دخل رجل رتبه هو بنفسه في الموضع الذي يراه ، فما رأى الناس أحسن من ذلك اليوم . وقد اشتهر هذا القصر باحتفال عسكري عيدي أجراه المعتصم قبل انتقاله الى أرض سامراء وابتنائه فيها وذلك أنه أمر بمسح الطريق من باب قصره الى مصلى العيد ثم قسمه على قواد جيشه وأعطى كل واحد مصفة فلما كان قبل الفطر بيوم واحد حضر القواد وأصحابهم فى أجمل زي وأحسن هيئة فلزموا مصافهم وكان فيهم أخوه إبراهيم بن المهدي، ولما أصبح المعتصم أمر القواد الذين لم يرتبوا في المصاف أن يصيروا الى المصلى على تعبئة عينها لهم ولبس ثيابه وجلس على كرسي ينتظر مضي القواد، فلما انقضى أمرهم أمر الرجال بالمسير بين يديه فتقدم منهم سبعة آلاف صاحب قوس من الموالي كل ثلاثمائة منهم في زي مخالف لزي الباقين وأربعة آلاف من المغاربة وأمر شيعته أن يكونوا وراءه متسلحين بالأعمدة وعدتهم أربعة آلاف وهكذا سار الى المصلى وتمت أمور العيد .

وفي خبر الاحتفال الأول إشارة حضارية عمارية ظهرت في قوله « وجعل سريره المنقوش بالفسيفساء » ، وهذا يعني أولاً أن القصر كان في بنائه إيوان ، وثانياً أنه كان فيه إيوان أو اكثر غير الايوان المنقوش بالفسيفساء ولولا ذلك لقال المخبر « وجعل سريره في الايوان وكان منقوشاً بالفسيفساء » وهذا واضح جداً .

قصر السلام والسلامة :

أنشأ هذا القصر المهدي بن المنصور في محلة من محلات شرقي بغداد كانت تعرف بعيساباذ أي عمارة عيسى وهي منسوبة الى عيسى بن المهدي وكانت إقطاعاً له ، وقد ذكر الخطيب البغدادي في تأريخه أن المهدي بنى قصره الذي سماه قصر السلام فى عيساباذ سنة ١٦٤هـ (٧٨٠م) وذكر الطبري أنه بني سنة ١٦٥هـ ، وكان القصر على نهر المهدي وكان منزله هناك ومستقره فى عيساباذ ، وبلغت النفقة على القصر المذكور خمسين مليون درهم ، وذكر الطبري أن المهدي بنى بعيساباذ الكبرى قصراً من لبن الى أن أسس قصره الذي بناه بالآجر وسماه قصر السلامة وكان تأسيسه إياه يوم الأربعاء في آخر ذي القعدة من السنة المذكورة ، ثم ذكر أن المهدي تحول الى عيساباذ سنة ١٦٦هـ فنزلها وهي قصر السلامة ونزل الناس بها معه وضرب بها الدنانير والدراهم، ومما نقل من أقوال يعقوب بن داود وزير المهدي قوله: «بنى هذا الرجل — يعني الخليفة المهدي — متنزهاً أنفق عليه ٥٠ ألف ألف درهم من أموال المسلمين . » يعني قصر عيساباذ . قيل : ولما فرغ المهدي من إنشاء قصره بعيساباذ ركب في جماعة للنظر إليه فدخله مفاجأة وأخرج كل من هناك من الناس وبقي رجلان خفيا عن أبصار الأعوان فسأل أحدهما عن سبب مجيئه فقال . جئت لأنظر الى هذا البناء وأتمتع بالنظر

إليه وأكثر الدعاء لأمير المؤمنين بطول البقاء وتمام العمر ونماء العز والسلامة ، فأجازه بجائزة .

وفي قصر السلام يقول أبو العتاهية :

سقيت بالغيث يا قصر السلام فنعم محلة الملك الهمام
لقد نشر الآله عليك نوراً وحفك بالملائكة الكرام
سأشكر نعمة المهدي حتى تدور علي دائرة الحمام

والظاهر أن موسى الهادي سكن هذا القصر على قصر خلافته وفيه توفي .

قصر أم حبيب :

كان بالجانب الشرقي مشرفاً على الميدان ميدان سور الرصافة ، كان في إقطاع عباد بن الخصيب بأمر الرشيد ثم صار للفضل بن الربيع ثم صار لأم حبيب بنت الرشيد في أيام المأمون ثم صار لبنات الخلفاء الى أن صرن يسكن في قصر المهدي بالرصافة ، وقد ذكر الصابي هلال أن المعتضد كان ينفق على من في قصر أم حبيب بعد اخراج النساء منه من ولد الواثق بالله والمهتدي بالله والمستعين وسائر أولاد الخلفاء خمسمائة دينار في الشهر ، وتعادل قيمتها الشرائية اليوم أكثر من خمسة آلاف دينار .

وقصور بغداد التي بنيت في هذا الدور كثيرة نجتزي منها بذكر أشهرها وأكبرها وقد فعلنا .

دار الروم :

دار الروم محلة بالجانب الشرقي أنشئت حول دير الروم ، والسبب في هذه التسمية أن أسرى من الروم قدم بهم الى المهدي فأسكنوا داراً في شرقي باب الشماسية وشمالي الرصافة فسميت بهم وبنيت لهم بيعة هناك ، قال ياقوت : « ودير الروم هو بيعة كبيرة حسنة البناء محكمة الصنعة للسنطورية خاصة والجاثليق قلاية الى جانبها وبينه وبينها باب يخرج منه إليها في أوقات صلاتهم وقربانهم ، وتجاور هذه البيعة بيعة لليعقوبية مفردة لهم حسنة المنظر عجيبة البناء مقصودة لما فيها من عجيب الصور وحسن العمل » . وكانت قرب دير الروم محلة يقال لها (الدور) قال ياقوت الحموي : « إنها خربت الآن » .

دير درمالس :

كان هذا الدير في رقة باب الشماسية بشرقي بغداد فوق دار الروم وقال الشابشتي في كتاب « الديارات » : « وكان نزهاً كثير الأشجار والبساتين وبقربه أجمة قصب وهو كبير آهل معمور بالقصف والتنزه والشرب وأعياد النصارى مقسومة على ديارات معروفة منها أعياد الصوم : الأحد الأول في دير الناصية والثاني في دير الزريقية والثالث دير الزندورد والرابع دير درمالس هذا يجتمع اليه النصارى والمتفرجون » .

دير سمالو :

ويقال « صمالو » أيضاً وهو الأصل ، وسمالو من الثغر الشامي في قرب المصيصة وطرسوس ، والظاهر أنها من مدن أرمينية الصغرى ، وكان الرشيد الخليفة حاصر سنة ١٦٣هـ صمالو فسأل أهلها الأمان لعشرة أبيات منهم فيهم القومس فأجابهم الى ذلك وكان في شرطهم أن لا يفرقوا فأنزلوا ببغداد على باب الشماسية فسموا موضعهم « سمالو » بالسين وبني هناك دير سمالو المذكور وهو دير مشيد الأركان كثير الرهبان وبين يديه أجمة قصب يرمى فيها الطير بقسي الجلاهق وفي

ذلك يقول أحمد بن عبدالله البديهي الشاعر :

هل لك في الرقة والدير   دير سمالو مسقط الطير؟

وقد وصف بعض المؤرخين هذا الدير بقولهم : « هذا الدير شرقي بغداد بباب الشماسية على نهر المهدي وهناك أرحية للماء وحوله بساتين وأشجار ونخل والموضع نزه حسن العمارة ، آهل بمن يطرقه وبمن فيه من رهبان . وعيد الفصح ببغداد فيه منظر عجيب لأنه لا يبقى نصراني إلا حضره وتقرب فيه ، ولا أحد من أهل التطرب واللهو من المسلمين إلا قصده للتنزه فيه وهو أحد متنزهات بغداد المشهورة ومواطن القصف المذكورة » .

دير الثعالب :

ذكره ياقوت الحموي قال : « دير مشهور بينه وبين بغداد ميلان أو أقل في كورة نهر عيسى على طريق صرصر رأيته أنا وبالقرب منه قرية تسمى الحارثية » ، قال : « وذكر الخالدي أنه الدير الذي يلاصق قبر معروف الكرخي بغربي بغداد وقال : « هو عند باب الحديد وباب فبرونية ، وهذان البابان لم يعرفا اليوم والمشهور والمتعارف اليوم ما ذكرناه ، وبين قبر معروف الكرخي ودير الثعالب أكثر من ميل والى جانب قبر معروف دير آخر لا أعرف اسمه وبهذا الدير سميت المقبرة مقبرة باب الدير وقال فيه ابن الدهقان . .

دير الثعالب مألف الضلال   ومحل كل غزالة وغزال

وورد خبر هذا الدير في حوادث سنة ٦٨٣هـ (١٢٨٤م) وذلك أن دجلة زادت زيادة عظيمة فغرقت نواح كثيرة من الجانب الغربي ومنها قباب دير الثعالب . والدير الذي لم يعرف ياقوت الحموي اسمه هو دير كليليشوع .

دير كليليشوع :

كان هذا الدير على فرع من نهر الرفيل الذي عرف بنهر عيسى أيام العباسيين وكان بجوار مقبرة الشيخ معروف الكرخي ، وكليليشوع لفظة سريانية معناها « اكليل يسوع » (يعني السيد المسيح) وقد حرفت هذه اللفظة في مراصد الاطلاع الى « دير كليليسع » ، قال مؤلفه : « دير كليليسع ومنهم من يسميه دير البقال ملاصق مقبرة معروف ولهذا تسمى المقبرة مقبرة باب الدير ، وكان يسمى أيضاً دير الجاثليق نسبة الى الجاثليق طيماثاوس الذي جدد بناءه وأقام فيه ودفن فيه في سنة دخول المأمون بغداد .

دير قوطا :

هو دير من ديارات بغداد أيضاً وكان بين بغداد وبين البردان وكان نزهاً كثير البساتين والمزارع .

دير الزندورد :

ولعله دير الزندرود وتصحفت الزندرود الى زندورد ومعنى زندرود بالفارسية « النهر القوي الحي » ، وكان في الجانب الشرقي في طسوج كلواذا وحد الزندرود من باب الأزج الى الشفيعي وأرضها كلها ذات شجر من أشجار الفواكه كالأترج والأعناب وهي من أجود الأعناب التي كانت تعصر ببغداد في العصور القديمة ، والظاهر أن تسمية الزندرود بمعنى النهر الحي مستندة الى نهر كان هناك شديد الجرية يصلح لتحريك الأرحاء وادارتها ، قال السمعاني في الانساب عند الكلام على باب الأزج : « قيل كان بها أربعة آلاف طاحونة » ، فكيف كانت تدار هذه الطواحين بغير جرية النهر الحي » ؟ . . .

دير درتـــا :

درتا اسم آرامي لموضع قريب من بغداد مما يلي مقاطعة قطربل وفيه دير للنصارى قديم معروف قبـل إنشاء المنصور لمدينته ، مدينة السلام ، وقد وصفه ياقوت بأنه كان يحاذي باب الشماسية وكان راكباً على دجلة ، حسن العمارة كثير الرهبان ، وله هيكل في نهاية العلو .

ديـــر مار فثيون :

منسوب إلى فثيون أحد عباد النصارى النساطرة المشاهير وكان قد أنشىء عند قرن الصراة في مصبه الى دجلة وذلك يعني أنه كان مشرفاً على الصراة من الجنوب وعلى دجلة من الشرق، والبقعة التي أنشىء فيها كانت تسمى «سونايا» وسميت بعد تأسيس مدينة السلام « العتيقة » لأنها أقدم من عمارة مدينة المنصور زمناً ، وسمي الدير أيضا «الدير العتيق» وكان إنشاؤه في أيام الساسانيين وجدده « سبريشوع الثاني » المتوفى سنة ٨٣٩هـ وبنى جمـاعة من النصارى فيه ، فلما أنشـــأ المنصور مدينته بالقرب منه اقتطع المسلمون من أرضه قطعاً فطالب النصارى بها بعـد سنين وأرادوا تنحية الساكنين فيهـا فامتنعوا وقالوا : هذا إرثنا من آبائنا فأمرهم المنصور بتخليتها كرها ، فهدم سبريشوع تلك الأبنية العتيقة وجـدد بناء بيت الشهداء (في عقيدته) والأروقة وعمل موضعاً يسكنه هو نفسه ونصب فيه اسكولا أي مدرسة دينيـة وجمع المعلمين فيه وصار مقام الفطرك فيه أيضاً . وقد ذكروا أن المنصور نزل بهذا الدير قبل بنائه مدينته ، مدينة السلام .

كنيسة قطيعة عيسى (الرملة) :

الرملة هي اسم محلة الجعيفر الحالية في الجانب الغربي من بغداد على شاطىء دجـلة ، وكان فيها كنيسة لليهود ولعلهـا يعود تاريخها الى العهود الساسانية كما يعلم من أن الاسلام أبقى معابد أهل الذمة على أحوالها القديمة ومنع الاستحداث والاستجداد ، وقد ذكر ابن عبدالحق البغدادي في كلامه على قطيعة عيسى بن علي صاحب القصر المقدم ذكره باسم «قصر عيسى» قال في المراصد : « قطيعة عيسى هو عيسى بن علي بن عبدالله ببغداد أظنها المحلة التي يقال لها الرملة بالجانب الغربي عامرة الآن (٧٣٩هـ : ١٣٣٨م) لأن الكنيسة التي كانت لليهود كان اسمها عندهم كنيسة قطيعة عيسى والظاهر أنها منسـوبة الى موضعها» . ويؤيد هذا القول أنه كانت لهم مقبرة في الشونيزي، فقد ذكر ابن منظـور أن أبا نواس دفن في تل اليهود على نهر عيسى ولا تزال لهم مقبرة معروفة قرب قبر الشيخ جنيد الزاهد وتعرف عند العامة بمقبرة النبي يوشع . والظاهر أن الحكاية الشعبية في وجود الخضر الياس وتسمية المشرعة بشريعة الخضر الياس وايقاد الشموع وتعويمها على كـرب النخل في دجلة لها صلة بهذه الكنيسة التي جرفها النهر مع ما جرف من العمارات الفخمة ، كما أنه من الراجح كون الكنز من الدنانير التي عثر عليها سنة ١٣١٧هـ (١٨٩٩م) من خفايا هذه الكنيسة ، وذلك أن ملاح قفة اسمه صالح بـن خلف المشهداني من عشيره المشاهدة لامس مرديه برنية اي بستوقة ، وقيل حباً كبيراً وهو الراجح ، كانت مدفونة في جـــرف الشاطىء المعروف بالخضر الياس بالجانب الغربي من بغداد فكسرها وكانت مملوءة دنانير فانهالت منهـــا الدنانير فمنهـا ما غاصت في الماء ومنها ما استطاع القفاف أخذه ، ووصل الخبر الى الحكومة فحافظت على ما بقـي واستخرجت الدنـانير الغائصة في الماء فكان مجموع ما استولت عليه نحواً من ثلاثة آلاف قطعة بينها قطعة تزن نحواً من عشرين ليرة عثمانية وهي بهيئة سبيكة . فنقلت الى العاصمة استانبول وهي الآن فى متحفتها مع النقود التاريخية الأخرى ، وقيل إن الذي احتجـنه الملاح القفاف ملء كفية وثلاثة أكياس وكانت السبب في إثرائه حتى عرف بين الناس باسم المعتصم لعثوره على نقود من عصر المعتصم بالله الخليفة العباسي . وكان والي بغداد أيامئذ نامق باشا الصغير .

٢

اتساعُ بغدادَ وتوسّعُ عُمرانها

كان من نتائج اتخاذ المنصور لبغداد عاصمة الدولة العباسية أن توافد اليها الناس على اختلاف طبقاتهم وابتنوا الدور والقصور والأسواق والحمامات والخانات وأنشأوا المساجد الخاصة بهم والمرافق المعيشية الأخرى ، وبذلك اتسعت بغداد في جانبيها الغربي المحيط بمدينة المنصور والشرقي المحيط بالرصافة وامتد العمران شمالاً وجنوباً ، قال أحمد بن حنبل إمام الحنابلة : « بغداد كانت من الصراة الى باب التبن ثم انتقلت الى الجانب الشرقي من الشماسية الى كلواذى» . يعني أنها كانت في أيامه من أرض الكاظمية الى الأرض التي تسقيها الصراة قرب محلة الجعيفر الحالية، هذا في الجانب الغربي وفي الشرقي من الصليخ الحالية الى الكرادة ، وقال الخطيب البغدادي : « لم يكن لبغداد في الدنيا لنظير في جلالة قدرها وفخامة أمرها وكثرة علمائها وأعلامها وتميز خواصها وعوامها وعظم أقطارها وسعة أطرارها وكثرة دورها ومنازلها ودروبها وشعوبها ومحالها وأسواقها وسككها وأزقتها ومساجدها وحماماتها وطرزها — يعني دور حياكتها — وخاناتها وطيبهوائها وعذوبة مائها وبرد ظلالها وأفيائها واعتدالصيفها وشتائها وصحة ربيعها وخريفهاوزيادة ما حصر من عدةسكانها. وأكثر ما كانت عمارة وأهلاً في أيام الرشيد إذ الدنيا قارة المضاجع، دارة المراضع، خصيبة المراتع، مورودة المشارع... » وذكر أن رجلاً من سكانها كان يبيع سويق الحمص منفرداً به وكان يبيع في كل سنة مائة وأربعين كراً منه (الكر أربعون إردباً أي ٧٢٠ كيلوغراماً تقريباً) مع أن سويق الحمص غير طيب ولا يأكله إلا المتجملوّن والضعفاء شهرين أو ثلاثة أشهر عند عدم الفواكه ، ونقل ياقوت الحموي قول بعضهم : « بغداد جنة الأرض ومدينة السلام وقبة الاسلام ومجمع الرافدين وغرة البلاد وعين العراق ، ودار الخلافة ، ومجمع المحاسن والطيبات ، ومعدن الطرائف واللطائف وبها أرباب الغايات في كل فن وآحاد الدهر في كل نوع » .

وذكر الخطيب أن بغداد صورت لملك الروم : أرضها وأسواقها وشوارعها وقصورها وأنهارها غربيها وشرقيها وأن الجانب الشرقي منها صورت شوارعه فصور شارع الميدان وشارع سويقة نصر بن مالك من باب الجسر الى الثلاثة الأبواب والقصور التي فيه والأسواق والشوارع من سويقة خضير الى قنطرة البردان، فكان ملك الروم إذا شرب دعا بالصور فيشرب على صورة شارع سويقة نصر المذكورة ويقول : « لم أر صورة شيء من الأبنية أحسن منه » ونقل عن بعضهم قال : طفت دار الخلافة عامرها وخرابها وحريمها وما يجاورها وما يتاخمها فكان ذلك مثل مدينة شيراز » .

قال أحمد بن أبي طاهر طيفور في كتابه بغداد إن مساحة بغداد للجانبين ٥٣ ألف جريب و٧٥٠ جريباً ، منها الجانب الشرقي ٢٦ ألف جريب و٧٥٠ جريباً ، والجانب الغربي ٢٧ ألف جريب ، والجريب ١٣٨٤ متراً مربعاً . وبالغ في ذكر الحمامات وأنها كانت في ذلك الوقت ستين ألف حمام فيكون المشتغلون في الحمامات ٣٠ ألف رجل ، وقيل أحصيت الحمامات في أيام المقتدر فكانت ٢٧ ألف حمام ، وهذا محال ، وعرف معز الدولة البويهي المبالغة في ذلك فأمر أن يسجل للحمامات أربعة آلاف وذلك في أواسط القرن الرابع .

وقال أبو الوفاء علي بن عقيل المتوفى سنة ٥١٣هـ (١١١٩م) : « سألني صدر من صدور طريق خراسان (يعني لواء

بعقوبا) عن بغداد وما ادركت بها فقلت : « لا أذكر لك أمراً تستبعده فاذكر لك محلتي وهي واحدة من عشر محال — يعني محال الجانب الشرقي — كل محلة كبلد من بلاد الشام ، وهي المعروفة بباب الطاق ، أما شوارعها فشارع مما يلي دجلة من أحد جانبيه قصور على دجلة طراز ممتد من عند الجسر إلى أوائل الزاهر وهو بستان للملك نحو مائتي جريب وجانبه الآخر مساجد أرباب القصور ومساكن غلمانهم ، وفي خلال ذلك اصطبلاتهم ، ثم يليه من يمنته عند الجسر سوق يحيى الجامعة بين دور الوزراء والأمراء مما يلي الشط كدار شادي واكريبيب وابن الأوحد وقصر الواثي الذي كان عليق دوابه كل يوم الف مخلاة ، ثم في آخر هذا السوق دار فرج مساكن التناء والرؤساء . ومن الجانب الغربي الدكاكين العالية والدروب العامرة من دقاقين وخبازين وحلاويين ثم نهاية الدور الشاطئية دار معز الدولة ذات المسناة التي عرضها مائة آجرة وكان لها الروشن البديع — يعني البالكون — فهذا طراز باب الطاق الشاطىء ، فأما دواخلها فأوائلها العرصة التي هي رحبة الجسر وتنقسم رحبة الجسر الى شارعين عظيمين أحدهما للأساكفة ثم سوق الطير وهو سوق يجمع الرياحين وفي حواشيها الصيارف الظراف وأصحاب الطيالس وفاخر الملابس ثم سوق المأكول : الخبازين والقصابين وسوق الصاغة لم يشاهد أحسن بناءاً منه : بناء شاهق وأساطين ساج عليها غرف مشرفة ثم (سوق) الوراقين سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء ثم سوق الرصافة عظيمة جامعة ثم شارع الترب — يعني مقابر العباسيين — وقصر المهدي وجامع الرصافة — يعني جامع المهدي — ودرب الروم وشارع عبدالصمد والسقايات العجيبة في طريق الجامع ذات الأحواض الكبيرة . ونظير هذا من الجانب الغربي الكرخ وشاطئه قصور منتظمة ذوات دواليب وبساتين ورواشن متقابلة وبين يدي كل دار خيطية — يعني البلم — مشذبة مسرجة محلاة ومنقشة بنقوش بديعة عجيبة والبط يتلاعب في مشرعة الدار ولربما اختلطت أصوات أغانيها برنيم دواليبها ونقيق بطها وضجة غلمانها وخدمها ودجلة تنسل بين شاطئي قصورها الشاطئية ، ولقد نزلت كثيراً في سميرية — نوع من السفن المتوسطة — منحدراً فما أزال أسمع هذه الأنغام من مشرعة باب الجسر بباب الطاق الى باب المراتب ، وكان لدور الشط أبواب الى شوارعها وعلى كل باب مراكب مسرجة مهيأة لركوب الظهر ، كما بين أيدي رواشنها خيطية أو زبزب — نوع من السفن أيضاً — لركوب الشط والناس كأنهم في دعوة لا تخلو من ختان صبي أو زفاف امرأة . وفي السبوت مجالس القراء على الكراسي بالألحان ، وحلق العلاج والصراع ومسابقة السفن ، ومن أحسن القصور كانت الدار الفخرية بالجانب الغربي ودار المملكة بالشرقي ولم يكن للدار المعزية مثل ، ودار يلدرك والحريم الطاهري ودوره الشاطئية وسوره الدائر وبابه الحديد ودار الأمير حسن بن اسحق بن المقتدر الذي عرضت عليه الخلافة فأباها ووراء الحريم شارع دار الرقيق محلة كبيرة كثيرة المنازل العجيبة ثم درب سليمان والمارستان وسوقه العجيب ثم دار النقابة الشاطئية. وكنت أسمع من المشايخ أن بدجلة خمسمائة مصفرة — نوع من السفن — مزينة لا يركبها الا ظراف التجار والأجناد وأرباب المقاطعات: الرجل وغلامه والملاحون بالثياب الجميلة. ثم باب البصرة ذات السكك البعيدة. ومن الجانب الشرقي الزاهر، بستان عظيم جامع للنخل والأزهار ووراءه ثلاث محال سوق السلاح والمخرم وسوق الداية وتمتد العمارة الى نهر معلى ودار الخلافة وتاجها العجيب وهي — يعني دار الخلافة — بلد ، وباب المراتب : محلة تختص بالكبراء وأرباب المناصب وباب الأزج والمأمونية . وفي الجانب الغربي قصر عيسى وقصر (بني) المأمون وغير ذلك . وجمعت الكرخ منازل عجيبة بديعة البناء وفيها درب الزعفران وفيه الدور العجيبة ودرب رياح وشارع ابن أبي عوف وباب محول ، وكان بسوق الحلاويين خزانة كتب فيها اثنا عشر ألف مجلد ، وكانت أسواق الكرخ وباب الطاق لا يختلط العطارون بأرباب الزهائم والروائح المنكرة ، ولا أرباب الأنماط بأرباب الاسقاط ، وكان لأرباب المروءات دروب تخصهم فدرب الزعفران بالكرخ لا يسكنه أرباب المهن بل أهل البز والعطر ، ودرب سليمان في الرصافة مقصور على القضاة والشهود وكبار التجار » .

وأحصيت السميريات وهي سفن بغداد الصغيرة في أيام حكم ولي العهد أبي أحمد الموفق الناصر لدين الله فكانت

ثلاثين ألف سميرية يكسب ملاحوها كل يوم تسعين ألف درهم ، وذكر الخطيب البغدادي عن بعضهم أنه رأى في أيام أبي جعفر المنصور عن رخص الأسعار أن الكبش يباع بدرهم والحمل بأربعة دوانق والتمر ستون رطلاً بدرهم والزيت ستة عشر رطلاً بدرهم والسمن ثمانية أرطال بدرهم وستة مكاكيك من دقيق الارز بقطيعة مقروضة من الدينار والمكوك مكيال وهو ثلاث كيلجات والكيلجة من وسبعة أثمان المن والمن رطلان والرطل اثنتا عشرة أوقية والأوقية أستار وثلثا أستار والأستار أربعة مثاقيل ونصف والمثقال درهم وثلاثة أسباع درهم والدرهم ستة دوانيق والدانق قيراطان والقيراط طسوجان والطسوج حبتان والحبة سدس ثمن الدرهم وهو جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم . وأجرة العامل اليدوي كل يوم بخمس حبات .

وذكر القاضي التنوخي أنه تحدث مع القاضي محمد بن صالح الهاشمي في سنة ٣٦٠هـ (٩٧٠م) في عظم بغداد وكثرة أهلها في أيام الخليفة المقتدر بالله وما كان فيها من الأبنية والشوارع والدروب وكبرها وكثرة أهلها في سائر أنواع الناس ، فأحصيا أن أهل بغداد كانوا يشترون في أيام استنبات الخس ما ثمنه خمسون ألف دينار ، وإذ كان الدينار القديم يساوي في القيمة البيعية الحالية عشرين ديناراً يكون ثمن الخس المشترى مليون دينار من دنانير هذه السنة ١٩٦٧ .

٣

بغداد في العصر العباسي الأوسط والعصر الأخير

لم يكن من قصدنا في هذا الموجز الخططي أن نفصل الكلام على خطط بغداد فان هذا الكتاب لا يتسع لها ، وإنما كانت غايتنا ذكر استبحار عمرانها وفخامة بنيانها ، والاشارة الى معاهد ثقافتها من مساجد ومدارس وربط ، والمؤرخون اتفقوا على أن بغداد بلغت أوج اتساعها في أيام المقتدر بالله ، وأنها ترددت بعد ذلك ، ولكن هذا القول ينبغي أن لا يؤخذ على وجه العموم فقد جرت عادة ناس من المؤرخين أن يسيئوا ذكر الزمان الذي انحطهم وأحبط آمالهم .

قال الخطيب البغدادي بعد إطرائه بغداد الذي قدمنا ذكره: « ثم حدثت بها الفتن وتتابعت على أهلها المحن، فخرب عمرانها وانتقل قطانها ، إلا أنها كانت قبل وقتنا ، والسابق لعصرنا على ما بها من الاختلال ، والتناقص في جميع الأحوال مباينة لجميع الأمصار ومخالفة لسائر الديار » . وقال أبو الحسن علي بن الحسين المعروف بابن أخت العصفري وقد دخل بغداد في أواخر القرن الرابع للهجرة : « ورأيت دورى على الشط بقصر عيسى والبصريين مسافي ريح ومنابت شيح ، وبغداد كأسوأ المدن حالاً . . . »

وقال بعض مشايخ بغداد من أهل القرن الرابع : « عمارة بغداد في سنة ٣٤٥هـ (٩٥٦م) عشر ما كانت عليه في أيام المقتدر على التحصيل والضبط » ، يعني في الأبنية والناس . وقال المؤرخ محمد بن عبدالملك الهمذاني في حوادث سنة ٣٣١هـ (٩٤٢م) : « اتصلت الفتن ببغداد فانتقل كثير من تجارها مع الحاج الى مصر والشام » . وقال هلال بن الصابي : « عبرت الى الجانب الشرقي من مدينة السلام بعد الأحداث الطارئة فرأيت ما بين سوق السلاح والرصافة وسوق العطش ومربعة الخرسي والزاهر وما في دواخل ذلك ورواصفه وقد خرب خراباً فاحشاً حتى لم يترك النقض جداراً قائماً ولا مسجداً باقياً . وأما بين باب البصرة والعتابيين والخلد وشارع دار الرقيق من الجانب الغربي فقد اندرس اندراساً كلياً . وصار الجامعان في المدينة (مدينة المنصور) والرصافة في الصحراء بعد أن كانا في وسط العمارة وقد كنت أركب من داري بباب المراتب الى دار معز الدولة بالشماسية في الأسواق بين الظلال والمحال والدروب وكذلك بالشماسية بالجانب الغربي والدور على دجلة متقابلة وبساتينها متناهية وأنهارها متشابكة وما فيها دار تخلو من الأغاني والأفراح ، فسبحان الدائم الذي لا يزول ملكه » .

دار المملكة :

وقال ابن الصابي في ذكر دار العامة التي أنشأ بلصقها عضد الدولة البويهي دار المملكة : « وهذه الدار وما تحتوي عليه من البيت الستيني والأروقة خراب ولقد شاهدت مجلس الوزراء في ذلك ومحفل من يقصدهم ويحضرهم ، وقد جعله جلال الدولة البويهي اصطبلاً أقام فيه دوابه وسواسه وأما ما بناه عضد الدولة وولده بعده في هذه الدار فهو متماسك على تشعثه » . ويفهم مما ورد في أقوال هلال ابن الصابي من خراب بغداد أن الخراب بدأ فيها من الشمال من الجانبين ، ولكن المؤرخ الصادق النظرة يفهم أيضاً أن عمران بغداد اتجه نحو الجنوب ، وذلك أن العباسيين بعد أن تركوا سامراء

اتخذوا بغداد عاصمة مرة ثانية ، واتخذوا داراً للخلافة بالجانب الشرقي لا بالجانب الغربي كما فعل أوائلهم ، فكان المأمون والمعتصم قد رغبا في الجانب الشرقي، ومهدا لرغبة من جاؤا بعدهم ، فمركز العمران كان دار الخلافة العباسية بالجانب الشرقي ، وقد أشرنا الى فخامة هذه الدار وأبهتها وسعتها في عهد المقتدر بالله ، فقد كانت تشكل نصف دائرة قطرها نهر دجلة ونصف محيطها زهاء كيلومتر ونصف من شرقي دجلة ولها سوران خارجي وداخلي وأبواب خارجية وداخلية واستطاع ذوو الحول والطول والأثرياء السكنى بين السورين ، وسمي باسم « حريم دار الخلافة » وكان يكاد يكون منطقة متميزة عن مناطق بغداد الأخرى حتى في القضاء فانه كان الحاكم يعرف بلقب « قاضي الحريم » يحكم باسم قاضي القضاة وهذا يحكم باسم الخليفة.

بناء المارستانات أي المستشفيات :

وشاع في هذا العصر الأوسط بناء المارستانات أي المستشفيات وإنشاء الربط أي الأربطة أو الرباطات وهي جمع الرباط وهو دار مهندسة لكي تعيش فيها جماعة من العباد الزهاد المنعزلين عن اكثر شؤون الحياة الاجتماعية لتوفرهم على عبادة الله ومنهم من يعنى أيضاً بالعلم والثقافة والأدب ، ويسمى الرباط في بلاد الشام باسم فارسي هو « خانقاه » و« خانكاه » وهذا الرباط هو غير الرباط الذي كان يبنى في الطريق الطويلة بين المدن والأقطار لايواء القوافل والراحلين وإراحة دوابهم ، كما هو معروف في بلاد الفرس وله آثار وأطلال لا تزال شاخصة.

وشاع إنشاء « المدارس » وهو جمع المدرسة اسم مكان للدرس يعيش فيه تلامذة علوم الدين وما يقويها من علوم أدبية كالنحو والمعاني والبيان ، وهو بناء أيضاً كالدار يسكنه الطلاب ويتعلمون فيه العلوم المشار اليها ويعيشون بنفقة منشىء المدرسة ، فكانت هذه المدارس تشبه المدارس العصرية الداخلية التي تنفق عليها الدول أو الأخيار المتبرعين بالانشاء والانفاق.

دار مؤنس المظفر :

ومما اشتهر من الأبنية الفخمة في أوائل هذا العصر وهو عصر ضعف الخلافة العباسية الثاني ببغداد ، وكان الأول بسامراء، دار الأمير مؤنس المظفر مقدم الجيوش العباسية وهو الذي حارب المقتدر وسبب قتله، وكانت على شاطىء دجلة بمحلة سوق الثلاثاء التي يعرف موضعها اليوم بسوق الحيدرخانة وسوق باب الأغا وما يليه من سوق البزازين حتى شاطىء دجلة ، وكانت واسعة تمتد من مشرعة الابريين المجاورة لدار الخلافة من الشمال الغربي الى مشرعة الصباغين التي كانت في الموضع المجاور لرأس الجسر الحالي المعروف بالعتيق ، فهي دار كاملة المرافق ، يظن أنها كانت تحتوي على كل ما تستوجبه السكن الكاملة لصاحب جيش حتى الاصطبلات ، ذكرنا هذا لمن لم يعرف كيف كانت دور الأمراء من القواد والحكام . وقد سكن في هذه الدار معز الدولة أحمد بن بويه مؤسس الامارة البويهية بالعراق في اوائل حكمه بالعراق في الثلث الأول من القرن الرابع للهجرة.

الدار المعزية :

ومن الدور التي اشتهرت في اوائل هذا العصر « الدار المعزية » وهي الدار التي أنشأها معز الدولة البويهي المذكور آنفاً سنة ٣٥٠هـ (٩٦١م) عند باب الشماسية على شاطىء دجلة ، والشماسية تعرف اليوم بالصليخ في شمالي الأعظمية الغربي ، وأنفق عليها زهاء ثلاثة عشر مليون درهم سوى ما استولى عليه من الحضرة ، أي المواد الانشائية ، واصلها مما يلي البستان الصيمري من قصر فرج وابتاع ما يليه من العقارات الى حدود البيعة المعروفة ببيعة الدور وقلع أبواب مدينة المنصور وأبواب الرصافة والتي على شارع نهر المعلى ونقلها الى داره ، ونزل بعض أسسها ٣٦ ذراعاً بالنورة والآجر وقيل

أدخل فيها مساجد وذلك من الأقوال الباطلة ، الا أنه هدم الكثير من قصر المعشوق بغربي سامراء ونقل آجر الانقاض اليها ، وعمل لها مسناة من حد رقة الشماسية الى بعض الميدان وهو ألف وخمسمائة ذراع : وعرضها نيف وسبعون آجرة كباراً سوى الدستاهيجات الخارجة منها الواغلة فيها لتثبيتها وتقويتها ، وأنشأ لها سوراً محكماً وميداناً وعقد جسراً بباب الشماسية ليصل داره بالجانب الغربي حيث مقابر قريش ومشهد الامامين العلويين موسى بن جعفر وحفيده محمد الجواد من أئمة الطائفة الاثنا عشرية .

دار المملكة البويهية بالمخرم :

المخرم من المواضع والمحال القديمة ببغداد عرفت بهذا الاسم قبل بناء مدينة المنصور وتعرف اليوم بالصرافية من جسر الحديد الى العيواضية ، وقد ذكر الخطيب : « إنما سميت مخرم بغداد بمخرم بن شريح بن مخرم بن زياد وكان قد أقطعها أيام نزل العرب في عهد عمر بن الخطاب » . وكذلك نقل ياقوت في معجم البلدان وقال : « محلة كانت ببغداد بين الرصافة ونهر المعلى » ، وذكر الخطيب تحت عنوان « ذكر دار المملكة التي بأعلى المخرم » نقلاً عن هلال بن المحسن أن دار المملكة التي كانت بأعلى المخرم كانت قديماً لسبكتكين مملوك معز الدولة . وذكر المحسن القاضي التنوخي أن السيدة شغب والدة الخليفة المقتدر بالله بنت مسجداً بالمخرم على شاطىء دجلة وأمرت بأن يكتب اسمها عليه وأنه رأى الكتابة على الحائط الآخر مما يلي دجلة بالآجر المقطوع وأن سبكتكين سد باب المسجد وأدخله في ميدان داره وجعله مصلى لغلمانه .

ثم نقض عضد الدولة البويهي بعد احتلاله العراق وبغداد سنة ٣٦٧هـ (٩٧٨م) دار سبكتكين ولم يستبق منها إلا بيتاً يعرف بالستيني وهو في وسط أروقة من ورائها أروقة في أطرافها قباب معقودة وتنفتح أبوابه الغربية الى دجلة وأبوابه الشرقية الى صحن من خلفه بستان نخل وشجر ، وابتاع عضد الدولة دوراً كثيرة كباراً وصغاراً ونقضها ورمى حيطانها بالفيلة تخفيفاً للمؤونة والنفقة وأضاف عرصاتها الى الميدان وكانت بقدر ميدان سبكتكين دفعتين ، وقد كان أراد أن يترك في الميدان السبكتكيني أذرعاً ليجعله بستاناً ويرد بدل التراب رملاً ويطرح التراب تحت الروشن على دجلة ، وأنشأ للجميع مسناة وجعل الدار التي فيها البيت الستيني المقدم ذكره «دار العامة» وجعل البيت برسم جلوس الوزراء ، وما يتصل به من الأروقة والقباب مواضع للدواوين ، والصحن اتخذه مناماً لديلم النوبة من حراسه في ليالي الصيف .

وفكر عضد الدولة في أنه يجعل شرب البستان من دواليب ينصبها على دجلة ثم علم أن الدواليب لا تكفي فأخرج سنة ٣٧١هـ (٩٨١م) مهندسين الى الأنهار التي في ظاهر الجانب الشرقي ليستخرجوا منها نهراً يسيح ماؤه الى داره فلم يجدوا ما أرادوه إلا في نهر الخالص فعلى الأراضي بين البلد والخالص تعلية أمكن معها أن يجري الماء على قدر من غير أن يحدث به ضرر وعمل تلين عظيمين يساويان سطح ماء الخالص ويرتفعان عن أرض الصحراء أذرعاً وشق في وسطها نهراً جعل لها خورين من جانبيه وداس الجميع بالفيلة دوساً كثيراً حتى قوي واشتد وصلب وتلبد فلما بلغ منازل البلد وأراد سوق النهر الى داره عمد الى درب يسمى درب السلسلة فدك أرضه دكاً قوياً ورفع أبواب الدور وأوثقها وبنى جوانب النهر طول البلد بالآجر والكلس والنورة حتى وصل الماء في المخرم سنة ٣٧٢هـ (٩٨٢م) الى الدار وسقى البستان وبستان الزاهر ، وبلغت النفقة على ذلك وحده خمسة ملايين درهم ، وتقدر نفقة دار المملكة بمثل ذلك . وكان عازماً على أن يهدم الدور التي بين داره وبستان الزاهر ويصل الدار به فمات قبل ذلك . ولما ورد طغرلبك الغزي بغداد مستولياً عليها عمر هذه الدار وجدد كثيراً مما كان وهى منها في سنة ٤٤٨هـ فمكثت كذلك الى سنة ٤٥٠ هـ ثم أحرقت وسلب أكثر آلاتها ثم عمرت بعد ذلك وأعيد كما كان ما وهى منها . وكان البستان الزاهر — وقد تقدم ذكره في هذا الكتاب — بين الأرض المعروفة اليوم بالكسرة والأرض المعروفة بالصرافية ، وكان عضد الدولة يجلس فيه في أيام

زينته ، جاء في خزانة الأدب أن عضد الدولة كان جالساً في البستان الزاهر يوم زينته وأكابر حواشيه وقوف فقال عبدالعزيز بن يوسف الحكارى : « ما يعوز مجلس مولانا سوى أحد الطائيين — يعني أبا تمام والبحتري — فقال عضد الدولة : لو حضر المتنبي لناب عنهما » .

وكانت المباني التي ألحقها السلاطين السلاجقة بدار المملكة البويهية متصلة بها من الجنوب وصارت تعرف أيضاً بدار السلطنة لأن رتبة الملك السلجوقي كانت سلطنة أي انبراطورية ، وقد احتفل طغرلبك في أحد هذه المباني بزواجه الاسمي لا الحقيقي بالسيدة العباسية ابنة الخليفة القائم بأمر الله ، وقد وهم ناس من المؤرخين العصريين فظنوه زواجاً حقيقياً ولم يكن كذلك لأن الخليفة القائم بأمر الله لم يوافق عليه الا بدخول « شرط عدم الاجتماع »فكان زواجاً دينياً تقديسياً حسب ، وأصبحت دار السلطنة بقسميها العتيق والجديد مقراً لسلاطين السلاجقة أحيان قدومهم بغداد أو إقامتهم فيها .

وقد أنشأ في تلك المحلة السلطانية السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان وهو من ذرية أخي طغرلبك جامعاً فخماً كان وضع أسسه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) وتولى بنفسه تقديره وأمر جماعة من الرصديين بتسوية قبلته وأشرف على إنشائه قاضي القضاة يومئذ أبو بكر الشامي ، وحملت له أخشاب من جامع سامراء ولم يتمم ملكشاه بناءه بل مات قبل اتمامه فتمم عمارته مجاهد الدين بهروز الخادم شحنة العراق منذ سنة ٥٠٢هـ (١١٠٨م) على عهد السلطان محمد بن ملكشاه ، وذكر ابن‌الجوزي أن الجامع تم على يدي بهروز المذكورسنة ٥٢٥هـ (١١٣٠م). وأنشأ بهروزأيضاً داراً فخمة للسلطان في دار السلطنة قيل إنه بناها من أنقاض دور الناس وسخر في عمارتها أهل بغداد حتى القضاة والأشراف والأعيان فكانوا ينقلون الأنقاض في طيالسهم ولما كمل بناؤها أمرهم أن يحملوا اليها الفرش والبسط والأواني وغيرها من الماعون .

وأنشأ ملكشاه أيضاً سوق دار السلطنة وخانات للباعة وسوقاً لها ودوراً وأنشأت زوجته الخاتون داراً للضرب هناك ونودي أن لا تعامل إلا بالدنانير .

وفي سنة ٥١٥هـ (١١٢١م) وقع حريق في دار السلطنة فاحترقت الدار التي استحدثها بهروز وكان السبب في حريقها أن جارية من الجواري كانت تختضب بالحناء بالليل وقد أسندت الشمعة الى خيش فعلقت به النار فما تجاسرت أن تنطق فاحترقت الدار ، وكان فيها السلطان محمود بن محمد بن ملكشاه فهرب الى سفينة في دجلة فوقف فيها ، واحترق من الفرش والالآت والأواني والبسط والجواهر واللؤلؤ وغير ذلك ما قدرت قيمته بمليون دينار ولم يسلم من الدار خشبة قط ، فقال السلطان : « لاحاجة بنا الى بناء هذه الدار التي لم يتمتع بها أبي ولا طال بقاؤه وذهبت بها أموالنا وأرزاقنا وتكفينا دار المملكة العتيقة — يعني البويهية » . وقال سبط ابن الجوزي أبو المظفر يوسف : « لا جرم أن مآل الدار كان الى الحريق والخراب وقد رأينا في الأمور المشهودة أن كل دار بنيت على وجه الاغتصاب يكون مآلها الى الاندراس » .

وقد هدم الخليفة الناصر لدين الله دار السلطنة السلجوقية هذه سنة ٥٨٣هـ (١١٨٧م) على أثر تحدي السلطان طغرل الثالث بن أرسلان السلجوقي إياه ومطالبته له بالخطبة له باسم السلطنة وبترميم الدار المذكورة ، وبعث بذلك رسولاً الى بغداد فرد الخليفة رسوله بغير جواب وأمر بنقض دار السلطنة فنقضت الى الأرض وعفي أثرها. ومن البديهي أن الخليفة الناصر لم يأمر بنقض جامع السلطان ملكشاه هناك لأنه مسجد ، ويؤيد ذلك وجوده بعد تاريخ النقض معموراً ومتخذاً مدرسة لتدريس الفقه الحنفي الذي هو فقه مذهب السلاجقة .

المارستان العضدي :

المارستان اسم فارسي مختصر أصله « بيمارستان » مركب من كلمتين هما « بيمار » أي مريض و« ستان » بمعنى مكان فهو « مكان للمريض » أي دار المرضى ، وقد شاعت هذه الكلمة في أكثر البلاد العربية ، على حين شاعت تسمية « دار الشفاء » العربية في البلاد الفارسية . وكان أنشاء المارستانات من الأعمال الخيرية العامة ولم تكن الدولة تضطلع بمثل هذا العمل الصحي العظيم .

وقد ذكر مؤرخو العرب اخباراً لمارستان أنشأه الرشيد ومارستان آخر أنشأه أعوانه البرامكة ، ولكن أخبارهما قليلة بحيث يصعب على الباحث وصف أحوالهما الحضارية، وقد ذكروا أيضاً أن الأمير بدراً المعتضدي أحد مماليك الخليفة المعتضد بالله أنشأ مارستاناً بالمخرم الذي ذكرنا أنه اليوم الصرافية الشرقية والعيواضية، وهو بدر الحرمي وأصله من غلمان المتوكل وقد قتل سنة ٢٨٩هـ (٩٠١م) وليس هو بدراً الحمامي كما ذكر الدكتور أحمد عيسى في كتابه « تاريخ البيمارستانات في الاسلام » (ص ١٨٠) . ثم أنشأ الوزير علي بن عيسى ابن الجراح مارستاناً بمحلة الحربية بالجانب الغربي من بغداد سنة ٣٠٢هـ (٩١٤م) ، وفي سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م) أنشأت السيدة شغب والدة الخليفة المقتدر بالله مارستاناً بسوق يحيى من الجانب الشرقي على شاطىء دجلة وأمرت بترتيب الأطباء فيه وقبول المرضى وكانت النفقة عليه على يدي يوسف بن يحيى بن المنجم في كل سنة سبعة آلاف دينار وقيل في الشهر ستمائة دينار .

وفي السنة ٣٠٦هـ (٩١٨م) بعينها اتخذ المقتدر بالله مارستاناً بباب الشام بالجانب الغربي وسمي المارستان المقتدري وكانت النفقة عليه في كل شهر مائتي دينار ، وفي سنة ٣١١هـ (٩٢٣م) أنشأ الوزير أبو الحسن علي بن الفرات مارستاناً في درب المفضل وأنفق عليه من ماله في كل شهر مائتي دينار بغير قطع ، وورد ذكر مارستانات أخرى كمارستان باب محول في غربي بغداد وعرف بالمارستان الأول ، وأكثر هذه المارستانات زالت بعد زوال أصحابها سوى ما كان لها أوقاف جارية عليها لصيانتها واستمرارها على الخدمة الصحية الاجتماعية ، ويلاحظ في إنشاء المارستانات أثر التقليد والتنافس ، فأمير الأمراء بجكم التركي المستولي على سلطة الخلافة العباسية سنتين وثمانية أشهر وقد قتل سنة ٣٢٩هـ (٩٤٠م) شرع في إنشاء مارستان فلم يتمه وأتمه بعد سنين عضد الدولة البويهي وهو المارستان العضدي الذي ملأت أخباره التواريخ قديماً وحديثاً ، وقد أحضر له عضد الدولة الآلات والأدوات والأثاث الكامل ورتب فيه الأطباء البارعين ووقف عليه أوقافاً كثيرة ضمنت دوامه وقيامه بخدمة المجتمع الصحية عصوراً .

بنى عضد الدولة مارستانه على شاطىء دجلة بين أرض قصر الخلد والجسر الذي بين مدينة المنصور والرصافة ، وقيل إن أكثر قصر الخلد دخل في عمارته ، وأنشأ بين يديه سوقاً للبزازين عرف بسوق المارستان ومن أوقافه أرحاء مائية أقامها على نهر عيسى ، وجعل بنيانه كاملاً مطل الشبابيك على دجلة ، وقد افتتح في ٣ صفر من سنة ٣٧٢هـ (آخر تموز سنة ٩٨٢م) وقيل في شهر ربيع الآخر ، أي ٢٤ أيلول ، والاختلاف قليل ، قال ابن الجوزي في تاريخه المنتظم في حوادث سنة ٣٧٢ المذكورة : « وفي يوم الخميس لثلاث خلون من صفر وقيل بل لليلة خلت من ربيع الآخر فتح المارستان الذي أنشأه عضد الدولة في الجانب الغربي من مدينة السلام ورتب فيه الأطباء والمعالجون والخزان والبوابون والوكلاء والناظرون ونقلت اليه الأدوية والأشربة والفرش والالآت » ، وقال ابن خلكان : « عزم عليه عضد الدولة مالاً عظيماً وليس في الدنيا مثل ترتيبه وفرغ من بنائه سنة ٣٦٨هـ وأعد له من الالآت ما يقصر الشرح عن وصفه » . وقال أبو المظفر سبط ابن الجوزي في مرآة الزمان في أخبار سنة ٤٤٩هـ (١٠٥٧م): «وفي هذا الوقت نظر أبو المنصور عبد الملك بن يوسف في المارستان العضدي وكان قد خلا من دواء وطبيب وشراب ، وكان المرضى على وجه الأرض وعند رأس المريض بصلة يشمها، فعطش أحدهم فقام بنفسه الى حب الماء فوجده حمأة ودوداً وكان أبو الحسين محمد بن أحمد ابن المهتدى بالله قد رد أمره الى يهودي فاستولى عليه وأكل أوقافه ، وبلغ عبد الملك بن يوسف ذلك فصرف العناية اليه، فأول ما فعل أنه انتزع أوقافه من أيدي الطامعين فيها والمتغلبين عليها ، وضمنها بما وفر ارتفاعها (وارداتها) توفيراً لم يعهد مثله ، وشرع في العمارة فقيل إنه طبق المارستان بخمسة آلاف طابق وقيل بعشرة الآف ، وكان على سوق فيه مائة دكان قد دثرت فأعادها ، (ووضع) فيه من الأشربة والأدوية والعقاقير التي يعز وجودها شيئاً كثيراً وأقام الفرش واللحف للمرضى ، والأرابيح الطيبة والأشربة والثلج والمستخدمين من الأطباء والفراشين فكان فيه ثمانية وعشرون طبيباً ونساء طباخات وبوابون وحراس والحمام والبستان الى جانبه فيه أنواع الثمار والبقول، والسفن على بابه تنقل الضعفاء والفقراء والأطباء يتنابونهم بكرة وعشية وينامون عندهم بالنوبة ، وكان فيه عدة حباب فيها السكر الطبرزذ والابلوج واللوز

والمشمش والخشخاش وسائر الحبوب والبراني ــ أي البساتيق ــ الصيني وفيها العقاقير وأربع قواصر فيها الاهليلج الأصفر والكابلي والهندي وأربع قواصر تمر هندي وزنجبيل وعود وند ومسك وعنبر والروائد الصيني في البراني والترياق الفاروقي وجميع العقاقير وصناديق فيها ثياب جدد للمرضى ومناديل وصناديق فيها أكفان ، وقدور كبار وصغار وآلات وأربعة وعشرون فراشاً وأشياء ما توجد في دور الخلفاء والملوك وختن فيه في هذه السنة ثلاثمائة وواحداً وثمانين صبياً وكان راتب المقيمين فيه من المستخدمين في كل يوم ألفاً وثمانيمائة وسبعين رطلاً من الخبز » (والرطل العراقي يومئذ زهاء الكيلوغرام الواحد). وقد جاء في تاريخ البيمارستانات في الاسلام (ص ١٨٩) أن الذي أصلح شؤون المارستان العضدي هو عميد الملك وهــذا من خطأ التصحيف فلم تكن لعميد الملك منصور بن محمد الكندري وزير طغرلبك السلجوقي صلة بالمارستان العضدي البتة .

وقد أشار العماد الأصفهاني في كتابه « نصرة الفترة » الى إصلاح أبي منصور بن يوسف للمارستان العضدي بأسلوبه السجعي ، وذكره ابن جبير الرحالة الأندلسي في وصفه لبغداد في أثناء زيارته لها سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) قال في ذكر محلات غربي بغداد : « وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان الشهير ببغداد وهو على دجلة وتتفقده الأطباء كل يوم اثنين وخميس ويطالعون أحوال المرضى به ويرتبون لهم أخذ ما يحتاجون اليه وبين أيديهم قومة يتولون طبخ الأدوية والأغذية وهو قصر كبير فيه المقاصير والبيوت وجميع مرافق السكن الملوكية ، والماء يدخل اليه من دجلة » . وبقي هذا المارستان على حال حسنة بعد سقوط الدولة العباسية ، فقد جاء في أخبار سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) من سني عصر الدولة الايلخانية أن سعد الدولة بن صفي الدولة عزل فيها عن نظر وقف المارستان العضدي وسلم الى العميد زين الدين ضامن تمغات بغداد فقام فيه أحسن قيام وأجرى أموره على أحسن القواعد .

وفي العصر السلجوقي أنشأ الأمير خمارتكين التتشي المتوفى سنة ٥٠٨هـ (١١١٤م) مارستاناً بباب الأزج سمي « المارستان التتشي » ، وذكر ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) أن المارستان التتشي كان معموراً في أيامه وجارياً على أحسن نظام وينفق عليه من العقار التتشي وهو سوق بالجانب الشرقي من بغداد قرب دار الخلافة .

مدرسة أبي حنيفة :

وكانت الدولة السلجوقية حنفية المذهب كما أشرنا اليه آنفاً وكان كثير من موظفيها على مذهبها ومنهم شرف الملك أبو سعد المستوفي ، مستوفي الأموال في دولة السلطان ألب أرسلان السلجوقي ودولة ولده ملكشاه الكبير الشهير ، ومنهم عميد الملك منصور بن محمد الكندري وزير السلطان طغرلبك ، وكان من موظفيها من هم على مذهب الامام الشافعي وعلى رأسهم نظام الملك الوزير الكبير ، فحدث تنافس بين المذهبين ، وشرع نظام الملك فى تأسيس المدارس النظامية في المدن الكبرى من المملكة السلجوقية كبغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وكان يتقوى بالخلفاء العباسيين لأنهم صاروا من الشافعية في أواخر عصورهم وجاهروا بذلك منذ عهد المستظهر بالله ٤٨٧هـ (١٠٩٤م) .

وفي عاشر جمادي الأول من سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٦م) قدم أبو سعد المستوفي بغداد فأمر بانشاء مدرسة للحنفية عند قبر الامام أبي حنيفة ورتب مدرساً يدرس طلاب الفقه هو أبو طاهر إلياس بن ناصر الديلمي الحنفي الفقيه وأوقف على المدرسة ضيعة تصرف غلتها إليها ، وشيد على قبر أبي حنيفة قبة عالية وأنشأ بين يديه رواقاً وصحناً وجعلها مشهداً كبيراً وجعل للقبر ملبناً عالياً على مثال قبور آل أبي طالب في المشاهد ، وغادر بغداد في يوم الاثنين السابع والعشرين من جمادي الآخرة من السنة المذكورة .

المدرسة النظامية :

وأنشأ نظام الملك الوزير في السنة نفسها ببغداد مدرسة للشافعية الأشعرية مدرسة في قطعة من دار مؤنس المظفر

عند الحظاير في سوق الثلاثاء ومحلة الحظائر هذه كانت في موضع سوق الكمرك العتيق وخان جغان الذي حول في السنوات الأخيرة الى أسواق ، وموضع المدرسة يعرف اليوم بسوق الخفافين ، وإن بطل عمل الخفاف وذهبت ، وقد أخطأ الأستاذ كي لسترنج في تعيينه موضع المدرسة النظامية في جنوب قصور دار الخلافة العباسية على مسافة أكثر من كيلومتر ونصف جنوب موقعها الحقيقي ، على حين أنه ينقل من رحلة ابن بطوطة أن المدرسة كانت تقع في وسط سوق الثلاثاء ومن سوق الثلاثاء سوق البزازين الكبير الحالي المتجه الى شاطىء دجلة .

لم يذكر ياقوت الحموي « المدرسة النظامية » في مادتها من معجم البلدان ولا المدارس الأخرى ، وإنما ذكرها إستطراداً في « تتش » قال : « هو اسم رجل ينسب اليه مواضع ببغداد وهي سوق قرب المدرسة النظامية يقال له العقار التتشي ، ومدرسة بالقرب منه لأصحاب أبي حنيفة يقال لها التتشية ، وبيمارستان بباب الأزج يقال له التتشي . . » وذكرها في مادة القرية قال : « القرية محلتان ببغداد احداهما في حريم دار الخلافة وهي كبيرة فيها محال وأسواق ، والقرية أيضاً محلة كبيرة جداً كالمدينة من الجانب الغربي من بغداد مقابل مشرعة سوق المدرسة النظامية » . وقال في كلامه على تلك القرية في المشترك : « مقابل سوق المدرسة النظامية » . ولذلك لم نجد وصفاً للمدرسة النظامية كاملاً ، سوى ما ذكره العلامة محمد شكري الآلوسي في تاريخ مساجد بغداد وآثارها (ص٦) من قوله : « جامع مرجان هذا مسجد محكم البناء ذو طبقتين سفلى وعليا فيه مصلى واسع وحجر في الطبقة السفلى والعليا وقد جعله بانيه مدرسة حاكى بها المدرسة النظامية وجعل الحجر مسكناً لطلبة العلم . . . » ولم يذكر مرجعاً تاريخياً لهذا الوصف ، حتى يصح الاعتماد عليه في تبين شكلها ، وقد ورد في التواريخ استطراداً ذكر دهليزها ودار المدرسين المفتوح بابها عليه ، ودهليز المدارس يكون مستقيماً دائماً ولا عبرة بالشذوذ ، وصحنها العظيم وأروقتها الواسعة ، ودار كتبها العتيقة ودار كتبها الجديدة ، ولم نقف على ذكر إيوان فيها ، وإن كنا لا نحسبها عديمة الايوان فالايوان اتخذ في قصر باب الذهب للمنصور وكثير من القصور والدور وقد مر ذكر إيوان الأمين بقصر القرار وإيوان المعتصم بقصره وإيوان جوسقه بسامراء لا يزال قائماً ، وإيوان دار المسناة « القصر العباسي » وأواوين المستنصرية لا تزال عامرة ، وكذلك إيوان دار الخلافة ، واتخذ الايوان في المساجد أيضاً كايوان جامع ابن المطلب بالجانب الغربي من بغداد وإيوان مسجد ساوة .

كان القصد من إنشاء المدرسة النظامية ببغداد والمدارس النظامية في المدن الكبرى تدريس الفقه الشافعي والعلوم الاسلامية والفنون الأدبية ونصرة المذهب الأشعري في العقائد وتخريج فقهاء يتولون القضاء في المناطق الشافعية الخالصة كخراسان والمختلطة كالعراق وما في شماله وخصوصاً الجزيرة وتخريج مدرسين يزاولون التدريس في المدارس أو المساجد في الأقل ، ووعاظ يعظون الناس ويرشدونهم الى الطاعة والديانة والصيانة .

وقد استمرت المدرسة النظامية على القيام بوظيفتها الدينية ووظيفتها المذهبية ونشاطها الأدبي حتى أواخر القرن التاسع للهجرة ، أي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد ، ثم وقف التدريس فيها في أواخر أيام الحكم التركماني القره قوينلي والآق قوينلي ، واتخذت هي أسواقاً ودكاكين وخاناً للتجار وغيرهم ، بحيث لم نقف على موضعها إلا بعد بحث وتفتيش واستدلال مدة طويلة ، بعد أن انتشر خريجوها في العالمين عشرات بل مئات واستمرت على التخريج أكثر من أربعة قرون.

وتوالى إنشاء المدارس بعد مدرسة أبي حنيفة والمدرسة النظامية ، فأسست مدرسة ابن الابرادي ومدرسة إبراهيم بن دينار ومدرسة زمرد خاتون والدة الخليفة الناصر لدين الله والمدرسة الثقتية ومدرسة السيدة بنفشة حظية الخليفة المستضيء بأمر الله والمدرسة البهائية والمدرسة التاجية والمدرسة التتشية المقدم ذكرها استطراداً ومدرسة تركان خاتون ومدرسة الخاتون المستظهرية ومدرسة ابن الخل وهي الكمالية ومدرسة ابن الجوزي ومدرسة زيرك ومدرسة دار الذهب وهي المدرسة الفخرية والمدرسة الاسبهندية ومدرسة جامع السلطان ملكشاه التي تقدم ذكرها ومدرسة أبي النجيب السهروردي ومدرسة ابن بكروس ومدرسة الأمير سعادة الرسائلي ومدرسة أبي الصقال ومدرسة المخرمي التي هي مدرسة الشيخ عبدالقادر الجيلي والمدرسة الغياثية والمدرسة المغيثية والمدرسة القيصرية ومدرسة ابن العطار والمدرسة الموفقية

ومدرسة فخر الاسلام الشاشي ومدرسة ابن البل بالجانب الشرقي ومدرسة الوزير ابن هبيرة ومدرسة عمر الشمحل والمدرسة البشيرية والمدرسة المستنصرية التي نحن ذاكروها بشيء من التفصيل .

المدرســة المستنصــرية :

والمدرسة المستنصرية منسوبة الى الخليفة المستنصر بالله واسمه منصور وكنيته أبو جعفر تولى الخلافة سنة ٦٢٣هـ (١٢٢٦م) وتوفي سنة ٦٤٠هـ (١٢٤٢م) ، وكانت أرضها من دار الأمير مؤنس المظفر التي بنيت في أسفلها المدرسة النظامية كما تقدم في الكلام عليها ، وهذه المدرسة العظيمة لا تزال قائمة المباني شاخصة المغاني تدل سعتها وفخامة بنيانها وكثرة حجرها وغرفها وامتداد أروقتها وسعة مصلاها وكثرة مرافقها الأخرى وجمال ريازتها ونقوش أواوينها الواغلة والشاخصة على كمالها وجلالها ، وقد أعادتها مديرية الآثار الى معظم بهجتها القديمة . قال محمد بن أبي السرور الصديقي في كتابه « عيون الأخبار ونزهة الأبصار » : « وفي سنة ٦٢٥هـ (١٢٢٧م) شرع في عمارة المدرسة المستنصرية ببغداد وهي على شط دجلة من الجانب الشرقي مما يلي دار الخلافة وكان مكانها اصطبلات وتولى عمارتها أستاذ الدار العالية مؤيد الدين محمد بن العلقمي وتكامل بناؤها في سنة إحدى وثلاثين وستمائة (١٢٣٣م) . قال ابن البزوري : « تكامل بناء المستنصرية وجاء في غاية الحسن ونهايته وخلع على أستاذ الدار العالية متولي عمارتها وعلى أخيه علم الدين أبي جعفر بن العلقمي وعلى حاجبه وعلى المعمار وعلى مقدم الصناع ، وجاءت مدرسة لم ين على وجه الأرض مدرسة أحسن منها ولا أكثر وقفاً وجعل فيها أربعة من المدرسين على المذاهب الأربعة كل مدرس منهم له سدة عالية ومستند يستند اليه ورتب في المدرسة خزانة كتب فيها من الكتب النفيسة وأنواع العلوم شيء كثير جداً فيقال إنه نقل اليها مائة وستون حملاً جملة واحدة ، سوى ما نقل اليها فيما بعد برسم من يطالع ويستنسخ من الفقراء ورتب لهم فيها الورق والاقلام لمن يريد النسخ . وفي يوم الخميس خامس رجب الفرد سنة إحدى وثلاثين وستمائة (١٢٣٣م) فتحت المدرسة المذكورة وحضره سائر (أرباب) الدولة والقضاة والأعيان والمدرسون ودرس فيها وكان يوماً مشهوداً وكانت خزانة كتبها عديمة المثل وأوقافها عظيمة واتفق أن غلتها في بعض السنين سبعون ألف دينار » .

وقال مؤلف كتاب الحوادث الذي سمي غلطاً الحوادث الجامعة يذكر أخبار سنة ٦٣١هـ : « في جمادي الاخر تكامل بناء المدرسة المستنصرية التي أمر بانشائها الخليفة المستنصر بالله وقد أنفق عليها أموالاً كثيرة ، فركب نصير الدين الناقد نائب الوزارة في يوم الاثنين خامس عشر جمادى الآخرة وقصد دار الخلافة واجتاز بها الى دجلة ونزل في شبارة من باب البشرى مصعداً الى الدار المستجدة (١) المجاورة لهذه المدرسة وصعد اليها وقبل عتبتها ودخلها وطاف بها ودعا لمالكها وكان معه أستاذ الدار — أي دار الخلافة — مؤيد الدين أبو طالب محمد بن العلقمي وهو الذي تولى عمارتها ثم عاد متوجهاً الى داره في الطريق التي جاء بها وخلع على أستاذ الدار وعلى أخيه وعلى حاجبه عبدالله بن جمهور وعلى المعمار والفراشين المرتبين في الدار المذكورة المستجدة وعلى مقدمي الصناع ، ونقل في هذا اليوم الى المدرسة من الربعات الشريفة — أي أجزاء القرآن المفصلة — والكتب النفيسة المحتوية على العلوم الدينية والأدبية ما حمله مائة وستون حمالاً وجعلت في خزانة الكتب وتقدم (أي صــدر أمر) الى الشيخ عبدالعزيز (الناسخ) شيخ رباط الحريم بالحضور بالمدرسة واثبات الكتب واعتبارها — يعني جردها — والى ولده العدل ضياء الدين أحمد الخازن بخزانة كتب الخليفة التي في داره أيضاً فحضر واعتبرها ورتبها أحسن ترتيب مفصلاً لفنونها ليسهل تناولها ولا يتعب مناولها .

« وفي يوم الخميس خامس شهر رجب حضر نصير الدين بن الناقد نائب الوزارة وسائر الولاة والحجاب والقضاة

---

(١) هي دار القرآن التي أمر المستنصر أيضاً بانشائها لتدريس الأيتام القرآن ولا يزال إيوانها الحافل بالريازة الفائقة المرممة قائماً شاهداً بفخامتها وبهائها .

والمدرسون والفقهاء ومشايخ الربط والصوفية والوعاظ والقراء والشعراء وجماعة من أعيان التجار الغرباء الى المدرسة وتخير لكل مذهب من المدارس وغيرها (اثنان وستون نفساً) ورتب لها مدرسان ونائبا تدريس أما المدرسان فمحيي الدين أبوعبدالله محمد بن يحيى بن فضلان الشافعي ورشيد الدين أبوحفص عمر بن محمد الفرغاني الحنفي ، وخلع على كل واحد منهما جبة سوداء وطرحة — أي طيلسان — كحلية وأمطي بغلة بمركب جميل وعدة كاملة ، وأما النائبان فجمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن يوسف بن الجوزي الحنبلي نيابة عن والده لأنه كان مسافراً في بعض مهام الديوان ، والآخر أبو الحسن علي المغربي المالكي ، وخلع على كل واحد منهما قميص مصمت وعمامة قصب ، ثم خلع على جميع المعيدين وهم لكل مذهب أربعة ، خلع بالحكاية — أي كالسابقة — ثم خلع على المتولين للعمارة والصناع والحاشية وعلى المعينين للخدمة بخزانة الكتب وهم الشمس — يعني شمس الدين — علي بن الكتبي الخازن والعماد — يعني عماد الدين — علي بن الدباس المشرف ، والجمال — يعني جمال الدين — إبراهيم بن حذيفة المناول . ثم مد سماط في صحن المدرسة أجمع فكان عليه من الأشربة والحلواء وأنواع الأطعمة ما تجاوز حد الكثرة ، فتناوله الحاضرون تعبئة وتكويراً ثم أفيضت الخلع على الحاضرين من المدرسين ومشايخ الربط والمعيدين بالمدارس والشعراء والتجار الغرباء ثم أنشد الشعراء المدائح فيها وفي منشئها . ثم ذكر المدرسان المقدم ذكرهما الدروس كل واحد منهما على سدته والنائبان كل واحد منهما تحت السدة ثم قسمت الارباع — أي أرباع المدرسة — فسلم ربع القبلة الأيمن الى الشافعية والربع الثاني يسرة القبلة للحنفية ، والربع الثالث يمنة الداخل للحنابلة والربع الرابع يسرة الداخل للمالكة، وأسكنت بيوتها وغرفها وأجري لهم الجراية الوافرة عملاً بشرط الواقف ، ثم نهض نصير الدين وأرباب الدولة والحاضرون ، وكان يومئذ الخليفة (المستنصر) جالساً في الشباك الذي في صدر الايوان ينظر جميع ما جرت الحال عليه .

« واشترط المستنصر بالله أن تكون عدة الفقهاء — يعني تلامذة الفقه — (مائتين وثمانية وأربعين) متفقهاً من كل طائفة اثنان وستون بالمشاهرة الوافرة والجراية الدارة واللحم الراتب والمطبخ الدائر الى غير ذلك من الحلواء والفواكه والصابون والبزر والفرش والتعهد ، وشرط أن يكون في دار الحديث التي بها شيخ عالي الاسناد ، وقارئان وعشرة أنفس يشتغلون بعلم الحديث النبوي وأن يقرأ الحديث في كل يوم سبت واثنين وخميس من كل اسبوع ، وشرط لهم الجراية الوافرة والمشاهرة والتعهد أسوة بالفقهاء — يعني تلامذة الفقه — وشرط أن يكون في الدار المتصلة بالمدرسة — يعني دار القرآن — ثلاثون صبياً أيتاماً يتلقنون القرآن المجيد من مقرىء متقن صالح ويحفظهم التلاقين ولهم من الجراية والمشاهرة والتعهد ما للمشتغلين بعلم الحديث . وشرط أن يرتب بها طبيب حاذق مسلم وعشرة أنفس من المسلمين يشتغلون بعلم الطب أو يوصل اليهم مثل ما للمقدم ذكرهم وأن يكون الطبيب يطب من يعرض له مرض من أرباب هذا الوقف ويعطي المريض ما يوصف له من أدوية وأشربة وغير ذلك وشرط أن يكون بالمدرسة من يشتغل بعلم الفرائض — أي قسمة التركات — والحساب الى غير ذلك مما اذا استقصى ذكره طال تعداده .

« وفي سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) تكامل بناء الايوان الذي أنشيء مقابل المدرسة المستنصرية وعمل تحته صفة يجلس فيها الطبيب وعنده جماعته الذين يشتغلون عليه بعلم الطب ويقصده المرضى فيداويهم ، وبني في حائط هذه الصفة دائرة وصورفيها صورة الفلك وجعل فيها طاقات لطاف — أي صغار — لها أبواب لطيفة ، وفي الدائرة بازان من ذهب في طاستين من ذهب ووراءهما بندقتان من شبه لا يدركهما الناظر فعند مضي كل ساعة ينفتح فما البازين وتقع منهما البندقتان ، وكلما سقطت بندقة انفتح باب من أبواب تلك الطاقات والباب مذهب فيصير مفضضاً ، وإذا وقعت البندقتان في الطاستين تذهبان الى مواضعهما ، ثم تطلع شموس من ذهب في سماء لازوردية في ذلك الفلك مع طلوع الشمس الحقيقية وتدور مع دورانها وتغيب مع غيبوبتها فاذا جاء الليل فهناك أقمار طالعة من ضوء خلفها كلما تكاملت ساعة تكامل ذلك الضوء في دائرة القمر ثم يبتدىء في الدائرة الأخرى الى انقضاء الليل وطلوع الشمس فيعلم بذلك اوقات الصلاة » . وقد استمر التدريس والتخريج للعلماء والفقهاء والمدرسين والأطباء في المستنصرية عدة قرون الى أن ذهبت أوقافها أو استولي عليها

فاتخذت خاناً في العصور الأخيرة ثم مخزناً للكمرك ثم استعادتها مديرية الآثار العتيقة وأصلحتها ورممتها وكذلك فعلت بايوان دار القرآن التي لم يبق منها الا الايوان وقد كانت بديعة ، وجاء في كتاب العسجد المسبوك لأبي الحسن الخزرجي بعد تفصيله أخبار افتتاح المستنصرية تفصيلاً كثيراً : « أنها لم ير مثلها أحد وأنها أحسن بناءاً وأحكم قواعد من كل أثر أثره الخلفاء الماضون والأئمة المهديون كالشاه والعروس والبرج والجوسق والمختار والغريب والبديع والقلاية والقصر والبركة والجعفري والمعشوق (بسامراء) » .

٤

أسوار بغداد الداخلية والخارجية

قد وصفنا سوري مدينة المنصور المدورة في كلامنا عليها في هذا الموجز وكانت الغاية من بناء السور في تلكم العصور كما معلوم الحماية من العدو ، أو الحفظ والصيانة من الغرق أو كلاهما معاً . وفي أيام الخليفة المستعين بالله وقد ولي الخلافة سنة ٢٤٩هـ (٨٦٣م) والحرب بينه وبين المعتز المتوكل المنازع له على الخلافة أنشيء سور دفاعي حربي على شرقي بغداد ، ولكنه سرعان ما زال ولم يبق له أثر لأنه كان وقتياً ، وفي الأزمان التي تلت ذلك كعصر المعتمد على الله وابن أخيه المعتضد بالله والمكتفي بالله والمقتدر بالله والقاهر بالله والراضي بالله والمستكفي بالله وعصر إمارة الأمراء وعصر بني بويه حتى سنة ٤٨٨هـ من العصر السلجوقي لم يكن لبغداد سور يحميها من الهجوم ويصونها من الغرق ، فكانت مفتوحة حربياً للهاجمين كمعز الدولة أحمد البويهي وأبي الحارث أرسلان البساسيري .

وفي سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٣م) غرقت بغداد الغرق الهائل الفظيع الذي هدم دورها وقصورها وأخرب معمورها ، قال سبط ابن الجوزي : « طفح الماء من البرية على الحريم (يعني حريم دار الخلافة) وأخرب أسوار المحال ونبع الماء من أسفل وجاء من فوق وقلع الطوابيق من دار الخليفة ودور الناس ونبعت البلاليع ووقع بعض الدور على بعض فصارت تلالاً عالية وآثاراً عافية ، وغرق الجانب الغربي وخرج الموتى من القبور في التوابيت على رأس الماء من عند قبر الامام أحمد (ابن حنبل) رحمة الله عليه والمشهد (يعني مشهد الامام موسى بن جعفر [ع]) ووقعت الخانات والمنازل . . . وأصبحت دار الخلافة تلالاً . . . ووقعت جميع الدور والمنازل التي في جانب بغداد الشرقي وتهدمت مائة ألف دار وأكثر . . . ودخل الماء من شبابيك الجوامع والمساجد وكان الماء في الجامع (يعني جامع القصر الذي من بقاياه جامع سوق الغزل) قامة . . . » وذكر أكثر من ذلك ابن الجوزي في المنتظم وأقل منه ابن الأثير في الكامل .

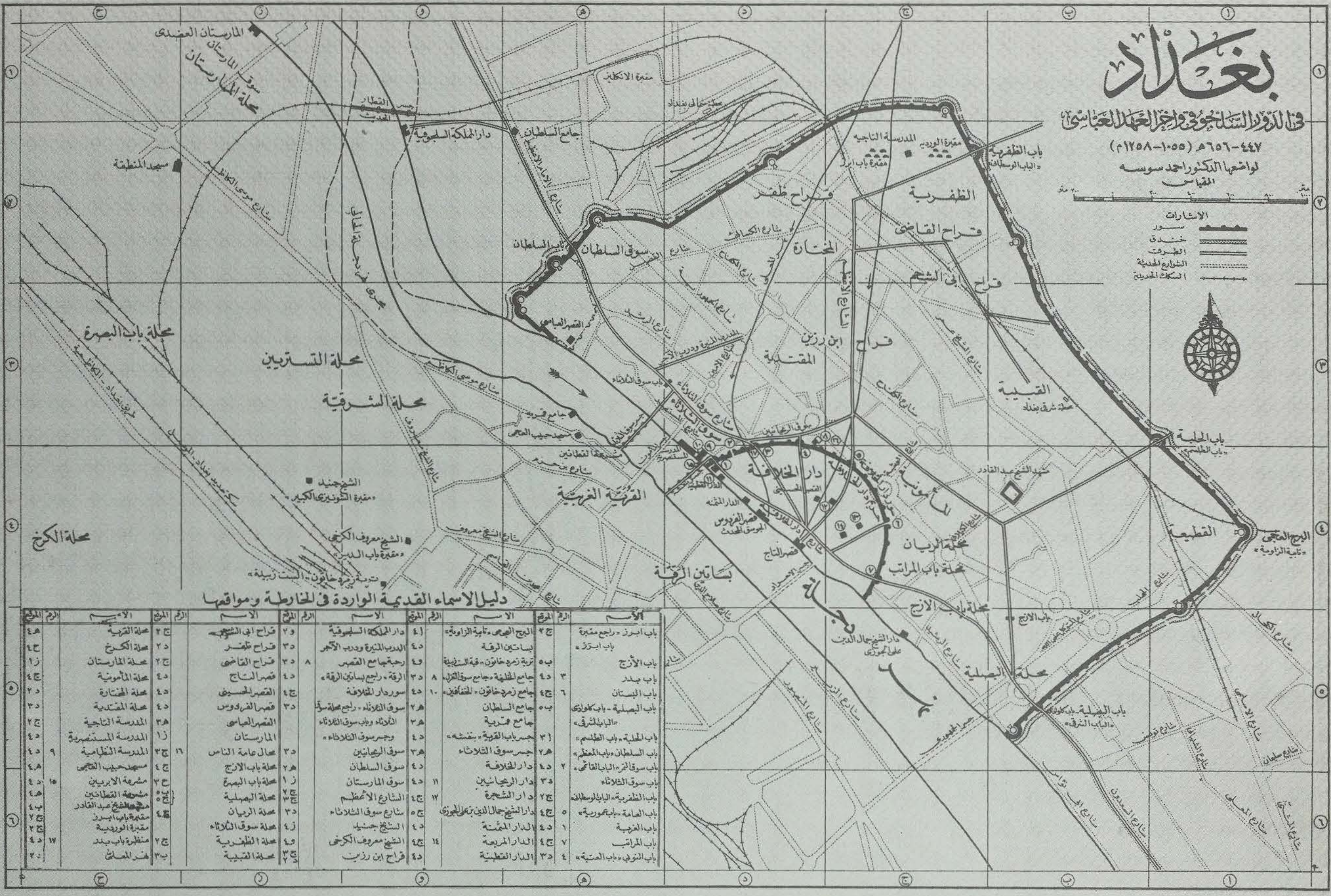
وهذه الكثرة الكاثرة من الدور والمنازل والأسواق في الجانب الشرقي كانت نتيجة لتجمهر السكان حيال دار الخلافة العباسية وطلبهم الأمن والدعة وابتعادهم عن المزعجات والتعدي ، كما أن باب المراتب وهو باب دار الخلافة الجنوبي الشرقي ملجأ للخائفين وملاذاً للمطلوبين ومراداً للشاكين ، لأن حماية الخليفة كانت تمتد الى الحريم والى من يصل الى هذا الباب . ولذلك زاد عمران هذا الجانب حتى أصبح الجانب الغربي بعيداً عن مساواته في العمارات والحياة والسكان .

ســور دار الخلافــة :

وكان أثر ذلك الغرق العـام سيء الأثر في النفوس والأملاك والعمران ، فحمل أولي الأمر أن يتخذوا سـوراً حول حريم دار الخلافة أي الجانب الشـرقي الأسفل ، وفي سـنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥م) على عهد الخليفة المستظهر بالله خط عميـد الدولة أبو منصور محمد بن محمد المعروف بابن جهير التغلبي وزير الخليفة خطة السور وقلد عمله أحد رجال الدولة وأمر بجبايات الأموال من الناس ذوي العقار والدور للانفاق على إنشاء السور وأذن للعوام في التفرج والتبرع في المشـاركة في البنـاء والانشاء ، فظهرت بذلك فنون اللهو الشعبية وطباع سكان بغداد المرحة ، فان كثيراً منهم خرجوا بالسـلاح والأعلام والأبواق والطبول ومعهم المعاول والسلال وأنواع الملاهي من الزمارات والحكايات ــ أي التمثيل الشعبي ــ فأهل محـلة باب المراتب صنعوا فيلاً من البواري المقيرة وتحته رجال يسيرون به وعملوا زرافة كذلك ، وجاء أهل محـلة قصر عيسى بسميرية كبيرة وهي نوع متوسط من السفن وفيها ملاحون يجذفون وهي تجري على حادور يشبه الجروخ قد عملوه ، وأتى أهل سوق يحيى بناعورة تدور معهم في الأسواق ، وعمل أهل سوق المدرسة التتشية قلعة خشب تسـير على عجل وفيها حائك ، والخبازون من أهل سوق الثلاثاء جاؤوا بتنور تحته ما يسيره والخباز يخبز ويرمي بالخبز الى الناس ، فبنوا من السـور مائة قامة فقط وحدثت عوائق عن إتمامـه ، وخصوصاً تنازع الملوك السلجوقيين على السلطنة وهم بركيارق ومحمد وسنجر أبناء ملكشاه الكبير ، فكانت بغداد عرضة لاستيلاء كل قوي الجيش وأصبح الناس في بلاء ومعرضين للاعتـداء ، والخليفة المستظهر مشغول بالخطبة لهـذا الملك وقطع الخطبة لذاك والاصـلاح بينهما ، مع خمول همته ، وميله الى الدعة واستكفاء المزعجات .

السور الكبير في الجانب الشرقي من المدينة :

ثم توفي المستظهر سنة ٥١٢هـ (١١١٨م) وبويع بالخلافة ابنه المسترشد بالله واسـمه الفضل ، وكان خليفة هماماً شجاعاً غيوراً على شـرف الخلافة مثقفاً مؤمناً بالحدثان وأخبار المغيبات المعروفة عنـد الافرنج بـ (Eschatology) ، فكان يرى نفسه الرجل الذي بعثه الله تعالى لاصلاح الأمة وشؤون السياسة وفتح العـالم ونشـر العدل والأمن فيه بعـد إزالة الجور والمظالم والظالمين ، ففي سنة ٥١٧هـ (١١٢٣م) عزم على بناء السور للجانب الشـرقي من بغداد فأمر بجباية العقـار كما فعل وزير أبيه فحصل من ذلك مالاً كثيراً ولكن الناس ضجوا وجزعوا لقلة ما في أيديهم وكثرة الأحداث التي أصابتهم ، فأعاد المسترشد أموالهم وأنفق على إنشاء السور من أمواله وأذن للناس في التفرج والمشاركة في العمل والبناء ، فخرجوا على تلك الحال التي كانت في أيام أبيه وصار أهل كل محلة يعملون اسبوعاً ، فأنشأ السور وجعل له أربعـة أبواب هي : الباب الأعلى الذي سماه الناس « باب السلطان » ، أي السلطان طغرلبك لأنه دخل بغداد هناك وعرف في العصور الأخيرة بـ « باب المعظم » ، ثم باب الظفرية وهو الباب المقابل لمحلة الظفرية من محلات شرقي بغـداد ، وهو الذي عرف في العصـور الأخيرة بـ « البـاب الوسـطاني » و« باب الحلبـة » ، وهو الذي عرف بالعصـور الأخيرة بـ « باب الطلسم » لأن في أعلى الباب تمثال رجل متربع وعلى كل يمنته ويسرته تمثال أفعى عظيمة ، وعد العامة ذلك طلسمة لبغداد تحفظها من الأعـداء ، وهذا الباب كان من تجديدات الناصر لدين الله للسور وترميماته سـنة ٦١٨هـ (١٢٢١م) وقد اتخذه الأتراك في أيامهم الأخيرة بالعراق مخزناً للبارود ثم أوقدوا النار في البارود ونسفوه ليـلة خروجهم من بغداد وإخلائهم لها للانكليز ، أي ليلة ١١ آذار سنة ١٩١٧م . فكانت هذه الحيطة الحربية شؤماً على هـذا الأثر العربي الاسلامي الرائع ، لأنه على كونه يمثل ما وصلت اليـه عمارة الأسوار في القرن السـابع للهجرة كانت علية كتابة تذكر تاريخ إنشائه واسم منشئه الناصر لدين الله مع الدعاء فضلاً عن الآيات القرآنيـة الكريمة . والباب الرابع من أبواب السور المذكور هو « باب البصلية » نسبة الى محلة مجاورة له كان يزرع فيها البصل ويسمى في العصور التي قبـل الأخيرة « باب كلواذا » نسبة الى قرية كلواذا القريبة من بغداد من الجنوب ، فكان الخارج من هذا الباب يلاقي أول ما يلاقيـه في



دليل الاسماء القديمة الواردة في الخارطة ومواقعها

الاسم	الرقم	الموقع	الاسم	الرقم	الموقع	الاسم	الرقم	الموقع	الاسم	الرقم	الموقع	الاسم	الرقم	الموقع
باب ابرز «راجع مقبرة		ج ٢	البرج العجمي «تابية الزاوية»		أ ٤	دار المملكة السلجوقية		و ٢	قراح ابي الشحم		ج ٢	محلة القرية		هـ ٤
باب ابرز»			بساتين الرقة		د ٤	الدروب المنيرة ودرب الآجر		د ٣	قراح ظفر		د ٢	محلة الكرخ		ح ٤
باب الأزج		ب ٥	تربة زمرد خاتون «قبة الست زبيدة»		و ٤	رحبة جامع القصر	٨	د ٣	قراح القاضي		ج ٢	محلة المارستان		ز ١
باب بدر	٣	د ٤	جامع الخليفة «جامع سوق الغزل»	٨	د ٣	الرقة «راجع بساتين الرقة»		د ٤	قصر التاج		د ٤	محلة المأمونية		ج ٤
باب البستان	٦	ج ٤	جامع زمرد خاتون «الخفافين»	١٠	د ٤	سور دار الخلافة		ج ٤	القصر الحسني		د ٤	محلة المختارة		د ٢
باب البصلية - باب كلواذى		ب ٥	جامع السلطان		هـ ٢	سوق الثلاثاء «راجع محلة سوق		د ٣	قصر الفردوس		د ٤	محلة المقتدية		د ٣
«الباب الشرقي»			جامع قمرية		هـ ٣	الثلاثاء وباب سوق الثلاثاء			القصر العباسي		هـ ٣	المدرسة التاجية		ج ٢
باب الحلبة «باب الطلسم»		أ ٣	جسر باب القرية «بنفشه»		د ٤	وجسر سوق الثلاثاء»			المارستان		ز ١	المدرسة المستنصرية		د ٤
باب السلطان «باب المعظم»		هـ ٢	جسر سوق الثلاثاء		هـ ٣	سوق الريحانيين		د ٣	محال عامة الناس	١٦	ج ٣	المدرسة النظامية	٩	د ٤
باب سوق التمر «الباب القاسمي»	٧	د ٤	دار الخلافة		د ٤	سوق السلطان		هـ ٢	محلة باب الازج		ج ٤	مشهد حبيب العجمي		هـ ٤
باب سوق الثلاثاء		د ٣	دار الريحانيين	١١	د ٤	سوق المارستان		ز ١	محلة باب البصرة		ح ٣	مشرعة الابريين	١٥	د ٤
باب الظفرية «الباب الوسطاني»		ج ٢	دار الشجرة	١٢	ج ٤	الشارع الأعظم		ج ٢ ج ٣	محلة البصلية		ب ٥ ج ٥	مشرعة القطانين		هـ ٤
باب العامة «باب عمورية»	٥	ج ٤	دار الشيخ جمال الدين بن علي الجوزي		ج ٥	شارع سوق الثلاثاء		د ٣	محلة الريان		ج ٤	مشهد الشيخ عبد القادر		ب ٤
باب الغربة	١	د ٤	الدار المثمنة		د ٤	الشيخ جنيد		ز ٤	محلة سوق الثلاثاء			مقبرة باب ابرز		ج ٢
باب المراتب	٧	ج ٤	الدار المربعة	١٤	ج ٤	الشيخ معروف الكرخي		و ٤	محلة الظفرية		ج ٢	مقبرة الوردية		ج ٢
باب النوبي «باب العتبة»	٤	د ٣	الدار القطبية		د ٤	قراح ابن رزين		ج ٣ د ٢	محلة القبيبة		ب ٣	منظرة باب بدر	١٧	د ٤
												نهر المعلى		د ٢

مغادرته بغداد قرية كلوذا المذكورة وكانت قرب الكرادة الحالية ، وقد عرف هذا الباب في العصور الأخيرة بـ « الباب الشرقي » وقد هدمته أمانة العاصمة بعد أن اتخذه الانكليز بيعة لجنودهم .

وقد تقدم ذكر سور دار الخلافة الداخلي وسورها الخارجي ، ونقلنا خبراً يفيد أن الحريم الطاهري كان مسوراً قبل القرن الخامس للهجرة ولما بدأت الفتن المذهبية بين أهالي محلات بغداد ، أخذ سكان كل محلة يسورونها بأسوار وثيقة الأبواب والبنيان للدفاع عند هجوم خصومهم ، وصار لكل محلة بابان عامان معقودان عليهما طاقان من الآجر كان الواحد منهما يسمى « العقد » وأصبحت في العصور الأخير كلمة « العقد » تطلق على المحلة كلها ، كما كان الباب يطلق على المحلة كلها قبل ذلك كباب البصرة المحلة الكبيرة التي نشأت حيال باب البصرة من أبواب مدينة المنصور المذكور قبلا مع سائر أبوابها ، فمن تسمية المحلة بالعقد اليوم « محلة عقد القشل » بشرقي بغداد العتيقة وعقد النصارى ، ومن يطالع كتاب فيليكس جونس يجد عشرات العقود التي أريد بها المحلات أيامئذ .

٥

الآثار الباقية من عصور بني العباس

ذكرنا من الآثار الباقية من عصور بني العباس استطراداً لا قصداً « باب الظفرية » أحد أبواب سور بغداد الشرقية الجنوبية ، وقد قدمنا صورته في البحث عن أوصاف أبواب مدينة المنصور ، والراجح أن بانيه هو الخليفة الناصر لدين الله كما يفهم من قول ابن كثير في تاريخه البداية والنهاية من تجديد الناصر لدين الله سور بغداد قبل سنة ٦٠٠هـ ومن نموذج خط الطومار المكتوب بالآجر في أعلى البرج ، ومن فحوى الدعاء للباني ونصه : « ولا زالت دعوته الهادية للدين قواما ، وللاسلام نظاما ، ولدولته القاهرة سكينة وللامة اعتصاما ، ولمدينة السلام باباً . . . وأنوار . . . »

وذكرنا أيضاً « باب البصلية » الذي عرف أيضاً بباب كلواذا وهو الباب الجنوبي من أبواب السور المذكور ، وذكرنا المدرسة المستنصرية التي لا تزال شاخصة المباني غاية المغاني زاهية الريازة بفضل عناية مديرية الآثار ، وينبغي لنا أن نتكلم على مابقي شاخصاً من آثار بني العباس اتماماً لهذا البحث ، فمنها « منارة جامع الخفافين » وهومسجد الحظائر الذي أمرت بانشائه السيدة زمرد خاتون التركية زوج الخليفة المستضيء بأمر الله ووالدة الخليفة الناصر لدين الله وقد توفيت سنة ٥٩٩هـ ، وهي أقدم المنائر القائمة . ومنها تربة السيدة زمرد المذكورة آنفاً ، أمرت بانشائها في حياتها قرب مقبرة الشيخ معروف الكرخي وهي ذات قبة مخروطية من الطراز السلجوقي وقد رممت غير مرة الا أن موادها الأصلية وشكلها الأصلي وهندستها الأصلية على حالها القديمة ، وقد اشتهرت بين العامة بقبة « الست زبيدة » زوج هارون الرشيد مع أنها كانت مدفونة في مقابر قريش كما جاء في حوادث سنة ٤٤٣هـ من كامل ابن الأثير في أخبار الفتن المذهبية .

ومنها دار المسناة الناصرية التي أنشأها الخليفة الناصر لدين الله في أوائل خلافته وتعرف أيضاً بالقصر العباسي على شاطىء دجلة جنوبي وزارة الدفاع التي هي القلعة الداخلية قديماً ، ويرى بعض الباحثين أنها « المدرسة الشرابية » التي

أسسها إقبال الشرابي مقدم الجيوش العباسية وإن كان بابها شارعاً على دجلة ومنحرف المدخل يمنة ويسرة خلافاً للهندسة العامة للمدارس العربية الاسلامية ، وقد وضع الناصر لدين الله فيها كتباً نفيسة كما ذكر القفطي في ترجمة برهان الدين أبي الرشيد أحمد بن علي المهندس الحاسب المتوفي سنة ٥٨٩هـ وهذه الدار رائعة الريازة جميلة المقرنصات منقوشة الأيوان بصنوف تزايين الآجر ، واسعة الأبهاء ، ضيقة الأروقة والممرات عديدة الحجر والغرف ملوكية الهيأة والشكل ، وقد اتخذت متحفة للآثار الاسلامية ، فأخفى ذلك بعض روعتها .

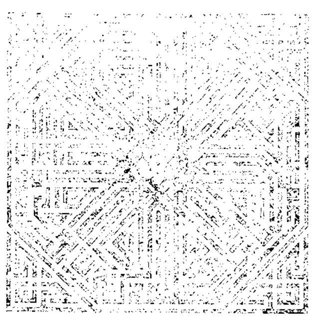
ومنها منارة تربة الشيخ معروف الكرخي بالجانب الغربي من بغداد وهي منارة على قصرها رشيقة القوام ، ظاهرة الأنسجام ، محكمة البناء جميلة الانشاء ، في حوضها مقرنصات جميلة وأواوين صغار زخرفية ، وقد كتب في أحدها أنها بنيت سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م) وهي السنة التي توفي فيها ولي عهد الخلافة العباسية الملك المعظم أبو الحسن علي الناصر لدين الله فدفن عند جدته زمرد خاتون المقدم ذكرها قرب تربة الشيخ معروف الكرخي ، والظاهر أن الناصر لدين الله هو الذي أمر بانشائها .

ومنها منارة مسجد قمرية على شاطىء دجلة بالجانب الغربي في محلة قصر عيسى القديمة وهي مما أنشأه المستنصر بالله باني المستنصرية وكان إنشاؤه إياها سنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) وهي قليلة الروعة عديمة التناسب لاتبلغ هندستها هندسة منارة الشيخ معروف الكرخي التي قدمنا الكلام عليها .

ومنها دار القرآن المستنصرية وقد مضى الكلام عليها وعلى إيوانها الرائع الريازة والزخارف ، ولكنها بالنسبة إلى إيوان القصر العباسي تعد ساذجة ، كما يظهر للمتأمل العارف لهذا الفن .

وقد ذكرنا أن أمانة العاصمة هدمت باب كلواذا ، وهدم الأتراك قبلها باب الحلبة ، وهدم غيرهم ما بقي من بروج سور بغداد ، وكان في ذلك خسران عظيم للتاريخ والحضارة عموماً ولآثار بغداد خصوصاً ، وكانت ببغداد قطعة من منارة في محلة باب الاغا الحالية في درب عرف عند العامة بدربونة المنارة المقطومة ، أي المقطوعة من أعلاها ، والظاهر أنها منارة المدرسة الامامية التي أنشأها إمام الدين يحيى البكري والي العراق المتوفى سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ، وقد هدمت في الأيام الأخيرة وأدخل موضعها في إحدى الدور ، وما أحرانا بأن نستشهد بقول الشاعر القديم :

مررت برسم في سياث فراعني	به زجل الأحجار تحت المعاول
تناولها عبل الذراع كأنما	رمى الدهر فيما بينهم حرب وائل
أتتلفها شلت يمينك خلها	لمعتبر أو زائر أو مسائل
منازل قوم حدثتنا حديثهم	ولم أر أحلى من حديث المنازل



٦

المدينة في أواخر العهد العباسي

وفي العهد العباسي الأخير والأدوار التي أعقبته فقدت المدينة أكثر بناياتها فتقلصت من حيث سعة مساحتها وانحصر معظم عمرانها في الجانب الشرقي الواقع داخل السور الكبير (١) . فوصف ابن جبير في رحلته عند زيارته لبغداد سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) الجانب الغربي فذكر « أن الخراب قد عمه واستولى عليه . . . ولكنه مع استيلاء الخراب عليه يحتوي على سبع عشرة محلة كل محلة منها مدينة مستقلة ، وفي كل واحدة منها الحمامات وصلاة الجمعة في ثمان منها ، وأكبرها القرية التي نزلنا فيها . . . ثم الكرخ وهي مدينة مسورة ، ثم محلة باب البصرة وهي أيضاً مدينة وبها جامع المنصور رحمه الله وهو جامع كبير عتيق البنيان ، ثم الشارع وهي أيضاً مدينة فهذه الأربع أكبر المحلات ، وبين الشارع ومحلة باب البصرة سوق المارستان وهي مدينة صغيرة فيها المارستان (العضدي) (٢) الشهير ببغداد وهو على دجلة . . . وأسماء سائر المحلات يطول ذكرها . . . ومن أسماء المحلات العتابية ومنها الحربية وهي أعلاها . » وأهم المواقع التي ذكرها ابن جبير في هذا الجانب قبر معروف الكرخي (رض) وقبر الامام موسى بن جعفر (ع) ، وقد ذكر أيضاً أنه شاهد في الطريق الى باب البصرة مشهداً شاهق البنيان داخله قبر كتب عليه هذا قبر عون ومعين من أولاد أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع) وهو خطأ منه (٣) . أما الجانب الشرقي من المدينة وهو الجانب العامر في ذلك الوقت سماه ابن جبير (الشرقية) وذكر أن أهم ما فيه دار الخلافة وفيها المناظر والقصور الرائقة والبساتين الأنيقة فيؤلف الربع من الشرقية أو أزيد ، ثم وصف السور الكبير وأبوابه الأربعة ذاكراً أسماءها ، ومن جملة ما ذكره أن عدد المدارس في بغداد يبلغ ثلاثين مدرسة ، وهي كلها بالشرقية وأعظمها وأشهرها المدرسة النظامية . ومن المباني التي ذكرها ابن جبير في هذا الجانب من المدينة الجوامع الثلاثة الكبيرة التي كان يجمع فيها ، وهي جامع الخليفة وجامع السلطان وجامع الرصافة ، وقد ذكر أيضاً ترب الخلفاء ومحلة أبي حنيفة بالرصافة . وقد وصف ابن جبير من الجانب الشرقي القسم الواقع خارج السور الكبير فسماه « المدينة العتيقة » ، وكانت أهم محلة من المحلات المحيطة بدار الخلافة داخل السور الكبير « محلة سوق الثلاثاء » التي كان فيها أعظم سوق في الجانب الشرقي ، وقد أصبحت في هذا العهد الأخير المركز التجاري الرئيس لبغداد ومنها المدرسة النظامية .

---

(١) أنظر ما تقدم حول هذا السور .

(٢) أنظر ما تقدم حول هذا المارستان .

(٣) كانت تربة عون ومعين هذه على ضفة دجلة على مقربة من تربة « سلجوقي خاتون » الاخلاطية السلجوقية زوجة الناصر لدين الله وقد جرفتهما مياه النهر .

وظلت بغداد بعد احتلال هولاكو لها سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) تتقاذفها أمواج الحروب فتتناوبها أيدي الحكم من احتلال إلى آخر زهاء أربعة قرون متتالية إلى أن احتلها السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٤٨هـ (١٦٣٨م)، وبقيت منذ ذلك الزمن تحت حكم العثمانيين حتى الاحتلال البريطاني في سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) ، فقد حكم فيها الايلخانيون أخلاف هولاكو مدة ٨٢ عاماً من سنة ٦٥٦هـ إلى سنة ٧٣٨هـ (١٢٥٨ ــ ١٣٣٨م) ، ثم عقبهم الجلايريون ، فلم يمض على ذلك أكثر من ٥٧ عاماً حتى احتل تيمورلنك المدينة فيسنة ٧٩٥هـ (١٣٩٢م)، الا ان حكم تيمورلنك لم يدم طويلاً فقد استعاد الجلايريون الحكم فيها سنة ٧٩٧هـ (١٣٩٤م) ، ثم لم يلبث هؤلاء الجلايريون أكثر من ست سنوات حتى عاد تيمورلنك فاحتل المدينة للمرة الثانية في سنة ٨٠٣هـ (١٤٠٠م) فبقي فيها هذه المرة زهاء خمس سنوات حتى عاد الجلايريون إلى الحكم سنة ٨٠٨هـ (١٤٠٥م). وفي سنة ٨١٤هـ (١٤١١م)، حلت محلهم أسرة تركمانية تسمى (قرەقوينلو) ثم أجلتها عن بغداد في سنة ٨٧٤هـ (١٤٦٩م) أسرة تركمانية أخرى تسمى (آق قوينلو) ، وقد استمر حكم هذه الأسرة الأخيرة أربعين عاماً ، ثم استولت جيوش الشاه اسماعيل الصفوي الأول ملك الفرس على بغداد في سنة ٩١٤هـ (١٥٠٨م)، وأجلت أولئك التركمان عنها، وجاءت بعد ذلك قبيلة موصلو الكردية فنازعت الفرس على الحكم فتمكنت من انتزاعه منهم مدة ست سنوات ، الا أن الصفويين تمكنوا من استرجاع الحكم من القبيلة المذكورة ، لكنهم اضطروا بعد خمس سنوات من حكمهم الى الجلاء عن المدينة ثانية وتسليمها الى الأتراك العثمانيين فدخلها السلطان سليمان في ٢٤ جمادي الأولى سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) ، وظلت بغداد تحت الحكم العثماني زهاء تسعين سنة ، ثم تمكن الفرس من اعادة احتلالها للمرة الثالثة في سنة ١٠٣٢هـ (١٦٢٢م) على عهد الشاه عباس الصفوي ، غير أنهم بعد سنين قلائل أخرجوا منها أيضاً ، فقد فتحها السلطان مراد الرابع في ١٨ شعبان سنة ١٠٤٨هـ (١٦٣٨م) كما أشرنا اليه ، وظلت بغداد منذ هذا التاريخ تحت الحكم العثماني حتى احتلال الجيش البريطاني لها في سنة ١٩١٧م .

٧

بغداد في عصر الأيلخانيين

كان استيلاء المغول على بغداد واجتياحهم العراق والعالم الاسلامي واكثر العالم العربي صدأ لتيار الحضارة والثقافة برهة من الدهر ، فقد هدموا كثيراً من المباني العظيمة والمعاهد الجسيمة والمدارس الجليلة ودمروا عديداً وفيراً من المدن العامرة والقرى الزاهرة ، والضياع الفاخرة ، وتلف كثير من الكتب العلمية والكتب الفنية والكتب الأدبية ، بسبب معرة الحروب وإحراقها وإغراقها ، فضلاً عمن أبادهم السيف في مختلف الأقطار والأصقاع من العلماء والفقهاء والحكماء والفهماء والمحدثين والمفسرين والأدباء وأهل الفنون والشعراء ، فتضاءل بفقدهم العلم والفقه والعلوم الاسلامية الأخرى والأدب بفرعيه النثر والشعر ، إلا فن الغناء والموسيقى والحساب وعلم الجباية والادارة .

ويهمنا جداً وصف بغداد بعد ذلك الاحتلال والاختلال ، قال صفي الدين عبدالمؤمن بن عبدالحق البغدادي في كتابه مراصد الاطلاع : « وكانت بغداد عظيمة فخربت باختلاف العساكر اليها واستيلائهم على دور الناس وأمتعتهم فلم يبق من الجانب الغربي إلا محال متفرقة ، أعمرها كان الكرخ ، وخرب من الجانب الشرقي من الشماسية (يعني أرض الصليخ الحالية) الى المخرم (يعني أرض العلوازية الحالية) وبني السور على ما بقي منه على جانب دجلة حتى جاء التتر اليها فخرب أكثرها وقتلوا أهلها كلهم فلم يبق منهم غير آحاد كانوا نموذجاً حسناً وجاءها أهل البلاد فسكنوها وباد أهلها وهي الآن (٧٣٩هـ : ١٣٣٨م) غير التي كانت وأهلها غير من عهدناهم والحكم لله تعالى » .

وهذا القول وإن كان مبالغاً فيه وخصوصاً قوله « وقتلوا أهلها كلهم » يشعر بقلة سكان بغداد بعد الفاجعة الكبرى ، وخلو محلاتها بحيث وجد أهل البلاد الأخرى من العراق مواضع فيها لسكناهم وإقامتهم ، ولعله عد أهله وأباه وجده من الآحاد الباقين من أهل بغداد ! !

وأحسن من وصف مدينة بغداد في العهد الايلخاني المشار اليه آنفاً هو ابن بطوطة الرحالة المغربي ، فقد زار بغداد في سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٧م) فقال إن أكثر الجانب الغربي منها خراب وقد بقي منه ثلاث عشرة محلة ومن هذه المحلات محلة باب البصرة ، وكان ابن بطوطة آخر من شاهد جامع المنصور فذكر موضعه في محلة باب البصرة من الجانب الغربي من بغداد . أما المارستان فقال : « إنه قصر كبير خرب بقيت منه آثار » . ومن جملة المواضع التي شاهدها في الجانب الغربي قبر الشيخ معروف الكرخي قال في محلة باب البصرة وهو خطأ منه ، ولعله نقل ذلك من أفواه الناس وخلط بين باب البصرة ومحلة قطفتا المجاورة له ، وذكر قبر عون ومعين الذي ذكره ابن جبير من قبل كما ذكر قبري الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد (ع) فقال إنهما داخل الروضة عليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة . وشاهد قبر أحمد بن حنبل ـ رض ـ ولا قبة عليه ، وذكر أن بالقرب منه قبر سري السقطي والجنيد بشر الحافي، وهذا خطأ أيضاً فان قبر الامام أحمد بن حنبل كان بباب حرب في الشمال الغربي من بغداد وقبر الجنيد والآخرين في الجنوب الشرقي منها . وذكر أن المساجد التي يخطب فيها وتقام فيها صلاة الجمعة في هذا الجانب أحد عشر مسجداً .

ومن المواضع التي ذكرها في الجانب الشرقي سوق الثلاثاء فوصفه بانه أعظم أسواق المدينة ، فيه كل صناعة على

حدة ، وفي وسطه المدرسة النظامية العجيبة التي صارت الأمثال تضرب بحسنها ، وفي آخره المدرسة المستنصرية ، وكانت تدرس فيها المذاهب الأربعة لكل مذهب إيوان فيه المسجد وموضع التدريس . ولما كان أكثر المدرسة المستنصرية لا يزال قائماً في موضعه كان وصف موضعها بالنسبة الى سوق الثلاثاء والمدرسة النظامية يساعد على تعيين موضعهما وإثباتهما بخارطة بغداد الحديثة . وقد ذكر أن المساجد التي تقام فيها صلاة الجمعة في الجانب الشرقي ثلاثة أحدها جامع الخليفة فقال إنه متصل بقصور الخلفاء ودورهم وهو جامع كبير فيه سقايات ومطاهر كثيرة للوضوء والغسل ، وهو كلام ابن جبير أعاده ابن بطوطة والصحيح أن الاتصال كان في سرداب يسمى « الأزج » لا على وجه الأرض ، ثم جامع السلطان وجامع الرصافة فذكر أن الأول يقع خارج البلد ، يعني بالنسبة الى السور المحيط ببغداد الشرقية يومئذ وتتصل به قصور تنسب للسلطان ، والثاني يقع على مسافة نحو الميل من الأول ، يعني جنوبي الأعظمية الحالية . ومن المواضع الأخرى التي وصفها في هذا الجانب مشهد الامام أبي حنيفة ـ رض ـ وعليه قبة عظيمة وزاوية يقدم فيها الطعام للوارد والصادر وهي الزاوية الوحيدة ببغداد على ما قال . وكانت ترب الخلفاء لا تزال قائمة في زمن زيارة ابن بطوطة لبغداد فذكر أنها تقع بالرصافة وعلى كل منها اسم صاحبه . وذكر اثنين وثلاثين خليفة كتبت أسماؤهم على قبورهم منهم المستعصم آخر الخلفاء العباسيين ، وهو كلام مبنى على الخيال لأن المغول لما قتلوا المستعصم أخفوا جثته مع جثتي ابنيه أحمد وعبدالرحمن ، ولم يعلم لواحد منهم قبر صحيح بين القبور ، والذي قيل في ذلك اختراع وابتداع .

ويستبان مما دونه ابن بطوطة أنه كان في بغداد جسران في ذلك الوقت إلا انه لم يذكر موقعيهما ، وكان الأعلى منهما في موضع دار الضباط الحالية والأسفل بين أرض المحاكم المدنية وما يقابلها من الجانب الغربي . وقد وصف ابن بطوطة سور بغداد الشرقية بأبوابه الأربعة ، وهو السور الذي سبق أن وصفه ابن جبير وبقي قائماً الى أيام مدحت باشا والي بغداد فهو الذي هدم جداره وبنى من آجره القشلة ومدرسة الصنائع وغيرها .

اما ما استجد في أيام الايلخانيين وما رمم من المباني فيها، فمنها منارة جامع القصر المعروف أيضاً بجامع سوق الغزل في شرقي بغداد وهي منارة ضخمة جبارة قائمة في وسط بغداد عملاقة تتحدى الزمان والحدثان، ففي سنة ٦٧٠هـ (١٢٧١م) أمر علاء الدين عطا ملك الجويني والي العراق من قبل هولاكو ويعرف بصاحب الديوان بتجديد عمارة منارة جامع الخليفة المذكور آنفاً ، وكان مدير الأوقاف أيامئذ شهاب الدين علي بن عبد الله فشرع في التجديد وأنجز بناؤها في آخر شعبان من السنة المذكورة، ثم سقطت في شهر رمضان بعد فراغ الناس من صلاة التراويح ولم يتأذ أحد ممن كان في المسجد، فعزم على إعادة بنائها هذا البناء الجبار القاهر وشرع فيه حتى تكاملت سنة ٦٧٨هـ (١٢٧٨م) فعلى هذا تكون مدة إنشائها ثماني سنوات .

ومنها حمام شرف الدين هارون بن شمس الدين محمد الجويني ابن أخي علاء الدين المقدم ذكره ، فانه قد تولى الحكم على قاعدة عمه علاء الدين في سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) فأنشأ داراً فخمة على شاطىء دجلة وأقام فيها حماماً متقن الصنعة حسن البناء كثير الأضواء قد احتفت به الأنهار والأشجار واتخذت له أنابيب من الفضة المطلية بالذهب وغير المطلية ومنها ماهو على هيئة طائر فاذا خرج منها الماء صوتت بأصوات طيبة ، وفي الحمام أحواض من الرخام بديعة الصنعة والمياه تخرج منها من سائر الأنابيب الى الأحواض وترمي جميعها الى بركة حسنه الاتقان ثم منها تخرج الى البستان ، وفي الحمام نحو من عشر خلوات كل خلوة صنعتها أحسن من الأخرى ، وفيها خلوة عليها باب مقفل بقفل حديد فاذا فتحه الداخل مر في دهليز طويل كله مرخم بالرخام الأبيض الساذج وفي صدر الدهليز خلوة مربعة تسع نحو أربعة أشخاص على التقريب اذا كانوا قعوداً وتسع اثنين اذا كانا جالسين أو نائمين وحيطانها الأربعة مصقولة صقلا لا فرق بينه وبين صفاء المرآة ، يرى الانسان سائر بشرته في أي حائط شاءمنها ، وأرضها مصورة بفصوص من الفسيفساء من حمر وخضر ومذهبة وكلها متخذة من البلور المصبوغ بعضه أصفر وبعض أحمر فأما الأخضر فقيل إنها حجارة يؤتى بها من بلاد الروم (يعني أرض تركية الحديثة) والمذهب فهو زجاج ملبس بالذهب ، وعلى جدرانها صور في غاية الحسن والجمال على هيآت مختلفة في حالة

الاضطجاع والتفاعل الجنسي اذا نظر اليها المستحم تحركت شهوته ، وفي صدر الخلوة حوض رخام مضلع وفي صدره قد ركب أنبوب ذهب يفتح ويغلق بلولب يدار وفوقه أنبوب آخر للماء الحار وفوقه أنبوب ثالث للماء البارد فالأنبوب الأول للماء الفاتر وعن يمين الحوض ويساره عمودان صغيران منحوتان من البلور يوضع عليهما مباخر الند والعود الهندي .

ومنها المدرسة الامامية نسبة الى إمام الدين يحيى القزويني البكري صاحب ديوان بغداد المتوفى سنة ٧٠٠هـ (١٣٠٠م) ، قال مؤلف كتاب الحوادث في أخبار هذه السنة : « وفيها توفي الملك إمام الدين يحيى البكري القزويني صاحب ديوان بغداد ، بالحلة ، وحمل الى بغداد ودفن في تربة عملها في مدرسته بدرب فراشا وأقيم ابنه افتخار الدين في العراق مقامة » . وذكر صلاح الدين الصفدي أن إمام الدين المذكور أجاد بناء المدرسة وتحسينها وأنه بناها من أجل الشيخ تاج الدين علي بن أبي القاسم القزويني الشافعي الفقيه المتوفى سنة نيف وأربعين وسبعمائة وولاه التدريس بها وولاية أوقافها . وقد قدمنا حسباننا أن المنارة المقطوعة في محلة الدشتي الحالية التي هي درب فراشا العتيق من بقايا المدرسة المذكورة وأنها استولي عليها وأزيلت شيئاً فشيئاً .

ومنها مدرسة جمال الدين عبدالله العاقولي الذي نسبت اليه المحلة العاقولية الحالية المعروفة قديماً بمحلة درب الخبازين ، وقد توفي سنة ٧٢٨هـ (١٣٢٧م) بعد ولايته التدريس بالمستنصرية وغيرها والقضاء ببغداد والأوقاف ، ودفن بداره وكان قد وقفها على شيخ وعشرة صبيان أيتام يتلقنون القرآن بمحلة درب الخبازين المذكورة آنفاً ، وقد اتخذت داره مسجداً وقبره لا يزال في تربته وللتربة قبة ومنارة وسط تغلب عليها الضخامة والسذاجة في البناء مع الرصانة .

ومنها المدرسة العلائية نسبة الى علاء الدين علي عبدالمؤمن بن كردير المعروف بالسكرجي التركستاني قال كمال الدين ابن الفوطي في كتابه تلخيص معجم الألقاب : « هو الذي سمت همته الى عمل المدرسة العلائية بحضرة الجسر العتيق من مدينة السلام وحضر القاضي بدر الدين محمد بن علي بن ملاق الرقي ومعه جماعة من الفقهاء والرؤساء وهي في موضع حسن . . . وكان وضع أساس المدرسة العلائية يوم الأحد رابع وعشرين رجب سنة ثلاث وتسعين وستمائه ووضع الملبن على الباب في سابع شعبان وذبحوا بقرة تصدقوا بلحمها على الفقراء » . وقال في موضع آخر « . . . المدرسة الشاطئية الراكبة على كرسي الجسر العتيق المحاذي لمدرسة الشيخ ضياء الدين أبي النجيب عبدالقاهر السهروردي » . وهذا يعني أنها كانت في موضع دار الضباط الحالية وأنها كانت للحنفية ، وذبح بقرة واحدة لها يدل على ضآلتها .

ومنها المدرسة العصمتية نسبة الى عصمة الدين شاهلبني الأيوبية زوج ولي العهد أحمد بن المستعصم بالله التي خلف عليها بعد قتل هولاكو لزوجها علاء الدين عطا ملك الجويني والي العراق من قبل هولاكو ، وقد تكامل بناؤها سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) وكانت بجوار مشهدعبيدالله العلوي المعروفاليوم بأم رابعة شرقي الأعظمية لأنها هي نفسها أم رابعة بنت ولي العهد العباسية ودفنت هي وابنتها عند المشهد المذكور ، قال مؤلف الحوادث في حوادث السنة المذكورة : « وفيها تكاملت عمارة المدرسة التي أمرت بانشائها زوجة علاء الدين صاحب الديوان مجاور مشهد عبيدالله ـ ع ـ ظاهر بغداد وسميت العصمتية ووقفتها على الطوائف الأربع وبنت الى جانبها تربة لها ورباطاً للمتصوفة وفتحت في هذه السنة وجعلت النظر فيها الى شهاب الدين علي بن عبدالله والاشراف عليه الى من ولي قضاء القضاء ببغداد . »

ومنها مدرسة بهاء الدين عبدالوهاب المعروف بابن قاضي دقوقا ، قال ابن الفوطي في تلخيص معجم الألقاب : « فخر الدين أبو علي بن النجيب يعرف بابن قاضي دقوقا ، . . . كان من الأكابر الأعيان وهو الذي أنشأ المدرسة بباب الأزج وأتمها أخوه بها الدين وكانت له خيرات دارة وعليه رسوم للفقراء والقراء وله نسب متصل الى بني تغلب ، وكان حسن السيرة جميل المعاملة وكانت وفاته في العشر الأول من ذي الحجة سنة أربع وستين وستمائة ودفن بدار القرآن التي أنشأها مقابل المدرسة ، ونسبها ابن الفوطي في موضع آخر الى بهاء الدين قال في ترجمة فخر الدين

عبدالرحيم بن أحمد البغدادي الفقيه : « وهو من فقهاء الحنفية بالمستنصرية وشيخ دار القرآن المجاورة لمدرسة بهاء الدين ابن قاضي دقوقا بباب الأزج » . وأيد ذلك مؤلف الحوادث قال في أخبار سنة ٦٨٨هـ : « وفيها توفي بهاء الدين عبدالوهاب بن قاضي دقوقا ودفن في مدرسة بناها على شاطيء دجلة بباب الأزج وكان ذا مال وجاه من اكبر التناة بالعراق » . والظاهر لنا أن المدرسة كانت مقابل دار الاقامة البريطانية التي اتخذت مديرية للكمارك ، وقبالتها قبر مهمل في كراج سيارات كتب عليه في عصر التزوير إنه قبر ابي الفرج بن الجوزي مع أنه دفن بالجانب الغربي من بغداد باجماع المؤرخين ، ولعله قبر بهاء الدين المذكور وهو القول الراجح عندنا .

ومنها مدرسة مجد الدين محمد بن الأثير من غير بني الأثير الموصليين المشهورين ، وكان أحد الحكام بالعراق قتل سنة ٦٨٥هـ ، قال مؤلف الحوادث في أخبار السنة المذكورة : « في المحرم فوض الأمير أروق أمر العراق الى عزيز الدين الأربلي ومجد الدين اسماعيل بن الياس وخلع عليهما وعزل مجد الدين محمد بن الأثير والأمير تاج الدين علي جكيبان المشرف وسعد الدين القزويني الكاتب وسلموا الى عزيز الدين ومجد الدين (اسماعيل بن الياس) وأمر بمحاسبتهم ومطالبتهم بما تعمدوا به من المال فطولبوا وضويقوا ثم حملوا الى الأردو المعظم فأمر بقتلهم فقتلوا وحملت جثة ابن الأثير الى بغداد ودفن في تربة له في مدرسته وحملت جثة الأمير علي جكيبان الى بغداد أيضاً ودفن في تربة له مجاورة داره وجثة سعد الدين حملت الى بلده » .

ومنها المدرسة الغزانية أو الرشيدية أنشأها الوزير رشيد الدين فضل الله الهمذاني بباب الظفرية من شرقي بغداد في موضع يعرف بالغزاني كما يفهم من كتاب تلخيص معجم الألقاب لابن الفوطي قال : « عماد الدين علي بن فخر الدين الحسين بن علي بروصيد الواسطي الفقيه شاب فاضل وهو من جملة الفقهاء الذين اثبتوا في المدرسة التي (أمر) بانشائها المخدوم رشيدالدين فضل الله بن أبي الخير بالغزاني ببغداد في سنة ثلاث عشرة وسبعمائة» وكرر ذلك فسماها في موضع آخر « المدرسة الرشيدية » . وقد ذكر ابن الفوطي في معجمه المذكور عدة من أساتذتها وتلامذتها .

ومنها المدرسة المسعودية وهي منسوبة الى الخواجه مسعود بن سديد الدولة منصوربن هارون الهاروني اليهودي الأصل وقد أسلم والده سديد الدولة سنة ٧٣٥هـ وصار شافعياً ، وكان في أيام السلطان أويس ابن الشيخ حسن الكبير الجلايري حياً وقد أنشأ مسعود مدرسة وصفها بعض المؤرخين بانها في غاية الحسن جعلها وقفاً على المذاهب الأربعة المشهورة ، على حالة المستنصرية وأوقف عليها أوقافاً كثيرة وكتب على جدرانها بخطه ، وأنشأ فيها دار كتب كانت اكثر كتبها مكتوبة بقلمه ، وكان حسن الخط وكتب اسمه على جدران المدرسة بما هذا نصه : « وكتبه مسعود بن منصور بن أبي هارون (الهاروني) نسباً ، الشافعي مذهباً » . وكان نسبه يتصل بهارون أخي موسى ـ ع ـ وبنى مسعود أسواقاً في غاية الحسن . قال الغياث البغدادي : « ولما مات سديد الدولة عن مال كثير ورثه ولداه داود ومسعود ثم مات داود واستولى مسعود على الجميع ثم اقتضى رأيه أن يعمر هذه المدرسة فابتدأ بعمارتها في أيام السلطان أويس وانتهت في أيام السلطان أحمد . ولما تمت استدعي السلطان لينظرها وفرشوا تحت أرجله الديباج من مسافة ثلاثمائة ذراع وخواجه بهادر مملوك خواجه مسعود على كتفه قربة السقاء مملوءة من الدراهم رشها تحت أرجله أما باقي الولائم فلا نعرف شرحها . . . وقال بعض الشعراء . . . إن المزامير تتلى عند داود . ويعني به أخاه المدفون في المدرسة » . وقال الغياث البغدادي أيضاً في تاريخه : « لم يكن خواجه مسعودوزيراً وإنما كان بيده رواضع المدينة لا غير ، وكان قد ورث هو وأخوه داود من أبيهما مالاً كثيراً . ورواضع بغداد هي الأنهار الصغيرة التي تتفرع من الأنهار الكبيرة كدجلة والفرات . والظاهر ان النهر المسعودي والنهر الداودي في الجانب الغربي من بغداد منسوبأولهما الى مسعود المذكور وثانيهمامنسوب الى داودأخيه .

ومنها المدرسة المرجانية وهي منسوبة الى أمين الدين مرجان بن عبدالله بن عبدالرحمن من المماليك ولذلك يسميه المؤرخون المصريون بالطواشي أي العبد ، وكان مولى آل جلاير مؤسسي الدولة الجلايرية بالعراق واذربيجان ، وارتفع مقامه في أيام حكم الشيخ أويس خان الجلايري الايلكاني (٧٥٥ـ٧٧٣هـ : ١٣٥٦ـ١٣٧٤م) ، والكتابة المنقوشة في آجر

الأعلى من باب المدرسة تدل على أنه كان مملوكاً لامرأة منهم هي أم الشيخ حسن الكبير مؤسس الدولـة الجلايرية ، ومن هنا جاء نسبه « الاولجايني » وعلى وجه آخر « الأولاقايتي » بحسب لهجتين مغوليتين ، وكلتاهما مكتوبة في الآجر ، واسمها « أولجتاي » بنت الملك ارغون بن أباقا بن هولاكو ، كما جاء في جامع التواريخ لرشـيد الدين ، وما صحح بـه أحد المستشرقين الهولنديين في بعض جرائد بغداد من أن اسمها « أولجاي » وأن نسبته مرجان ينبغي ان تكون « الاولجائي » خطأ محض ، لأن الآثار المنقوشه المكتوبة هي الراجحة النص على كل نص مقول غير مكتوب على الحجر أو الآجر .

أسست هذه المدرسة لتدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي وشرط فيها أن تتخذ موضعاً لفصـل القضايا الشرعية الاسلامية والقضايا اليارغونية أي التي تجرى على قانون جنكيزخان « الياسق » ، ولكثرة ما اعتاد الناس الصلاة في مصلى هذه المدرسة في العصور الأخيرة سماها الناس « جامع مرجان » وهي تعرف اليوم بهذا الاسـم . وقد أمر مرجان نقش وقفيتها وتخليد اسمه ونسبه المجهول « عبد الله بن عبد الرحمن » ، لأن الناس كلهم عبيد الله وعبيد الرحمن، على الآجر، ونقلت نصوص الوقفية الآجرية الى مخازن مديرية الآثار العامة بعد هـدم المصلى وتصغير رقعة المدرسـة لتوسيع الطرق الحافة بها وتقويم شارع الرشيد ، وقد جاء في أعلى باب المدرسة ما هذا نصه على تشعث وانحتات في الكتابة :

« بسم الله الرحمن الرحيم ، إنما يخشى الله من عباده العلماء ، أنشأ هذه المدرسة المباركة والمصلى من فواضل . . . السعيد . . . أنار الله برهانها في دولة ولدها النويان الأعظم . . . الشيخ السعيد شيخ حسن . . . الله وكملت في ايالة ولده النويان الأعظم ، ناشر العدل في العالم ، سلطان السلاطين ، غياث الدنيا والدين ، ومغيث الاسلام والمسلمين شيخ أويس نويان . . . الله دولته ، على يد مولاهم الصاحب الأعظم ، ملجأ وملاذ الأمم ، مربي الملوك وعضـد السلاطين وكهف الضعفاء . . . المخصوص بعناية الرحمن أمين الدين مرجان ، أسبغ الله عليـه نعمـه الجز (يلة) إنه هو الكريم المنان ، ابتدأ عمارة هذا المكان في تاسع جمادي . . . وصلى الله على سيدنا ومولانا نبي الرحمن وشفيع الأمة ، ومجلي الغمة محمد وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين والتابعين لهم باحسان الى يوم الدين . كتبه العبد الضعيف المحتاج الى رحمة الله تعالى أحمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم التبريزيّ غفر الله ذنوبه وستر عيوبه » .

وقد دلت الكتابة على أن مرجان أنفق على إنشاء المدرسة من ماله الذي هو مال سيدته ألجتاي خاتون أم الشيخ حسن الكبير الجلايري ، لأن العبد وماله ملك لسيده بحسب الشريعة والسيد هو الوارث له إن مات أو ذرية سيده إن لم يكن حياً ، وأن المدرسة لم تتم في حكم الشيخ حسن فاستمر على إنشائها حتى تمت في أيام حكم ابنه أويس . ولا يبعد أن ألجتاي خاتون هي التي أوعزت مملوكها مرجان بانشاء المدرسة ، فقد أنشأت عند قبر والدها أرغون قرب بلده سـجاس غرب المدينة السلطانية رباطاً للفقراء المتصوفين ، كما جاء في تاريخ كزيدة للمستوفي .

ووقف مرجان كثيراً من الضياع والعقار والبساتين على هذه المدرسة منها الخان الفخم الذي لايزال قائماً شاهداً على عظمة بنائه ومتانة مواده الانشائية ، المعروف بخانالأورطمة أو الأرتمة أي المستور المغطى باللغة التركية واسمه باصطلاح ذلك العصر « تيم » على وزن « تين » وهو بالفارسية الخراسـانية « خان التجار » . والخان اليوم مقابل المدرسة يفصل بينهما شارع الرشيد ، وموضعه الخططي سوق الثلاثاء المؤدي الى المدرسة المستنصرية في تغريبه وقد رممته مديرية الآثـار واتخذته متحفة للآثار الاسلامية وسمته «دار الآثار العربية» . وقد سجل مرجان بعض الوقفية في أعلى باب الخان الشمالي وهذا نص التسجيل منقوشاً على الآجر :

« بسم الله الرحمن الرحيم. أمر بانشاء هذا التيم المبارك والدكاكين المولى المخدوم الأمر الصاحب الأعظم الأعدل ملك ملوك الامراء في العالم صاحب العدل الموفور عضد السلطنة والامارة حاوي مرتبة الوزارة والامارة ، افتخار شـهد الأوان (كذا) المخصوص بعناية الرحمن امين الدين مرجان الاولاقايتي ، وقفها على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة كذلك عقرقوف والنصف من القائمية وتل دحيم ومزرعة بالصراة وبساتين بالمخرمية وبساتين بقريـة الـترك

والزادماز وخرماباد (١) ورباط جلولاء المعروف بقزل رباط (٢) وزريرجوي ونصف دورين وبساتين ببعقوبا وبوهريز وبالبندنيجين (٣) وخان ودكاكين بالحلبة (٤) وأربع خانات بالجوهرين ودكاكين بالجوهرين وخان بالجانب الغربي ودكاكين كاغد بالحريم ، كما هو محدود ومشروح في الوقفية وقفاً صحيحاً شرعياً ، تقبل الله منه الطاعات في الدارين وبلغه نهاية المراد ، وكان الفراغ منه سنة ستين وسبعمائة والحمد لله وحده وصلى الله على سيدنا محمد النبي الامي العربي الصادق وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه وسلم . كتبه الفقير الى رحمة ربه أحمد شاه النقاش المعروف بزرين قلم غفر الله ذنوبه ».

ومنها مدرسة الأيكجية وأيك بالتركية « المغزل » فالمعنى « المغزلية » ومنشئتها مخدومشاه ، قال الغياث البغدادي في العمارات التي عمرت في أيام مرجان : « تم عمارة الأيكجية وكانت داية السلطان وتسمى مخدومشاه وتلقب ايكجي لها مدرسة عظيمة » . وفي سنة ٧٦٢هـ تزوج سليمان بك داية السلطان المذكورة وكانت تعد من الأميرات وعظيمة الشأن مصيبة الرأي ، ويلجأ اليها في حل القضايا المهمة والشدائد الفاجئة فنال زوجها منصب الامارة لأن الزواج كان بأمر السلطان أويس وطلبه .

ومنها دار الشفاء أي المارستان ومعناه المستشفى ، أنشأها أمين الدين مرجان لمعالجة الفقراء والمعوزين وقد تقدم نصه عليها وذكرها في بعض وقفياته المنقوشة على الآجر بقوله : « وقفها على المدرسة المرجانية ودار الشفاء بباب الغربة »، وقال الغياث البغدادي: « كان مرجان رجلاً استأنف عمارات وجدد عمارات دائرة من قديم وأوقف عليها العقار والضياع — كما نطقت به وقفيته — ونقش ذلك على جدران العمارات وكان له خيرات على الفقراء والمساكين حتى أطعم السنانير والزراريق وحيتان الشط والطيور من اللحم والخبز والشيلم في صحن دار الشفاء وصحنها على شاطيء دجلة ، وكان ثلثا الوقف لدار الشفاء والثلث للمدرسة » . والظاهر أن دار الشفاء كانت في موضع قهوة الشط وقهوة الشط كانت على تحقيقنا رباط الدرجة الذي أنشأه الوالي مجاهد الدين بهروز أحد الأمراء المماليك للسلجوقيين في أواسط القرن السادس للهجرة ، قيل إنها كنيسة لليهود ، وقد عادت ملكية قهوة الشط الى اليهود أيضاً .

ومنها القلندرخانة ومعناها بالفارسية « دار القلندرية » أو « خان القلندرية » وهي طائفة من الصوفية المتحللين من أكثر الفرائض الدينية ، كما وصفهم خصومهم ، وكانوا يحلقون رؤوسهم ولحاهم ، وقد ظهرت القلندرية في العراق بالقرن السابع للهجرة لأن الخلفاء كانوا يمنعون ظهورها في رعيتهم ، فظهورها كان في أيام الدولة الايلخانية .

وقال الغياث البغدادي في ترجمة مرجان وما أنشيء في أيامه من العمران وقد قدمنا أكثره : « تم عمارة الايكجية ... ودار الشفاء على جانب دجلة فبنى السلطان أحمد (ابن أويس الجلايري) في وجهها القلندرخانة». وإذا كانت دار الشفاء في موضع رباط بهروز وصارت قهوة الشط خالفة لرباط بهروز تكون القلندرخانة في موضع المدرسة البهائية العتيقة اي الخان المقابل لقهوة الشط من الشمال في الجانب الشرقي ولعلها كانت متصلة بأرض خان الباجهجي لأنه كان رباطاً لشيخ الشيوخ النيسابوري ، ولم تكن في الجانب الغربي كما جاء في كتاب أصول الفاظ اللهجة العراقية (ص ٨) . وقد ذكرت القلندرخانة في التاريخ الغياثي غير مرة منها قول المؤرخ في بعض الملوك : «وجلس على شاطيء دجلة تحت القلندرخانة وهو يشرب » . ونحن لا نشك في أن بناءها لم يكن من المتانة والرصانة بحيث يقاوم التقادم والحوادث الطبيعية . فلذلك لم يبق منه طلل ولا أثر .

---

(١) هي ناحية خرنابات الحالية في شمال بعقوبا وعلى مقربة منها .

(٢) أي الرباط الأحمر بالتركية وعرفت عند العامة « قزرباط » وقد سميت أخيراً السعدية نسبة الى سعد بن أبي وقاص وكان أولى أن تسمى « المرقالية » نسبة الى فاتحها هاشم بن أبي وقاص المرقال وهو ابن أخي سعد .

(٣) هما بهرز ومندلي الحاليتان .

(٤) هي باب الشيخ .

٨

بغداد في العصر الجلايري

وفي سنة ٧٤٠هـ (١٣٣٩م) ، أي في أوائل العهد الجلايري أنجز المؤرخ الجغرافي حمد الله الفارسي الملقب بالمستوفي كتابه « نزهة القلوب » فوصف فيه قسماً من أبنية بغداد ، منها المدرسة المستنصرية وذكر أنها من أجمل المباني التي كانت فيها في أيامه ، ويصف هذا المؤرخ بوجه خاص مشاهد بغداد ومقاماتها مثل مشهد الكاظمين ، وقبر أحمد بن حنبل ، وقبر معروف الكرخي في الجانب الغربي ، ومشهد عبدالقادر الكيلاني في الجانب الشرقي ، ولا تزال هـذه الأبنية والمشاهد قائمة الى اليوم في مواضعها الأصلية عدا قبر أحمد بن حنبل فانه لم يبق له أثر منـذ القرن الحادي عشر للهجرة . وكانت قبور الخلفاء في الرصافة لا تزال قائمة في أيام حمد الله بمفردها وقد اندثرت بعده والظاهر أن بنيانها أعيد لانها كانت قد احترقت في أثناء احتلال هولاكو بغداد .

ومن العهد الجلايري عثر على صورة لمدينة بغداد كان قد رسمها أحد الرسامين الفرس وهي في غمرة فيضان حدث في عهد السلطان أويس الجلايري ابن الشيخ حسن الكبير (٧٥٧ـ ٧٧٦هـ : ١٣٥٦ ـ ١٣٧٤م) ، وهذه تعد أقدم صورة وصلت الينا لمدينة بغداد في أواخر عهودها يشاهد فيها الجسر على نهر دجلة والنهر طافح يكاد يغمر عمران المدينة على جانبي النهر والغرقى على سطح الماء يصارعون شبح الموت والأسماك تتقافز من بينهم ، وتشاهد الأبلام تشق عباب الماء وهي تسعى لانتشال الغرقى ، كما يشاهد في الجانب الشرقي من المدينه بعض الابراج على ساحل النهر وجمهرة من الجوامع والمنائر مع عدد من القباب من الطراز السلجوقي وهو الطراز المعروف عند العراقيين بالميل ، والراجح أن إحدى هذه القباب تمثل قبة تربة الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي الصوفي المعروف . والصورة الأصلية مرسومة بألوان ثابتة وهي الآن بحوزة المتحف البريطاني تحت رقم (Add, 16561, Fol. 60.) كان قد عثر عليها في شيروان باذربيجان مع مخطوطة لمجموعة من الأشعار الفارسية يرجع تاريخ نقلها الى سنة ٨٧٣هـ (١٤٦٨م) ، أي زهاء مائة عام بعد حادث الفيضان ، وكان قد اقتناها في سنة ١٨٤٧م شخص انكليزي يدعى توماس رود (Thomas Rodd) . وقد دونت في أعلى الصورة أبيات شعر باللغة الفارسية وصف فيها صاحبها حالة الفيضان يعتقد أن بعضها للشاعر الفارسي عبيد الزاكاني وهو من شعراء القرن الثامن الهجري المعروفين في الأدب الفارسي وله قصيدة في رثاء بغداد ، والزاكاني هذا منسوب إلى زاكان قرية قريبة من بلدة قزوين في ايران . أما الأبيات فهذا نصها :

دجلـة را إمسال رفتـار عجب مستانـه بود
باي در زنجير وكف برلب مكرد ديوانه بور
جرخ ميزد آب وبرمي كشت بركرد حصاد
كوئيا بغداد شمع ودجلـة جون بروانه بود

وقد تفضل الصديق الاستاذ الفاضل جعفر الخليلي فترجم هذه الأبيات الى اللغة العربية نظماً هذا نصها :ـ

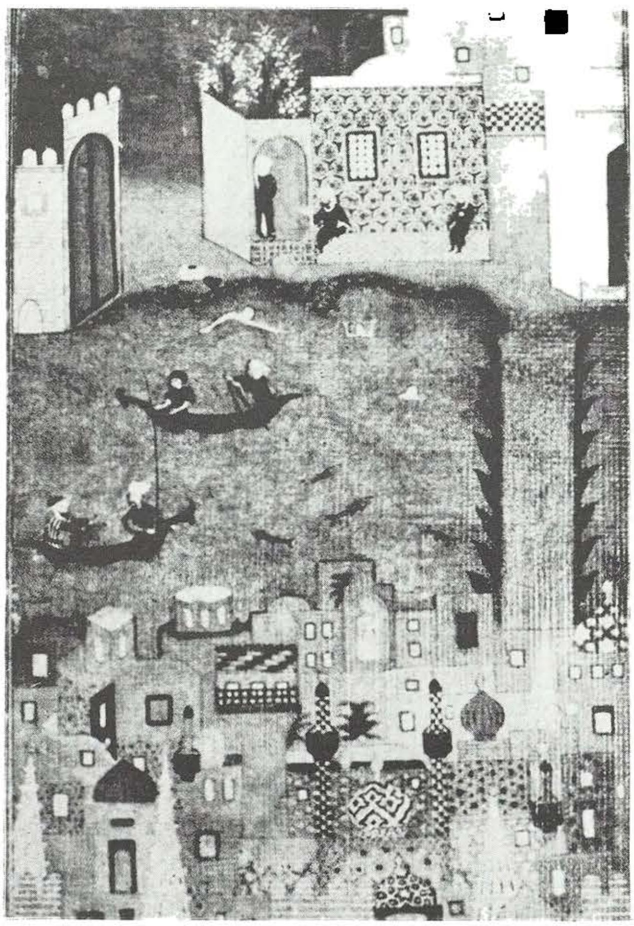
مـــا مشى دجلة مثل هـــذا العام يوماً كمشية السكران
جامـح والحـديد في قدميـه شـفتاه بالغيـظ مزبدتان
تلك حال تحكي المجانين في الدنيا فهل جن دجـلة خبراني ؟ .
مثـل دوامـة يطوف ببغداد ويشـتد في حصـار المبـاني
فـكأني به فراشـة أنهـار وبغـداد شـمعة البلدان

(أنظر خارطة بغداد كما رسمها أحد الرسامين الفرس وهي في غمرة الفيضان الذي حدث سنة ٧٥٧هـ .)

والمعلوم أنه ورد ذكر فيضانين خطرين حدثا في عهد السلطان أويس أولهما وأخطرهما كان في سنة ٧٥٧هـ(١٣٥٦م)، أي في السنة الأولى من حكم السلطان أويس ، والثاني في سنة ٧٧٥هـ أي قبل نهاية حكمه بسنة واحدة . والراجح أن الفيضان المقصود في هذا الوصف هو الفيضان الأول بدلالة أن هناك أبياتاً أخرى للشاعر الفارسي سلمان الساوجي وهو معاصر للزاكاني يصف فيها فيضان سنة ٧٥٧هـ وقد أرخ هذا الحادث ببيتين من الشعر هذا نصهما :

بسال هفصد بنجاه وهفت خراب بآب شهر معظم كه خاك سراب
دريغ روضة بغداد ان بهشت اباد كه كرده است خرابش سيهلاخانه خراب

ومعناهما انه في سنة ٧٥٧ خرب الماء المدينة العظيمة أتم تخريب محق الله ذلك الماء ، فوا أسفاه عليك يا بغداد روضة البلاد التي هدمت سماؤك ما هدمت وخربت ما خربت . ومما ذكر عن هذا الفيضان أنه سبب غرق أربعين ألفاً من سكان المدينة .



خارطة بغداد كما رسمها أحد الرسامين الفرس

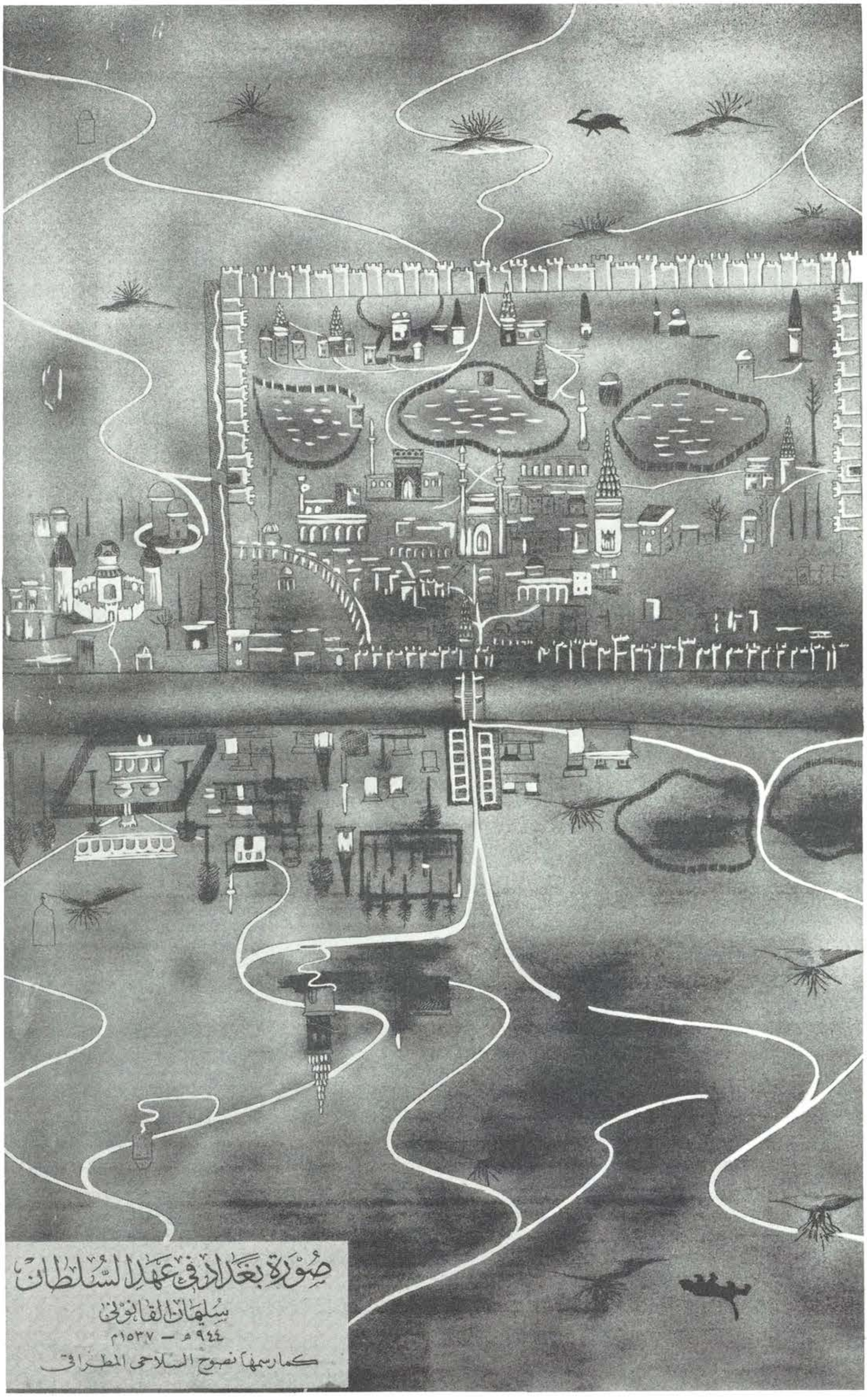
٩

بغداد في العهد العثماني

وبعد مرور زهاء مائتي عام وضع نصوح السلاحي المطراقي صورة لبغــــداد في سنة ٩٤٤هـ (١٥٣٧م) فرسم فيها المواضع المهمة كالمقامات والمشاهد والأبنية الرئيسة كما كانت عليه في زمن احتلال السلطان سليمان العثماني القانوني للمدينة. والمطراقي هذا هو أحد الذين رافقوا السلطان سليمان في حملته على بغداد فوصف حركة السلطان وعين منازل سفره ذهاباً وإياباً وفيها صور يدوية للبلدان العراقية ومراقدها منها بغداد في ذلك الزمن (أنظر صورة بغـداد في عهد السلطان سليمان القانوني كما رسمها نصوح السلاحي المطراقي سنة ٩٤٤هـ ــ ١٥٣٧م).

وخارطة المطراقي هذه كما يتضح للقارىء مشابهة لخارطة العهد الجلايري التي تقـدم وصفها من حيث طريقة التصوير وتختلف عن الأولى في كون الصورة الأولى تصور مقطعاً صغيراً من جانبي المدينة وهو المقطع الذي يمر فيـه الجسر بينما نجد على الصورة الثانية الجانب الشرقي من المدينـــة بكماله مع السور الكبير الذي يدور حوله وأبراجه وأبوابه ألخ. ويلاحظ أن الصورة الأولى تظهر وكأن المصور واقف في الجانب الشرقي وراء السور الخلفي فيرى أمامـه الأبنية من جانبي المدينة ومن ضمنها النهر والجسر بينما تظهر الصورة الثانية وكأن المصور واقف في الجانب الغربي أولاً فتبدو أمامه المدينة الشرقية بمبانيها وسورها وأبوابها وأبراجها ألخ . . . ثم يعود وكأنه واقف في الجانب الشرقي فيصـور الجانب الغربي وما يحتوي عليه من منشآت تبدو أمامه.

والمطراقي هو أول من صور سور المدينة الشرقية تصويراً واضحاً على خارطته التي تقدم الكلام عليها، فرسم السور على أقرب ما يكون الى وضعه في العهـد العباسي الأخير، غير أن الأبواب التي صـورها على السور ثلاثة، وهي البـاب الشمالي (باب السلطان) والباب الجنوبي (باب كلواذا) والباب الوسطاني (باب الظفرية)، أما باب الطلسم (باب الحلبة) فلم يصوره وهو الأمر الذي يدل على أنه كان مغلقاً في ذلك الوقت. ويلاحظ في الزاوية الغربيـة التي يلتقي عندها السور بدجلة سور يحيط بهذه الزاوية على شكل ربع دائرة ويفصلها عن القسم الداخلي من المدينة، ذلك مما يدل على أن الزاوية التي بنيت فيها القلعة فيما بعد كانت مسورة في زمن المطراقي، والراجح أنها كانت قد اتخذت قاعــــدة للدفاع عن المدينة من جهة الشمال الغربي حيث يشاهد في وسط الزاوية بناء مرتفع على هيئة قبـــة يعتقد أنه جامع. ويظهر الى جانب الزاوية خارج السـور جامع السلطان ملك شاه الذي كان لا يزال قائماً على عهد المطراقي. ومن المنشآت التي تشـاهد في الصورة في الجانب الغربي من المدينة القبـة المعروفة اليوم بقبة الست زبيـدة، وهي تربة زمرد خاتون زوجة المستضيء بأمر الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ ومسجد ومنارة الشيخ معروف الكرخي المتوفى سنة ٢٠٠هـ، كمـا يشـاهد في هـذا الجانب قبر الحلاج (الحسين بن المنصور) المتصوف المعروف (٢٤٤ــ٣١٠هـ ــ٨٥٨ــ٩٢٢م) وضريح بهلول دانه، وقد ثبت هـذان الموقعان على الخرائط التي وضعت فيما بعد عهد المطراقي. وفي الجانب الشـرقي

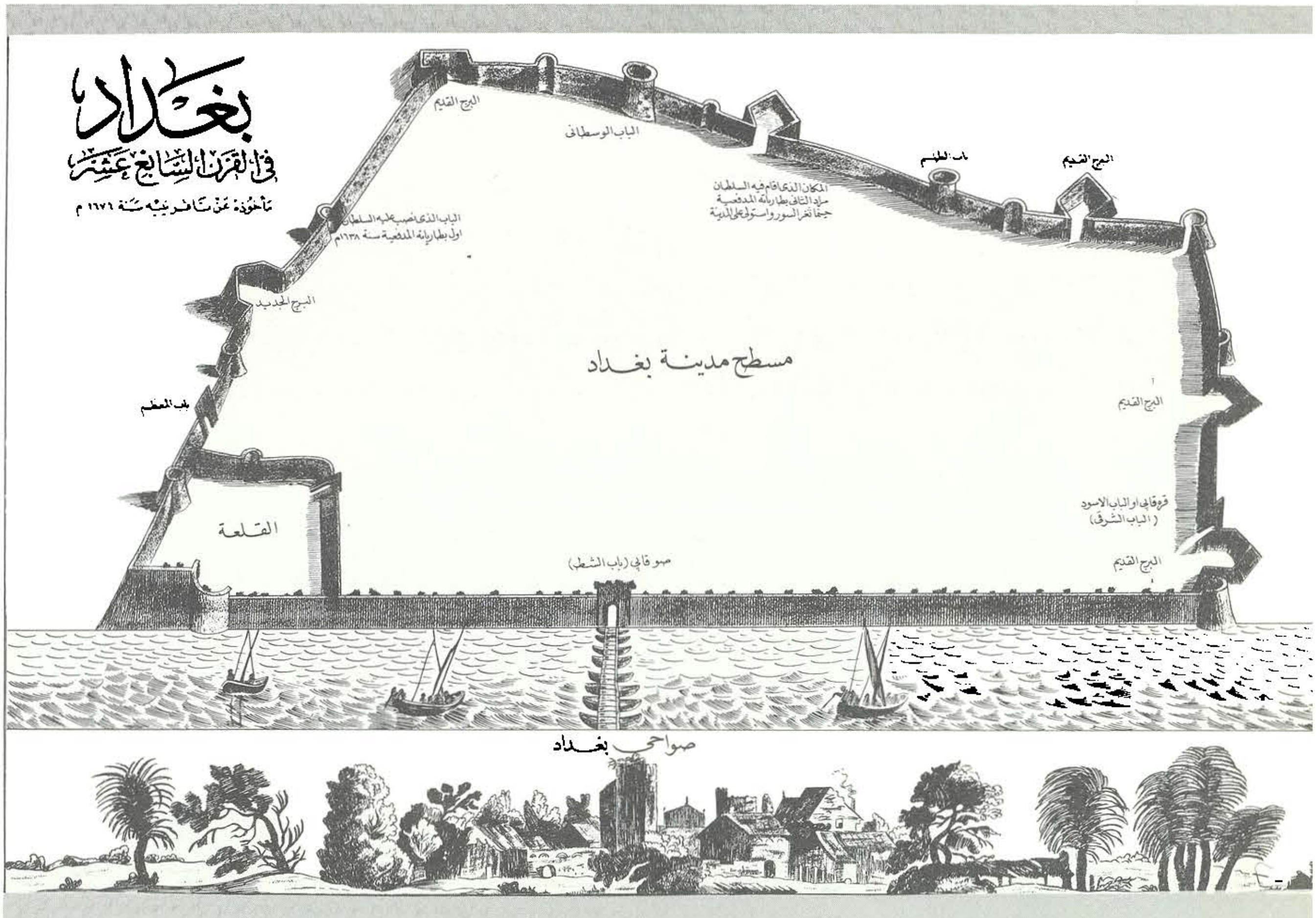


صورة بغداد في عهد السلطان
سليمان القانوني
٩٤٤هـ - ١٥٣٧م
كما رسمها نصوح السلاحي المطراقي

تشاهد بالقرب من باب الظفرية (الباب الوسطاني) قبة الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي المتوفى سنة ٦٣٢هـ وهي من الطراز السلجوقي على هيأة قبة السيدة زمرد خاتون (الست زبيدة) . وتشاهد الطرق الرئيسة تمتد بين المشاهد وهي تتفرع من المراكز الرئيسة في المدينة .

وفي سنة ١٥٦٣م زار بغداد أحد تجار البندقية المدعو (فيدريكو) (Caesar Fedrigo) كان قد قدم اليها عن طريق الفلوجة ثم سافر منها الى البصرة بطريق النهر . والظاهر أن هذا السائح شاهد آثار عقرقوف في طريقه فسماها « برج نمرود » كما سمي بغداد « بابل » . ومن جملة ما وصفه في المدينة الجسر العائم عبر نهر دجلة . وقد وصف المدينة بعد أحد عشر عاماً (أي في سنة ١٥٧٤م) الطبيب الألماني روولف وهو عالم من مدينة (أوغسبورغ) فذكر أن مدينة بغداد تقسم قسمين ، الجانب الغربي وهو مكشوف ، والجانب الشرقي وهو محصن بالأسوار والأبراج ، ثم ذكر أن أزقة المدينة ضيقة وأن أكثر بيوتها مهدمة وكثيراً من الجوامع قد استولى عليه الخراب ، وقال إن الوالي يسكن في قصر يقع في القسم الشرقي من المدينة ولديه جيش قوي ، ثم تناول بالبحث موضوع التجارة في المدينة فذكر أنه رأى ٢٥ سفينة محملة بالتوابل وسائر البضائع الثمينة قادمة من الهند ثم واصلت سيرها من البصرة الى بغداد ، وقد استغرقت رحلتها هذه أربعين يوماً . وقبيل سقوط المدينة بيد الفرس (١٦١٦ــ١٦١٧م) زارها السائح الايطالي (ديلافال) « Pietro de la Valle » ، وكان هذا السائح أول من صحح الخطأ السائد في ذلك الوقت ، أي تسمية بغداد ببابل .

وكان أول الرحالين الذين وصفوا بغداد في العصور الأخيرة وصفاً وافياً (جي. بي. تافرنييه) الجوهري الفرنسي ، فقد مر بالعراق في سفره الى الهند ورجوعه منها سنة ١٦٣٢م وسنة ١٦٥٢م . ويتضح من ذلك أن تافرنييه شاهد بغداد في زيارته الأولى وهي تحت الحكم الفارسي الصفوي وفي زيارته الثانية وهي تحت الحكم التركي العثماني وكان ذلك بعد فتح السلطان مراد الرابع لبغداد بقليل ، ومما ذكره أن طول المدينة يبلغ من ١٥٠٠ خطوة وعرضها ٧٠٠ أو ٨٠٠ خطوة ، ولا يتعدى محيطها ثلاثة أميال ، ويعني بذلك الجانب الشرقي الواقع داخل السور الكبير . ويقول تافرنييه إن في بغداد « خمسة جوامع اثنان منها مبنيان بريازة بديعة تزينها قباب مكسوة بالقرميد المدهون ذي الألوان المختلفة . وفيها أيضاً عشرة خانات بناؤها حقير ما خلا اثنين منها ينال فيهما المسافرون قسطاً من الراحة ، وخلاصة القول إن المدينة ساذجة البناء لا جمال فيها . . . وتجارة المدينة رائجة ، ولكن ليس كما كانت عليه أيام فارس . . . ومنذ استيلاء السلطان مراد عليها لم يكن عدد نفوسها بأقل من خمسة عشر الف نسمة ، وهذا يدل على أن المدينة لم تكن مأهولة بما يناسب سعة رقعتها » . وقد وضع تافرنييه خارطة تقريبية لمدينة بغداد كما كانت عليه في أثناء زيارته لها ويتبين من تخطيطه أن المدينة كانت أقرب ما تكون الى وضعها في العهد الأخير الذي يعود الى ما قبل الاحتلال البريطاني في سنة ١٩١٧م ، فكان الجانب الشرقي من المدينة محوطاً بسور من الآجر يبلغ طوله نحو ثلاثة أميال وعليه أبراج على أبعاد مختلفة وحوله خندق عميق ، ويتفق وصفه للأبواب الأربعة والوصف الذي ذكره كل من المستوفي وابن جبير قبله ما عدا بعض الخلاف في التسمية . ويلاحظ أن صورة تافرنييه هذه للمدينة قد اقتصرت على السور وأبراجه وأبوابه فقط دون أن يدون أية تفاصيل عما في داخل السور من أبنية ،فذكر « أن السور مبني بالآجر ويقطع في بعض النقاط ابراجاً كبيرة كالمتاريس نصب فوق جميعها زهاء ستين مدفعاً ، ولكن ليس بين هذه المدافع ما يحمل أكثر من خمس أو ست قنابر . ويكتنف السور خندق عريض ، عمقه نحو خمس أو ست قامات ، وللمدينة أربعة أبواب ، ثلاثة منها في جهة البر ، وواحد مطل على النهر (سمي صوقابو أي باب الماء) ، ومنه يعبر النهر على جسر ذي ثلاثة وثلاثين قارباً ، بين القارب والآخر مسافة تبلغ عرض قارب واحد ، والقلعة في داخل المدينة بالقرب من الباب المسمى باب المعظم » . ويشاهد فى خارطة تافرنييه سور القلعة بكل وضوح وعليه أربعة أبراج كبيرة أحدها على النهر فى الركن الشمالي من الزاوية على حين أن هذه الأبراج لم تظهر على السور الذي رسمه المطراقي . ويلاحظ أن سور القلعة فى خارطة تافرنييه رسم شكل مربع خلافاً لما ظهر عليه فى شكل ربع دائرة على خارطة المطراقي (أنظر خارطة بغداد فى القرن السابع عشر مأخوذة عن تافرنييه سنة ١٦٧٦م) .



ومن كتبوا في وصف بغداد في القرن السابع عشر العالم الجغرافي التركي حاجي خليفة ، وهو مصطفى بن عبدالله المعروف باسم كاتب جلبي المتوفى سنة (١٠٦٧هـ ـــ ١٦٥٦م) ، ومن كتبه التي تطرق فيها الى تاريخ خطط مدينة بغداد « جهان نما » المطبوع في استانبول سنة ١١٤٥هـ (١٧٣٢م) و« فذلكة كاتب جلبي » المطبوع في استانبول أيضاً سنة ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) . ومما ذكره في كتابه « جهان نما » أن محيط مدينة بغداد يبلغ (١٢٤٠٠) أو (١٢٢٠٠) ذراع تحيط بها خنادق عميقة وزهاء ١٦٣ برجاً .

وفي أواخر القرن السابع عشر زار الرحالة الهولندي الدكتور أولفرت دابر العراق ووضع كتاباً ضخماً عن آسيا الصغرى فيه وصف لمدينة بغداد معزز بخارطة كبيرة صور فيها المدينة وأسوارها وأبراجها كما كانت عليه في زمن زيارته لها ، وقد طبع كتابه هذا في امستردام سنة ١٦٨٠م . وقد ترجم هذا الكتاب الى الألمانية وطبع في نورنبرغ سنة ١٦٨١م . وهذه الصورة أخذت كما ينظر اليها من وراء سور المدينة الشرقية ، لذلك نجد أبراج السور وأبوابه واضحة فيها كل الوضوح ، كما يشاهد فيها الجسر عبر نهر دجلة وهو في نفس موقعه على الخارطات السابقة وكذلك الباب في نهاية الجسر وعليه برج ضخم . وتشاهد في هذه الصورة القلعة في نفس هيئتها على خارطة تافرنيه من حيث سورها وأبراجه مع الفارق أن صورة الجامع ومنارته داخل القلعة أكثر وضوحاً على خارطة الدكتور دابر . ويشاهد الجانب الغربي من المدينة على هذه الخارطة بشكل مصغر حيث ينظر اليه من بعيد فيظهر فيه عدد من القباب والمنائر يرجح أنمنارة مسجد الشيخ معروف وقبة الست زبيدة وقبر الحلاج هي من بينها . ومما يلفت النظر أن القباب المخروطية

الشكل من الطراز السلجوقي التي تشاهد على خريطة العهد الجلايري لم نجد لها أثراً في خارطة الدكتور دابر هذه (أنظر خارطة بغداد كما رسمها السائح الهولندي دابر) .

ومن المؤلفات التي ظهرت في أوائل القرن الثامن عشر كتاب « كلشن خلفاء » بالتركية لمرتضى نظمي زادة المتوفى سنة ١١٣٣هـ ـــ ١٧٢٠م وهو يبحث في تاريخ بغـــداد منذ تأسيسها حتى سنة ١١٣٠هـ (١٧١٨م) . وقد ألفه تلبية لطلب عمر باشا والي بغداد وقد طبع في الاستانة ١١٤٣هـ (١٧٣٠م) .

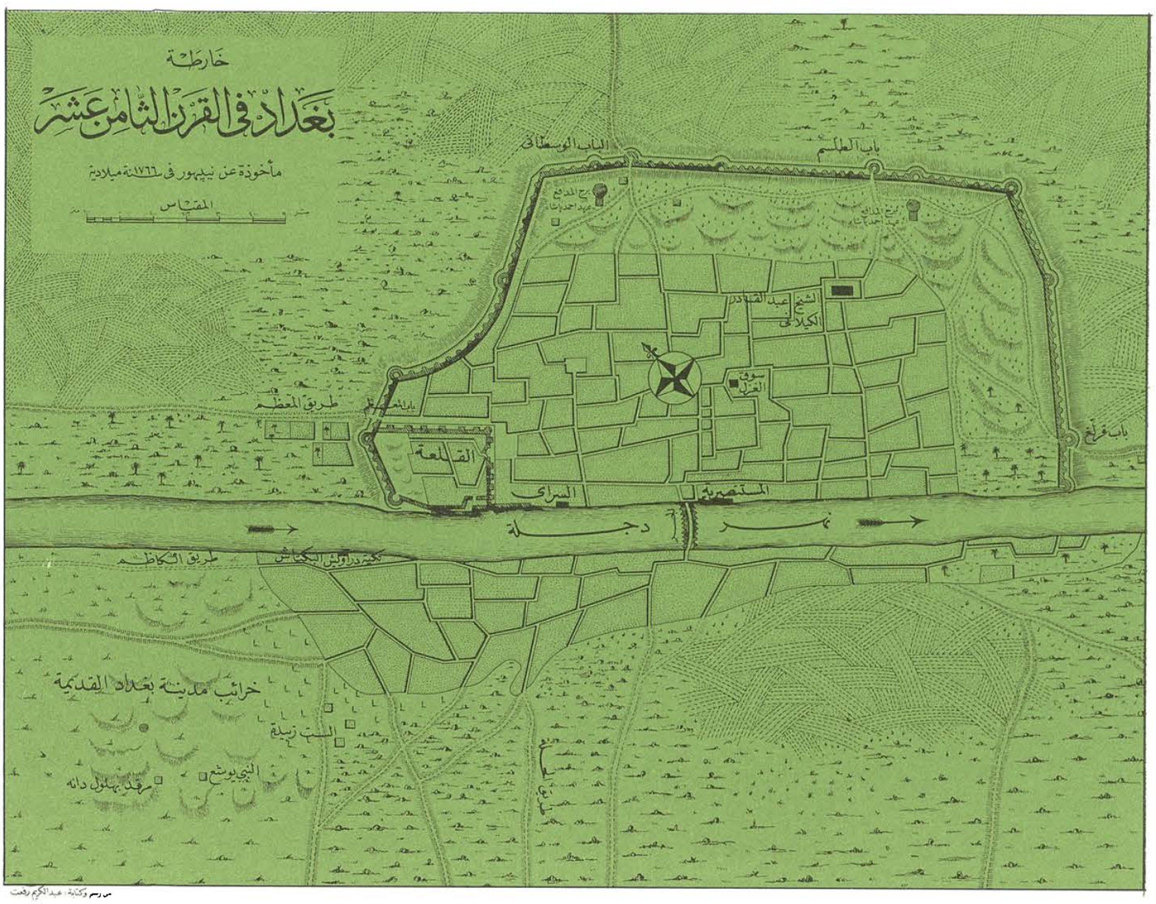
ومن الرحالين المسلمين الذين قدموا بغـداد في أوائل القرن الثامن عشر أيضاً الشيخ مصطفى بن كمال الدين ابن محمد الصديقي الدمشقي المتوفى سنة ١١٦٢هـ (١٧٤٨م) فانه قدمها سنة ١١٣٩هـ (١٨٢٦م) ووصف مشاهدها ومساجدها ومزاراتها ، منها مشهد الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد ، ومشهد الامام أبي حنيفة ، ومشـــهد الشيخ

خارطة بغداد كما رسمها السائح الهولندي دابر .



عبد القادر الجيلي (الكيلاني) ، وتربة الشيخ معروف الكرخي ، وتربة الشيخ شهاب الدين السهروردي ، وقبر زبيدة (تربة زمرد خاتون) .

وأول خارطة لمدينة بغداد مبنية على مسح فني وعلى مقياس معين على وفق الأصول المتبعة فى وضع الخرائط الحديثة الخارطة التي وضعها الرحالة العالم الدانيماركي كارستين نيبور سنة ١٧٦٦م ، فقد ثبت نيبور فى خارطته هذه سور المدينة الشرقية وأبوابه الأربعة وحدود محلات جانبي المدينة الغربي والشرقي ، فسمى باب كاواذا أو الباب الشرقي (باب قرولوق) ومعناها « باب الظلمات » ، أما الأبواب الأخرى فقد سماها بأسمائها المعروفة بها وهي « باب المعظم » و« الباب الوسطاني » و« باب الطلسم » . ويقول نيبور إن باب الطلسم مغلق بحائط فقد دخل منه مراد الرابع منتصراً ولكي يبقى مقدساً ولا يضع أحد قدمه على عتبته احتراماً له أغلق لهذا السبب . ويذكر نيبور أن عدد الجوامع ذات المنائر يبلغ عشرين ولكن في الوقت نفسه يوجد كثير من المساجد الصغيرة، وقد كان في المدينة وضواحيها حينئذ (٢٢) خاناً كما يوجد فيها كثير من الحمامات العامة . وفي المواضع التي ثبتها في خارطته في الجانب الشرقي مشهد الشيخ عبد القادر الكيلاني ومنارة سوق الغزل والمستنصرية والقلعة في الزاوية الشمالية الغربية من السور وفي الجانب الغربي قبة الست زبيدة وقبر يوشع وتكية الدراويش البكتاشية وموقعها قرب محلة الجعيفر الحالية وضريح بهلول دانه، ويلاحظ انه أهمل تثبيت موقع مسجد المنطقة على خارطته . وذكر نيبور أن الجسر الذي ثبته على خارطته مشيد فوق ٢٤ عوامة يزداد عددها في أثناء الفيضان ، وقد ربطت تلك العوامات بالسلاسل وان هذه العوامات لم تكن مربوطة بالمراسي لذلك كانت تنقطع سلاسلها في العواصف والفيضانات ، وقد ثبت باب الجسر فسماه « صوقابي » ، أي باب الماء ، وهي نفس التسمية الواردة على خارطة تافرنيه (أنظر خارطة بغداد في القرن الثامن عشر عن نيبور سنة ١٧٦٦م) .



من رسم وكتابة : عبد الكريم رفعت

وزار بغداد بعد نيبور سموئيل ايفرز (Lieut, Samuel Evers) في سنة ١٧٧٩م فقال إن مدينة بغداد « ليست ببابل العتيقة كما ظن جماعة من الباحثين ، إن بابل قائمة في موضع على الفرات ، قرب الحلة ، ولا تزال شاخصة الآثار والأطلال . . . وبغداد قائمة على دجلة مسافة خمسين ميلاً من الحلة تقريباً وهي واسعة كثيرة السكان » . ويقدر ايفرز هذا سكان بغداد بثلاثمائة ألف نسمة وكانوا قبل تفشي الطاعون على ما يظن أكثر مما هم عليه آنذاك أربع مرات . وهذا ولا شك مبالغ فيه ولم يؤيده السياح الآخرون . ومما ذكره ايفرز أن المدينة « محصنة بسور عريض سامق من الآجر مسيع بالطين وموثق بأبراج كبيرة تشبه ثكن الفرسان ويحيط به كله خندق عميق ، وشكل المدينة مربع غير تام والسور متهدم بعضه في عدة مواضع . . . والقلعة القائمة على الجبهة الشمالية من المدينة مؤلفة من ستائر وبروج عليها عدة مدافع طويلة جداً كل مدفع منها على برج وهي مثبته على شيء آخر يفرش كأقراص العسل ، وثقوب فتائلها في حالة رديئة . . . وهي بهذه الحال السيئة لا يمكن أن ترمي ولو مرة واحدة إلا تتمزق قطعاً . . . وبجانب المدافع عدد من الأبراج الصغيرة ومزاغل لرصاص البنادق ، ويحيط بالقلعة كلها خندق عمقه خمس وعشرون قدماً ويمكن ملؤه في كل وقت من ماء دجلة . والقلعة متصلة بدور بغداد ولذلك يكون من السهل الاستيلاء عليها ، اذا استولي على المدينة . . . لقد رأينا عدة مدافع هاونيات كان نادرشاه قد تركها عند نكوصه عن بغداد ، وفي زاوية من القلعة مصطبة لمدفع صغير يستعمل للتحية العسكرية » . ويقول بوشان (Abbe Joseph de Beauchamp) الذي سكن بضع سنوات في بغداد كانت أخراها سنة ١٧٨٢م إن المرء يقطع القسم الشرقي من المدينة معقباً الجدران الخارجية من الباب الأول الى الباب الأخير هذباً على الخيل في ساعة واحدة وكثيراً ما يصادف أماكن غير مبنية في داخل المدينة . ويخمن سكان المدينة بمائة ألف نسمة تقريباً ، وأغلب الظن أن الطاعون الذي أصاب المدينة في سنة ١٧٧٣م قضى على ٥٠ الى ٦٠ ألف من سكان المدينة ولم يسجل عدد الأموات في ذلك الوقت لذلك فالتخمين الذي أجري يستند الى أذرعة الخام التي باعها تجار الأقمشة لتستعمل أكفاناً للموتى . وقد أسس بوشان هذا مرصداً للنجوم في بغداد سنة ١٧٨٤م وكان ذلك مدعاة لافتخاره باعتباره أول من أسس مثل هذا المرصد بعد مرور ٢٥٠٠ سنة على الكلدانيين الذين قاموا بتأسيس مرصد في تدقيقاتهم الفلكية وبعد ألف سنة على دور الخلفاء . وقد أسس هذا المرصد على نفقة (لويس السادس عشر) لكنه تهدم نتيجة اهماله بعد إعلان الثورة الفرنسية .

وفي أوائل القرن التاسع عشر بدأ النفوذ الفرنسي يتغلغل في الدولة العثمانية فأوفدت حكومة الجمهورية بعثة الى الامبراطورية العثمانية ومصر وايران لدراسة جغرافيتها وأحوالها الاجتماعية والتجارية والزراعية والسياسية ، وكانت هذه البعثة مؤلفة من عالمين توفي أحدهما في المرحلة الأولى من الرحلة الأمر الذي اضطر الثاني المدعو اوليفييه (G. A. Olivier) وهو طبيب وعالم في العلوم الطبيعية أن يواصل الرحلة بمفرده . وقد استغرقت سفرته زهاء أربع سنوات وطبعت نتائج دراساته في سنة ١٨٠٠ و١٨٠٧م بثلاثة مجلدات معززة بمجموعة من الخرائط في مجلد مستقل ، وفي المجلد الثاني من الكتاب وصف لجغرافية العراق وتاريخه وتجارته وزراعته ، ومن ضمن ذلك وصف لمدينة بغداد التي أقام فيها مدة طويلة . ومن السائحين الفرنسيين الذين زاروا بغداد أيضاً جوبر (Jaubert) في سنة ١٨٠٦م ودبري (Dupre) وروسو (Rousseau) سنة ١٨٠٨م ويمثل هؤلاء الاتجاهات الفرنسيه . ثم أعقب ذلك اهتمام البريطانيين بالدولة العثمانية فاتجه سياحهم الى هذه الديار ، وممن تناول وصف بغداد كينير (Kinneir) في سنة ١٨١٣ ــ ١٨١٤م وبكنكهام (Buckingham) في سنة ١٨١٦ والرسام الشهير كر بورتر (Ker Porter) سنة ١٨١٨م وهود (Heude) سنة ١٨١٧م .

وفي سنة ١٢٣٧هـ ــ ١٨٢٢م دون السيد محمد ابن السيد أحمد الحسيني المعروف بالمنشيء البغدادي أخبار رحلته في العراق كتبها باللغة الفارسية تناول فيها ذكر بغداد ومساجدها ومشاهدها وقبورها وأسوارها وحماماتها ومواقعها التاريخية ، فوصف أسوار المدينة في الجانبين الغربي والشرقي كما كانت عليه في زمنه فوصف لنا سور الجانب الغربي

الجديد وأبوابه ، وهو السور الذي أنشأه الوالي سليمان باشا الكبير في زمن ولايته بين سنة ١٧٧٩ و١٨٠٢م .

وفي المدة بين سنة ١٨٣٥ وسنة ١٨٣٧م قامت بعثة جيسني البريطانية المشهورة بدراسة مفصلة لنهري الفرات ودجلة . وقد نشرت هذه الدراسة في كتاب قيم طبع في لندن سنة ١٨٥٠م بجزئين ومعه مجموعة من الخرائط في أطلس مستقل مؤلفة من ١٤ خارطة . وفي هذا الكتاب بعض المعلومات عن مجرى دجلة في المسافة التي يخترق فيها مدينة بغداد وعن وضع الفرات في جوار المدينة .

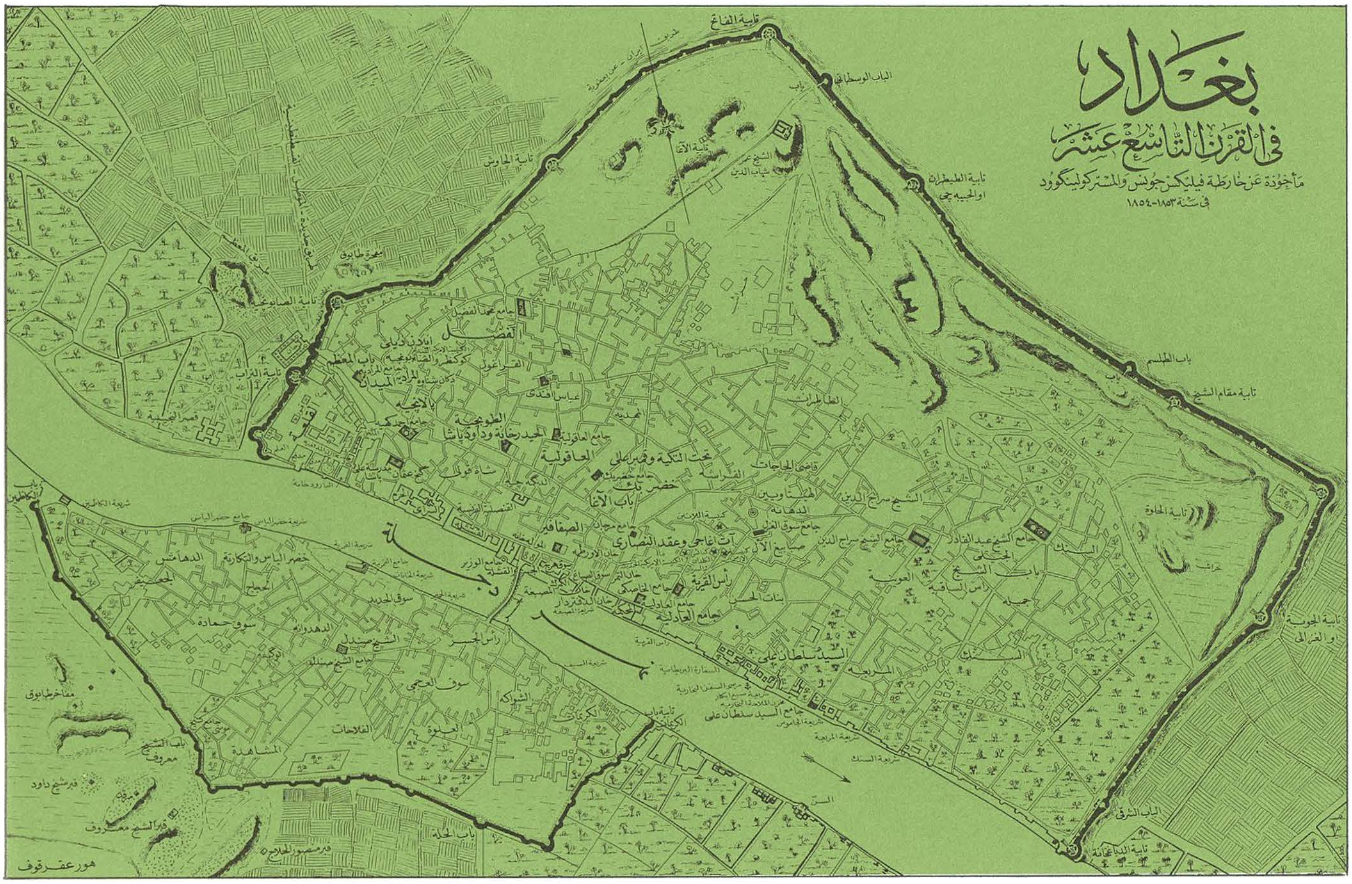
وفي منتصف القرن التاسع عشر وضع فيليكس جونس وكولينكوود خارطة على أساس مسح خاص قاما به للمدينة ، وتعد هذه الخارطة أوضح خارطة دقيقة لمدينة بغداد في ذلك الوقت ، فقد شملت جميع محلات بغداد وشوارعها وأسوارها بجانبيها الشرقي والغربي. وقد جاء ما دونه جونس وكولنيكورد في خارطتهما عن السور الشرقي للمدينة وأبوابه مطابقاً لما رسمه نيبور قبله بنحو من مائة عام ، ويشاهد في خارطة جونس وكولينكوود سور الجانب الغربي من المدينة الذي يضم محلات الجانب الغربي ، ولهذا السور أربعة أبواب ، وهي باب الكريمات في الجنوب وباب الحلة وباب الشيخ معروف في الشرق وباب الكاظمية في الشمال ، وهذا هو نفس السور الذي وصفه المنشيء البغدادي سنة ١٨٢٢م . ومشيد هذا السور هو سليمان باشا الكبير والي بغداد ، وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم .

ويشاهد على هذه الخارطة في الجانب الغربي قبر الحسين بن منصور الحلاج وقبر الشيخ معروف وقبر سمي باسم « قبر الشيخ داود » وهو داود الطائي الزاهد وهذه كلها خارج السور . كما يشاهد في الجانب الشرقي من المدينة مشهد الشيخ شهاب الدين عمر السهروردى وجامع الشيخ عبد القادر والقلعة وأبراجها ومدافعها ، وقد سميت المدرسة المستنصرية بالكمرك حيث اتخذت مركزاً لدائرة الكمرك في آخر العهد العثماني. وقد ثبتت في هذه الخارطة مواقع الجوامع المهمة في جانبي المدينة كما ثبت موقع الجسر عبر النهر وهو نفس موقع جسر المأمون الحالي. ويلاحظ أن جونس وكولينكوود أهملا مثل نيبور تثبيت موضعي الشيخ جنيد ومسجد المنطقة .

وقد وصف فيليكس جونس وكولينكوود بغداد الشرقية بقولهما : « إنها محوطة بسور ضخم أمامه من الخارج خندق عميق تحيط به من جهة الصحراء سداد قوية وإن السور الداخلي كان يحمي المدينة من خطر الغرق بمياه نهر دجلة الجارية الى الخندق » . وقد قدرا طول سور المدينة الشرقية بـ (١٠٦٠٠) يردة أي (٩٦٨٨) متراً وفي ضمن ذلك المسنيات التي على ساحل النهر . أما سور المدينة الغربية فقد قدرا طوله بـ (٥٨٠٠) يردة أي (٥٣٠٠) متر . وكان باب الطلسم (باب الحلبة) أحد الأبواب الأربعة لسور المدينة الشرقية مغلقاً وقد أغلق منذ دخول السلطان مراد الرابع بغداد منه كما قدمنا الاشارة اليه . وقدرت مساحة المدينة الشرقية التي داخل السور بـ(٥٩١) ايكرا (٩٥٧ مشارة) والمدينة الغربية التي داخل السور الغربي بـ (١٤١) ايكرا (٢٢٨ مشارة) . (أنظر خارطة بغداد لفيليكس جونس وكولينكوود سنة ١٨٥٣ ــ ١٨٥٤م) .

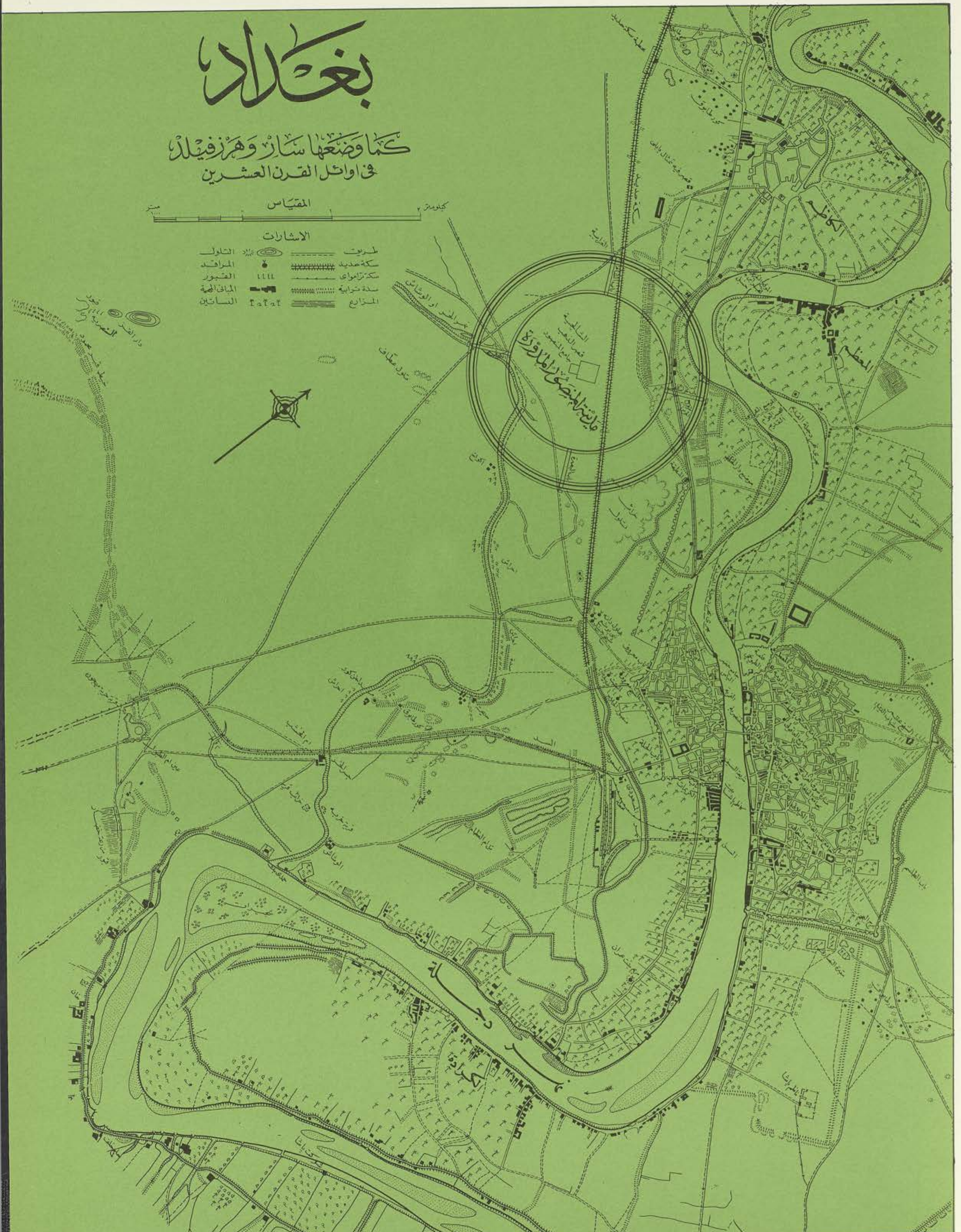
وفي أوائل القرن الحالي وضع سار وهرزفلد خارطة لبغداد وضواحيها عينا عليها موضع مدينة المنصور المدورة ورسماها في الموضع الذي أوصلهما اليه تحقيقهما ، وهو أقرب الى الصحة من تعيين من سبقهما من المؤلفين والسائحين، ويشاهد في خارطتهما سور بغداد الشرقية وأبوابه الأربعة الرئيسة وقد سميت بأسمائها التي صارت تعرف بها في العهد الأخير وهي: باب المعظم والباب الوسطاني وباب الطلسم والباب الشرقي. ويشاهد فيها أيضاً سور الجانب الغربي وثلاثة من أبوابه الأربعة وهي : باب الكريمات وباب الحلة وباب الشيخ معروف . وهذه الخارطة أوسع الخرائط التي سبقتها حيث رسمت على مقياس أصغر بحيث شملت كل منطقة بغداد وضواحيها ومن ضمنها الكاظمية شمالا والكرادة والدورة جنوباً. ويشاهد في هذه الخارطة سور جديد يمتد الى الشمال من الزاوية الغربية للسور الشرقي الكبير فيحوط المنطقة التي تقع فيها اليوم بناية مديرية الري العامة وأبنية كلية الهندسة والأبنية التي تعرف بالكرنتينة . ولا شك أن هذا السور أنشيء لحماية هذه المنطقة من خطر الغرق .

ومن المواقع التي ثبتت على هذه الخارطة في الجانب الغربي من المدينة مرقد الشيخ معروف وقبر الحسين بن منصور الحلاج ومراقدالشيخ جنيد والنبي يوشع وبهلول دانه وجامع قمرية ، اما المواضع التي ثبتت في الجـانب الشرقي فمشهد الشيخ شهاب الدين عمر السهروردي ومنارة سوق الغزل وجامع مرجان وخان الأرطمة والمستنصرية وجامع الشيخ عبد القادر الكيلاني والقلعة وقد سميت قلعة الطوبجي . ومن المواضع المهمة المعروفة التي ظهرت عـلى هذه الخارطة والتي



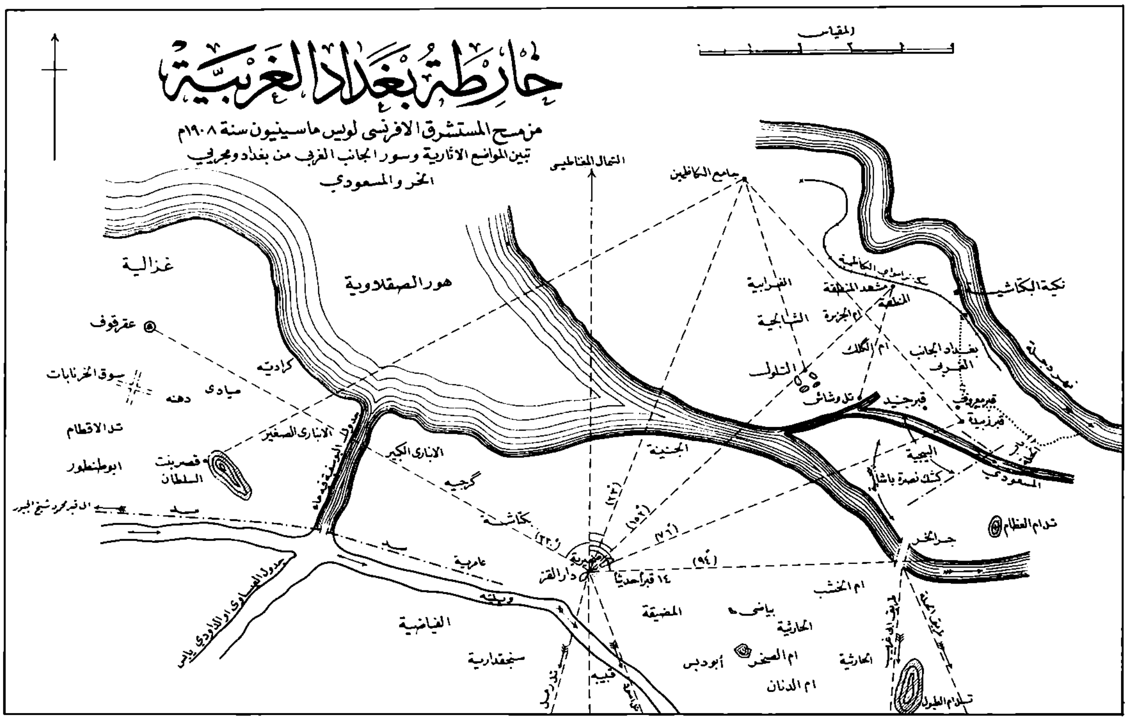
زالت معالمها في الوقت الحاضر مجرى المسعودي القديم والسداد التي أنشأها الاتراك في الجانب الغربي من بغداد لحمايته من خطر الفيضان . ونستطيع القول إن خارطة سار وهرزفلد هـذه جاءت مصورة للوضع القائم في آخر العهـد العثماني (أنظر خارطة سار وهرزفلد لمدينة بغداد في أوائل القرن العشرين) .

وقد وضع السيد رشيد الخوجة خارطة لبغداد في سنة ١٩٠٨م عندما كان رئيساً ركناً في الجيش العثماني فجاءت مطابقة لما دونه سار وهرزفلد في خارطتهما وما دونه فيليكس جونس وكولينكوود في خارطتهما من قبل. وهذه هي إحدى خرائط بغداد في العهد العثماني الأخير وهي تمثل وضع بغداد قبيل الاحتلال البريطاني وقد ظهر فيها مجري المسعودي الذي ثبته سـار وهرزفلد على خارطتهما . ويلاحظ في هذه الخارطة أن قسماً من سور الجانب الغربي لمدينة بغداد قد زالت معالمه في ذلك الوقت . وبالنظر لما طرأ على مدينة بغداد من تبدل كبير بعد الاحتلال البريطاني تعد هذه الخارطة من الوثائق المهمة في تاريخ خطط مدينة بغداد (أنظر خارطة بغداد كما مسحها ورسمها رشيد الخوجـة عام ١٩٠٨ للميلاد) . وفي هـذا التاريخ بالذات وضع المستشـرق الفرنسي ماسينيون خارطة للقسم الشمالي من الجانب الغربي للمدينة ثبت فيها المواقع التاريخية والتلول الأثرية في هذا القسم ، منها موضع الكاظمين وتربة معروف الكرخي وقبة


بغداد
كما وضعها سارّ وهرزفيلد
في اوائل القرن العشرين
المقياس
الاشارات
دجلة

الست زبيدة (زمرد خاتون) وقبر جنيد والتكية البكتاشية . وتنحصر أهمية هذه الخارطة في أنها تظهر لنا بعض المواقع الأثرية والأنهر القديمة التي زالت معالمها في الوقت الحاضر لانتشار العمران في المنطقة ، ويشاهد في هذه الخارطة سور الجانب الغربي للمدينة وعليه ثلاثة أبواب دون اسم أحدها وهو باب الحلة بينما نجد السور على شكل متقطع دون أي ذكر للأبواب الأخرى (أنظر خارطة بغداد الغربية من مسح المستشرق الفرنسي ماسينيون سنة ١٩٠٨م) .

وأخيراً وضع المرحوم البحاثة محمد أمين زكي بك الذي كان يشغل منصب عقيد ركن (بكباشي) في الجيش العثماني خارطة لبغداد بمقياس ١:١٠٠٠٠ طبعت في المطبعة العسكرية سنة ١٣٣٨هـ (١٩١٩م) وهي مقتبسة من خارطة رشيد بك الخوجة وخارطة أخرى لبغداد طبعها الألمان سنة ١٩١٧م وقد أدخل تصحيحات وإضافات عليها . ومن أهم الاضافات التي نلاحظها في هذه الخارطة الشارع الجديد الذي فتح في آخر العهد العثماني في الجانب الشرقي من المدينة (شارع الرشيد الحالي) ومحطة سكة الحديد الألمانية في الجانب الغربي من المدينة وقد سميت « بغداد استاسيوني » مع خط السكة المؤدي الى سامراء وقد أشر عليه « بغداد سامراء شمندفري سامرايه ١٢٠ كيلومترة » ، ومن المواقع الجديدة التي ظهرت على هذه الخارطة ضريح « ذا النون المصري » وموقعه جنوب شرقي مرقد الشيخ جنيد (أنظر خارطة بغداد لمحمد أمين زكي بك سنة ١٩١٩) .




بغداد
شهرينك
خارطة بغداد كما مسحها ورسمها معالي السيد رشيد الخوجة
عندما كان رئيس ركن في الجيش العثماني عام ١٣٢٤ رومي ١٩٠٨ م
دجله نهرى


خارطة بغداد لمحمد أمين زكي بك سنة ١٩١٩
١ جادة عبد الرزاق
٢ خان الباشا
٣ خان السرور
٤ ميدان القيصرية
٥ جادة سيد عيسى
٦ سوق الخفافيه
٧ سوق الدجاج
٨ سوق الهرّاج
٩ سوق السراجين
١٠ جادة كمركجي يه
١١ منارة المكتوم
١٣ تحانه جامعي
١٧ سوق الميدان
١٨ سوق الهرّاج
١٩ علاوي
٢٠ سوق الصابونجي يه
٢٢ بيت حاجي علي آغا
٢٣ بيت خيوكه
٢٤ تربة سليمان بك
باب الطلسم
السور العتيق
باب الوسطاني
تعليم ميداني
دجله نهري
بغداد شهري
١ / ١٠,٠٠٠ در.
بوتپلانك رشيد بكك محصول عرفاني اولوب آلمانلرجه همان عيناً اقتباس
و ١٩١٧ ده برلينده طبع ونشر ايدلمش وبوسفرده لازم كلن تعديلات اجرا وخاصة
اساس خطالري ممكن مرتبه ازاله اولونارق يكيدن طبع ايدلمشدر.
١٣٤١ - ١٣٣٨

١٠

سكان بغداد اجيالهم واحوالهم وأديانهم ومذاهبهم

كانت بغداد ولا تزال كذلك موطناً لبقايا الاجيال العراقية القديمة ولناقلة الأمم الحديثة ، ولمن بينهم من الأجيال الفاتحة ، فالجيل السومري والجيل الأكدي واشقاؤه الجيل العربي والأجيال السامية الأخرى المعروفة بالنبط عموماً كالآراميين والصابئة والجيل الكاشي والجيل الفارسي والجيل الكردي والجيل التركي الذي من فروعه التركمان والمغول والتتار والجيل الزنجي والجيل الأرمني والجيل الهندي والجيل الأفغاني من الذين سكنوا العراق قديماً والذين سكنوه حديثاً ، منهم من سكن في بغداد في الزمن القديم ومنهم من سكنوها في الزمن الحديث ولا يزالون يسكنونها ، ولما فتح العرب العراق وجدوا فيه كثيراً من الأمم السامية المقدم ذكرها ، وقد اختلطوا بطوالع العرب الذين طلعوا الى العراق قبل الفتح العربي الاسلامي ، ألا ترى أن القائد العربي العظيم خالد بن الوليد حينما سأل رئيس أهل الحيرة : ما أنتم ؟ قال له : نحن عرب استنبطنا ونبط استعربنا ، يعني أن الأمم السامية لم تجد غرابة في الاختلاط بالعرب النازحين الى العراق قبل الفتح .

ولما أنشأ المنصور مدينته كانت القرى التي حولها قد سكنها العرب والنبط والفرس وبقايا الأمم الأخرى التي سكنت العراق استيلاءاً أو استيطاناً ، وكان الجيش العباسي مؤلفاً من العرب والفرس والنبط والترك والزنج والبربر ، وقد كثر ببغداد من غير العرب الآراميون الذين من بقاياهم النسطوريون أهل الديارات والخمارات والتجارات والبيع والكنائس والطب والزراعة وكان الفرس قد استعبدوهم واستعمروهم قديماً ، فوجدوا عند العرب حريتهم الدينية وحريتم الجيلية أي القومية . وقد نزح الى بغداد بعد إنشاء مدينة المنصور بالقرب منها كثير من سكان المدائن عربهم وفرسهم ونبطهم وسكان الكوفة وسكان البصرة ، لعدة أسباب اجتماعية وحضارية وسياسية ، وتصاهرت الأجيال ببغداد فانصهرت كالمعادن المؤتلفة الفلزات في بوتقة واحدة ، وذلك بالاندماج والزواج ، إلا أن أكثر العرب ولا سيما طبقاتهم النسبية العليا كالعباسيين والعلويين والأمويين والأنصار كانوا قديماً يستطيعون الزواج في الأمم الأخرى ولكنهم كانوا لا يزوجون بناتهم من تلك الأمم على عادتهم القديمة في حفظ أنسابهم من طريق الأنوثة .

أما الديانات التي بقيت في العراق تمثلت ببغداد ما عدا الاسلام الذي هو دين السواد الأعظم من السكان هي اليهودية والنصرانية وبفروعها (من نسطورية ويعقوبية وملكانية وكاثوليكية) والصابئة الحرنانية (١) ، وأما المذاهب

---

(١) نسبة الى دير الحرانيين على غير القياس .

الاسلامية فهي المذهب الشافعي والمذهب الجعفري والمذهب الحنفي والمذهب الحنبلي والمذهب المالكي ، وقد شاع المذهب المالكي على عهد المنصور ثم تضاءل في أيام الرشيد لأخذه بالمذهب الحنفي وإسناده قضاء القضاة الى القاضي أبي يوسف الأنصاري ، ثم نهض المذهب المالكي ، ولما ظهر المذهب الحنبلي في أواسط القرن الثالث للهجرة ، هرع كثير من الناس بالعراق الى اعتقاده ، فأضعف المذهب المالكي وسبق المذاهب الأخرى ببغداد وأكثر مدن العراق وقراه ، ولذلك استطاع مقاومة السلطة العباسية حيناً من الدهر ، وقد ترجح الخلفاء العباسيون بين الحنبلية والشافعية في أواخر عصورهم حتى مالوا الى الشافعية منذ أواخر القرن الخامس للهجرة وتموا على ذلك الى سقوط القرن السابع .

وكان من طبيعة السكن الاجتماعية أيامئذ أن يتجمهر أهل كل مذهب في محلة أو محلات معينة معلومة ، فمحلة الرصافة ومحلة الحربية وما يجاورهما من محلات العتابيين ودار القز والنصرية وباب البصرة وأكثر المأمونية وباب الأزج وباب الحلبة والريان كان ساكنوها من الحنابلة ، ومحلة الظفرية وقراح أبي الشحم وقراح القاضي وما حول مقبرة باب أبرز كانوا من الشافعية ، ومحلة الامام أبي حنيفة ومحلة الخضيريين ومحلة نهر القلائين كان أهلها من الحنفية ، ومقابر قريش ومحلة الكرخ الواسعة كان سكانها من الشيعة الامامية الجعفرية ، ولم يكن للمالكية محلة معلومة لقلتهم وتشتتهم ، وكان أكثر اليهود في محلة الرملة أولاً بالجانب الغربي ثم انتقلوا الى المخلطيين في سوق الثلاثاء وخربة ابن جردة في شرقي بغداد ، وكان أكثر النصارى من النساطرة بدار الروم في شمالي شرقي بغداد ، ودرب دينار بسوق الثلاثاء حيث أنشئت لهم بيعة درب دينار منذ العصور القديمة ، وكان فوق دار الروم دير للأرمن من الذين جاء بهم المهدي بن ابي جعفر المنصور ويعرف بدير « سمالو » وباقي المحلات البغدادية كانت مشتركة بين المذاهب ولا سيما المحلات التي يحتضنها سور حريم دار الخلافة ، كالجوهريين والصاغة والقرية الشرقية والخاتونية .

أما عدد سكان بغداد في أيام تأسيس مدينة المنصور المعروفة بمدينة السلام فقد كان متوسطاً ثم توافد الناس اليها من المدن والقرى واتسع العمران بنسبة طردية لكثرتهم وزيادتهم على اختلاف الأزمان وتوالي العصور ، ومهما بالغ المبالغون فلم يكن سكان بغداد على عهد هارون الرشيد يخمنون بأكثر من نصف مليون نسمة ، وان الاحصاء الذي ذكره بعض المؤرخين في مبالغته بتعداد الحمامات البغدادية وما يستعمل من الصابون لا يستند الى القواعد العلمية ، فان المؤرخ ينبغي أن يصدر في التخمين عن عقلية رياضية ، فبغداد اليوم مع مدنها غير القليلة وما ما حولها من الأقضية واتساع عمرانها ووسعة رقعتها وكثرة طبقات دورها وقصورها ومبانيها الأخرى لم تتجاوز مليوناً وثلاثة أرباع مليون من النسمات ، وقد بلغت بغداد أوج عمرانها واتساعها وكثرة سكانها على عهد المقتدر بالله بين أواخر القرن الثالث والربع الأول من القرن الرابع للهجرة . ولم تتجاوزفي تخميننا ثلاثة أرباع مليون نسمة ، وأما ما ذكره المؤرخون من كثرة القتلى في فاجعة استيلاء هولاكو على بغداد سنة ٦٥٦هـ فهو لا يخرج عن حدود المبالغة التي أشرنا اليها ، إلا أننا لا ننسى أن نذكر أن الناس الذين كانوا ببغداد قد كثر عددهم كثرة غير طبيعية بسبب لجوء أهل البلدان والقرى الذين أجفلوا أمام الجيوش المغولية من طريق خراسان (لواء ديالى) اليها ولجوء أهل القسم الغربي من مدن دجلة وقراه أمام الجيش الثاني الذي أطبق على بغداد من الجهة الغربية .

واستمر سكان بغداد بين القلة والكثرة والتناقص والتوافر على حسب الأحوال والحوادث من الغرق والحرق والحروب والكروب والطواعين والأوبئة والاضطراب والأمن والازدهار والدمار كسائر المدن العالمية الكبرى إلا أن بغداد أبرت عليها في مكابدة المصائب والكوارث والأمراض واختلاف الحكام والخلفاء والسلاطين حتى ليعجب المؤرخ كيف قاومت بغداد تلك المقاومة ولم تعف عليها الحوادث الطبيعية والأحداث البشرية ولم تجعلها أثراً بعد عين .

ويعلم مما ذكره ابن عبدالحق البغدادي في الكلام على بغداد من كتابه « مراصد الاطلاع » أن مقتلة أهل بغداد بسيوف جيش هولاكو كانت كبيرة وفظيعة معاً ، لأنه أشار وقد بالغ الى أنه لم يبق من سكانها الأصليين إلا أحاد ولعله قصد الأشراف ، ويذكر المؤرخون أن بغداد ازدهرت بعد هذه الفاجعة الكبرى وكثر عمرانها وزاد سكانها في

ولاية صاحب الديوان علاء الدين عطا ملك الجويني ، ولقد قيل إنها أصبحت أحسن مما كانت على عهد الخليفة المستعصم بالله ، والظاهر أن خلو الكثير من مساكنها بعث الناس على المهاجرة اليها فضلاً عن الازدهار نفسه فانه من أقوى الأسباب في الانتقال الى المدينة المزدهرة .

وبقيت بغداد على حال من الاستقرار تارة وأخرى من الاضطراب على حسب سياسة الحكام المتوالين ثم جاءت الدولة الجلايرية بعد الدولة الايلخانية ، وكانت دولة معتدلة الأحكام والحكام ، فلا يعقل ان تنشأ مثل المدرسة المرجانية ذات الأوقاف الكثيرة ودار الشفاء الكبيرة وتيم التجار المعروف اليوم بخان الاورتمة ودار الآثار العربية ، في عهد ظلم واغتصاب على شرط استثناء حكم السلطان أحمد بن أويس آخر سلاطينهم فقد كان عهد ظلم واضطراب وقتل واستصفاء أموال ، ولذلك فسح في المجال لحكم أشد منه قسوة هو حكم تيمور الأعرج المعروف بتيمورلنك . فقد ذكر أكثر المؤرخين ، ولعلهم بالغوا ، أنه قتل من أهل بغداد مقتلة عظيمة ودمر وخرب مرتين ، ولا ريب أن المقتلة كانت فظيعة إلا أنها لم تكن على ما وصفوا ، لكنها وقعت غالباً على الجنود المحاربين والأحزاب المقاومين ، كما يحدث في كل عصر ومصر من العصور الماضية والأمصار القديمة ، وتلا هذا الحكم القصير حكم التركمان القراقوينلية وقد وصفه ابن تغري بردى بأنه كان حكم إفساد وإخراب وظلم واضطراب ، ولا يبعد أن يكون فيه شيء من ذلك كما يعلم من تاريخ الغياث الفتح بن عبد الله البغدادي ، إلا أن التحامل عليهم كان مذهبياً أكثر منه إنسانياً ، وتلاهم في الحكم التركمان الآق قوينلية وكانوا يخالفونهم في المذهب والمشرب ، ومع هذا فلم يكن سكان بغداد بأرفه في عهدهم منهم في عهد من سبقهم من التركمان . ثم جاء الى بغداد مستولياً الشاه اسماعيل الصفوي ، وأيد المذهب الامامي ببغداد ، فاتسع هذا المذهب وكثر المعتقدون له وانتقل كثير من الفرس الى بغداد وصارت مقراً ومتجراً لهم ، وضعف المذهب الحنبلي الذي كان هو المذهب المسيطر في العراق ، ولم تسلم بغداد في احتلال الشاه عباس من قتل ونقص في السكان ، ثم تولى حكم الصفويين وحل محله حكم الأتراك العثمانيين على يد السلطان سليمان في النصف الأول من القرن العاشر للهجرة وجاء معه جماعة من الأرمن . ولم تسلم بغداد أيضاً من القتل الذي أصاب الجنود الفرس والسكان الفرس ومن والاهم ، واستعلى المذهب الحنفي مذهب اولئك الأتراك على جميع المذاهب خصوصاً المذهب الحنبلي فقد فقد سيطرته في عهد الأتراك العثمانيين هؤلاء وبقي ضئيلاً نحيلاً حتى هذه الأيام ، وتقوى المذهب الامامي مرة ثانية باحتلال الشاه عباس الكبير لبغداد في الثلث الأول من القرن الحادي عشر للهجرة ، وجرى في احتلاله أيضاً قتل وتخريب لمن قاومه ممن خالف مذهبه الامامي ، ثم جاء حكم الاتراك العثمانيين الثاني باحتلال السلطان مراد الرابع لها ، فجرى في هذه المرة ببغداد من القتل الفظيع والاستئصال ما لم يجر على عهد من عهود الملوك المتأخرين ، فقتل عشرات ألوف من الجنود الفرس ومن على مذهبهم من الأحزاب المقاومة ، وقل سكان بغداد وظلت بغداد بين نقص وزيادة في السكان حتى انهم لم تتجاوز عدتهم سبعين ألفاً في أوائل القرن التاسع عشر ، ثم هبطت الى ما يقارب ثلاثين ألف نسمة بعد انتشار الطاعون والغرق اللذين حدثا في ولاية داود باشا (سنة ١٢٤٧هـ : ١٨٣١م) . وفي أيام مدحت باشا أجري أول تسجيل لنفوس بغداد تمهيداً لتطبيق قانون التجنيد الاجباري فدلت نتائج هذا التعداد على أن مجموع نفوس الذكور من سكان بغداد بمن في ذلك سكان الأعظمية والكاظمية بلغ ٦٥٦٨٣ نسمة منهم ٢٤١١ من الأجانب. أما سكان بغداد بعد الاحتلال البريطاني للمدينة فأول إحصاء رسمي لعدتهم أجري سنة ١٩٤٧م حيث بلغت ٥١٥٤٥٩ نسمة ، ثم أجري إحصاء ثان سنة ١٩٥٧ فازدادت عدتهم الى ٧٨٤٧٦٣ نسمة وعقبه احصاء أخير أجري سنة ١٩٦٥ بلغت عدتهم فيه ١ر٦٢٦ر٢٣٠ نسمة .

١١

بغداد اليوم

بحثنا فيما تقدم في تطور مدينة بغداد في مختلف أدوارها التاريخية ونختتم بحثنا هذا بذكر نبذة عن بغداد اليوم بعد مرور أكثر من ألف ومائتي عام على تأسيسها :

تتسع بغداد اليوم بحدودها البلدية الأخيرة الى مساحات شاسعة فيبلغ مجموع مساحتها في الجانبين الشرقي والغربي (٨٥٠) كيلومتراً مربعاً أو (٣٤٠٫٠٠٠) مشارة (١) من ضمن ذلك مساحة نهر دجلة البالغة (١١٢٤٠) مشارة، وذلك بعد أن كانت مساحتها بحدودها القديمة قبل سنة ١٩٥٦ مائة كيلومتر مربع فقط . وقد قسمت مساحة بغداد الحالية عملاً بقرار مجلس أمانة العاصمة المرقم ١٠٧٨٩ لسنة ١٩٥٦ الى قسمين ، القسم المركزي الكثيف وقد سمي بالمنطقة العمرانية ومساحته (٢٣٠) كيلومتراً مربعاً أو (٩٢٠٠٠) مشارة والقسم الخارجي المكون معظمه من أراض زراعية قد امتد اليه العمران الحديث فسمي بالمنطقة العمرانية الخاصة ومساحة (٦٢٠) كيلومتراً مربعاً أو (٢٤٨٠٠٠) مشارة .

ويلاحظ من الخارطة المرفقة التي تبين الحدود البلدية الحديثة لمدينة بغداد أن بغداد بحدودها هذه تشكل شبه دائرة تذكرنا بشكل مدينة المنصور المدورة التي أسست قبل أكثر من الف ومائتي عام كما تقدم مع فارق التحصينات والمساحة القليلة التي في الأخيرة ، هذا عدا كون الأولى محصورة في الجانب الغربي بينما تشتمل الثانية على الجانبين الغربي والشرقي.

ويبلغ مجموع عدد سكان بغداد اليوم بحدودها البلدية الحالية حسب آخر إحصاء لسنة ١٩٦٥ (١٫٦٢٦٫٢٣٠) نسمة منهم (٨٤١٥١٠) من الذكور و(٧٨٤٧٢٠) من الاناث ، وتتوزع أقسام المدينة من الناحية الادارية بين خمسة أقضية من أقضية لواء بغداد (٢) ، وهي قضاء الرصافة وقضاء الأعظمية في الجانب الشرقي وقضاء الكرخ وقضاء الكاظمية وقضاء المحمودية في الجانب الغربي ، وتتكون هذه الأقسام مما يأتي :

أ ــ **مركز قضاء الرصافة :** ــ ويتكون من مدينة بغداد الرئيسة التي تضم المحلات القديمة للجانب الشرقي من مدينة بغداد ويتألف من ٥٤ محلة . ويرتبط هذا القسم من بغداد من الناحية الادارية بمتصرفية لواء بغداد مباشرة . وتخترق هذا القسم أربعة شوارع رئيسة متوازية تمتد باتجاه نهر دجلة من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، أولها من الجهة الغربية « شارع الرشيد » ثم تليها الشوارع الثلاثة الأخرى فتمتد من الشمال الشرقي وهي : «شارع الجمهورية» و«شارع الكفاح» و« شارع الشيخ عمر » ، وتجتمع هذه الشوارع الرئيسة الأربعة عند « ساحة التحرير » جنوباً في الموقع المعروف قديما بالباب الشرقي . ومن هنا تتشعب الشوارع التي تمتد الى محلات العلوية والكرادة والزوية الواقعة ضمن هذا القسم . وتقع أهم مؤسسات العاصمة والمواقع الأثرية التاريخية في هذا القسم ففيه تقع المستنصرية التي أنشئت في

---

(١) تساوي المشارة ٢٥٠٠ متر مربع .

(٢) يقسم العراق ادارياً الى أربعة عشر لواء ويقسم كل من هذه الألوية الى عدة أقضية وكل من الأقضية الى عدة نواح ، ويدير شؤون اللواء متصرف وشؤون القضاء قائممقام وشؤون الناحية مدير .

آخر العهد العباسي والقصر العباسي ومنارة جامع الخليفة القديم التي يرجع تاريخ إنشائها الى سنة ٦٧٨هـ والمدرسة المرجانية التي تعود الى العهد الايلكاني ومشهد الشيخ عبد القادر الجيلي (الكيلاني) المتوفى سنة ٥٦١هـ (١١٦٥م) وتربة الشيخ عمر السهروردى المتوفى سنة ٦٣٢هـ ، هذا عدا الجوامع التاريخية العديدة الواقعة في هذا القسم كجامع الخفافين الذي شيدته زمرد خاتون زوجة الخليفة المستضيء بأمر الله وأم الخليفة الناصر لدين الله المتوفاة سنة ٥٩٩هـ (١٢٠٢م) وجامع المرادية المنسوب الى مراد باشا والي بغداد بين سنة ١٠٠٨ و١٠١٢هـ وجامع الحيدرخانة الذي اختطه والي بغداد داود باشا (١٢٢٢ ــ ١٢٤١هـ) وغيرها من الجوامع والمساجد التاريخية . وكان هذا القسم من المدينة يضم دار الخلافة العباسية وسورها الكبير في آخر عهدها ومن بقايا هذا السور « الباب الوسطاني » المتخذ حالياً متحفاً للاسلحة كما كان يضم أهم محلات بغداد وأسواقها ودورها القائمة حول الدار المذكورة . وفي منطقة الزوية ضمن مركز قضاء الرصافة تلول قديمة تسمى تلول « حاجي عبد » فيها آثار من العهد البابلي فالعهد الساساني فالعهد العباسي ، وهي موضع مدينة كانت تعرف باسم « كلواذى » في العهدين الساساني والعباسي، ويبلغ عدد نفوس هذا القسم (٢٠٢٤٠٥) نسمات منهم (١١١٥٢٨) نسمة من الذكور و(٩٠٨٧٧) نسمة من الاناث ويؤلف ١٢٪ من مجموع نفوس المدينة .

وترتبط بقضاءالرصافة ناحية تسمى «الكرادة الشرقية» وهي تمتد شرقي مركز قضاء الرصافة حتى تتصل بساحل نهر ديالى الأيمن فيحدها نهر ديالى من الشرق ومركز قضاء الرصافة وقضاء الأعظمية من الغرب ، ونهر دجلة من الجنوب ؛ وتحيط هذا القسم سداد من أكثر أطرافه لوقايته من خطر الفيضان . ومن المواضع المهمة التي تقع ضمن هذا القسم الرستمية والزعفرانية وجامعة الحكمة كما تضم داخلها « بغداد الجديدة » ، حيث يقع « تل حرمل » ، وهو من أقدم آثار الحضارة البابلية في منطقة بغداد عثر فيه على نصوص شريعة تعد أقدم شريعة في تاريخ البشر فهي أقدم زمناً بقرنين من شريعة حمورابي المشهورة التي يرجع تاريخها الى سنة ١٧٩٢ ق. م. وتخترق هذا القسم قناة الجيش في امتدادها الأخير حيث يقع مصبها في نهر ديالى . ويبلغ عدد سكان هذه الناحية (المركز والضاحية) (٣٠٣٣٩٧) نسمة منهم (١٥٦٣٠٥) من الذكور و(١٤٧٠٩٢) من الاناث ويؤلف ١٩٪ من مجموع نفوس المدينة .

ب ــ **قضاء الأعظمية :** ــ ويقع في الجانب الشرقي من دجلة شمال الرصافة ويسمى « الأعظمية » نسبة الى الامام الأعظم « الامام ابي حنيفة » (رض) حيث يقع مرقده وجامعه . وتدل الروايات التاريخية على أن موضع الأعظمية كان مقبرة عامة في العصر العباسي تعرف بمقبرة الخيزران ولما توفي الامام ابو حنيفة (رض) في حوالي سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) دفن في هذه المقبرة ، وفي سنة ٤٥٩هـ بني مشهد وقبة على قبره كما بني عنده مدرسة كبيرة ، وقد سميت المحلات الواقعة في جوار المشهد باسم « الأعظمية » . ومن الأحياء المهمة في هذا القسم حي الثورة وحي جميلة وحي ١٤ تموز ومنطقة الصليخ . وتخترق قناة الجيش هذا القسم حيث يقع مأخذها من دجلة . ويبلغ عدد سكان هذا القضاء (المركز والضاحية) (٥٢٢٢١٧) نسمة منهم (٢٦٥٧١٠) من الذكورو (٢٥٦٥٠٧) من الاناث ويؤلف ١٩٪ من مجموع نفوس المدينة .

ويرتبط بقضاء الأعظمية أيضاً جزء صغير من ناحية الراشدية تبلغ مساحته (١٩٧٦٠) مشارة .

ج ــ **مركز قضاء الكاظمية :** ــ ويقع في الجانب الغربي من دجلة مقابل قضاء الأعظمية ويتكون من مدينة الكاظمية وما يجاورها من مزارع وبساتين ، وبلدة الكاظمية إحدى المدن المقدسة في العراق يقع فيها المشهد الكاظمي الذي يضم ضريحي الامامين موسى الكاظم ومحمد الجواد عليهما السلام . ويقال إن المنصور كان أول من جعل هذا الموضع مقبرة لما ابتنى مدينته المدورة في جواره من الجنوب وإن أول من دفن فيها كان ابنه جعفر الأكبر ، ثم صارت تدعى بالكاظمية نسبة الى الامامين الكاظم والجواد (ع) اللذين دفنا فيها في سنة ١٨٣ وسنة ٢٢٠هـ (٧٩٩ و٨٣٥م) على التوالي ، وكانت هذه الترب تسمى قبل ذلك « مقابر قريش » . وترتبط بلدة الكاظمية ببلدة الأعظمية بجسر عبر نهر

دجلة يسمى « جسر الأئمة » . ويبلغ عدد سكان هذا القسم من المدينة الذي يضم مركز القضاء دون الضواحي الواقعة خارج حدود أمانة العاصمة (٩٩٠٨٦) نسمة منهم (٥٠٦٦٢) من الذكور و(٤٨٤٢٤) من الاناث ويؤلف ٦٪ من مجموع سكان المدينة .

ويرتبط بقضاء الكاظمية مركز ناحية أبي غريب الممتد الى الجنوب من مركز قضاء الكاظمية ويبلغ عدد نفوسه (٨٥١٩) نسمة منهم (٤٣٣٦) من الذكور و(٤١٨٣) من الاناث ويؤلف ١٪ من مجموع سكان المدينة .

د ــ **مركز قضاء الكرخ :** ــ يقع هذا القسم من المدينة في الجانب الغربي من نهر دجلة مقابل مركز قضاء الرصافة وجنوب مركز قضاء الكاظمية ويضم المحلات القديمة في هذا الجانب من المدينة ، ومن أهم المواضع الحديثة فيه القصر الجمهوري وبناية البرلمان وقاعة الخلد والمتحف العراقي الجديد وملعب الادارة المحلية ومعرض بغداد وعمارات السفارات الايرانية والأمريكية والبريطانية ومبنى شركة النفط العراقية ومن محلاتها الواسعة منطقة الحارثية . ويرتبط مركز قضاء الكرخ بمركز قضاء الرصافة بخمسة جسور على نهر دجلة هي من الشمال إلى الجنوب : جسر الصرافية ، جسر الشهداء (جسر المأمون سابقاً) ، جسر الأحرار ، جسر الجمهورية ، جسر المعلق في الزوية · ويبلغ عدد سكان هذا القسم من بغداد ١١٤٦٢٢ نسمة منهم ٦٠٠٦٩ من الذكور و٥٤٥٥٣ من الاناث ويؤلف ٧٪ من مجموع نفوس المدينة .

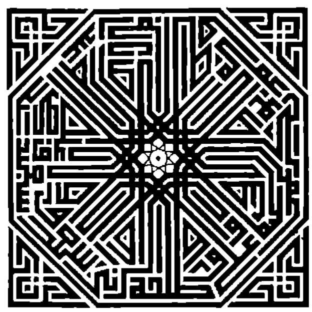
وترتبط بقضاء الكرخ ناحية المنصور وهي تقع غربي مركز قضاء الكرخ وأهم ما فيها بلدة المنصور الحديثة وحي المأمون وحي اليرموك وحي البياع وحي الوشاش وحي إسكان غربي بغداد وحي الحرية وحي السلام وحي العروبة . ويبلغ عدد نفوس هذه الناحية بقسميها المركز والضاحية ٣٤٢٥٧٥ نسمة منهم ١٧٥٣٧٨ من الذكور و١٦٧١٩٧ من الاناث يؤلف ٢١٪ من مجموع نفوس المدينة . ويرتبط بقضاء الكرخ أيضاً جزء من ناحية المأمون هو (مركز الناحية) وأهم ما فيه منطقة الدورة ، ويبلغ عدد سكان هذا القسم ٣٣٤٠٩ نسمات منهم ١٧٥٢٢ من الذكور و١٥٨٨٧ من الاناث ويؤلف ٢٪ من مجموع نفوس المدينة .

هـ ــ **قضاء المحمودية :** ــ ناحية اليوسفية : ــ ويؤلف هذا القسم جزءاً صغيراً من ناحية اليوسفية التابعة الى قضاء المحمودية ويقع جنوب مركز ناحية المأمون على حدود أمانة العاصمة الجنوبية وتبلغ مساحة هذا القسم ١١٩١٢ مشارة .

(أنظر خارطة مدينة بغداد بحدودها البلدية الحديثة) .

وفيما يلي خلاصة لتوزيع مساحات وسكان الأقسام الادارية من مدينة بغداد الحالية :

	المساحة بالمشارات	النسبة المئوية من مجموع مساحة المدينة	النفوس		المجموع	النسبة المئوية من مجموع السكان
			ذكور	اناث		
١ ـ الجانب الشرقي :						
أ ـ مركز قضاء الرصافة	١٢٦٥٦	٣ر٦٠ ٪	١١١٥٢٨	٩٠٨٧٧	٢٠٢٤٠٥	١٢٪
ناحية الكرادة الشرقية (المركز والضاحية)	٦٠٨١٦	١٨٪	١٥٦٣٠٥	١٤٧٠٩٢	٣٠٣٣٩٧	١٩٪
ب ـ مركز قضاء الأعظمية (المركز والضاحية)	٥٩٧٠٤	١٧ر٥٠٪	٢٦٥٧١٠	٢٥٦٥٠٧	٥٢٢٢١٧	٣٢٪
ناحية الراشدية (جزء قليل منها)	١٩٧٦٠	٥ر٨٠ ٪	......	......	......	...
٢ ـ الجانب الغربي :						
أ ـ مركز قضاء الكاظمية	٢٨٦٠٠	٨ر٤٠ ٪	٥٠٦٦٢	٤٨٤٢٤	٩٩٠٨٦	٦ ٪
ناحية أبي غريب (المركز)	٣٧٢١٦	١١٪	٤٣٣٦	٤١٨٣	٨٥١٩	١ ٪
ب ـ مركز قضاء الكرخ	١٠٤٧٢	٣ر١٠ ٪	٦٠٠٦٩	٥٤٥٥٣	١١٤٦٢٢	٧ ٪
ناحية المنصور (المركز والضاحية)	٦٠٥٢٨	١٧ر٩٠٪	١٧٥٣٧٨	١٦٧١٩٧	٣٤٢٥٧٥	٢١٪
ناحية المأمون (المركز)	٢٧٠٩٦	٧ر٩٠ ٪	١٧٥٢٢	١٥٨٨٧	٣٣٤٠٩	٢ ٪
ج ـ قضاء المحمودية (ناحية اليوسفية جزء قليل منها)	١١٩١٢	٣ر٥٠ ٪	......	......	......	...
مساحة نهر دجلة	١١٢٤٠	٣ر٣٠ ٪	......	......	......	...
المجموع الكلي	٣٤٠٠٠٠	١٠٠ر٠٠٪	٨٤١٥١٠	٧٨٤٧٢٠	١ر٦٢٦ر٢٣٠	١٠٠٪



ري بغداد

قديماً وحديثاً

الدكتور احمد سوسه

١ ــ صلة الري ببحث تاريخ بغداد القديم :

ما عرف التاريخ في أي دور من ادوار العراق التاريخية القديمة مدينة ذات شأن قامت في ربوع الرافدين إلا احتضنها مشروع ارواء مشى الى جنبها وذلك لتروية حدائقها ومزارعها وبساتينها وتهيئة مياه الشرب لساكنيها. ولا نبالغ اذا قلنا إن انهار بغداد القديمة كانت الأساس الذي شيدت عليه المدينة في مختلف ادوارها التاريخية ، لأن العمران اقتفى اثر الانهار فى كل خطوة من خطوات حياة المدينة ، وما من عمارة او محلة ذات شأن شيدت فى دور من ادوار المدينة إلا رافقها جدول يوصل المياه اليها سيحاً وذلك لعدم تيسر وسائل الضخ الآلية الكافية في ذلك العهد. لذلك نستطيع ان نجزم بان دراسة تاريخ انهار بغداد يجب أن تكون السناد الذي يستند اليه في دراسة خطط هذه المدينة القديمة ، وعليه تصبح كل دراسة ، لا تأخذ بنظر الاعتبار وضع تخطيط الانهار بداية لها ، معرضة للخطأ ، وهذا ما وقع فيه جماعة ممن بحثوا في تاريخ هذه المدينة ، فقد اتخذوا تخطيط المدينة المدورة اساساً بنوا عليه اتجاهات الانهار ، وذلك هو الأمر الذي أداهم الى أن يرسموا شكلاً هندسياً غريباً لمجاري الانهار يخالف الواقع مخالفة تامة ، وهذا الخطأ جرهم الى اخطاء اخرى فيما يتعلق بتعيين جملة من اماكن بغداد رسموها في غير مواضعها الحقيقية .

ونظرة الى خارطة منطقة بغداد القديمة في اواخر العهد الساساني ، أي الوضع الذي كان عليه قبل ان انشأ المنصور مدينته فيها ، ترينا كيف جعلت شبكة الانهار ، التي كانت تخترق هذه المنطقة على جانبي نهر دجلة ، منها بقعة من اجمل وازهى البقاع التي كانت في ارض سواد العراق في ذلك العصر. ولا عجب من انها سحرت المنصور بمناظرها الخلابة وجذبته اليها بجمالها الطبيعي وحياتها الضاحكة المطمئنة ، ولا أدل على ذلك من قوله تعالى في كتابه العزيز « وجعلنا من الماء كل شيء حي».

٢ ــ شبكة انهار الجانب الغربي من منطقة بغداد القديمة :

كان معظم الجانب الغربي لهذه المنطقة يروى من نهر عظيم واسع يتفرع من الجانب الايسر لنهر الفرات من شمال الفلوجة بقليل فيقطع أرض الجزيرة التي بين الفرات ودجلة ويسقي هو وفروعه المزارع والبساتين الواقعة على نواحيه واطرافه وينتهي مجراه الكبير الى دجلة جنوب بغداد الحالية بمسافة أثني عشر كيلومتراً منها. وكان هذا النهر يتفرع من تحت مدينة الأنبار القديمة ، عاصمة الخليفة العباسي الأول عبدالله السفاح (١)، فيسير في اتجاه جدول الصقلاوية الحالي ويصب في دجلة في جوار « تلول خشم الدورة » الحالية الواقعة على طريق بغداد الى المحمودية.

إن آثار هذا النهر العظيم وفروعه العديدة من جانبيه ظاهرة يمكن تتبع مجاريها القديمة على الرغم من تداخل

المزارع والانهار الحديثة فيها. وقد كانت تشاهد الى وقت قريب آثار بركة واسعة في ذنائب النهر قرب «تل أم الطبول» وطريق بغداد الى المحمودية، وقد كانت هذه البركة قبل خمس عشرة سنة مملوءة ماءاً وذات عمق كبير، وقد نبتت حولها أجمة من القصب والبردي، والراجح أن هـذه البركة أنشئت على النهر لاتخاذها بحيرة للتنزه واصطياد الطيور فيها، ولا سيما بعد شيوع نظام الفتوة ودخول رمي الطيور في مذاهبها العملية. ويلاحظ أن الأقدمين كانوا يستفيدون من الأراضي التي تقع في ذنائب الجداول عند مصباتها في الانهر حيث تكثر المياه وينبت القصب والبردي فيتخذونها مناطق لصيد الطيور فيها، ومن أمثلة ذلك ان سنحاريب ملك آشور اصطنع له مستنقعاً في ذنائب الجدول الذي حفـره لارواء عاصمته نينوى غرس فيه انواع الأشجار والنباتات كالقصب والجنـار والسرو والتوت وغيرها من الأشجار التي تنمو في مناطق الأهوار، وجلب مختلف أنواع الطيور والحيوانات من مواطنها في المناطق الجنوبية كالخنازير الوحشية والأيايل وغيرها وأطلقها في المنخفض المذكور فتكاثرت فيه. ومن أمثلة ذلك ايضاً ان المنطقة الشرقية من شمالي بغداد المعروفة حالياً بمحلة الصليخ والتي كان يصب عندها أحد فروع جدول النهروان القديم (٢) المسمى «نهر الخالص» وكانت ذات أجمة من القصب والبردي وكانت تصاد فيها الطيور على اختلاف أنواعها. وكانت الوسائط النهرية التي تنقل تجارات الشام ومصر تسير بطريق النهر المتفرع من الفرات حتى تنتهي الى دجلة ثم تصعد فيه حتى تصل مدينة بغداد، وصار يعرف هذا النهر في العهد العباسي باسم نهر عيسى الأعظم لسعته ولتمييزه عن أحد فروعه الذي عرف باسم نهر عيسى. وقد سماه اليعقوبي بهذه التسمية فقال: «ان نهر عيسى الأعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الى فرضة عليها الأسواق وحوانيت التجارة، لا تنقطع في وقت من الاوقات فالماء لا ينقطع». وفي وصف الاصطخري لنهر عيسى ما يوضح هذه الناحية بجلاء، فقد ميز هذا الكاتب بين نهر عيسى الأعظم الذي تمر منه السفن أي النهر الرئيس الذي ينتهي الى دجلة جنوب بغداد ونهر عيسى (الفرع) الذي ينتهي مع بقية الفروع الى دجلة في جوف مدينة بغداد. ومما يدل على أن نهر عيسى الأعظم هذا كان من الانهار الواسعة التي تصرف قسماً كبيراً من مياه الفرات، ان بعض المؤرخين العرب اعتبره فرعاً من الفرات ينتهي الى دجلة، فقد ذكر النويري في كتابه «نهاية الأرب في فنون الأدب» ان الفرات بعد أن يمر بهيت ويتجاوز الأنبار ينقسم قسمين قسم يأخذ نحو الجنوب قليلاً وهو المسمى بالعلقمي والقسم الآخر يسمى نهر عيسى منسوب لعيسى بن علي بن عبدالله بن عباس وهو يصب في دجلة. أما نهر عيسى (الفرع) فكان يتفرع من الجانب الأيسر من نهر عيسى الرئيس فيمتد شرقاً حتى ينتهي الى دجلة في جوف مدينة بغداد.

وهنا تتجلى أبين التجلي النظرية التي ذهبنا اليها في أول هذا البحث، وهي أن كل دراسة لتاريخ بغـداد القديم

---

(١) تقع أطلال مدينة الأنبار على ضفة نهر الفرات اليسرى جنوب قرية الصقلاوية الحالية، وعلى بعد زهاء ستة كيلومترات من جنوب صدر جدول الصقلاوية الحالي. وكان الفرس يسمونها فيروز سابور باسم بانيها الملك سابور الأول (٢٤١ — ٢٧٢م)، وقد أطلق أميان مرقلان على المدينة اسم بيريسا بوراس (Pirisaboras) وذلك عند وصفه لحملة يوليانس (٣٦٣م) كما انه وصف سورها المضاعف المنيع. وفي العهد العربي أصبح اسم فيروز سابور يشمل مقاطعة الأنبار بما فيها من القرى، على ان من مؤرخي العرب من اعتبرها من مدائن كورة سامراء. وقد كان للانبار مكانة بارزة في هذا العهد إذ اتخذها الخليفة العباسي الأول عبدالله السفاح (١٣٢هـ — ٧٥٠م) عاصمة لمملكته وبنى فيها قصراً سماه «الهاشمية» يعني المدينة الهاشمية، وقد توفي في هذا القصر ودفن في المدينة.

(٢) أنظر ما يلي من البحث في الكلام على هذا الجدول.

لا تستند الى دراسة إرواء بغداد القديم تصبح معرضة للخطأ ، فقد وقع اكثر الباحثين في تاريخ بغداد ، وخصوصا اولئك الذين حاولوا رسم خرائط لخطط بغداد القديمة أمثال گي لسترانج وستريك وغيرهم، في ارتباك وحيرة من أمر نهر عيسى بسبب قصورهم واعتقادهم أن نهر عيسى هو اسم لنهر واحد ، وأوضح دليل لتحيرگي لسترانج في هذا الأمر انـه وضع في أول الأمر خارطة لأنهار بغداد الغربية عند تحقيقه لبحث ابن سرابيون عن انهار العراق رسم فيها نهر عيسى واحـدا يسير في اتجاه نهر عيسى الأعظم الذي يصب في دجلة جنوب بغداد ، وكانت نتيجة ذلك أن جميع الأماكن الـتي كانت تقع داخل بغداد رسمت في غير مواضعها الحقيقية ، لان نهر عيسى الأعظم يسير على مسـافة بعيدة عن بغداد . ويظهر ان گي لسترانج شعر فيما بعد بخطئه هذا فحاول تصحيح خارطته في كتابه «بغداد في عهد الخلافة العباسية »، ولكنه وقع هذه المرة في أخطاء اخرى يتجلى فيها ارتباكه وتحيره في أمر نهر عيسى ، فأهمل هذه المرة نهر عيسى الأعظم بالمرة كأن لم يكن له وجود ورسم نهر عيسى على شكل دائرة يدور حول مدينة المنصور المدورة ، وكانت محاولته هذه غير مجدية أيضاً لانه اتخذ مدينة المنصور المدورة أساساً لاتجاه نهر عيسى دون أن يرجع الى دراسـة نظام الإرواء القديم الذي كان موجوداً في هذه المنطقة قبل أن يدخلها المنصور بمدة طويلة. ومن أهم الأخطاء التي وقع فيها گي لسترانج بسبب ذلك انه رسـم الفرضة (١) التي كانت عنـد مصب نهر عيسى الأعظم الذي ينتهي الى دجلة جنوب بغـداد في غير موقعها الحقيقي فرسمها عند مصب نهر عيسى (الفرع) الذي ينتهي الى دجلة في جوف بغداد ، ومن المعلوم انه كان يتعذر على السفن أن تسير في نهر عيسى (الفرع) لوجود عدة قناطر عليه ولصغر حجمه بالنسبة الى النهر الرئيس .

واذا رجعنا الى الخارطة التي وضعها المستشرق الألماني ستريك لمدينة بغداد الغربية ، وهو من أشـهر المؤرخين الغربيين الذين بحثوا في خطط بغـــداد القديمة وقد وضع مؤلفه « بلاد بابل القديمة » في الوقت الذي وضع فيه گي لسترانج كتابه في بغداد ، نجد انه لم يكن في وسع هذا المؤرخ اهمال آثار نهر عيسى الأعظم التي لابد أن تكون قـد استوقفت نظره عنـد تنقيبه عن آثار بغداد فوقع في عين الخطأ الذي وقع فيه گي لسترانج في محاولته الأولى لحل مشـكلة نهر عيسى المعقدة . فعين نهر عيسى (الفرع) في اتجاه نهر عيسى الأعظم وكانت نتيجة ذلك انه رسم جميع المواقع التي على نهر عيسى (الفرع) على نهر عيسى الأعظم ، وبهذا أصبحت المواقع التي في الجانب الغربي من بغداد القديمة بعيـدة كل البعد عن مواقعها الأصلية بل وقعت خارج المدينة بمسافة بعيدة ، وقد أيد المستشرق الفرنسي الأستاذ ماسينيون وجهة نظر ستريك هـذه . وقد فات الأستاذ ماسينيون ان نظريته هـذه تجعل جميع الاماكن التي كانت على نهر عيسى في جوف بغداد في غير مواضعها الحقيقية إذ تصبح خارج مدينة بغداد .

أما تاريخ حفر نهر عيسى الأعظم فغير معروف كما انه ليست لدينا معلومات عن الاسم الذي كان يعرف به عنـد انشائه في العصور القديمة على الرغم من انه كان واسطة نقل نهرية مهمة لنقل البضائع فيه بين الفرات ودجلة مضافاً الى كونه مصـدراً لإحياء الاراضي وترويتها وزراعتها ، على أن في الامر دلائل أثرية تدل على انه يرجع الى عهد قديم جـداً بدلالة ان المدينة الكشية « دوركوريكالزو » التي أسست في أوائل القرن الخامس عشر ق. م. وهي الأطلال المعروفة اليوم باسم « تل عقرقوف » كانت تروى منـه بقناة واسـعة تتفرع من جانبه الايسر ، وقد عرفت في العصور الاسـلامية باسم « الورادة » ، ولا تزال آثار هذه القناة في الجهة الجنوبية الشرقية من مدينة « دوركوريكالزو » على مسافة ثلاثمائة متر منها ، وهناك تنقسم الى فرعين يتجهان نحو المدينة . وقد وردت اشارات في النصوص المسمارية من العصـر الكشي الى نهر باسم « انليل » كان يتصل بمدينة « كوريكالزو » .

وقد أشار الى هذا النهر الكاتب الروماني « أميان مرقلان » في رحلته صحبة قيصر يوليانس الروماني سـنة ٣٦٣م ، فقد ذكر في رحلته أن هـــذا القيصر بعد أن رد هجوماً للفرس على الفرات تقدم نحو ارباض « ماسيراكتا » وهناك

(١) الفرضة مرسى السفن في الانهار وهي ما يشبه الميناء اليوم في البحار .

تتفرع من الفرات قنوات عريضة يجري الماء فيها الى داخل مملكة بابل لتروية المزارع والحقول وشرب سكان المدن والقرى الواقعة على تلك القنوات.

وكان قد أنشيء على نهر عيسى الأعظم سد من الحجر لرفع مستوى المياه وتحويلها الى جدولين رئيسين، شمالي وجنوبي، يتفرعان من الجانب الأيسر للنهر من أمام السد ويجريان متوازيين نحو الشرق ثم ينتهيان الى نهر دجلة فيصبان فيه في وسط بغداد الحالية بعد أن يسقيا الأراضي المجاورة لهما بين النهر الرئيس ونهر دجلة. وكان هذا السد يحول دون وصول السفن الى دجلة، لذلك كانت تنقل البضائع من السفن التي تصل الى هذا الموضع الى سفن اخرى وراء السد لمواصلة نقلها الى بغداد التي كانت مركزاً تجارياً رئيساً في ذلك العصر. وقد نشأت في زمن العرب بلدة في هذا الموضع سميت « المحول » أي الموضع الذي تحول فيه البضائع وغيرها من شحن السفن.

وكان يعرف الجدول الشمالي باسم « نهر الصراة » وقد بقي محتفظاً باسمه الى ما بعد تشييد مدينة المنصور حيث صار يسمى « نهر الصراة العظمى »، وقد سمي بهذا الاسم لتمييزه عن جدول آخر يتفرع منه كان يعرف باسم « الصراة الصغرى ». وكان هذا الجدول الأخير يتفرع من عمود الصراة العظمى فيسقي قسماً من البساتين الواقعة على الجانب الايسر من الصراة العظمى ثم يعود فيصب في الجدول الرئيس الذي تفرع منه. وقد ورد في رواية أهل الأثر أن « نهر الصراة العظمى » كان قد حفره فيروز بن جداليس النبطي، أما « نهر الصراة الصغرى » فقد حفره الساسانيون بعد أن أبادوا النبط.

أما الجدول الجنوبي الذي كان يتفرع من أمام السد أيضاً فكان يعرف باسم « نهر الرفيل »، والرفيل الذي ينسب اليه هذا النهر هو اسم دهقان من الفرس أسلم على يد سعد بن أبي وقاص (١). ثم صار يعرف في العهد العربي باسم نهر عيسى نسبة الى عيسى بن علي عم المنصور الذي قام باعادة حفره وشيد عند مصبه في دجلة قصراً سمي باسم « قصر عيسى». واما النهر الرئيس الممتد بين الفرات ودجلة فصار يعرف باسم نهر عيسى الأعظم باعتباره النهر الرئيس الذي يمون نهر عيسى (الفرع) بالمياه، وكان يتشعب من الضفة اليسرى لنهر الرفيل في موضع يبعد نحواً من ميل تحت صدره فرع كان يعرف باسم « نهر كرخايا » فيمتد بموازاة نهر الرفيل من الشمال مؤلفاً شبكة من القنوات بين نهر الصراة ونهر الرفيل بعضها يصب في الصراة والبعض الآخر في دجلة وفي نهر الرفيل نفسه، ثم يعود فيصب في نهر الرفيل بعينه. وكان « نهر كرخايا » يسقي المنطقة الواقعة بين نهر الصراة ونهر الرفيل وهي المنطقة التي كانت تعرف يومئذ باسم « رستاق الفروسيج (٢) ». وقد روي ان القسم الأسفل من هذا النهر كان قد حفره بابك بن بهرام بن بابك وهو القسم الذي صار يعرف بعد انشاء مدينة المنصور باسم « نهر طابق ».

ويلاحظ أن القدماء قد اعتادوا أن يضيفوا كلمة « الأعظم » او « العظيم » الى اسم الجدول الرئيس للتمييز بينه وبين الفرع الذي يتفرع منه ويحمل اسم الجدول نفسه ايضاً، كما كانوا يضيفون هذه الكلمة الى الشارع اذا كان أوسع شارع في المدينة، وهكذا فقد سمي نهر الصراة الرئيس باسم « نهر الصراة العظمى » للتمييز بينه وبين الفرع الذي يتفرع منه والذي صار يعرف باسم « نهر الصراة الصغرى »، وكذلك سمي نهر عيسى الرئيس باسم نهر عيسى الأعظم للتمييز بينه وبين الفرع المتفرع منه الذي صار يعرف باسم « نهر عيسى ». وقد اكدنا القول في هذا الأمر بصورة خاصة لأهميته في دراسة نظام الانهار القديمة التي كانت تروي منطقة بغداد.

---

(١) الدهقان وجمعه الدهاقين والدهاقنة وهي لفظة فارسية يقصد بها زعيم الفلاحين من نبلاء الفرس الذين كانوا ملاكين وأصحاب ضياع ومثله بالعربية « التانىء » وجمعه التناء والدهقنة : التناءة والتناية.

(٢) الرستاق وحدة زراعية كانت تطلق في زمن الفرس على الصقع الذي يشتمل على مزارع وقرى.

وكان على « نهر الصراة العظمى » قنطرة متينة ذات عقود من الآجر والجص يعود تاريخ انشائها الى العصر الفارسي ، وصارت تعرف هذه القنطرة بعد أن شيد المنصور مدينته المدورة في شمال نهر الصراة بالقنطرة العتيقة ، كما كان على « نهر الصراة العظمى » فى الزاوية المكونة من مصب « نهر الصراة الصغرى » بنهر الصراة العظمى طاحونة تسمى « رحى البطريق » ، وقد روي أن صاحب هذه الرحى كان من جملة الذين استدعاهم المنصور ليستطلع رأيهم في المواضع التي كانوا فيها. وكان ايضاً حسب رواية المؤرخين دير كبير عند « قرن الصراة » ، أي مصب الصراة في دجلة ، وهو الدير الذي كان يعرف باسم « دير مار فثيون » ثم صار يعرف بعد انشاء مدينة بغداد في عهد المنصور باسم « الدير العتيق » للتمييز بين ابنيته العتيقة وابنيته الجديدة ، وكان الى جانب « دير مار فثيون » هذا دير آخر على نهر الصراة يسمى « عمر صليبا » .

٢ ــ القرى والأديرة العتيقة في منطقة بغداد الغربية واستيطان المسلمين العرب فيها :

ويلاحظ ان المسلمين العرب قد استوطنوا في بعض اراضي هذه المنطقة بعد احتلالهم للعراق إذ يذكر المؤرخون ان البقعة التي تقع في شمال نهر الصراة العظمى امتلكها قوم من المسلمين العرب وبقيت بلقب عربي فسميت « مزرعة المباركة » ، وهي عين البقعة التي شيد عليها المنصور مدينته المدورة وقد عوضهم المنصور عنها. وكان في الجنوب الغربي من مزرعة المباركة قرية كانت تعرف باسم قرية « الخطابية » وهذه تحمل اسماً عربياً ايضاً ، كما كان شمال قرية الخطابية دير يعرف بدير بستان القس ، وكان صاحب هذا الدير أحد الذين استدعاهم المنصور واستنار برأيهم في معرفة المواضع التي يسكنون فيها. وكانت في هذه المنطقة ايضاً قرية تسمى « الشرفانية » كانت لدهقان فارسي يكنى بأبي الجون وقد انشئت في موضع هذه القرية « دار سعيد الخطيب » بعد تشييد مدينة المنصور. وكان في الزاوية الجنوبية التي تقع بين ضفة دجلة ومصب « نهر الصراة العظمى » شرقي مزرعة المباركة قرية تعرف باسم « سونايا » بقيت في موضعها حتى انشاء مدينة المنصور وصارت تعرف بالعتيقة ، وقد انشىء فيها المشهد المسمى مشهد المنطقة (مسجد المنطقة الحالي) ويروي المؤرخون انه مشهد لعلي بن أبي طالب (ع) . وقد اشتهرت قرية سونايا بالعنب الأسود الذي يبكر على سائر الأعناب ولما عمرت بغداد دخلت في العمارة وصارت محلة من محالها. ويلاحظ ان تسمية المنطقة لهذا الموقع بقيت حتى يومنا هذا .

وكان على الجدول الجنوبي (نهر الرفيل) الذي صار يعرف باسم « نهر عيسى » دير قديم يقع بجوار مرقد الشيخ معروف الكرخي يعرف باسم « دير كليليشوع » ، وهي لفظة سريانية ومعناها اكليل يسوع ، وكان هذا الدير يسمى ايضاً « دير الجاثليق » . وكان في القسم الأسفل من هذا الجدول في الزاوية الجنوبية التي تقع بين ضفة دجلة ومصب الجدول قرية تعرف باسم « قطفتا » بقي موضعها يعرف بهذا الاسم نفسه بعد انشاء مدينة المنصور فقد انشئت هناك محلة باسم « محلة قطفتا » . ويذكر بعض العلماء ان « قطفتا » كلمة آرامية معناها ما يقتطف او قطافه وسميت كذلك لما كان فيها من وفرة البساتين والثمار . وقد ورد في رواية ان الامام علي بن أبي طالب (ع) مر بقرية « قطفتا » وشكا أهلها اليه كثرة الخراج الموضوع عليهم. وكان عند مصب الجدول في دجلة قصر ساساني يعرف باسم « قصر سابور » وكان قد نصب عنده جسر عائم يصل الجانب الشرقي بالغربي من دجلة عبره المسلمون عند غزوهم لهذه المنطقة. وكان عبورهم سنة ١٢ هـ (٦٣٣م) بقيادة النسير بن ديسم فقد عبروا أولاً من الجانب الغربي من دجلة الى الجانب الشرقي ثم من الجانب الشرقي الى الجانب الغربي ، وجرت بين المسلمين والفرس وقعة قرب « تل عقرقوف » كان النصر فيها للعرب . وقد أنشأ عيسى عم المنصور قصراً في موضع قصر سابور المذكور فسمي « قصر عيسى » ، وهو أول قصر بناه الهاشميون في ايام المنصور ببغداد.

ومن أهم القرى في هذه المنطقة التي تناقل المؤرخون أسماءها من العهد القديم « قرية الكرخ » وهي القرية التي نسبت اليها محلة الكرخ الواسعة التي انشئت غربي بغداد فى العهد العباسي حتى أخذ يعرف الجانب الغربي من بغداد كله باسم الكرخ فى الزمن الأخير . ويظهر من وصف المؤرخين ان الكرخ كانت أشبه بقرية منعزلة وقد ذكر ان الذي

اسمها هو الملك الساساني سابور الثاني الذي يلقبه العرب « ذا الاكتاف » وكان حكمه من ٣٠٩ الى سنة ٣٧٩م.

وكان على نهر كرخايا قرية مهمة تسمى « قرية براثا » يرتقي تاريخها الى هذا العهد القديم أيضاً ، وكانَ لهذا الموضع شهرة قبل الاسلام وقد انتهى أمره الى أن اندمج ببغداد واشتهر في العهود العباسية ايضاً لوقوع جامع براثا فيه ، وهو الجامع الذي يقدسه الشيعة بناءً منهم على رواية تشير الى أن الامام علي بن أبي طالب (ع) صلى في هذه البقعة التي شيد فيها الجامع بعد ذلك ، واغتسل بالقرب منه وذلك في سيره الى الخوارج سنة ٣٧ للهجرة (٦٥٨م) ، ورواية اخرى تذكر ان صلاته واغتساله فى قرية « سونايا » التي قدمنا ذكرها ونقلنا ان فيها مشهداً لعلي بن أبي طالب (ع) وقد عرف بمشهد المنطقة ولا يزال قائماً بين بغداد والكاظمية ومسمى بهذا الاسم. وكان على ضفة نهر كرخايا ايضاً أحد الديارات العتيقة المهمة كان يعرف باسم « دير مديان » وكان يعرف ايضاً باسم « دير سرجيس » ولفظة « مديان » سريانية معناها « المعترفون ».

وكان في المنطقة المسماة « رستاق الفروسيج » الواقعة بين الجدول الشمالي (نهر الصراة) والجدول الجنوبي (نهر الرفيل) الذي عرف في العهد العباسي بنهر عيسى ثلاث قرى تقع بين نهر كرخايا ونهر الصراة كانت تعرف الأولى باسم « قرية سال » ، وقد أقيمت في هذا الموضع بركة في العهد الذي عقب انشاء مدينة بغداد صارت تعرف باسم « بركة زلزل » ، أما القرية الثانية فكانت تعرف باسم « قرية ورثالا » وكانت تسقى من ساقية تتفرع من من نهر كرخايا وقد شيدت في عهد المنصور محلة نهر القلائين في موضعها ، وكانت القرية الثالثة تعرف باسم « قرية بناورا » وهي القرية التي أصبحت بعد انشاء مدينة المنصور من ضمن قطيعة الربيع الواسعة التي أقطعها المنصور حاجبه الربيع بن يونس.

٤ ـــ قرية سوق بغداد القديمة وأهمية موقعها:

وكان في الجنوب من نهر الصراة موضع يسمى « سوق بغداد » يجتمع فيه التجار في رأس كل سنة وتقوم به للفرس سوق عظيمة مما جعله مركزاً تجارياً مهماً ، وظل الأمر كذلك الى عهد الفتح الاسلامي ، ولسوق بغداد هذا أهميته التاريخية وذلك من حيث تسمية المدينة التي أضيفت اليها وعرفت ببغداد حتى يومنا هذا. وقد اشتهر ذكر هذا الموضع بالفوز الذي ناله العرب عند هجومهم عليه في سنة ١٣هـ (٦٣٤م) وقد ذكر بعضهم ان الهجوم وقع في سنة ١٢هـ (٦٣٣م) ، ويؤيد ذلك ما ذكرناه في الكلام على قصر سابور وعبور القائد النسير بن ديسم دجلة من الغرب الى الشرق ثم من الشرق الى الغرب عند القصر المذكور.

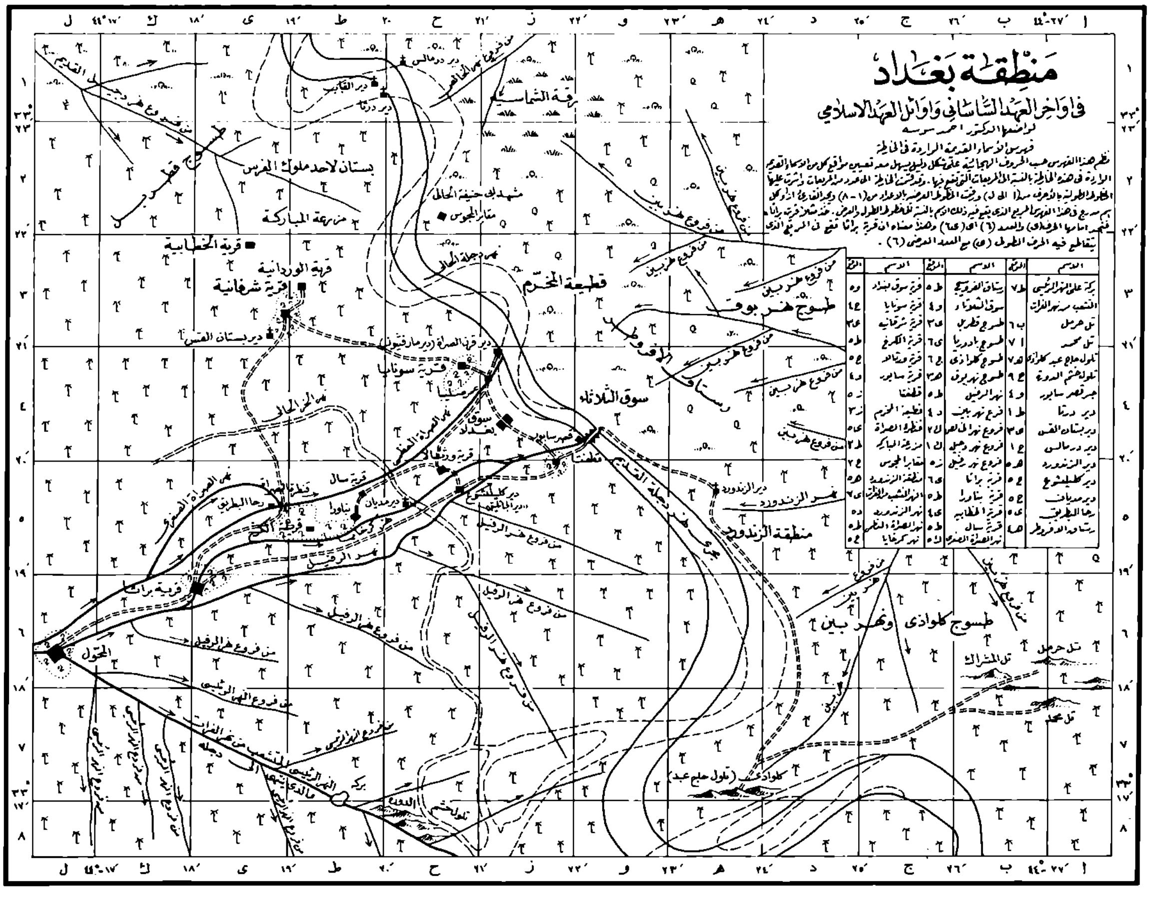
وقد ورد ذكر سوق بغداد بعد ذلك في حوادث سنة ست وسبعين فى الحرب بين شبيب بن يزيد بن نعيم الشيباني والجزل بن سعيد وكان الجزل قد اوفده الحجاج لمقاتلة شبيب فجرح في هذه المعركة ثم اقبل من المدائن الى بغداد فجاء الكرخ بعد ان عبر دجلة اليها ، ويروى انه ارسل الى اهل سوق بغداد فآمنهم ، وكان يوم سوقهم وبلغه انهم يخافونه فاشترى أصحابه منهم دواباً وأشياءاً أخرى يحتاجون اليها.

وكان لصاحب بغداد قرية تقع في الشمال الشرقي من قرية « الشرفانية » تسمى « الوردانية » ، وهي القرية التي اقيمت فيها في العهد الذي عقب انشاء بغداد مربعة أبي العباس الفضل بن سليمان الطوسي. وكان صاحب بغداد هذا احد الدهاقين لقرى هذه المنطقة الذين استدعاهم المنصور عنده ليسألهم عن المواضع التي كانوا فيها ، وقد اختاره المنصور من دون الدهاقينَ الآخرين ليستطلع رأيه في ملاءمة الموضع لانشاء عاصمته فيه.

وكان قد امتلك بعض الأكاسرة جملة من البساتين الواقعة في جوار قرية بغداد هذه لقضاء بعض الوقت فيها لما كانت تتميز به من جودة المناخ وطيب الهواء. ويستفاد مما رواه بعض المؤرخين العرب أن المنطقة المجاورة لموضع المشهد الكاظمي الحالي من جهة الشرق كانت قبل انشاء مدينة المنصور بستاناً لبعض ملوك فارس ثم أقطعها المنصور عمارة بن حمزة أحد مواليه ، وقد ذكر انه كان لكسرى انو شروان بستان في جوار قرية بغداد سماه « بستان العدل ».

وكان موضع بغداد قبل ان يفتح الطريق البحري الى الشرق الاقصى مركزاً مهماً للمواصلات بين الشــــرق والغرب ، فكانت تتوسط طرق القوافل العامة التي تمتد بين الهنـد وايران ومنطقة البحر المتوسـط . وكان الرافدان ، دجـلة والفرات ، يؤلفان واسطة نقل مائية تربط المدينة بالمناطق الشمالية والجنوبية من العراق ، وذلك مما جعل موضع بغداد محطة عالمية مرتبطة بروابط تجارية قوية مع الشرق والغرب . أما بعد ان طورت وسائط النقل فأخذت تجارة ايران مع الغرب تسير في طريق مياه الخليج العربي كما أن تجارة الهند اتصلت مع الغرب بطريق قناة السويس .

وكانت المنطقة التي تقع فيها قرية بغـداد تقسم الى قسمين ، القسم الشمالي والقسم الجنوبي ، وكان يسمى القســم الشمالي « طسوج قطربل » والقسم الجنوبي « طسوج بادوريا »(١) . وكان نهر الصراة الفاصل بين الاول والثـاني ، فما كان على يسار نهر الصراة في القسم الاعلى من منطقة بغداد (او كما يسميه العرب ما كان من غربي الصراة) هو قطربل ، وما كان على يمين نهر الصراة في القسم الاسفل والاوسط من منطقة بغداد (او كما كان يدعى عند العرب ما كان من شرق الصراة) هو بادوريا . وكانت قرية سوق بغداد التي مر ذكرها تقع في طسوج بادوريا اي في جنوب نهر الصراة كما سبق بيانه . وكانت منطقة قطربل الشمالية (٢) تسقى من جدول قديم كان يتفرع من الضفة اليمنى لنهر دجلة



---

(١) الطسوج لفظة فارسية بمعنى المنطقة الزراعية او الموضع الزراعي .

(٢) اسم قطربل يوناني الأصل نسبة الى نقطربل ثم حذفت النون فصارت قطربل وبهذه الصورة ورد ذكرها في جميع المصادر العربية .

في جوار منطقة بلد الحالية فيسقي اكثر المنطقة الشمالية الواقعة بين الفرات ودجلة ، التي من ضمنها طسوج قطربل ، وصار يعرف هذا النهر في العهد العربي باسم نهر دجيل. ويمكن اليوم تتبع فروع هذا النهر العظيم في ارض الجزيرة التي بين بلد على نهر دجلة والمقاطعات المحادة لمقاطعات الفلوجة، وكانت تصل فروع هذا النهر الى حدود مزارع (نهر عيسى الأعظم) النهر الرئيس الذي يتفرع من الفرات وينتهي الى دجلة ، وقد سبق البحث فيه. وكان يتشعب من نهر دجيل هذا فرع خاص يسير في موازاة نهر دجلة وتنتهي فروعه في القسم الشمالي من منطقة بغداد الغربية فتسقي هذه الفروع قسم طسوج قطربل الواقع في شمال نهر الصراة ، وكان هذا الفرع يعرف باسم نهر بطاطيا فيسقي مزرعة المباركة وقرى الوردانية والشرفانية والخطابية التي تقدم ذكرها. وقد استفاد المنصور من وجود هذا النهر عندما أنشأ مدينته المدورة في شمال نهر الصراة فمد ثلاثة فروع من نهر بطاطيا الى مدينته الجديدة. اما قسم منطقة بغداد الواقع في منطقة بادوريا في جنوب نهر الصراة ، وهو القسم الذي كانت تقع فيه قرية سوق بغداد ، فكان يؤلف شبه مثلث يحده من الغرب النهر الرئيس المتفرع من الفرات (نهر عيسى الاعظم) ونهر الرفيل (نهر عيسى الفرع) من الشمال ونهر دجلة من الشرق ، وكان هذا القسم يروى من فروع نهر الرفيل اليمنى ومن الفروع اليسرى لنهر عيسى الاعظم (انظر خارطة منطقة بغداد في اواخر العهد الساساني واوائل العهد الاسلامي).

٥ ــ منطقة بغداد في التاريخ القديم :

ومما يذكر ان ازدهار منطقة بغداد يرجع الى العهد البابلي فقد دلت التنقيبات الاثرية ، التي اجريت في جوار قرية سوق بغداد القديمة ، على وجود مدينة بابلية قديمة يرتقي تاريخها الى ما قبل الفين وخمسمائة سنة ، إذ عثر سر هنري رولنسن (Henry Rawlinson) في سنة ١٨٤٨م عند هبوط المياه في نهر دجلة على بقايا متراس بمحاذاة ضفة دجلة الغربية داخل حدود مدينة بغداد الحالية كان مشيداً بالآجر البابلي وملاطه من القار ، وقد عثر بين الآجر على قطعة مختومة باسم بختنصر الثاني مع القابه (٦٠٥ ــ ٥٥٨ ق. م) ، ثم عثر غيره على غيرها في الشاطىء نفسه ، وقد عثر اخيراً على مثل هذا الآجر الكلداني المختوم باسم بختنصر الثاني في التل المسمى « تل نصرة باشا » في شرقي مدينة المنصور الجديدة وقناة الخر الحالية ، وقد اجري بعض التنقيب في هذا التل فوجدت آثار قرية يرجع تاريخها الى عهد الفرثيين ، والظاهر أن الآجر نقل اليها عند انشائها ، والمعلوم ان الدولة الفرثية أسست سنة ٢٥٦ ق. م وقرضت سنة ٢٢٦ ب. م. كل ذلك يدل على ان موضع بغداد كان معموراً منذ زهاء ثلاثة آلاف عام ولا شك انه كان يروى في هذا العهد القديم وفي العهد العباسي من الانهار التي كانت تستمد المياه من النهرين ، دجلة والفرات.

ونستخلص مما تقدم أن موضع قرية بغداد القديمة كان مركزاً حربياً (ستراتيجياً) واقتصادياً وتجارياً وقد انتشر في جواره العمران من كل صوب لوقوعه في بقعة متوسطة بين مراكز المدنيات للبابليين والآشوريين والكيشيين واليونان والفرس ، فكان نقطة التقاء بين الامم المتمدنة المختلفة ، فازدهرت فيه بابل ثم سلوقية ثم طيسفون والمدائن واخيراً بغداد في عهد المنصور.

٦ ــ شبكة انهار الجانب الشرقي لمنطقة بغداد ــ النهروان وسد نمرود القديم :

تناولنا فيما تقدم وصف الجانب الغربي من منطقة بغداد قبل العهد الاسلامي ، أما الجانب الشرقي فكان عامراً ايضاً لايقل في كثافة مزارعه وبساتينه عما كان عليه الجانب الغربي ، وكان يستقي هذا الجانب من نهر واسع يفوق كلاً من انهار الجانب الغربي حجماً وطولاً ، وهذا النهر هو الذي عرف بالنهروان. وكان يتفرع من الجانب الايسر من نهر دجلة في جوار سامراء فيمتد بمحاذاة نهر دجلة من جهة الشرق مسافة اكثر من مائتي كيلومتر ، حتى يلتقي أخيراً بدجلة بالقرب من ارض مدينة الكوت الحالية. وكان فرعان رئيسان من الفروع اليمنى لهذا النهر العظيم يمدان شبكة الانهار التي كانت



من بقايا أحد النواظم القديمة على جدول النهروان

تتغلغل في قلب منطقة بغداد الشرقية ، احدهما وهو الشمالي كان يعرف باسم « نهر الخالص » والآخر وهو الجنوبي وكان يسمى « نهر بين » ، كما كانت فروع اخرى عديدة تنتهي الى مزارع منطقة المدائن جنوباً .

وكان الأقدمون قد أنشأوا سداً ترابياً ضخماً على نهر دجلة في جوار سامراء لتحويل اتجاه النهر الى مجراه العالي القديم المندرس ، وهو السد المعروف بسد نمرود ، وكان هذا السد يعمل على رفع مستوى مياه النهر وتحويلها الى جداول واسعة تأخذ من جانبي النهر من أمام السد كان أهمها وأكبرها النهروان الذي أشرنا اليه وهو الجدول الذي كانت فروعه تسقي مزارع الجانب الشرقي من منطقة بغداد وسيأتي الكلام على هذا السد فيما يلي. وكان جدول النهروان أعظم وأوسع جدول عرفه العالم ولعله اطول واكبر الجداول الاصطناعية المعروفة في العالم حتى الآن ، واذا لاحظنا ان عرضه في بعض اقسامه يصل الى حد المائة والعشرين متراً وعمقه في بعض الاقسام يبلغ اكثر من عشرة امتار اتضحت لنا ضخامة هذا المشروع واهميته . فلا نعجب إذن اذا قال سير ولكوكس خبير الري الشهير « انه لا يوجد جدول سواء كان في مصر او في الهند يمكن ان يضاهي النهروان في حجمه . فان اوسع جدول في مصر لا يتجاوز عرضه الستين متراً وعمقه العشرة امتار » . وكان للنهروان ثلاثة مداخل رئيسة تتفرع من الضفة الشرقية لنهر دجلة في منطقة سامراء ، منها مدخلان يتفرعان من جنوبي سامراء ، ويتفرع الثالث من شماليها ، وكان مجرى النهروان هذا يسير في الاتجاه الجنوبي الشرقي محاذياً نهر دجلة من جهة الشرق وبعد أن يقطع مسافة تزيد على مائتي كيلومتر ينتهي الى دجلة قرب مدينة الكوت الحالية كما ذكرنا آنفاً ، وكانت له مصارف تصب في دجلة جنوب بغداد .

وتدل دراسة تاريخ المداخل الثلاثة للنهروان على ان اقدمها هو المدخل الاسفل وكان قد اقيم نصب عنده على هيئة رجل من الحجر الأسود لعله منشيء هذا المشروع . وكان هذا النصب قائماً في أوائل القرن التاسع عشر حين زاره الرحالة المنشيء البغدادي سنة ١٨٢٢م فقال في وصفه « انه صنم كبير جداً في هيئة رجل من الحجر الأسود وقد هشم نصفه الأعلى »،والظاهر ان مياه الفيضان جرفت هذا الجزء من النصب ، أما النصف الأسفل فقد عثر عليه الرحالة البريطاني الدكتور روس الذي زار هذه المنطقة في سنة ١٨٣٤م وحمله معه الى انكلترا . ولا يزال يعرف موضع هذا المدخل بالصنم . ويلي هذا المدخل في القدم المدخل الشمالي الاعلى الذي يأخذ من شمال سامراء فكان يحتضن منطقة سامراء من جهتها الشرقية وكان يعرف باسم « القاطول الكسروي الأعلى » نسبة الى كسرى انوشروان الذي قام بحفره لارواء الاراضي الواقعة في جوار سامراء على ضفتي المجرى،وهي الاراضي المرتفعة بالنسبة الى مستوى مدخل النهروان الاسفل . والمدخل الثالث الواقع في الوسط هو احدث المداخل الثلاثة وكان يعرف مجرى صدره بالقاطول وقد حفر



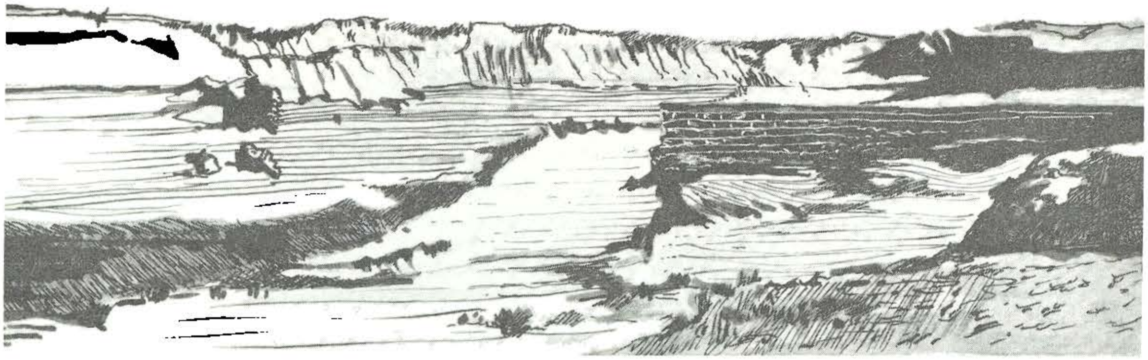
برج القائم في صدر النهروان

على عهد الرشيد وبنى عليه قصراً للاقامة فيه عندما يخرج للتنزه هناك. وكان يعرف هذا المجرى باسم « نهر أُبي الجند » وكان في صدره برج لا تزال آثاره قائمة يعرف باسم « برج القائم » على شاكلة النصب الذي اقيم في صدر المدخل الأسفل القديم.

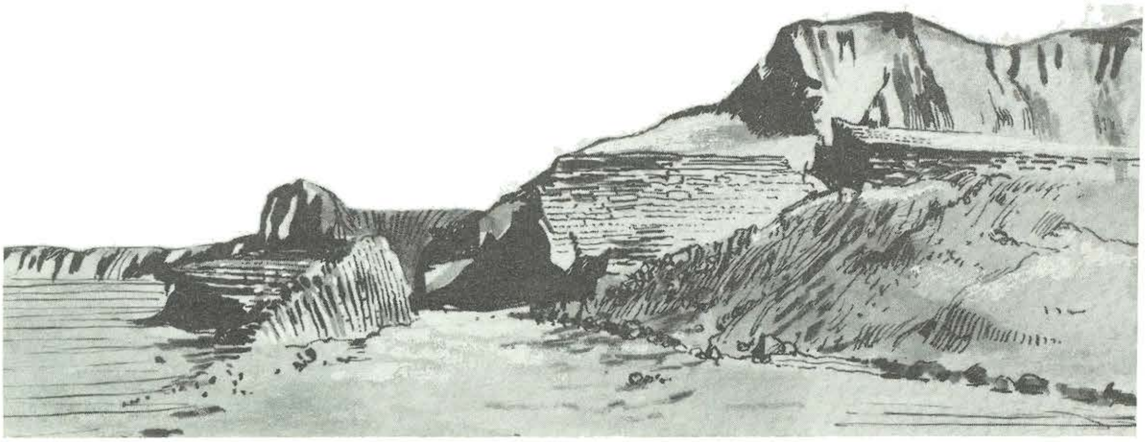
وكان من عادة الملوك القدامى ان يشيدوا انصاباً تذكارية او ابراجاً عالية في صدور الجداول التي ينشؤونها فيدونون عليها اسم العاهل الذي امر بانشاء المشروع وتاريخ انشائه وغير ذلك من المعلومات الخاصة بالمشروع. ومن هذه الانصاب النصب العظيم الذي اقامه الملك الآشوري سنحاريب في القرن السابع قبل الميلاد في صدر القناة التي حفرها لارواء عاصمته نينوى من نهر الكومل. وجاء في تاريخ اميان مرقلان ان نهر ملكا القديم الذي يرجع تاريخه الى قبل اكثر من الفي عام والذي كان يأخذ من الفرات وينتهي الى دجلة كان في صدره برج اشبه ما يكون بالفنار. وهذه العادة لا تزال متبعة حتى يومنا هذا فتشاهد اليوم منارة مرتفعة بقرب الجناح الايسر للسد الذي انشأه العثمانيون على نهر الفرات والمعروف بسد الهندية القديم بنيت على وجهها رخامة نقش عليها تاريخ انشاء السد واسم السلطان عبدالحميد.

ومن جملة الأعمال التي كان يتطلبها مشروع جدول النهروان تحويل مياه النهرين « العظيم » و« ديالى » وهما النهران اللذان يعترضان طريق امتداده فينحدران من المنطقة الجبلية شرقي العراق ويصبان في الضفة الشرقية من دجلة حيث يصب الاول في دجلة جنوب سامراء والثاني جنوب بغداد.

وقد عالج الاقدمون ذلك بانشاء سدين ضخمين من الحجر على المجريين المذكورين لتحويل مياههما عن اتجاهيهما الاصليين، وكان ذلك في الموقع الذي يقطع فيه كل منهما سلسلة جبال حمرين، ولا تزال آثار هذين السدين ماثلة للعيان تشاهد في موقعي اختراقهما سلسلة جبال حمرين المذكورة. فقد حولت مياه نهر ديالى الى بحيرة الشويجة ومنها الى نهر دجلة قرب مدينة الكوت كما حولت مياه نهر العظيم الى بحيرة الشارع الواقعة جنوب شرقي سامراء فأنشىء فيها خزان يمول جدول النهروان بالمياه في موسم شح المياه في نهر دجلة. وتشاهد اليوم آثار سدين ضخمين على نهر العظيم في موقع اجتيازه سلسلة جبال حمرين احدهما في مضيق جبل حمرين والثاني على بعد بضعة كيلومترات جنوباً مما يدل على ان احد السدين كان قد انهار فأنشىء سد آخر ليحل محله، ولعل سبب انهيار السد الأصلي يرجع الى عدم صلاحية التربة التي انشىء عليها السد. والسؤال الذي يتبادر الى الذهن: أي السدين كان قد انشىء أول مرة أهو الأعلى أم الأسفل؟.. فالأرجح ان السد الأسفل هو السد الاصلي ثم بعد انهياره انشىء السد الاعلى فوق السد القديم المنهار. وكانت مياه النهرين، العظيم وديالى، تحول في الموسم الصيفي الى جداول الري المتفرعة من امام السدين لارواء الاراضي الزراعية



بقايا السد الأعلى على الجانب الأيسر من نهر العظيم

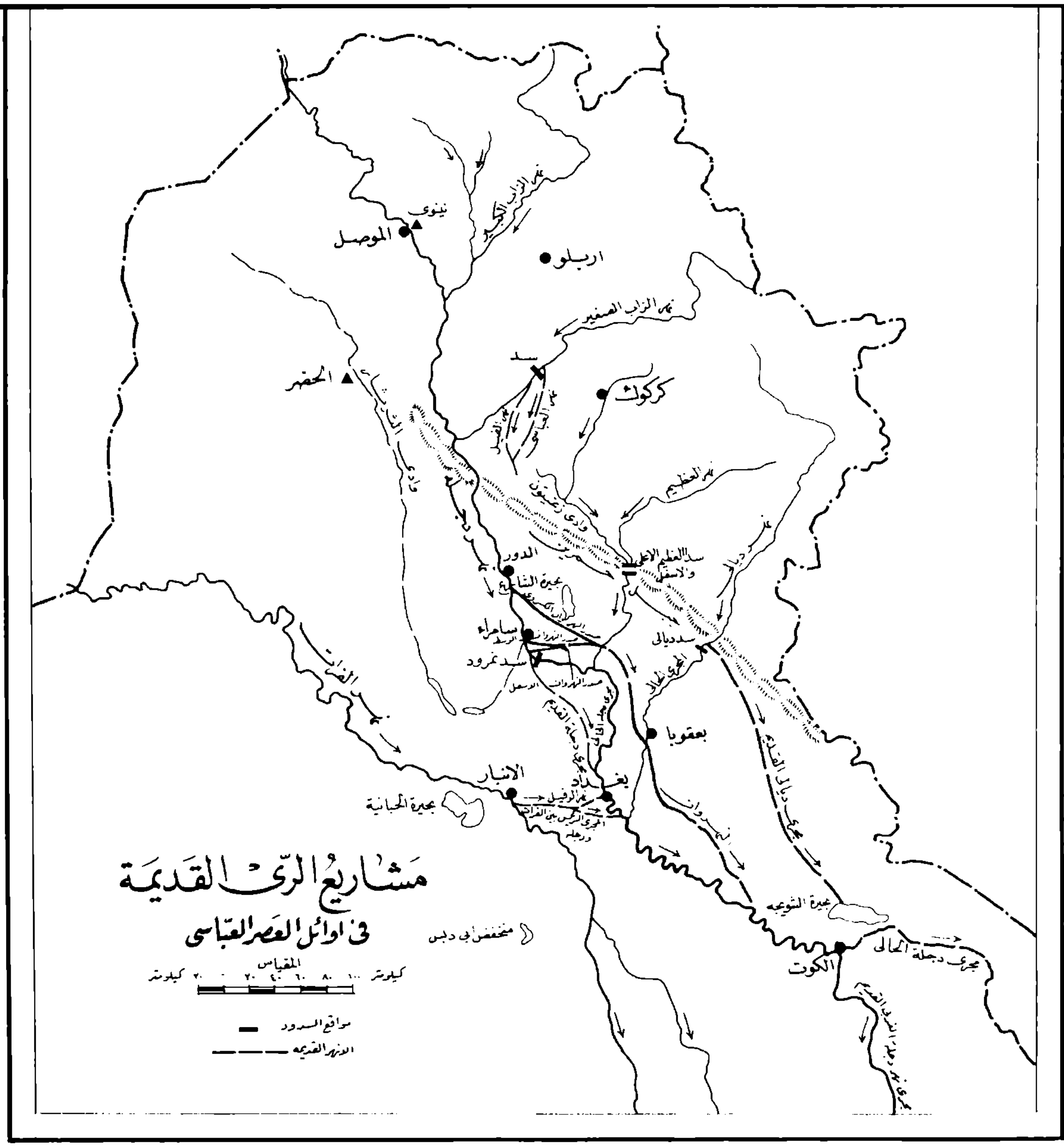


بقايا السد الأسفل على نهر العظيم

المجاورة وذلك عن طريق فتحات في السدين تفتح وتغلق ببوابات خشبية خاصة . وفي الشمال كان على نهر الزاب الصغير سد يعمل على حجز مياه فيضان هذا النهر وتحويلها بطريق نهري الفيل والعباسي القديمين ووادي زغيتون الحالي الى نهر العظيم ، وبعد اتحاد مياه فيضان النهرين ، الزاب الصغير والعظيم ، يتم تحويل المياه المتجمعة امام سد العظيم عند مضيق جبل حمرين الى بحيرة الشارع المتقدم ذكرها فتخزن فيها المياه ثم تحول منها الى جدول النهروان عند شح المياه في دجلة وقد اشرنا الى ذلك فيما تقدم. (انظر خارطة مشاريع الري القديمة في اوائل العصر العباسي) .

٧ ــ سد نمرود القديم :

يتضح مما تقدم ان منطقة بغداد القديمة كانت تعتمد بجانبيها ، الغربي والشرقي ، على وجود سد نمرود وسدي ديالى والعظيم في ارواء مزارعها وبساتينها ، لذلك يحسن شرح قصة هذا السد وتاريخه: فقد كان نهر دجلة في العصور القديمة يجري في القسم الممتد ما بين سامراء وموقع بغداد في مجرى مرتفع غربي مجراه الحالي ، ثم اخذ مع مرور الزمن يتخذ له مجرى جديداً متجهاً نحو الشرق في الاراضي المنخفضة الواقعة بامتداد المجرى الحالي الذي سنسميه المجرى الشرقي حتى تحول نهائياً من مجراه الأصلي في جهة الغرب الى المجرى الشرقي الجديد (المجرى الحالي) ، الامر الذي أدى الى هبوط مستوى مياه النهر امام صدور الجداول المتفرعة من جانبي النهر في جوار سامراء والتي كانت فروعها تروي منطقة بغداد من الجانبين الغربي والشرقي. وعلى أثر هذا التحول الخطير الذي سبب انقطاع المياه عن الجداول المذكورة قام الاقدمون



قبل اكثر من ٣٥٠٠ سنة بانشاء السد المسمى « سد نمرود » في جوار سامراء وذلك لتحويل مجرى النهر من اتجاهه الشرقي الواطىء الى عقيقه الغربي الاصلي المرتفع . ويعد هذا السد على الرغم من انه كان سداً ترابياً اضخم مشروع عرفه التاريخ القديم ، واذا لاحظنا ان نهر دجلة يستوعب في طغيانه اكثر من اثني عشر الف متر مكعب في الثانية من التصريف المائي ، اتضح لنا مدى جسامة هذا المشروع وضخامته . وقد بقي هذا السد قائماً مدة طويلة وبوجوده ازدهرت المنطقة الواسعة الممتدة على جانبي المجرى الغربي للنهر حتى بلغت أوج ازدهارها في اوائل العهد العباسي ومنتصفه، فاكتظت فيها القرى والمزارع وأسست عدة مدن كبيرة في المنطقة حتى غدت من اكثف المناطق من حيث عدد السكان وانتشار القرى والمزارع . وقد اشتهر في هذه المنطقة طسوج مسكن في الجانب الغربي من النهر وطسوج بزرجسابور في الجانب الشرقي، واستمر هذا الازدهار حتى جاء آخر العهد العباسي الواهن المضطرب في اواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، أي في اواخر القرن السادس للهجرة ، فعاد مجرى النهر الرئيس واتخذ له طريقاً الى عقيق الفرع الشرقي المنخفض، وبذلك حرمت الجداول التي كانت تسحب المياه من جانبي النهر من شمال السد، وأهم هذه الجداول النهروان في الجانب الشرقي ودجيل في الجانب الغربي (انظر خارطة مجرى دجلة في قسميه الغربي القديم والشرقي الحالي).

ويستدل من تدقيق المستويات على ان مشروع سد نمرود كان يعمل على رفع مستوى المياه في موسم شح المياه الى حوالي تسعة امتار فوق مستوى مياه النهر الحالي ، بدليل ان مستوى قاع صدر النهروان يبلغ (٥٠ر٦٠) متراً فوق معدل سطح البحر على حين ان معدل مستوى المياه في المجرى الحالي يبلغ في الموسم الصيفي (٥٠ر٥٠) متراً امام صدر النهروان .

والدور الذي مر بمجرى نهر دجلة بالنسبة الى فرعيـــه ، الشرقي والغربي ، إنما يذكرنا بالدور الذي مر بالفرات بالنسبة الى فرعي الهندية والحلة ، إذ كان مجرى الهندية في بادىء الأمر مصرفاً لنهر الفرات ثم اصبح هو المجرى الرئيس للنهر في القرون الوسطى ، وكان كذلك في اواخر القرن التاسع عشر الميلادي للمرة الثانية ، وهو يكون المجرى الرئيس لنهر الفرات في الوقت الحاضر. وقد مر نهر دجلة بنفس الدور في اسفل الدلتا فتناوب مجراه بين فرع الغراف من جهة وفرع العمارة من جهة اخرى.

ومما ذكره خبير الري المشهور سير ويليام ويلكوكس في هذا الصدد ان مياه دجلة كانت في الماضي تقلب فوق منطقة حجرية صلبة وتدخل الدلتا بمنسوب عال ، إلا انه حصل انتكال في هذه الارض الصلبة بتأثير المياه منذ العصور التاريخية الغابرة كان من نتائجه ان أقام رجل عظيم سـداً ترابياً عبر المجرى حول المياه الى الارض الصلبة في الشـاطىء الأيمن. وقد عرف هذا السد باسم «سد نمرود». ودليل ويلكوكس على ذلك ان هناك في هـذا القسم من دجلة طبقة حجرية صلبة عمقها عشرة امتار تقع تحت الرواسب السطحية وتغطي طبقة اخرى من الصلصال فتنحدر هذه الطبقة الصلبة نحو الجنوب الشرقي ثم تختفي تحت قاع النهر شرقي مدينة بلد. ويرى ويلكوكس انه بعد انشاء السد وتحويل مياه النهر الى جهة الغرب بقي المجرى في تلك الجهة مدة تربي على ثلاثة آلاف سنة،وذلك بفضل السد الذي انشىء هناك حتى انهار السد فرجعت مياه نهر دجلة الى المجرى الشرقي الواطىء ، الأمر الذي أدى الى هبوط مستوى الماء في نهر دجلة في ذلك المكان الى عشرة امتار ، وكانت نتيجة ذلك ان جف الجدولان العظيمان ـــ النهروان ودجيل ـــ اللذان كانا يرويان منطقة بغداد بجانبيها فتحولت الأراضي الواقعة على ضفتي نهر دجلة في القسم الاعلى من مجراه القديم الى صحراء قاحلة ، ويرى ويلكوكس انه يحتمل بان سبب انهيار السـد يرجع الى فيضـــان دجلة او ان الانتكال في قعر النهر وصل الى السـد فقضى عليـه.

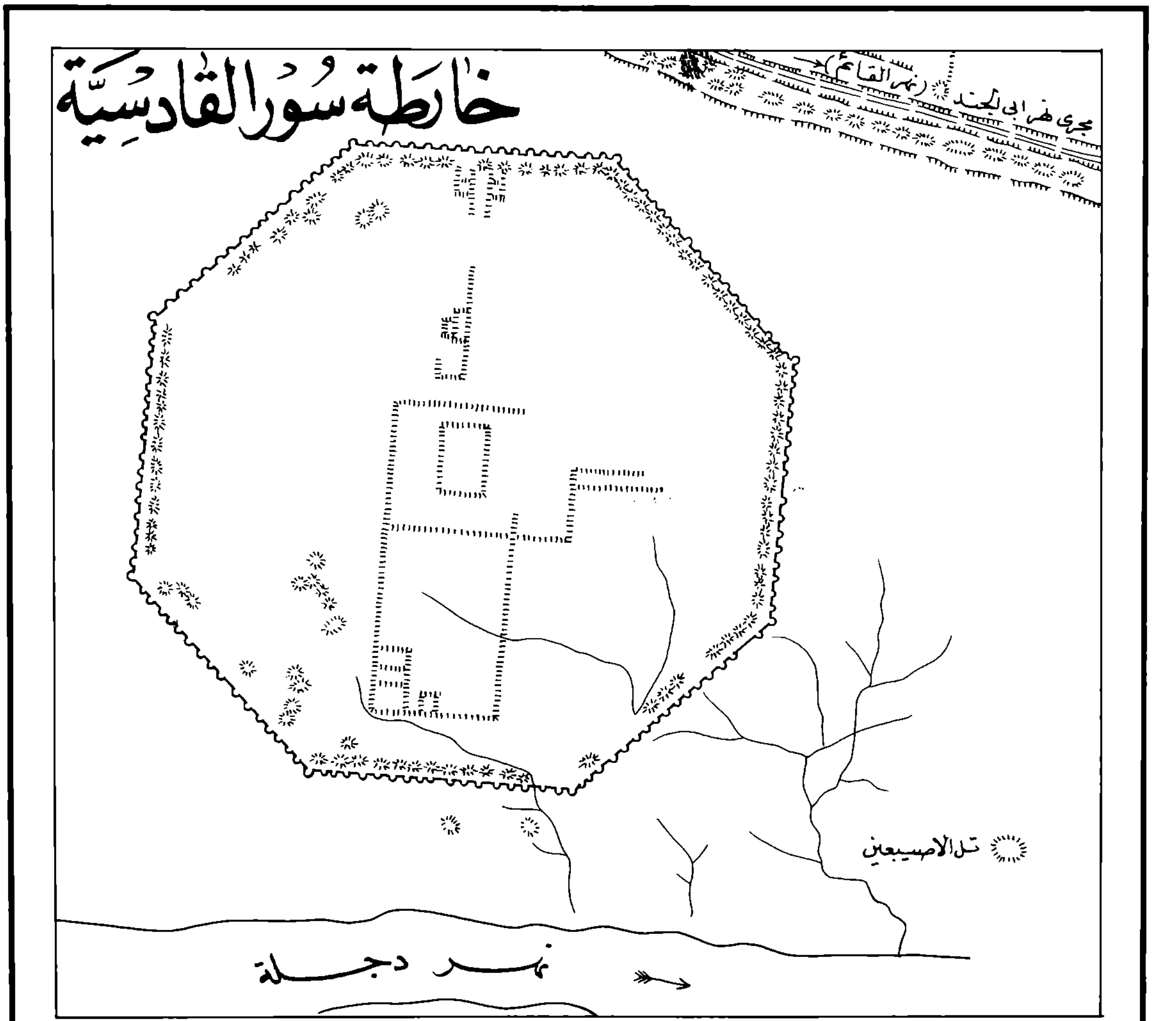
واذا قام الاقدمون بسد فرع دجلة الشرقي بسدهم الترابي وتحويل كل مياه النهر الى الفرع الغربي ، فذلك لانه لم تكن لديهم الوسائل الحديثة التي تسهل عملية انشاء بناء مع بوابات تفتح وتغلق حسب مقتضى الحاجـة على نمط قناطر الهندية او قناطر الكوت الحديثة.

ولابد من الاشارة في هذا الصدد الى ان سد نمرود فقد علائمه الأصلية كسد بمرور الزمن حيث اصبح جزءاً من الاراضي المرتفعة الواقعة على شاطىء النهر ، لاسيما بعد ان انشئت على المجرى الشـرقي القديم قرى ومزارع وجداول أدت الى محو معـالم ذلك المجرى واندراس عقيقـه ، لذلك ان الاصح ان يقال ان مجرى دجـلة تحول من عقيقه الغربي المرتفع الى المجرى الشرقي الواقع في الاراضي الوطيئة بدلاً من ذكر انهيار سد نمرود القديم ، إذ لم يبق هناك سـد لينهار ، وكل ما حدث هو ان مجرى دجلة تحول من عقيقه الغربي الى جهة الشرق حيث يسير مجرى دجلة الحالي ، وكان ذلك من جنوب السد القديم.

ومما يدل على ان الاقدمين كانوا يعلقون على مشروع سد نمرود اهمية كبرى انهم اقاموا في جواره تحصينات عسكرية ضخمة لصد هجمات الاعداء والحيلولة دون وقوع هذا الموضع الستراتيجي الحيوي بيد العدو ، وما زالت هذه التحصينات ماثلة للعيان وهي تقع على جانبي السـد. ففي الجهة الغربية من السد انشىء جـدار ضخم من اللبن مدعم بدعامات على مسافات متقاربة في جهته الشمالية عليها ابراج ضخمة ، فيبدأ هذا الجدار من الضفة اليمنى لنهر دجلة متصلاً بسد نمرود من جهة الغرب ويمتد غرباً مخترقاً الاراضي السهلة الواقعة على الجانب الغربي من نهر دجلة ، وبعد ان يسير مسافة حوالي عشـرة كيلومترات في هذا الاتجاه ينتهي الى حدود الاراضي الصحراوية المرتفعة ، ويعرف هـــذا الجدار اليوم باسم «عرقوب المطبق» وقد سمي بسور سميراميس،ويمكن المرء ان يتتبع آثاره على طول امتداده بين النهر والصحراء المرتفعة بكل سهولة نظراً لضخامته وارتفاعه الذي يتراوح بين ٣٥ و٤٠ قدماً. وتشاهد في نهاية الجدار في وسط الصحراء آثار بناء مربع الشكل يبلغ طول ضلعه زهاء ثلاثين متراً. وفي كل من الاركان الاربعة لهـذا البناء برج ضخم ينظر منـه الى

مسافات بعيدة في اطراف الصحراء المجاورة . كما تشاهد آثار خندق عميق عرضه حوالي (٢٧) متراً يمتد الى محـــاذاة الجدار شمالاً ، وقد أنشيء هذا الخندق وفق الطريقة التي كان يتبعها الاقدمون في انشاء تحصيناتهم العسكرية . وكان الخندق المذكور يستمد المياه من نهر دجلة من امام السد وقد بنيت اطرافه بالحصى والنورة ويسمى « الجالي » .

هذا فيما يختص بتحصينات الجانب الغربي للسـد أما التحصينات التي في الجانب الشرقي فتشتمل على حصن جسيم يقع عندصدر مجرى النهروان حيث يقع برج القائم الذي اشرنا اليه . ويعرف هذا الحصن حالياً باسم « سور القادسية »، والسور مبني باللبن ويحيط بساحة واسعة يناهز معدل قطرها (١٦٥٠) متراً وهو مثمن الأضلاع يبلغ معـدل طول الضلع الواحدة منـه (٦٢٠) متراً ، وتدعمه من الخارج (١٧) دعامة نصف دائرية قطرها نحو خمسة امتار وبين دعامـة واخرى (٢٩٫٥) متراً ، وفي كل ركن من اركان السور الشمالية برج مدور يبلغ قطره زهاء ثمانية امتار ، وسمك السـور نحو ثمانية امتـار ايضاً ، اما ارتفاعه فيبلغ حوالي خمسة امتـار ، وتبلغ مسـاحة الأرض التي يشغلها نحو (٨٠٠) مشـارة (١) (أنظر مرتسم سور القادسية) . وهذا ما كتبه سير ويليام ويلكوكس بصدد التحصينات المذكورة قال : « ونشـاهد اليوم على الجانب الايسر من نهر دجلة في هذا المكان (أي مكان سد نمرود) حصن مهيب (ويقصد حصن القادسية) وعلى الجانب الآخر سور سميراميس الذي يسمى في بعض الخرائط سور الميديين وكانت تصون هذه المباني جناحي سد نمرود».



---

(١) تساوي المشارة ٢٥٠٠ متر مربع .

٨ — نهرا الخالص وبين في الجانب الشرقي لمنطقة بغداد:

نكتفي بهذا القدر حول مشروع سد نمرود القديم الذي كان جدول النهروان يعتمد عليه في سحب المياه من النهر ونعود الى الفرعين الرئيسين اللذين كانا يتفرعان من جدول النهروان لارواء منطقة بغداد الشرقية وهما « نهر الخالص » شمالا و« نهر بين » جنوباً وقد سبقت الاشارة اليهما.

أما الأول فكان يتفرع من الجانب الأيُمن للنهروان على مقربة من بعقوبة غرباً ، فيسير بين النهروان ونهر دجلة جنوباً ثم ينصب عموده في دجلة في نقطة تقع على زهاء ثمانية كيلومترات في الشمال من مدينة بغداد الحالية وتتصل فروعه بمنطقة بغداد العليا التي صارت تعرف في العهد العباسي بالرصافة ، وأما « نهر بين » فكان يتفرع من النهروان في نقطة تقع على بعد حوالي ثلاثين كيلومتراً من شمال شرقي بغداد الحالية ، وبعد ان تتفرع منه عدة فروع تسقي القرى والضياع الواقعة على تلك الفروع يصب ماءه في دجلة عند قرية « كلواذا » في جنوبي منطقة بغداد الشرقية الحالية ، ويرجح ان موضع هذه القرية في تلول الزوية المعروفة اليوم باسم « تلول حاج عبد » ، وقد عثر في اسفل سفح تلول حاج عبد هذه على آجر بابلي مختوم باسم الملك نبوخذنصر يرتقي الى الدور البابلي الحديث،كما وجد في القسم الأعلى من التلول آثار ساسانية وآثار اسلامية. أما قرية كلواذا فقد اصبحت في الدور العباسي بلدة مهمة فيها جامع خاص بصلاة الجمعة ونسب اليها باب بغداد الجنوبي المعروف بباب كلواذا.

وكانت تقع قرية كلواذا على الطريق العام بين منطقة بغداد والمدائن ، ولا شك في ان هذا الطريق الذي كان يربط منطقة بغداد بالمدائن هو نفس الطريق الذي وصفه المؤرخون العرب بعد أن شيدت مدينة بغداد،فقد كتب ابن رسته في وصفه قال: « من بغداد الى كلواذا ثلاثة فراسخ ، الطريق ينحدر مع دجلة فتسير حتى تنتهي الى كلواذا مدينة بها مسجد جامع ومنبر واسواق. ومن كلواذا الى الزعفرانية الطريق منحدر مع دجلة ومنها الى المدائن الطريق في نخيل ومزارع،وتعبر على جسري نهرين يسميان نهر بين ونهروان حتى تنتهي الى المدائن وفيها مسجدان جامعان واسواق وعلى أحد جانبيها مما يلي المشرق قصر بناه الاكاسرة وكان مقامهم فيها وفيها الايوان الموصوف». (أنظر خارطة منطقة بغداد في اواخر العهد الساساني وأوائل العهد الاسلامي).

وكان يتفرع من نهر الخالص ونهر بين عدة فروع تؤلف شبكة من الانهار ينتهي بعضها الى دجلة والبعض الآخر الى المزارع مما جعل المزارع والبساتين والكروم متصلة بعضها ببعض لا يفصلها غير الطرق الضيقة المنتشرة بين المزارع تحت ظل الاشجار والنخيل وهي الطرق التي تؤدي الى القرى المنتشرة بين المزارع. وكانت قد قسمت هذه المنطقة على نمط تقسيم الجانب الغربي ، فكان القسم الشمالي منها يعرف باسم « طسوج نهر بوق » والقسم الجنوبي يسمى « طسوج كلواذا ونهر بين » ، ويختلف هذا التقسيم عن تقسيم الجانب الغربي في ان الفاصل بين القسم الشمالي والقسم الجنوبي في الجانب الغربي هو نهر الصراة في حين ان الفاصل بين مزارع القسم الشمالي والقسم الجنوبي في الجانب الشرقي لم يكن محدوداً بحدود نهر ما إذ كانت فروع نهر بين تسقي القسم الاعظم من طسوج نهر بوق.

وقد اشتهرت هذه المنطقة بأديرتها النظرة العامرة وبساتينها وحقولها وكرومها ، منها الدير الذي كان يعرف باسم « دير الزندورد » وهو الدير الذي يقع في منطقة الزندورد ضمن طسوج كلواذا ، وكان يروي هذه المنطقة نهر يسمى باسمها أي « نهر الزندورد » ومعناها النهر الحي بالفارسية ، أي شديد الجريان ، ويتفرع من الضفة اليمنى لنهر بين. وكانت بساتين هذا الدير مشهورة في العهد العباسي باترجها واعنابها ، وقد شيد الخليفة الأمين قصراً قرب موضع هذا الدير ولعله ألحق قسماً من بساتين الدير بالقصر كما انشأ جسرين على نهر دجلة في جوار قصره للتنقل بين قصره في الجانب الغربي وقصر الزندورد هذا الذي اقامه في الجانب الشرقي. ومن المحتمل ان الباب الذي شيد في سور بغداد الشرقية في العهد الأخير واصبح يعرف باسم «باب كلواذا» كان في موضع هذا القصر او بجواره. أما دير الزندورد فقد اصبح موضعه يعرف بمحلة باب الازج ومن المحتمل ان باب الازج نفسه كان قريباً جداً من موضع الدير المذكور. وقد

ذكر السمعاني في « الازجي » من الانساب انه كان في باب الازج اربعة آلاف طاحونة وهذا يعني ان نهر الزندورد كان يحركها وهو قول ظاهر المبالغة ولذلك صدره بقوله « قيل » .

وكان شمال منطقة الزندورد في طسوج نهر بوق قطيعة على نهر دجلة تعرف باسم « قطيعة المخرّم » كانت تروى من احد فروع نهر بين وقد سميت بهذا الاسم نسبة الى مخرم ابن يزيد او ابن شريح بن مخرم وكان قد حل في هذه البقعة في اوائل العهد الاسلامي حينما فتح المسلمون العراق وقد اقطعه إياه الخليفة عمر بن الخطاب وقيل ان كسرى اقطعه إياها ، وفي هذه البقعة عينها اقيمت محلة المخرم التي اشتهرت بعد تأسيس مدينة بغداد ودار المملكة البويهية ودار السلطنة السلجوقية ، وهي منطقة الصرافية الحالية وما يليها من العلوازية او هي العلوازية وما يليها من الصرافية .

وكانت المنطقة الواقعة الى الشرق من قطيعة المخرم تعرف في العهد القديم برستاق الافروطر ومعنى الرستاق مقاطعة او منطقة، وكانت هذه البقعة تروى من احد فروع نهر بين الشمالية التي تلتقي بفروع نهر الخالص، وصار هذا الفرع يعرف في العهد العباسي باسم « نهر علي » ، كما كانت المنطقة الواقعة في جنوب قطيعة المخرم تعرف باسم «سوق الثلاثاء»، وقد ذكر ياقوت ان هذا السوق « سمي بذلك لانه كان يقوم عليه سوق لأهل كلواذا واهل بغداد ، قبل ان يعمر المنصور بغداد ، في كل شهر مرة يوم الثلاثاء فنسب الى اليوم الذي كانت تقوم فيه السوق » . وقد بقي هذا الموضع على اسمه الأصلي بعد ان شيدت مدينة بغداد الشرقية . وقد ايد صاحب المراصد وصف ياقوت لهذه السوق غير انه حصرها بأهل كلواذا فقط دون أن يشرك أهل بغداد فيها .

وكان في شمال قطيعة المخرم مقبرة للمجوس قديمة ، وكانت هذه المقبرة في جوار الموضع الذي صار مقبرة لأبي حنيفة النعمان وغيره في عهد المنصور ثم صارت مقبرة أبي حنيفة هذه تعرف بمقبرة الخيزران وبالخيزرانية نسبة الى السيدة الخيزران أم الهادي والرشيد وذلك بعد توسع محلة الرصافة ، وموضع الخيزرانية هو مشهد الامام الأعظم النعمان بن ثابت وما حوله .

وقد اشتهر القسم الشمالي من هذا الجانب من منطقة بغداد بدياراته العديدة للنساطرة واليعاقبة ومن اقدمها الدير المسمى « دير درمالس » ويرتقي تاريخه الى القرن الثالث او الرابع الميلادي . وفي العهد الذي عقب انشاء مدينة بغداد صارت تعرف هذه المنطقة باسم الشماسية ، والشماسية لفظة عربية منسوبة الى وظيفة الشماس وهي وظيفة دينية عند النصارى ، ولعل تسمية هذه المنطقة بالشماسية يرجع الى وجود الديارات والبيع فيها وإن شماساً من الشماسة كان مشهوراً فيها . والأرجح ان معظم الديارات التي ازدهرت هناك في ذلك الزمن ترتقي الى اوائل العهد الساساني أي الى زمن الجاهلية .

وكانت الأرض التي بجوار الديارات من ناحية الشمال تقع عند مصب فروع نهر الخالص المتفرع من النهروان وكانت رقة منخفضة ينمي فيها القصب والبردي وتصاد فيها الطيور بكثرة وقد أشرنا الى ذلك ، وصارت تعرف هذه البقعة بعد انشاء مدينة بغداد باسم الصحراء او سهل الشماسية وكانت تسمى ايضاً « رقة الشماسية » والرقة هي الارض التي يغطيها الماء الفائض .

ومما ينبغي ذكره في هذا الصدد ان الديارات النصرانية كانت تنشأ في العادة في أحسن المواقع الخصبة التي تتوفر فيها مياه الارواء وتكثر فيها الجنان والغياض والاغراس من الأشجار والرياحين والازهار وهذه كانت في اكثر الحالات عند ذنائب الأنهار ومصباتها ، ولذلك نرى ان الخلفاء العباسيين كان يقع اختيارهم في الأكثر على ما يجاور هذه الديارات من الأماكن لانشاء قصورهم وبساتينهم فيها،ففي جوار الدير العتيق في الجانب الغربي من بغداد أنشىء قصر الخلد في عهد المنصور وكذلك قصر القرار بعد ذلك بمدة يسيرة ، كما انشأ معز الدولة البويهي قصره المشهور المعروف المسمى « الدار المعزية » في جوار دير درمالس ، وانشأ الأمين قصره عند دير الزندورد ، ومدينة المنصور نفسها كانت محفوفة من اكثر اطرافها بالديارات .

٩ ــ منطقة بغداد الشرقية وازدهارها في العصور القديمة :

وقد كشفت لنا التنقيبات التي قامت بها دائرة الآثار العراقية في التلول الاثرية الواقعة في المنطقة الشرقية من بغداد عن مدينة متوغلة في القدم يرتقي تاريخها الى عهد مملكة اشنونا التي تعود الى اواخر الالف الثالث قبل الميلاد ، فقد عثر في اثناء الحفريات التي اجريت في سنة ١٩٤٧ في « تل حرمل » وهو التل الواقع في الطرف الجنوبي الشرقي من بغداد الحالية (انظر خارطة منطقة بغداد في اواخر العهد الساساني) على لوحين من الطين دونت عليهما باللغة البابلية مواد من قوانين مملكة اشنونا وهي اقدم زمناً بقرنين من شريعة حمورابي المشهورة التي شرعت في حدود سنة ١٧٩٢ ق. م.

وكانت مملكة اشنونا التي تعود اليها هذه الشريعة القديمة دولة من دويلات المدن المهمة الكبيرة في تاريخ العراق القديم ، وكانت عاصمتها تسمى « اشنونا » وموضعها الآن في خرائب « تل اسمر » الواقعة في شرق نهر ديالى ، وكانت جميع المنطقة الواقعة في المثلث الكائن بين نهر ديالى ودجلة ومنها بلدة حرمل تابعة لها. وقد نشأت في اشنونا دولة مهمة مستقلة دامت خلال القسم الاعظم من العهد البابلي القديم الى السنة الثانية والثلاثين من حكم حمورابي فانه قضى عليها في هذا العام وضم اراضيها الى امبراطوريته. وفي منطقة تل حرمل اليوم مجموعة من التلول الاثرية أهمها واكبرها يدعى « تل محمد » وهو يبعد عن تل حرمل بنحو ٦٠٠ متر في الجنوب الشرقي، ولدينا ما يدل على ان هذه التلول يعود تاريخها الى العهد البابلي القديم ايضاً.

ولا شك في ان العمران في هذه المنطقة لم يزدهر في تلك العهود السحيقة إلا على الماء الذي اوصلته أيدي البشر اليها ، وهناك دلائل على ان النهروان يرجع انشاؤه الى عهد مملكة اشنونا إذ جاء ذكر هذا النهر في لوح كشف عنه في خرائب « خفاجي » وهي احدى المدن التابعة لمملكة اشنونا ، وكان وروده فيه مصرحاً به وانه كان يخترق مقاطعة اشنونا التي تقع فيها مدينة اشنونا. والظاهر ان هذا اللوح كتب على عهد « شمسوايلونا بن حمورابي » وخليفته الذي ورد اسمه مقروناً باسم الموقع « دور شمسوايلونا » المسمى « خفاجي » اليوم نسبة الى بعض الأعراب من قبيلة خفاجة. والأرجح

أسدان من معبد تل حرمل



ان النهروان كان في ذلك الدور يقتصر على القسم الذي يمتد بمحاذاة نهر دجلة بين ديالى والكوت فقط وانه كان يستمد مياهه من نهر ديالى متفرعاً منه او من احد فروع ديالى التي كانت تتفرع من جوار مضيق جبل حمرين. وبقاء اسم النهروان في العهد العباسي على هذا الجزء من النهر وحده يؤيد رأينا في ذلك.

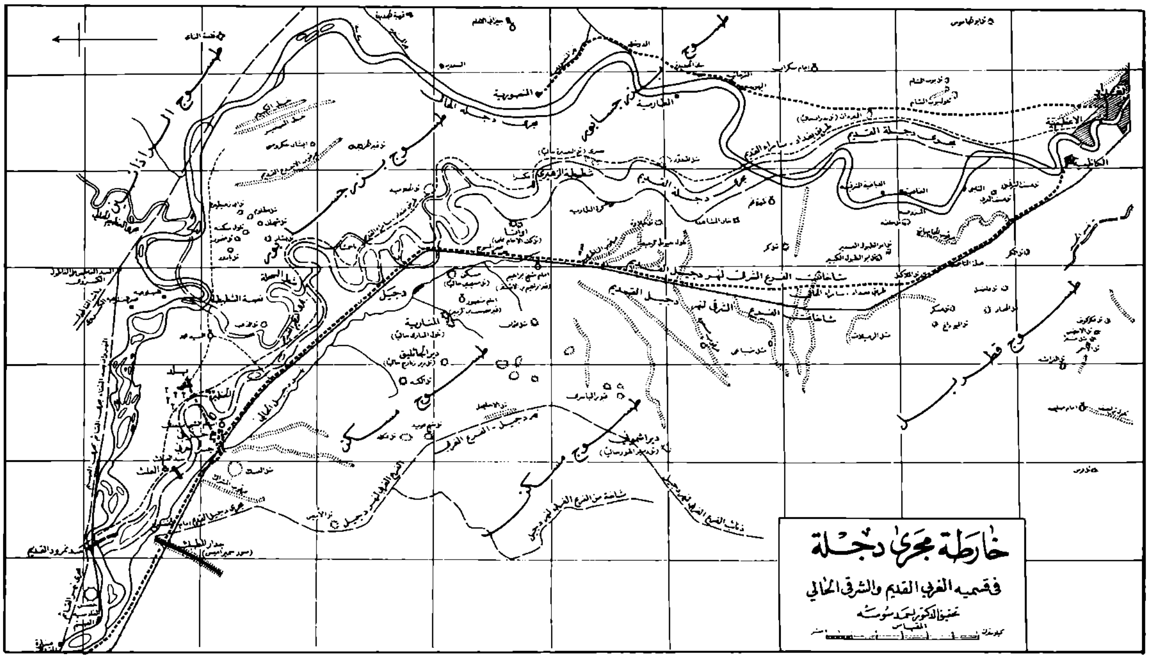
١٠ — ازدهار منطقة بغداد يحمل المنصور على اختيارها موقعاً لعاصمته :

يتضح مما تقدم ان المنطقة التي شيد المنصور مدينته عليها ، وهي منطقة بغداد بجانبيها الغربي والشرقي ، كانت عامرة بريها ومزارعها منذ أقدم العصور ، ولعلها كانت في أوج ازدهارها عندما جاءها المنصور وهو يتحرى موقعاً ملائماً ينشىء عليه عاصمة جديدة للدولة العباسية الفتية. ويذكر المؤرخون انه نزل الدير العتيق (دير مارفثيون) في الجانب الغربي من منطقة بغداد فوجده قليل البق فأحضر صاحب رحى البطريق وصاحب بغداد وصاحب دير بستان القس وصاحب العتيقة من الجانب الغربي وصاحب المخرم من الجانب الشرقي فسألهم عن مواضعهم ومناخها في مختلف المواسم ، ثم وجه رجالاً من قبله وأمر كل واحد منهم ان يبيت في قرية منها فبات كل منهم في قرية منها وأتاه بخبرها. ثم عاد فأحضر صاحب بغداد ثانية وشاوره وسأله عن هذه الامكنة وطيبها فأجابه قائلاً : « تنزل في بغداد فانك تصير في اربعة طساسيج ، طسوجان في الجانب الغربي وطسوجان في الجانب الشرقي ، فاللذان في الغربي قطربل وبادوريا ، واللذان في الشرقي نهر بوق وكلواذا ، فأنت تكون بين نخل وقرب الماء ، فان اجدب طسوج وتأخرت عمارته كان الآخر عامراً ، وأنت يا امير المؤمنين على الصراة تجيئك الميرة من المغرب ، وفي الفرات تجيئك طرائف الشام ومصر وتلك البلدان ، وتجيئك الميرة من الصين والهند والبصرة وواسط في دجلة ، وتجيئك الميرة من ارمينية وما اتصل بها حتى تصل الى الزاب ، وتجيئك الميرة من الروم وآمد والجزيرة والموصل في دجلة. وانت بين انهار لا يصل اليك عدو إلا على جسر او قنطرة ، فاذا قطعت الجسر وأخربت القناطر لم يصل اليك عدوك. وأنت بين دجلة والفرات لا يجيئك احد من المشرق والمغرب إلا احتاج الى العبور ، وانت متوسط للبصرة وواسط والكوفة والموصل والسواد كله ، وأنت قريب من البر والبحر والجبل».

وكان طبيعياً ان ينتصح الخليفة بما أشير به عليه لما كان في منطقة بغداد من مزايا كثيرة ، فعمل على تحقيق انشاء عاصمة دولته عليها وانشاء مدينته المدورة « مدينة السلام » التي كانت من نوادر ابنية ذلك العهد ، والآن بعد ان عرضنا فيما تقدم نبذة عن نظام الري الذي كان سائداً في منطقة بغداد قبل ان ينشأ المنصور عاصمته فيها نستعرض فيما يلي التطورات التي طرأت على ذلك النظام بعد ان اقيمت العاصمة العباسية فيها.

١١ — الجانب الغربي من منطقة بغداد بعد انشاء مدينة المنصور :

قلنا إن المنطقة التي انشأ المنصور مدينته المدورة فيها كانت في موضع مزرعة المباركة في الجانب الغربي من نهر دجلة حيث كانت تروى من نهر قديم يتفرع من الجانب الايمن لنهر دجلة من امام سد نمرود ، وهو النهر الذي صار يعرف في العهد العباسي باسم « نهر دجيل ». وكان يتشعب من هذا النهر شبكة من الفروع تتغلغل في الاراضي الواقعة بين دجلة والفرات والممتدة بين بلد وبغداد ، وكانت تدخل الى منطقة بغداد من الشمال عدة قنوات تتشعب من ذنائب هذا النهر فتؤلف هناك شبكة من القنوات لتسقي المزارع والبساتين الواقعة في طسوج قطربل الذي من ضمنه مزرعة المباركة التي انشأ المنصور مدينته المدورة فيها. وفى اوائل العهد العباسي ازدهرت في منطقة دجيل هذه على الضفة اليمنى لمجرى دجلة شمالي بغداد مزارع وقرى كثيفة كانت تعرف باسم « طسوج مسكن » تمتد حتى تتصل بأراضي « طسوج قطربل » ، وكان الفرع الذي يصل الى مزرعة المباركة التي أنشأ المنصور مدينته عليها يأخذ من نهر دجيل في نقطة تقع على بعد حوالي ٣٥ كيلومترا من فوهة النهر فيخترق « طسوج مسكن » وينتهي الى منطقة بغداد وكان يعرف باسم « نهر بطاطيا » كما ذكرنا آنفاً. والقرى التي اشتهرت في منطقة مسكن هذه « حربي » و« اوانا » و« مسكن » و«دجيل» و« المنارية » و « جمد » و « جويث » و « الاجمة ». ومما يدل على أهمية هذا الطسوج ان جبايته في أيام المعتصم



(٢١٨ ــ ٢٢٧هـ : ٨٣٣ ــ ٨٤٢م) بلغت ثلاثة آلاف كر حنطة وألف كر شعير (١) و٢٥٠٫٠٠٠ درهم (انظر خارطة مجرى دجلة شمال بغداد في قسميه الغربي القديم والشرقي الحالي) .

ولطسوج مسكن أهمية تاريخية ، فبجوار مدينتي دجيل ومسكن وقعت المعركة التاريخية المشهورة بين مصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان في حوالي سنة ٧٢هـ ، وفي هذه المعركة قتل مصعب وعيسى ابنه وابراهيم بن الاشتر . والأرجح انهم دفنوا في هذه المنطقة نفسها .

ولما أنشأ المنصور مدينته المدورة في موضع مزرعة المباركة مدت قناة من نهر دجيل « نهر بطاطيا » الآخذ من دجلة الى المدينة في عقود وثيقة محكمة بالآجر والصاروج وكانت تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب وتجري صيفاً وشتاء.

وقد بقيت بعد انشاء مدينة المنصور جداول الارواء التي كانت تقع في المنطقة المجاورة للمدينة المدورة من الجنوب والتي كانت تروى من نهر الفرات كما كانت عليه من قبل، فان الصراة الكبرى والصراة الصغرى وكرخايا بقيت محتفظة باسمائها القديمة، اما نهر الرفيل فصار يعرف في هذا العهد باسم نهر عيسى وقد ذكرنا آنفاً ان هذه التسمية نسبة الى الأمير عيسى بن علي عم المنصور الذي جدد انشاءه وشيد عند مصبه في دجلة قصراً في موضع قصر سابور العتيق الذي مر ذكره سمي باسم قصر عيسى ، غير ان تسمية الرفيل القديمة لم تترك نهائياً فقد استمر بعض المؤرخين على تسميته القديمة ، ولا تزال آثار هذا النهر ظاهرة حتى يومنا هذا برغم عبث العمران الجديد فيها وهي تعرف باسم « نهر الداودي » او « نهر العيساوي » كما كانت تعرف قبل نصف قرن وهي تنقطع بعد أن تصل الى مدينة بغداد حيث تصبح أمام قبر الشيخ معروف الكرخي ، إلا أنه اذا اتجهنا شرقاً نجد إن آثار النهر تمتد في ظهر المطار المدني الحالي وبعد أن تجتاز قبر الشيخ معروف الكرخي من الشمال تتلاشى بين أبنية بغداد ، واستناداً الى اتجاه الآثار إن النهر كان ينتهي الى دجلة بجوار مسجد قمرية الحالي ، والمعلوم ان نهر الخر الحالي لم يكن موجوداً آنذاك ليعترض سبيله . ونهر الداودي المذكور آنفاً منسوب الى داود بن سديد الدولة أخي الخواجة مسعود الذي كانت بيده رواضع المدينة (الانهر الصغيرة) . ومما يحسن ذكره في

---

(١) الكر مكيال عربي قديم كان يستعمل في العراق قديماً وهو يساوي أربعين أردباً أو ٩٦٠ صاعاً ، ولما كان الصاع مساوياً حوالي ستة كيلومترات فيكون وزن الكر ٥٧٦٠ كيلوغراماً ، أي حوالي ستة أطنان .

هذا الصدد ان بقايا نهر عيسى كانت الى وقت قريب تعرف باسم النهر الأصلي كما تقدم رغم مرور مئات السنين على اندراس النهر كما لا يزال عدد من المواضع والمواقع التي كانت تجري فيها فروع النهر المذكور يعرف باسم عيسى كتل عيسى مثلاً الذي يقع في ذنائب جدول الصقلاوية و« العيساوية » (احدى شاخات فرع علي السليمان الحالي) . . الخ . . والأرجح ان لهذه التسميات صلة بالاسم القديم.

أما النهر الرئيس الذي كان يأخذ من نهر الفرات وينتهي الى دجلة جنوب بغداد ، وهو النهر الذي كان نهر الرفيل أحد فروعه ، فصار يعرف باسم « نهر عيسى الأعظم » لتمييزه عن نهر عيسى (الفرع) وقد سبقت الاشارة الى ذلك.

وقد بقي نهر كرخايا المتفرع من نهر عيسى (الفرع) على ما كان عليه قبل انشاء مدينة المنصور وقد مدت من جانبه الأيسر قناة جرت الى مدينة المنصور في عقود وثيقة محكمة بالآجر والصاروج تدخل المدينة وتنفذ في الشوارع والدروب على النحو الذي انشئت فيه القناة التي مدت من نهر بطاطيا الآخذ من نهر دجيل . وقد روي عن المنصور انه قال للربيع : هل تعلم في بنائي هذا موضعاً اذا أخذني الحصار خرجت خارجاً منه على فرسخين (١٢ كيلومتراً تقريباً) ؟ فقال : لا . قال : بلى . والأرجح أنه أشار بذلك الى القناة المذكورة . ومما ذكره اليعقوبي في هذا الصدد قوله : « وجر المنصور القناة التي تأخذ من نهر كرخايا في عقود وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها معقودة عقداً وثيقاً ، فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الأرباض تجري صيفاً وشتاءً قد هندست هندسة لا ينقطع لها ماء في وقت ».

أما نهر الصراة فقد بقي الحد الفاصل بين القسم الشمالي من بغداد (طسوج قطربل) والقسم الجنوبي منها (طسوج بادوريا) ، فكان يتفرع من نهر عيسى الأعظم فوق المحول بقليل ويسير في مجراه القديم بموازاة فرع نهر عيسى من الشمال حتى يصل الى الطرف الجنوبي الغربي من المدينة المدورة عند القنطرة العتيقة ، وهي القنطرة القديمة التي كانت عليه من قبل وقد أصبحت الآن القنطرة التي يعبر فوقها طريق الكوفة العام ، ومن هنا ينحرف النهر قليلاً فيكون شبه دائرة حول سور المدينة فيمر بازاء باب البصرة حيث يعبر طريق باب البصرة الرئيس على قنطرة تسمى القنطرة الجديدة ، وقد سميت بالجديدة لتمييزها عن القنطرة العتيقة التي كانت على الصراة قبل انشاء مدينة المنصور ، ويستمر في مجراه نحو الشمال الشرقي حتى يصب في دجلة عند الدير العتيق المقدم ذكره تحت حدائق قصر القرار وقصر الخلد. وكانت حدائق هذا القصر الأخير تسقى من بزه ومن المحتمل ان المنصور ألحق قسماً من حدائق الدير بقصره هذا الذي اشتهر بحدائقه الواسعة.

وكان على نهر الصراة العظمى عدا القنطرتين العتيقة والجديدة الواقعتين على طريق باب الكوفة وطريق باب البصرة ثلاث قناطر اخرى تقع بين مأخذ نهر الصراة الصغرى ومنتهاها هي من الغرب الى الشرق : قنطرة العباسي وقنطرة الصينيات وقنطرة رحى البطريق ، وقد انشئت هذه القناطر على مجرى الصراة العظمى لتمر من فوقها الدروب التي تبدأ من مدينة المنصور واربناضها المجاورة وتتجه الى محلة الكرخ الواقعة في جنوب مدينة المنصور بين نهر الصراة ونهر عيسى.

وكانت السفن تسير في نهر الصراة حتى قنطرة الصراة ثم يحول ما فيها الى سفن اخرى جنوب القنطرة ، ومما ذكره الاصطخري في هذا الصدد : « وأما الصراة فان فيها حواجز تمنع من جرى السفن فتنتهي السفن منها الى قنطرة الصراة ثم يحول ما فيها ويتجاوز به ذلك الحاجز الى سفن غيرها ».

وقد بقي نهر الصراة الصغرى على ما كان عليه في الأصل وهو يأخذ مياهه من الجانب الأيسر لنهر الصراة العظمى فيجري نحو الشمال الشرقي حتى يصل أمام باب الكوفة ثم يعود فيصب في نهر الصراة العظمى نفسه عند القنطرة العتيقة التي سبق ذكرها. وكان عند ملتقى الصراتين الرحى العظمى التي يقال لها رحى البطريق ، وكانت كما ذكر اليعقوبي مائة حجر هندسها بطريق قدم من ملك الروم فنسبت اليه . والأرجح ان تاريخ انشاء هذه الرحى يرجع الى العهد الذي سبق انشاء مدينة بغداد.

وقد أضيف مشروع الى نهر الصراة العظمى هو نهر جديد يسمى «الخندق الطاهري» فتح من الجانب الأيسر لنهر

الصراة العظمى يأخذ من النقطة التي يتفرع منها نهر الصراة الصغرى فينحرف نحو الشمال الشرقي وبعد أن يمر من مقابل باب الشام (تاركا الربض الشمالي لبغداد المسمى «الحربية» الى الشرق) يخترق منتصف قطيعة الزبيدية ويصب في دجلة هناك في موضع كان يدعى باسم «الفرضة»، ولكي نميز بين هذه الفرضة والفرضة التي في مصب نهر عيسى الرئيس ندعو هذه الفرضة بفرضة الخندق الطاهري. هذا وصف الخطيب البغدادي لخندق طاهر ونقله ابن الجوزي كما في مختصر مناقب بغداد وقد ذكره مؤلف المراصد قال: «وخندق طاهر ببغداد وهو الدرب المعروف بالطاهرية كان حول محال أرباض مدينة المنصور فسمي الخندق لذلك». ثم قال في الطاهرية «أقول: الطاهرية مفيض فضلات الماء من بز دجيل ومن نهر عيسى صار نهراً عليه قناطر معقودة بالآجر بعدة أبواب ويرمي الى دجلة».

ولعل الخندق الطاهري فتح لأغراض عسكرية ترمي الى احاطة الماء بمدينة المنصور من كافة أطرافها فتكون على شكل جزيرة تحيط بها المياه من كل جانب، إذ تحدها دجلة من الشرق والصراة من الجنوب والخندق الطاهري من الغرب والشمال وذلك زيادة على الخندق الذي يدور حولها، ومما يدل على ذلك انه سمي باسم «خندق» لا نهر. وقد سمي الخندق الطاهري نسبة الى طاهر قائد جيش المأمون الذي كان قد عسكر خلفه عندما أرسله لمحاربة أخيه الأمين في بغداد، وقد جاء ذكر هذا الخندق في زمن هذا الحصار الذي وقع سنة ١٩٨هـ (٨١٤م)، وكذلك نسبة الى «الحريم» القريب من هذا الخندق فقيل «الحريم الطاهري»، وكان هذا الحريم من المباني المهمة في بغداد الغربية وظل سنين عديدة مقراً لعامل بغداد. وكانت الشوارع الرئيسة التي تتفرع من باب الشام في محلة الحربية تتجه غرباً نحو الخندق الطاهري فتقطعه على قناطر من الحجر ثم تؤدي الى مختلف انحاء طسوج قطربل، وكانت هذه الطرق أربعة، وكان لكل باب عند الخندق يسمى باسم القنطرة التي يمر الطريق من فوقها. وأول القناطر على الخندق من الشمال «قنطرة باب قطربل» وكانت تعرف بـ «قنطرة أم جعفر». وكان الشارع الذي يمر عليها يؤدي الى قطربل، وكان هذا الشارع يؤدي أيضاً الى فرضة الخندق الطاهري وكذلك الى الجسر الذي نصب على نهر دجلة في الحد الشمالي من بغداد، وكان يعرف بجسر الشماسية. ويلي قنطرة «باب قطربل» جنوباً «قنطرة باب حرب» وكان الشارع الذي يمر عليها وهو «شارع باب حرب» يؤدي الى مقبرة باب حرب وفيها كثير من القبور الشهيرة، منها قبر الامام أحمد بن حنبل وهو صاحب أحد المذاهب الاسلامية المعروفة وقد توفي سنة ٢٤١هـ (٨٥٥م) ودفن فيها. وفي مقبرة باب حرب هذه دفن بشر الحافي وأبو بكر الخطيب وكثير من العلماء وأعلام المسلمين، وكان هذا الطريق يؤدي أيضاً الى مقبرة الشهداء الواقعة في غرب «مقبرة باب حرب». وكان يلي قنطرة باب حرب «قنطرة باب الحديد» وهي القنطرة التي كان يمر منها شارع دجيل ثم تليها قنطرة باب الأنبار، وهي القنطرة التي كان يمر منها «شارع طريق الأنبار» كما يسميه اليعقوبي او «درب باب الأنبار» كما سماه آخرون وهو الطريق الذي يؤدي الى الأنبار، وقبل أن يصل الطريق الى باب الأنبار بقليل كان يلتقي بالطريق الذي يخرج من باب الكوفة ليتجه نحو الأنبار أيضاً. وكانت تقع قرية الخطابية القديمة التي مر ذكرها فيما تقدم بين باب الشام وباب الكوفة على درب الأقفاص فوق شارع طريق الأنبار.

أما نهر كرخايا فقد ذكرنا آنفاً أنه كان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر عيسى (الفرع) في نقطة تقع على بعد نحو من ميل من فوهته فيجري نحو الشرق بين نهر الصراة ونهر عيسى، ثم يعود فيصب في نهر عيسى عند طريق باب البصرة الرئيس. وكان هذا النهر يخترق محلة الكرخ وقد فتح المنصور منه عدة فروع لتسقي المحلات والأسواق ومن جملتها القناة التي جرها الى مدينته المدورة في عقود بالآجر والصاروج وقد سبق ذكرها. أما القسم الأسفل من هذا النهر وهو القسم الذي كان قد حفره بابك بن بهرام فقد صار يعرف باسم «نهر طابق» وقد أنشئت في جواره المحلة التي سميت بمحلة نهر طابق، كما أنشئت عليه محلة دار القطن التي نسب اليها الحافظ الامام أبو الحسن علي الدارقطني. وتقع قرية «براثا» وجامعها التاريخي المشهور في صدر نهر كرخايا هذا وهي قرية قديمة كانت في هذا الموضع قبل انشاء مدينة بغداد.

وقد مدت من يسار نهر كرخايا أربعة فروع رئيسة ومن يمينه فرع واحد ، كان بعضها يصب في دجلة والبعض الآخر في نهر عيسى ونهر الصراة ، فكان الفرع الأول من الفروع الأربعة اليسرى يسمى نهر رزين في مجراه الأعلى ، ونهر أبي عتاب في مجراه الأسفل ، فيخترق هذا الفرع ربض الكرخ ماراً ببركة تسمى « بركة زلزل » ثم يصب في نهر الصراة بازاء باب البصرة تحت القنطرة الجديدة تماماً . وكان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر رزين بازاء باب الكوفة نهر يسمى « نهر باب الشام » وكان يقطع نهر الصراة العظمى في جوار القنطرة العتيقة على عبارة فيجري الى جانب شارع باب الكوفة حتى إذا ما وصل الى باب الكوفة انحرف يساراً وسار حول سور المدينة المدورة حتى يصل الى باب الشام، ثم يستمر في جريه الى الشمال وبعد أن يخترق المحلة المعروفة بمحلة الحربية في المنطقة الشمالية الغربية بالنسبة لمدينة المنصور يفنى في أقصى الشمال في القطيعة الزبيدية . ويسمى الفرع الأيسر الثاني « نهر البزازين » ويمر بسوق البزازين وغيره من الأسواق فيجري موازياً لنهر الصراة العظمى جنوباً وبعد اختراقه المحلة المسماة « الشرقية » يصب في نهر دجلة جنوب الصراة . ويسمى الفرع الأيسر الثالث نهر الدجاج وكان على ضفتيه باعة الدجاج ، ويصب فى دجلة ايضاً ومجراه مواز لنهر البزازين . وكانت على نهر الدجاج هذا قطيعة النصارى التي كان فيها الدير المسمى « دير العذارى » . أما الفرع الرابع الأيسر فيسمى نهر القلائين وبعد أن يجري قليلاً يصب في الفرع الثالث الذي تقدم ذكره ، وهو «نهر الدجاج»، وتقع عند هذا النهر محلة نهر القلائين التي كانت في موضعها قرية ورثالا القديمة كما سبق بيانه ، وذكر ابن عبدالحق أن هناك نهراً يأخذ من كرخايا كان يسقي قرية ورثالا ، مما يدل على أن نهر القلائين نهر قديم كان موجوداً قبل أن تنشأ محلة نهر القلائين . وأما الفرع الأيمن وهو الفرع الوحيد الذي كان يتفرع من الجانب الأيمن لنهر كرخايا فيسمى نهر الكلاب ويحمل نصف مياه نهر كرخايا ويصب في نهر عيسى بالقرب من ملتقى طريق الكوفة العام بنهر عيسى حيث انشئت قنطرة على نهر عيسى سميت باسم قنطرة الشوك .

وقد نشأت بلدة مهمة فى هذا العهد تسمى بلدة المحول وذلك في الموقع الذي كان يتفرع منه نهر الصراة ونهر عيسى ، وكان في هذا الموقع سد على النهر الرئيس (نهر عيسى الأعظم) لتنظيم المياه فيه وتقسيمها بين صدرى فرعي الصراة وعيسى اللذين ينحدران شرقاً الى بغداد ، وقد سميت هذه البلدة « المحول الكبير » لتمييزها عن المواضع الأخرى التي بهذا الاسم لأن السفن التي كانت تأتي من الفرات في النهر الرئيس كانت تقف عند السد وتحول ما تحمله من بضائع الى سفن اخرى في الجانب الآخر من السد لتنحدر من هناك الى دجلة في مجرى نهر عيسى الأعظم ومن ثم تصعد في نهر دجلة حتى تصل الى بغداد . ويقول ياقوت : « إن اشتقاق المحول واضح من حولت الشيء : اذا نقلته من موضع الى موضع » ، وذكر عن بلدة المحول انها « حسنة طيبة كثيرة البساتين والفواكه والأسواق والمياه بينها وبين بغداد فرسخ (حوالي ٦ كيلومترات) » . وقد بنى بعض الخلفاء قصوراً لهم فيها ، منها قصر مشهور هو قصر الكشك الذي شيده المعتصم في القسم الأعلى من البلدة ، وآثار بلدة المحول باقية يمكن مشاهدتها عند التلول الكبيرة المعروفة اليوم باسم « المضيق » الواقعة على الطريق بين بغداد وأبي غريب على بعد زهاء ستة كيلومترات من جسر الخر الحالي .

وكان على نهر عيسى (الفرع) بين المحول ودجلة عشر قناطر منها قنطرة الشوك ، أما القناطر التسع الباقية فأربع منها تقع غرب قنطرة الشوك فتبدأ من أقصى الجهة الغربية قنطرة الياسرية الواقعة جنوب شرقي براثا وقد سميت بذلك نسبة الى ربض الياسرية وباب الياسرية الواقعين هناك ، وتليها قنطرة الروميين وقنطرة الزياتين ، ثم قنطرة الأشنان في موضع باعة الأشنان ، أما الخمس الأخرى فتبدأ من قرب قنطرة الرمان في موضع باعة الرمان ، ثم تليها قنطرة المغيض حيث الارحاء بالقرب من موضع يدعى المغيض ، ثم قنطرة البستان وتليها « قنطرة المعبدي » ودعيت بذلك نسبة الى عبدالله بن محمد المعبدي الذي كانت له قطائع في هذا الموضع ، وقد بنى لنفسه داراً ورحى وبنى هذه القنطرة على نهر عيسى ودعيت كلها باسمه . أما القنطرة الأخيرة فكانت تسمى قنطرة بني زريق وهي أسرة فارسية من البنائين ، وكان طريق البصرة العام يعبر فوق هذه القنطرة . وكانت هذه القناطر التي تقدم تعدادها تضمن المواصلات بين قسمي الكرخ ،

الداخلي في الشمال والخارجي الى الجنوب من نهر عيسى ، وكان في الأصل سوق لكل قنطرة من هذه القناطر . وكان بين باب الكوفة وباب البصرة عدد من القطائع تمتد على طول نهر الصراة بينه وبين سور المدينة المدورة .

ومما يجدر ذكره في هذا الصدد أن نهر الرفيل كان قبل انشاء مدينة المنصور يقتصر على إرواء المزارع التي يمر منها ، أما بعد إنشاء المدينة وقيام الأمير عيسى باعادة تنظيمه فقد أصبح العمود الفقري الذي يدور حوله العمران الكثيف من كل صوب ، فانتظمت شبكة من الأنهار بين نهر الصراة ونهر عيسى اخترقت الشوارع والدروب والأسواق حتى أصبحت أشبه ببندقية ايطاليا. وأصبحت هناك محلة كبيرة تعرف باسم محلة الكرخ نسبة الى قرية الكرخ القديمة مزدحمة بالدروب والقطائع والأسواق حتى امتد هذا الربض الى جنوب نهر عيسى كثيراً وأشغل الأراضي الواقعة على جانبي طريق الكوفة مسافة بعيدة خارج بغداد. وقد ذكر اليعقوبي أنها كانت من السعة بحيث تمتد مقدار فرسخين (١٢ كيلومترا) طولاً ومقدار فرسخ (٦ كيلومترات) عرضاً . هذا ما يخص توسع شبكة جداول الري في المنطقة الواقعة جنوب مدينة المنصور المدورة ، أما في المنطقة الشمالية فقد كان نهر بطاطيا الذي يتفرع من نهر دجيل الآخذ من نهر دجلة ، وقد سبقت الاشارة اليه ، يتشعب قبل أن يدخل الى المدينة الى ثلاثة فروع تنحدر كلها باتجاه مدينة المنصور والأرباض المجاورة لها من جهة الشمال والشمال الغربي وأهمها محلة الحربية. وكان كل من هذه الفروع الثلاثة يعبر فوق عبارة (عبارة قورج) على الخندق الطاهري. فكان الأول من جهة الشمال يعبر فوق عبارة على الخندق عند قنطرة باب حرب وبعد أن يخترق محلة الحربية يصب في أسفل نهر باب الشام الذي يتفرع من نهر رزين ويعبر الثاني بين قنطرة باب حرب وقنطرة باب الحديد فوق عبارة كانت تعرف باسم « عبارة الكرخ » ويصب كسابقه في نهر باب الشام أيضاً بعد أن يخرج منه فرعان صغيران من ضفتيه اليمنى واليسرى ، وكان هذا الفرع يسير بموازة شارع دجيل شمالاً وبعد أن يعبر الخندق على عبارة الكرخ يقطع شارع دجيل قرب باب الشام على قنطرة كانت تعرف باسم « قنطرة أبي الجون » نسبة الى دهقان فارسي كانت له قرية تسمى الشرفانية في هذا الموضع قبل تأسيس بغداد وصارت فيها دار سعيد الخطيب فى العهد العباسي. أما الفرع الثالث فكان يعبر الخندق على (عبارة قورج) عند قنطرة باب الأنبار ثم يدخل بغداد من هناك فيمر في شارع باب الأنبار وشارع الكبش ويفنى هناك. وكانت هذه الفروع على هيئة قنوات تحت الأرض داخل المدينة وأوائلها مكشوفة.

١٢ ـــ الجانب الشرقي من منطقة بغداد بعد انتقال العمران اليه :

بحثنا فيما تقدم في انهار الجانب الغربي من بغداد قبل انشاء مدينة المنصور وما بعده وننتقل الآن الى أنهار الجانب الشرقي من المدينة ، فكان الجانب الشرقي من بغداد ينقسم اداريا الى قسمين ، القسم الشمالي ويعرف باسم طسوج نهر بوق والقسم الجنوبي وكان يعرف باسم طسوج كلواذا ونهر بين وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم. وكانت منطقة الرصافة وما جاورها من قطائع تقع ضمن طسوج نهر بوق وكانت تروى من الأنهار التي كانت تنحدر من جدول النهروان فتؤلف شبكة من الجداول تنتشر فروعها في تلك المنطقة ، وكان نهر الخالص الفرع الرئيس الذي يمون هذه الجداول بالمياه ، فكان يتفرع من الجانب الأيمن للنهروان على مقربة من بعقوبا غرباً فيسير بين النهروان ودجلة كما ذكرنا سابقاً ثم ينصب في دجلة شمالي بغداد فوق قرية البردان بقليل. وكان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الخالص فرع يسمى « نهر الفضل » ، وكان يعرف بنهر الشماسية أيضاً فيسير نحو الجنوب الغربي حتى ينتهي الى دجلة فيصب فيها في القسم الأعلى من بغداد الشرقية. ولا تزال آثار هذا الفرع كما أنه لا تزال آثار نهر الخالص الرئيس القديم قائمة يمكن تتبعها في متجه النهر العتيق المعروف اليوم بنهر الوزيرية الذي يسير في جهة الغرب نحو « تلول باب الشام » ومن ثم نحو نهر دجلة فينتهي هناك في أسفل الراشدية. وكانت المنطقة الواقعة عند مصب نهر الفضل بدجلة في شمال الشماسية تكون بقعة منخفضة يطلق عليها اسم « سهل الشماسية » ورقة الشماسية أي الأرض المنخفضة التي يغطيها الماء الفائض وقد أشرنا الى

ذلك سابقاً. وكان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفضل في الناحية الشمالية نهر يقال له الجعفرية ولعله أنث بتقدير « الترعة » او « الساقية » ، وبعد أن يمر بقرى وضياع يدور حول الشماسية ، فيعرف هناك باسم « نهر السور » ويعود فيصب فى نهر الفضل في شمالي الشماسية. وكان يتفرع من الضفة اليسرى لنهر الفضل أيضاً نهر آخر يسمى « نهر المهدي » فيسير الى شرق الرصافة ثم ينقسم الى قسمين القسم الشرقي يصب في الجعفرية والقسم الغربي ينحدر نحو قصر المهدي وجامعه فيجري هناك في بركة داخل القصر ومنها ينتهي الى دجلة.

وكان في سهل الشماسية على ضفة دجلة مقابل « دير درتا » و« دير القباب » اللذين في الجانب الغربي ديران مهمان أحدهما « دير درمالس » القديم الذي سبق ذكره والثاني « دير سمالو » وكان « دير سمالو » يشغل بقعة واسعة من الأرض بالقرب من النهر وكان بناؤه فخماً ويقيم فيه رهبان ودعي باسم سمالو نسبة الى إحدى مدن الحدود الأرمنية التي فتحها هرون الرشيد في حملة سنة ١٦٣هـ (٧٨٠م) وكان في جملة شروط استسلامهم أن لا يفرق بينهم ، فأنزلوا ببغداد في جوار باب الشماسية وسموا موضعهم وديرهم باسم « سمالو » وهو اسم موضعهم الأصلي.

وكان قد وقع اختلاف بين الخليفة المعتصم وبين وزيره أبن أبي دوءاد فيما يختص بمستوى أراضي الرصافة بالنسبة الى أراضي مدينة المنصور في الجانب الغربي ، فجرى وزنهما فوجدت مدينة المنصور أعلى من الرصافة بذراعين ونحو من ثلثي ذراع ، ويثبت المسح الحديث صحة ذلك وهو مما يدلعلى انه كان للعرب خبرة في هذه الأعمال الفنية.

ولا يخفى ان الأراضي التي شيدت عليها مدينة بغداد بجانبيها الغربي والشرقي مرتفعة عن مستوى مياه نهر دجلة فى موسم قلة المياه بحيث يتعذر سقيها من النهر سيحاً ، ولم تكن الآلات الرافعة المتوفرة يومئذ غير الدواليب التي لا يمكن ان تضمن إرواء أراض واسعة كمنطقة بغداد ذلك مما حمل المسؤولين الى استعمال الجداول السيحية التي تنحدر من أعالي النهر لارواء الأراضي والبساتين سيحاً طوال السنة ، وفيما ذكره الاصطخري تأييداً لما قلنا قال: « وأما الأشجار والأنهار التي في الجانب الشرقي ودار الخلافة فانها من ماء النهروان وتامرا (١) وليس يرتفع اليها من ماء دجلة إلا شيء يسير يقتصر عن العمارة وينضح بالدواليب ».

وكان المنصور قد عقد جسراً فوق دجلة ليصل به مدينته الغربية بمحلة الرصافة الشرقية ، وكان يعرف هذا الجسر

---

(١) تامراء هو الاسم القديم لمجرى نهر ديالى الحالي وقد بقي يعرف بهذه التسمية عبر التاريخ حتى خرب جدول النهروان وانهار السد على النهر في مضيق جبل حمرين فصار يعرف بعد ذلك بنهر ديالى نسبة الى جدول بهذا الاسم كان يتفرع من الضفة اليمنى لجدول النهروان ويصب في نهر دجلة جنوبي بغداد مباشرة. ومما يجدر توضيحه فى هذا الصدد ان مجرى نهر ديالى (نهر تامراء القديم) كان قد سد عند مضيق جبل حمرين بسد حجري ضخم عندما أنشيء جدول النهروان وذلك بغية تحويل مياه الفيضان عن المجرى الأصلي للنهر في ذلك الموضع لكي يفسح المجال لمرور هذا الجدول في امتداده بين سامراء والكوت عبر نهري ديالى والعظيم وقد أشرنا الى ذلك فيما تقدم. أما مياه النهر الصيفية فكانت تحول من أمام السد بعد غلق منفذ الفيضان الى جداول تتفرع من جانبي السد لارواء الأراضي الممتدة ما بين السد وجدول النهروان ، وكانت بعض هذه المياه تحول الى جدول النهروان فى موسم شح المياه لتضاف الى مياهه المستقاة من نهر دجلة ، وعلى هذا نرى الاصطخري يشير الى ان الجانب الشرقي من بغداد كان يروى من مياه النهروان وتامراء ، ويقصد بذلك ان هذا الجانب كان يروى من مياه دجلة وديالى مجتمعة في جدول النهروان. ثم بعد أن انهار السد في جبل حمرين وخربت تنظيمات جداول النهروان في العهد العباسي الأخير عاد نهر تامراء الى مجراه الأصلي مخترقاً جدول النهروان المندرس ليصب في مصبه القديم جنوبي بغداد حيث صار يعرف بعد ذلك بنهر ديالى نسبة الى جدول ديالى المتفرع من النهروان كما تقدم ، وسيأتي الكلام على ذلك في البحث عن انهيار سد ديالى القديم ونتائجه.

باسم « الجسر الكبير » و« جسر الرصافة » وقد سمى اليعقوبي هذا الجسر « الجسر الأول » ، وكان هذا الجسر أول جسر عقد بعد انشاء مدينة بغداد ، وكان طريق خراسان العام الذي يبدأ من باب خراسان يمر به فيجتاز عند رأس الجسر الشرقي مشرعة الجسر ومنها يمر تحت الباب المعقود المعروف بباب الطاق فيسير الى الشرق ويتجه الى خراسان.

قلنا فيما تقدم إن القسم الشمالي من بغداد الشرقية الذي كان يقع ضمن « طسوج نهر بوق » كان يروى من فرع نهر الخالص الذي يأخذ من الجانب الأيمن من النهروان ، أما القسم الجنوبي الذي كان يقع ضمن طسوج كلواذا ونهر بين فكان يروى من نهر بين وفروعه التي كانت تخترق هذا القسم قبل تأسيس مدينة بغداد. ونهر بين هذا كان يتفرع من الجانب الأيمن للنهروان أيضاً وذلك في نقطة تقع جنوب صدر الخالص وبعد أن تتفرع منه عدة فروع تسقي القرى والضياع الواقعة على تلك الفروع يصب ماءه في دجلة عند قرية « كلواذا » جنوبي مدينة بغداد الشرقية وقد سبقت الاشارة الى هذه القرية. وأهم تلك الفروع « قاطول كلواذا » وقد ورد وصفه في مراصد الاطلاع انه بباب بغداد «نهر يأخذ من تامرا (نهر ديالى الأعلى الذي يصب بعض مياهه فى النهروان) تحت نهر الخالص ويصل ماؤه الى باب بغداد وهو نهر كلواذا ». وكان يتفرع من الضفة اليمنى لنهر بين فرع رئيس يسمى « نهر موسى » فيجري غرباً حتى يصل الى قصر المعتضد المعروف بـ« الثريا » ، وقد جعل المعتضد حوله جنائن زاهرة وساحات واسعة وأنشأ فيه حيراً للوحوش وهو ما يعرف اليوم بحديقة حيوانات ، ومن ثم يسير النهر الى موضع يقال له « مقسم الماء » فينقسم هناك الى ثلاثة انهار ، الفرع الشمالي ، وهو الفرع الرئيس ، يبقى محتفظاً باسم نهر موسى ثم يدخل محلة المخرم فيمر بقصر المعتصم وبعد أن يدور حول هذه المنطقة يصب في دجلة أسفل « بستان الزاهر ». وبستان الزاهر هذا كان يقع على ضفة دجلة عند مصب نهر موسى بدجلة أنشأه معز الدولة البويهي الى جانب قصره المشهور المعروف باسم « دار المعزية » نسبة الى لقبه « معز الدولة » ، وكان الى جانب البستان ميدان واسع يتصل بين القصر والبستان. وقد عقد معز الدولة جسراً بباب الشماسية ليربط به داره هذه بالجانب الغربي من بغداد. ومن أهم الأعمال التي قام بها معز الدولة في هذه المنطقة المسناة التي شيدها على حد الدار المعزية من جهة دجلة البالغ طولها ١٥٠٠ ذراع وعرضها مائة آجرة او نيفاً وكذلك السور الذي أقامه حول القصر والبستان والميدان. وكان موضع الدار المعزية بباب الشماسية شمالي الأعظمية (الصليخ حالياً) ، أما موضع بستان الزاهر فكان في أرض البلاط الحالي وما يليه. ولارواء البستان استخرج عضد الدولة جدولاً خاصاً من نهر الخالص ، ولكي يعبر هذا الجدول البقعة المنخفضة في سبيله محافظاً على مستواه قام بتعلية الأرض لتسيير الجدول فوقها، ويذكر الخطيب ان عضد الدولة استخدم الفيلة في دوس الأرض المعلاة والدور المنقوضة التي أصبحت ضمن البستان. وبعد أن تم فتح الجدول بنى عضد الدولة جوانبه بالآجر والكلس والنورة وأجرى الماء فيه حتى وصل الى بستان القصر الجديد ، وكانت مساحة البستان وحدها تبلغ نحواً من مائتي جريب (١).

وكان على مجرى نهر موسى في جنوب قصر المعتصم قنطرة تدعى « قنطرة الأنصار » والأنصار هم أهل المدينة الذين نصروا الرسول (ص) عند هجرته من مكة وظل أولادهم يحملون هذا اللقب الشريف.

وكان يسمى الفرع الثاني الذي يتشعب من مقسم الماء باسم « نهر المعلى » فيسير باتجاه الجنوب الغربي حتى يدخل المدينة وينتهي عند قصر المعتضد المعروف بـ« الفردوس » ويدور حوله حتى يصب في دجلة عند القصر وكان قد أنشأ المعتضد بحيرة في هذا القصر.

ويمر الفرع الثالث من المقسم فيسير الى الجنوب الغربي أيضاً ثم يدخل القصر الحسني فيدور فيه وينتهي الى دجلة تحت قصر المكتفي بالله المعروف بـ« قصر التاج » ، وكان أول من أنشأ القصر الحسني جعفر البرمكي وكان يعرف في

---

(١) الجريب العربي القديم قطعة من الأرض مساحتها ستون ذراعاً في ستين أي ٣٦٠٠ ذراع مربعة.

ذلك الوقت بالقصر الجعفري ثم تبدل اسمه بعد أن أقام فيه المأمون فسمي المأموني كما سميت المحلة الواقعة في جواره بالمأمونية نسبة الى هذا القصر . ومما ذكره ياقوت أن المأمون اقتطع جملة من البرية المجاورة اتخذها ميداناً لركض الخيل واللعب بالصوالجة وحيراً للوحوش فتح له باباً شرقياً الى جانب البرية وأجرى فيه نهراً ساقه من نهر المعلى وابتنى قريباً منه منازل برسم خاصته وأصحابه سميت المأمونية . ثم أقام بعد ذلك الوزير الحسن بن سهل فى هذا القصر فسمي الحسني ، وكان المركز الذي أنشئت حوله قصور الخلفاء العديدة فى هذه المنطقة التي تمتد على ضفة نهر دجلة ، ويقال إن المعتضد وسع القصر الحسني وأضاف اليه دوراً عديدة واقتطع أرضاً واسعة لجعلها ميداناً وأحاط سوراً بالجميع ثم ابتنى آزاجاً بين القصر الحسني وقصره « الثريا » لتمشي جواريه فيها وحرمه وسراريه ، وكان قصر الثريا على مسافة ميلين عربيين من القصر الحسني ، وكان طول الأزج ميلين وقد عقد تحت الدور والشوارع التي أقيمت خارج قصور الخلفاء . وكان الأزج لا يزال قائماً الى الغرق الذي وقع في سنة ٤٦٦هـ (١٠٧٤م) فعفا أثره .

١٣ ــ الفيضان وكون مدينة بغداد عرضة لخطر الغرق :

يستدل مما تقدم ان تنظيمات الري التي اضطلع بها الأقدمون على نهري دجلة والفرات كان لها دور مهم في درء أخطار فيضان الرافدين عن مدينة بغداد وحمايتها من الغرق فى الأدوار الأولى من تاريخها ، مما جعل سلامة المدينة وضمان حمايتها من الغرق مرتبطين ارتباطاً كلياً بمدى فعالية هذه التنظيمات وسلامتها . فقد كانت تنظيمات الري في أوائل عهد انشاء مدينة بغداد على جانب كبير من الاحكام والضبط ، حيث كانت مياه فيضان نهر ديالى تجري من أمام السد عند جبل حمرين لتصب في دجلة قرب مدينة الكوت على بعد اكثر من ٣٠٠ كيلومتر عن بغداد جنوباً متبعة طريق منخفضات المريجة الحالية وهور الشويجة الحالي ، كما ان مياه نهر العظيم كانت تجري من أمام سد العظيم عند جبل حمرين الى بحيرة الشارع حيث كانت تخزن فيها مياه فيضان نهر العظيم ومعها مياه نهر الزاب الصغير الى بحيرة الشارع حيث كانت تخزن مياه فيضان النهرين المذكورين لتموين جدول النهروان بها في موسم شح المياه . وفضلاً عن ذلك كان سد نمرود على نهر دجلة يساعد على تحويل كميات غير قليلة من مياه فيضان دجلة الى النهروان الواسع في الجانب الشرقي والى جدول الاسحاقي ودجيل في الجانب الغربي من النهر . وفوق كل ذلك كانت مياه فيضان دجلة التي تصل الى بغداد تحول من شمال المدينة في الجانب الشرقي فتجري في الوادي الطبيعي من خلف ضفاف ذلك الجانب وتصب في النهر جنوب المدينة عن طريق المنطقة التي تكون اليوم محلات البتاويين والعلوية والزوية ومعسكر الرشيد ، هذا زيادة على ما كان يحمي الجانب الشرقي المؤلف من معسكر المهدي وما حواليه من العمران في رصافة المنصور من خطر الفيضان سور يحيط به من كل الأطراف ، كما ان مدينة المنصور وما حولها من محلات كانت تحميها أسوار المدينة المدورة ثم الخندق الطاهري الذي يحيط بالمحلات المجاورة كما تقدم ذكره . أما مياه فيضان الفرات فكانت تنصب في نهر دجلة عن طريق نهر عيسى الأعظم جنوب بغداد هذا زيادة على استخدام بحيرة الحبانية كمنفذ لقسم كبير من مياه فيضان الفرات. وفي هذا كله ما يجيب على السؤال الذي يتبادر الى ذهن المتتبع لحوادث غرق بغداد الخطيرة التي وقعت في أواخر العهد العباسي ــ الحوادث المؤلمة المنطوية على مشاهد مروعة من مشاهد التخريب التي لا تبقي ولا تذر ــ وهو : لماذا اختار المنصور الموقع الذي أنشأ فيه مدينته وهو معرض لخطر الغرق ؟ . . ألم يكن في وسعه اختيار موقع آخر يضمن حماية المدينة من الغرق ؟ . . وفيما شرحناه لدليل واضح على ما لدراسة تاريخ ري العراق وتطوره منذ أقدم العصور من صلة وثقى بتطور المراحل التي مرت بها مدينة بغداد في مختلف أدوارها التاريخية بحيث تصبح كل دراسة لتاريخ بغداد القديم غير مقرونة بدراسة تاريخ ري العراق القديم قاصرة من التوصل الى نتائج كفيلة بتصوير واقع الحال على أساس علمي دقيق .

أما ما يتعلق بالوقاية من أخطار الفيضان ، فالطريقة التي كان يتبعها القدماء في اكثر الحالات هي : انهم كانوا يقيمون دورهم ويؤسسون مزارعهم على أحد شطي النهر فيحيطونها بسداد محكمة ، ويصمدون أمامها تاركين مياه الفيضان تنتشر

في الأراضي الواطئة خلف الشط المقابل. وهكذا كانت الحال حين أقام المنصور مدينته، فقد أنشأها على الجانب الغربي لنهر دجلة حيث تقع أراضي هذا الجانب في مستوى عال بالقياس الى مستوى أراضي الجانب الشرقي، وقد استفاد من الأسوار المحيطة بالمدينة للوقاية من خطر فيضان دجلة من الشرق وفيضان الفرات من الغرب، تاركاً مياه فيضان دجلة تنتشر في الأراضي الواطئة على الجانب الشرقي من دجلة ثم تنساب الى مجرى النهر جنوبي المدينة. وكانت بحيرة الحبانية الواقعة على الضفة اليمنى من نهر الفرات في جوار الرمادي تستخدم كخزان طبيعي تحول اليه مياه فيضان الفرات بصورة تلقائية مما يخفف من وطأة طغيان النهر جنوباً، كما كانت أنهر واسعة تتفرع من الجانب الأيسر لنهر الفرات كنهر عيسى الكبير وأنهر الملك وصرصر وكوثى فتسحب كمية كبيرة من المياه الفائضة، وفي الوقت نفسه كانت مشاريع الري على نهر دجلة تخفف الى حد كبير من وطأة الفيضان من جهة نهر دجلة.

ولما توسع عمران المدينة وامتد الى الجانب الشرقي من دجلة أصبح الوضع يتطلب وقاية هذا الجانب أيضاً من أخطار الفيضان مما أوجب انشاء سداد حول العمران الذي على الجانب المذكور لافساح المجال لمياه الفيضان أن تجري من خلف السداد شرقاً لتصب في دجلة جنوبي المدينة.

ونستخلص من تتبعاتنا لحوادث غرق بغداد في مختلف أدوارها في ضوء تطور مشاريع الري في العهد العباسي ان المدينة مرت بثلاثة أدوار، فمر الدور الأول الذي يمكن تحديده بالمائة وخمسين سنة الأولى من تاريخها، أي بين سنة ١٥٠ وسنة ٣٠٠هـ على وجه التقريب، بسلام دون أن تتعرض المدينة الى خطر كبير من جراء الفيضان يبعث على القلق، ويرجع سبب ذلك بالدرجة الأولى الى منشئات الري التي ألمعنا اليها فيما تقدم والتي كان لها أثر كبير في السيطرة على مياه الفيضان. ومع ذلك فقد ورد ذكر خمسة فيضانات حدثت في دجلة وواحد في الفرات في هذه الآونة ولكن لم يكن أي منها سبباً لحدوث أضرار جسيمة كالتي أحدثتها الفيضانات التي تلتها في الدورين الثاني والثالث، ويلاحظ ان أول ذكر جاء لفيضان نهر دجلة بعد بناء مدينة بغداد كان في سنة ست وثمانين ومائة للهجرة (٨٠٢م) في أيام الرشيد، إذ زادت دجلة زيادة كبيرة، «فنزل الرشيد بأهله وحرمه وأمواله الى السفن، ومنع الناس من العبور اشفاقاً عليهم». وذلك يدل على أن الخطر كان محدقاً بالجانب الشرقي للمدينة ومصدره نهر دجلة.

١٤ ــ المقياس العباسي على نهر دجلة في بغداد:

وفي حوالي أواخر الدور الأول أخذت تتأزم الحالة بالنسبة الى خطر الفيضان بسبب توسع الجانب الشرقي من المدينة من جهة واهمال منشئات الري من جهة اخرى. فصار موضوع فيضان نهري دجلة والفرات موضع عناية خاصة من المسؤولين، حيث أصبحت الحاجة شديدة لمراقبة حركات الأنهر وتسجيل مناسيب المياه خاصة في موسم الفيضان حين يفيض النهر ويهدد المدينة بالغرق. ويستدل مما رواه المؤرخون على أن هناك مقياساً نصب على كل من ضفتي نهر دجلة في بغداد. وقد وصل الينا من المصادر القديمة عدة تسجيلات لمستوى مياه النهر على هذا المقياس، وقد اقتصرت على تسجيل حوادث بعض الفيضانات الخطرة فقط وعلى ذكر الحد الأعظم الذي بلغه مستوى الماء في كل من هذه الفيضانات مع بيان سنة حدوثه وفي اكثر الحالات ذكر اليوم والشهر، فقد ورد ذكر لنصب هذا المقياس فيما كتبه ابن الجوزي في كتابه «المنتظم في تاريخ الملوك والأمم» (حوادث سنة ٢٩٣هـ ــ ٩٠٥ ــ ٩٠٦م)(١) قال: «ونصب المقياس على دجلة من جانبيها طول خمسة وعشرون ذراعاً وعلى كل ذراع علامة مدورة، وعلى كل خمسة أذرع علامة مربعة مكتوب عليها

(١) اعتبرنا تاريخ انشاء المقياس سنة ٢٩٢هـ بدلاً من سنة ٢٩٣هـ التي وردت في كتاب المنتظم المتقدم ذكره وذلك بناء على وجود نص يشير الى قراءة سجلت لمستوى فيضان سنة ٢٩٢هـ على المقياس، وهذا يدل على أن المقياس كان موجوداً في تلك السنة.

بحديدة علامة الأذرع تعرف بها مبالغ الزيادات » . ويلاحظ انه لم يذكر هنا الموقع الذي أنشيء فيه المقياس ، ولكن الاشارة اليه فيما بعد بمناسبة ذكر حوادث الفيضان وغرق بغداد يدل على وجه التأكيد على أنه كان في مدينة بغداد . وقد نصب مقياسان ، أحدهما في الجانب الغربي ، والثاني في الجانب الشرقي ، لمراقبة مستويات مياه الفيضان في أحد الجانبين عند تعذر الاتصال بينهما في حالات الفيضانات العالية . ولا توجد لدينا معلومات عن المدلول الذي استند اليه في نصب هذا المقياس بالنسبة الى مستوى سطح البحر ، إلا انه يرجح ان أسفل المقياس كان قد ثبت في قعر النهر او في أوطأ مستوى للمياه في زمن شح المياه ، وكان ارتفاعه بين أسفله وأعلاه خمساً وعشرين ذراعاً كما تقدم ، أي ما يساوي نحواً من ثلاثة عشر متراً .

وقد وقفنا على ذكر فيضان واحد سجل مستوى زيادته على المقياس المذكور في الدور الأول وذلك في نفس السنة التي أنشيء فيها المقياس وهي سنة ٢٩٢هـ (٩٠٦م) فذكر ابن الجوزي ان دجلة زادت زيادة مفرطة فتهدمت المنازل على شاطئيها من الجانبين وقد بلغ الطغيان أشده في جمادي الأولى من تلك السنة فبلغت الزيادة إحدى وعشرين ذراعاً .

١٥ ـــ سور دار الخلافة :

وفي نفس الوقت انتشرت المباني في القسم الجنوبي من الجانب الشرقي للمدينة حيث أنشئت هناك أهم قصور الخلفاء وصارت تعرف هذه القصور وملحقاتها باسم « دار الخلافة » وقد سورت هذه الدار بسور على هيأة نصف دائرة وقد استخدم هذا السور الذي بقي الى آخر العهد العباسي للوقاية من خطر الفيضان من جهة الشرق خلف المدينة .

١٦ ـــ المقياس العباسي على نهر الفرات :

وبالنظر لما كان لفيضان نهر الفرات من تأثير في الجانب الغربي من بغداد فقد نصب مقياس على هذا النهر أيضاً وقد وقفنا على ثلاثة تسجيلات لقراءة هذا المقياس فيما بين سنتي ٣١٦ و٣٢٩هـ ، ولما كان ذلك قد ورد دون ذكر للموقع الذي نصب فيه المقياس ، فليس لدينا أية معلومات عن موقعه من نهر الفرات ، إلا اننا نرجح انه انشيء في مدينة الأنبار بالقياس الى أهميتها في العهد العباسي ، بدليل ان أول خليفة عباسي اتخذها عاصمة له قبل انشاء مدينة بغداد ، وبناء على ورود ذكر الأنبار في عدة حوادث من أخبار فيضان نهر الفرات .

١٧ ـــ انهيار سد ديالى القديم ونتائجه :

ومن أهم الحوادث التي وقعت في مستهل الدور الثاني الذي حددناه فيما بين سنة ٣٠٠ و٤٥٠هـ على وجه التقريب ، أي في أوائل القرن الرابع الهجري (حوالي سنة ٣٠٠هـ) ، حادث خطير كان له أثر بارز في تطور فيضان دجلة وازدياد خطورته بالنسبة الى مدينة بغداد ، وهذا الحادث هو انهيار السد الذي كان قد أقامه الأقدمون على نهر ديالى عند مضيق جبل حمرين بغية افساح المجال لمرور جدول النهروان في امتداده بين سامراء والكوت . وكان من نتائج هذا الانهيار أن عاد نهر ديالى الى مجراه الأصلي الذي كان يسير فيه قبل إنشاء السد وهو مجراه الحالي الذي يصب في جنوب بغداد ، فصارت مياه فيضان نهر ديالى تتجمع في حوض نهر دجلة جنوب بغداد فتزيد في ارتفاع منسوب مياهه أمام مدينة بغداد شمالاً وتعيق جريانه ، وهكذا فقد أصبحت بغداد منقادة بحكم الضرورة لمراقبة حركة فيضان نهر ديالى بالاضافة الى حركات فيضان نهر دجلة ، ويستدل من سجل الحوادث التاريخية التي وصلت الينا من ذلك العهد على ان حكام هذا الدور الجديد نصبوا مقياساً على نهر ديالى وكان ذلك في بعقوبا على الأرجح وأخذوا يسجلون ارتفاعات مناسيب مياه هذا النهر علاوة على نهر دجلة في مواسم الفيضان .

قلنا فيما تقدم إن نهر ديالى كان يعرف في زمن العرب باسم « نهر تامرا » أما تسمية نهر ديالى فكانت تطلق على جدول بهذا الاسم يتفرع من الجانب الغربي من النهروان وينتهي الى جوار نهر دجلة جنوب بغداد ، إلا أنه بعد انهيار

سد ديالى في جبل حمرين عاد النهر يسيل في مجراه القديم الذي كان يسلكه قبل انشاء مشروع النهروان وصار يعرف باسم نهر ديالى نسبة الى جدول ديالى الذي كان يأخذ من النهروان وينتهي الى نهر دجلة جنوب بغداد ، وباختراق مجرى نهر ديالى للنهروان قرب بعقوبا انقطعت مياه دجلة عن النهروان في القسم الذي يمتد جنوب بعقوبا وهو القسم الذي كانت فروعه تنتهي الى الجانب الشرقي من مدينة بغداد والى المزارع الواقعة بين بغداد والكوت. ولمعالجة الوضع أنشيء سد بنائي على نهر ديالى في جوار منطقة بغداد قرب محطة سكة الحديد المعروفة بمحطة (كاسلزبوست) لتحويل مياه نهر ديالى الى النهروان في قسمه الأسفل بدلاً من مياه دجلة التي كان يسحبها مجرى النهروان من قرب سامراء ، وكان يعرف هذا السد باسم « مصنعة السهلية » إلا انه كان مهدداً بفيضانات النهر سنوياً فكان يرمم بين الحين والآخر كلما حدثت تخريبات فيه ولكن دون جدوى ، وهكذا فقد أصبح النهروان الذي يمتد بين ديالى والكوت يعتمد في ايراده المائي على نهر ديالى (تامراء) بعد أن كان يستمد مياهه من دجلة بطريق صدوره في جوار سامراء ، كما انه أصبح دخول مياه ديالى اليه معتمداً على صمود مصنعة السهلية أمام تيار مياه نهر ديالى (تامراء) ، وقد ورد ذكر مصنعة السهلية لأول مرة في عهد خلافة الراضي (٣٢٢ ــ ٣٢٩هـ) في حوادث بجكم التركي ومحمد بن رائق في سنة ٣٢٦هـ ، فقد جاء في ذكر هذه الحوادث انه لما قدم بجكم من واسط وهو متجه نحو بغداد كان محمد بن رائق يستعد للقائه وقتاله ، فبعث من يبثق نهر النهروان الى نهر ديالى ، أي انه أرسل من يكسر « مصنعة السهلية » إلا ان ذلك لم يمنع بجكم من الاستمرار في زحفه على بغداد حيث نصب على نهر ديالى جسراً عبر عليه بعض أصحابه سباحة فانهزم ابن رائق وصار الى عكبرا .

ويستفاد مما رواه المؤرخون ان « سد السهلية » كان مصدر قلق شديد لدى رجال الحكم فكانوا يبعثون من يعتمد عليهم الى موقع السد لصيانته والاشراف على تحكيمه ، وكان هؤلاء ملزمين بالمقام هناك حتى ينتهي موسم الفيضان. وكان الخلفاء يذهبون أحيانا الى موقع « سد السهلية » للاشراف على تحكيم السد بانفسهم ، وقد اشتهر في العهد السلجوقي مهندس عراقي كان له شأن عظيم في أمور الاسقاء وهندسة السدود والانهار هو ابو الحسن بهروز ويلقب بمجاهد الدين الغياثي ولى امرة العراق نيفاً وثلاثين سنة ، وكان في مقدمة اعماله العمرانية توليه شؤون ري العراق . وكان امر سد وصيانة سد السهلية شغله الشاغل فرتب الآلات واحكم العمل وفاق من سبقه من الولاة والسلاطين في اصلاحه وسد بثوقه ، وقد قيل إن بهروزاً كان لا يزال يعمل على سد بثق النهروان الى ان مات في سنة اربعين وخمسمائة . ثم اهملت صيانة « المصنعة السهلية » بعد وفاة بهروز مما ادى الى خراب النهروان وبقي على هذا الحال منذ ذلك الوقت الى يومنا هذا .

وقد جرت محاولة لاعادة انشاء هذا السد على عهد مدحت باشا (١٢٨٥هـ ـ ١٨٦٨م) بغية احياء القسم الاسفل من النهروان ، الا ان محاولته هذه فشلت لأن السد لم يقو على الصمود أمام فيضان ديالى الشديد . وقد اقترح سير ويليام ويلكوكس في جملة مشاريعه التي قدمها بعد ذلك اعادة انشاء هذا السد لاحياء القسم الاسفل من النهروان على ان تحول مياه فيضان ديالى الى المجرى القديم الذي ينتهي الى دجلة قرب الكوت والذي كانت تجري فيه عند وجود السد في جبل حمرين الا أنه لم يؤخذ بهذا الاقتراح . وكان أول ذكر ورد لفيضان نهر ديالى فى حادث فيضان سنة ٣٦٧هـ حيث زادت ديالى زيادة كبيرة فقلعت سكر السهلية الذى مر ذكره وأخذت طريقها لتصب في نهر دجلة جنوب بغداد الأمر الذي ادى الى تجمع المياه في حوض نهر دجلة وهو فى حالة فيضان ايضا فارتفع مستوى المياه أمام بغداد حتى بلغ ٢١ ذراعاً فغرقت المدينه في جانبيها .

وفي هذا الدور الثاني الذي حددناه بالفترة الواقعة بين ٣٠٠ و٤٥٠هـ بدأ الانحطاط والوهن يدبان في جسم الدولة العباسية نتيجة لتقلص نفوذ الخلفاء وسيطرتهم على شؤونها الأمر الذي ادى اخيرا الى انهيار مشاريع الري في القطر كله .
وهنا يدخل الدور الثالث الذي يبدأ في حوالي منتصف القرن الخامس وينتهي بانتهاء الحكم العباسي سنة ٦٥٦ هـ

١٨ ـــ السور الكبير في الجانب الشرقي من بغداد :

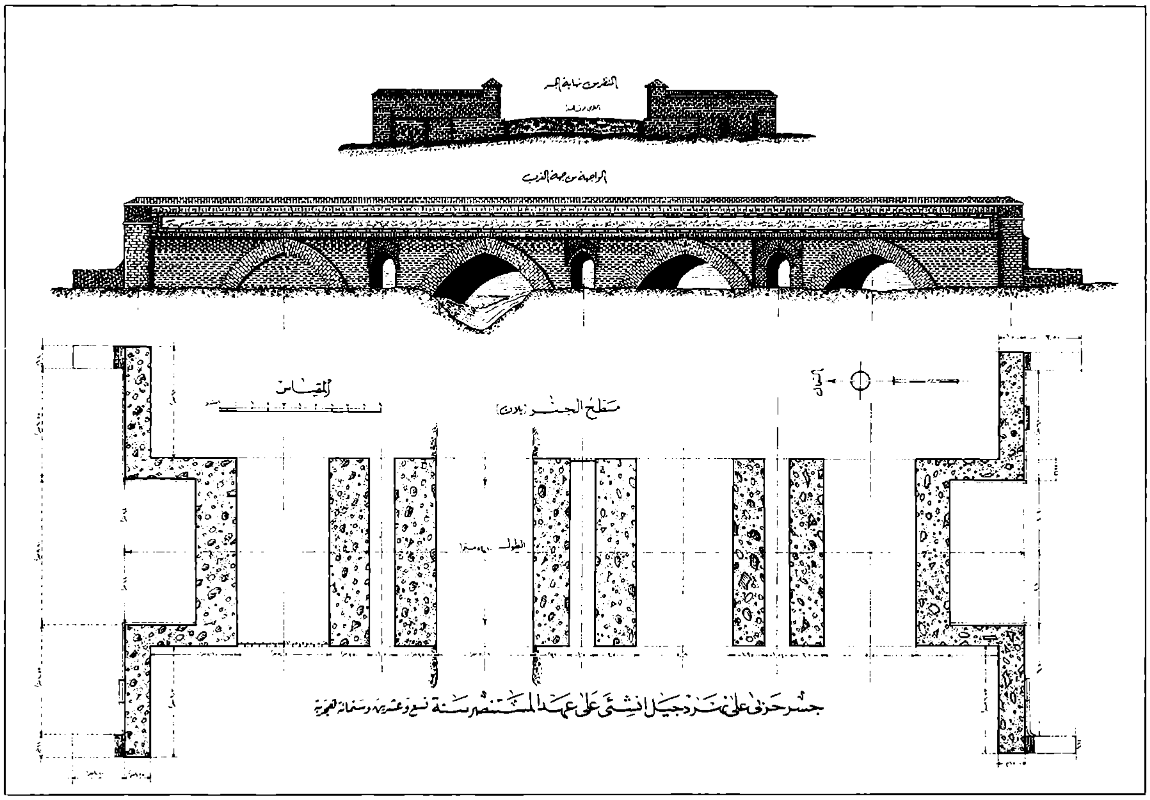
وفي هذه المرحلة من تطور مدينة بغداد أصبح أهم العمران في الجانب الشرقي منتشراً حول دار الخلافة متصلا بها من البر ، فشيدت حولها أهم المحلات والاسواق والدور، فكانت اصلا لمدينة بغداد الرئيسة التي ظهرت في العهد الأخير. ففي أواخر القرن الخامس الهجري شرع في انشاء سور عظيم وخندق عميق يحيطان بهذه المدينة الجديدة ، ويضمان داخلهما دار الخلافة وسورها وجميع العمران الذي نشأ حولها . وكان هذا السور هو وخندقه الخارجي يبدءان من دجلة شمالا وينتهيان الى دجلة جنوباً ، وكان الشروع في انشاء هذا السور في سنة ٤٨٨هـ (١٠٩٥)م واكمل انشاؤه سنة ٥١٧هـ، وقد ظل هذا السور قائما حتى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة أي ما يقارب ثمانيمائة عام. وان هذا السور وان كان قد انشىء في الأصل لأغراض دفاعية الا انه استخدم في الوقت نفسه لدرء اخطار الفيضان بحماية المدينة من الغرق من جهة البر . فكانت مياه الفيضان التي تنحدر من شمال المدينة عند انبثاق السداد التي على ساحل دجلة الايسر تتجمع خلف السور بعد ان تملأ الخندق بالمياه وبذلك تصبح المدينة شبه جزيرة محاطة من كل اطرافها. ثم بعد هبوط مستوى النهر تعاد المياه الى نهر دجلة جنوبي المدينة عن طريق الوادي الطبيعي الذي يمر في المنطقة التي تلي « باب كلواذا » (الباب الشرقي الحالي) جنوباً وهي منطقة البتاويين والعلوية الحالية ، كما كانت تنزل مياه الخندق الى النهر بعد هبوط مستواه ثم يغلق فم الخندق عند مصبه في النهر فيقوم عندئذ بسحب المياه الجوفية من المدينة فتتجمع فيه مياه آسنة خلف السور. وقد استخدم هذا السور بعد تقويته وتحكيمه في العهد الأخير ليحمي المدينة من الغرق من الجهة الشرقية أي من جهة البر وهو يعرف اليوم باسم « السدة الشرقية » .

١٩ ـــ الوضع في العهد العباسي الأخير :

ومما يستدعي النظر ان أخطر الفيضانات التي أدت الى غرق بغداد كانت قد وقعت في الدور الأخير حتى ان بعض المؤرخين قد عد حادث غرق بغداد سنة ٤٦٦هـ أول غرق حدث في المدينة ، وكان الغرق الثاني على حد تعبيرهم سنة ٥٥٤هـ . والمقصود بذلك على وجه التأكيد ان فيضان سنة ٤٦٦هـ كان أول فيضان خطير في هذا الدور الأخير ، إذ نعلم ان هناك أحداث اغراق أخرى وقعت قبل ذلك ، أما الرواية بان غرق سنة ٥٥٤هـ « هو الغرق الثاني » فالأرجح ان المقصود بذلك هو انه يلي « الغرق الأول » في أهميته وخطورته ، وهذا ينطبق على الواقع فعلاً . فقد ورد في رواية ابن الجوزي ان « الجانب الشرقي من بغداد غرق مراراً أولها سنة ست وستين وأربعمائة ولم يكن لبغداد سور فدخل الماء الى دار الخلافة ومر بباب النوبي وغرق كثير من المحال ، ثم عمل السور وجاء الغرق في سنة أربع وخمسين وخمسمائة وأحاط بالسور وعبث فيه وأغرق كثيراً من المحال » . وقد عد العمراني حادث سنة ٤٦٦هـ أول غرق حدث ببغداد وكان الغرق الثاني سنة ٥٥٤هـ . ونستنتج من ذلك ان أهل بغداد وحكومتهم أخذوا يشعرون بجدية خطر الفيضان منذ النصف الأخير من القرن الخامس الهجري وذلك بعد أن أخذت مشاريع الري تضمحل الواحد بعد الآخر فشعروا بالخطر الحقيقي في فيضان سنة ٤٦٦هـ فعدوه أول حادث مهم في تاريخ المدينة لما احتوى عليه من الأهوال.

ومن أشد المصائب التي حاقت بمدينة بغداد في هذا الدور الأخير حوادث الفيضانات خلال سني ٥٦٩ و٦١٤ و٦٤٦ و٦٥٣ و٦٥٤ للهجرة وكلها أدت الى غرق المدينة ، ويرجع سبب حدوث هذه الاغراق في هذه المرحلة الأخيرة الى الاهمال في مراقبة شؤون الري ومنشآتها والانحلال الذي ساد جهاز الدولة في هذه الفترة ، وكانت أهم التخريبات التي حدثت في هذا العهد انهيار السد على نهر العظيم وسد نمرود على نهر دجلة حوالي أواخر القرن السادس الهجري (أواخر القرن الثاني عشر للميلاد) ، وبذلك صارت كل مياه فيضان دجلة وروافده تنحدر الى جهة مدينة بغداد فتهددها بخطر الغرق ، وفي ذلك تفسير لسبب حدوث أخطر حوادث الغرق في هذه المرحلة الأخيرة التي اجتازتها

مدينة بغداد في العهد العباسي . ومن نتائج انهيار سد نمرود تحول مجرى دجلة من اتجاهه الغربي الى مجراه الشرقي الحالي وانقطاع الماء عن طسوج مسكن الأمر الذي أدى الى هلاك المزارع والبساتين التي كانت تروى من أمام السد بطريق نهري دجيل والاسحاقي ، وعلى أثر ذلك قام المستنصر بحفر نهر جديد لانقاذ بعض مزارع هذه المنطقة من الهلاك نهائياً وهو نفس نهر دجيل الحالي الذي تنقل فيه مياه نهر دجلة بطريقة الضخ الى بلدة دجيل الحالية المعروفة ببلدة سميكة. ولا يزال يشاهد على النهر الذي حفره المستنصر جسر للعبور هو من آثار أعمال العهد العباسي الأخير وعلى جبهته كتابة تشير الى ان الجسر أنشيء في عهد المستنصر سنة ٦٢٩هـ . ويعد هذا الجسر من أهم آثار العهد العباسي وهو يشتمل على أربع فتحات كبيره مقوسة عرض كل منها حوالي ستة أمتار وثلاث فتحات صغيرة عرض كل منها متر ونصف المتر . وقد أنشيء هذا الجسر للوصول الى بلدة حربى الواقعة في جوار الجسر من جهة الشرق لأهمية موقع هذه المدينة في ذلك الوقت ، لذلك يعرف هذا الجسر اليوم باسم « جسر حربى » (أنظر مخطط الجسر) . وفتح المستنصر فرعاً



خاصاً من نهر دجيل الجديد مده الى قرية بلد التي انقطع الماء عن بساتينها على أثر تحول مجرى دجلة عنها فأصبحت على جانبه الأيمن بعد أن كانت على الجانب الأيسر ولا يزال يعرف هذا الفرع الى اليوم باسم « نهر المستنصر » . وفي الوقت نفسه لاقى النهروان الذي كان يروي منطقة بغداد في الجانب الشرقي من دجلة حتفه فانقطعت المياه عن صدره الواقع في جوار سامراء على أثر هبوط مستوى نهر دجلة بعد انهيار السد ثم اخترقه مجرى نهر العظيم من الشمال واخترقه نهر ديالى من الجنوب ، فقبر بذلك مشروع النهروان نهائياً وبقي مقبوراً منذ ذلك العهد حتى يومنا هذا ، كما قبر مشروع نهر دجيل الذي كان يمون منطقة بغداد على الجانب الغربي من دجلة . هذا ما حدث على نهر دجلة أما نهر الفرات فقد أخذ يهدد طغيانه الجانب الغربي من بغداد بالاضافة الى طغيان نهر دجلة وذلك بعد انهيار منشآت الفرات أيضاً . فتراكمت المصائب والمحن على مدينة بغداد حتى حلت الكارثة الكبرى باستيلاء هولاكو على المدينة سنة ٦٥٦هـ فزاد

الخراب من جراء نهبها وقتل الكثير من أهلها ، وظلت منذ ذلك التاريخ تتقاذفها أمواج الحروب ، فتناوبها أيدي الحكم من احتلال الى آخر زهاء أربعة قرون متتالية الى أن احتلها السلطان مراد الرابع في سنة ١٠٤٨هـ (١٦٣٨م) ، وبقي العراق منذ ذلك الزمن تحت حكم العثمانيين حتى الاحتلال البريطاني سنة ١٩١٧م.

٢٠ ـــ الوضع بعد احتلال المغول لبغداد :

وبعد الدور الذي مر على بغداد في الفترة الواقعة بين احتلال هولاكو للمدينة في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) وبين الاحتلال البريطاني لها سنة ١٣٣٥هـ (١٩١٧م) والذي استغرق ٦٦٠ سنة ميلادية من أحط الأدوار في تاريخ ري العراق من حيث التسيب والاهمال ، ففي هذه الفترة المظلمة أخذت الفيضانات تعمل عملها متابعة في الهدم والتخريب والتدمير حتى قضت على ماتبقى من منشآت الري . ففي المرحلة الأولى من هذا الدور وهي الفترة بين سنة ٦٥٦ و٧٧٥هـ (١٢٥٨ ـــ ١٣٧٤م) التي استغرقت (١١٦) سنة ميلادية وصل الينا من أخبارها حدوث ثلاثة فيضانات خطيرة سببت غرق مدينة بغداد هي فيضانات سني ٧٢٥ و٧٥٧ و٧٧٥هـ كان أشدها خطراً الفيضان الأخير فقد وقع في آخر عهد السلطان اويس الجلائري ووصف بما هذا نصه : « زادت زيادة عظيمة وتهدمت دور كثيرة حتى قيل ان جملة ما تهدم من الدور ستون الف دار وتلف للناس شيء كثير بسبب ذلك ويقال انه لم يبق في بغداد عامر إلا قدر الثلث ودخل الماء في الجامع الكبير والمدارس وصارت السفن في الأزقة تنقل الناس من مكان الى مكان ثم من تل الى تل . ثم يصل الماء اليهم يغرقهم وجرت بسببه في بغداد خطوب كبيرة وجلا اكثر أهليها . . . وقد اختلطت مياه دجلة بالفرات فأرسلت اليها الأنهار والعيون والسحب من كل جهة وبقيت بغداد في وسط الماء كأنها قصعة في فلاة وصارت الرصافة ومشهد أحمد

منظر لغرق الجانب الغربي من بغداد من نهر الفرات سنة ١٩٠٧م تشاهد فيه قبة الست زبيدة وقد أحاطتها المياه من كل جانب كما يشاهد فيه (ترامواي) الكاظمية وقد أحاطته المياه أيضاً



ومشهد أبي حنيفة وغيرها من المشاهد والمزارات لا يوصل اليها إلا في المراكب ».

وما انتهى حكم الجلائريين في سنة ٨١٤هـ حتى دخلت فترة مظالمة ، فقد حكمت خلال هذه الفترة أسرتا (قره قويونلي) و(اق قويونلي) التركمانيتان بين سنتي ٨١٤ و٩١٤هـ ثم استولى الصفويون بين سنتي ٩١٤ و٩٣٠هـ ثم قبيلة موصلو الكردية بين سنتي ٩٣٠ و٩٣٦هـ ، ثم الصفويون ثانية بين سنتي ٩٣٦ و٩٤١هـ ، ثم الأتراك العثمانيون بين سنتي ٩٤١ و١٠٣٢هـ ، ثم الصفويون ثالثة بين سنتي ١٠٣٢ و١٠٤٨هـ ، وأخيراً العثمانيون ثانية وهم الذين استمروا فى حكم العراق حتى احتلال الجيش البريطاني له في سنة ١٩١٧م . وفي الفترة التي امتدت زهاء ثلاثمائة عام بين سنة ٧٧٥ و١٠٦٧هـ لم يصل الينا من أخبارها إلا الشيء النزير ، والظاهر ان الحروب المستمرة خلال هذه الفترة وتناوب الغزاة على الحكم كان السبب الرئيس في اهمال تدوين أخبار الاغراق والفيضانات . ومما لا شك فيه ان حوادث فيضانات خطيرة وقعت خلال تلك الفترة الطويلة فطمست أخبارها .

أما المرحلة الثالثة التي تمتد من سنة ١٠٦٧ الى سنة ١٣٣٥هـ (١٦٥٦ ـــ ١٩١٧م) والتي استغرقت ٢٦٢ سنة ميلادية فتقع في العهد العثماني الأخير ، وقد وصل الينا من أخبارها حدوث فيضان كبير سنة ١٠٦٧هـ (١٦٥٦م) زاد فيه نهرا دجلة والفرات زيادة هائلة ، وهو الفيضان الذي هدم برج باب الطلسم في سور بغداد . ثم تعرضت المدينة الى كارثتين في سنتي ١٢٣٧هـ (١٨٢٢م) و١٢٤٧هـ (١٨٣١م) حيث اجتمع الفيضان والطاعون في زحفهما على المدينة فألحقا بها أضراراً جسيمة في المال والأنفس ، ثم تلت فيضانات خطيرة في سني ١٢٦٥و١٣٠١و١٣١١و١٣١٣و١٣٢٥و١٣٣٣هـ (١٨٤٩ و١٨٨٤ و١٨٩٤ و١٨٩٦ و١٩٠٧ و١٩١٥م) ، وبها ينتهي هذا الدور الذي كان من اكثر أدوار بغداد اضطراباً بسبب توالي النكبات واضطراب حبل الأمن وانعدام الاستقرار نتيجة لتعدد الولاة ورجال الحكم ، كما أن عهد العثمانيين الطويل الموسوم بضعف الادارة وقلة الكفاءة ، كل ذلك جعل أي تنظيم او تنسيق في أعمال الري والسيطرة على مياه الفيضان على جانب كبير من الصعوبة . ومما يجدر ذكره في هذا الصدد ان السور الذي كان قد أنشيء في العهد العباسي حول الجانب الشرقي للمدينة للدفاع عنها فقد أهميته الحربية نتيجة لتطور أسلحة القتال وصار يستخدم في العهد العثماني الأخير لوقاية هذا الجانب من الغرق من جهة البر ، فأزيلت المسناة أولاً لاستعمال حجارتها في الأبنية ثم دفن الخندق وبقي السور الترابي فاستخدم كسدة وقائية لحماية ما يقع داخلها من عمران من خطر الفيضان . وصار يعرف هذا السور بعد الاحتلال البريطاني للعراق سنة ١٩١٧م بـ« سدة المدينة » ، ولا يزال هذا القسم من سداد بغداد الشرقية يعرف بهذا الاسم حتى اليوم . ولما كان هذا السور قد اقتصر على القسم الوسط من المدينة فقد بقيت المحلات الممتدة شمال وجنوب السور كالأعظمية شمالاً والمنطقة التي تلي الباب الشرقي جنوباً معرضة لخطر الغرق من جهة البر ، ولحماية هذه المحلات أقام الوالي ناظم باشا سنة ١٣٢٨ ـــ ١٣٢٩هـ (١٩١٠ ـــ ١٩١١م) سدة ترابية تبدأ من الصليخ شمالاً وتدور خلف سور المدينة الشرقية القديم على بعد ثلاثة الى أربعة كيلومترات حتى تنتهي الى ساحل دجلة في جوار معمل الزيوت النباتية الحالي جنوباً . وبذلك تكون هذه السدة قد ضمت داخلها كل عمران الجانب الشرقي من المدينة . ويلاحظ ان هذه السدة أنشئت على مسافة غير قليلة من حدود المدينة الخارجية بحيث تركت داخلها مسافة واسعة خلف سور المدينة القديم من الشرق ، ولعل القصد من ذلك افساح المجال للتوسع المتوقع في المستقبل فى امتداد حدود العمران شرقاً ، إلا ان السدة لم تصمد أمام أول فيضان تعرضت له بعد انشائها فقد انهارت تحت ضغط فيضان سنة ١٩١١م في معظم أقسامها وتسربت المياه خلف « سدة المدينة » (السور القديم) .

٢١ ـــ الوضع بعد الاحتلال البريطاني للعراق :

ثم جاء عهد الاحتلال البريطاني فكان من المنتظر أن تبادر سلطات الاحتلال الى معالجة شؤون الري معالجة أساسية على النحو الذي عالجها الأقدمون باقامة السدود والخزانات وانشاء الجداول والمصارف واستخدام الفن الحديث في تحقيق

ذلك. لكن مصالح بريطانيا اقتضت أن تسير الأمور على غير هذا السبيل ، فكان حكم القدر أن تستمر بغداد على حماية نفسها بالطرق العلاجية الوقتية باعتمادها على السداد الترابية واحطاب الطرفاء في درء أخطار الفيضان عنها وعن مزارعها، الطرق التي تستنفد المال والجهود دون ضمان الحماية الاكيدة الدائمة ، فعلى أثر احتلال الانكليز لمدينة بغداد في شهر آذار ١٩١٧ قامت السلطات العسكرية المحتلة بتحكيم السور القديم الذي صار يعرف باسم « السدة الشرقية » ثم أنشأت في الوقت ذاته سداداً جديدة امتداداً لسدة المدينة شرقاً لحماية القسم الحديث الذي ألحق بالمدينة جنوباً فتبدأ من الزاوية الجنوبية الشرقية للسور القديم وتمتد في الاتجاه الجنوبي الشرقي حتى تتصل بالساحل الأيمن لنهر ديالى ، وتضم السداد الجديدة هذه المنطقة الجنوبية الواقعة بين الساحل الأيسر لنهر دجلة وبين الساحل الأيمن لنهر ديالى ، ومن ضمنها محلات البتاويين والعلوية والكرادة الشرقية والزوية ومعسكر الرشيد والرستمية والزعفرانية. وقد أنشئت سداد فاصلة داخل هذه المنطقة ، فقد أحيط قسم الزوية بسداد من كل أطرافه ، كما ان معسكر الرشيد أحيط بسداد من كل أطرافه أيضاً ، وكذا ما يتعلق بالرستمية والزعفرانية. وقد أنشئت في سنة ١٩٢٧ سداد جديدة أخرى وهي امتداد لسدة المدينة شمالاً لتحيط بمنطقتي الأعظمية والصليخ ، وهذه تمتد من الزاوية الشمالية الغربية لسور المدينة (السدة الشرقية) وتدور حول المنطقتين من جهة الشرق حتى تتصل بساحل دجلة. وبذلك فقد أضيف هذا القسم الجديد لأقسام المدينة الأخرى وهو مستقل بذاته أيضاً من حيث السداد التي تحيط به.

ويتضح مما تقدم أن الجانب الشرقي من مدينة بغداد أصبح مقسماً الى عدة أقسام كل قسم محاط بسداد من كل أطرافه مستقل بذاته ومنفصل عن القسم المجاور له ، فاذا حدث بثق في سداد أحد هذه الأقسام ودخله الماء سواء أكان ذلك من جهة النهر او من جهة البر ينحصر الغرق في ذلك القسم دون أن يتسرب الى الأقسام الأخرى من المدينة. وهكذا فقد أصبح الجانب الشرقي من المدينة مقسماً الى سبعة قطاعات كل قطاع منها محاط بسداد من جهة البر ومن جهة النهر وهذه الأقسام هي: ١ ــ قطاع الصليخ والأعظمية. ٢ ــ قطاع المدينة القديمة المحاط بالسور القديم. ٣ ــ قطاع البتاويين والعلوية. ٤ ــ قطاع معسكر الرشيد. ٥ ــ قطاع الزوية وهو يشكل شبه جزيرة منفصلة عن القسم المجاور لها. ٦ ــ قطاع الرستمية. ٧ ــ قطاع الزعفرانية.

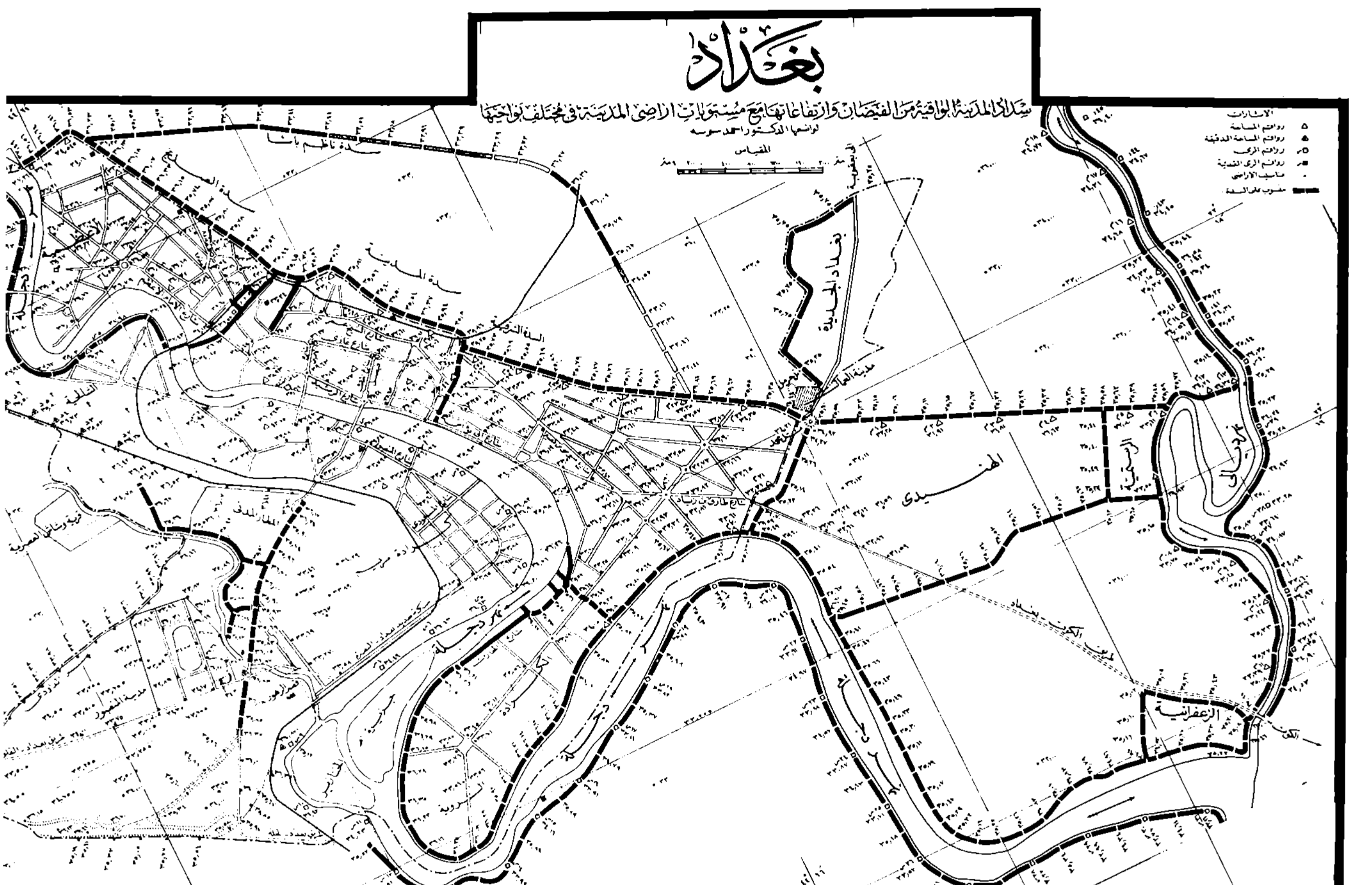
هذا فيما يختص بسداد الجانب الشرقي من المدينة. أما الجانب الغربي فلا توجد فيه سداد منتظمة على النحو الذي في الجانب الشرقي ، وقد اتخذت السدة التي تسير عليها سكة حديد بغداد ــ سامراء بمثابة سداد تحمي جانب الكرخ والكاظمية من الغرق الذي يهدده من جهة الفرات ، أما القسم الواقع غربي السكة أي بين السكة ونهر الخر فتحميه ضفاف نهر الخر من جهة الغرب ، وقد أنشئت سداد لحماية القسم الجنوبي من هذا الجانب. (أنظر خارطة بغداد وسداد المدينة الواقية). وهناك سداد كانت قد أنشئت في العهد العثماني لحماية الجانب الغربي من مدينة بغداد زالت اكثر معالمها في الوقت الحاضر وكانت تعرف بـ « سدة الترك » فتبدأ هذه السدة من غربي مبزل الخر وتمتد غرباً حتى تنتهي عند الأرض المرتفعة غرباً وذلك للحيلولة دون تسرب مياه فيضان نهر الفرات الى الجانب الغربي من المدينة.

وتختلف مستويات الأراضي التي شيدت عليها مدينة بغداد اختلافاً كبيراً بين قسم وآخر فهي تتراوح بين (٣١ر٥) متراً فى القسم المنخفض و(٣٧ر٥) متراً فوق سطح البحر في القسم المرتفع. وتدل قراءات مناسيب المياه التي سجلت في الفترة التي تمتد بين سنة ١٩٠٧ و١٩٦٦ على ان أعلى مستوى سجل لنهر دجلة في بغداد هو (٣٦) متراً فوق سطح البحر وكان ذلك في فيضان سنة ١٩٥٤ بينما بلغ أعلى مستوى للماء المتجمع خلف سداد المدينة من جهه البر في نفس الموسم (٣٥ر٩٧) متراً ، وعلى هذا الأساس يمكن القول ان هناك قسماً من أراضي المدينة يقع تحت منسوب الفيضان العالي بما يقارب الخمسة أمتار فى حين ان هناك قسماً آخر يقع فوق هذا المنسوب بزهاء (١ر٧٠) متراً. وتشاهد ارتفاعات الأراضي في مختلف أنحاء المدينة على خارطة بغداد والسداد الواقية التي مرت الاشارة اليها.

وقد سبق أن أشرنا الى انه كان قدوقع اختلاف بين الخليفة المعتصم وبين وزيره بن أبي دوءاد فيما يختص بمستوى

أراضي الرصافة في الجانب الشرقي بالنسبة الى أراضي مدينة المنصور في الجانب الغربي ، فجرى وزنهما فوجدت أرض مدينة المنصور في الجانب الغربي أعلى من أرض الرصافة بذراعين وثلثي ذراع أي (١ر٣٣) متراً . ونظراً لتراكم أنقاض الأبنية القديمة على سطح الأرض في كلا الجانبين وغرق الجانبين عدة مرات وتراكم الغرين فيهما فيتعذر مقارنة النتائج مع المستويات الحالية بصورة مضبوطة ، إلا ان واقع الحال يؤكد كون الجانب الغربي من المدينة أعلى من جانبها الشرقي كما يتضح من الأرقام المدونة على خارطة بغداد والسداد الواقية من الفيضان .

ويتضح مما تقدم ان سياسة اللجوء الى الحماية الوقتية التي تعتمد على السداد الترابية في درء أخطار الفيضان بقيت متبعة مدة تربي على ثلاثين عاماً والعراق يعاني أشد النكبات بسبب غزو الفيضان سنة بعد أخرى ، دون أن يقام أي مشروع رئيس تعالج فيه مشكلة الفيضان وخطره على بغداد وعلى المدن والقرى والمزارع الواقعة جنوبها معالجة أساسية ، تاركين كيان البلاد الاقتصادي مهدداً كل عام حتى تأسيس مجلس الاعمار في أواخر سنة ١٩٥٠ الذي يعد نقطة تحول في تاريخ ري العراق الحديث فشرع في انشاء المشاريع الكبرى وفي مقدمتها مشاريع الري التي ترمي الى معالجة أخطار الفيضان وادخار المياه لاستغلالها في الأغراض الزراعية . وما فيضان سنة ١٩٥٤ المشهور ببعيد علينا فقد قدرت الخسائر التي مني العراق بها في هذا الفيضان وحده بما يربي على خمسة وعشرين مليون دينار . فقد شهدت بغداد خلال المدة التي تمتد من سنة ١٩١٧ للميلاد حتى سنة ١٩٥٤ تسعة فيضانات خطرة سببت أضراراً فادحة وهي فيضانات سني ١٩١٩ و١٩٢٣ و١٩٢٦ و١٩٣٧ و١٩٤٠ و١٩٤١ و١٩٤٦ و١٩٥٠ و١٩٥٤ . ومن مجموع الفيضانات التسعة المذكورة ستة منها سببت غرق جزء من بغداد الشرقية، ففي فيضانات سني ١٩٤١ و١٩٤٢ و١٩٤٦ و١٩٥٤ غرق معسكر



الرشيد في جنوبي المدينة من ثغرات في السداد الشرقية. وفي سنة ١٩٢٦ غرق القسم الواقع شمال المدينة من ثغرة في سداد نهر دجلة الأمامية في الموقع الذي ما زال يعرف حتى اليوم بالكسرة. وفي فيضان سنة ١٩٥٠ غرقت منطقة الزوية فيجنوبي المدينة من ثغرة انبثقت في سدادنهر دجلة الأمامية أيضاً. والسبب في ذلك يرجع بالدرجة الأولى الى ان مستوى أرض هذه المنطقة منخفض وان المنطقة نفسها تقع في المجرى الطبيعي لمياه الفيضان التي كانت تنحدر من خلف المدينة وتصب في دجلة جنوبي الباب الشرقي الحالي. ففي فيضان سنة ١٩٥٤ اضطر المسؤولون بعد أن تجمعت المياه خلف السدة الشرقية وارتفع مستواها الى حد الخطر الى فتح ثغرة عمداً في سدة المعسكر الشرقية لافساح المجال للمياه المتجمعة أن تنتشر في أرض المعسكر المنخفضة والتخفيف من ضغط المياه على سداد المدينة الشرقية باعتبار ساحة المعسكر أوطأ منطقة يمكن تحويل المياه اليها.

٢٢ ــ مشاريع مجلس الاعمار والمشاريع الجديدة المقترحة لمعالجة الفيضان:

ومع انتهاء هذا الدور تنتهي مآسي الفيضانات بالنسبة لمدينة بغداد وذلك على أثر انجاز مشروعات الري الكبرى التي أولاها مجلس الاعمار بعد تأسيسه سنة ١٩٥٠ إهتماماً فائقاً فأعطاها الأسبقية على جميع المشاريع الأخرى حيث أفرد لها أكبر حصة من ميزانيته. ففي ميزانيته الأولى لمنهاجه لخمس سنوات تبدأ من سنة ١٩٥١ وتنتهي في سنة ١٩٥٦ البالغة (١٦٨) مليون دينار صدقت كشوف خاصة بمشاريع الري بمبلغ (٣٦ر٥٤٥ر١٦٢) دينار أي بنسبة ٢١٪ من ميزانيته. أما الميزانية التي خصصت للسنوات الخمس المبتدية من سنة ١٩٥٥ المالية والمنتهية بالسنة ١٩٥٩ والبالغة

منظر فيضان دجلة لسنة ١٩٥٤ في بغداد





(١٠٠ر٣٠٦ر٣٠٤) دينار فقد خصصت نسبة (٥ر٣٥٪) من مجموع الميزانية لتنفق على مشاريع الري ، وأهم المشاريع التي أنجزها مجلس الاعمار هي : مشروع الثرثار على نهر دجلة لوقاية منطقة بغداد من أخطار الفيضان وقد تم انشاؤه سنة ١٩٥٦ ، ثم مشروع بحيرة الحبانية على نهر الفرات لدرء أخطار الفيضان عن منطقة بغداد الغربية وخزن بعض المياه للافادة منها في أغراض الري وقد تم بقسميه ، القسم الخاص بالسيطرة على الفيضان والقسم الخاص بالخزن لأغراض الري ، في سنة ١٩٥٦ أيضاً ، ثم مشروع سد وخزان دوكان على نهر الزاب الصغير الذي أنجز سنة ١٩٥٩ . وأخيراً سد وخزان دربندخان على نهر ديالى وقد تم انشاؤه سنة ١٩٦١.

ويشتمل مشروع الثرثار على سدة أقيمت على نهر دجلة عند بلدة سامراء للسيطرة على مياه الفيضان وتحويلها الى قناة تأخذ من أمام السدة في الجانب الغربي للنهر وتصب في منخفض الثرثار شرقاً ، والقناة من السعة بحيث تستوعب كمية كبيرة من مياه الفيضان فتخفف من وطأته على مدينة بغداد .

أما مشروع الحبانية على نهر الفرات فيشتمل على سدة أقيمت على نهر الفرات عند بلدة الرمادي للسيطرة على مياه الفيضان وتحويلها الى قناة تأخذ من أمام السدة في الجانب الغربي للنهر وتصب في بحيرة الحبانية الواقعة في جنوب شرقي مدينة الرمادي . وقد اتخذت البحيرة خزاناً تخزن فيه مياه الفيضان ثم تعاد الى النهر في موسم شح المياه للاستفادة منها في أغراض الري ، وقد شقت قناة خاصة تبدأ من الحد الجنوبي للبحيرة لاعادة مياه التخزين الى النهر جنوبي السدة . وهناك منخفض واسع يقع الى الجنوب من بحيرة الحبانية بمسافة حوالي ٧٠ كيلومتراً تفصله عن البحيرة تلول مرتفعة ويعرف هذا المنخفض بمنخفض أبي دبس . وقد فتحت قناة ثالثة تأخذ من الحد الجنوبي للبحيره وتصب في المنخفض المذكور لتصريف المياه الفائضة من البحيرة الى المنخفض المذكور في الفيضانات العالية .

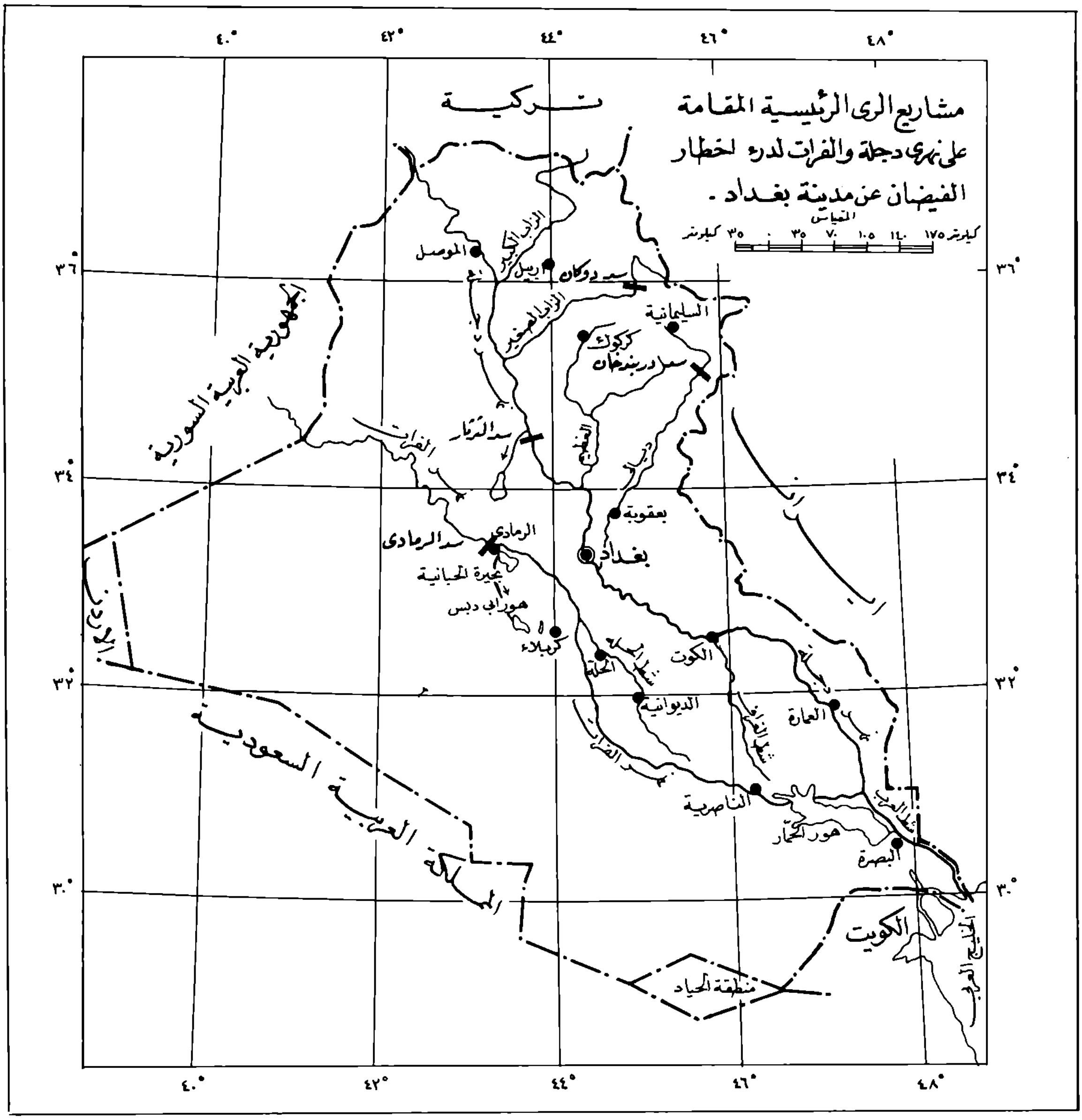
والمشروع الثالث الذي يساعد على التخفيف من وطأة الفيضان على مدينة بغداد مشروع خزان دوكان وهو يشتمل على سد خرساني مقوس بارتفاع ٥ر١١٦ متراً أقيم على نهر الزاب الصغير في مضيق دوكان الواقع على بعد حوالي ٦٠ كيلومتراً الى الشمال الغربي من بلدة السليمانية و٣٠٠ كيلومتر من بغداد ، وذلك لاحداث خزان داخل مجرى النهر أمام السد تخزن فيه مياه الفيضان ثم تعاد الى النهر في موسم شح المياه للانتفاع بها في أغراض الري . ويستوعب هذا الخزان حوالي سبعة مليارات متر مكعب . ونهر الزاب الصغير من الروافد المهمة التي تصب في دجلة وتساهم في تكوين الفيضان الخطر عند مدينة بغداد . وقد بلغت كلفة انشاء هذا المشروع حوالي ١٥ مليون دينار .

والمشروع الرابع أهم مشروع بعد مشروع الثرثار يعالج موضوع الفيضان وخطره على مدينة بغداد حيث يسيطر على مياه فيضان نهر ديالى التي تصب في دجلة جنوبي بغداد مباشرة فتهدد المدينة بالغرق . ويشتمل هذا المشروع كصنوه مشروع دوكان على سد عال من الحجر الاملائي بارتفاع ١٢٨ متراً أقيم على النهر في مضيق دربندخان الواقع على مسافة ٢٨٥ كيلومتراً شمال شرقي مدينة بغداد وعلى بعد ٦٥ كيلومتراً جنوب شرقي مدينة السليمانية لخزن المياه داخل مجرى النهر أمام السد والانتفاع بها في أغراض الري باعادتها الى النهر في موسم شح المياه . وتقدر كمية المياه التي يستوعبها الخزان الذي يكون أمام السد بثلاثة مليارات متر مكعب . أما كلفة هذا المشروع فقد بلغت ٢٦ مليون دينار .

وهناك مشاريع أخرى تقوم الحكومة بدراستها في الوقت الحاضر أهمها المشروع المقترح انشاؤه في أعالي نهر دجلة داخل حدود الأراضي العراقية ويشتمل على انشاء سد على نهر دجلة قرب قرية أسكي موصل في نقطة تقع على مسافة حوالي ٦٠ كيلومتراً من شمال غربي مدينة الموصل و١٢ كيلومتراً شمال شرقي قرية أسكي موصل المذكورة ، ومن المقترح اقامة هذا السد بارتفاع حوالي ٨٤ متراً لخزن ما يقدر بثمانية مليارات متر مكعب داخل مجرى النهر أمام السد. وسوف يحمي هذا المشروع مدينة الموصل من خطر الفيضان كما انه يساهم في حماية مدينة بغداد من خطر الفيضان أيضاً ، وزيادة على ذلك سوف تستغل مياه التخزين في اغراض الري باعادتها الى النهر في مواسم شح المياه وفي توليدطاقة كهربائية يستفاد منها في مدينة الموصل وفي أغراض صناعية . كما ان هناك مشروعاً تجري دراسته الآن على نهر

الفرات ويشتمل على اقامة سـد بارتفاع ٥٨ متراً على نهر الفرات عنـد مدينة الحديثة الواقعة على بعد ٢٤٦ كيلومتراً من شمال بغداد لخزن ما يقدر بـ ١١ مليار متر مكعب أمامه ، وسوف يحمي هذا المشروع منطقة غربي بغـــداد ومزارع الفرات من خطر الفيضان بالاضافة الى استغلال مياه التخزين في أغراض الري وتوليد الطاقة الكهرومائية .

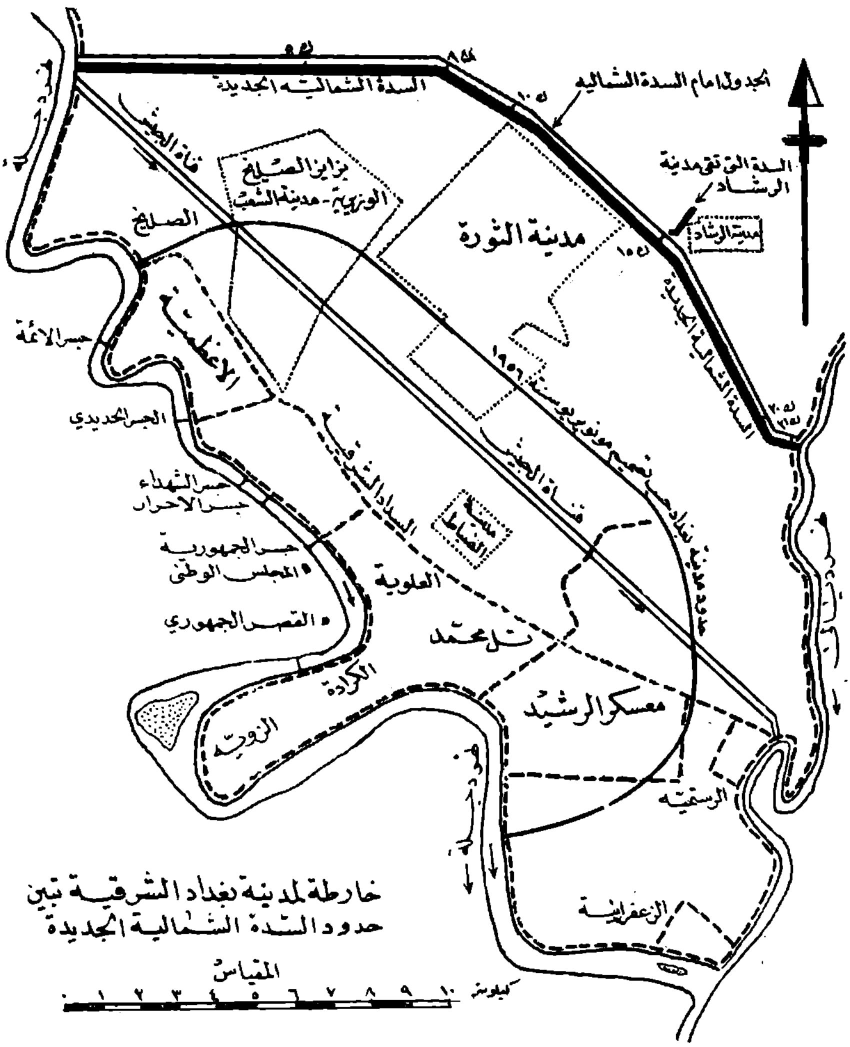
وقد ارتؤي اقامة سد ثان على نهر ديالى لتحقيق الحماية التامة من خطر فيضان هذا الرافد على بغـداد ، وتجري الآن دراسة هذا المشروع الذي يشتمل على اقامة سد عند جبل حمرين لحجز بعض مياه الفيضان التي تنحدر الى النهر جنوب سد دربندخان والتي تقع خارج سيطرة ذلك السد (أنظرخارطة مشاريع الري الرئيسة على نهري دجلة والفرات لدرء أخطار الفيضان عن مدينة بغداد) .



٢٢ ــ مشروع السدة الشمالية الجديدة لحماية الجانب الشرقي من المدينة من جهة البر :

وقد دلت الدراسات الفنية على ان مشروع الثرثار ومشروعي خزان دوكان ودربندخان لا تؤمن الحماية التامة لمدينة بغداد من خطر فيضان نهر دجلة خاصة بعد حدوث فيضان سنة ١٩٦٣ الخطير لذلك قررت الدوائر الرسمية الفنيـــة

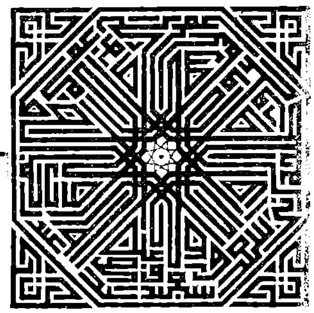
المختصة انشاء سدة ترابية جديدة خلف السدة الشرقية القديمة لحماية الجانب الشرقي من المدينـة ومن ضمنه العمران الممتد خلف السدة الشرقية وذلك في حالة حدوث ثغرات في السداد الممتدة على الساحل الأيسر من نهر دجلة شمـال بغداد وتسرب المياه الى خلف المدينة من جهة البر وذلك كتدبير احتياطي حتى تتحقق مشاريع الخزن الجديدة المقترحـة على نهر دجلة. ويشتمل هـذا المشروع أولاً على حفر جدول يبدأ من الجانب الشرقي لنهر دجـلة في نقطة تقع على بعـد حوالي أربعة عشر كيلومتراً من شمال بغداد فيمتد حوالي ثمانيـة كيلومترات الى الشرق ثم ينحرف الى الجنوب الشـرقي حتى ينتهي الى نهر ديالى في نقطة تقع على بعد حوالي عشرين كيلومتراً من مصبه في دجلة وعلى مسافة حوالي ١٢ كيلومتراً الى الشمال من مصب قناة الجيش في نهر ديالى. ويبلغ طول هذا الجدول ١٥٠ر٢١ كيلومتراً وعرضه ١٥٠ متراً ومهمـة هذا الجدول سحب مياه فيضان نهر دجلة من شمال المدينة وصبها في نهر ديالى جنوبي بغـــداد في حالة تعرض المدينة للغرق بسبب عدم كفاية المشاريع القائمة، ويشتمل المشروع أيضاً على انشاء سدة ترابية على طول الضفة اليمنى من الجدول على ان تستعمل الأتربة المتوفرة من حفريات الجدول لاقامة هذه السدة. ويبلغ عرض السدة عند القمة عشرة أمتار وقد صمم ارتفاعها عند القمة بمستوى ٥ر٣٨ متراً فوق سطح البحر وسوف تنشأ سـدة ترابيـة في الطرف الغربي من مدينة الرشاد الواقعة خارج حدود السدة الجـديدة وذلك لحمايتها من الغرق في حالة استعمال الجدول للتخفيف من وطأة الفيضان على مدينة بغداد (أنظر خارطة مدينة بغداد الشرقية التي تبين حدود السدة الشمالية الجديدة.)



خارطة لمدينة بغداد الشرقية تبين حدود السدة الشمالية الجديدة



بعض مناظر الفيضانات التي حدثت في بغداد خلال أعوام ١٩٤٦ ــ ١٩٥٠ ــ ١٩٥٤



الحياة الثقافية في بغداد

الأستاذ ناجي معروف

ثقافة البغداديين

ان نظرة خاطفة على تلك الأعداد الزاخرة من الكتب العربية المطبوعة وألوف الكتب المخطوطة التي تمتلكها مكتبات البلاد العربية والاسلامية والأجنبية العامة أو الخاصة وما ضاع بالاتلاف والتغريق أو التحريق نجد ان أهل بغداد هم الذين بدأوا قبل غيرهم من العرب والمسلمين بوضع هذه المؤلفات باللغة العربية وبالخط العربي، في مختلف البحوث العلمية والأدبية والفنية وهي تمتاز بالتنوع والعمق والأصالة. كما نجد أعداداً كبيرة من العلماء الذين تخصصوا بعلم أو أكثر وتركوا لنا تراثاً ضخماً وثروة علمية عظيمة. كل ذلك يدل دلالة واضحة على رسوخ أهل بغداد في الحضارة والتمدن. ونرى هنا بوضوح ان التأليف العلمي، والنضج العقلي قد بدأ ببغداد بعد أن فرغ أبو جعفر المنصور من بنائها. أما العواصم العربية الأخرى التي سبقتها وهي: المدينة والبصرة والكوفة ودمشق فلم يكن العلم قد نضج فيها قبل بغداد إلا قليلاً ذلك لأن القرن الهجري الأول انقضى بوجه عام في الفتوح العربية في آسية، وأفريقية وأوربة ونشر الاسلام فيها.

وظلت بغداد مركز العلم والثقافة والحضارة والمدنية،تملأ الدنيا وتشغل الناس قروناً عديدة،وتمد بلاد العرب وبلاد الاسلام بالعلم والعلماء. وظلت حلقات المساجد الجامعة فيها كما ظلت مدارسها وجامعاتها، ودور العلم، والرُبُط، والمؤسسات الثقافية الأخرى شواهد تبرز للعيان في حضارة بغداد الزاهرة تمثل كيانها الحضاري والأدبي واللغوي والديني والتأريخي. وهو كيان حي ينمو ويزدهر وليس على كل حال أطلالاً دارسة ولا آثاراً مهجورة كالحضارات التي درست في طيبة ومنفيس بمصر أو في بابل ونينوى والمدائن في العراق.

وقد بلغت الثقافة ببغداد درجة كبيرة من التقدم والانتشار بين مختلف الطبقات ليس بين الخاصة وعِلْية القوم من الرجال والنساء الحرائر فحسب، بل تعدت أولئك كلهم فانتشرت وذاعت حتى بين الاماء من النساء وبين البوابين والفراشين في المدارس ومناولي الكتب في دور العلم وغيرهم ممن يحسبون على العامة من أهل بغداد.

وقد ساعد على انتشار العلم ببغداد وبلوغه مستوى عالياً رعاية الدين الاسلامي للعلماء ومساواته لمدادهم بدماء الشهداء وترجيح مداد العلماء على دم الشهداء،واعتباره الناس موتى إلا أهل العلم فانهم أحياء. كما ساعد على ذلك رعاية الخلفاء والملوك والسلاطين وأهل الثراء للعلماء والأدباء والمتفقهين من طلاب العلم والمدارس ودور العلم فكثرت الحلقات في الجوامع يتحلق فيها الطلاب على اختلافهم حول أكابر الأساتذة ومشاهير العلماء كجامع المنصور في وسط المدينة المدورة ببغداد الغربية،وجامع المهدي بالرصافة من الجانب الشرقي من بغداد،وجامع القصر بالجانب الشرقي من بغداد أيضاً. وفي الجوامع الأخرى التي بنيت ببغداد خلال خمسة قرون منذ انشائها في سنة ١٤٥هـ الى سقوطها بيد المغول سنة ٦٥٦هـ حتى اصبح أهل بغداد فيما ذكره الخطيب البغدادي: «أرغب الناس في طلب الحديث وأشدهم حرصاً عليه وأكثرهم كتباً له». كما روى الخطيب باسناده ان الحسن بن عرفة قال: «من لم يوثقه أهل بغداد فقد سقط هم جهابذة العلم» وقال: «وأهل بغداد موصوفون بحسن المعرفة والتثبت في أخذ الحديث

وآدابه ، وشدة الورع في روايته ، اشتهر ذلك عنهم وعرفوا به ». وجاء في تأريخ ابن النجار البغدادي ان علياً أبا الحسن النصيبي أحد شيوخ الصوفية سأله أبو بكر المصري : دخلت بغداد ؟ قال نعم : قال كيف رأيت البغداديين ؟ فقال : رأيت النساء تنطق بغرائب العلوم .

وقد ظلت حلقات العلماء في المساجد تقوم بعملها العلمي ببغداد الى أن أنشئت المدارس في أطراف المساجد أو مستقلة عنها وقد سارت المدارس وحلقات المساجد جنباً الى جنب تساعدان على نشر الثقافة والمعرفة. وكانت هذه الحلقات كثيرة بحيث كان لكل عالم حلقة يتحلق فيها الطلبة حوله . وكان طلاب العلم يصحبون أساتذتهم ويحظون بالقرب منهم ، ويمشون في ركابهم، وينتفعون بمصنفاتهم، ويحضرون مجالس درسهم ونظرهم .

مدارس بغداد

انشاء المدارس المستقلة ببغداد

لقد حفلت بغداد منذ أواسط القرن الخامس الهجري بعدد كبير من المعاهد والمدارس الكبرى القائمة بذاتها ، المنفصلة عن الجوامع ، فقد ذكر ابن جبير مدارس بغداد عند زيارته لها في سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) فقال : « والمدارس بها نحو الثلاثين وهي كلها بالشرقية ، وما منها مدرسة إلا وهي يقصر القصر البديع عنها . . ولهذه المدارس أوقاف عظيمة وعقارات محبّسة ، تتصير الى الفقهاء والمدرسين فيها ، ويجرون بها على الطلبة ما يقوم بهم . ولهذه البلاد في أمر هذه المدارس والمارستانات شرف عظيم وفخر مخلد . »

وقال قطب الدين الحنفي المتوفى في حدود سنة ٩٨٨هـ يصف مدارس بغداد أيضاً : « وكانت مدارس بغداد يضرب بها المثل في ارتفاع العماد ، واتقان المهاد ، وطيب الماء ، ولطف الهواء ، ورفاهية الطلاب ، وسعة الطعام والشراب ، وغير ذلك من الأسباب . »

وكانت هذه المدارس في ازدياد مستمر منذ ذلك الحين حتى سقوط بغداد بيد المغول في سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) فقد كانت مدارسها يومئذ ثماني وثلاثين مدرسة بين مدرسة انشئت لمذهب واحد أو مشتركة بين مذهبين أو لأربعة مذاهب و(١٨) داراً للحديث .

وكان في البلاد الاسلامية علاوة على المدارس المستقلة عدد لا يحصى من دور القرآن . ودور الحديث وحلقات المساجد ، وأماكن الدراسة الأخرى كالمكاتب وهي الكتاتيب ، والدور والقصور ، والربط والزوايا ، والبيمارستانات ، ومجالس المناظرة ، ومجالس الوعظ ، ومجالس الاملاء ، والتحديث في الدكاكين والأسواق والندوات الأدبية ، ودور العلم وهي خزائن الكتب التي نطلق عليها اليوم اسم (المكتبات) . . ألخ .

ويظهر ان شمس الدين بن خلكان المتوفى في سنة ٦٨١هـ ومن بعده شمس الدين الذهبي المتوفى في سنة ٧٤٨هـ كانا يريان ان الوزير السلجوقي نظام الملك أول من أحدث المدارس في الاسلام ، وشايعهما على ذلك كثير من المؤرخين . قال ابن خلكان : « وهو أول من أنشأ المدارس فاقتدى به الناس وشرع في عمارة مدرسة ببغداد سنة سبع وخمسين

وأربعمئة » . وقال الذهبي مثل ذلك ، ولكن السبكي الشافعي رد على الشيخ الذهبي بقوله في ترجمة نظام الملك : « وشيخنا الذهبي زعم انه أول من بنى المدارس ، وليس كذلك . فقد كانت المدرسة (البيهقية) بنيسابور قبل أن يولد نظام الملك ، والمدرسة السعدية بنيسابور أيضاً بناها الأمير نصر بن سبكتكين أخو السلطان محمود لما كان والياً بنيسابور ، ومدرسة ثالثة بنيسابور بناها أبو سعيد اسماعيل بن علي بن المثنى الاستربادي الواعظ الصوفي شيخ الخطيب ، ومدرسة رابعة بنيسابور أيضاً بنيت للأستاذ أبي اسحق الاسفراييني . »

أما المقريزي فيقول : « وإنما حدث عملها بعد الأربعمئة من سني الهجرة . وأول من حفظ عنه أنه بنى مدرسة في الاسلام أهل نيسابور فبنيت بها المدرسة (البيهقية) وبنى بها أيضاً الأمير نصر بن سبكتكين مدرسة ، وبنى بها أخو السلطان محمود بن سبكتكين ، وبنى بها أيضاً المدرسة السعيدية وبنى بها أيضاً مدرسة رابعة (١) » .

وأشهر ما بني في القديم المدرسة النظامية ببغداد لأنها أول مدرسة قرر بها للفقهاء معاليم . وشرع في بنائها سنة سبع وخمسين وأربعمئة . .

وفرغت في ذي القعدة سنة تسع وخمسين واربعمئة فاقتدى الناس به حينئذ في بلاد العراق وخراسان وما وراء النهر وفي بلاد الجزيرة وديار بكر . . . . »

ان فكرة الدراسة للعلوم المختلفة في خارج المسجد كانت من الأمور التي تراود اذهان الخلفاء العباسيين ببغداد في زمن مبكر من تاريخ دولتهم فأوجدوا من أجل ذلك : دور العلم، وبيوت الحكمة لترجمة علوم الاقدمين، يدل على ذلك ما ذكره المقريزي في خططه عن المعتضد بالله الذي ولي الخلافة في أواخر القرن الثالث الهجري من سنة ٢٧٩هـ الى سنة ٢٨٩هـ لما اراد بناء قصره في الشماسية ببغداد فقد ذكر انه « استزاد في الذرع بعد ان فرغ من تقدير ما اراد فسئل عن ذلك فذكر أنه يريده ليبني فيه داراً ، ومساكن ومقاصير، يرتب في موضع رؤساءَ كل صناعة ومذهب من مذاهب العلوم النظرية والعملية ويجري عليهم الارزاق السنية ليقصد كل من اختار علماً او صناعة رئيس ما يختاره فيأخذ عنه » مما يدل على ان الخليفة المعتضد قرر اجراء الارزاق السنية لمن ذكرهم من أهل العلوم النظرية والعملية . وهذا يشير بوضوح الى ماكان يقدر لطلاب العلم من ارزاق ونفقات .

وتؤيد النصوص التاريخية الأخرى ان المدارس في الاسلام أنشئت وخصصت الجرايات لاربابها في زمن مبكر يسبق تأسيس المدرسة النظامية ببغداد بأكثر من قرن من الزمن . من ذلك ما قاله ياقوت الحموي عن مدرسة ابن حبّان البُستي (٢) التميمي وهو ابو حاتم الفقيه المتوفى فى سنة ٣٥٤هـ حيث قال عنه : « وقد كان ابو حاتم سبّل كتبه واوقفها وجمعها فى دارٍ رسمها » وقال الحافظ ابو عبد الله الحاكم : « ابو حاتم بن حبّان داره التي هي اليوم مدرسة لأصحابه ، ومسكن للغرباء الذين يقيمون بها من أهل الحديث والمتفقهة ، ولها جرايات يستنفقونها دارة ، وفيها خزانة كتبه فى يدي وصي سلمها اليه ليبذلها لمن يريد نسخ شيء منها فى الصّفةُ من غير ان يخرجها منها . . . » .

وجاء فى وفيات الأعيان ان ابا بكر محمد بن حسن بن فُورك الاصفهاني المتوفى سنة ٤٠٦هـ اقام بالعراق مدة يدرس العلم ، ثم توجه الى الري فسمعت به المبتدعة فراسله أهل نيسابور فبنى له بها مدرسة ودار . واحيا بها الله انواعاً من العلوم . كما يستدل مما ذكره ابن خلكان في ترجمة امام الحرمين المتوفى سنة ٤٧٨هـ ان المدرسة البيهقية والنظامية بنيسابور كانت فيهما مساكن للطلبة وان تلامذة امام الحرمين كانوا قريباً من أربعمئة .

---

(١) يقتضي النص أن تكون مدرسة خامسة . ويظهر ان النص الذي ذكره السبكي في ترتيب هذه المدارس أصح من النص المذكور في خطط المقريزي .

(٢) نسبة الى بست بين سجستان وغزنه وهراة .

وفى دمشق انشئت المدرسة الصادرية فى سنة ٣٩١هـ اسسها الامير شجاع الدولة صادر بن عبدالله للحنفية . كما اسس رشأ بن نظيف مقرىء دمشق (دار القرآن الرشائية) فى حدود الاربعمئة من سني الهجرة .

وقد انتشرت مدارس الفقه فى العالم الاسلامي انتشارا كبيراً يدل على ذلك ما يأتي :

١ ــ المدارس التي ذكرها المؤرخون العراقيون فى مؤلفاتهم عن مدارس بغداد والبصرة وواسط والموصل وغيرها . كابن الأثير ، وابن الساعي ، وابن النجار ، وابن الفوطي .

٢ ــ ما ذكره المقريزي عنها فى كتابه الخطط .

٣ ــ ما جاء فى ذلك الثبت الطويل الذي دونه عبد القادر النعيمي فى كتابه (الدارس فى أخبار المدارس) عن المدارس الحنفية والشافعية والحنبلية والمالكية .

٤ ــ ما جاء فى المصادر المختلفة عن مدارس بلاد المغرب وشمال افريقية ، ومدارس اليمن والحجاز ، ومدارس البلاد الاسلامية في آسية واوربة .

وتختلف المدارس من حيث مساحاتها التي شيدت فوقها غير ان تخطيطها يكاد يكون متشابهاً إذ أن المدرسة كانت بوجه عام تحتوي على :

١ ــ ساحة أو رحبة أو فناء واسع يعرف بالصحن ، تحيط به حجرات في الطابق الأسفل ، وغرفات في الطابق الأعلى . وربما كانت بعض المدارس معلقة أي في الطابق الأعلى فقط .

٢ ــ وكان لأغلب المدارس أروقة أمام الحجرات والغرفات . وقد تكون هذه الأروقة مزخرفة ومقرنصة بمختلف المقرنصات.

٣ ــ ان مخططات المداخل والأواوين في المدارس تتشابه الى حد كبير كما يلاحظ ذلك في أبواب المستنصرية والمرجانية والشرابية ببغداد ومدرسة السلطان حسن بالقاهرة ، . الخ . وهي تتشابه ايضا في الحجوم والزخرفة وفي الآزاج أي الدهاليز ، وفي الأروقة والقاعات ، وبيوت الطلبة . . الخ.

٤ ــ وفي أغلب المدارس ايوان واحد ، أو ايوانان متقابلان ، أو أربعة أواوين ، على ان عدد الأواوين في المدرسة الواحدة لا علاقة له بوجه عام بعدد المذاهب التي تدرس فيها . كما ان المدرسة ذات المذاهب الأربعة قد تكون ذات ايوانين كالمدرسة المستنصرية ببغداد، ومدرسة الملك المنصور بمكة. وقد لا يكون فيها الا ايوان واحد كالمدرسة المنصورية بمصر . وقد تكون الاواوين الاربعة في زاوية من الزوايا كزاوية زين الدين يوسف بن عدي التي اقيمت في عهد الملك المنصور (لاجين) في سنة ٦٩٧هـ وهي موجودة بالقاهرة حتى اليوم ولذلك فان وجود الايوان الواحد او الايوانين او الاواوين المتعددة في المدرسة الواحدة انما يدل على طراز معماري أو اسلوب فني في العمارة العربية والاسلامية يتجلى فيه الابتكار والتنوع وتفنن المهندس المسلم في تجميل المدارس والقصور وتزيينها .

اما زخرفة المدارس البغدادية فيمكن ان نذكر انها كانت متنوعة وكثيرة جدا فقد جاءت على شكل كتابات كوفية او نسخية وعلى شكل زخارف نباتية وهندسية وعلى صورة الفسيفساء . وبرع البغداديون في حفر الزخارف على الآجر.

ومن الزخارف البغدادية النافرة المحفورة على الآجر ببراعة ومهارة زخارف المدارس البغدادية الثلاث التي لاتزال ماثلة وهي المدرسة الشرابية والمدرسة المستنصرية والمدرسة المرجانية ، والكتابات البارزة في المدرستين الاخيرتين ، وكذلك المقرنصات التي تكثر بوجه خاص بالمدرسة الشرابية وتحت احواض المآذن القديمة ببغداد ولا تزال المقرنصات أو الزخرفة الآجرية والكتابة على الآجر مستعملة ببغداد في المساجد والمآذن والمدارس والمباني الخاصة.

مدارس بغداد في العصور العباسية

يلاحظ الباحث في مدارس بغداد ١ــ أن كثيراً منها كان على ضفة دجلة أو على مقربة منها . ٢ــ انها كانت تنسب الى منشئها وهو الغالب او الى مدرسها اذا كان مشهوراً جداً أو الى العالم الذي تنشأ له ، أو الى الموضع الذي أقيمت فيه . ٣ــ انها تطورت خلال العصور فأنشئت اما أحادية المذهب واما ثنائية أو رباعية . واليك هذه المدارس بايجاز تام مع الاشارة الى أحوالها وأنظمتها وما بقي منها وما حل محلها للوقوف على الحالة الثقافية ببغداد يومئذ :

مدرسة أبي حنيفة : أو (المدرسة الشرفية) بباب الطاق ، وقد يطلق عليها (مدرسة الحنفيين بباب الطاق) أنشأها للحنفية شرف الملك أبو سعد محمد بن منصور العميد الخوارزمي مستوفي المملكة للسلطان ألب أرسلان السلجوقي سنة ٤٥٩هـ (١٠٦٦م) عند مشهد أبي حنيفة .

قال الصفدي في ترجمة أبي طالب الزينبي الملقب نور الهدى المتوفى سنة ٥١٢هـ : « ودرس بالشرفية التي أنشأها شرف الملك بباب الطاق وانتهت اليه رياسة أصحاب الرأي ببغداد » . وقد اشتهر عدد كبير من مدرسيها .

المدرسة النظامية : أنشأها نظام الملك للشافعية أصلاً وفرعاً سنة ٤٥٧هـ وتم افتتاحها سنة ٤٥٩هـ ويكاد لا يخلو كتاب من كتب التاريخ أو الأدب أو الفقه أو التراجم أو الخطط من أخبار النظامية ببغداد ومن ذكر مدرسيها ومعيديها وفقهائها وخزانة كتبها وأوقافها . وكانت قريبة من المدرسة المستنصرية بينها وبين دار الخلافة . وقد عمرت على جزء من دار مؤنس المقتدري التي كانت على دجلة . ولا يتسع المجال لذكر شيوخها ومدرسيها لكثرتهم .

مدرسة تركان خاتون : زوجة السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي بنتها للحنفية بالجانب الشرقي .

المدرسة التاجية : نسبة الى تاج الملك أبي الغنائم المرزبان ابن خسرو مستوفي السلطان ملكشاه السلجوقي بناها للشافعية بباب أبرز ببغداد الشرقية سنة ٤٨٢هـ (١٠٨٩م) . ومن أشهر مدرسيها : فخر الاسلام أبو بكر (الشاشي) صاحب المدرسة المعروفة باسمه وأحد كبار مدرسي النظامية ببغداد . وسراج الدين النهرقلّي أقضى القضاة .

المدرسة الفخرية : أو (دار الذهب) أو (مدرسة فخر الدولة) بعقد المصطنع في المأمونية بالجانب الشرقي من بغداد وهي للشافعية . بناها الوزير فخر الدولة أبو المظفر الحسن بن هبة الله بن علي بن المطلب الكرماني البغدادي المتوفى سنة ٥٧٨هـ (١٠٨٢م) وقد بناها لأبي القاسم يحيى بن فضلان الشافعي الذي درس فيها هو وابنه من بعده أبو عبدالله محمد بن يحيى أول مدرس للمذهب الشافعي بالمدرسة المستنصرية . ويذكر ابن أبي أصيبعة انها كانت مدرسة معلقة .

ومن مدرسيها أيضاً مجد الدين أبو طاهر علي بن محمد الواسطي البغدادي الفقيه . وممن سكن (دار الذهب) أبو المعالي القاسم بن أبي الحديد المدائني وقد تولى الاعادة بها وكان قيماً بفن العربية والفقه والجدل والأصول والخلاف والحكمة والطب .

مدرسة درب القَيَّار : أو (مدرسة الحرّاني) بدرب القيار شرقي بغداد . وتعرف بـ (مدرسة ابن بكروس) وهو أبو العباس أحمد بن محمد بن بكروس الحمامي الحنبلي . بناها للحنابلة وكانت تجاور منزله . وكانت ولادته سنة اثنتين وخمسمئة ووفاته في سنة ٥٧٣هـ . ودفن بمقبرة الامام أحمد بن حنبل . وكان قد تزهد واعتزل الناس . وتردد الناس اليه فأقرأ جماعة وتفقه به جماعة .

مدرسة زُمُرّد خاتون : زوجة الخليفة المستضيء بالله وأم الخليفة الناصر لدين الله . وتعرف بـ (مدرسة الأصحاب) أي أصحاب الشافعي . وتسمى (مدرسة أم الخليفة) وسميت (بالمدرسة الغربية) أيضاً لوقوعها في الجانب الغربي من بغداد . وتوصف بـ (الميمونة) . بنتها زمرد خاتون للشافعية بالجانب الغربي عند مشهد معروف الكرخي بجوار تربتها . وكان افتتاح المدرسة في سنة ٥٨٩هـ . ويظهر انها بقيت الى عهد سليمان باشا الكبير والي بغداد .

المدرسة الثقتية : أو (مدرسة ثقة الدولة) بناها لأصحاب الشافعي وكيل الخليفة المقتفي لأمر الله ، ابو الحسن علي بن محمد الملقب ثقة الدولة المتوفى سنة ٥٤٩هـ ، وعلى دجلة تحت دار الخلافة بباب الأزج بالجانب الشرقي .

مدرسة بنفشة : وتسمى (المدرسة الشاطئية) بنتها بنفشة زوجة الخليفة المستضيء بالله للحنابلة بباب الأزج بالجانب الشرقي من بغداد سنة ٥٧٠هـ . ويذكر ابن الجوزي انها كانت داراً لنظام الدين أبي نصر بن جهير وكانت وصلت ملكيتها الى الجهة بنفشة فجعلتها مدرسة وسلمتها الى أبي جعفر ابن الصباغ وبعد أيام سلمتها لابن الجوزي فذكر فيها الدروس وحضر قاضي القضاة وحاجب الباب وفقهاء بغداد .

المدرسة الموفقية : وهي مدرسة للحنفية بنتها بنت السلطان ملكشاه السلجوقي وزوجة الخليفة المستظهر بالله ببغداد الشرقية بدرب (زاخا) على نهر دجلة . قال ابن الجوزي يذكر قتالاً جرى سنة ٥٤٣هـ ببغداد في نهر دجلة بين الأتراك وجيش الخليفة : « وكان القتال تحت مدرسة موفق » . ولعلها هي مدرسة الخاتون المستظهرية التي ذكرتها بعض المصادر التاريخية . وقد نسبت الى مملوكها الموفق بن عبدالله الخاتوني الذي دفن بالمدرسة . وذكر ابن الساعي ان موفقاً هو واقفها .

مدرسة زيرك : أو (مدرسة سوق العميد) وهي مدرسة للحنفية بالجانب الشرقي ، وكانت تقع قبالة مسجد القلعة الحالي (١) .

ويرجح ان سوق العميد كانت مما يلي « جامع المرادية » حيث كانت تقع (مدرسة زَيْرَك) وممن تولى التدريس فيها محمد بن أحمد بن عبدالجبار أبي المظفر الحنفي من أهل سمنان . ويعرف بالمشطب المتوفى سنة ٥٧٣هـ .

مدرسة ابن دينار : النهرواني الحنبلي الحسني الفقيه أو (مدرسة ابي حكيم) بباب الأزج بالجانب الشرقي وهي مدرسة للحنابلة أنشأها أبو حكيم ابراهيم بن دينار النهرواني البغدادي الملقب بالقدوة وكان يقيم بها . ولد في سنة ٤٨٠هـ وتوفي سنة ٥٥٦هـ ، ودفن قريباً من بشر الحافي .

مدرسة أبي سعد المخرمي : بباب الأزج في الجانب الشرقي بناها أبو سعد المبارك بن علي بن الحسين وهي مدرسة الشيخ عبدالقادر الجيلي . وتعرف (بالقادرية) أو بـ (مدرسة الجيلي) أو (مدرسة ابن المخرِّمي) وكانت للحنابلة . قال ابن الجوزي في حوادث سنة ٥٦١هـ : « وكان أبو سعد قد بنى مدرسة لطيفة بباب الأزج ففوضت الى عبدالقادر (الجيلي) فتكلم على الناس بلسان الوعظ وظهر له صيت بالزهد .

المدرسة التتشية : أو (مدرسة خمارتكين التُتُشي) المتوفى سنة ٥٠٨هـ بناها نجم الدين خمارتكين بمشرعة درب دينار بالجانب الشرقي من بغداد وكانت للحنفية .

---

(١) بناه الناصر لدين الله ، وعمره ابنه الظاهر ، ونقل اليه الكتب النفيسه بالخطوط المنسوبة والمصاحف الشريفة .

مدرسة ابن الابرادي : وهي مدرسة لأصحاب أحمد بن حنبل بالجانب الشرقي كانت في الأصل داراً بالبدرية لمحمد بن أحمد بن علي ابن الابرادي الفقيه الزاهد المعروف بابن الابرادي الذي توفي في ٢٢ شهر رمضان سنة ٥٣١هـ ودفن بباب أبرز .

مدرسة سعادة : وهي من المدارس المشتركة بين الحنفية والشافعية أنشأها بالجانب الشرقي الأمير عز الدين أبو الحسن سعادة الرسائلي الذي وصف بأنه كان يفصح بأكثر اللغات . أرسله الخليفة المستظهر بالله الى السلطان محمد بن ملكشاه في سنة ٤٩٥هـ وقفل من عنده بأموال عظيمة . وكانت وفاته في سنة ٥٠٠هـ (١١٠٦م) ودفن في جوار الامام أبي حنيفة . ويظهر مما ذكره ابن الجوزي ان هذه المدرسة كانت تشتمل على منارة .

المدرسة الكمالية : أو (مدرسة ابن طلحة) نسبة الى كمال الدين أبي الفتوح حمزة بن علي بن طلحة الشافعي المتوفى سنة ٥٥٦هـ (١١٦٠م) بناها مجاورة لداره بباب العامة ووقف عليها ثلث أملاكه . وتعرف بمدرسة ابن طلحة . وتسمى احياناً مدرسة « ابن الخل » وهو أحد مدرسيها .

المدرسة الغياثية : نسبة الى الملك غياث الدين مسعود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي وقد تسمى (المغيثية) التي تنسب الى أخيه مغيث الدين محمود بن محمد بن ملكشاه السلجوقي . والغياثية مدرسة للحنفية بالجانب الشرقي من بغداد .

المدرسة المغيثية : تنسب الى أبي القاسم محمود بن غياث الدين محمد بن ملكشاه بن ألب أرسلان السلجوقي السلطان الذي تولى الملك بعد والده في سنة ٥١١هـ أيام الخليفة المسترشد بالله .

المدرسة الأسبابذية : أو (الأسبهذية) بالجانب الشرقي بين الدربين وذكرها ابن الدبيثي بـ (الأصفهذية) وذكرها ابن الساعي وقال عنها : انها سلمت في سنة ٦٠٤هـ الى عماد الدين أبي بكر السلامي المعروف بابن الحُبَير بعد أن انتقل من مذهب أحمد بن حنبل الى مذهب الشافعي .

المدرسة البهائية : وهي من المدارس الشافعية بنيت في الجانب الشرقي من بغداد وكانت على دجلة قريبة من النظامية ورباط الشيوخ . وكان قد استولى عليها بعض الحنفية ثم استعادها الشافعية منهم سنة ٥٦٦هـ .

المدرسة النجيبية : أو (مدرسة أبي النجيب السهروردي) بالجانب الشرقي وهو عبدالقاهر بن عبدالله البكري الصديقي الشافعي من أشهر أعيان المسلمين ولد سنة ٤٩٠ هـ بسهرورد ، وتوفي ببغداد في جمادى الآخرة سنة ٥٦٣هـ (١١٦٧م) ودفن بمدرسته ولا يزال قبره ظاهراً هناك .

مدرسة الشاشي : بقراح ظفر من بغداد الشرقية بناها للشافعية فخر الاسلام أبو بكر محمد بن أحمد بن الحسين بن عمر الشاشي الأصل الفارقي المولد البغدادي . ولد بميافارقين في المحرم سنة ٤٢٧هـ . وقدم بغداد ولازم الشيخ أبا اسحق الشيرازي وتفقه على أبي نصر ابن الصباغ وكان معيد درسه . وانتهت اليه رئاسة الشافعية . وتولى التدريس بالنظامية ببغداد من سنة ٥٠٤هـ حتى وفاته سنة ٥٠٧هـ (١١١٣م) .

مدرسة أبي شجاع : البَيّع (بهرام بن بهرام) وكانت مدرسة للحنابلة بناها بباب الأزج عند باب كلواذا ودفن فيها . ووقف قطعة من أملاكه على الفقهاء ، وسبل الخير . وكانت وفاته يوم الجمعة سادس عشر محرم من سنة ٥٢٠هـ (١١٢٦م) .

المدرسة القيصرية : وكانت على مقربة من رباط الشيخ أبي النجيب السهروردي وقد ذكرها ابن الدبيثي عندما ترجم لفخر الدين أبي عبدالله محمد بن علي بن أبي نصر في احدى مدارس الجانب الشرقي . أقام بها فخر الدين النوقاني عندما قدم الى بغداد ودرس فيها من سنة ٥٨٩هـ حتى وفاته سنة ٥٩٢هـ (١١٩٥م) .

مدرسة ابن الجوزي : أبي الفرج عبدالرحمن بن علي المتوفى سنة ٥٩٧هـ (١٢٠٠م) وهو مؤلف عدد كبير من الكتب منها : المنتظم في تأريخ الملوك والأمم . وكانت هذه المدرسة بالجانب الشرقي بدرب دينار . وجاء في حوادث سنة ٥٧٠هـ أن ابن الجوزي ابتدأ يوم الأحد ثالث المحرم من تلك السنة بالقاء الدرس في مدرسته بدرب دينار فذكر يومئذ أربعة عشر درساً في فنون العلوم .

مدرسة السلطان ملكشاه : وكانت للحنفية بناها في الجانب الشرقي ظاهر مدينة السلام وذكر ابن الجوزي ان اليزدي فوض اليه تدريس جامع السلطان مكان الشمس البغدادي .

مدرسة ابن الصقال : بالجانب الشرقي ولعلها الموفقية التي مر ذكرها .

مدرسة السلطان محمود : ولعلها المغيثية التي تنسب الى مغيث الدين محمود السلجوقي . ولمدرسة محمود هذه أخبار كثيرة في المنتظم في حوادث سنة ٥٦٦هـ وسنة ٥٦٧هـ ،

وكان ببغداد بالاضافة الى المدارس التي ذكرناها مدرستان أخريان يظهر أن التدريس قد تعطل فيهما في أواخر القرن السادس الهجري قبل مجيء ابن جبير الى بغداد سنة ٥٨٠هـ وهما :

١ ــ **مدرسة الوزير :** عون الدين يحيى بن هبيرة وكانت مدرسة للحنابلة بناها بالجانب الغربي من بغداد بمحلة باب البصرة . وذكر ابن الجوزي انها تكاملت في سنة ٥٥٧هـ (١١٦١م) وأقام فيها الوزير الفقهاء ورتب لهم الجراية .

٢ ــ **مدرسة ابن الشمحل :** وهي مدرسة للحنابلة بناها عمر بن الشمحل بالمأمونية من باب الأزج في الجانب الشرقي من بغداد . فتحت في يوم الاثنين حادي عشر ربيع الآخر سنة ٥٥٦هـ وأعطيت الى ابراهيم بن دينار وهو الشيخ أبو حكيم النهرواني فجلس فيها وأعاد له فيها ابن الجوزي . وقد سلمت هذه المدرسة لابن الجوزي بعدما درس فيها أبو حكيم النهرواني مدة شهرين وبذلك صار ابن الجوزي مدرسها .

وقد استجدت في العصر العباسي مدارس أخرى غير التي ذكرناها ومن أشهرها :

١ ــ **المدرسة الشرابية :** وهي التي أنشأها أبو الفضائل مقدم الجيوش شرف الدين اقبال الشرابي ببغداد في الجانب الشرقي في سوق السلطان . وكان المتولي لبنائها شمس الدين أبو الأزهر أحمد بن الناقد وكيل الخليفة المستنصر وشرط الواقف له النظر فيها وفي أوقافها ثم بعده الى من يلي وكالة الخلافة . وفتحت في آخر شوال من سنة ٦٢٨هـ وحضر اقبال الشرابي حفلة افتتاحها وكان يوماً مشهوداً .

٢ ــ **المدرسة المجاهدية :** نسبة الى مجاهد الدين ايبك بن عبدالله المستنصري الدواتي أمير الأمراء المعروف بالدويدار ، زوج ابنة بدر الدين لؤلؤ .

وقد قتله هولاكو سنة ٦٥٦هـ في واقعة بغداد وأنفذ رأسه الى الموصل . وقد بنى مدرسة للحنابلة سنة ٦٣٧هـ تجاه دار الدويدار الكبيرة . وكانت موجودة سنة ٦٩٢هـ ومن مدرسيها : الشيخ كمال الدين علي بن وضاح الشهراباني المتوفى سنة ٦٧٢هـ ، وصفي الدين بن عبدالحق المتوفى سنة ٧٣٩هـ وشافع بن عمر الجيلي المتوفى سنة ٧٤١هـ .

٣ و ٤ ــ المستنصرية والبشيرية ــ وسنذكرهما في جامعات بغداد .

وأما المدارس التي أنشئت بعد سقوط بغداد فمن أشهرها :

١ ـــ **مدرسة ابن الأثير :** وهي مضافة الى مجد الدين محمد بن الأثير المقتول سنة ٦٨٥هـ بناها ببغداد ودفن في تربة أعدها لنفسه .

٢ ـــ **مدرسة ابن قاضي دقوقا :** على دجلة بالجانب الشرقي من محلة باب الأزج وهي مدرسة للحنفية بناها بهاء الدين عبدالوهاب المعروف بابن قاضي دقوقا التغلبي المتوفى سنة ٦٨٨هـ . وكان قد بدأ بانشائها بباب الأزج على شاطيء دجلة أخوه فخر الدين أبو علي ابن النجيب الدقوقي التغلبي المتوفى سنة ٦٦٤هـ أحد أكابر بغداد وأعيانها ، فأتمها أخوه بهاء الدين

٣ ـــ **المدرسة العلائية الشاطئية :** أنشأها علاء الدين علي بن عبدالمؤمن بن كردمير التركستاني سنة ٦٩٣هـ على دجلة مقابل مدرسة أبي النجيب السهروردي بحضرة الجسر العتيق من مدينة السلام .

وقد وصفها ابن الفوطي بأنها كانت جميلة البنـاء شاهقة الأرجاء . وهي من مدارس الجانب الشرقي ولعلها كانت في محل « دار الضباط » اليوم .

٤ ـــ **المدرسة الغزانية او الغازانية :** نسبة الى السلطان محمود غازان بالجانب الشرقي من بغداد أنشأها بباب الظفرية خواجه رشيد الدين أبو الفضائل فضل الله بن أبي الخير بن عالي الهمذاني الطبيب الحكيم الوزير .

٥ ـــ **المدرسة الامامية البكرية :** بدرب (فراشه) بناها الملك امام الدين يحيى البكري القزويني صاحب ديوان بغداد .

٦ ـــ **المدرسة المرجانية :** أنشأها أمين الدين مرجان في عهد الشيخ أويس الجلائري سنة ٧٥٨هـ لتدريس الفقه الشافعي والفقه الحنفي . ولا تزال المدرسة قائمة حتى اليوم باسم (جامع مرجان) ببغداد الشرقية .

٧ ـــ **الأيكجية :** وتنسب الى مخدوم شاه داية السلطان الملقبة ايكجي وكانت لها مدرسة عظيمة عمرتها في سنة ٧٦٣هـ.

٨ ـــ **المدرسة الاسماعيلية :** بناها اسماعيل وزير بغداد لغياث الدين محمد ابن العاقولي المتوفى سنة ٧٩٧هـ .

٩ ـــ **المدرسة الوفائية :** نسبة الى وفاء خاتون وقد بنتها في العهد الجلايري في حدود سنة ٨٠٠هـ .

١٠و١١ **العصمتية والمسعودية :** وسنذكرهما في جامعات بغداد .

دور القرآن ببغداد

كان المسلمون الأولون يتدارسون القرآن في المساجد ، وفي دور خاصة منذ عهـد الرسول (ص) فقد ذكر الواقدي «ان عبدالله بن أم مكتوم قدم مهاجراً الى المدينة مع مصعب بن عمير رضي الله عنهما ، وقيل قدم بعد بدر بيسير فنزل دار القراء».

ويظهر ان هذه الدراسـة استمرت في المسـاجد التي أسست في البلاد التي فتحها العرب ومصروا فيها الأمصـار حتى أنشئت دور خاصة بالقرآن في حدود سنة أربعمئة للهجرة فيما ذكر الصفدي والذهبي كدار القرآن الرشائية التي أنشأها بدمشق المقرىء رشأ بن نظيف الدمشقي وكان قد قرأ بالروايات بمصر والعراق .

وظلت دور القرآن تخط مستقلة لوحدها ، منفصلة عن الجوامع أو في داخل المساجد الى أن أنشئت المدرسـة المستنصرية فصارت بالاضافة الى ذلك تلحق بالمدارس بوجه عام .

وفي الوقت نفسه يلاحظ ان كثيراً من دور القرآن ظلت مستقلة قائمة بذاتها حتى بعد هذا التاريخ كدار القرآن التي بباب الازج بالجانب الشرقي من بغداد . ودار القرآن الجوزية بالحربية بالجانب الغربي من بغداد ، ودار القرآن البشيرية على شاطىء دجلة بالجانب الغربي من بغداد ، ودار القرآن النيّارية التي انشأها صدر الدين النيار ، ودار القرآن الدُنبلية التي انشأها بهاء الدين الدنبلي بدار الخلافة ببغداد ، ودار القرآن بدرب القرنفلتين ، ودار القرآن الجمالية التي أنشأها جمال الدين ابن العاقولي ، ودور القرآن التي أنشئت بالمدن العراقية والبلاد الأسلامية الأخرى .

دور الحديث ببغداد

ويطلق عليها أيضاً دور السنة النبوية أو المحمدية لأن سنة الرسول وهي الحديث النبوي وأعمال الرسول (ص) وتقريراته كانت تدرس فيها .

ويظهر ان دور الحديث كانت مستقلة كدور القرآن أو مشتركة بين القرآن والحديث أو ملحقة بالمدارس .

وتعد دور الحديث من مبتكرات الشهيد نور الدين محمود بن زنكي فقد ذكر ابن الأثير أنه « أول من بنى داراً للحديث » . وذكر المقريزي ان أول من بنى داراً للحديث على وجه الأرض الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي بدمشق . وذكر ابن واصل ان نور الدين « بنى بدمشق داراً للحديث وأوقف عليها وقوفاً كثيرة ، وهو أول من بنى داراً للحديث فيما سمعناه » . وأنشأ الملك الكامل ناصر الدين محمد بن عبد الملك العادل أبي بكر بن شادي بن مروان بالقاهرة في سنة ٦٢٢هـ (المدرسة الكاملية) وهي دار عملت للحديث أيضاً . »

ويظهر ان دور الحديث كانت تشترك أحياناً مع دور القرآن فتبنى دور مشتركة للقرآن والحديث معاً وتكون مستقلة عن مدارس الفقه أو تجعل في المساجد كما في مسجد قمرية بالجانب الغربي من بغداد .

وظلت دور الحديث على هذا النحو الى أن أنشئت المستنصرية حيث صارت دور الحديث على الأغلب تلحق بمدارس الفقه الى جانب مدارس الطب ودور القرآن أسوة بالمستنصرية .

وينبغي أن يلاحظ في الوقت ذاته ان كثيراً من دور الحديث ظلت تؤسس مستقلة حتى بعد هذا التأريخ ، كدار حديث منبج ، ودار السنة النورية بالموصل ، ودار الحديث المهاجرية بسكة ابن نجيح بالموصل أيضاً .

واستمرت دور القرآن ودور الحديث مشتركة تقوم بمهمتها العلمية كما كان الحال في مسجد قمرية . على اننا نجد بعض المؤسسات الدينية التي أنشئت لتجمع بين دراسة القرآن والحديث والفقه كدار الحديث السهلية بحلب فقد كانت مسجداً ، وداراً للقرآن ، والحديث النبوي ومدرسة للعلم على مذهب أبي حنيفة . . . ألخ

مدارس الطب ببغداد

لقد ظل الطب يدرس في المساجد والبيمارستانات والمدارس الطبية المستقلة الى أن أسس المستنصر المدرسة المستنصرية فجعل لدراسة الطب صُفَّة خاصة للطبيب وطلابه تقع قبالة باب المدرسة عرفت بمارستان المستنصرية مما لم نجد لذلك مثيلاً في المدارس الأخرى التي عاصرتها أو التي بنيت قبلها . وسنذكر بعض التفصيلات عن مدرسة الطب المستنصرية في البحث الذي خصصناه لمستشفيات بغداد .

جامعات بغداد

يمكننا ان نطلق لفظة « الجامعة » على آخر مرحلة وصلت اليها الدراسة عند المسلمين فى القرون الوسطى ، اذا أردنا بالجامعة المؤسسة العلمية التي تحتوي على عدد من الكليات والمعاهد والأقسام العلمية بهيآتها الخاصة بها ، ووسائل ايضاحها وأموالها المرصدة لها ، وما تقوم به من بحوث وتحريات في مختلف ميادين المعرفة النظرية والعملية ، الى جانب العرف الجامعي والتقاليد التي كانت تأخذ بها .

وقد ثبت لنا بعد البحث والاستقصاء أن المدارس الاسلامية قد مرت بعدة مراحل فقد ابتدأت اولا بحلقات في المساجد انبثت في زواياها وعند اساطينها دون أن يكون لها مكان معين فيها .

وبعد عدة قرون أخذت الدراسة تنتشر في خارج المساجد أيضا في أماكن اطلقنا عليها : المدارس المستقلة لأنها استقلت عن المساجد وأصبح في كل منها مسجد تابع لها بعد أن كانت تابعة للمسجد . وكانت هذه المدارس تدرس مذهباً أو علما واحداً « وهي المدارس الأحادية » واصبح بعضها يدرس علمين أو مذهبين وهي المدارس الثنائية . أما المدارس التي كانت تدرس ثلاثة مذاهب فقهية فكانت نادرة جداً وقد أطلقنا عليها المدارس الثلاثية .

وقد ظلت المدارس الاسلامية بأسرها تسير على هذا المنوال نحو ثلاثة قرون منذ منتصف القرن الرابع الهجري حتى نهاية الربع الأول من القرن السابع الهجري عندما شرع ببناء المستنصرية ببغداد سنة ٦٢٥هـ على المذاهب الأربعة لأول مرة في التاريخ . وقد جعلت فيها أقسام علمية مختلفة هي بمثابة الكليات والمعاهد والمدارس التي تتكون منها الجامعات . وكان لأكثر هذه المدارس والأقسام العلمية بنايات خاصة بها كما كان لبعضها أجنحة أو أروقة تذكر فيها الدروس ، وبيوت يسكنها الطلبة ، وخزائن كبيرة للكتب ، ومخازن واسعة للمواد المختلفة من النقد والعين والأدوية والعقاقير .

وقد ثبت لنا أيضاً بعد تحرياتنا فيما أنشأه المسلمون في بلادهم الواسعة من معاهد للعلم ومن مدارس أحادية وثنائية وثلاثية ورباعية ومن دور القرآن ، ودور الحديث ، ودور العلم ومدارس للطب . . . ألخ ، ان « المستنصرية ببغداد » : كانت أول جامعة عراقية بل أول جامعة اسلامية في العالم الاسلامي . كما تبين لنا من دراسة الجامعات الأوربية في القرنين الثاني عشر والثالث عشر الميلاديين وما بعدهما انها قد سبقت كل تلك الجامعات الأوربية أيضاً .

ويظهر ان المستنصرية ببغداد اصبحت قدوة لمؤسسي المدارس من الرجال والنساء ليس في العراق فحسب ، بل في مصر والشام والحجاز حيث شرعوا يبنون مدارسهم على صفتها من حيث الدراسة على المذاهب الأربعة . أو احتواؤها على دروس للطب والتفسير والحديث والعربية وعلى مخازن ودور للكتب ، وعلى بقية المرافق الأخرى . وربما نافسوها في الريازة فبنوها على غرارها من حيث هندسة البناء والزخرفة واحتواؤها على الأواوين كما سيتضح ذلك في شروحنا للمدارس الرباعية التي بنيت على صفتها .

ولما كانت بغداد قد سبقت جميع البلاد العربية والاسلامية وسنت لها بناء المدارس الرباعية على المذاهب الأربعة فقد تتبعنا أخبار المدارس في البلاد الاسلامية التي انتشرت فيها المذاهب الفقهية فوجدنا ان بغداد احتوت على أربع جامعات . كما وجدنا ان مصر أول بلد عربي حذا حذو بغداد حيث أنشئت فيه أول مدرسة على المذاهب الأربعة بعد عشر سنوات من افتتاح المستنصرية . وتكاثرت هذه المدارس بالقاهرة حتى اننا عثرنا على أخبار سبع جامعات فيها .

وكانت حلب البلد العـربي الثالث الذي أنشئت فيه مدرسة واحدة على المذاهب الأربعة بعد مضي أكثر من قرن من الزمن على افتتـاح المستنصرية .

وكانت مكة البلد العـربي الرابع الذي أنشئت فيـه ثلاث مدارس رباعيـة في القرن التاسع الهجري. واليك بعض المعلومات المفصلة عن أول جامعة ببغداد مع نبذة يسيرة عن المدارس الرباعية التي أنشئت على صفتها للمذاهب الأربعة :

١ ــ المستنصرية ٦٢٥هـ ــ ٦٣١هـ

لقد أنشئت المستنصرية ببغداد في أواخر الدولة العباسية . وأفتتحت قبل سقوط بغداد بيـد المغول بربع قرن وظلت الدراســة مزدهرة فيها أيام حكم المغول نحو قرن ونصف القرن . وهي أول جامعة في العـالم الاسلامي عنيت بدراسة علوم القرآن ، والسنة النبوية ، والمذاهب الفقهية وعلوم العربية ، والرياضيات ، وقسـمة الفرائض والتركات ، ومنافع الحيـوان ، وعلم الطب ، وحفظ قوام الصحة ، وتقويم الأبدان في آن . كمـا انهـا أول جـامعة اسلامية جمعت فيها الدراسات الفقهية على المذاهب الاسلامية الأربعة الحنفي ، والشافعي ، والحنبلي ، والمالكي ، في بناية واحدة هي مدرســة الفقـه .

ويتبين لنا من دراسـة أحوال المدارس الاسلاميـة ان الخليفة المستنصر بالله ٦٢٣ــ ٦٤٠هـ (١٢٢٦ ــ ١٢٤٢م) أول من ابتكر فكرة جمع المذاهب الفقهية الأربعة في بناية واحدة كما أشـارت الى ذلك جميع المراجع العربيـة المعتبرة ، وأيدتها الكتابة الآجرية (١) التي ثبتها المستنصر على باب المدرسة الرئيس ، وقد جاء فيها : « وأمر أن تجعـل مدرسة للفقهاء على المذاهب الأربعة ». وكان لا يقبل في غيرها من المدارس المختلفة إلا أبناء الطوائف التي بنيت المدارس من أجلهم . فقد ذكر ابن الجوزي عن النظامية مثلاً انها « وقف على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً » . أما الأملاك الموقوفة عليها فقد « شرط فيها أن تكون على أصحاب الشافعي أصلاً وفرعاً » أيضاً . كما شرط مثل ذلك في « المدرس الذي يكون بها ، والواعظ الذي يعظ بها ، ومتولي الكتب » . ولذلك فأن المستنصرية تميزت على سائر المدارس المعاصرة لها ، والتي سبقتها بجمع المذاهب الأربعة فيها لأول مرة . كما امتازت بوجود بناية خاصـة للطب (٢) ملحقة بها مما لم نجـد لذلك مثيلاً في المدارس الأخرى التي عاصرتها ، أو التي بنيت قبلها . كالنظامية ، والتاجية والكمالية . . . ألخ .

وقد جعل المستنصر لمدرسته هذه ميزة اخرى على المدارس الاسلامية. وذلك انه شرط أن يضاف الى مدرستي الفقه، والطب فيما ذكر ابن الساعي، داران أخريان لعلمين مهمين من علوم الشريعة الاسلامية، أولاهما : دار القرآن، والثانية دار السنة وبذلك يمكننا ان نقول : ان المستنصر بالله أول خليفة في العالم الاسلامي جمع في آن واحـد المذاهب الفقهية الأربعة ، وعلوم القرآن ، والسنة النبوية ، وعـــلم الطب ، والعربية والرياضيات ، والفرائض . . وجعلها في مكان واحد يتألف من مبان عديدة متصاقبة ، أومتجاورة اطلق عليها اسم (المستنصرية) بعضها باق ، وبعضها درس ، وعفّى عليه الزمن . ولم تكن المدارس قبل المستنصرية كذلك . فقد كانت مدارس الطب تبنى مستقلة عن مدارس الفقه ، أو دور الحديث ، أو دور القرآن . كالبيمارستان العضدي بالجانب الغربي من بغداد . ومدرسة الطب التي أنشأها أبو المظفر باتكين بالبصرة سنة ٦٢٩هـ في خلافة المستنصر . ومدارس الطب في دمشق ، كالمدرسة الدخوارية سـنة ٥٦٥هـ واللبودية سنة ٦٦٤هـ والربيعية سنة ٦٨٦هـ .

---

(١) كانت مديرية الآثار العامة قد نقلت هـذه الكتابة الآجرية الى متحف « القصـر العباسي » بقلعة وزارة الدفاع . وقـد أعادتها سنة ١٩٦١م الى مكانها الأول من باب المستنصرية الرئيس المطل على سوق الهرج .

(٢) لقد درس الطب في المساجد أيضاً . فقد ذكر عبداللطيف البغدادي عن نفسه انه كان يقرىء الناس الطب وغيره في الأزهر . كما درس الطب في مدارس الطب المستقلة .

أما الميزات الأخرى التي امتازت بها المدرسة المستنصرية فتظهر في امرين مهمين ابتكرهما الخليفة المستنصر بالله وهما:
أولا ـــ تعيين المشاهرات النقدية، واجراء الجرايات العينية الدارّة يومياً على أرباب المستنصرية من فقهاء (طلاب) ومدرسين، وموظفين ومستخدمين. وكانوا نحو خمسمئة شخص.

وفي هذا الصدد يقول أبو الحسين بن وهاس الخزرجي: « ان كل ذلك اختراع من الواقف رحمة الله عليه. »

ثانياً ـــ تأسيس حمام في المستنصرية رتبه المستنصر بالله لجميع أرباب المشاهرات. ويدخلون اليه متى احتاجوا. وفيه من يقوم بخدمتهم « وهو أمر لم يسبق اليه» كما يقول احمد بن عبدالله البغدادي في كتابه (عيون اخبار الاعيان).

اثر علماء المستنصرية في نشر الثقافة الاسلامية في عهد المغول

ونستطيع ان نؤكد ان علماء المستنصرية كان لهم الفضل الاكبر في نشر الثقافة الاسلامية في أحلك العصور وأشدها ظلاماً. فقد كانوا خلال فترة الحكم المغولي، أي منذ سقوط بغداد بيد هولاكو سنة ٦٥٦هـ حتى تدميرها بيد تيمورلنك سنة ٧٩٥هـ وسنة ٨٠٣هـ يحملون مشاعل العلم، وينشرون نتاج الفكر الاسلامي مدة قرن ونصف القرن. قفد ذكر المؤرخون المسلمون من بين رجالها، وعلمائها، وخزّان مكتبتها:

١ ـــ آل العاقولي الثلاثة: جمال الدين، وابنه محيي الدين، وحفيده غياث الدين الذين ينتمون الى العرب اللخميين، والذين كانوا كبراء بغداد انتهت اليهم الرئاسة بها في مشيخة العلم والتدريس ورواية الحديث في العراق بل في الدنيا.

٢ ـــ آل الجوزي الذين ينتمون الى سلالة ابي بكر الصديق. وكان لاثنين منهم الفضل الكبير في التدريس بالمستنصرية وهما: محيي الدين ابن الجوزي، وابنه جمال الدين ابو الفرج ابن الجوزي وقد قتلا مع بقية آل الجوزي صبراً بسيف التتر سنة ٦٥٦هـ.

٣ ـــ والمؤرخين الذين لمعت اسماؤهم في تدوين تاريخ العراق بوجه خاص تدويناً مفصلا وهم: ابو الحسن القطيعي، وابن النجار (وكان من محاسن الدنيا) وابن الساعي، وابن الفوطي الشيباني والدهلي ... الخ.

٤ ـــ والفقهاء الذين لا يحصون كابن السباك الحنفي وهو الذي اطلق عليه (لقب استاذ) وقد انتهت اليه الرياسة بالمستنصرية. والزريراني الذي انتهت اليه معرفة الفقه في العراق بل هو فقيه العراق، ومفتي الآفاق كما يقولون. وكانوا لا يفارقون الاشتغال ابداً. ولهم اليد الطولى في البحث والمناظرات.

ومنهم من تولى الولايات الجليلة، والتدريس في المدارس البغدادية المختلفة، والنظر في الوقوف العامة وأوقاف المدارس والأربطة، والمارستانات، وديوان الجوالي. كما كان يحضر دروسهم الأئمة، والعلماء، والأكابر، والرؤساء.

٥ ـــ وكان من بين فقهائها المدرسين جغرافيون مشهورون كعبد المؤمن بن عبد الحق الذي ينسب اليه كتاب مراصد الاطلاع العظيم.

٦ ـــ ومنهم أطباء مشهورون كانوا ماهرين في الطب ولهم فيه مصنفات قيمة كشمس الدين ابن الصباغ وربيبه مجد الدين المعروف بسنجر، وعلاء الدين الاربلي الكتبي الشافعي، والبرزبي الذي كان رأساً في الطب. وقد وصف في الطب ما يستعمله الانسان ...

٧ ـــ ورياضيون، وفرضيون كقمر الدين الحاسب الرياضي الفرضي. وصفي الدين بن عبد الحق وكان إماما في علم الفرائض والجبر والمقابلة والهندسة والمساحة.

ومهندسون كهبة الله الذهلي الشهرباني المهندس. وغيرهم ممن ظهرت فضائلهم في (العقليات).

٨ ـــ ومقرئون ووعاظ ومفسرون أسندت اليهم مشيخة دار القرآن في المستنصرية كفخر الدين البعقوبي، وابن المريمي، وابن الدامغاني وغيرهم من شيوخ المقرئين، وعلماء القراءآت الذين كانوا بصيرين في شواذها وعللها. ومنهم من كان وحيد عصره في الوعظ والتفسير كابن عكبر العكبري.

٩ ــ ومنهم شعراء ، وقصصيون اشتهروا بأدبهم وشعرهم ، ومقاماتهم كعماد الدين البغدادي وابن القصاب ، وجمال الدين ابن الجوزي ، ووحيد الدين القيرواني ، وابن الصيقل الجزري ، وغياث الدين العاقولي ، وقوام الدين ابن الجوزي ، وجمال الدين البابصري ، وصفي الدين الأرموي البغدادي ، وشمس الدين الكوفي ، وابن مزروع المضري ، ونجم الدين الواسطي ، وتقي الدين الدقوقي ، وابن السبّاك الذي تفرد بالعلوم الأدبية ، ونظم شعراً تجاوز حد الشِّعْرَى.

١٠ ــ ومنهم نحويون انتهت اليهم مشيخة الأدب العربي كابن الانصاري الخزرجي ، وابن القواس الموصلي ، والذهلي الشهراباني الأديب ، وابن الصيقل الجزري وابن الفصيح الكوفي شيخ نحاة بغداد ، وابن اياز وذي الفقار القرشي . . ألخ .

١١ ــ ومنهم مفتون أصدروا الفتاوى والأقضية والأحكام كنور الدين العبدلياني الذي كان يلقب (ملك الموت) وابن مقبل الواسطي ، والمحب بن نصر الله البغدادي ، وجمال الدين العاقولي الذي درس بالمستنصرية نحواً من خمسين سنة . وأفتى سبعين سنة أو أكثر ، وكان قد أعطي حظاً في الفتوى لو كتب على الفتوى جميع من في العراق لم يلتفت إلا الى خطه .

١٢ ــ ومنهم خطاطون كتبوا بالخط المنسوب الى ابن البواب وابن مقلة وغيرهما ، وخلفوا كثيراً من الكتب بخطهم الجميل كمحمود الزنجاني ، وياقوت المستعصمي ، وصفي الدين بن فاخر الأرموي البغدادي، وصفي الدين بن عبدالحق ، وابن وضاح الشهراباني ، وابن الجحيش ، وتاج ابن السباك الذي كان خطه رياضاً مونقة ما يرضى أن يكون ياقوت فصاً في خاتمه .

١٣ ــ ومنهم من لبس لباس الفتوة كعبدالله الشارمساحي (١) مدرس المالكية فيها ، وعبدالرحمن التكريتي الناظر الأول في مصالح المستنصرية .

١٤ ــ ومن مدرسيها محتسبون تولوا الحسبة بجانبي بغداد كابن فضلان ومحيي الدين ابن الجوزي وابنه جمال الدين ، وحفيده قوام الدين ابن الجوزي ، وجمال الدين ابن العاقولي .

١٥ ــ ومنهم قضاة تولوا القضاء فيها أو في بعص الأقطار الاسلامية كشرف الدين بن عسكر . كما تولى عدد منهم قضاء القضاة أيضاً أمثال : محمود الزنجاني وكان أعلم الناس بمعرفة القضاء ، وابن مقبل الواسطي ، وابن اللمغاني. وعزالدين النيلي .

١٦ ــ ومن رجال المستنصرية خزان عظماء عُنوا بخزن الكتب ، وتنظيمها وفهرستها في دار الكتب المستنصرية وكان لهم فضل كبير في نشر العلم ، والتأليف ، والاستنساخ والتوريق بخطوطهم الحسنة المضبوطة ، أمثال : شمس الدين علي ابن الكتبي ، وعبدالعزيز بن دلف الناسخ ، وابنه ضياء الدين أحمد ، وابن الحظيري ، وابن الساعي الخازن ، ومحيي الدين المخزومي ، وياقوت المستعصمي وابن الفوطي وغيرهم .

١٧ ــ وكان منهم سفراء بين المستنصر بالله وبين الملوك والأمراء ، فقد أرسل المستنصر محيي الدين بن فضلان برسالة الى ملك الروم . وأرسل محيي الدين يوسف ابن الجوزي الى ملك الروم أيضاً وكان حاصر مدينة آمد ، فأخرج له ابن الجوزي خط الخليفة بقلمه وتلا قوله تعالى « كتاب أنزلناه اليك مباركاً ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب » وقبله وسلمه اليه . فقام ملك الروم ووضعه على عينيه ورأسه وقرأه . وأمر في الحال بالكف عن القتال ، والرحيل عن البلد.

١٨ ــ وقد ترك هؤلاء العلماء كافة عدداً كبيراً من المؤلفات القيمة ، منها المطبوع ، ومنها ما لا يزال مخطوطاً في أمهات المكتبات العالمية ، ومنها ما لم يبق إلا اسماؤها ، أو ما نقل منها .

---

(١) شارمساح : بلدة من نواحي دمياط بمصر .

١٩ ـــ وقد رحل بعض علماء المستنصرية رحلات طويلة للتحري والبحث عن الحقائق العلمية ، في الاقطار العربية والاسلامية . كرحلة ابن فضلان ، وابن النجار وغيرهما . كما قصد هذه الجامعة عدد كبير من العلماء والأدباء والكتاب والمؤلفين من البلاد الاسلامية النائية للدرس والتدريس فيها . وقد حدث كثير من رجالها في أغلب البلاد الاسلامية ودرّسوا في مدارسها .

٢٠ ـــ وكان لكثير من النساء العالمات فضل كبير على رجال المستنصرية فقد درسوا عليهن ، وحصلوا على الاجازات العلمية منهن ، كما كان لمدرسيها فضل عليهن إذ درسن عليهم ، ونلن الاجازات منهم .

٢١ ـــ ونستطيع أن نذكر ، ان من بين المدرسين علماء أحراراً كانت لهم آراؤهم الخاصة بهم فلم يقلدوا غيرهم من العلماء . وكانوا يقولون : إن المشايخ قبلنا كانوا رجالاً ، ونحن رجال . أمثال : محمود الزنجابي الشافعي ، وقاضي القضاة ابن اللمغاني الحنفي ، وسراج الدين الشارمساحي المالكي . . وكان كثير من علماء المستنصرية من ذوي المكانة العالية لا يغشون الأكابر ، ولا يخالطونهم . وكان من علمائها من يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر ويواجه الكبراء بما يكرهون.

٢٢ ـــ ويمكننا أن نذكر من بين علماء المستنصرية من أوذي ، ومن أسر في وقعة بغداد ، وذهبت مؤلفاتهم ، واثباتهم ، واجازاتهم ، ومن نفي أو اعتقل وسجن ، أو هرب من بغداد في أثناء الفتن والاضطرابات أمثال : ابن المحيا العباسي ، وابن وضاح الشهراباني، وابن عكبر العكبري ، والبلالي الأموي، وغياث الدين ابن العاقولي ، وقوام الدين ابن الجوزي ، ونجم الدين خواجه إمام ، والمحب بن نصر الله البغدادي ، وأبيه نصر الله ،وابن الفوطي . . .

٢٣ ـــ كما يمكننا أن نذكر من بين علمائها وفقهائها الذين استشهدوا في واقعة بغداد سنة ٦٥٦هـ صبراً بسيف التتر وهم يذودون عن دينهم وبلادهم، كلاً من :كمال الدين الحموي ، وعلي ابن النيار ، ومحيي‌الدين ابن الجوزي، وابنه جمال الدين ابن الجوزي ، ومحمود الزنجابي ، وابن القصاب البغدادي ، وابن البديع التكريتي ، وفخر الدين الآمدي . . .

٢ ـــ البشـــيرية
٦٤٩ ـــ ٦٥٣/٦/١٣هـ

كانت تقع قرب مشهد الشيخ معروف بالجانب الغربي من بغداد . وقد شرعت ببنائها زوجة المستعصم المعروفة بـ « باب بشير » (١) في سنة ٦٤٩هـ وجعلتها على المذاهب الأربعة على قاعدة المستنصرية .وفتحت يوم الخميس الثالث عشر من جمادى الآخرة سنة ٦٥٣هـ وحضر الخليفة المستعصم وأولاده فجلسوا في وسطها .

٣ ـــ العصمتيـــة

وفي سنة ٦٧١هـ (١٢٧٢م) تم ببغداد بناء المدرسة العصمتية بالمحلة المعروفة بـ « مشهد عبيد الله » أي بعد الغزو المغولي لبغداد بخمس عشرة سنة . أمرت بانشائها في ظاهر بغداد بجوار مشهد عبيد الله بن عمر العلوي السيدة

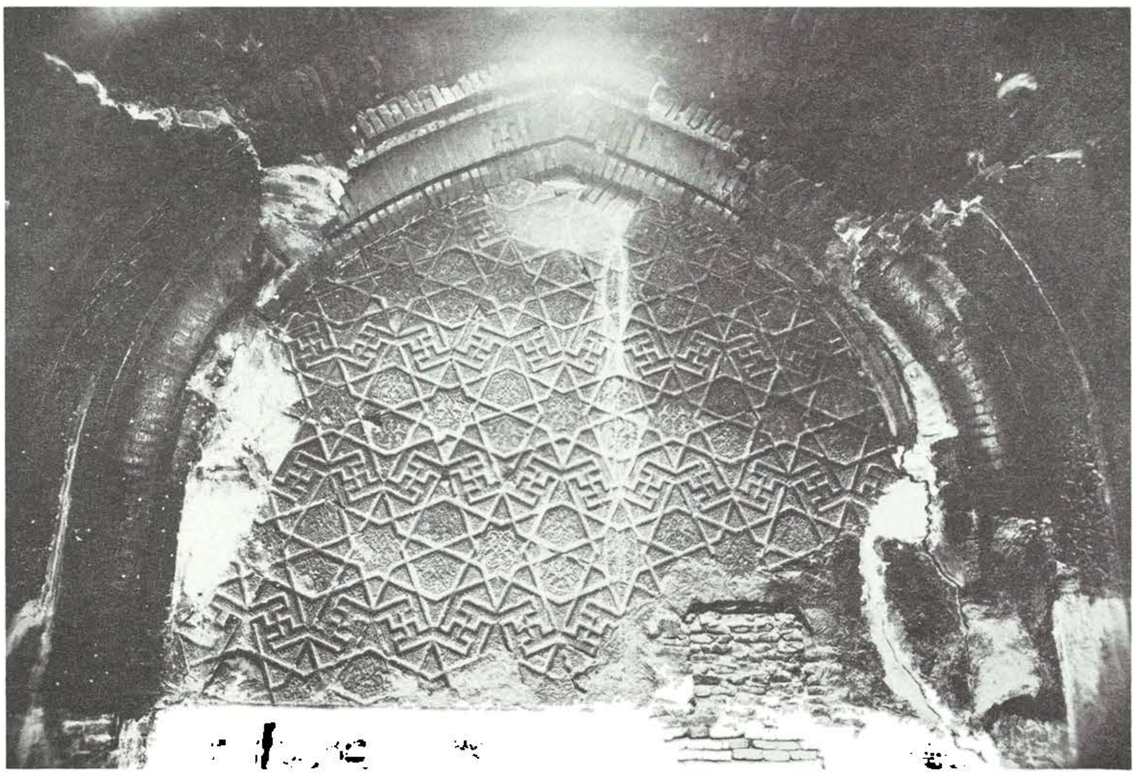
---

(١) « باب بشير » هي أم ولد المستعصم الأمير أبي نصر محمد . وقد دفنت « باب بشير » تحت القبة التي أعدتها بجانب المدرسة كما دفن ابنها محمد عندها . وقد ورد في تلخيص مجمع الآداب ، وفي الحوادث الجامعة ، وفي كتاب السلوك مصطلحات خاصة يكنى بها نساء الخلفاء أو بناتهم كقولهم « باب جوهر » وهي الست النبوية خديجة بنت المستعصم و« باب عنبر » بنت المستنصر . والجهة أو الجهة الصالحة ، والستر الرفيع والحجاب المنيع ، والستر الأشرف والجناب الأرأف .

« شمس الضحى » شاه لبنى بنت عبدالخالق بن ملكشاه ابن السلطان صلاح الدين الأيوبي وهي أم رابعة العباسية حفيدة المستعصم وقد وقفتها على الطوائف الأربع ،وتقع المدرسة بجوار التربة التي دفنت فيها شمس الضحى سنة ٦٨٨هـ أي في المقبرة المعروفة اليوم بـ «أبو رابعة» أو « أم رابعة » في الجنوب الشرقي من ضريح الامام أبي حنيفة في الأعظمية . وكانت المحلة التي تحيط بالمقبرة تلولاً وبساتين تمتد من شارع الامام الأعظم غرباً حتى شارع عمر بن عبدالعزيز شرقاً وظلت كذلك حتى سنة ١٩٣٠ حيث أزيلت التلول وقسمت البساتين الى دور وقصور ولم يبق في تلك المنطقة إلا الضريح المعروف بقبر أم رابعة . ولما توفيت ابنتها رابعة المعروفة بست الكرام حفيدة المستعصم سنة ٦٨٥هـ دفنت في تربة والدتها .

٤ ـ المسعودية

وتنسب الى خواجه مسعود بن سديد الدولة وهو من أكابر بغداد وكان أبوه يلقب سديد الدولة وكان يهودياً ثم أسلم . ومما روي في إسلامه ما ذكره المقريزي وهو انه مر بقارىء يقرأ القرآن فسمعه وخشع قلبه فأسلم . وقد عمر ابنه مسعود الشافعي مدرسة في غاية الحسن وجعلها وقفاً على المذاهب الأربعة على صفة المستنصرية وأوقف عليها أوقافاً كثيرة وأنشأ فيها دار كتب أكثر كتبها بخطه . وكان خطه حسناً . وكتب على جدرانها بخطه وكتب اسمه بما نصه : « وكتبه مسعود بن منصور بن أبي هارون الهاروني نسباً ، الشافعي مذهباً »



إيوان دار القرآن بالمدرسة المستنصرية تظهر فيه الزخارف الأجرية وفيها علامة الصليب المعقوف وهي من مزايا الزخرفة الاسلامية التي ما زالت في أكثر جوامع بغداد ودورها . . وقد رممته مديرية الآثار العامة وأعادت زخرفة الأقسام التي تساقطت زخارفها . والصورة تمثل صدر الايوان ويلاحظ فيها نجوم وأشكال هندسية في غاية الدقة والاتقان . وهذا الايوان هو الجزء الوحيد الباقي ، من دار القرآن التي وصفت بأنها لم ير مثلها في المباني الاسلامية ولا يستطيع أحد أن يدرك وصفها .

خزائن الكتب البغدادية

لقد حفلت بغداد في العصر العباسي بعدد كبير من خزائن الكتب ودور العلم التي كانت تنشـأ مستقلة ، أو في المساجد أو المدارس أو الربط أو المنازل أو في قصور الخلفاء والملوك والأمراء والوزراء وبيوت العلماء والأدباء والكتاب والمدرسين . وقد ذكر ابن سعيد أبوالحسن علي الغرناطي (٣٦) مكتبة ببغداد وكان قد التقى بأكابر العلماء واطلع على أفضل الكتب وحج سنة ٦٣٨هـ ورحل الى الشام وأقام بالموصل وبغداد والبصرة (١) وكان لهذه الخزائن انظمة خاصة بالخزان والمشرفين والمناولين وادارة الاوقاف والمطالعة والاعارة والاستنساخ وابتياع الكتب وتجليدها وتزويقها ونقشها وتحليتها. والاعتماد على النساخ الحذاق في صناعة النسخ ، والمهرة في الضبط والاجادة في التجليد .

ولعل بغداد لم تنافسها مدينه إسلامية أخرى في كثرة كتبها ومكتباتها لأنها أولى المدن التي أنشئت فيها الخزائن ودور العلم، ولأن إنشاءها كان في إبان ازدهار الحضارة العربية في البلاد الاسلامية، ولم ينافسها فيما بعد إلا قرطبة في الأندلس في خلافة الأمويين ، والقاهرة في خلافة الفاطميين . فقد ذكر القلقشندي خزائن الكتب المشهورة فقال : « قد كان للخلفاء والملوك في القديم بها مزيد اهتمام ، وكمال اعتناء حتى حصلوا منها على العدد الجم وحصلوا على الخزائن الجليلة . ويقال : ان أعظم خزائن الكتب في الاسلام ثلاث خزائن :

إحداها ــ خزانة الخلفاء العباسيين ببغداد فكان فيها من الكتب ما لا يحصى كثرة ولا يقوم عليه نفاسة ولم تزل على ذلك الى أن دهمت التتر بغداد ، وقتل ملكهم هولاكو المستعصم آخر خلفائهم ببغداد فذهبت خزانة الكتب فيما ذهب ،وذهبت معالمها وعفيت آثارها .

الثانية ــ خزانة الفاطميين بمصر ، وكانت من أعظم الخزائن ، واكثرها جمعاً للكتب النفيسة من جميع العلوم . . ولم تزل على ذلك الى ان انقرضت دولتهم بموت العاضد آخر خلفائهم واستيلاء السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب على المملكة بعدهم ، فاشترى القاضي الفاضل أكثر كتب هذه الخزانة ووقفها بمدرسته الفاضلية بدرب ملوخيا بالقاهرة فبقيت فيها الى أن استولت عليها الأيدي فلم يبق منها إلا القليل .

الثالثة ــ خزانة خلفاء بني أمية بالأندلس ، وكانت من أجل خزائن الكتب ايضا ولم تزل الى انقـراض دولتهم باستيلاء ملوك الطوائف على الاندلس فذهبت كتبها كل مذهب » .

ويمكننا أن نذكر أن مساجد بغداد زخرت بالكتب وحلقات التدريس كما يمكننا أن نقول : ان أكثر الخلفاء

---

(١) ولد ابن سعيد بغرناطة سنة ٦١٠هـ كما ذكر المقريزي ، وتنقل من المغرب الاقصى على المحيط الاطلسي الى الخليج العربي وحج سنة ٦٣٨هـ وبقي بالقاهرة(بعد وفاة أبيه بالاسكندرية سنة ٦٤٠هـ)حتى سنة ٦٤٨هـ ورحل الى الشام واقام بالموصل وبغداد والبصرة ثم رحل الى حلب بصحبة ابن النديم . وحج مرة اخرى . وكان بتونس سنة ٦٥٢هـ وفي سنة ٦٦٦هـ بالاسكندرية ، وحلب فأرمينية وتوفي سنة ٦٧٣هـ بدمشق على رواية . وفي رواية أخرى ان وفاته كانت بتونس في سنة ٦٨٥هـ .

العباسيين كَلِفوا بجمع الكتب وبناء الخزانات الخاصة وفي الوقت نفسه يمكننا أن نذكر كثيراً من خزائن المدارس ومكتبات الاشخاص التي زخرت بعشرات الالوف من الكتب وبخاصة خزائن المدارس حيث صار مؤسسوها ينقلون اليها الكتب من خزائنهم الخاصة لأن المدارس التي ابتنوها كانت أمسَّ اليها .

ومن أشهر هذه الخزائن :

١ ــ خزانة الحكمة أو (بيت الحكمة) أو (دار الحكمة) وهي خزانة الرشيد والمأمون . وكان فيها خزان وكتاب ومترجمون مشهورون أمثال : بني موسى بن شاكر المنجم وهم ثلاثة أخوة : محمد وأحمد والحسن . ثم يحيى بن أبي منصور المنجم المأموني ، ومحمد بن موسى الخوارزمي ، وسعيد بن هارون الكاتب ، وحنين بن اسحاق العبادي ، وابنه اسحق ، وابن اخته حبيش بن الحسن الأعسم ، وثابت بن قرة ، وعمر بن الفَرّخان الطبري .

٢ ــ خزانة عضد الدولة البويهي المتوفى سنة ٣٧٢هـ ويصفها المقدسي بأنها : أزج طويل في صُفةً كبيرة فيه خزائن من كل وجه . وقد ألصق الى جميع حيطان الأزج والخزائن بيوتاً طولها قامة في عرض ثلاثة أذرع من الخشب المزوق عليها أبواب تنحدر من فوق . والدفاتر منضدة على الرفوف لكل نوع بيوت وفهرستات فيها أسامي الكتب لا يدخلها إلا وجيــه .

٣ ــ خزانة الوزير أبي نصر سابور بن أردشير. ذكر ابن الجوزي في حوادث سنة ٣٧٣هـ وفي سنة ٤١٦هـ أن أبا نصر ابتاع في سنة ٣٨١هـ داراً بالكرخ بين السورين وعمرها وبيضها وسماها « دار العلم » وحمل اليها كتب العلم من كل فن حتى بلغت أكثر من عشرة آلاف مجلد . وعمل لها فهرستاً . ووقف عليها الوقوف . ورد النظر في أمورها ومراعاتها والاحتياط عليها الى أربعة من كبار علماء بغداد .

٤ ــ خزانة الوزير أبي منصور بن فنه : وقفها على طلاب العلم . وكان قد جمع فيها تسعة عشر ألف مجلد ما فيها إلا أصل منسوب . وفيها أربعة آلاف ورقة بخط ابن مقلة .

٥ ــ خزانة أبي الحسن محمد بن هلال الصابي وقفها في شهر رجب من سنة ٤٥٢هـ بشارع ابن أبي عوف من غربي مدينة السلام ونقل اليها نحو ألف كتاب .

٦ ــ خزانة الناصر لدين الله العباسي : ويظهر أنها كانت خزانة عظيمة نقل عدداً كبيراً من كتبها الى خزانة دار المسناة ، والى الرباط الخاتوني السلجوقي ، والى المدرسة النظامية .

٧ ــ خزانة المستنصر بالله : وهي الخزانة التي نقل منها فيما ذكره المؤرخون نحو ثمانين ألف كتاب الى خزانة المستنصرية . ومن أشهر خزانها مدرس النظامية القاضي أبو محمد عبدالله البادرائي ، وضياء الدين أحمد بن عبدالعزيز بن دلف الناسخ .

٨ ــ خزانة المستعصم : وكانت تتكون من خزانتين متقابلتين أختير لهما كاتبان هما : الشيخ زكي الدين عبدالله بن حبيب ، وصفي الدين الأرموي أحــد فقهاء الشافعية بالمستنصرية . وقد سلمت الخزانة الأولى الى شيخ المستعصم العدل شمس الدين علي بن النيار ناظر المستنصرية وسلمت الخزانة الثانية الى صفي الدين الأرموي .

ومن أشهر خزائن الأشخاص :

١ ــ خزانة ابن النديم صاحب الفهرست
٢ ــ خزانة الشريف الرضي صاحب (دار العلم)
٣ ــ خزانة الشريف المرتضى
٤ ــ خزانة أبي بكر الخطيب البغدادي
٥ ــ خزانة ابن التلميذ
٦ ــ خزانة ابن الجوزي البكري
٧ ــ خزانة ابن المارستانية البكري التيمي
٨ ــ خزانة ابن البرفطي الأنصاري
٩ ــ خزانة ابن النجار المؤرخ شيخ الحديث بالمستنصرية
١٠ ــ خزانة صفي الدين عبدالمؤمن ابن عبدالحق الحنبلي مدرس المستنصرية . . . ألخ .

أما خزائن المدارس المشهورة فيمكننا أن نذكر منها على سبيل المثال ما يأتي :
١ ـ خزانة مدرسة أبي حنيفة التي انشئت سنة ٤٥٩هـ . ووقفت فيها كتب كثيرة قيمة . وكان فيها أكثر مؤلفات الجاحظ. وكان من واجبات المدرس في مدرسة أبي حنيفة أن يثبت ما بخزانة الكتب من المجلدات وغيرها معارضا ذلك بفهرسته ، متطلباً ما عساه قد شذ منها ، وان يأمر خازنها بعد استصلاحه ، بمراعاتها ونفضها في كل وقت . ومرمة شعثها وان لا يخرج شيئاً منها إلا إلى ذي أمانة ، مستظهراً بالرهن عن ذلك .
٢ ـ خزانة المدرسة النظامية . وقد افتتحت سنة ٤٥٩هـ وكان لها خزان ومشرفون حفلت بأخبارهم كتب التراجم. وقد جمع فيها نظام الملك مختلف الكتب ، كما ان الخليفة الناصر لدين الله امر بعمارة الخزانة ونقل اليها من الكتب النفيسة الوفاً لا يوجد مثلها .
٣ ـ خزانة المدرسة البشيرية : أنشأتها زوجة المستعصم وأم ولده محمد ابي نصر على المذاهب الأربعة . وافتتحت سنة ٦٥٣هـ وكانت كتبها لا تعار الا برهن حافظ لقيمتها .
وقد اشتملت خزائن الاشخاص وخزائن المدارس ودور العلم على الوف كثيرة من الكتب النفيسة في اصناف العلوم

خزانة المستنصرية

آ ـ أهمية خزانة المستنصرية :

ان من أهم الأقسام العلمية في المستنصرية (دار الكتب) وكانت تسمى (خزانة الكتب) وكانت مرجعاً عاماً لطلاب المستنصرية ومدرسيها وشيوخها . كما كانت مرجعاً لطلاب العلم والعلماء في خارج المستنصرية . ولطالما قصدها الكثير منهم ، وترددوا عليها ، وأفادوا من كنوزها العلمية والأدبية نحو قرنين من الزمن . وتعد دور الكتب قديماً وحديثاً من أهم مستلزمات الدراسة الجامعية .

ولعل المكان الذي كانت فيه مكتبة المستنصرية يتكون من القاعات الكبيرة الواقعة في الحد الأسفل من عمارة هذه المدرسة ، يفصل بينها وبين مدرسة الفقه أزج طويل عال . وهذه القاعات ترتفع بارتفاع الطابقين . ولم تكن فيها نوافذ بل كان فيها كوى سقفية لا تزال عامرة تكفي للاضاءة والتهوية .

قال ابن كثير : ان المستنصر « وقف كتباً نفيسة ليس في الدنيا لها نظير » . وكانت بالخطوط المنسوبة الى أشهر الكتاب العرب أو الخطوط النفيسة الرائقة غير المنسوبة . ولعل مكتبة المستنصرية كانت في القرنين السابع والثامن الهجريين أعظم دور العلم العامة ، وأشهرها في العالم ، ولا سيما في العهد الذي كان ابن الفوطي خازناً فيها ، على الرغم من كثرة الكتب التي انتهبها المغول منها ، فقد جاء في مختصر أخبار الخلفاء المنسوب لابن الساعي أن المغول « بنوا اصطبلات الخيول وطوالات المعالف بكتب العلماء عوضاً عن اللبن » . وجاء في كتاب الحوادث أن نصير الدين الطوسي وصل الى بغداد سنة ٦٦٢هـ لتصفح الأحوال والنظر في أمر الوقوف والبحث عن الأجناد والمماليك ثم انحدر الى واسط والبصرة ، وجمع من العراق كتباً كثيرة لأجل الرصد . وجاء في البداية والنهاية لابن كثير ان نصير الدين الطوسي عندما بنى دار الرصد بمراغة « نقل اليه شيئاً كثيراً من كتب الأوقاف التي كانت ببغداد » . وذكر الصفدي وابن شاكر أن نصير الدين « ابتنى بمراغة قبة ورصداً عظيماً واتخذ في ذلك خزانة عظيمة فسيحة الأرجاء ، وملأها من الكتب التي نهبت من بغداد والشام والجزيرة حتى تجمع فيها زيادة على أربعمئة ألف مجلد » .

وذكر الذهبي : خزانة الرصد ، وخزانة المستنصرية فقال : « وليس في البلاد أكثر من هاتين الخزانتين » .

فاذا كانت خزانة الرصد وهي التي تأسست بعد تأسيس المستنصرية بربع قرن تحتوي كما نقل ابن الفوطي على

(٤٠٠) ألف مجلد ، أو مصنف استطعنا أن ندرك مقدار الكتب التي كانت في خزانة المستنصرية وأهميتها وجلالة قدرها بالنسبة الى خزانة الرصد بمراغة ، حيث يعتبر قول ابن الفوطي السابق شهادة قيمة تثبت انها كانت أعظم وأجل من خزانة دار الرصد ، على الرغم من عدم اطمئناننا الى هذه الأعداد الضخمة فيها أو في غيرها بوجه عام .

ب ــ شروط خزانة المستنصرية :

لقد كانت شروط هذه المكتبة التي اشترطها المستنصر كما يأتي :

١ ــ **أن يكون فيها خازن للخزانة :** له في كل شهر عشرة دنانير ، وفي كل يوم عشرة أرطال خبزاً وأربعة لحماً بحوائجها وخضرها وحطبها .

٢ ــ **أن يكون فيها مشرف على الخازن :** له في كل شهر ثلاثة دنانير وفي كل يوم خمسة أرطال خبزاً ورطلان لحماً .

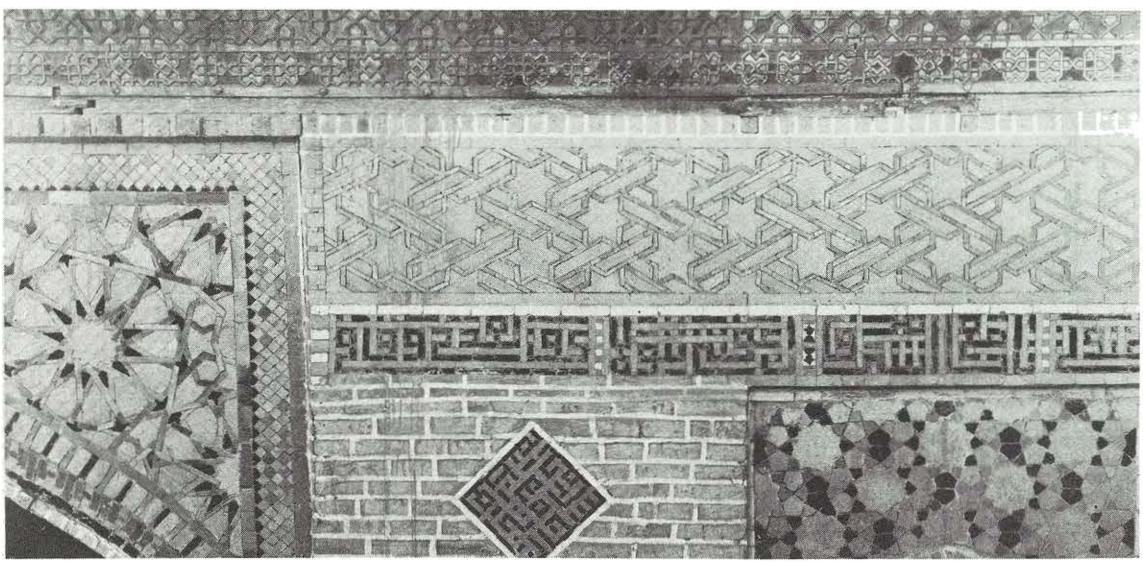
٣ ــ **أن يكون فيها مناول للكتب :** له في كل شهر ديناران وفي كل يوم أربعة أرطال خبزاً وغرف طبيخاً .

ويظهر أن بعض العلماء كانوا يوقفون عليها كتبهم ، ويشترطون فيها الشروط التي اشترطها المستنصر بالله ، كما فعل فخر الدين الطبسي المعيد في المستنصرية .

وقد أجمع المؤرخون على أنه رتب في المستنصرية خزانة كتب فيها من الكتب النفيسة في أنواع العلوم المختلفة شيء كثير جداً . وجعلت برسم من يطالع ، ويستنسخ من الفقهاء . ورتب لهم فيها الورق ، والأقلام لمن يريد النسخ .

ومما يدل على عناية المستنصر بالعلوم ، والكتب العلمية ، وميله الى اقتنائها وخزنها في دور الكتب التي في المدارس ما ذكره الصفدي . فقد قال : « وبيعت كتب العلم في أيامه بأغلى الأثمان لميله الى اقتنائها ، ورغبته في تحصيلها وإكبابه على مطالعتها ، وحسن خطوطها ، ووقفها على أهل الفضل وخزنها في المدارس . وصنف الفضلاء في دولته بدايع المصنفات في فنون العلم ، وتقربوا باهدائها اليه » .

وبعد سقوط بغداد بأيدي المغول فوض نصير الدين الطوسي أمر خزائن الكتب ببغداد الى موفق الدين بن أبي الحديد وأخيه عز الدين .



زخارف حديثة وكتابات كوفية في جامع النعمان الملاصق للاعدادية المركزية وللمدرسة السليمانية وهي تمثل الزخارف الأجرية والخشبية وقد عملت سنة ١٣٣٨هـ .

التوقيعات التدريسية

كان التدريس في أول أمره حسبة لله تعالى لأن العلم عند المسلمين ما كان يقوّم بثمن أو يثمن بمال أي لايعادل بمادة من معلوم أو مرتب أو جراية ، ولذلك لم تكن تصدر توقيعات بتعيين المدرسين إلا بعد ظهور المدارس المستقلة عن المساجد حيث كان التدريس فيها يجري بحسب أنظمة معروفة وشروط معينة .

ويمكننا أن نذكر ان التوقيعات التدريسية كانت تحتوي على أمور تتعلق بمنصب التدريس وأهمية المدرس حيث لم يكن يعين للتدريس إلا من عرف بعلمه وعفته وسداد آرائه ، وتقواه وخشية الله وطاعته مستشعراً ذلك في علنه وسريرته.

وكانت التوقيعات التدريسية تبين للمدرس طريقة التدريس التي ينبغي عليه اتباعها كأن يذكر الدرس على « أكمل شرائط وأجمل ضوابط ، مواظباً على ذلك سالكاً فيه أوضح المسالك . »

وكان يذكر فيها ما يخصص للمدرس شهرياً من جرايات عينية ، ومرتبات نقدية وذلك بموجب ما استؤمر فيه من الحكومة .

وكان يشار في التوقيع على الأمور التي يكلف النظر فيها من غير الشؤون التدريسية كالنظر في الوقوف المحبّسة على المدرسة التي عين مدرساً فيها واستنمائها واستثمار حاصلها وتنمية وارداتها ومراقبة المستخدمين في هذه الأوقاف .

كما أن عليه أن ينظر في عمارة المدرسة وخزانة الكتب وأن يتعهدهما ويلزم القوام بالمواضبة على الخدمة فيهما والمتفقهة بملازمة الدروس وإثبات الكتب ومعارضتها . وله أن يأمر خازن المكتبة بمراعاة الكتب وتنظيمها وأن لا يخرج منها إلا إلى ذي أمانة مستظهراً بالرهن عن ذلك .

ومما تجدر ملاحظته أن أول توقيع تدريسي عثرنا عليه ببغداد يتعلق بمدرسة بغدادية هي مدرسة أبي حنيفة يرجع تأريخه إلى سنة ٦٠٤هـ . ويظهر ان البلاد الاسلامية أخذت تحذو حذو بغداد في هذا الأمر منذ أن أسست المدارس ببغداد . وقد استطاعت بغداد ان تسن للبلاد الاسلامية ليس فقط طريقة التوقيعات وإنما شرعت لها بناء المدارس المستقلة والجامعات الكبرى وجمع المذاهب الفقهية الاربعة في بناية واحدة فحذت حذوها مصر وغيرها كالحجاز والشام.

إن التوقيع الذي يتعلق بمدرسة أبي حنيفة ببغداد افتتح بالبسملة ثم بحمد الله والثناء عليه ثم بذكر دار الخلافة ونعتها بالدار العزيزة ثم الخلوص من ذلك الى ذكر الخليفة والدعاء بدوام الدولة ثم بالشهادتين والصلاة على رسول الله (ص) وعلى أدنى ولده ، وأبعد جده . ثم يفيض التوقيع بعد ذلك كله بصفات المدرس الذي خرج (التوقيع) بتعيينه وهو الغرض المقصود من التوقيع .

ويختتم التوقيع بتقدير التدريس وضرورة المبادرة بالعمل لما جاء موضحاً فيه من غير توقف أو تردد.ثم ينهي بتدوين اليوم والشهر والسنة الهجرية التي تم فيها هذا التوقيع وأخيراً يذيل بالعلامة الخاصة للخليفة أو السلطان أو الملك .

المجالس الادبية برواق المستنصرية

من فضل المستنصرية على الثقافة الاسلامية انها كانت تعقد فيها المجالس العلمية لرجال الثقافة والفكر ، وتمنح فيها الاجازات العلمية لأكابر العلماء . من ذلك مجالس عشرة عقدت لابن الصَّيْقَل الجزري البغدادي الوزير العالم اللغوي المتوفى سنة ٧٠١هـ .

وقد عقدت هذه المجالس العشرة برواق المستنصرية سنة ٦٧٦هـ لسماع (المقامات الزينية) التي أنشأها ابن

الصَّيْقَل والتي استمرت شهرين ويومين كان آخرها يوم الثلاثاء ١٧ جمادى الآخرة سنة ٦٧٦هـ .

وكان عدد من حضر هذه المجالس الأدبية من علماء بغداد (١٦٠) رجلاً من « الأئمة الكبار العلماء والسادة الفضلاء العظماء » .

المستوى العلمي في المدارس البغدادية

لقد ثبت لنا بعد التحري والاستقصاء عن طلبة المدارس المذكورة وعن العلماء والمشايخ وما أنتجوه من مؤلفات ، وما أسدوا للفكر والثقافة العربية من خدمات ، أن المستوى العلمي وصل حداً عالياً يضاهي اليوم المستويات العلمية في الجامعات العالمية المختلفة . وللبرهنة على ذلك نكتفي بالاشارة الى المستوى العلمي في الجامعة المستنصرية . ويتبين لنا مستواها العلمي من أربعة أمور هي :

١ ــ صفة الطلاب الذين كانوا يقبلون في هذه الجامعة :

فقد عثرنا على طائفة كبيرة من المتفقهة يبلغ عددهم ٤٢ فقيهاً وقد ساعدتنا دراسة هذا العدد منهم الى حد بعيد على معرفة المستوى العلمي الذي كان عليه طلاب المستنصرية . ويمكننا أن نذكر في هذا الصدد أن هؤلاء الطلاب كانوا يُتَخيرون من بين الفقهاء النابهين ليكونوا طلاباً فيها أي بعد أن تكون لهم شهرة علمية في التأليف أو التدريس .

٢ ــ المستوى العلمي للشيوخ والمدرسين والمعيدين :

وقد عثرنا في هذه الجامعة على (٣٠) شيخاً للحديث وعلى (٨٥) مدرساً ومعيداً لتدريس الفقه على المذاهب الأربعة ، هذا عدا شيوخ العربية ومعيديها ، وشيوخ دار القرآن ومعيديها وطلابها . وعدا مدرسة الطب والأقسام العلمية الأخرى.

وقد تبين لنا أن هؤلاء كانوا يتخيرون من بين كبار العلماء والشيوخ في العراق والشام ومصر ، وغيرها من البلاد الاسلامية ممن حصلوا على اسناد عال ، وانتهت اليهم رئاسة العلم ، أو عرفوا بالبحث العلمي والتحري عن الحقائق العلمية في البلاد التي سافروا اليها ، وبما ألفوا من الكتب القيمة التي ما زالت تعد من المصادر المهمة للثقافة العربية والفكر الاسلامي ، عدا ما أتلف منها أو ضاع في أثناء الكوارث التي حلت ببغداد عند سقوط الخلافة العباسية ، وعند تدمير تيمورلنك لبغداد مرتين،وعندما هاجر من بغداد عدد كبير من علمائها الى خارج العراق ، حيث استطاعوا أن يحدثوا بعض الحركات العلمية على نطاق واسع في الشام ، ومصر وخراسان ، وقد كانت هجرتهم فراراً من الأجنبي الغاصب .

وحسبنا أن نذكر للدلالة على الجو العلمي الذي امتازت به المستنصرية ان المعيدين فيها كانوا ينقلون منها أحياناً (مدرسين) الى المدارس الأخرى .كما أن المدرسين في غيرها كانوا لا ينقلون إلا الى الاعادة فيها .

ويلاحظ أن كثيراً من المعيدين فيها كانوا ممن اشتهروا بالتأليف وبرعوا في العلوم والآداب ونابوا في القضاء وتقلدوا المناصب المختلفة .

يضاف الى ما تقدم أن خزان الكتب في مكتبتها كانوا من العلماء الأفذاذ ، والمؤرخين المشهورين ، كابن الساعي وابن الفُوَطي وياقوت المستعصمي . بل إنك لتجد بين المناولين للكتب وهم بمنزلة الفراشين من له سَماع على الشيوخ والعلماء ، واجازات في الرواية عنهم . وأكثر من ذلك تجد بين الفراشين والبوابين في المدارس البغدادية من اشتهر بالعلم والرواية ونسخ الكتب .

٣ ــ وسائل الايضاح في المستنصرية :

ولقد كان في هذه الجامعة من الأمور التي تساعد على رفع المستوى العلمي لطلابها ومدرسيها مؤسستان مهمتان :

الأولى : مستشفى يدرس فيها الطب . وقد اعتبرت المستنصرية ، مجالاً حيوياً جيداً له لاجراء التجارب الطبية ومعالجة المرضى .

الثانية : دار كتب عامرة بأنواع المؤلفات . وقد ذكر المؤرخون أن ما حمل اليها عند افتتاحها في سنة ٦٣١هـ بلغ ثمانين ألف كتاب — عدا ما حمل اليها بعد ذلك — وكانت هذه الدار تساعد طلاب العلم على النسخ ، والمطالعة ، والتأليف مما أدى الى تقدم العلوم ورفع المستوى العلمي للطلاب والمدرسين .

٤ — نسبة المدرسين الى الطلاب :

ويمكننا أن نتفهم علو المستوى العلمي الجامعي في مدارس بغداد عامة وفي المستنصرية بوجه خاص ، من نسبة عدد المدرسين الى عدد الطلاب الذين كانوا يتلقون العلم عليهم فيها لأن في ذلك يقاس رقي الجامعات والمعاهد العلمية وتقدمها.

فاذا علمنا أن طلاب مدرسة الفقه في المستنصرية كانوا (٢٤٨) طالباً وعدد المدرسين والمعيدين فيها (٢٠) شخصاً ، فان نسبة المدرسين للطلاب هي : ٢٠ الى ٢٤٨ .

أي مدرس واحد لكل ١٢٫٤ طالباً .

وأن في دار القرآن ثلاثين طالباً ، ولهم شيخ واحد ومعيد واحد ولذلك فان نسبة المدرسين للطلاب تكون ٢ الى ٣٠ أي : مدرس واحد لكل ١٥ طالباً .

وأن للحديث شيخاً وقارئين . أي مدرس واحد لكل ثلاثة طلاب من الطلاب العشرة الذين كانوا فيها . وكان فيها طبيب واحد للطلاب العشرة المثبتين فيها لدراسة الطب .

مابقي من مدارس بغداد

إن الظروف القاسية والأحوال السيئة التي أصابت بغداد قبل سقوط الدولة العباسية سنة ٦٥٦هـ بيد التتر وفي عهد المغول والتركمان والعثمانيين والفرس الصفويين قضت على مدارسها التي نوهنا بها ولم يبق منها اليوم إلا مدرستان : الأولى مدرسة أبي حنيفة التي لا تزال تؤدي الكثير من الخدمات للثقافة الاسلامية بواسطة أولئك الأدباء والعلماء والفقهاء الذين تخرجوا فيها فتولوا مختلف المناصب المهمة في البلاد وقد حولت الى كلية تابعة للاوقاف فجامعة بغداد باسم كلية الشريعة .

والثانية المدرسة المرجانية التي يقل عمرها بنحو ثلاثة قرون من الزمن عن مدرسة أبي حنيفة إذ أنها أنشئت عام ٧٥٨هـ فان مدرسة أبي حنيفة استمرت منذ تأسيسها في سنة ٤٥٩هـ حتى اليوم . ولا يزال التدريس جارياً في المدرسة المرجانية ولكن على طريقة التدريس في المساجد .

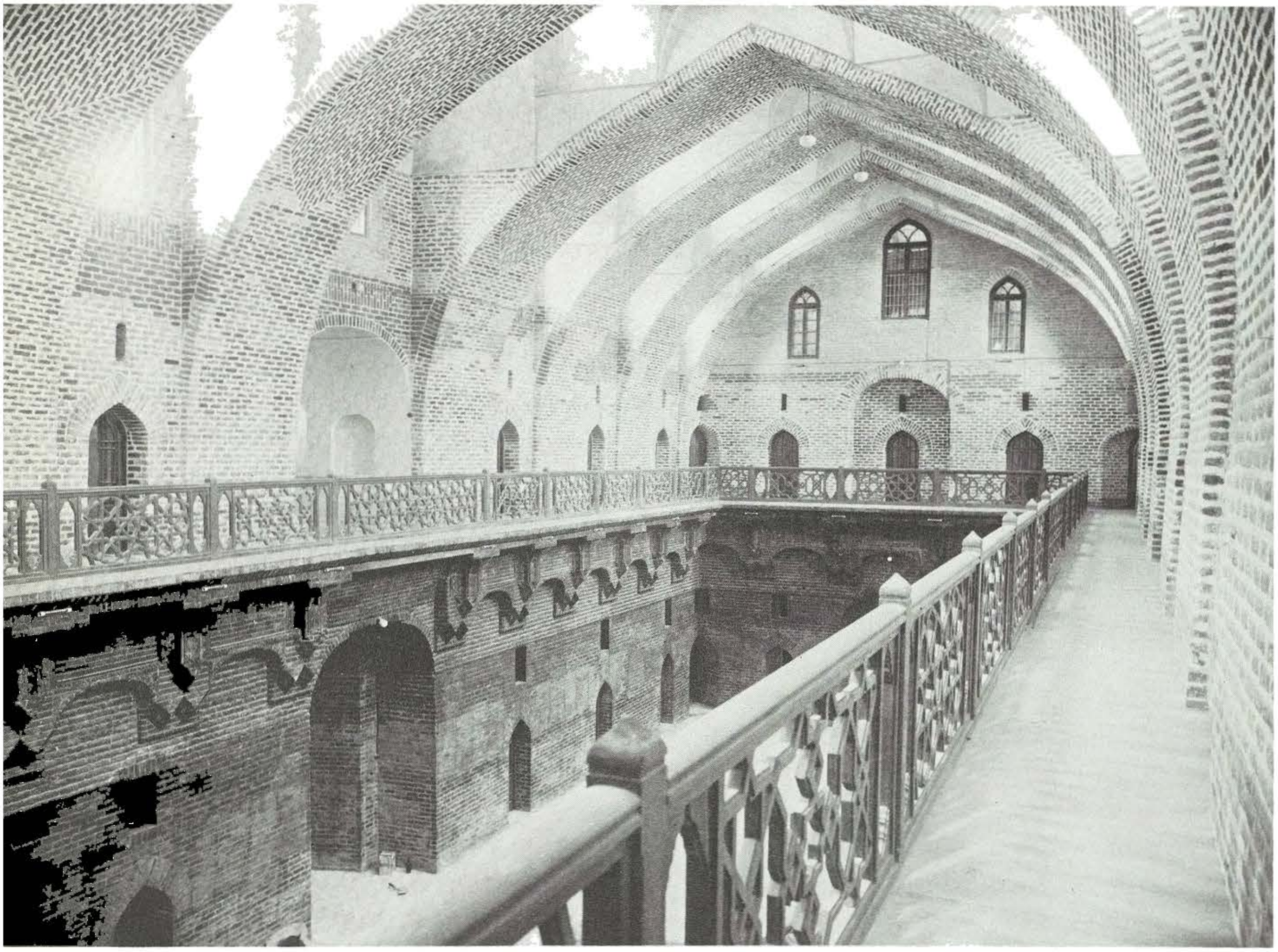
أما المدرسة النظامية التي طارت شهرتها في العالم الاسلامي ، والتي وصفها ابن جبير « بأنها أعظم مدارس بغداد وأشهرها » فلم يزد عمرها على أربعة قرون . ولم يبق من آثارها شيء إلا ما حوته بطون الأسفار .

وأما المستنصرية التي تعد أول جامعة إسلامية في العالم الاسلامي فهي الأخرى لم يدم التدريس فيها أكثر من أربعة قرون . وهي تختلف عن النظامية من حيث أن جانباً كبيراً من مبانيها الفخمة لا يزال ماثلاً . وقد وقفت منفعتها على مدرسة صغيرة يقال لها « المدرسة السليمانية » . أما المدارس الأخرى كالنجيبية والشرابية فقد أصبحت الأولى مسجداً صغيراً يحتوي على ضريح الشيخ أبي النجيب السهروردي . وأما الشرابية فهي في رأينا بقايا ما يعرف اليوم بـ « القصر العباسي » الذي في قلعة وزارة الدفاع . وقد أصبحت متحفاً من متاحف بغداد .

وأما سائر المدارس التي بنيت لمذهب واحد أو المدارس الثنائية المشتركة بين مذهبين أو الرباعية التي أنشئت

للمذاهب الأربعة ، فلم يبق منها شيء اليوم بل زالت معالمها ، وضاعت أوقافها ، ولم يبق شيء من كتبها . كما لم يبق من دور القرآن البغدادية إلا إيوان فخم في دار القرآن بالمستنصرية .

وأما دور الحديث فقد زالت أيضاً وبقي منها في المستنصرية أزج طويل في جنوبه قاعات فخمة يحتمل أنها كانت للحديث ولخزانة الكتب المستنصرية . وأما دور القرآن المشتركة مع دور الحديث فلا نعرف منها أثراً باقياً إلا مسجد (قمرية) الذي كان يدرس فيه القرآن والحديث منذ عهد المستنصر بالله .



خان أمين الدين مرجان ببغداد الشرقية قرب المدرسة المرجانية المعروفة اليوم بجامع مرجان على شارع الرشيد . وقد اتخذ داراً للآثار العربية قبل بناء المتحف الجديد بجانب الكرخ ويتكون الخان من قاعة كبيرة مسقوفة بعقود في أطرافها شبابيك للانارة والتهوية . وعلى جانبي القاعة حجرات عديدة في جوانبه الأربعة وغرفات مثلها في الطابق الأعلى . والبناية بمجموعها تمثل أسلوباً فريداً في الفن المعماري ببغداد ولا سيما في طراز التسقيف .

مستشفيات بغداد

لقد عني العباسيون بغداد بانشاء دور للمرضى والمجانين أو الممرورين ، وقد تطورت هـذه الدور حتى أصبحت مستشفيات كبيرة تضم الى جانب ردهات المرضى ومخازن الأدوية والأشربة ، مكتبات وقاعات لتدريس الطب غدت فيما بعد مدارس للطب كان لها فضل كبير على العالم .

وكانت المستشفيات تقسم الى قسمين : قسم للرجال وقسم للنسـاء . وكانت الأجنحة والقاعات والغرف تقسم بحسب الأمراض البدنية والأمراض العقلية .

وكان يدير المستشفى أحد الأمراء أو الأشراف أو عظماء الدولة ممن عرفوا بالثقافة والكفاية . ويطلق على عميد المستشفى أسم « الساعور » ويكون فيه الأطباء والجرائحيون والكحالون والمجبرون والممرضون والممرضات . . . ألخ .

وعندما أنشئت المدارس المستقلة عن المساجد أصبح لبعضها بيمارستانات ملحقة بها . وكثر عدد الأطباء ببغداد بفضل البذل الذي بذله الخلفاء والملوك والوزراء لهم بحيث بلغ عددهم ببغداد أكثر من أي بلد إسلامي آخر .

وقد اشتهر ببغداد عدد من المستشفيات كان يتسابق في إنشائها الخلفاء ونساؤهم ووزراء الدولة . كما اشتهرت نخبة ممتازة من الأطبـاء الذين تركوا لنا رصيداً ضخماً من التراث الطبي الذي أسدت به بغـداد خدمات جليلة للانسانية . وإليك نبذة يسيرة عن هذه المستشفيات وأطبائها وتراثنا الحضاري في الطب :

١ ــ **بيمارستان الرشيد :** وهو فيما يظهر أول مستشفى أنشيء ببغـداد في الجـانب الغربي منها في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري (أي القرن التاسع الميلادي) على يد الطبيب جبرائيل بن بختيشوع الذي أشـار على الرشيد أن يكون ماسويه الخوزي أحد أطباء جنديسـابور رئيساً له . ثم تولاه ابنه يوحنا بن ماسويه . ومما يذكر أن جبرائيل ظل رئيساً للأطباء من عهد الرشيد الى أن توفي في خلافة المتوكل سنة ٢٤٣هـ (٨٥٧م) .

٢ ــ **بيمارستان البرامكة :** ويظهر أنهم أنشأوا ببغـداد مارستاناً باسمهم وقلدوا رئاسـته الى طبيب هنـدي لرغبتهم في طب الهنـد .

ويظهر أن البيمارستانات أخذت تزداد ليس ببغداد فحسب بل في البلاد الاسلامية المختلفة . فقـد كتب طاهر بن الحسين إلى ابنه عبدالله يقول له : « وانصب لمرضى المسلمين دوراً تقيهم ، وقواماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم » .

٣ ــ **بيمارستان بدر أو البيمارستان الصاعدي :** وهو مضاف الى بدر المعتضدي غـلام المعتضـد . وكان يقع بمحلة المخرم جنوبي الرصافة بالجانب الشرقي من بغداد . ويذكر ثابت بن سـنان بن ثابت بن قرة أن النفقة على هذا البيمارستان ، كانت من واردات الوقف الذي كان للسيدة شجاع أم المتوكل .

٤ ــ **بيمارستان الحربية :** وهو البيمارستان الذي أنشأه الوزير أبو الحسن علي بن عيسى بن الجراح في سـنة ٣٠٢هـ (٩١٤م) بالحربية في الجانب الغربي من بـغـداد . وأنفق عليه من ماله وقلده أبا عثمان سـعد بن يعقوب الدمشقي ، وهو أحد النقلة المجيدين ، وكان منقطعاً إليه .

٥ ــ **بيمارستان السيدة :** وكان بالجانب الشــرقي بمحلة سوق يحيى « وهي محلة السفينة بالأعظمية اليوم » . وهو مضاف إلى السيدة شغب أم المقتدر أنشأته بسوق يحيى على نهر دجلة وافتتحه أبو سعيد سنان بن ثابت في أول المحرم من سنة ٣٠٦هـ (٩١٨م) وقد جلس فيه الطبيب سنان ورتب المتطببين وقبل فيه المرضى .

٦ ــ **البيمارستان المقتدري :** نسبة إلى الخليفة المقتـدر بالله . أمر بانشائه سنة ٣٠٦هـ وكان سـنان بن ثابت أشار على الخليفة أن يتخذ مارستاناً ينسب إليه فبنوه له بباب الشام في الجانب الغربي من بغـداد وولاه سناناً . وممن اشتغل في هذا المارستان من الأطباء يوسف الواسطي . وجبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع .

٧ ــ **بيمارستان ابن الفرات :** وهو مضاف إلى أبي الحسن ابن الفرات وزير المقتدر . وقد اتخذه في درب المفضـل . وكان الوزير الخاقاني قد قـلد أمر هــذا المارستان الى أبي الحسن ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة في سـنة ٣١٣هـ (٩٢٥م) .

٨ ــ **بيمارستان الأمير بجكم :** كان أنشأ هذا البيمارستان في سنة ٣٢٩هـ وقد أسند رياسته إلى سنان بن ثابت غير أن العمل في هذا البيمارستان لم يتم في عهد الأمير بجكم فقد كانت إمارته سنتين وثمانية أشهر وتسعة أيام. وقد جدد هذا المارستان في عهد عضد الدولة .

٩ ــ **بيمارستان معز الدولة البويهي :** ابتدأ معز الدولة بن بويه في إنشائه في سنة ٣٥٥هـ في موضع الحبس الجديد ، ويظهر أن البيمارستان كان يقع على نهر دجـلة .

١٠ــ **بيمارستان الوزير فخر الملك الصيرفي :** ذكر الذهبي أن محمد بن علي بن خلف الوزير فخر الملك أبا غالب الصيرفي أنشأ بيمارستاناً ببغداد قل أن عمل مثله .

١١ ــ **بيمارستان باب المحول :** جاء ذكر هذا البيمارستان في حوادث سنة ٣٢٩هـ وفي حـوادث سنة ٤٤٩ هـ . وباب المحول الذي يضاف اليه هذا البيمارستان ، محلة كبيرة كانت منفردة بجانب الكرخ أول الأمر وقد دثـر من وقت مبكر .

١٢ــ **البيمارستان التتشي :** شيده خمارتكين في السوق المعروفة بسوق تُتُش قريباً من المدرسة النظامية .

١٣ ــ **البيمارستان العضدي :** لقد أتم عضد الدولة البويهي البيمارستان الذي كان شرع ببنائه على رابية تشرف على مقربة من قصر الخلد الذي أنشأه أبو جعفر المنصور .

١٤ــ **دار الشفاء أو البيمارستان المرجاني :** نسبة الى أمين الدين مرجان . وقد بنى هذا المستشفى على نهر دجلة بباب الغربة أحد أبواب دار الخلافة ، وأوقف عليه وعلى المدرسة المرجانية كثيراً من العقار والضياع ، وجعل ثلثيها للمستشفى وثلثها للمدرسة .

أشهر الأطباء في البيمارستان العضدي ببغداد

روى ابن أبي أصيبعة أن عضد الدولة لما بنى المارستان الجديد الذي على طرف الجسر من الجانب الغربي من بغداد جمـع فيـه الأطبـاء من كل موضـع ، ورتب فيه أربعة وعشرين طبيباً اختارهم من بين مئة طبيب. وقد ظل هذا المارستان نحو ثلاثة قرون ويمكننا أن نذكر من أطبائه الذين تداولوا إدارته والمعالجة والتدريس فيه الأطباء الآتي ذكرهم:

أبو بكر الرازي (جالينوس العرب) المتوفى سنة ٣٢٠هـ أو ٣٢٤ هـ وهو محمد بن زكريا الرازي نسبة الى الري مسقط رأسه ولعله كان أعظم أطباء العرب وأكثرهم ابتكاراً وإنتاجاً . قدم بغداد وعمره نيف وثلاثون سنة ، وكان رئيس

الأطباء في مارستان بغداد وكان ببغداد كما أسلفنا عدة بيمارستانات وكان الرازي يدير أحدها وهو المارستان العضدي ببغداد الغربية في حين أن بعض المؤرخين يذكر أن الرازي توفي قبل ذلك بأكثر من نصف قرن إلا أن ابن أبي اصيبعة يذكر في تعليقه على ذلك بقوله « والذي صح عندي أن الرازي كان أقدم زماناً من عضد الدولة بن بويه وإنما كان تردده إلى البيمارستان من قبل أن يجدده عضد الدولة .

وجاء في عيون الأنباء أن عضد الدولة لما بنى المارستان العضدي المنسوب إليه ، قصد أن يكون فيه جماعة من أفضل الأطباء وأعيانهم فأمر أن يحضروا له ذكر الأطباء المشهورين حينئذ ببغداد وأعمالها ،فكانوا متوافرين على المئة فاختار منهم نحو خمسين بحسب ما علم من جودة أحوالهم وتمهرهم في صناعة الطب فكان الرازي منهم ، ثم أنه اقتصر من هؤلاء أيضاً على عشرة فكان الرازي منهم ، ثم اختار من العشرة الثلاثة فكان الرازي أحدهم ثم أنه ميز فيما بينهم فبان له أن الرازي أفضلهم فجعله « ساعور » البيمارستان العضدي . ومن مؤلفاته إثنتا عشرة رسالة في الكيمياء . ومن أهم ما وضعه كتاب الأسرار ومن أشهر رسائله رسالته في (الجدري والحصبة) وهي أول ما كتب في هذا الباب ، وتعد من مفاخر التآليف الطبية عند العرب . والرازي أول من قال بالعدوى الوراثية .

على أن أجل مولفات الرازي في صناعة الطب وأعظمها على الاطلاق هو كتابه الحاوي الذي نقل الى اللاتينية برعاية كارل انجو ملك صقلية وقد طبعت الترجمة مراراً .

ثابت بن سنان بن ثابت بن قرة المتوفى سنة ٣٦٥هـ أو ٣٦٣هـ . كان بارعاً في الطب كأبيه عالماً بأصوله . وكان يتولى تدبير المارستان ببغداد في وقته . وفي سنة ٣١٣هـ قلده الوزير الخاقاني البيمارستان الذي أنشأه الوزير ابن الفرات بدرب المفضل .

صاعد بن بشر بن عبدوس . ويكنى أبا منصور . كان في أول أمره فاصداً في البيمارستان ببغداد ثم اشتغل بعد ذلك في صناعة الطب وتميز حتى صار من الأكابر من أهلها والمتعينين من أربابها وهو أول من عالج الشلل بالأدوية الباردة بدلاً من الأدوية الحارة ببغداد .

نظيف النفس الرومي : كان طبياً عالماً بالنقل من اليوناني إلى العربي . قرره عضد الدولة في البيمارستان الذي عمره ببغداد في جملة أربع وعشرين طبيباً قرروا فيه ورتبوا لمعالجة المرضى وكان خبيراً باللغات .

أبو الخير بن أبي الفرج الجرائحي : كان طبيباً جرائحياً عالماً بصناعته خبيراً بها . اختاره عضد الدولة للبيمارستان الذي عمره ببغداد على الجسر بالجانب الغربي وكانت ولادته سنة ٣٥٥هـ ووفاته سنة ٤٤٣هـ .

أبو الفرج بن الطيب : الفيلسوف العالم ، كان متميزاً في النصارى ببغداد ، وكان يقرىء صناعة الطب في البيمارستان العضدي ويعالج المرضى فيه . وكان واسع العلم كثير التصنيف . وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا ، وكان الشيخ الرئيس يحمد كلامه في الطب .

جبرائيل بن عبدالله بن بختيشوع : كان من أشهر الأطباء الذين تولوا رياسة البيمارستان، وكان عضد الدولة قد أجرى له راتبين أحدهما برسم (الخاص) والآخر برسم البيمارستان سوى الجراية . درس الطب ببغداد على يوسف الواسطي وغيره . وأكب على العلم والدرس . وكان دكانه قريباً من قصر فرج من الجانب الشرقي (محلة الحارة بالأعظمية) . اتصل بعضد الدولة ودخل معه بغداد ولازم البيمارستان العضدي . عالج الصاحب بن عباد وخسرو شاه ملك الديلم وأقام ببغداد بعد وفاة عضد الدولة وألف كتابه الكبير الذي سماه بالكافي ، ووقف منه نسخة على دار العلم ببغداد ونسخة بالري ، وكان البيمارستان يعمل بموجبه . سافر الى الموصل وميافارقين وكانت وفاته بها سنة ٣٩٦هـ .

أبو الحسن بن سنان الصابي : كان في حدود سنة ٤٣٩هـ وكان ساعوراً في البيمارستان وله إصابات في الطب وتقدمة المعرفة والتوفيق في العلاج عجيبة .

اطبّاء بغداد

لقد حوت مستشفيات بغداد أطباء اختصاصيين كانوا أول الأمر يتخرجون على أيدي أطبـــاء يقومون بالتدريس في المستشفيات كأبي الفرج ابن الطيب وابراهيم بن بكس وكان عدد التلاميذ يصـل أحياناً الى خمسين طالباً وكان يعطى للطلاب بالاضـافة الى المحاضرات العلمية والعملية تعليمات لكل مريض تنفـذ بدقة ، وكانت الملاحظات تدون عن كل مريض بحسب سير المرض . ومما قيل في هذا الصدد : أن الرازي بنى كتابه (الحاوي) على هذه الملاحظات .

وقد درس ببغداد أطباء مشهورون أمثال أبي نصر محمد الفارابي المتوفى سنة ٣٣٩هـ الذي عاش ببغداد مـدة وقـد أخذ صناعة الطب بها في أيام المقتدر . وكان أمين الدولة ابن التلميذ المتوفى سنة ٥٦٠هـ يحضر مجلسـه في صناعة الطب خلق كثير يقرأون عليه كما كان المرضى يقصدون أطباء بغداد للمعالجة ويقدمون لهم جزيل العطايا والهبات .

وكان أطباء بغداد يعملون أحياناً لبعض المرضى فحوصاً طبية باشراف لجنة طبية . وقد عالجوا من يموت بالسـكتة بالفَصْد وبضرب كعبه بالعصا حين لا يجدون له نبضاً وكانوا يستعملون بعض الأدوية إلى أن تعود حركة النبض ، وقـد استعمل ذلك ثابت بن قرة بن مروان بن ثابت ببغداد .

وكانوا يمتحنون الأطباء والصيادلة فقـد ذكر القفطي أن الصيادلة امتحنوا في زمن المأمون والمعتصم وذكر ابن أبي اصيبعة أن المقتدر أمر سنان بن ثابت بن قرة سنة ٣١٩هـ بمنع سائر المتطببين من التصرف وممارسة مهنتهم إلا من امتحن سنان . وكان أطباء بغداد يومئـذ ثمانمئة رجل ونيفاً .

وإليك نبذة يسيرة عن عدد من الأطباء البغداديين الذين قدموا أجل الخدمات للانسانية في العصور العباسية ، نذكر بعضهم على سبيل المثال لا الحصر لأن أطباء بغداد كانوا كثيرين جداً يطول ذكرهم :

١ ــ **علي بن العباس :** وقد اشتهر بالطب بعد الرازي بخمسين سنة وتوفي سنة ٣٩٤هـ وكان طبيباً مجيـــداً متميزاً في صناعة الطب وهو الذي صنف الكتاب المشهور الذي يعرف بـ (الملكي) وهو كتاب جليل مشتمل على أجزاء الصناعة الطبية . وقد قصـد به أن يكون وسطاً بين الحاوي والمنصوري من حيث التطويل والاختصـار . قسم المؤلف الكتاب الى عشرين مقالة وكل مقالة الى عدة أبواب تبحث في نظريات الطب وتعالج المواضيع العلمية وتصف تشريح أعضاء الجسم وتعنى بالجراحة . وكان كتاب ابن العباس قد اتصل بالعالم الأوربي لأول مرة بواسطة ترجمة لاتينية قام بها قسطنطين بدون أن يذكر اسـم المؤلف الأصلي . ويعد هذا الكتاب وكتاب الحاوي للرازي آنف الذكر وكتاب القانون لابن سينا الكتب العربية الثلاثة الرئيسة التي اعتمد عليها الغربيون في مدارسهم .

٢ ــ **علي بن عيسى :** أشهر كحالي العرب . ولد ببغـداد في النصف الأول من القرن الحـادي عشر الميلادي أما كتبه العربيـة الاثنان والثلاثون في علم الرمـد فأقدمها وأفضلها كتاب (تذكرة الكحالين) الذي لم يسبقه في هـــذا الموضوع إلا رسالة ابن ماسويه ورسالة حنين ابن إسحق . وقد وصفت (التذكرة) مئة وثلاثين مرضاً من أمراض العين . وقد نقلت الى العبرانية مرة والى اللاتينية مرتين ولا زالت مستعملة في الشرق .

٣ ــ **ابن جزلة :** (المتوفى ٤٩٤هـ ١١٠٠م) وقد صنف موجزاً طبياً عنوانه (تقويم الأبدان في تدبير الانسان) نسج فيـه على منـوال (تقويم الصحة) الذي صنفه طبيب آخر هو ابن بطلان المتوفى في انطاكية سـنة (٤٥٠هـ) ١٠٦٣م وقصد بالتقويم ترتيب الأمراض على غرار ترتيب النجوم في التقاويم الفلكية .

٤ ــ **يعقوب ابن أخي حزام :** وكان بيطاراً عند المعتضد (٢٧٩ ــ ٢٩٠هـ) (٨٩٢ ــ ٩٠٢م) وقد وضع رسالة في تربية الخيل لاتزال نسخة منها محفوظة في المتحف البريطاني .

٥ — **يوحنا ابن ماسويه :** قلده الرشيد ترجمة الكتب الطبية القديمة وقد وضعه هارون الرشيد أميناً على الترجمة وخدم الرشيد والأمين والمأمون إلى أيام المتوكل ، وكتابه في الجذام لم يسبقه أحد إلى مثله . وكتابه في الأغذية وكتابه في المعدة المعروف بالرجحان وكتابه في الأدوية المسهلة وإصلاحها وكتب كثيرة في غير ما شيء مما عجز عنه غيره. وكان حنين بن إسحق تلميذه وخادمه .

٦ — **ثابت بن قرة الحراني :** سكن مدينة بغداد وكان الغالب عليه الفلسفة . دون الطب وكان في دولة المعتضد العباسي وله كتب كثيرة في فنون العلوم .

٧ — **ثابت بن سنان بن قرة :** يذكر ابن جلجل عنه : « أنه كان في أيام المطيع لله وفي إمارة الأقطع أحمد بن بويه » أدركه الحراني أحمد بن يونس ببغداد وقت رحلته وقرأ عليه وكان بارعاً في الطب ، عالماً بأصوله . ذكر صاعد والقفطي أنه أحد أفاضل الأطباء والمؤرخين . انتهت إليه رياسة بيمارستان بغداد ، وتوفي سنة ٣٦٥هـ كما ذكر ذلك صاعد والقفطي في حين أن ابن أبي أصيبعة وابن العبري يذكر أن وفاته في سنة ٣٦٣هـ .

٨ — **أحمد بن وصيف الكحال :** كان طبيباً ببغداد. في حدود سنة ٣٥٠هـ وكان عالماً بعلاج العين . لم يكن في زمانه أعلم منه ولا أكثر مزاولة . وذكر ابن أبي أصيبعة أن عمر وأحمد ابني يونس الحراني درسا عليه وعلى ثابت بن سنان ببغداد .

٩ — **أبو البركات هبة الله بن علي ابن البلدي :** نسبة الى مدينة بلد وكان يمارس الطب في عهد الخليفة المستنجد بالله . وقد اشتهر بمعالجة الأمراض العقلية والنفسية .

هؤلاء هم بعض الذين كانت خدماتهم وكتبهم المعوّل عليها في دراسة الطب ببغداد غير أن هناك كثيراً من نوابغ الأطباء الذين اشتغلوا ببغداد في البحث والتأليف ووصلت الينا بعض كتبهم لايتسع المجال لذكرهم .

مدرسة الطب المستنصرية

كان علم الطب من العلوم التي تدرس بالمستنصرية في بناية خاصة تقع تجاه المدرسة المستنصرية أي مقابل باب المدرسة الرئيس . وهي صُفَّة فاخرة تحت الأيوان الذي تكامل في سنة ٦٣٣هـ (١٢٣٥م) وقد اتخذت هذه الصُفَّة مكاناً لتدريس الطب ، ومداواة مرضى المستنصرية على اختلافهم .

وذكر ابن العبري أن طبيب المستنصرية كان يتردد إلى مرضاها في بكرة كل يوم يتفقدهم . وكان يطلق على هذا المكان : البيمارستان أو المارستان (أي المستشفى) .

وذكر ابن العبري وابن واصل وغيرهما أنه كان في المستنصرية مخزن فيه : أنواع الأشربة والأدوية والعقاقير . ولا شك في أن هذا المخزن كان بمثابة المذخر الطبي ، أو الصيدلية لها . وقد درست معالم مدرسة الطب ولم يبق منها شيء يذكر .

ومما يحسن ذكره في هذا الصدد أن بناء مدرسة الطب المستنصرية بجوار مدرسة الفقه ، ودار السنة ، ودار القرآن. . . ألخ . كان أمراً ضرورياً وذلك لتسهيل معالجة المرضى في تلك الجامعة الواسعة ، وللاستفادة من الامكانات الأخرى التي امتازت بها المستنصرية كالاستفادة من دار الكتب ، ومن المخزن ، ومن المطبخ الذي كان الطعام يهيأ فيه ويوزع على الطلاب وغيرهم من أرباب هذا الوقف .

ومما يتصل بمدرسة الطب ما ذكره عبدالرحمن الأربلي بصدد ما كان يدرس بالمستنصرية ، فقد عد حفظ قوام الصحة ، وتقويم الأبدان ، من الأمور التي كانت تحظى بعناية هذه المدرسة وأطبائها .

وينبغي أن نذكر أن كثيراً من علماء المستنصرية اشتهروا بالطب والتأليف فيه . فقد كان « البَرْزَبِي » رأساً في الطب ، وقد وصف في الطب ما يستعمله الانسان ، غير أننا لم نعثر على ما يدل على اشتغالهم بمدرسة الطب المستنصرية .

وإليك ما وجدناه من أسماء أطباء هذه المدرسة :

١ ـــ **شمس الدين ابن الصباغ** ٥٧٧هـ ـــ؟/١/٦٨٣هـ

٢ ـــ **سنجر الطبيب** المتوفى في ٧١٥/٨/١هـ

٣ ـــ **علاء الدين الأربلي** المتوفى بعد سنة ٧١٥هـ

٤ ـــ **ابن الكتبي الشافعي** المتوفى سنة ٧٥٥هـ

أما النظار في مدرسة الطب المستنصرية فلم نعرف منهم إلا :

ابن ابي السعادات الدباس المتوفى في ٦٤٨/٨/٢١هـ

وأما طلاب مدرسة الطب المستنصرية فقد عرفنا منهم اثنين فقط وهما :

١ ـــ **مجير الدين بن كاسو**

٢ ـــ **كمال الدين النميري**

التراث الحضاري في الطب البغدادي

طب الأبدان والعيون والأسنان

لقد كانت مواقع المستشفيات ببغداد تختار بعد الدرس الدقيق. فقد روي عن عضد الدولة أنه استشار الرازي ليختار له محلاً لبناء مستشفى يحمل اسمه . وكانت المستشفيات على نوعين : منها ما هو خاص ببعض الأمراض كالجذام والعمى والأمراض العقلية ، ومنها ما هو عام لجميع الأمراض وإليك بعض هذه الأنواع :

١ ـــ **مستشفيات الجذام :** وأول مستشفى بني في الاسلام كان في زمن الخليفة الوليد بن عبدالملك سنة ٨٩هـ (٧٠٧م) لمعالجة المجذومين . في حين لم تبن في أوربة مستشفيات للجذام قبل القرن الثاني عشر الميلادي .

٢ ـــ **مستشيات المجانين :** يذكر آدم متز : « أنه كان في بغداد مارستان كبير خاص بالمجانين وهو دير هرقل القديم الذي كان يقع على مرحلة إلى الجنوب في طريق واسط . وعدا المستشفيات الخاصة بالمجانين فقد كان لهؤلاء أيضا محل خاص بمعالجتهم في المستشفيات العامة حيث افردت لهم غرف خاصة لها نوافذ مشبكة بقضبان الحديد .

٣ ـــ **المستشفيات النقالة أو السيارة :** وهي التي كانت تسمى (المحمولة) قديماً . كانت هذه المستشفيات تنتقل في البلاد إلى الأمكنة المختلفة حيث لا يوجد أطباء ولاسيما في القرى المجاورة للمستشفيات فيعالجون المرضى عامة . وكان سنان بن ثابت قد اهتم بأنشاء المستشفيات النقالة وذلك ما يعرف اليوم بالمستوصف السيار ينقل من بلد إلى آخر ليس فيه مستشفى .

٤ ـــ **مآوى للعميان والأيتام والنساء العاجزات :** بناها المأمون في المدن الكبيرة .

٥ ـــ **مستشفيات الجيش:** كان للجيش أطباء خاصون ما عدا أطباء الخليفة والقواد والأمراء. وكانت المستشفيات متحركة تنقل على ظهور الجمال والبغال فكان للجيش مستشفى خاص به يشبه اليوم وحدات الميدان الطبية . وكانت النساء تقوم بتمريض الجرحى من الجنود حتى يشفوا .

٦ ـــ **المستشفيات العمومية :** كانت هذه المستشفيات تنشأ في المدن الكبيرة من البلاد الاسلامية كبغداد ففي هذه المدينة كان يوجد مستشفى عمومي وفي بعض الأحيان عدة مستشفيات ، وكان يقوم ببنائها الخلفاء والأمراء والأطباء

أنفسهم وينفق عليها بسخاء من الأوقاف التي ترصد لها ومن هبات المحسنين . وكان كل مريض يحتاج إلى المعالجة ، كان يقبل في المستشفى بصرف النظر عن لونه ودينه أو مقامه ذكراً كان أم أنثى .

وقد عني العرب أيضاً بمعالجة المسجونين .

وكان كل مستشفى يقسم الى قسمين ، قسم للرجال وقسم للنساء وكل قسم يحتوي على غرف وقاعات منها للأمراض الداخلية ومنها للعيون ومنها للجراحة والكسور والتجبير . ثم أن قسم الأمراض الداخلية نفسه كان منقسماً الى غرف منها غرف للحميات ومنها لحوادث الاسهال ومنها للأمراض العقلية . وكانت المياه جارية فيها في أغلب الأحيان . وهذه المستشفيات كانت تقوم على مال الأوقاف . وكان إيراد هذه الأوقاف كبيراً وكافياً للقيام بحاجات المستشفى من غذاء وكساء ومحروقات وأدوية وسواها مع دفع أجور الأطباء والممرضين والخدم .

وكانت المستشفيات مؤثثة بأحسن الأثاث ، فقد قيل أن أثاث المستشفى المنصوري بالقاهرة كان يماثل أثاث قصر الخليفة وقصور الأمراء .

أما الغذاء فقد كان يحتوي على لحوم الأبقار والأغنام والطيور وكان يعطى لكل مريض الغذاء الموافق لصحته وبالمقدار المناسب . وفي المستشفيات العمومية كان الساعور مسؤولاً عن علاج المرضى يعاونه رؤساء الأقسام الأكفاء . وكان في كل مستشفى أطباء مختصون بالأمراض الداخلية أو الجراحة أو العيون .

وكان المرضى يفحصون أولاً في القاعة الخارجية فمن كان منهم بحالة مرض خفيف يكتب له العلاج ويصرف من صيدلية المستشفى أما الذين هم بحاجة إلى المعالجة في المستشفى فكانوا يدخلون إليه وبعد قيد أسمائهم يعطون حماماً وثياباً نظيفة وكانت ثيابهم القديمة ترسل إلى المخزن . ويبقى هؤلاء المرضى في المستشفى حتى الشفاء التام . وعند خروجهم من المستشفى كانوا يعطون بدلة من الثياب ومبلغاً من النقود يكفيهم للعوز إلى أن يصبحوا قادرين على العمل .

أما صيدلية المستشفى فقد كانت بعهدة صيدلي كفء وكانت مملوءة بأصناف الأدوية والأشربة الموضوعة في أفخر البراني والأواني الصينية . والواقع أن العرب كانوا أول من أنشأ فن الصيدلة وتحضير الأقراباذين وإقامة الرقابة على الصيدليات والصيادلة .

وقد توصل أطباء بغداد الى آراء جديدة في الطب تخالف آراء القدماء في تدبير الأمراض مثل نقلهم تدبير أكثر الأمراض التي كانت تعالج قديماً بالأدوية الحارة إلى التدبير البارد كالفالج والاسترخاء . وأول من فطن إلى هذه الطريقة ونبه عليها وأخذ المرضى بالمداواة بها الشيخ أبو منصور صاعد بن بشر الطبيب ببغداد فانه أخذ المرضى بالفَصْد والتبريد والترطيب ومنعهم من الغذاء فأنجح تدبيره فعينوه رئيساً للمارستان العضدي ببغداد فرفع منه المعاجين الحارة والأدوية الحادة ونقل تدبير المرضى إلى ماء الشعير ومياه البزور فأظهر في المداواة عجائب فاقتدى به سائر الأطباء بعده .

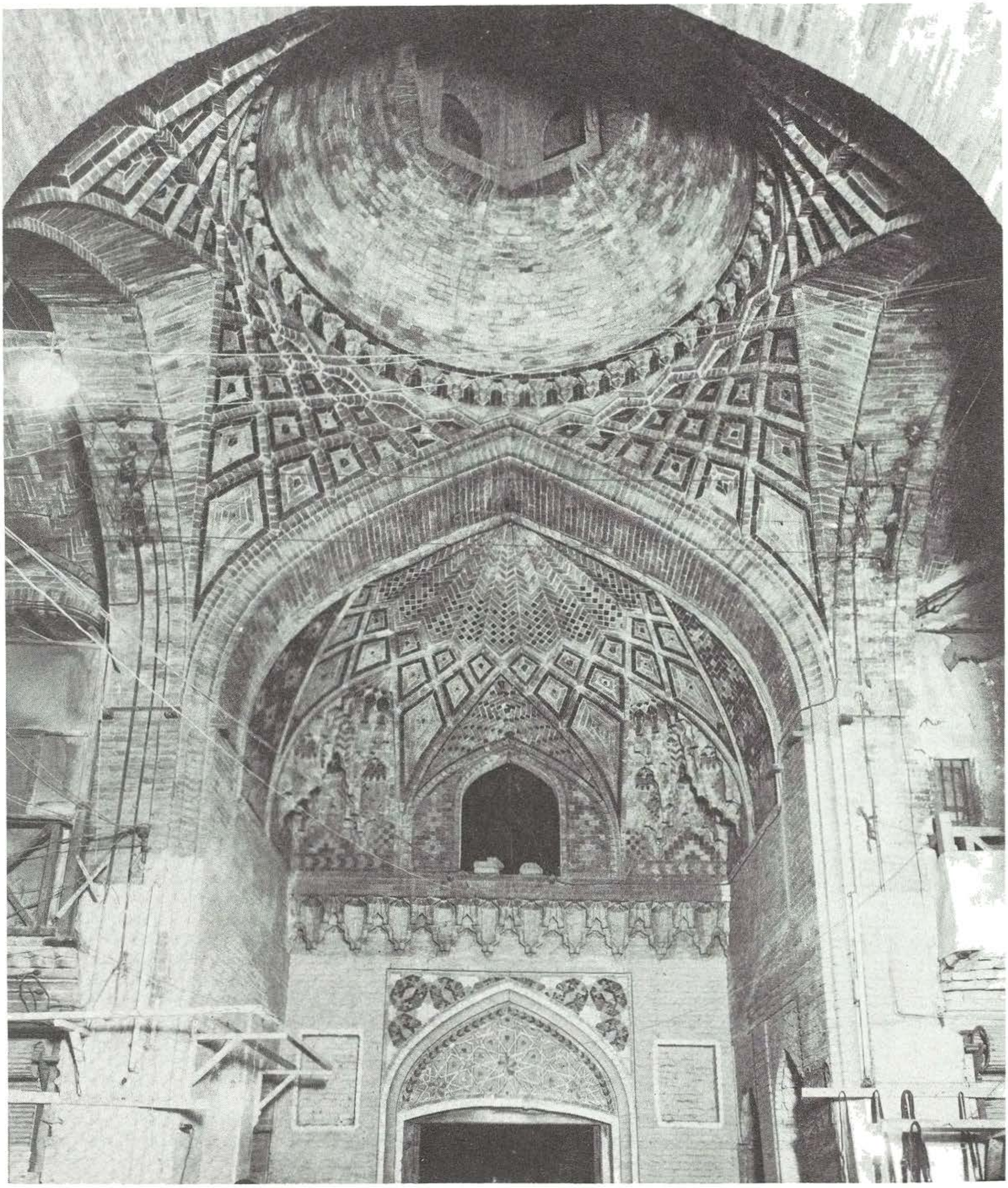
وقد جاء أن العرب استخدموا في مستشفياتهم الكاويات في الجراحة على نحو استخدامها اليوم . وهم أول من وجه الفكر الى شكل الأظافر في المسلولين ووصفوا علاج اليرقان والهواء الأصفر واستعملوا الأفيون بمقادير كبيرة لمعالجة الجنون ووصفوا صب الماء البارد لقطع النزف وعالجوا خلع الكتف بالطريقة المعروفة في الجراحة برد المقاومة الفجائي ووصفوا أبرة الماء الأزرق وهو قَدْح العين عند فقدان البصر وأشاروا إلى عملية تفتيت الحصاة في المثانة .

وقد تقدم العرب في إجراء العمليات الجراحية للحواس الدقيقة ، إذ كانوا يعالجون الأورام الأنفية وخياطة الأذن والشفة ،وقطع اللوزتين وشق أورام الحلق ، وقطع الأثداء السرطانية وغسل المثانة بالزراقة ، وإخراج الحصاة من المثانة أو تفتيتها وإخراج الجنين بالآلة ، وإخراج الجنين الميت ، وخياطة الجروح ، وإخراج العظام المكسورة ، وكشط الجلد الانساني وترقيعه بالجلد الحيواني ، وكانوا يفتحون قصبة الرئة لامكان الاستنشاق إذا تعذر من الخياشيم . وقد نجح الزهراوي في ضم جراح الامعاء بالخياطة . . الخ .

وتخصص عدد من الأطباء بطب الأسنان وطرق معالجتها وشدها بخيوط الذهب والفضة وعرفوا كثيراً من الآلات الخاصة بجراحة الفم ومعالجة الأسنان. كما استعملوا النظارات التي عرفت قديماً بالمرآة . . .

ويمكن الاشارة الى وجود ما يشبه الفحص الطبي العدلي ببغداد في خلافة العباسيين عند حدوث بعض الوفيات الغامضة أو الاغتيال وكان الذين يقومون بذلك الاطباء والقضاة والشهود العدول وأصحاب الشرطة وكانوا يعملون على جذب شعر المتوفى ليستدل على الموت بالسم أو حتف الأنف.

منظر عام لواجهة مدخل جامع الوزير بسوق السراي ببغداد الشرقية وهو يمثل الزخارف في باطن القبة التي تتوج مدخل الجامع.



المراصد الفلكية ببغداد

بغداد مركز علم الفلك :

ان أول من عني بعلم الفلك أبو جعفر المنصور فقد قرب المنجمين وشجع المترجمين والعلماء وأغدق عليهم العطايا وأحاطهم بعنايته ورعايته واقتدى بالمنصور الخلفاء الذين ولوا الحكم بعده في نشر العلوم وتشجيع المشتغلين بها فترجموا كتب الأمم التي سبقت العرب وصححوا كثيراً من أغلاطها وأضافوا إليها مما ابتكروه أو اكتشفوه الشيء الكثير .

وأصبحت بغداد مركزاً لهذا العلم مدة خلافة العباسيين ، فأنشئت فيها الأرصاد ، ودونت الأزياج ، وتنوعت آلات الرصد وظهر كبار الفلكيين الذين نبهت أسماؤهم واشتهرت أعمالهم .

وقد اعتمدت دار الرصد المغولية — التي أنشئت سنة ٦٥٧هـ (١٢٥٩م) أي بعد سقوط بغداد بسنة واحدة — على علماء بغداد وفلكييها ، وعلى ما ألف ببغداد من كتب في هذا العلم ، وعلى الكتب التي جمعها نصير الدين الطوسي من بغداد والموصل وواسط والبصرة وكانت تبلغ نحو ٤٠٠ ألف مجلد . ويعتبر من جاء بعد العباسيين نقلة ومقلدين يوضحون ما ابتكره العباسيون ببغداد ويختصرون المطول من علم الفلك ويفصلون المختصر منه .

مدرسة بغداد الفلكية

لقد إزدهرت مدرسة بغداد الفلكية سبعة قرون منذ تأسيس مدينة السلام سنة ١٤٥هـ — ٧٦٢م حتى سنة ٨٥٤هـ — ١٤٥٠م . وقد أدت هذه المدرسة في خلافة الرشيد والمأمون الى أعمال مهمة . وأدمجت مجموعة الأرصاد التي تم أمرها في المراصد ببغداد ودمشق في كتاب « الزيج المصحح » . وقد عين العرب فيه مدة السنة بالضبط . وأقدم فلكيو المأمون على قياس خط نصف النهار الذي لم يوفق له الأوربيون إلا بعد ألف سنة كما يقول العالم الفرنسي الدكتور كوستاف لوبون Gustave Le Bon . واشتهر فلكيو بغداد بما وضعوه من التقاويم لأمكنة الكواكب السيارة وتعيينهم بالضبط مبادرة الاعتدالين .

ويرى الدكتور لوبون أن عمل العرب في حقل الحضارة قد دام الى ما بعد زوال سلطانهم السياسي بزمن طويل . ودام بفضل ذلك تقدم بغداد العلمي حتى بعد أن صارت في قبضة الأجانب . وقد ظلت مدرسة بغداد الفلكية على ازدهارها إلى أواسط القرن الخامس عشر الميلادي (التاسع الهجري) ولم تنقطع عن نشر رسائل مهمة في الفلك . فالبيروني علم الهنود ما انتهت إليه مدرسة بغداد ، وملكشاه السلجوقي أمر في سنة ٤٧٢هـ (١٠٧٩م) بالقيام بارصاد أدت الى إصلاح التقويم السنوي بما هو أفضل من التقويم الغريغوري الذي تم بعد ستمئة سنة .

كما ذكر لوبون أيضاً أن هولاكو نقل أفضل علماء العرب إلى المرصد الذي أنشأه بمراغة . كما نقل أخوه كوبلاي إلى بلاد الصين كتب علماء بغداد والقاهرة في علم الفلك . وقد استنبط هؤلاء معارفهم الفلكية الأساسية من تلك الكتب ولذا يقول لوبون : «إن العرب هم الذين نشروا العلم في العالم كله بالحقيقة » .

اسطرلاب كامل



وجمع تيمورلنك بمدينة سمرقند التي اتخذها عاصمة لامبراطوريته المشتملة على بلاد التركستان وفارس والهند — فريقا من علماء العرب . وأقبل حفيده أولوغ بك على علم الفلك بنشاط عظيم . ويمكن عد أولوغ بك الذي لا يفصله عن كپلر سوى قرن ونصف القرن ، آخر ممثل لمدرسة بغداد الفلكية .

مراصد بغداد الفلكية :

وقد أنشئت ببغداد وأطرافها خلال العصور العباسية عدة مراصد في أماكن مختلفة منها اشتهر فيها علماء فلكيون قاموا بأرصاد مهمة ووضعوا مؤلفات قيمة وصنعوا آلات انتشرت عند الناس يومئذ . ومن أشهر هذه المراصد :

أولاً — المرصد المأموني في الشماسية ببغداد :

يظهر أن المأمون أنشأ أول دار للرصد في الشماسية بأعلى بغداد الشرقية (عند محلة الصليخ إحدى محلات الأعظمية اليوم) وقد جمع المأمون ببغداد علماء الفلك وعقد لهم مجالس علمية كما بنى في الشام في سنة ٢١٤هـ (٨٢٩م) مرصداً آخر قال عنه البعض: أنه أول رصد بني في الاسلام . ويذكر المؤرخون أن المأمون أول من أشار باستعمال الآلات في الرصد. ولدينا أخبار حسنة عن الفلكيين الذين اشتغلوا في المرصد المأموني .

قياس دائرة نصف النهار في زمن المأمون :

ذكر سِنْد بن علي أن المأمون أمره هو وخالد بن عبدالملك المروالروذي أن يقيسا مقدار درجة من أعظم دائرة من دوائر سطح الأرض فسارا إلى جهة تدمر . وأمر علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي بن البحتري بمثل ذلك فسارا إلى ناحية أخرى هي ناحية سنجار . وقد ورد الكتابان من الناحيتين المذكورتين في وقت واحد بقياسين متفقين . وهناك رواية أخرى ذكرها ابن خلكان المتوفى سنة ٦٨١هـ — ١٢٨١م ملخصها أن المأمون كان مغرى بعلوم الأوائل وتحقيقها ورأى فيها أن دور كرة الأرض أربعة وعشرون ألف ميل فأراد المأمون أن يقف على حقيقة ذلك فقال لبني موسى أريد منكم أن تعملوا الطريق الذي ذكره المتقدمون حتى نبصر هل يتحرر ذلك أم لا ، فأخذوا معهم جماعة ممن يثق المأمون إلى أقوالهم ويركن إلى معرفتهم بهذه الصناعة وخرجوا إلى سنجار ثم سيرهم إلى أرض الكوفة كما فعلوا في سنجار فتوافق الحسابان فعلم المأمون صحة ما حرره القدماء .

وكان طول الدرجة عند فلكيي المأمون ١٨٥ر١١١ متراً وطول جميع محيط الأرض ٢٤٨ر٤١ كيلومتراً وهو قريب من الحقيقة دال على ما كان للعرب من الباع الطويل في الأرصاد وأعمال المساحة . ويذكر نلينو أن قياس العرب هو أول قياس حقيقي أجري كله مباشرة مع كل ما اقتضته تلك المساحة من المدة الطويلة والصعوبة والمشقة واشتراك جماعة من الفلكيين والمساحين في العمل فلا بد لنا من عد ذلك القياس من أعمال العرب العلمية المجيدة المأثورة .

ومما يستحق الذكر أن البيروني أراد تحقيق مقياس المأمون وبعد أن قام بالاجراءات الضرورية قال أن حاصل امتحانه كفانا دلالة على ضبط القياس المستقصى الذي أجراه الفلكيون في أيام المأمون .

ويذكر نلينو أنه لم يقم أحد بعد العرب بمثل هذه التجارب في أوربة إلا طبيب فرنسي في سنة ١٥٢٥م ويقول سيديو Sédillot أن العرب قالوا باستدارة الأرض وبدورانها حول محورها وهم الذين ضبطوا حركة أوج الشمس . بينما لم ينتشر تعليم حركة الأرض الدورية عند الفرنج إلا بعد سنة ١٥٢٣م عندما وضح ذلك كوبرنيك Copernic الذي يذكر أن كثيراً من كتب الفلك العربية نقلت إلى اللاتينية والفرنسية والايطالية . ويذكر كاجوري Cajori أن اكتشاف بعض أنواع الخلل في حركة القمر يعزى إلى أبي الوفاء وليس إلى الفلكي (تيخو براهي) الدانماركي .

ثانياً — مرصد بني موسى

لقد بنيت بعد وفاة المأمون مراصد عدة منها: مرصد بني موسى بن شاكر الذي أنشيء على طرف الجسر المتصل بباب الطاق واستخرجوا فيه حساب العرض الأكبر من عروض القمر .

ثالثاً — مرصد بني الأعلم

وهو من المراصد التي بنيت ببغداد بعد وفاة المأمون أيضاً .

رابعاً — المرصد الشرفي ببغداد

وهو المرصد المنسوب الى شرف الدولة بن عضد الدولة البويهي وقد بناه في حديقة قصره المعروف بدار المملكة ببغداد على نهر دجلة . وقد ذكر المؤرخون عدداً من فلكيي هذا المرصد (١) .

أشهر الرصاد البغداديين :

لقد حفلت بغداد بعدد كبير من الرصاد والمنجمين منذ عهد المنصور حتى المستعصم وقد اشتهر هؤلاء الرصاد بأزياجهم والاتهم التي اخترعوها وبكتبهم التي ألفوها ونجد في كتاب الفهرست لابن النديم وكشف الظنون للحاج خليفة وعيون الأنباء في طبقات الأطباء وتأريخ الحكماء للقفطي وفي كتب التراجم وغيرها جملة طيبة من هؤلاء الرصاد والمنجمين والكتب الفلكية التي ألفوها والآلات التي صنعوها نذكر منهم على سبيل المثال :

١ — **ابراهيم بن حبيب الفزاري :** الامام العالم المشهور المذكور في حكماء الاسلام وهو أول من عمل في الاسلام إسطرلاباً وله كتاب في تسطيح الكرة منه أخذ كل الاسلاميين . وكان ميله إلى علم الفلك وما يتعلق به . ومن كتبه : كتاب المقياس للزوال ، وكتاب الزيج على سني العرب ، وكتاب العمل بالاسطرلابات ذوات الحلق ، وكتاب العمل بالاسطرلاب المسطح .

٢ — **محمد بن ابراهيم بن حبيب الفزاري :** وهو أول من عني في الملة الاسلامية بعلم التنجيم وكان في حاشية المنصور هو وأبوه المقدم ذكره . وكان خبيراً بتسيير الكواكب . عمل في أول الدولة العباسية كتاباً يسميه المنجمون السند هند الكبير اختصره من أصل هندي واتخذه العرب أصلاً في حركات الكواكب وظل معمولاً به الى زمن المأمون ثم اختصره أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي وعمل منه زيجه المشهور ببلاد الاسلام . والفَزاري من ولد الصحابي سَمُرة بن جندب . والفزاري هو الذي اختار للمنصور الوقت المناسب للبدء ببناء بغداد . ويذكر ابن النديم أنه أول من عمل الاسطرلاب في الاسلام .

٣ — **موسى بن شاكر :** وقد ذكرنا أنه كان هو وبنوه الثلاثة متقدمين في الرياضيات وهيئة الأفلاك وحركات النجوم وكان موسى بن شاكر مشهوراً من منجمي المأمون وكان بنوه أبصر الناس بالهندسة وعلم الحيل ولهم في ذلك تواليف عجيبة تعرف بحيل بني موسى . وهي شريفة الأغراض ، عظيمة الفائدة ، مشهورة عند الناس .

٤ — **الخوارزمي :** وهو محمد بن موسى الخوارزمي ظهر في عصر المأمون ، وولاه منصب بيت الحكمة . وبرز في الرياضيات والفلك وهو أول من استعمل كلمة (جبر) وألف فيه كتاباً ومنه عرف الغربيون هذا العلم ومنه استقى فحول أوربة في القرون الوسطى . وقد أبدع الخوارزمي في الفلك وابتكر أموراً فيه وفي المثلثات وعمل زيجاً

---

(١) يرجح أن موقع دار المملكة في أعلى محلة « العلوازية » الحالية في أراضي آل المميز .

خاصاً وكان لزيجه الذي اختصره من السند هند أثر كبير في الأزياج الأخرى التي عملها العرب. ولذلك يعتبر الخوارزمي من أكبر علماء العرب ومن العلماء العالميين الذين تركوا مآثر جليلة في العلوم الرياضية والفلكية.

٥ ـــ **الحسن بن محمد الطوسي التميمي:** المعروف بالأبح أحد المنجمين الحسابيين في زمن الرشيد.

٦ ـــ **حبش الحاسب المروزي البغدادي:** واسمه أحمد بن عبدالله كان في زمن المأمون والمعتصم له تقدم في حساب سير الكواكب وله ثلاثة أزياج وقد ضمن زيجه الثاني حركات الكواكب على ما يوجبه الامتحان في زمانه وله كتاب حسن في العمل بالاسطرلاب.

٧ ـــ **أبو معشر البلخي:** وهو عالم أهل الاسلام بأحكام النجوم وكان منزله بالجانب الغربي من بغداد بباب خراسان ومات بواسط. وكان معاصراً لمحمد بن سنان البتّاني. وكان منجماً للموفق أخي المعتمد.

٨ ـــ **محمد بن جابر البتاني:** أحد عظماء العرب المشهورين برصد الكواكب والمتقدمين في علم الهندسة وعلم الأفلاك وحساب النجوم وله زيج جليل ضمنه أرصاد النيرين. وكان بعض أرصاده التي سماها في زيجه في سنة ٢٦٩هـ وفي سنة ٢٨٧هـ. ولا يعلم أحد في الاسلام بلغ مبلغه في تصحيح أرصاد الكواكب وامتحان حركاتها. ابتدأ في الرصد من سنة ٢٦٤هـ الى سنة ٣٠٦هـ وأثبت الكواكب الثابتة في زيجه في سنة ٢٩٩هـ. والبتاني فلكي شامي جاء الى بغداد مع بني الزيات من أهل الرقة فلما رجع مات في طريقه بقصر الجص في سامراء سنة ٣١٧هـ. وقد عده الفلكي الفرنسي « لالاند » واحداً من العشرين فلكياً المشهورين في العالم كله. وقالت هونكه: « لقد كان تأثير هذا العربي النابغة على بلاد الغرب عظيم الشأن فسيطرت نظرياته في علمي الفيزياء والبصريات على العلوم الأوربية حتى أيامنا هذه.

٩ ـــ **يعقوب الكندي:** وهو فيلسوف العرب الشهير من ذرية الأشعث بن قيس الكندي أحد أصحاب الرسول (ص) ويشتهر بتبحره في فنون الحكمة « وهو من الأثني عشر عبقرياً الذين ظهروا في العالم » لأنه كان عالماً بالطب والفلسفة والحساب والهندسة والمنطق وعلم النجوم وتأليف اللحون وطبائع الأعداد وقد انتخبه المأمون ليكون أحد الذين يعهد إليهم في ترجمة مؤلفات أرسطو. وكان مهندساً قديراً بحيث كان يرجع إلى مؤلفاته عند القيام بأعمال البناء أو حفر الأقنية بين دجلة والفرات. وقد عني بعلم الفلك والأرصاد وله في ذلك رسائل ومؤلفات. وقد عده بعض المؤرخين واحداً من ثمانية هم أئمة العلوم الفلكية في القرون الوسطى. وكان لا يؤمن بأن للكواكب تأثيراً في السعد والنحس. وقد لاحظ أوضاع النجوم والكواكب وبخاصة الشمس والقمر بالنسبة للأرض فأتى بآراء خطيرة وجريئة عن نشأة الحياة على الأرض دفعت العلماء الى الاعتراف بأنه مفكر عميق من الطراز الحديث. وكان لمؤلفاته في البصريات تأثير كبير في العقل الأوربي وقد وضع تآليف في الايقاع الموسيقي قبل أن تعرف أوربة الايقاع بعدة قرون. وقد وضع عدداً كبيراً من الكتب بلغ منها في النجوم تسعة عشر كتاباً وفي الفلك ستة عشر كتاباً وثمانية كتب في الكريات كما وضع رسائل في بعض الآلات الفلكية حتى قيل أن دولة المعتصم كانت تتجمل بالكندي وبمصنفاته وهي كثيرة جداً.

١٠ ـــ **ويجن بن رستم أبو سهل الكوهي:** وكان عالماً بعلم الهيأة وصنعة آلات الارصاد. تقدم في الدولة البويهية والأيام العضدية وبعدها. ولما حضر شرف الدولة الى بغداد عند اخراج أخيه صمصام الدولة بن عضد الدولة من الملك بالعراق واستولى عليه، أمر في سنة ٣٧٨هـ برصد الكواكب السبعة في مسيرها وتنقلها من بروجها على مثل ما كان المأمون فعله في أيامه وعول على أبي سهل ويجن بن رستم الكوهي في القيام بذلك وكان حسن المعرفة بالهندسة وعلم الهيأة فبنى له بيتاً في دار المملكة في آخر البستان مما يلي باب الحطابين وأحكم أساسه وقواعده لئلا يضطرب بنيانه أو يجلس شيىء من حيطانه، وعمل فيه آلات استخرجها ورصد ما كتب له محضران أخذت فيهما خطوط الحاضرين بما شاهدوا واتفقوا عليه.

١١ ــ **أحمد بن محمد الصاغاني** : المتوفى سنة ٣٧٩هـ (٩٨٩م) ببغداد وهو أبو حامد الاسطرلابي كان فاضلاً في الهندسة وعلم الهيأة . وكان ببغداد يحكم صناعة الاسطرلاب والآلات الرصدية غاية الاحكام . وآلاته مذكورة بأيدي أرباب هذا الشأن ، وقد نبغ له عدة تلاميذ ينسبون اليه ويفخرون بذلك . وله زيادة ابتكرها في الآلات القديمة فاز بها دون غيره .

ولما تقدم شرف الدولة بن عضد الدولة ببغداد برصد الكواكب السبعة اعتمد في ذلك على ويجن بن رستم الكوهي . وبنى بيت الرصد في طرف بستان دار المملكة ورصد وكتب محضرين بصورة الرصد . كان أحمد الصاغاني ممن شاهد ذلك وكتب خطه بتصحيح نزول الشمس في برجين من بروجها .

١٢ ــ **أبو الوفاء البوزجاني الحاسب** : المتوفى سنة ٣٨٧هـ (٩٩٨م) انتقل من بلدته بوزجان بين هراة ونيسابور الى بغداد وعمره يومئذ عشرون عاماً وهو أحد الأئمة المعدودين في الفلك والرياضيات . واعترف له كثير من علماء الغرب بأنه من أشهر الذين برعوا في الهندسة . وله فيه استخراجات غريبة لم يسبق اليها . وقد قضى أبو الوفاء حياته ببغداد في التأليف والرصد والتدريس وقد انتخب ليكون أحد أعضاء المرصد الشرفي الذي أنشأه شرف الدولة . وقد استطاع أبو الوفاء أن يجد حلولاً تتعلق بالقطع المكافىء وقد مهدت هذه الحلول السبيل أمام علماء أوربة ليتقدموا بالهندسة التحليلية خطوات واسعة أدت الى التكامل والتفاضل الذي يعتبر من أهم ما وصل اليه العقل البشري . ويقول كوستاف لوبون : ان أبا الوفاء هو الذي عرف الاختلاف القمري الثالث وقد عزي هذا الاكتشاف بعد ستمئة سنة الى تيخوبراهي (Tycho Brahe) الدانمركي المتوفى في سنة ١٦٠١م . ويرى لوبون أن هذا الاكتشاف عظيم للغاية لأن مسيو سيديو (Sedillot) استدل به على وصول مدرسة بغداد في أواخر القرن العاشر الى أقصى ما يمكن علم الفلك أن يصل اليه بغير نظارة ومرقب .

١٣ــ**عبدالرحمن الصوفي** : وهو من كبار علماء الفلك ولد سنة ٢٩١هـ (٩٠٣م) وتوفي ٣٧٦هـ (٩٨٦م) . اتخذه عضد الدولة البويهي معلماً لمعرفة مواضع وحركات النجوم الثابتة . وبنى له مرصداً فلكياً في حدائق قصره هو المرصد الشرفي الذي تكلمنا عليه آنفاً وقام برصد النجوم وعدها وحسب أبعادها عرضاً وطولاً في السماء ، واكتشف نجوماً ثابتة لم يلحظها « ابرخس » الزفني (Hipparch) المتوفى سنة ١٢٥ق.م. ثم رسم خريطة للسماء بدقة كبيرة حسب فيها مواضع النجوم الثابتة وأحجامها من جديدمقدراً درجة اشعاع كل منها وذلك لكي يستخدمها في تعليم امرأته.

وكان عضد الدولة يفخر بعبدالرحمن الصوفي المذكور لأنه كان معلمه في الكواكب الثابتة وسيرها . وقد ذكر القفطي انه كان في خزانة الكتب بالقاهرة في سنة ٤٣٥هـ كرة من فضة من عمل أبي الحسين الصوفي للملك عضد الدولة وزنها ثلاثة آلاف درهم وقد اشتريت بثلاثة آلاف دينار .

١٤ ــ **هارون بن علي بن هارون بن يحيى بن أبي منصور المنجم** : كان منجماً خبيراً بعلم الهيأة والعمل لآلاتها ، وله زيج مشهور يعمل الناس به . توفي ببغداد سنة ٣٣٦هـ .

١٥ــ **ابراهيم بن هلال بن ابراهيم** : ويعرف بابن زهرون . وقد نشأ ببغداد وكانت له يد طولى في علم الرياضة وخصوصاً الهندسة . وقد خدم ملوك العراق من بني بويه . وكانت ولادته في شهر رمضان سنة ٣١٣هـ ووفاته ببغداد في ١٢ شوال سنة ٣٨٤هـ ودفن بالموضع المعروف بالجنينة المجاورة للشونيزية. وكان من جملة الفلكيين الذين ندبهم شرف الدولة بن عضد الدولة ليشرفوا على الرصد في مرصد بغداد .

١٦ ــ **أبو القاسم القصري** : منجم حاذق مشهور الذكر ولم يزل قيماً بصناعته إلى أن توفي ببغداد سنة ٤١٣هـ .

١٧ ــ **البديع الاسطرلابي** : وهو عبدالله بن الحسين أبو القاسم البغدادي . وكان وحيد زمانه في عمل الآلات وقام بأمور عجز عنها المتقدمون وقد عاش في زمن المسترشد بالله .

خدمات الاسطرلاب

لقد استعمل العرب الاسطرلاب في أرصادهم وحساباتهم الفلكية والجغرافية والطبوغرافية وفي الملاحة . وقد فاقوا في صنعه الأمم التي كانت قبلهم من البابليين واليونان . وأصبح للاسطرلاب عندهم علم خاص به يبحث في كيفية استعماله ومعرفة صنعة خطوطه على الصفائح ، ومعرفة كيفية الوضع في كل عرض من الأقاليم . وقد يعمل إسطرلاب شامل لجميع البلاد وهذا عظيم النفع جداً .

وقد ألف العرب ببغداد وغيرها مؤلفات كثيرة فى صنع الاسطرلاب والعمل به خلال اثني عشر قرناً . وقد أحصي منها اليوم ، نحو مئتي مؤلف ما بين كتاب ورسالة في هذا العلم .

وفي المتحف العراقي ، ومتاحف العالم ، وفي خزائن الاشخاص والحسابين والميقاتيين جملة كبيرة من الاسطرلابات العربية المختلفة . وتختلف الاسطرلابات من حيث الشكل فمنها الكروي ، والمسطح ، والربع المُجَيَّب والاسطرلاب الخطي وهو المعروف بـ (عصا الطوسي) نسبة إلى المظفر بن المظفر الطوسي المتوفى سنة ٦١٠هـ ــ ١٢١٣م . والربع الحائطي والربع السمتي والربع المتنقل الذي صنع منه على أقل تعديل ثمانية عشر شكلاً . وتذكر المستشرقة هونكه : أن البيروني استعمل ربعاً فلكياً حائطياً قطره سبعة أمتار ونصف المتر وبلغ قطر الربع الفلكي الذي أمر أولوغ بك بصنعه أربعين متراً . وقد اخترع العرب مسدسات السطوح ومثمناتها . وقد استعملت الآلات العربية في مراصد بلاد الغرب . وكانت الساعة الشمسية النقالة الاسطوانية أكثر اختراعات العرب أصالة وفناً في هذا الحقل . وقد انتشرت هذه الساعة في بلاد الغرب أيضاً . وقد صنعت الساعات التي تسير بواسطة الماء أو الزئبق أو بالشمع المشتعل أو التي تعمل بواسطة الأثقال ، وأوجدوا الساعات الدقاقة التي كانت تعلن ساعة الغداء بصوت رنان والساعات المائية التي كانت تقذف في كل ساعة كرة في قدح معدني ، وتدور حول محور تظهر فيه النجوم ورسومات حيوانية كساعة الجزري وساعة المستنصرية . ومنها ساعات فيها فتحات منسقة الواحدة تلو الأخرى على هيئة نصف دائرة تبرق كلما جاوزت الساعة الثانية عشرة ليلاً في حين يمر فوقها هلال وضّاء . وتذكر أيضاً أن ساعة الرشيد التي قدمها إلى شارلمان كانت تسقط إلى الأسفل أثنتي عشرة كرة صغيرة محدثة ــ لدى اصطدامها برقاص معدني مثبت ، دوياً ايقاعياً جميلاً بالاضافة إلى عدد مماثل من الافراس الصغيرة التي كلما دارت الساعة دورتها الكاملة ، قفزت هذه الأفراس من فتحات الأبواب المذكورة وأغلقتها بقفزاتها هذه . وفي هذا الصدد تقول المستشرقة :

« نحن ما زلنا حتى يومنا هذا نقف فاغري الأفواه دهشة وإعجاباً كلما رأينا ساعة كبيرة في مبنى البلدية وما يرافق دقاتها من ظهور شخوص صغيرة متحركة تذكرنا بما فعله العرب في الماضي البعيد حباً بالألعاب الميكانيكية وولعاً بها . »

ويستعمل الاسطرلاب في الأمور الآتية :

١ ــ إستخراج البرج الذي تكون الشمس فيه،وعدد الدرجات التي قطعتها منه .

٢ ــ قياس ارتفاع الشمس والكواكب .

٣ ــ معرفة أوقات الصلوات المفروضة .

٤ ــ معرفة مغيب الشفق وطلوع الفجر .

٥ ــ معرفة أوقات النهار والليل .

٦ ــ معرفة ساعة واحدة من ساعات النهار والليل وكسورها .

٧ ـــ معرفة المجهول من الكواكب الموضوعة في شبكة الاسطرلاب من قبل ما هو معلوم منها .

٨ ـــ معرفة سَمْت الشمس بالنهار والكواكب بالليل .

٩ ـــ معرفة القِبلة بالليل والنهـــار .

١٠ـــ معرفة الطـــول والعرض .

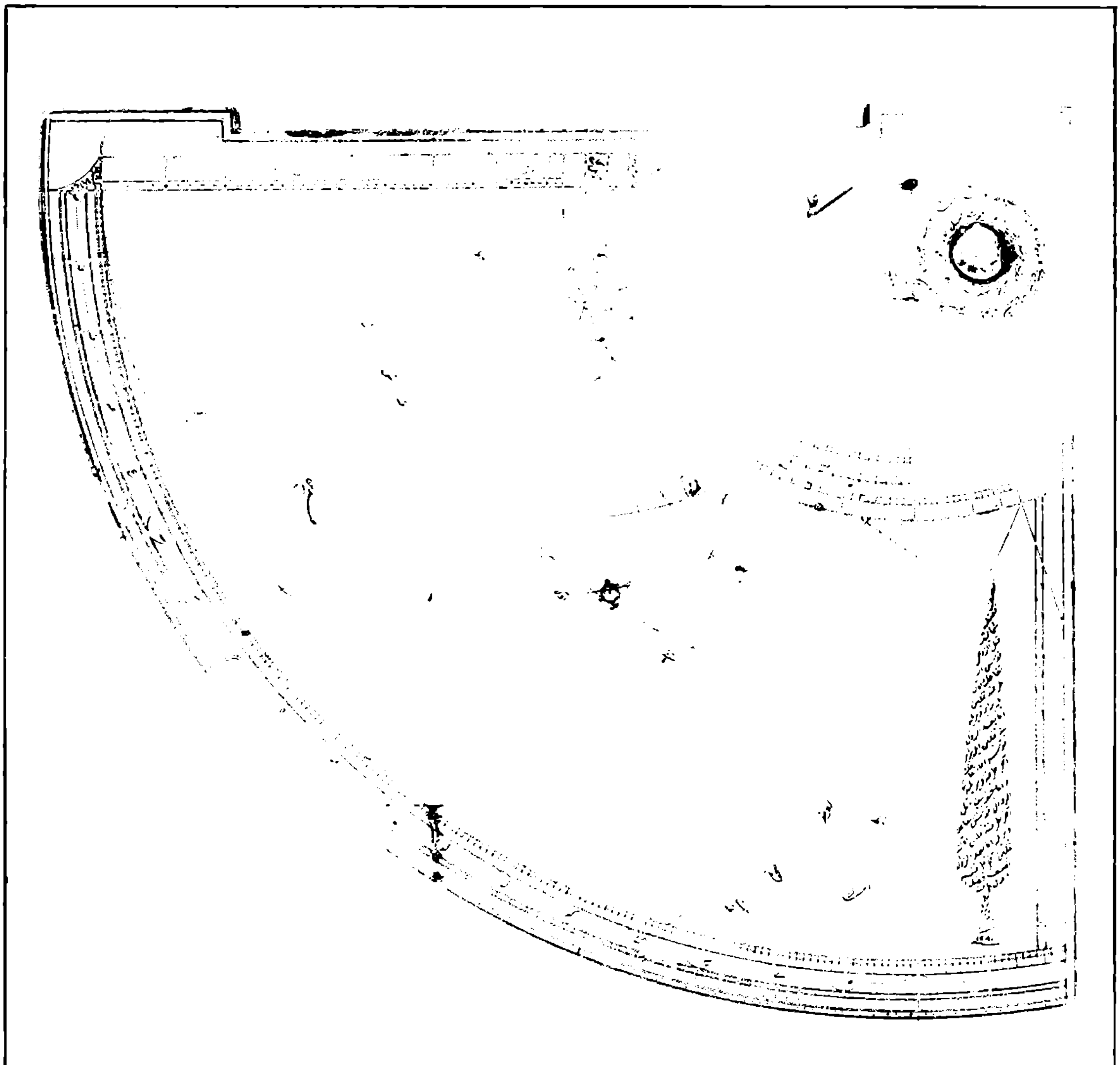
١١ـــ معرفة الظل من قبل ارتفاع الشمس وارتفاع الشمس من قبل الظل .

١٢ـــ معرفة ارتفاع ما بين مكانين وما يزيد الأعلى منهما على الأخفض .

١٣ـــ معرفة موضع القمر من البروج ، ومواضع الكواكب السيارة .

١٤ـــ معرفة المشـارق والمغـارب .

١٥ـــ وقد استعمل الاسطرلاب المسطح الصغير مكان الساعة الصغيرة التي تحمل في الجيب .



ربع مقنطر ـــ من الربع المجيب أو الربع الفلكي



بوصلة عربية ومزولة في الوقت نفسه لمعرفة سمت القبلة



وجوه خمسة اسطرلابات

العملة والنقود البغدادية

تمهيد

تمثل العملة البغدادية صفحة حضارية مهمة من النواحي الاقتصادية والتاريخية والصناعية والفنية والدينية خلال أحد عشر قرناً منذ تأسيس بغداد حتى سنة ١٢٦٢هـ ١٨٤٥م .

وفي المتاحف العالمية والمتحف العراقي كميات كبيرة من الدنانير والدراهم والفلوس التي ضربت ببغداد في خلافة العباسيين ومن جاء بعدهم من المغول والتركمان والصفويين والعثمانيين ، وتعد نموذجاً للنقود التي ضربت في دور الضرب في الأمارات والدول الاسلامية التي انسلخت عن الدولة العباسية خلال العصور ، وربما أربت على (١٥٠) مكاناً للضرب .

وقد ضربت كميات عظيمة من هذه النقود بدار الضرب ببغداد وكانت على صور شتى تتمثل فيها بوجه عام أنواع الخطوط والزخرفة ، واختلاف العيار والوزن ، وقيمة الدينار والدرهم وقوتهما الشرائية خلال العصور .

وكان يطلق على نقود الذهب لفظة « العين » وعلى نقود الفضة لفظة « الورق » . وكان العباسيون ببغداد ينقشون كلمة « الدينار » على الدينار وأجزائه وأضعافه . وقد تهمل كتابة لفظة « الدينار » على أجزاء الدينار أحياناً .

ومما كتبه العباسيون على الدينار أيضاً : البسملة ، وكلمة الشهادة وهي رمز التوحيد ، وآيات قرآنية مختلفة ، كما كانوا يكتبون مكان الضرب وسنة الضرب . . . الخ .

دور الضرب ببغداد

لقد ضربت النقود ببغداد المدورة بعد أن انتهى أبو جعفر المنصور من بنائها في مكان أطلق عليه « دار الضرب » وقد استمرت دار الضرب ببغداد الغربية ثم الشرقية في خلافة العباسيين ومن جاء بعدهم وأطلق عليها « دور الصرف » كما سميت في أواخر أيام العثمانيين ببغداد « السكه‌خانة » أي دار السكة كما يلاحظ ذلك في وقفية جامع القلعة المؤرخة سنة ١٠٤٨هـ (١٦٤٨م) .

وقد كان الخلفاء العباسيون أنفسهم يتولون أمر « دار الضرب » ببغداد أو سامراء . ويذكر المؤرخون أن الخليفة موسى الهادي أودع أمرها إلى وزيره علي بن ماهان . كما أن الرشيد عهد بها إلى وزيره جعفر البرمكي وترفع عن مباشرة العيار بنفسه . وصير الخليفة الأمين دور الضرب إلى العباس بن الفضل بن الربيع .

وقد ضرب ببغداد « دنانير أميرية » باسم الأمراء وولاة العهد العباسيين من زمن أبي جعفر المنصور . وكان أول ولي عهد ذكر اسمه على الدينار هو « محمد الأمين » سنة ١٧٩هـ كما أن أول خليفة ذكر اسمه على الدينار هو هارون الرشيد سنة ١٩٠هـ . ويظهر أن أول مرة ذكرت فيها « مدينة السلام » على الدينار العباسي كانت في خلافة المأمون سنة ١٩٨هـ . بينما ذكرت « مدينة السلام » على الدرهم العباسي من أيام أبي جعفر المنصور . وأول خليفة ذكر اسمه على نقود الفضة هو محمد المهدي ابن أبي جعفر المنصور .

وعندما سيطر البويهيون والسلاجقة على الخلافة أصبحوا يقومون بادارة دور الضرب بأنفسهم . وفي سنة ٤٦٢هـ عهدت دار الضرب الى وكلاء الخليفة بسبب البهرج الذي كثر في أيدي الناس على السكك السلطانية . ويذكر ابن الأثير أن اسم ولي العهد ضرب على الدينار وسمي « الأميري » ومنع التعامل بسواه .



نماذج من نقود الصلة المصورة المضروبة بمدينة بغداد في خلافة العباسيين ـــ الصورة التخطيطية تمثل الخليفة المقتدر.

وكيفية الضرب أن تنقش النصوص على سكك من الحديد بشكل معكوس كالخاتم . وبعد أن يصهر الذهب وينقى مرة بعد أخرى لتحقيق عياره يسكب، ويقطع إلى أجزاء بوزن الدينار وبعد ذلك يضرب بالسكة على كل قطعة حتى يظهر النقش على وجهي العملة .

وكانت السكك المذكورة تعمل في دار الخلافة ببغداد ومنها ترسل إلى دور الضرب الأخرى .

وكان يستقطع واحد بالمئة أو أكثر من قيمة المسكوكات ثمناً للوقود وأجور العمال والموظفين الذين يتولون ضرب النقود في دور الضرب .

ومن الأماكن التي ضربت فيها النقود ببغداد قلعة الامام الأعظم أبي حنيفة بالأعظمية حيث نصبت دار الضرب سنة ١٠٣٥هـ (١٦٣٥م) .

عيار العملة البغدادية

لا تختلف النقود في سبكها أو سكها وإنما تختلف في عيارها فالدرهم خمس حبات ذهباً ، والحبة أربعة فلوس نقرة ، والدينار تتفاوت قيمته بين ١٢ درهماً و١٠ دراهم .

وكان العيار بالصنجات الزجاجية وهي عيار على هيئة الدرهم والدينار وتشبهها في الكتابة والنقوش التي عليها . وقد اتخذت من الزجاج لأن الزجاج لا يتأثر بالحر أو البرد .

وكانوا يستعملون صنجات للدنانير بما يعادل الدينار ونصفه وثلثه ، والدراهم بوزن درهمين ودرهم واحد ونصف الدرهم أي على أساس ما يضرب منهما ومن أجزائهما .

ولم تستعمل الصنجات إلا لأن عيار الذهب والفضة كان يختلف على مر العصور فأتخذت الموازين الخاصة في دور الضرب لتصفية الذهب والفضة ومزج كل منهما ومعرفة عياره .

وكان الدينار في العراق يساوي عشرين قيراطاً والدرهم أربعة عشر قيراطاً ، والقيراط وزنه ثلاث حبات . وكل عشرة دراهم تزن سبعة مثاقيل ذلك لأنهم وجدوا أن ذرة الفضة تزن سبعة أعشار ذرة الذهب .

واختلف قطر الدنانير العباسية فمنها ما كان قطرها (٢٠) مليمتراً ومنها ما بلغ قطرها ٢٥ مليمتراً و٣٠ مليمتراً ووصلت أحياناً إلى ٣٥ مليمتراً . وأما أنصاف الدنانير فقد بلغ قطرها ١٧ مليمتراً ، والأثلاث ١٢ مليمتراً وبعضها ١٣ مليمتراً ، والأرباع ١٠ مليمترات .

وقد أخذ بنظر الاعتبار مقدار الذهب والفضة عند الوزن . وظلت المعاملات تجري على أساسين هما : الوزن والنقود لأن الدرهم صار وزناً ونقداً ، والدينار نقداً واعتبر وزنه مثقالاً أي ٢٦٥ر٤ من الغرامات . وعد الدرهم سبعة أعشار الدينار فكل سبعة دنانير تزن عشرة دراهم . وقد كان الرسول (ص) أول من أقر مثل هذا الوزن ولذلك اعتبر أساساً في القضايا الشرعية حتى اليوم ، على أن الدرهم والدينار لم يحافظا على وزنيهما .

وقد ألفت الكتب في الأوزان لمعرفة النصاب والدية وتقدير الأدوية . وقد تغيرت هذه الأوزان بحسب البلاد والعصور وتعاقب الدول .

وقد راقبت الدولة دور الضرب والعيار والأوزان . وببغداد كان يوزن الدينار بازاء الدينار لينظر أيهما أثقل وكان للصيارفة والجهابذة أثر واضح في وزن الدنانير .

وكان الخلفاء يتشددون كثيراً في أمر العيار وتخليص الذهب ، وكانوا يعاقبون على التهاون في ذلك بأشد العقوبات حرصاً على سمعة ذهبهم فقد قيس عيار دينار للرشيد مؤرخ في سنة ١٩٣هـ وآخر للمطيع مؤرخ في سنة ٣٦١هـ فكان عيارهما ٩ر٩٧ بالمئة أي ٥ر٢٣ حبة .

وبعد أن نوهنا بالدينار الذهب والدرهم الفضة وعيارهما لابد لنا من أن نشير إلى الفلس النحاس الذي كان يضرب ببغداد أيضاً ويقال له « المس » وهو قطع صغار من النحاس تستعمل لشراء الأشياء الصغيرة . ذكر المقريزي أن الفلوس النحاس تستعمل في المحقرات من المبيعات وهي التي تقل عن أن تباع بدرهم أو جزء منه . ولا تسمى عملة ولا تقوم بمنزلة أحد النقدين . ويقول : ولقد كان ببغداد التي أربت عمارتها على عامة الأمصار يجعل بازاء غالب المبيعات عوضاً منها الخبز . ويذكر في سنة بضع وأربعمئة أنهم كانوا يتعاملون به في الأسواق ويقيمونه مقام الدرهم في الانفاق وينتقدونه نقداً اصطلحوا عليه وجعلوا لذلك قانوناً يرجعون إليه فيردون المثلوم والمكرج كما يرد الدرهم الزائف والدينار المبهرج ، ويشترون فيه أكثر المأكولات والمشمومات ، ويدخلون به الحمامات ، ويأخذه الباذ والخمار ، ولا يرده البزاز ولا العطار ، وللرغيف السميذ على غيره صرف مقدر وحساب عندهم معلوم محرر . ومع هذه العناية والاحتياط يباع كل ستين رغيفاً بقيراط .

ومن أخبار الفلوس النحاس ببغداد أنها أبطلت في سنة ٦٨٢هـ (١٢٨٣م) وضرب عوضها فلوس من الفضة وجعل كل (١٢) فلساً بدرهم ثم أبطلت في سنة ٦٨٣هـ وأعيدت فلوس المس . وتعامل بها الناس كل ثلاثين فلساً بدرهم . وفي سنة ٦٨٤هـ أبطلت هذه الدراهم أيضاً وضربت دراهم غيرها .

التصوير في النقود البغدادية أو نقود الصلة

يلاحظ وجود عدد من الدنانير والدراهم البغدادية عليها صور بعض الخلفاء العباسيين مع تصاوير أخرى مختلفة . ويظهر أن التصاوير لم تنقش على النقود المتداولة بين الناس وإنما نقشت على بعض النقود التي كان ينعم بها على الناس أو تنثر على رؤوس الخلفاء والسلاطين والأمراء في الأفراح والأعياد والمناسبات المختلفة ، وتعرف بـ « نقود الصلة » .

والعباسيون أول من ضرب « نقود الصلة » ففي خلافة الرشيد كما ورد في النبراس ضرب جعفر بن يحيى البرمكي عشرة آلاف دينار قيمة الواحد منها مئة دينار ، وكان يفرقها على الناس في النيروز والمهرجان . ويروى أنه وجد في دار جعفر البرمكي بعد مقتله بركة فيها أربعة آلاف من الدنانير الذهب زنة الواحد منها مئة مثقال ومثقال . وقد كتب على وجه كل منها بيت من الشعر .



نماذج من النقود المضروبة بمدينة بغداد في عهد الخلفاء- هارون الرشيد والأمين والمأمون .

وفي خلافة الأمين ضربت دنانير للصلة كبيره الحجم زنة الواحد منها عشرة مثاقيل كتب عليها :

« كل عز ومفخر ، فلموسى المظفر ، ملك خص ذكره ، في الكتاب المسطر »

وضرب الناصر لدين الله دنانير ذات وزن ثقيل وصلت إلى (١٨) غراماً وكان قطرها نحو ٣٥ مليمتراً .

وكذلك ضرب المستنصر والمستعصم دنانير من الوزن الثقيل أيضاً .

وضرب العباسيون من أجزاء الدينار للتعامل : الربع والثلث والنصف وعلى وزن الدرهم وأقل منه . وقد ضربوا من الأضعاف من فوق المثقال الى أربعة مثاقيل . وكانوا يضطرون أحياناً إلى وزنها وهذا يختلف عما كان يضرب من الدنانير في المناسبات أو للكنز والخزن أو الأهداء فقد كانت كبيرة الحجم والوزن كما نوهنا بذلك .

وقد وجد بين دراهم المتوكل درهم ضرب في سنة ٢٤١هـ فيها صورته ، وفي الوجه الآخر صورة رجل يقود جملاً . ويظهر أن هذه الدراهم من « نقود الصلة » أيضاً .

ويلاحظ بين نقود المقتدر بين سنة ٢٩٥ـ٣٢٠هـ نقد فيه صورة المقتدر وفي يده اليمنى كأس وشيء كالسلاح . وفي الوجه الثاني صورة مغنية تلبس رداء وفي يديها عود تعزف عليه .

وكانت الفلوس النحاسيه تحوي تصاوير بشرية أو حيوانية أيضاً .

العملة البغدادية بعد العباسيين

بعد سقوط بغداد بيد المغول استعملت النقود العباسية المضروبة ببغداد وغيرها ، من ذلك « الدنانير العوال » وهي الدنانير الحمر . ولم تختلف نقود المغول التي ضربوها ببغداد بعد إسلامهم عن نقود العباسيين . وكان المغول يكتبون كلمة الشهادة وأسماء الخلفاء الراشدين الأربعة كذلك فعل التركمان من بعدهم .

وظلت النقود تضرب ببغداد في أيام المغول من الايلخانيين والجلايريين من عهد هولاكو وخلفائه . وقد ضربت النقود متساوية ليتعامل بها بالعدد ولما أسلم السلطان غازان أمر أن يصفى الذهب والفضة من الغش وتضرب الدراهم متساوية الوزن ليتعامل بها الناس بالعدد أيضاً . وحذف اسم القاآن من النقود بعد أن كان يذكر عليها منذ سقوط بغداد.

وضرب المشعشعيون والصفويون نقوداً قليلة ببغداد لكن العثمانيين ضربوا كثيراً من نقودهم ببغداد خلال حكمهم الطويل للعراق . ولم تختلف هذه النقود عن بعضها بوجه عام إلا بما كان يكتب عليها من أسماء السلاطين .

ومن التواريخ المتأخرة التي ضربت فيها الدنانير ببغداد سنة ١٢٤٧هـ (١٨٣١م) . أما الدراهم التي ضربت ببغداد فلم تتجاوز سنة ١٢٤٩هـ (١٨٣٣م) . وأما الفلوس النحاسية فقد ظلت تضرب حتى سنة ١٢٥٥هـ ولم يوجد لل (بارات) النحاسية نماذج بعد سنة ١٢٦٢هـ (١٨٤٥م) .

وكان يقال للدرهم المضروب ببغداد « بغدادي » . وقد تفننت هذه الأقوام في نقش النقود التي كانت تضرب ببغداد وفي تزيينها والكتابة عليها بالخطوط الكوفية . وظلت اللغة العربية هي اللغة الغالبة فيها بوجه عام . كما يمكن أن نذكر أن نقود البلاد المجاورة للعراق قد تأثرت إلى حد بعيد بنقود بغداد وبما كان يكتب عليها وبالصور التي تصور فيها وبشكل الخطوط الكوفية أو غيرها .

العملة الورقية ببغداد

يذكر المؤرخون أن عمر بن الخطاب (ر) أول من استعمل بالحجاز قطعاً صغيرة من جلد الابل بدلاً من النقود الفضة أو الذهب .

على أن بغداد استعملت « الحوالات المالية » والأوراق التجارية في صكوك بدلاً من النقود لتسهيل معاملات الناس .

ويذكر الرحالة المغربي محمد بن سعيد الذي زار بغداد في القرن السابع الهجري أنه رأى التجار ببغداد يستعملون أوراقاً نقدية وهي أوراق لينة ناعمة مصنوعة من ورق التوت .

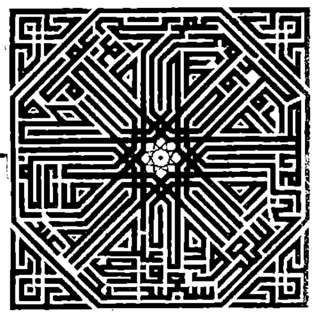
ومن النقود التي استعملت ببغداد في عهد المغول ما يأتي :

١ ـــ **البالش** : وهو نقد من الذهب أو الفضة . وكان البالش الذهب يزن (٥٠٠) مثقال ويتكون من (٢٥) قطعة كل قطعة تزن نحو ثمانين ديناراً . أما البالش الفضي فيزن خمسمئة مثقال أيضاً وربما تكون من (٢٥) قطعة أيضاً كل قطعة ثمانية دنانير .

٢ ـــ **البالش الورق** : وهو عملة من الكاغد بقدر الكف مختومة بطابع السلطان وكل (٢٥) قطعة منه تسمى بالش أو بالشت .

٣ ـــ **الجاو** : وهو عملة ورقية أيضاً استعملت بدل النقود الذهب أو الفضة يذكر عليها اسم سلطان المغول وكان يتكون من عشرة دنانير إلى الدرهم وأجزائه . ويظهر أن الذي وضعه هو صدر الدين أحمد بن عبدالرزاق الخالدي صاحب ديوان الممالك بتبريز وأعلن العمل به سنة ٦٩٣هـ . والجاو كاغد مستطيل على وجهه : « لا إله إلا الله محمد رسول الله » بحروف عربية .





تُراثُ الرسِمِ البغدادي

الدكتور محمد مكية

سُرُوجَ يا ناقُ فَسيري وخِدي … وأدْلِجي وأوِّبي وأسْئِدي

حتّى تطا خُفّاكِ مَرْعاها النَّدي … فتنعَمي حينئذٍ وتَسْعَدي

وما مُنى أنْ تنتهي وتَنْجُدي … إيهٍ فدتْكِ النّوقُ جِدّي واجهدي

وافْرِي أديمَ فَدْفَدٍ ففدفدِ … واقْنَعي بالنَّشْحِ عندَ الموْرِدِ



ولا تحطّي دونَ ذاكَ المقْصدِ … فقدْ حلفْتُ حلْفةَ المجْتهدِ

تراثُ الرسمِ البغدادي

لعل من الصعب على أي متتبع لتاريخ الحضارات الانسانية ، أن يركن بشكل نهائي الى كل ما كتب من بحوث ودراسات ، تناولت بالاستقصاء ، أصل ونشوء الانجازات الفنية لعصر ما ، على الرغم من اتسام بعضها بالاصالة والعمق، نتيجة لتأكيدها على المنهج العلمي الخالص في البحث . ومع أن بعض الدراسات ، بقيت غير مستقرة في موازين النقد العلمي ، إلا أن ما أعقبها من آراء ونظريات ، أثبت عجز تلك البحوث على البقاء كحقائق نظرية مسلم بها .

وعلى ضوء هذه الحقيقة ، تبدو أية دراسة لا تضع في إطارها التأملي ، تلك العمليات المعقدة القائمة بين الخبرات البشرية والبيئة المجتمعية ، عارية من أي سند علمي مقنع يشدها بعنف الى يقين عقلي مجرد من الهوى . وهـذا هو الجانب الايجابي الذي نود تأكيده في هـذه الدراسة ، آخذين بنظر الاعتبار ، تآلف العناصر الزمانية والمكانية لاستيعاب كل نشاطات الانسان بعد انصهارها في بودقة العمل الأمثل .

وعلى ضوء هذه الاعتبارات ، بدأنا سبيل المعالجة الموضوعية لبحث ساهمت فيه أقلام كثيرة ، تميزت من بينها أقلام نخبة من المستشرقين ، الذين عملوا ما وسعهم الجهد في عرض الآراء والمفاهيم حول التصوير الاسلامي ، وسعوا الى ابراز كيانه في محيط البحث العلمي ، حتى استأثر باهتمام الدارسين في الشرق والغرب ، وأصبح ، بعد أن جليت كثير من غوامضه ، وأضيئت أكثر مسالكه ظلاماً ، مهيئاً لتناول الباحثين من أبناء الأقطار الشرقية ، وخاصة أولئك الساعين لتكوين قوام حضارة جديدة ، تصل ما بين مقومات الماضي لأجل بناء حاضر متطلع للحياة .

إن دراسة الفن الاسلامي ، تنطوي على أهمية بالغة في بناء حياة فنية في شرقنا العربي ، فهي بقدر ما ستمنحه من عطاء للانسانية ، فانها ستساهم في إغناء الفن العربي الحديث بمقومات الحياة والنماء والازدهار . وهكذا سيصبح من حق أبناء بغداد ، بعد أن استيقظت غوافي طاقاتهم الفكرية اليوم ،التقرب للأسلوب الذي يمكنهم عن طريقه الاتصال بشخصية حاضرتهم العريقة التي كانت تتمتع بأوسع نفوذ فكري وثقافي واجتماعي في العصر الوسيط .

وحين يكون المقصود من هذا الفصل من الكتاب ، التعريف بوسط بغداد زماناً ومكاناً ، يكون لزاماً علينا أن نستجلي ما وسعنا الجهد ، كامل الصورة لتلك الحضارة : بناءها الفكري ، عالمها الروحي ، وعناصر وجودها الفني ، ليصبح في مقدورنا نحن أبناء هذا العصر تقويم حاضرها ، وإعادة بناء كيانها على ضـوء جديد ، يشدنا الى تلمس جوانب الاحساس الفني في الصورة الكلية لانجازات الرجل البغدادي في حقول الأدب والفكر وفنون التصوير المرئية .

قد يتراءى لنا من ماضينا القريب ، وحاضرنا الأقرب ، إننا لم نمنح فنون التشكيل ، وخاصة فن التصوير ، المكانة المناسبة في ميدان التكامل الثقافي ، ذلك لأننا قصرنا إهتمامنا على ضروب الثقافة الأدبية ، وباعدنا بين الأدب والفن ، فكانت ظاهرة الاستخفاف بفنون التصوير والمرئيات عموماً ونعتها بأوصاف اللهو العابث ، نتيجة لتلك العزلة التي فرضت عليها قسـراً ، مما أدى في النهاية الى ابتعاد الفنان ذاته عن استيحاء الأدب واستلهام منجزاته الكبرى ، فظلت شخصيته الفنية دون مستوى النضوج والاكتمال .

إن مكانة المدرسة البغدادية في فن التصوير وسر تفوقها الباهر في تلك المرحلة الخصبة من مراحل التاريخ العربي، يحفزنا اليوم على التفكير في تعميق الصلة بينها وبين منجزات المدرسة العراقية الحديثة ثم الاستفادة منها بشكل لا يسعى الى التقليد السطحي العقيم، بل يستهدف البحث عن الجوهر الخفي من أسرارها، واستجلاء تلك الأسرار بطريق التأمل الصافي لمنظورها الروحي أملاً في الوصول الى الغاية المثلى من حضارة عصرية كاملة الوجوه.

ونحن حين نأتي على ذكر هذه المدرسة العتيدة التي عاشت على أرض بغداد قبل سبعة قرون، فلابد لنا أن نذكر القارىء بأن هدف هذه الدراسة سوف لن يكون مقصوراً على رسم البعد الزمني للتاريخ بقدر ما سيكون دعوة للتأمل في جوهر ذلك التراث وحثه طبيعياً على الظهور في أفق الثقافة المعاصرة ليمنحها قابلية التأثر والتأثير.

إن التقارب الأممي الذي أصاب مجتمع العالم بفضل تفوق التكنيك الآلي والألكتروني للمواصلات، واتساع نطاق وسائل الاعلام الحديثة، كل هذا، ترك أثره الواضح في طريقة تناول الانسان الحديث لقضاياه التراثية. فقد أذاب هذا التقارب الحدود الفاصلة بين الأمم، وجعل في حكم الامكان، امتزاج تلك الأمم وإنصهارها ثم إنسيابها في محيط « العالمية». وهذا ما استدعى بالضرورة، ظهور علامات تشير الى تجاهل القيم البيئية والخصائص المحلية في الانتاج الذهني والفني للانسان، غير ان الأمر لم يدم طويلاً على هذه الحال، فقد برزت ظاهرات جديدة في التحول الشامل الذي ساد عالم ما بين الحربين الكبريين، انتهت الى تأكيد القيم التراثية المحلية، وتكريس الدراسات الواسعة لها، ومنحها القسط الأوفى من العناية العلمية. حتى أصبح الفن قادراً على التعبير عن القيم الزمانية والمكانية ضمن إطاره العالمي الجديد، وهذا ما جعل من المفهوم الانساني للقومية الأصيلة، مفهوماً حضارياً، قاد الى توصلات جديدة في حقول الكشف الفني.

ولعل من أهم أهداف هذا البحث، هو ترسيخ الاعتقاد بأن دراسة الثقافة العربية في الأدب والشعر، تستوجب التفهم الكامل لمسائل الفنون التشكيلية في ارتباطاتها المعقدة بالبيئة المجتمعية لهذه المنطقة من العالم. وهكذا سيكون البحث مقصوراً على دراسة ما أنتجه الوسط البغدادي في حقل الرسوم التصويرية أو التصوير الملون الخالص المتمثل في « المنمنمات» أو التصويرات التي رسمت لتزويق المخطوطات وقامت بدور وسائل الايضاح في مقابل النصوص المكتوبة. لذا فهو ينحصر في إطار دراسة هذه الرسوم ولا يتناول فنون الزخرفة الاسلامية الواسعة التي دعاها الأستاذ بشر فارس — إجتهاداً بـ « الرقش»، أو ما يدعى بـ « الأرابسك» في تاريخ الفن وعلم الآثار.

ليس غريباً أن تكون بغداد الوسط الأمثل لنشوء فن التصوير الاسلامي المتميز بطابع الأصالة. فقد أصبحت غب تأسيسها، المقر السياسي لدار الخلافة الاسلامية، ومنحها موقعها الجغرافي الفريد قدرة الايصال والتوصيل بين الشرق والغرب، فانسابت اليها ثروات الفكر وكنوز الفن من جميع الآفاق حتى استطاعت أن تؤكد ذاتها الأصيلة في انتاجها الفني، وابتعدت رويداً رويداً عن تأثيرات الفنون الساسانية والبيزنطية والأغريقية حين تجلت فيها روح الحضارة الجديدة التي نمت على ضفاف الرافدين فطبقت شهرتها الخافقين. وإن فيما أشار اليه البلدانيون العرب من ظاهرة نزوح المهرة من الفنانين والصناع من أقطارهم وأمصارهم الى بغداد، لدليل واضح، على أن هذه المدينة قد أصبحت في وقت قصير مركز جذب لكل الطاقات المبدعة في حقل الفن والمعرفة. وهذا ما أعطاها القدرة على تكثيف تلك الطاقات وصهرها في بودقة العمل الدائب لانجاز شكل جديد من أشكال التعبير الفني استطاع أن يستوعب أغراض ذلك العصر، ويبلور أفكار بنيه في نظراتهم الزمانية والمكانية لمفهوم الفن والحياة.

لقد ارتبط اسم بغداد باسم مدرستها الشهيرة في الفن، رغم ان بعض الباحثين قد أطلقوا عليها المدرسة « الميزوبوتامية» أو المدرسة « العباسية الدولية» أو المدرسة « العربية». ولعلنا لا نبتعد عن جوهر هذه التسمية، ومدى انطباقها على البيئة التي نشأت فيها، إذا أخذنا بنظر الاعتبار، مركز بغداد في قلب الشرق الاسلامي، وموقعها

الطبيعي من أقطار هــذه المنطقة، وأخيراً جوارها التاريخي لأخصب حواضر العالم القديم: المدائن وبابل. فلقد ساعدت كل هذه العناصر مجتمعة على اقامة الكيان الحضاري الجديد لبغداد، وأودعت فيه أمانات المعرفة والعلم والفن، ثم شيدت في فترات الاستقرار والازدهار، أسس مدرسة للتصوير الاسلامي كانت تشاطر حركة التأليف والترجمة حياتها في المجتمع البغدادي، وترفدها بمعطيات التشكيل المنظور.

لقد أكد ما عرضه الدكتور زكي محمد حسن في مؤلفاته العديدة وبحوثه المستفيضة واستقصاءاته في حقول الفنون الاسلامية، بأن المخطوطات العربية المصورة المنتشرة في مكتبات العالم ومتاحفه الكبرى، قد أوضحت للباحثين أهمية الدور الذي لعبته بغداد في إرساء قواعد مدرسة قائمة بذاتها لفن التصوير الاسلامي وقد جاء ذلك في قوله:

« تؤلف هذه المخطوطات الثمينة أولى مدارس التصوير الاسلامي المشهورة، وهي مدرسة بغداد التي استطاع التصوير الاسلامي في ظلها أن يستوي ويتمكن ومن ثم يذيع من بلاد الرافدين الى سائر البلاد الاسلامية...

لقد إزدهرت مدرسة بغداد ما بين القرن السادس والثامن للهجرة (١٢ــ١٤م) وهكذا فقد ضمت أقدم ما نعرفه من التصاوير الاسلامية في المخطوطات، لانها سبقت تصاوير المخطوطات المغولية والتيمورية والصفوية في ايران، كما سبقت التصاوير التي زينت المخطوطات في الهند الاسلامية وتركيا.

يستنتج المستشرق ريجارد اتنكهاوسن من تأملاته في كتاب (البيطرة) بأن فن التصوير البغدادي ونضوج أساليبه قد أوفى على الغاية في منتصف القرن الثاني عشر للميلاد. ففي لوحة تصوير فارسين يلاحظ بأن استواء التمثيل للبيئة العربية الاسلامية في بغداد يمهد لحالة من الوضوح الأسلوبي والكشف المقنع الذي تتحقق من خلاله الشخصية البغدادية بشكل لا نراه في الرسوم الرومية. وما يمكن أن نجده في هذه الصور نستطيع العثور عليه في اللوحات الأمامية لنسخة من رسائل أخوان الصفا ــ الموسوعة العلمية المعروفة ــ فهي تمثل أوج ما وصلت اليه التصويرات البغدادية من اتقان وتكامل. ذلك لأن الخطوط الرهيفة الحساسة والألوان الشفافة الزاهية، والتأليف الانشائي المتقن، يظل عماد الصورة التي تسجل بأمانة، ندوة بحث علمي، أو مجلس أدبي تشيع في أجوائه روح بغداد ومقوماتها الاسلامية.

هناك إذن، فن حضري عاش في أكناف مدينة كانت تطل على مشارف دنيوات من الأحلام والأساطير والشعر وحقائق الوجود. فلا غرابة، أن نجد فيه روح الأدب وجمال الشعر، ولا عجب أيضاً أن يكون في شكله وجوهره تأليفاً أدبياً لصورة المجتمع العباسي آنذاك.

يشير المستشرق الألماني البحاثة كوهنل الى الدور الذي لعبته بغداد في ميدان التصوير فيقول بأنه « تجاوز إذ ذاك تلك التجديدات التي استحدثت في الزخرفة الكتابية، فان لها أن تباهي بأنها أسست المدرسة الاسلامية الأولى لفناني الصور المصغرة، وكان ذلك في القرن الثاني عشر إثر الترجمات العربية لأسفار في العلوم الطبيعية اليونانية. وهي ترجمات زودت بصور تفسيرية تخللت النص. وهذا الطراز التصويري الذي وجد على هذا النحو قد استخدم آنئذ في شرح أدب التسلية المكشوف الذي كان محبوباً إذ ذاك حباً جماً، والذي فرض على هذا الطراز التصويري مهام تقتفي أساليب جديدة في التصوير وحداه الى اظهار مقدرة في التلوين.»

ولهذه المدرسة تأثير واضح على الفن المسيحي المحلي، فقد عثر على نسخة عربية من انجيل طفولة السيد المسيح، تعود الى سنة ١٢٩٩م، وهي من المخطوطات المسيحية القديمة التي تبرز فيها بوضوح، خصائص الأسلوب التصويري لمدرسة بغداد الشهيرة.

ويذهب الدكتور بشر فارس في استقصاءآته لأبعاد هذه المدرسة وامتداد تأثيرها على فن التصوير الاسلامي، الى انها كانت تملك القدرة على استيعاب أغراض ذلك العصر، كما ان لها قابلية اكتساب الخبرات الجديدة واضفاءها على غيرها من مدارس التصوير.

وقد عرض الدكتور ماهر كامل لأحداث القرن الثالث عشر ، وانجازات فن التصوير في نسـخ رسوم مخطوطات مقامات الحريري . ومكانة بغداد في هذا الميدان فقال :

« لقد شاهد القرن الثالث عشر في بغداد ظهور كيان مدرسة فنية يمكن أن تعتبر المدرسة الفنية الأولى ، حيث اتجهت الى رسوم لوحات في الكتب ».

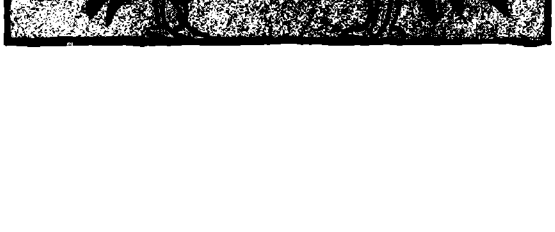
وفي الأبحاث المطولة التي عقدها بعض المستشرقين على مدرسة بغداد ، انصب اهتمام أولئك ، على الجانب الدراسي البحت ، حيث أولوا المصادر والاشتقاقات والمؤثرات المتقابلة عنايتهم الخاصة . فلقد أكد الدكتور « أرنولد » الذي يعود له الفضل الأكبر في كشف بعض الجوانب الغامضة في الفن الاسلامي ، أكد في كتابه الجليل المتسم بالدقة والعمق ، أهمية الدور الذي لعبه اليعقوبيون والناسطرة في قيام مدرسة بغداد ونشأتها .

كما أوضح « ديماند » الذي أطلق اسم مدرسة التصوير العباسية أو العراقية على المدرسة التي نشأت وتمركزت في بغداد . بأن الأساليب الفنية التي أرست قواعدها بغداد في القرن الثالث عشر أنتجت أسلوباً اسلامياً جديداً له مقوماته في التأثيرات الايرانية والمسيحية الشرقية .

غير أن موقف المستشرق « بلوجيت » من الفن العراقي يختلف عن غيره من المستشرقين ، فلقد نعته بالبدائية والسذاجة ، وأشار الى أن الفن الايراني قد تحرر منه بعد أن ابتعد عن ما يسميه بلوجنت بـ « مراسم بغداد والكوفة » التي دامت مدى قرنين ونصف من الزمان .

غير أن بساطة الفن العراقي التي يعتبرها المستشرق المذكور من المآخذ ، تعد اليوم من ميزاته المتفوقة ، إذ ليس من شك في أن تطور أساليب هذا الفن وتنوع موضوعاته واتساع مداه التعبيري والجمالي ، قد سلكت جميعاً طريقها الطبيعي الذي تمليه طبيعة الأشياء كما تتطلبه الظروف والأوضاع الحياتية المتجددة أبداً . وسوف نعرف فيما بعد ، كيف أن المركز الأساسي للتصوير ، قد انتقل منذ القرن الثامن الهجري « الرابع عشر للميلاد » الى ايران ، وان تاريخ التصوير في هذه المرحلة يكاد يكون وقفاً على التصوير الايراني الذي انبثقت منه أساليب أخرى في الهند وتركيا.

وهكذا يبدو صحيحاً ما جاء به الأستاذ (بارتل كري) من أن امتداد نفوذ مدرسة الرسم البغدادي ، قد أكد تسميتها بـ « المدرسة العباسية الدولية » .



نشأة التصوير الإسلامي في بغداد

تقف ندرة المصادر المصورة في مقدمة الصعوبات التي تواجه الباحث في تاريخ المدرسة البغدادية للتصوير .

فقد تعرضت بغداد لكوارث الفيضانات والمجاعات والغزو والحرائق مما ذهب بالكثير من كنوز حضارتها وروائع مجدها الفكري والفني ، وخاصة الكتب المصورة التي لم يصل الينا منها سوى ما تتداوله نظرات الباحثين اليوم، من كتب واوراق مصورة منثورة هنا وهناك في مكتبات العالم . الأمر الذي يحملنا ، في كثير من الأحيان ، على الاستعانة بالأوصاف الواردة في كتب التاريخ للوصول الى دلائل كافية ومقنعة حول الانجازات الفنية المصورة . يضاف الى ذلك ما ورد من نصوص واجتهادات دينية ، أدت الى تكوين شعور بالنفور من التصوير باعتباره الأثر الباقي من صور العبادات القديمة التي عفى عليها الاسلام ، وأزال آثارها من دنيا الناس، ثم تنكر لكل ما يذكرهم بها . ولولا وصول هذا العدد القليل من الكتب والأوراق المصورة الينا ، لما استطعنا التعرف على تلك المدرسة التصويرية الفريدة التي سجلت بدقة وأمانة، صورة جانبية رائعة لحياة المجتمع البغدادي في ذلك العصر .

تشير المصادر التاريخية الى أن قصر المنصور الذي توسط بغداد المدورة كانت تعلوه صورة بشكل فارس يتجه مع الريح. ومما جاء في وصف المباني والبيوت والقصور البغدادية يظهر انه بالاضافة الىشيوع فن الفسيفساء التي اشتهرت بها قصور وابنية بغداد فأن الرسوم الحائطية لم تكن بالغريبة على البغداديين بل كانوا يمارسونها في تزيين ابنيتهم ودورهم، فلقد جاء في كتاب «الف ليلة وليلة» ما يفيد بأن الخليفة هرون الرشيد زخرف قاعة شيدها في حديقة قصره ببغداد برسوم على نمط الرسوم الساسانية ويشير ابن الجوزي في (مرآة الزمان) الى ان الكاتب البغدادي « علي بن افلح » بنى دارا كبيرة زخرف جدرانه بصور مختلفة . كما ان الحمامات البغدادية كانت تغلب عليها الرسوم الجدارية . فقد أشارت بعض المؤلفات الى حمام في بغداد بناه شرف الدين هرون بن الوزير شمس الدين الجويني كانت جدرانه مصقولة وتشمل صوراً آدمية متقنة مرسومة بالالوان الزاهية وهناك الكثير من الشعر الذي جاء في وصف مثل هذه القصور تشير الى مفاخر نقوشها ورسومها ولعل سينية البحتري المشهورة خير مثل رائع لهذا الوصف . كذلك ما بلغنا من وصف قوارب بغداد النهرية في عهد الخليفة العباسي الأمين ، فقد كان قسماً منها بأشكال حيوانات مختلفة ، كما ان ما جاء من اوصاف البذخ في القصور، أن اشجاراً وطيوراً من الذهب والفضة استعملت في بهرجة قصور الخلفاء حتى كانت طيور هذه الاشجار تغرد عند هبوب الرياح وما جاء وصفه وعرضه عند زيارة الموفدين من الروم الى قصر الخلافة من وجود تماثيل فرسان شاهرة السيوف... الخ كل هذه دلائل بل ظواهر تميزت بها الحواضر الكبرى لاظهار أبهة السلطة ومايتصل بها من ترف وبذخ ، وهذا بالطبع يفترض وجود طبقة متفوقة من الصناع والفنانين المهرة .

على أن الأدلة المحسوسة التي يمكننا ان تتلمس منها الشكل المادي للرسوم البغدادية قد ظهرت لنا في اكتشافات وحفريات التنقيب التي قام بها هرتسفيلد في سامراء ، وهي بالنسبة لطابعها وخصائصها ، توضح لنا ما لم نعثر عليه في الآثار البغدادية المصورة التي طمرها الفيضان واتلفها الحريق بينما ظلت الأولى بعيدة عن مثل هذه العوامل، غير أنه

خلق الجلباب فركض اثر النظاره الى ان
وافينا باب الاماره وهناك صاحب المعونه متربعا
في دسته مترعا بسمته وهذه صورته



فقال له الشيخ اعز الله الوالي وجعل كعبه العالي

من المؤسف ان تكون هذه الاكتشافات التي قام بهـا البحاثة الآثاري هرتسفيلد قـد فقدت في أيام الحرب العظمى الأولى إذ ان الصور التي عثر عليها في سامراء لم يبق منها الى اليوم شيء يستحق الذكر عدا قطع صغيرة في متحف الدولة ببرلين وفي لندن ، وهي رغم قلتها توضح لنا ملامح من خصائص هـذه الرسـوم وتقـرب هذه الخصائص من المدرسة البغدادية التي ظهرت بعد ذلك وتكاملت بتفوق في القرن الثالث عشر الميلادي .

ولقد أشار أحمد تيمور في فصل بعنوان (البحث عن التصوير على الجدران) الى هذه الاكتشافات فى حينه نقلا عما كتبته مجلة لغة العرب البغـدادية وهي تصف التنقيبات التي قام بها الاستاذ هرتسفيلد الالماني فى آثار (سر من رأى) حين ذكرت فيه انه عثر بين دفائن اطلالها على آثار المسجد الجامع الذي بناه المتوكل حيث شوهد فى بقايا الدور غرف وابهاء زينت جدرانها بتصاوير مشرقية بين بارزة وغائرة فى الجص وصور ملونة للآدميين وغيرهم بديعة المثـال حافظة لجدتها على عبر الزمان . ويتضح من هذا الوصف ما ذكر حول هذه القصور وأشار اليه ياقوت فى معجم البلدان عن قصر سمي «المختار» كان يحوي صوراً عجيبة منها صورة بيعة فيها رهبان .

انفي اقبال العباسيين حسبما تشير اليه المصادر التاريخية، على استخدام التصوير فى تزيين جدران مجالسهم وايواناتهم ما يؤكد ازدهار هذه الفنون ورقيها فى تلك الأزمـان ، فلقد جاء فى قصص « الف ليلة وليـلة » دلائل متفرقة بهذا الخصوص .

ويذهب الأستاذ ايتنكهوسن إلى أن اكتشاف الآثار التصويرية في سامراء يعتبر علامات دالة لما لم يكتشف في بغداد من أعمال تصويرية ضاعت معالمها بعد أن توالت الأحداث على هذه المدينة ، ولم يجر حتى الآن تخطيط علمي لاجـراء عمليات التنقيب الأثرية فيها .

وهو يرى في رسوم سامراء التي عرضها هرتسفيلد ايضاحاً تصويرياً لقصص ألف ليلة وليلة . غـير أن تلك الرسوم الحائطية ، لم تكن لوحدها الشاهد على فن تلك الفترة الزمنية ، بل أن الخزف المصور الذي كان يعـد بنفس الأسلوب ، كان شاهداً آخر يضاف إلى ما سبق .

ولا شك في أن فن سامراء ، يعتبر استمراراً للفن الساساني في بيئته الاسلامية ، وهذا أمر لا يحتاج إلى التعمـق في بحث مدى تلك المؤثرات ، ذلك لأن البيئة الاسلامية الجديدة ، اعتمدت على الأساليب التي توفرت لديها من الحضـارة السالفة ، وهكذا استطاع المهرة من الصناع والفنانين أن يمزجوا بين ما ورثوه عن آبائهم وبين متطلبات البيئة الجديدة ، فأبدعوا فناً له مقوماته وطابعه الذي يأتلف وروح الحضارة الأسلامية .

وقد جاء استنتاج الدكتور حسن الباشا عن طراز سامراء وعرضه لما ارتآه الاستاذ زكي حسن وأحمد تيمور توكيداً لهذا الرأي إذ قال :

« والحق أن طراز سامراء الذي يتمثل في التحف التي كشفت عنها الحفـائر ، لا يمثل طراز مدينة واحدة ، وإنمـا يمثل الطراز الذي كان سائداً في مراكز الخلافة العباسية في ذلك الوقت كبغداد وغيرها من المدن الهـامة ، والذي أخذ ينتشر بعد ذلك إلى سائر أنحاء العالم الاسلامي » .

وهنا لا بد لنا أن نشير إلى حلقة هامة تتصل بتطور الفن الأسلامي وتؤكد التقاء نقاط التأثير المتبادل في حقل الفن التصويري بين بغداد والقاهرة في العهد الفاطمي . فقد أشار المؤرخ الكبير المرحوم زكي حسن في كتابه القيـم كنوز الفاطميين إلى مثل هذه العلاقة بقوله :

« وعلى كل حال ، فقد كانت القاهرة في القرن الخامس الهجري مركزاً رئيسياً للصناعات الفنية المختلفة ، ومن المحتمل أنها كانت تصدر إلى كافة أنحاء الشرق الأدنى كثيراً من المخطوطات الذهبية والمصورة » .

كما أن هناك تشابهاً في الطابع وتقارباً في الأسلوب بين فن سامراء وما وصل اليه فن التصوير الفاطمي في مصر. وقد

اتضح هذا التأثير بعد أن ترك أحمد بن طولون سامراء وحل مصر في سنة ٢٥٤هـ ـــ ٨٦٨م ليكون من بعدها حاكماً مستقلاً لتلك البلاد . وإنه وإن لم يعثر على آثار طولونية من الصور ، إلا أن المصادر التاريخية تشير إلى اتخاذ بعض الطولونيين للصور والتماثيل . كما ورث الفاطميون هذا الطراز وأولوه من عنايتهم ما نهض به كفن إسلامي متميز في حوض البحر الأبيض المتوسط . ويجد الدارس في النقوش الجصية المرسومة على جدران الحمام الفاطمي التي عثر عليها في عام ١٩٣٢م وعرضت في جناح من دار الآثار العربية ، دلائل واضحة على تأثر الرسام بأسلوب الفن العراقي، هذا الأسلوب ، الذي انتقل من مصر الفاطمية عبر البحر الأبيض المتوسط إلى بالرمو في صقلية .

ولقد استهدفت القاهرة للنكبات بعد انتهاء الحكم الفاطمي فيها ، فدمرت كثير من كنوزها الفنية وآثارها الحضارية . على أن القابليات المتجددة للفنانين ، سرعان ما توزعت وانتشرت في بقاع أخرى من البلاد العربية والاسلامية .

ويشير ملك عناند في مؤلفه عن الفن الفارسي إلى أن بغداد ظلت محتفظة بمكانتها الأدبية والفنية حتى استطاعت أن تجتذب إليها أشهر الفنانين وأمهر الصناع . كما يسجل الدكتور زكي حسن في فصل عقده عن المدرسة البغدادية وسقوط الدولة الفاطمية ، بأن هذا الحدث كان إيذاناً بانتقال كثير من فناني مصر الى بلاد الجزيرة حيث أصبحت بغداد مركزاً للفن والكتب .

لقد حصل الفنان ـــ كما تشير أغلب المصادر التاريخية ـــ على كثير من الأمتيازات الأدبية والأجتماعية يومذاك، ونتيجة للعروض السخية التي كان يتلقاها من رجال الدولة وذوي اليسار من الناس ، ارتفعت أجور عمله ونبه شأنه . ولعل فيما أشار اليه المقريزي عن كتاب « طبقات المصورين » المفقود والذي قال عنه أنه كان يسمى « ضوء النبراس وأنيس الجلاس في أخبار المزوقين من الناس » ما يلقي الضوء على أهتمام الحاكمين بالفنانين آنذاك . فقد تحدث عن مناقشة بين مصور جاء من العراق بدعوة من الوزير الفاطمي وبين مصور آخر من القاهرة في منتصف القرن الحادي عشر . وفي هذه الحادثة إشارة واضحة إلى دعوات السفر التي كان يتلقاها الفنانون من الأمراء والوزراء لزيارة بلد عربي أو اسلامي بعينه والعمل فيه .

ولابد لنا قبل أن نوغل في البحث عن مظاهر الحياة الفنية في بغداد ، الى ذكر دور الكوفة ومدارسها ، فقد أوضح المستشرق الكبير لويس ماسينيون أهمية كيان هذه المدينة في عالم الحضارة الاسلامية وبصورة خاصة في التصوير الاسلامي . حيث جاء في مقال له بعنوان « الكوفة الوسط الأصيل لبدء نمو فن التصوير الاسلامي » استنتاجه بأن هذه المدينة تشكل نقطة البداية في تطور الفن الاسلامي الذي امتد حتى شارف مدرسة بغداد للتصوير .

عاشت المدرسة البغدادية للتصوير في الفترة التاريخية الواقعة بين القرنين السادس والثامن الهجريين (١٢ ـــ ١٣م) وازدهرت في نهايتي القرنين السادس والسابع الهجريين . وعايشت حقبة من الزمن المدرسة المغولية في التصوير . واليها تعود أولى المصادر الاسلامية التي وصلت إلينا في فن التصوير وتزويق الكتب . وبالرغم من أن تلك الآثار الفنية لم تكن كلها من انتاج المصورين البغداديين ، إلا أنها إتسمت بطابع هذه المدرسة وتأثرت بها ، وجارت أساليبها . ويشير الأستاذ زكي حسن الى هذه الظاهرة بقوله : « كان هذا الانتاج في ديار الاسلام متأثراً بالأساليب التي ازدهرت في مركز الخلافة على النحو الذي نعرفه دائماً في تأثير معظم الأقاليم بالطرز الفنية التي تزدهر في الحواضر وتذيع منها الى سائر بلاد الدولة أو الامبراطورية » .

إن العمل النموذجي الكامل لهذه المدرسة ، وصل إلينا في مجموعة من الصور الوصفية الدقيقة التي سجلت بمنتهى الدقة والموضوعية ، مشاهد الحياة العباسية في الربع الأول من القرن السادس الهجري (١٢م) . وهذه الصور التي رسمها الفنان البغدادي الفذ يحيى بن محمود بن يحيى الواسطي لمقامات الحريري ، ما زالت مدار بحث الدارسين ومنهل إيحاء للفنانين . فقد أشار المستشرق الفرنسي ماسينيون الى أن تصويرات هذه المقامات تعتبر من أرفع الرسوم المصورة

فاستاجرا حانوتا وجعلا متاعهما فيه وكان احدهما قريب
المنزل من الحانوت فاضمر في نفسه ان يسرق عدلا من اعدال رفيقه ومكر
الحيلة في ذلك وقال ان اتيت ليلا لم امن ان احمل عدلا من اعدالي او رزمة



من رزمي ولا اعرفها فيذهب عنائي باطلا فاخذ رداءه والقاه على العدل الذي
اضمر اخذه ثم انصرف الى منزله وجاء رفيقه بعد ذلك ليصلح اعداله فوجد رداء
شريكه على بعض اعداله فقال والله هذا رداء شريكي ولا احسبه الا قد

الموجودة اليوم . وتعد هـــذه المجموعة بمشاهدها المختلفة ، وقوامها الأدبي وتكوينها الفني المثال الأسلوبي الأعلى لفن التصوير الاسلامي في بغداد . ذلك لأنها نجحت في تصوير التكامل القائم بين الانسان ومجتمعه في القرون الوسطى .

ان مقامات الحريري (١) تؤلف مجموعة من القصص التي تميزت بدقة الملاحظة وغزارة المـادة والخيال الخصب . وقد اكتسبت هذه المقامات كما اكتسب مؤلفها القاسم بن علي الحريري ، شهرة عريضة ومكانة عالية في الأدب العربي لما حوته من عرض وتجوال وتغلغل في البيئة والمجتمع الاسلاميين ، ذلك أن « أبا زيد السروجي » يروي قصصه باسم « الحارث بن همام » أحد أثرياء العرب ، ثم يسرد الحوادث التي شاهدها بنفسه عندما كان يجوب البلاد ويلتقي بصنوف الناس مختبراً روح المجتمعات الاسلامية كاشفاً عن خفايا الناس فيها .

ولعل رسوم الواسطي التي أوضحت تلك المشاهد الأدبية بالصور ، كانت أصدق تعبير وأوسع دراســـة مباشـرة للمجتمع الاسلامي وطبقاته المختلفة آنذاك ، وهي بالتالي خير وثيقة مادية ساعدتنا على التعرف بتلك المجتمعات بطريقة لم تتمكن من تحقيقها عن طريق النصوص الأدبية والتاريخية الواردة في تآليفهما الغزيرة .

وتمثل تصويرات الواسطي أسمى انتاج عرفته بغـداد واقترن باسمها ، فهي شواهد فنيـة رفيعة ، تنبىء بما كانت عليه هذه المدينة من رقي اجتماعي وفكري ، وتشير الى مكانتها العالية في حقل الفنون الجميلة التي جسدت روح تلك الحضارة ، وجمعت بين مظاهر الحياة في المدينة والريف .

يعلق الفنان العراقي شاكر حسن سعيد على هذا الأثر النفيس بقوله :

« وقد توفقت رسوم الواسطي في تعبيرها الاجتماعي في الفن لخلق عالم تشكيلي حق » .

ويقول ديماند عن نسخة المخطوطة المعروضة في المكتبة الأهلية بباريس : « إن صـــور هذه المخطوطة بديعة ورائعة جـــداً » .

أما الجانب التشكيلي في هذه التصويرات فيتميز بطابع المخطوطات البغدادية السابقة لها زمنياً ، وهو الرمز للأرض بالخط الأفقي ، وتزيينه بالرسوم النباتية الاصطلاحية ذات الرؤية الزخرفية ، وخلو الصورة من الخلفية ، وأخيراً تشـابه سحن الأشخاص في التصاوير .

ولابد لنا أن نشير هنا الى أن مخطوطة باريس لم تكن هي النسخة الوحيـدة الباقية من هذا الأثر النفيس ، فقـد وصلت إلينـا نسـخة أخرى من مقامات الحريري هي المخطوطة المحفوظة الآن في متحف لنينغراد ، وتضـم مجموعـة من الرسوم الرائعة التي تحمل شخصية المدرسة البغدادية وأسلوبها المتميز ، غير أن هذه النسخة لم تلق نصيباً من التعريف كما لقيته مخطوطة باريس التي اطلعت عليها مختلف الأوسـاط الفنية في معرض الفن الاسلامي الذي أقيم في تلك المدينة عام ١٩٣٩ ، وتناقلت الكتب والمطبوعات الفنية المختلفة في العالم نماذج مختارة منها .

وبالرغم من التشويه الذي أصاب صور الأشخاص في هذه المجموعة ، برسم خطوط حـــول رقابها ، إلا أنها لم تفقد روعتها وجمالها .

وهنالك نسخ أخرى مصورة للمقامات قد تعود إلى إنجازات فنانين عراقيين خارج بغداد، منها ما ينسب إلى الموصل ومنها ما ينسب الى دياربكر كما في المخطوطة التي اكتشفت أخيراً لهذه المقامات ونشر عنها أوليك كرابار بحثاً في كتاب « الفنون الشرقية » . ويظهر مما نشره هذا الباحث أن هناك عشر نسخ من مخطوطات مقامات الحريري معروفـــة حتى

---

(١) المكتبة الأهليـة بباريس تحت رقم ٥٨٤٧ عربي ـــ تضم هـــذه المجموعة (٩٩) صورة بقياس ٣٧ سم × ٢٨ سم ، وتعد أجمل ما وصل إلينا من مدرسة بغداد ، ذلك لما فيها من قوة في التعبير ودقة في الملاحظة وبهجة في الألوان وبراعة في التخطيط ، وهي تصلح أن تكون لوحات لمصورات كبيرة أكثر من كونها تصاوير مخطوطات .

الآن (١) ، ويؤمل أن تجمع في المستقبل لتستكمل شـروطها في حقل الدراسات العلمية ثـم تأخذ مكانها في مصاف الانجازات الفنية التي يحتويها تاريخ الفن الاسلامي .

أما الكتب الأدبية المصورة التي وصلتنا من تلك الفترة التاريخية الغنية بالانتاج ، فأبرزها كتاب « كليلة ودمنـة » الذي ترجمه ابن المقفع عن الأساطير الهندية وأضاف عليه ثلاثة أبواب في سنة ١٣٢هـ (٧٥٠م) . ويعتبر هذا الكتاب من أقدم النصوص الأدبية التي زينت برسوم الحيوان والطبيعة على نحو شعري لا يمكن أن يجد المـرء له مثيلاً إلا في مبتدعات الذهنية الشرقية الأصيلة .

وبالرغم مما أشار اليه « بلوست وساكستان » من وجود نسخ من كتاب كليلة ودمنة تعود الى القرن الثاني عشـر الميلادي ، الا أن الدليل القاطع ، لم يقم حتى الآن ، على صحة هذا الرأي الذي ذهب اليه أيضاً ، الأستاذ « ارنولد » في كتابه « دراسات في الفنون الايرانية » .

إن مخطوطة كليلة ودمنة المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس والتي يرجع تاريخها إلى حوالي سنة ١٢٣٠م تشتمل على (٩٨) صورة من بينها ست صور أضيفت اليها في القرن الثالث عشر . وهناك نسخ أخرى من هذا المخطوط في المكتبة الوطنية ، بينها نسخة غير مؤرخة . كما أن جامعة اكسفورد تحتفظ بنسخة من هذا الكتاب يعود تاريخها إلى سنة ١٣٥٤م. وهناك نسخة واحدة في مكتبة « بودليان » تضم (٧٦) صورة ، ونسخة في مكتبة ميونخ ، ونسخ أخرى متفرقة منتشرة في مكتبات الجامعات ، والمجموعات الشخصية .

يشير « ديماند » إلى المجموعة المحفوظة في المكتبة الوطنية بباريس قائلاً : « إن هذه المجموعة تعود الى مدرسـة بغداد التي عرفت بمخطوطاتها المصورة واشتهرت بها في القرن الثالث عشر الميلادي . . . » ويرى آخرون أن رسوم كليلة ودمنة تشابه رسوم الواسطي وتنسب اليها . أما علاقتها الموضوعية ، فهي موصولة بالبيئة العراقية ، والأسلوب البغـدادي . على أن قسماً منها تغلب عليه صفة الأنتساب إلى أسلوب « الموصل » في شمال العـراق ، عدا ما هو واضح من انتسـاب البعض الآخر إلى المراكز الفارسية .

ويعتبر كتاب « الأغاني » لأبي الفرج الأصبهاني ، ثاني الكتب الأدبية الشهيرة التي عني بتزويقها بصور من مدرسـة بغداد . وقد أفاض الدكتور بشر فارس في الحديث على هـذا الكتاب ، وتوصل في أبحاثه إلى استنتاجات على جانب كبير من الأهمية العلمية .

وفي رسالة نشرها المجمع العلمي المصري تحت عنوان « سوانح مسيحية وملامح إسلامية » ، يؤكد الدكتور بشـر فارس على التقارب الكبير بين البيئة الاسلامية والمسيحية في المجتمع الاسلامي ، مستنداً في ذلك الى دراسة مقارنة للرسوم الآدمية . . ويتضح مفهومه لهذه المدرسة فيما أشار اليه حول حول الانقلاب الى النهج الاسلامي في التصوير ، في الفقرة التالية من كتابه « سر الزخرفة الاسلامية » :

« وعند هـذا الانقلاب ، تحول الفن الاسلامي ، غير متردد ، عن جو التأثرات ، وكان قـد انحرف إليه فذهب فيـه متشبثاً . دليـل ذلك المنمنمات الراجعة الى الأسلوب العربي المعروف بالبغدادي ، السابق لدور التصوير الفارسي . وهذه المنمنمات التي تقصـد الى تزويق الكتب وتزويقها تثير واقعية حادة ، في غـالب الحال ، وتدس في أثناء المواضيع الدينية ورعاً صادقاً ، على أنها منبثقة من أصـل هلنستي توطن أرض سوريا وما بين النهرين فصـار سامياً ثم تراكب ماؤه وتبطح هنا وهناك قبل الاسـلام ، وقد غذته على مدار السنين فورات من ينابيع الفن المسيحي الشرقي خاصة ، حتى انتهى الدفقان إلى المزاج العربي ، فتجدد على يديه . »

---

(١) أشار الاستاذ كرابار الى أن نية جامعة مشيغان ، منصرفة الآن الى تصوير مجموعة كاملة لهذه المخطوطات وعقـد دراسة مقارنة لها جميعاً .

خادمٌ قد علته كبرة وعرته عبرة وقال يا قوم لا توسعونا سبًّا ولا توجعونا



ضربًا فانا في حزنٍ شاملٍ وشغلٍ عن الحديث شاغلٍ فقال له ابو زيد نفّس خناقك وابثثْ.

على أن هناك كتباً مصورة أخرى ترجع في أنماطها وأساليبها الى المدرسة البغدادية ، من ذلك كتاب « الآثار الباقية » للبيروني المؤرخ في عام ٧٠٧هـ والمحفوظ في جامعة أدنبرة .

ولعل الزمن يأتي بالجديد من كشوف الدارسين والباحثين في حقل المخطوطات التي ظلت باقية حية رغم الكوارث التي حلت ببغداد ، وحواضر الشرق الاسلامي .

وعلى ضوء هذا الاستعراض التاريخي لدراسات العلماء ، واستنتاجات مؤرخي الفن الاسلامي خاصة ، يظهر لنا أن التراث البغدادي قد انتشر في أنحاء مختلفة من العالم الاسلامي . فقد استعانت سمرقند بفنانين من بغداد ، وامتد نفوذ المدرسة البغدادية الى أواسط آسية بعد استيلاء المغول على العراق ، فتأثرت بها مدارس محلية مختلفة أخرى تميزت بطابعها الاسلامي ، واختلفت في أساليب اخراجه على ضوء التطور المجتمعي والاتجاهات الجديدة في التعبير ، مما يمكن أن يلمسه الباحث المتأمل في الآثار التصويرية لمدرسة بهزاد والمدرسة الصفوية مثلاً .

ولقد كان للنفوذ المغولي أثره الواضح في تغلغل الأساليب الفنية وامتدادها الى الشرق الأقصى ، وخاصة بلاد الصين ، حيث تبادلت التأثيرات مع اساليب الفن الصيني ، ونتج من ذلك وضع مخطوطات مصورة كثيرة يمكن أن ندخل في إطارها كتاب « منافع الحيوان » لابن بختيشوع ، ومخطوط من كتاب « جامع النوازع » للوزير رشيد الدين ، ومخطوط آخر لكتاب « كليلة ودمنة » .

وكان من تأثير الفن الصيني : الرسم بلون واحد متقارب ، واتسام رسوم الاشخاص بالسمات الصينية ، ومراعاة النسب في رسوم الحيوان والانسان ، وظهور بعض الحيوانات الخرافية في تلك التصويرات .

ويبدو تأثير الفن الصيني واضحاً في تصوير الأشجار الزاهرة والمناظر الطبيعية الخلابة، وفي مشاهد القصص الغرامي التي تنزع الى روح المواقف الصوفية وتبتعد عن الايحاءآت الحسية . يضاف الى ذلك فهم الفنان لأسرار اللون وبراعته في مزجه ، وأخيراً قدرته على التعبير عن الحالات النفسية المختلفة .

مميزات فن التصوير البغدادي

عبر سلسلة طويلة من الدراسات الأكاديمية التي تناولت بالبحث المستفيض ، جوهر التراث التصويري لمدرسة بغداد، تم التوصل إلى نتائج علمية على جانب كبير من الأهمية تحددت على ضوئها ، الخصائص الاسلوبية والفنية لتلك المدرسة ، كما تبلورت ملامح شخصيتها التي ظلت سنين طوال ، مدار جدال بين مؤرخي الفن والباحثين والمستشرقين .

ولقد اتضح لكثير من هؤلاء ، أن القيم التصويرية للمدرسة البغدادية ، لايمكن أن تدرس بمعزل عن الأجواء الروحية التي أحاطتها ، ذلك لأن إدراك العلاقة القائمة بين (الشكل) الذي يؤلف القيمة الجمالية الظاهرة لتلك الآثار التصويرية ، وبين المضمون الداخلي الذي يمثل الحس الباطني للفنان التشكيلي البغدادي ، لا يتم بطريق الاستقراء السطحي لتلك الآثار ، وإنما يتم عن طريق ربط العلاقات الدقيقة القائمة بين ما هو « شكل » يتناوله النظر ، وما هو « انفعال » داخلي روحي ، يدركه الأحساس المرهف .

وبالرغم مما ذهب اليه بعض المستشرقين من أن الفن الاسلامي في هذه الفترة ، لم يتخلص كلياً من التأثيرات الهلنستية ، إلا أن الدراسات العلمية المقارنة التي تناولت بالتمحيص جميع الآثار التصويرية لتلك الفترة — وعلى الأخص آثار المدرسة البغدادية — أظهرت بطلان هذا الرأي ، وأكدت تمتع فن التصوير البغدادي بميزات المدرسة المتكاملة ذات الشخصية المستقلة .

يعتبر عنصر « التسطيح » من العناصر التشكيلية المميزة للتراث التصويري الاسلامي في بغداد ، وهو بهذا يبتعد عن الأسلوبين اليوناني والهلنستي الشرقي ، لأنه إنما يسعى «لخلق عالم تشكيلي خاص به ، ويعبر عن مفهوم إجتماعي ، كما ورد

في الدراسة التحليلية التي وضعها الفنان العراقي شاكر حسن سعيد عن: الخصائص الفنية والاجتماعية في رسوم الواسطي».

إن استعمال المنظور الذي عرفته المدارس الغربية ، فصار واحداً من خصائصها البنائية الأصيلة ، يعتبر الخط العميق الفاصل بين الأسلوبين الشرقي والغربي . ففي حدود إطار اللوحة ، وخط الأرض الأفقي ، توفق الرسام البغدادي بذكاء ، وإحساس مرهف ، إلى أن ينقل لنـــا صور حياة المجتمع الشعبي عبر هذه اليوميات المصورة الفريدة دون اللجوء إلى استخدام المنظور والظلال لاظهار الأبعاد والأعماق . وإنما باستخدام اللون والاضاءة حسـب . ذلك لأن الابتعاد عن المنظور الواقعي المجسم ، هو أقرب إلى الروح الاسلامية التي تنفر من تمثيل الطبيعة تمثيلاً حقيقياً ، وترى في الأنصياع لتحديد الشكل المنظور أمراً يقربه من مفهوم « الأنصاب » . ونظراً لماللعنصر اللون من أهمية قصوى في التعبير ، فقد صار الشخصية الأولى في تصويرات الفنان البغدادي ، الذي سعى إلى ترجمة الأشواق الروحية إلى ما يشبه الرموز .

لقد أدرك الفنان الراحل جواد سليم أهمية اللون في رسوم الواسطي ، فسجل في مذكراته هذا الاكتشاف :

« . . ومن الأمور التي أفادت المصورين الافرنسيين إفادة عظمى ، دراستهم الصور الشرقية دراسة عميقة والتعرف على ألوانها الزاهية وكيفية استعمالها . خذ كل الصور الشرقية من بلاد الشمس المشرقة الى افريقيا . خذ يحيى الواسطي أعظم من ظهر من المصورين في العراق التي تدعي انها عديمة الألوان — بلاد النخيل ، إنه خلدها بصوره وألوانه . »

ثم يشير الفنان الراحل الى رسم « القافلة » بقوله :

« إنها صورة تمثل مجموعة جمال ، وجمال العراق تعرفها جيداً ، لا يتعدى لونها عن لون التراب ، فلقد صورها هذا العبقري العظيم ، كل جمل بلون يتناسب مع اللون الذي بجانبه » .

على أن القابلية الايحائية والحسية للضوء واللون — باعتباره من المقامات الأصلية في التراث البغدادي — تتسع وتمتد كلما أمعن الرسام في تسجيل صور الحيـاة اليومية . وتتجلى مهارته الفائقة في تصوير الجموع وحركاتها ، والتنويع في رسم أوضاع الأشخاص ، بحيث يستطيع الجمع في صورة واحدة بين أكثر من حركة وحادث . وتبـدو التقاليد الوصفية المشتركة في التصاوير الاسلامية عامة ، واضحة وضوحاً تاماً في رسوم هذه المدرسة أيضاً ، ويغلب عليها الاستواء السطحي ذي البعدين ، وخلو الأرضية الخلفية من أي خط أو لون ، وتحقيق رسم الشخص المهم في الصورة بحجم أكبر .

لقد برعت المدرسة البغدادية في إبراز حياة المجتمع الاسلامي ضمن إطار تشكيلي خاص . وهذا ما نجده واضحاً في تصويرات مقامات الحريري التي سجلت ، عبر سياحات الحارث بن همام ، صور ذلك المجتمع ، بطبقاته ومظاهر عيشه ، فاستطعنا أن نتعرف من خلالها على أساليب العمارة ، وأشكال الأزياء وألوانها ونقوشها ، والأثاث ولوازم العيش ، كما استطعنا أن نتملى فيها صور الحيـاة المختلفة لذلك المجتمع ، كمجالس الوعظ والتقاضي والزواج وتشييع الجنائز ودفن الموتى وأسرار الولادة وقوافل السفر واستقبال رمضان ، الى غير ذلك من المشاهد الزاخرة بالحياة .

يجمل بنا هنا أن ننقل ما كتبه الفنان شاكر حسن حول المحتوى الكلي لرسـوم الواسطي ، فهو تلخيص للجوهري في ذلك الانجاز الفني الرائع :

« ومن خلال مناقشته « أي الواسطي » الحيوية هذه ، كان ما يفتأ يشكل جموعه تشكيلاً (شاملاً) ليقتطع لحظة من حيـاة كاملة ، تجمع بين الانسـان والحيوان والنبات والجماد . لكأنه يقول ، بل يترجم بلغته الفنيـة ما يقوله القرآن بلغته الآلهية : « سبح لله ما في السموات والأرض وهو العزيز الحكيم » . فهو بهذا يظهر مجتمع الحياة ، والسحنة المحلية ، ويجمع الانســـان مع بيئته ولا يفرده ، ليؤكد أهمية ذاتيته كما هو في مفهوم الفنون الكلاسيكية . وهكذا نلاحظ في رسوم بغداد اختلافها في أنها لا تركز على استهواء الطبيعة وحدها كما هو الحال في الرسوم الصينية ، بل ترمز لهـا باصطلاحات رمزية . كما أنها لا تصور الانسـان وتعنى بنسب أجزاء الجسم العضوية ، ولذا رأى الكثير من النقاد أن هذه الرسوم زخرفية الطابع لما نجم عن التحوير الذي تضمنته الصورة للطبيعة والأسلوب التخطيطي للخلفية والعمائر . »

لقد ساهم المجتمع البغدادي ، بمـا ضمـه من أقوام مختلفة ، في بناء الكيان الحضاري لتلك المدينة . وحين اتسعت آفاق المعرفة أمام كل الانجازات الذهنيـة للحضارات الأخرى ، تحرر جهـد المستطاع ، ليعطي المجال لما تحقق من انجازات تلك الحضارات في المعرفة الانسـانية القريبة منـه والبعيـدة عنه . وهكذا يبـدو لكل باحث ، أن نشوء مدرسة بغـدادية للتصوير ، كان ثمرة امتزاج وتفاعل بين عناصر فنيـة مختلفة تتصل جذورها التاريخية بأعرق الحضـارات الانسـانية : السومرية والأكدية والبابلية والآشـورية ، حتى الحضارة الساسانية التي امتـدت الى الفتح العربي الاسلامي للعراق ، ونتج من كل هذا قيام بغداد بدورها في بناء كيان مدرسة ما زلنا نتلمس في آثارها التصويرية قيم الفن العالية ، وروح المجتمع الأصيل .

أما أقدم المخطوطات المصورة التي تنسب الى مدرسة بغداد ، فيمكن ذكر أبرزها موجزاً في الخلاصات التالية :

★ **كتاب البيطرة :** وهو مختصر رسالة لأحمد بن حسن الأحنف نسخها علي بن حسن بن هبة الله ببغداد في آخر رمضان سنة ٦٠٥هـ (آخر مارت سنة ١٢٠٩م) . ويضم هذا المخطوط ـــ الذي تحتفظ به دار الكتب المصرية الآن ، (٣٩) تصويراً وصفت بأنها غير واضحة المعالم لعدم العناية بها . غير أن وجود نسخة أخرى بنفس الخط مزينة برسوم من نفس الأسلوب ، مكنت الباحثين من الاستدلال على أن تلك النماذج، لم تكن نتاج حضـــارات سابقة ، وإنما هي ـــ كما يشير اتينكهوسن ـــ نتاج وسـط عربي إسلامي جـديد ، وهيمنـة فنيـة تظهر ملامحها بصـورة واضحة في هـذه الآثـار التصويرية .

فقد تميزت رسوم النسخة التي عثر عليها اتينكهوسن بقوة تعبيرية ، وببساطة تتجلى فيها حساسية عالية ضمن فن مسطح لايحده إطار، ويقتصر ـــ لغرضه العلمي ـــ على عناصر تكوينية مؤلفة من أشخاص وخيول، تكون الأرض فيها على شكل خط، ورسوم الأشخاص بسحن وملامح محلية شعبية . ويرى هذا الباحث بأن الرسوم التي ضمها مخطوط كتاب البيطرة ، تلتقي مع رسوم كتاب « رسائل إخوان الصفا » أسلوبياً ، وتمثلان معاً ، الخصائص الأصيلة المميزة للأسلوب البغدادي .

★ **كتاب الترياق لجالينوس :** يعتبر هذا الكتاب من المخطوطات المصورة التي ترجح نسبتها لمدرســة بغداد أو المدرسة العراقية . وقد كتب الدكتور بشر فارس دراسة عنها في عام ١٩٥٤ ، كشف فيها عن العلاقات الفنية والأسلوبية التي تربطها بالمدرسة العراقية حيث جاء فيها قوله : « وتشير ملامح هـــذه التصاوير للأساليب الفنية التي عرفنـــاها في نقوش سامراء . »

ويضم مخطوط هذا الكتاب ـــ المحفوظ حالياً في المكتبة الأهلية بباريس والمؤرخ في سنة ٥٩٥هـ (١١٩٩م) ـــ (١٣) صفحة مصورة لأشكال النباتات حققت على درجة عالية من التشكيل والتأليف والتلوين ، حيث استعمل الفنان في تلوينها ثلاثة عشر صنفاً من الأصباغ . وهناك مخطوط آخر لهـذا الكتاب موجود في فينا ، إلا أنه لا يوازي مخطوطة باريس من حيث اتقان التخطيط والتلوين وقوة التعبير .

★ **كتاب الحشائش أو خواص العقاقير لديسقوريدس :** تحتفظ استانبول بنسخة من هذه المخطوطة ، وقـد كتبها وصورها عبدالله بن الفضل ، أبرز مصوري مدرسة بغـداد في عام ٦١٩هـ (١٢٢٢م) . وهناك مخطوطات أخرى من هذا الكتاب ضمت صور متفرقة منها مجموعتا الدكتور زره في برلين والدكتور مارتن باستكهولم ، وتوزعت المجموعات الفنية في العالم صورها الأخرى ، حيث يوجد قسم منها في متحف اللوفر في باريس والقسم الآخر في متحف المتروبوليتان في نيويورك ، وهي تمثل أدوار تحضير الدواء . واستعملت في تصويرها ستة ألوان .

وقد عنى الأستاذ هوجو نجتال باعداد دراسة وافية عن هذه الرسوم واستنتج بأنها تعود لنفس كاتبها عبدالله بن الفضل ، أما موضوعات تلك الرسوم ، فهي صور الأطبـــاء ، ومراحل اعداد الأدوية ، والعمليات الطبية المختلفة . ونظراً للأهميـة الفنية التي تنطوي عليها رسوم هـذه المخطوطة ، فقد أشارت اليها أغلب المصادر التي تناولت تطور فن

وان شئت ارعفت كفي اليراع فساقط درا الحلي الطروسا
وكم مشكلات حكين السها خفا فبرزن بكشفي شموسا
وكم ملح لي خلبن العقول اثارن في كل قلب رسيسا
وعذرا فهت بها فاثنى عليها الثنا طليقا حبيسا



على انني من زماني خصصت بكيد ولا كيد فرعون موسا
يسعر لي كل يوم وغى اطا من لظاها وطيسا وطيسا
ويطرقني بالخطوب التي تذيب القوى وتشيب الرؤوسا

التصوير الاسلامي ، واهتمت بها الأوساط العلمية منذ بداية هذا القرن ، وانعكس هذا الاهتمام بغزارة البحوث القيمة التي كرست لها ، والمعارض التي أتيح لها فرصة الظهور فيها ضمن الرسوم الاسلامية الأخرى .

وتلتقي رسوم هـــذا الكتاب أسلوبياً وتتقارب مع رسوم كتاب البيطرة من حيث بساطة الاداء ، وتحديد الرسوم بخطوط خارجية ، وطريقة تمثيل الأرض بخط عريض ، والرسم المحور للنبات ، وعدم وجود خلفية .

وهناك نسخة أخرى من هذه المخطوطة ، نشـرت عنها المستشرقة فلورنس داي بحثاً توصلت فيه الى الاستنتاج بأن هذه المخطوطة من أقدم المخطوطات المصورة التي وصلت الينا من مدرسة بغداد لفن التصوير .

* **كتاب الحيوان للجاحظ :** لقد ضم هـذا الكتاب مجموعة من الصور التي تعود ، أسلوبياً ، الى المدرسـة البغدادية لفن التصوير . ويرجع تاريخها الى نهاية القرن السابع ، أو النصف الأول من القرن الثامن الهجري (١٤١٣م) . وفي المكتبة « الأمبروزية » بمدينة ميلانو مخطوط من هـذا الكتاب يضم تصاوير تعود الى نهاية القرن الثالث عشـر الميلادي أو الى النصف الأول من القرن الرابع عشر الميلادي .
* **كتاب الحيل الميكانيكية أو « كتاب الحيل الجامع بين العلم والعمل » :** ويقع هذا الكتاب الذي وضعه ابن الرزاز الجزري في أواخر القرن السادس للهجرة ، في نطاق الكتب العلمية التطبيقية التي وصلت الينـا مصورة بأسلوب المدرسة البغدادية . وقد اشتمل على صور توضح أشكال الآلات الرافعة ، وطرق النقل والحركة ، وغيرها من الآلات المتحركة الأخرى .
* **كتاب صور الكواكب الثابتة :** وهو مخطوط وضعه الفلكي العربي المشهور عبدالرحمن بن عمر الصوفي . وقـد عثر على نسخة منه تعود الى القرن العاشر الميلادي ، ذيلت الصفحة الأخيرة منها بهـــذا النص : « كتبه وصوره الحسين بن عبدالرحمن بن عمر بن محمد سنة ٤٠٠هـ » .

ويعتبر هـذا المخطوط ، الذي تحتفظ به الآن مكتبة بودلين بأكسفورد ، من الوثائق المهمة التي تلقي الأضـواء على جوانب من التصوير الفلكي ، ما زالت خارج حدود اهتمام مؤرخي الفن الاسلامي .

وتتميز رسوم مخطوط الصوفي هذا ، بنقائها الخطي ، وقدرتها التعبيرية على تمثيل الأشخاص ضمن إطـار من الأجواء الاسلاميـة غير مشوبة بأي تأثير هلنستي مما يسم تصاوير العهـد الأموي الباقية في قصر عميرة والحير الغربي في الأردن . وهكذا يبدو لنا ، أن نسبتها الى الأسلوب الساســـاني المتأخر ــ كما جاء في البحث الذي نشرته مكتبة بودلين بأكسفورد ــ أقرب الى الصواب ، ذلك لأن الفن الساساني ، لم يبق ساسانياً حينما انضوى تحت لواء الفتح الاسلامي، بل أصبح إســـلامياً في الروح والشكل ، وغدا يمثل الانتقال الكامل الى مرحلة المدرسة البغدادية في فن التصوير .

هـذه إلمامة قصيرة تناولنا فيها بالتعريف الموجز ، بعض وثائق المخطوطات المهمـة التي نسخت وصورت في بغـداد ، واكتسبت نتيجة لذلك ، طابع المدرسة البغدادية وتقاليدها في التكنيك الفني والأسلوبي . أما القسم الآخر من تلك المخطوطات ، فقد تم نسخها وتصويرها خارج بغداد ، وخضعت لنفس التقاليد ، فاعتبرت ضمن حدود تلك المدرسـة ، ونسبت اليها . ولعـل فيما أكتشف من تلك المخطوطات حتى الآن ، ما يدني الأمل في العثور على وثائق أخرى غيرها ، أو يوسع من دائرة البحث في الآثار المكتشفة منها فيضيف اليها المزيد من الحقائق العلمية التي ستوضح أكثر فأكثر ، دور بغداد في فن التصوير ، وأثرها على مدارس الفن العربي خاصة والشرقي عامة .

المدرسة البغدادية الحديثة

لم ترث بغداد ، شأنها شأن الكثير من مدن الشرق العربي ، تقاليد فنية توصلها بجذور فن التصوير وتقاليده الماضية. فقد مرت هذه المدينة ، عبر قرون الفترة المظلمة ، بأشد عهود الجهالة ، والفقر الفني ، والأنحسار الثقافي . ولم تخلف فترة الحكم العثماني ، طيلة القرون الأربعة التي سادت العراق ، أي أثر يدنيها من روح الحضارة العربيـة التي أفلت نجومها

الزاهرة بعد سقوط الدولة العباسية ، وتوالي غزوات الأقوام المختلفة عليها فيما أعقب ذلك من أحقاب .

الا أنه يمكن ، حين استعراض الفترة الحديثة من تاريخ العراق ، اعتبار نهاية القرن التاسع عشر ، وبداية القرن العشرين ، أول بوادر التطلع إلى فنون التصوير الأوربي الكلاسيكية . فقد نمت بذور هذا التطلع في تركيا العثمانية ، حين كانت تستلهم أساليب الثقافة الأوربية — وفن التصوير واحد منها — عند اتصالها المباشر بأوساطها ودولها آنذاك. وانتقلت هذه البذور ، بحكم المنطق التاريخي إلى بغداد ، عن طريق رسامين هواة ، كان التصوير يؤلف جانباً تزيينياً من جوانب حياتهم الشخصية . فقد تعلموه في المدارس العسكرية ، وصار ترفاً يزاوله البعض ويجفوه البعض الآخر .

وكان عبد القادر رسام ، ألمع الفنانين البغداديين في تلك الفترة ، بل وأكثرهم أصالة ، وأغزرهم إنتاجاً . فقد ترك لنا هذا الرسام — منذ حوالي عام ١٨٩٠ — مجموعة كبيره من اللوحات الفنية التي أنتجها بين الاستانة — حينما كان ضابطاً يعمل في الجيش العثماني آنذاك — وبين بغداد ، بعد أن أحيل على التقاعد ، وظل يعمل في ظل ظروف اقتصادية وصحية عسيرة ، حتى وفاته في عام ١٩٥٢ وقد أشرف على التسعين من العمر .

كانت أعمال هذا الرسام الاتباعي ، تقع تحت انجذاب سحر الطبيعة البغدادية الخلاب. وفيما كان ينتقل من ضفاف دجلة النخيلية الظليلة ، إلى معالم المدينة ، كان يعنى بتسجيل صور المراقد المقدسة ، وبعض المشاهد التاريخية المعمارية كدليل على ولائه الروحي لهذه المشاهد أولاً ، ونزوعه للتعبير عن الشخصية الكاملة لفنان « المناظر الطبيعية » التقليدي ثانياً . إلا أن عبد القادر رسام ، لم يقتصر في أعماله على رسم الطبيعة ، بل تناول رسم الصور الشخصية « البورتريت » أيضاً . ثم انتقل إلى مرحلة الرسم الجداري ، ليزين باللوحات الزيتية الكبيرة — كما أشار الفنان نوري الراوي في كتابه « تأملات في الفن العراقي الحديث » — جدران إحدى قاعات السينما الأولى في بغداد ، والتي زالت معالمها الآن ، بعد أن أتى عليها العمران الحديث .

وتعدت شهرة هذا الرسام بغداد واستانبول ، حين احتفظ متحف برلين — كما أشار المصدر السابق — بلوحة من لوحاته التي فازت بالجائزة الثانية في مسابقة دولية .

ونحن ، حين نؤكد ذكر هذا الرسام ، ونلقي الضوء على أهمية الدور الذي لعبه في فجر حركتنا الفنية الحديثة ، فانما يعود ذلك الى أن آثاره الباقية ، تؤلف المصدر الوحيد الذي يعول عليه في دراسة تلك الفترة .

أما الرسامون الآخرون الذين عايشوا فترته الزمنية ، وما بعدها ، فقد وصلت الينا أسماؤهم دون أعمالهم ، وهذا ما يحملنا على اغفال تلك الأسماء . غير أن المتأخرين من أولئك الرسامين القدامى — وما يزال يعيش بين ظهرانينا اثنان منهم هما : محمد صالح زكي وعاصم حافظ — فقد مثلت أعمالهم الفنية ، المرحلة التالية لعبدالقادر رسام ، زمنياً وأسلوبياً .

تبدأ حركة الفن العراقي الحديث على وجه التحديد ، في أوائل الثلاثينات حينما تولت « وزارة المعارف » إرسال فنانين للدراسة خارج العراق . فقد أرسلت الفنان فائق حسن الى باريس لدراسة فن الرسم في « البوزار » . وتبع ذلك آخرون من بينهم عطا صبري وحافظ الدروبي والمرحوم جواد سليم . وان عودة هذه البعثات قبيل وأثناء وبعد الحرب العالمية الثانية الى بغداد ، تعتبر بداية الحركة الفنية الحديثة في العراق .

وهنالك حدث تحول ، في رؤية الفنان العراقي ، بعد أن اتصل هؤلاء الفنانون الشباب ، بمجموعة من الفنانين البولونيين والانكليز الذين حلوا بغداد إبان الحرب العالمية الثانية في عام ١٩٤٢ ، وسرعان ما تغيرت أساليبهم — وعلى الأخص فائق حسن وجواد سليم — فنهجوا ، عبر تجاربهم الفنية الجديدة ، نهجاً ، ابتعد كثيراً عن أسلوبية القرن التاسع عشر التقليدية ، واقترب من روح المدارس الحديثة ، حيث انطبعت فيه تأثيرات وأساليب المدارس الأوروبية الحديثة وأساليب « بونار » وأعلام المدرستين الفرنسيتين الانطباعية والمعاصرة وغيرهم . وقد كتب جواد في يومياته يصف هذا اللقاء :

« وكانت الحرب ، فنقلت بعض هؤلاء (البولونيين) الى بغـداد ، فتعرفوا بي وبفائق حسن في معرضنا السنوي ، وكان ذلك لقاءً حاراً . وابتدأت بيننا صداقة متينة أرجعنا فيها تأثيرات باريس وحياة باريس قدر طاقتنا ، وقدر ما تمكن به بغداد ، وتعرفت عنهم بأشياء لم أحلم بها . . أشياء سيكون لها تأثير عظيم جداً في مجرى حياتي . »

ثم يسجل في موضع آخر من يومياته :

« ثم عرفت أكثر من هذا . . عرفت قداسة العمل . عرفت قيمة الوقت . . . كنا نشتغل كل يوم من ابتدائه الى نهايته بدون انقطاع . وفي المسـاء نجتمع في القهوة البرازيلية لنحتسي القهوة الفرنسية مع جدالنا الطويل . . . كنا نتجادل حول كل شيء ، وكنا آخر من يترك القهوة . »

وتبلور النشـاط الفني لتلك الفترة في شكل معارض للرسم والنحت كان يقيمها أعضـاء أسرة فنية صغيرة ظهـرت باطارها الرسمي عام ١٩٤٠ تحت عنوان : « جمعية أصـدقاء الفن » ثم ما لبثت هـذه الجمعية أن اختفت من مـسرح الفن العراقي بعد سنوات قليلة ، حين عجزت عن الاستمرار في العمل بسبب من افتقارها للمال ، ونشأت على أنقاضها في الخمسينات ، جماعات فنيـة استأثرت بنشاطات الفنانين الذين شدتهم الى بعضهم ، اعتبارات شخصية محضة . وكانت ثمرة هذه التجمعات نشوء : « جماعة الرواد » التي قادها فائق حسن و« جماعة بغداد للفن الحديث » التي قادها جواد سليم ، ثم من بعد « جماعة الانطباعيين العراقيين » التي انبعثت من مرسم حافظ الدروبي ، وأخيراً « جماعة الفن المعاصر » التي تألفت من بعض مخرجي معهد الفنون الجميلة .

وفي عام ١٩٥٦ تشكلت « جمعية الفنانين العراقيين » فانضمت إليها كل الجماعات الفنية ، مع أعـداد من الفنانين المستقلين . وبدأت نشاطها الكبير في نفس العام حين أعلنت عن سلسلة من المعارض الفنية والمحاضـرات والأفلام تحت عنوان « مهرجان الفن العراقي » .

وهكذا بدأ الفن العراقي ـــ الذي لم يكن يحظى قبل سنوات باعتراف المجتمع أو عناية المسؤولين ـــ يأخذ مكانه اللائق في فلك الحياة الثقافية في العراق ، كما أخذ يتجه نحو منطلقات جديدة للتعبير عن مفاهيم انسانية معاصرة . ولقد هيأت تلك المعارض الفنية المتمادية ـــ بما رافقها من نقد موضوعي ومحاكمات فكرية ، هيأت ذهن الفنان العراقي للتفتح الفكري والخصب الفني اللذين قاداه الى منطقة الوعي بمشـاكل المجتمع ، فتوصـل ، عبر تجاربه التكنيكية وممارساته لطاقات التعبير ، الى ادراك القيم الجوهرية في الفن الحديث ، واستخدامها ـــ بطريق الشكل المجرد للصـورة المنظورة ، للحصول على أعلى شحنات التعبير .

وظهرت أولى محاولات استكناه الروح العراقيـة في أعمـال جـواد سليم ، التي سلكت طريقها الصعب متغلغلة في منطويات النفس العراقية الشعبية ، للبحث عن معاني وجودها ، متخذة من أساليب الفنان الرافديني القـديم وتأليفات الفنان البغدادي العباسي ، سبيلاً للوصول الى قمة « المعاصرة » .

ولقد أكد جواد بوعي كامل ، طريقته في البحث عن أسس مدرسـة عراقية بقوله : « إن التوصـل الى الطابع المحلي ليس بالأمر الهين ، ولا أقصد بالطابع المحلي رسم أعرابي أو مئذنة عراقية مثلاً ، بل هو المميزات الخاصـة التي يثيرها في الفنان ، فتكسو روح أعماله ٭ »

لقد كان جواد يمثل ذروة التفتح في الفن البغدادي ، وانجازاته عبر العصور ، ذلك لأنه أول من فتح باب الماضي لينساب بكل مقوماته الى الحاضر ، حتى يغدوان عالماً واحداً . وصوره المعروفة بـ « البغداديات » ما هي إلا انجازات فنية تمثل استمرار الزمن منذ عهد الواسطي قبل أكثر من سبعة قرون ! . أما عمله الشامخ الذي وضعه تمجيداً للحرية

٭ من مقال للفنان حول معرض الفن العراقي الذي أقيم في بغداد عام ١٩٥٣ بمناسبة مهرجان ابن سينا .

وللانسان ، فهو إنجاز على المستوى الانساني ، يبدو في امتداده وعمقه ، كأنه تشخيص لذات الشعب العراقي عبر العصور .

وتتوالى محاولات الفنانين العراقيين ، في البحث عن مفاهيم راسخة وصياغات جديدة للمدرسة العراقية المحلية ، فيبدأ شاكر حسن سعيد ، تلميذ جواد ، بحثه في طيات الفولكلور الشعبي عن الذات الكلية للفداء ، ولشهادة الشهيد ، ثم يقتحم أسواراً ما كانت لتقتحم من قبل ، وينفذ فائق حسن الى أعماق القرية العراقية يصور شقاءها الزمني عبر الأشكال والألوان في رؤية جديدة منظورة من الخارج ، وليجمع حوله تلاميذ وأتباعاً يقتفون أثره ويرون رؤيته . ثم يأتي في السنوات الأخيرة الفنانون الشباب ، لينهلوا من نفس المورد الأسطوري الشعبي ، نستطيع أن نذكر منهم : كاظم حيدر الذي قدم ملحمته الدموية الرائعة عن الاستشهاد الانساني ممثلاً بشخص الامام الحسين بن علي . وضياء العزاوي ، بلمسانه الشاعرية لروح الماضي ، واستبطاناته للأسطورة العراقية ، واستيحائه لأجوائها الغامضة . ونوري الراوي الذي ظل

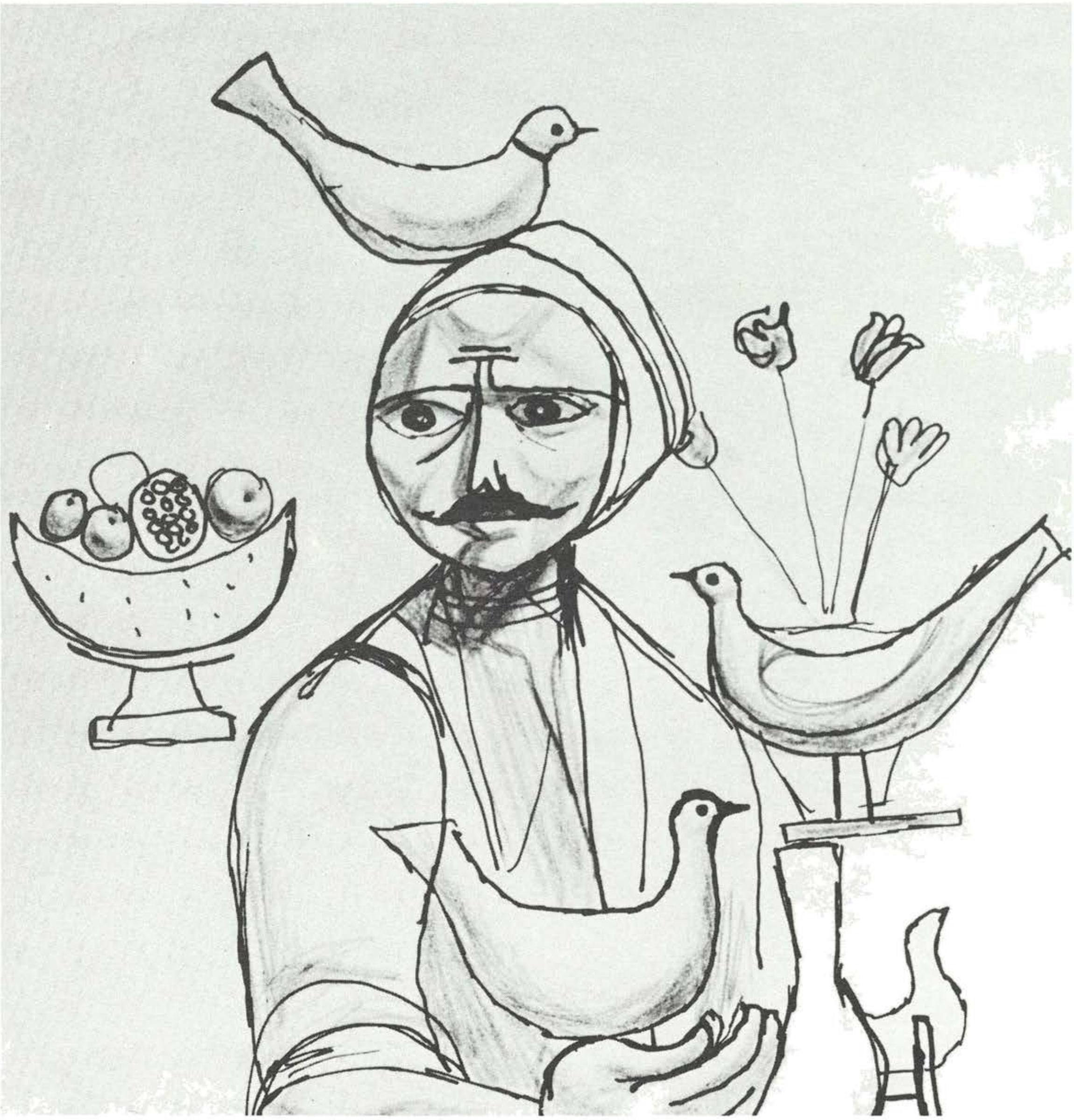


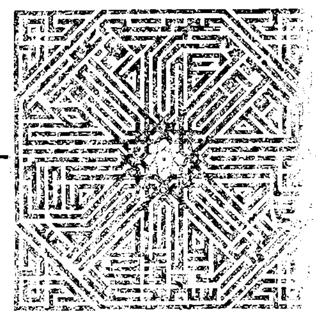
تصويرة في مخطوط كتاب الترياق لجالينوس ٥٩٥هـ / ١١٩٩م تمثل الأفاعي الشافية من مجموعة المخطوطات العربية المكتبة الأهلية باريس

ينسج على ذات النول ، مؤكداً حضوره اليقظان في الحلم . وأخيراً سلمان عباس الذي يستحضر الماضي عبر مرشح ضوئي ملون .

إلا أن ظاهرات العصر وقضاياه المعقدة ومشكلات إنسانه المعاصر ، بدأت تظهر في المحاولات والأعمال الفنية الكثيرة لعدد كبير من الفنانين الشباب الذين تلقوا دراساتهم في معاهد الفن في العراق وخارجه ، وتوزعتها الجماعات الفنية التالية : الرواد ، بغداد للفن الحديث ، الانطباعيين العراقيين ، الفن المعاصر ، الزاوية ، المجددين ، التشكيليين ، تموز ، آدم وحواء ، البداية . . . الى آخر هذه السلسلة المتنامية . وإذا دلت محاولات التجريد التي اتسمت بها معارض السنوات الأخيرة على شيء ، فانما تدل على نمو التجارب الجديدة التي قد تتحول تدريجياً الى انجازات فنية ذات مقومات عصرية تؤل في النهاية الى محيط « العالمية » المترامي الأطراف .

عاشق الطيور ـ لجواد سليم





تطوّر فن العمارة في بغداد

الدكتور محمّد مكيّة

تطوّر فن العمارة في بغداد

سنحاول في هذا العرض الموجز لتطور فن العمارة في بغداد، استخلاص أبرز الخصائص المعمارية التي تميزت بها عمائر هذه المدينة، معتمدين في ذلك على ما سجله المؤرخون البلدانيون حول معالمها العمرانية من معلومات، وما ورد في كتب الأدب والرحلات من نصوص تناولت بالوصف، مظاهر الحياة والبيئة أيامئذ. وقد لا يكون من السهل رسم صورة متكاملة الأوصاف لتصاميم تلك المنشآت وتوزيع مرافقها — كما يفعل الآثاري لاظهار ذلك في تنقيباته — لأن أية محاولات فردية للبحث في هذا الميدان، ستكون محفوفة بالمصاعب ما لم تكن على مستوى الجهود الجماعية المستمرة. وأن موضوعاً واسعاً كهذا سوف لن يحقق نتائجه الايجابية إلا ضمن برنامج فني طويل من الدراسات والتحريات والمسوح الموضعية التي تتولاها هيئات مشتركة متعاونة لتنسيق البحوث على ضوء تخطيط علمي شامل، كما هو جارٍ في التحريات التنقيبية.

وما هذا العرض في حقيقة الأمر، إلا محاولة لتفهم الاعتبارات التصميمية التي استوطنت هذه المنطقة العريقة من الشرق العربي، على ضوء الاستدلال بالتراث الأدبي والتاريخي الذي قلما أشار بدقة، الى التفاصيل الفنية المهمة في تكوين تلك العمائر، وبنائها الفني وطرائق صناعتها، لتساعدنا من بعد على الاستمرار في إيصال مقومات الحضارة العربية الى عالمنا الحاضر، وفننا الحديث الذي ما زال يشكو الانقطاع عن الماضي، والانفصام من الأرض التي ما زال يعيش عليها.

ونحن، حين نمهد لمثل هذه الدراسة، لابد لنا من استعراض الخصائص والملامح الفنية للبيئة المعمارية في بغداد باستقراء النصوص التاريخية والأدبية، ومعرفة العناصر التي تؤلف البيئة البغدادية، كالمناخ والطبيعة المحلية، وأثر ذلك في الحياة اليومية، والأحوال الاجتماعية، ثم انعكاسها جميعاً على الحياة الفكرية عموماً، وبالتالي على الصياغة العامة لشكل المدينة.

ورغم ما يكتنف طريقنا هذا من صعوبات تنجم من تعارض أساليب المؤرخين، واختلاف أغراضهم، فأن استيعاب القيم الفنية، عن طريق تفهم المناهج البيانية، خير مساعد للخوض في هذا الميدان، بأقل تحيز، وأكثر تجرد علمي ممكن.

لم يكن هناك فن للعمارة الاسلامية، تتجسد فيه كل الخصائص الجديدة، قد ظهر للوجود، قبل أن تتولى بغداد تكوينه وابداعه. فالتمدن الاسلامي في هذه البقعة من العالم القديم، أوجد حاضرة تولت مسؤلية تمدن سريع نجم عن نشاط حضاري في كافة الميادين، مما جعل منها حاضرة العالم الاسلامي ودار الخلافة العباسية ومركزاً تجارياً هاماً جمع اليه الناس من كل الأقطار والأمصار، حتى أصبحت كما قيل: « الدنيا بادية وبغداد حاضرتها ».

إن فن العمارة قبل قيام بغداد، لم تتوفر له الفرص والامكانات ليهيمن على تكوين منشآتها الجديدة أكثر من أن يحاول تحقيق مسقفات واسعة كانت تجمع بين عناصر الفن الأغريقي والروماني والهلنستي، تلك التي ظهرت معالمها واضحة في الانجازات المعمارية التي تحققت في بلاد الشام إبان الحكم الأموي. فقبة الصخرة والجامع الأموي — بعد تجريدهما من زخارف التكسية السطحية — هما معالم تاريخية أكثر من كونهما معالم لمنجزات في فن العمارة الاسلامية

الخالصة . واذا اتفقت آراء الباحثين في علم الآثار الاسلامية وتاريخ فنونها ، حول مصادر هـــذه الفنون وعناصرها الهلنستية ، فان من الصعب أن توسم منجزات بغداد . وما أعقبها من تطور العمـارة الاسلامية في المنطقة ، بالتبعية الهلنستية ، أو توصل بمصادر الاشتقاق من العمارات اليونانية والرومانية .

لقد أصبحت بغداد ، بحكم موقعها الجغرافي من الجزيرة العربيـة ومجاورتها لسفوح الهضبة الايرانية ، على اتصـال بالعالم القديم ، ومهد لها ـــ بفضل وحدة العقيدة الاسلامية ـــ سبل اللقاء مع حضـارات بلدانه المختلفة ، فنتج من ذلك نشوء فن معماري له مقومات حضارية وخصائص فنية مستحدثة استمدت وجودها من الواقع الحضاري الجديد ، وهيأت لها الفرص الكاملة للنمو والتوحـد . والظهور بشكل متفوق معجز أذهل العالم في القرون الوسيطة ، وجعل من بغـداد مدينـة الأحلام والخيال والأساطير .

إن التخطيط الدائري الذي انتهجه المنصور ، واكتمل في صورة بغداد المدورة بعد أربعة أعوام من بدء البناء ، كان حدثاً تاريخياً مهماً ، وانجازاً هندسياً بمقاييس ضخمة دلت على تبدل في طراز الحكم وموقع الخليفة العباسي في الكيان السياسي الجديد ، الذي تغير تغيراً جوهرياً عما كان عليه أيام الخلفاء الراشدين . فقد تبدل مفهوم تخطيط المدينة تبعاً لذلك ، وأصبح يتجه ليشكل حصناً منيعاً للذود عن الحكم ، بعد أن تأججت الثورات المحلية حوله . وهكذا صارت بغداد المدورة على ضوء التخطيط المدني الجديد ، حصناً لدار الخلافة ، محاطة بسور ضخم يمتد أربعة أميال «وهو طول محيط بغداد».

غير أن هذا التخطيط لم يعط لهذه المدينة قدرات النمو والاتساع والاستيعاب الكافي للسكان ، إلا بعد أن أهمل التخطيط الدائري تدريجياً وامتد الاستيطان خارج أسوارها ، حتى عبر دجلة في مدة قصيرة من إكمال المدينة المدورة (١) . وتشير المصادر التاريخية الى أن الخليفة ، امر باخراج الأسواق ـــ بناء على مشورة أحـــد المقربين اليه ـــ من المدينة الى الكرخ وبنى مسجداً جامعاً لأهل هذه الأسواق .

ولعل فيما فعله الخليفة لهـذه الأسواق ما يفسـر حقيقة كونها خطراً عليه ، فقـد حولت مواقعها الى مراكز لحراس المدينـة وشرطة الأمن . وفي الوقت الذي نمت فيه الكرخ وأصبحت عامرة بالأسواق ناشطة بالحركة التجارية ، كان لابد لبغداد أن تستجيب لمتطلبات العمران الجديد ، وأن تأخذ حقوقها الطبيعية التي تجاهلها التصميم الدائري الذي لم يفلح في وضع أسس تخطيطية مدروسة تضع في حسابها شروط النماء في الحياة الاقتصادية والتجارية والازدهار في مرافق الطبيعة للمنطقة بصورة عامة . وهكذا أصبحت بغداد الضفة الشرقية ، منافسة لمدينة المنصور ، بعد أن سمح الخليفة لابنـه المهدي أن ينتقل اليها بجنده وأن يبني له فيها دوراً ، ويجعلها معسكراً ومستقراً لشؤون إدارته . وعرفت بغـداد الشرقية بأسـماء محلاتها . فقد سميت المحلة الجديدة معسكر المهدي ، ثم دعيت بـ « الرصافة » وكان هـذا أول سـنة ١٥١هـ . وهكذا استمرت بالاتساع ، لتضم اليها مناطق ومحلات كثيرة مهمة جاءت أخبارها في مصـادر تاريخية متفرقة أهمها الدليل الدقيق الوافي الذي وضعه الدكتوران مصطفى جواد وأحمد سوسه لخارطة بغداد . ويشير الخطيب البغدادي الى أن أول جسر أقيم ببغـــداد كان في عام ١٥٧هـ عند باب الشعير ، حيث قرر الخليفة بناء قصر جديد له هناك سماه « قصر الخلد » وقد عوض بهذا البناء الجديد ما حرمه في قصره الرئيس من مشاهد النهر وفضاءآت الطبيعة ومغـاني الحـدائق والبسـاتين .

إن الخصائص المعمارية لسور بغداد تتمثل بتصميم مداخل المدينة، وقد تجلى ذلك في تحقيق المحور المنكسر لمداخل الأبواب ، وهو تقليد تخطيطي بغدادي أصيل ، حمله الصليبيون ـــ كما أشار الأستاذ رايس ـــ فيما حملوه من أساليب الشرق وتأثيراته المختلفة ، الى أوربا .

---

(١) انتقل الخلفاء العباسيون الى سامراء بعد مرور (٧٥) عام على تأسيس بغداد ، وحينما عادوا اليها في سنة ٢٧٩هـ (٨٩٢م) أصبحت بغداد الشرقية مركزاً لدار الخلافة .

وبالرغم من استعمال المواد المحلية كالطين والآجر في البناء ، فقد استطاع المعماري البغدادي ، إخراج منجزاته ، بمنظور فخم ، وبأبعاد توحي بالسمو ، مما يعيد الى الأذهان التقاليد المعمارية الموروثة من بابل ، وآثار الحضارات العراقية السالفة التي ظلت موائل حتى اليوم ، بجوار مدينة بغداد — كأطلال ايوان كسرى الشهير ، وآثار المدائن الساسانية أيام بناء المدينة المدورة .

ومن المعالم الاسلامية الأولى في مدينة بغداد العباسية والتي يشير اليها المؤرخون المسلمون هي المساجد ومن أهمها مسجد المنصور .

عهد الخليفة المنصور الى الحجاج بن أرطأة بانشاء هذا المسجد في قلب المدينة . في نفس الوقت الذي كانت فيه عمائرها الجديدة تنشأ حوله . ولقد اندثر هذا المسجد فلم يبق إلا ذكره في بعض النصوص الأدبية والتاريخية .

شغل هذا المسجد مربعاً من الأرض طوله (٢٠٠) ذراع . أما بيت الصلاة فقد شغل ثلث هذه المساحة ، واحتوى على (٥) أساكيت و(١٦) عموداً من الخشب . أما الصحن فقد احتوى من جوانبه الثلاث الأخرى ، على مجنبات لكل منها رواقان .

ولقد ذكر المؤرخون ، أن الخليفة هارون الرشيد أمر بتجديد هذا المسجد وإعادة بنائه سنة ١٩٢هـ (٨٠٧م) . وبعد أن ضاق بالمصلين زمن الخليفة المعتضد ، أمر بتوسيع البناء ، فأضيف الى بيت الصلاة من جهة القبلة بيتاً آخر يعادله حجماً ، ويتألف من خمسة أو ستة أساكيت أخرى ، وكان ذلك عام ٢٨٠ للهجرة . ثم جعل المعتضد للمسجد صحناً ثانياً في مؤخرته كما اتضح ذلك في أوصاف المخطط الذي توصل اليه مؤرخ العمارة الاسلامية الكبير ، الأستاذ كريزول (١) .

ويتضح ، من تحليل التركيب التخطيطي للجامع ، أن كيانه العام يتمركز حول الصحن الرئيس باعتباره الفضاء الأساسي لهذا التكوين . لذا فان سعة الفضاء وامتداد مقاييسه ، تقرران أهمية أبعاد السياج الذي يحيطه . وعلى هذا الأساس ، يصبح السياج رواقاً بعمق مناسب ، ثم يؤدي الى مداخل المسجد وينظم الفضاء ويؤكد مقاييسه . أما القبلة حيث يكون المسقف الكبير للمصلى قد امتد على صفوف من الأساطين ، فان الفضاء العميق الذي يشكله يكون مناسباً للحاجة . ومن المعروف ، أنه كلما ازداد ارتفاع المصلى (في تناسب رياضي مع السعة) كلما تحققت الانارة الطبيعية بشكل كامل في أرجاء البناء .

وهكذا يبدو لنا ، أن محاولة الأستاذ كريزول لرسم تخطيط هذا الجامع ، هي أقرب الى الصواب — من الناحيتين المعمارية والعملية — من التخطيط الذي رسمه هرتسفلد للجامع بشكله الأخير .

ولعل الأثر التاريخي الوحيد الذي ظل شاهداً على عظمة ذلك الجامع ، هو محرابه الذي يعرف اليوم بـ « محراب جامع الخاصكي * » . وتشير الدراسات الآثارية الى أن زخارف هذا المحراب ، وأسلوبه الفني غريبان عن الطابع البغدادي ، قريبان من الأسلوب الهلنستي السوري الأصل ، مما ينبيء بأنه نقل من بلد آخر ليحل في أول جامع يشيد

---

(١) وضع هذا المستشرق كتابه الجليل في تاريخ العمارة الاسلامية بخمس مجلدات ضخمة أفرد المجلد الأخير منها للمراجع . وقد فتح هذا الكتاب — الذي استغرق حياة المؤلف وجهده — آفاقاً واسعة أمام الدارسين والباحثين في حقول العمارة والفن الاسلاميين .

* محراب جميل من المرمر ، عثر عليه في جامع الخاصكي ببغداد ، وهو الآن في محفوظات المتحف العراقي . ويعتقد الأستاذ كريزول أنه محراب جامع المنصور ، مستنداً في ذلك على دراسة تفاصيله الزخرفية التي تظهر فيها الملامح الأولى للفن الاسلامي — العائدة الفترة التي تسبق سامراء — ويغلب على هذا الأثر طابع صناعة سوريا .

بمدينة السلام . ويؤكد هذا الاعتقاد ما ذكره الخطيب البغدادي من أن باب خراسان جيىء به من الشام ، وهو من عمل الفراعنة ، وأن باب الكوفة الخارجي جيىء به من « الكوفة » وهو من عمل خالد القسري ، وأبواب أخرى سبق أن جيىء بها من موقع يعرف بـ « زندورد » ، وأخرى صنعت محلياً .

غير أن ظاهرة كهذه ، لا يمكن أن تعتبر دليلاً على انتقال كثير من النماذج المعمارية الى بغداد ، ويستدل أن ما وهبته هذه المدينة لسائر بلدان الشرق من خصيب الفنون والعمارة ، ما يصعب أن يدخل تحت حصر رغم قلة ما نجى منها . نجت تلك الآثار من كوارث الطبيعة ونوازل الأيام ، وما بقي حتى اليوم ، شاهد على براعة الفنانين البغداديين في الحفر والنقش والصناعة والريازة وفنون العمارة الأخرى والذي من أبرزها الآثار البغدادية الباقية ، المنبر والمحراب اللذين تحتفظ بها اليوم مدينة القيروان في تونس . ويشير الأستاذ ديماند الى هذا المنبر بقوله : « يعتبر منبر القيروان الذي يرجع الى عهد هارون الرشيد (٨٧٦ــ٨٠٩م) واحد من روائع أمثلة الحفر على الخشب من مدرسة بغداد . »

أما باب الرقة ، فهو مثل آخر من المعالم العمرانية الباقية التي تتسم بالطابع البغدادي ــ وإن لم يبن في بغداد . وقد أنشأ الرشيد هذه المدينة على الفرات في سوريا وجعلها عاصمة ملكه الصيفية ، ويمكننا أن نستدل على أن عقود أقواسها وآجرها وأساليب عمارتها صورة من معالم العمارة البغدادية في عصورها العباسية الأولى .

ومن أهم ما تميز به فن العمارة في بغداد ، استخدامه للخزف في التكسية الجدارية . فقد أثبت البحث العلمي ــ بعد نقاش دام سنين طوالاً حول هذا الموضوع ــ أن العراق ، هو الموطن الأول الذي ابتكر فيه الخزف ذو البريق المعدني أيام العباسيين . ويشير ديماند الى هذا النوع من الخزف بقوله : « يعتبر الخزف العباسي المحلى بزخارف من البريق المعدني ، أجود منجزات الخزف في العالم الاسلامي ، إذ أن صناعة الخزف ذو البريق المعدني كانت من الابتكارات التي اهتدى اليها الخزافون المسلمون في القرنين الثامن والتاسع . . . »

ثم يذهب الى القول بأن هذا النوع من الخزف المعدني المتعدد الألوان ، والذي وجد في ايران وغيرها من الأقطار، عراقي الأصل . وان بلاطات محراب مسجد سيدي عقبة بمدينة القيروان ، والتي تألف منها إطار المحراب ، استوردت ــ مع المنبر الخشب الذي ورد ذكره آنفاً ــ من بغداد . وتعود هذه البلاطات الى الفترة التاريخية التي تسبق خزف سامراء ــ الذي يعتبر امتداداً طبيعياً لخزف بغداد ــ كما ترجع بخصائصها الفنية ، طابعاً وأسلوباً ، الى مدرسة بغداد.

ويذهب الأستاذ ديماند الى نفس هذا الرأي حين يقول : « يمكن اعتبار مدرسة سامراء فرعاً للمدرسة العراقية في صناعة الخزف ذي البريق المعدني والذي كانت بغداد مركزه الرئيس . » وفي متحف برلين أمثلة من هذا الخزف اللامع الذي كان يزين قصور الخلفاء في عصر بغداد الذهبي .

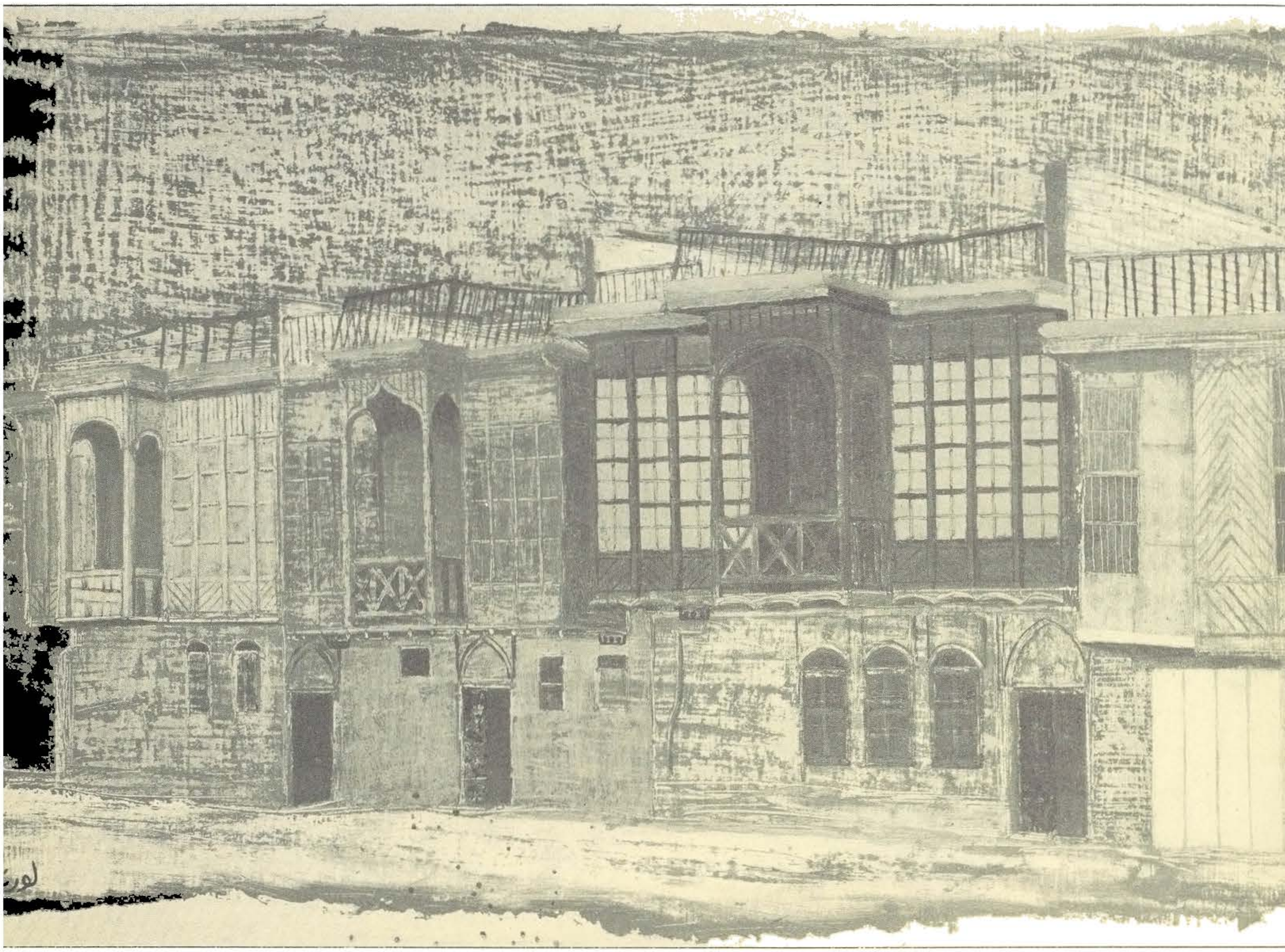
واستعمال الخزف في العمارة العراقية عموماً والبغدادية خصوصاً ، ليس في جوهره إلا التعويض المكافىء لفقر مادة البناء العراقية من خصائص : الصلابة واللون والبريق ، تلك الخصائص الطبيعية التي تتوفر في المرمر والصخور وغيرها من المواد المتيسرة في البلاد الأخرى .

وعلى ضوء هذه الحقيقة ، استخدم العراقيون الخزف والفسيفساء في إكساء الجدران ، والزينات المختلفة الأخرى ، منذ أقدم العصور . وتميزت قصور بغداد في العصر العباسي باستعمال هذه المادة على أوسع نطاق ، نظراً لقيمتها الفنية العالية ، ولجمال ألوانها ولمقاومتها لعوارض الطبيعة دهوراً طويلة .

واستدلالاً بالنصوص التاريخية ، وما ورد في المصادر المختلفة من أوصاف للبيوت البغدادية وأحوال السكن في العصر العباسي نستنتج ما يلي :

لقد كان اتساع الحركة العمرانية في ذلك العصر منسجماً ونمو الحركة التجارية . فقد نشأت في بغداد طبقة من التجار الأثرياء تبوأت منزلة عالية في سلم الحياة الاجتماعية يومذاك ، وحملت كتب الأدب والتاريخ أنباء ترفها وبذخها





بيوت بغدادية - للورنا سليم

واستمتاعها بالحياة . وهكذا أصبحت قصور هذه المدينة ، بما احتضنته من فراديس أرضية ، تمثل أعلى مستويات الفن المعماري الذي توصل اليه ذهن الفنان في تلك العهود ، أشبه بالأساطير منها بحقائق الحياة . وضمت تلك القصور أنفس الزينات وأغلى الأشياء ، كما حليت بأدق الزخارف وأروع النقوش ، ومضى أصحابها في حلبة التنافس حتى الشوط الأخير ، فصارت مضرب الأمثال وحكاية الأجيال .

لقد اشتهر من قصور بغداد في أوائل العصر العباسي : « قصر الذهب » الذي أنشىء — كما أسلفنا — وسط المدينة المدورة ، و« قصر الخلد » الذي بناه المنصور على شاطىء دجلة ليحقق ببنائه ما لم يحققه في قصر الخلافة الأول . وهناك في شمال الضفة الشرقية من دجلة ، أنشىء « قصر الرصافة » الذي سكنه المهدي خلال فترة خلافة والده المنصور . وقد نقلت المصادر التاريخية أخبار قصور أخرى ، منها : « القصر الجعفري » أو « المأموني » الذي سمي أخيراً بـ « القصر الحسني » و« قصر التاج » الذي وضع أسسه الخليفة المعتصم على دجلة تحت القصر الحسني ، ثم أتم المكتفي بناءه وأصبح في أيامه المركز الرسمي لدار الخلافة . وقد جاء في دليل خارطة بغداد للدكتورين مصطفى جواد وأحمد سوسه ، أنه « كان لهذا القصر مسناة عظيمة لحمايته من النهر ، وكانت هذه المسناة الممتدة على ضفة دجلة تؤلف هيئة خاصة لقصر التاج . وكان القصر يشرف على هذه المسناة كأنه التاج . ويعتبر هذا القصر من القصور القليلة التي جاء ذكر أوصافها المعمارية في الكتب ، حيث أشير الى أن وجهه كان مبنياً على خمسة عقود كل عقد على عشرة أساطين بخمسة أذرع . وكذلك ما جاء في وصف دار الأمير مؤنس المظفر على دجلة شمالي قصور الخلفاء ، وهو القصر الذي أنشأت المدرسة النظامية الى جواره فيما بعد في العصر البويهي .

وقد حوت دار الخلافة التي يصفها ابن الجوزي بقوله : « وهي بنفسها بلد » مجاميع للقصور والأبنية التي اشتهرت آنذاك وكان مركزها على ما يظهر « القصر الحسني » . ثم قصر الفردوس ، وقصر التاج ، ودار الشجرة « الدار المثمنة » التي جلس فيها هولاكو عندما فتح بغداد . و« الدار المربعة » ودور الوزارة والدواوين . وكانت هذه المجموعة يحدها سور بهيئة نصف دائرة يحوي تسعة أبواب رئيسة ويمتد الى مسافة كيلومتر واحد على ضفة النهر .

وكان الشارع الرئيس في دار الخلافة يمتد بشكل موازٍ لنهر دجلة — ولعله الشارع المعروف اليوم بشارع المستنصر — وكان يسمى آنذاك شارع النصر ، حيث كانت تتفرع منه عدة طرق تؤدي الى أبواب أخرى . . ويرجع تاريخ انشاء سور دار الخلافة في بغداد أيام المعتضد ، وقد أتمه الخلفاء المتأخرون من بعده

ومن أهم المباني التي اشتهرت في بغداد وتناقلت أخبارها الكتب ، « الدار المعزية » فقد جاء في ذكرها أنها أنشأت ، على يد المعز لدين الله ، في القرن الرابع للهجرة ، وأصبحت أقرب ما تكون الى مدينة كاملة في محلة الشماسية . وقد أحكم المعز لدين الله تصميم هذا الحي فهيأ له وللمنطقة تخطيطاً شاملاً وبنى بستانه الكبير المشهور . ومن الطريف في هذا الباب أنه استخدم الفيلة لرص الأتربة كما تستخدم مكائن الحدل في الأعمال الترابية على أيامنا هذه ! . وكان لبناء هذه الدار أثره الواضح في تحسين الري وإحكام السداد لتلك المحلة المشهورة التي تداولت استعمالها سلطات الحكم المتعاقبة ، فصارت تعرف بدار السلطنة السلجوقية ، ثم أصبحت بعد حكم طغرل بك مقراً لدار السلطنة واتخذها ملكشاه منزلاً له عند قدومه الى بغداد سنة ٤٧٩هـ (١٠٨٦م) ، ثم انتهت الى الخراب ، بعد أن وجه الجند لمحو معالمها وبيع موادها .

وقد اشتهرت فترة الحكم البويهي بالازدهار العمراني الذي شمل مناطق كبيرة من بغداد ، حيث انتشرت القصور في شرقي نهر دجلة بين طريق الشماسية وطريق البروان ، وأصبح جامع الرصافة والمحلة القائمة حول مشهد أبي حنيفة متداخلين بين هذه القصور . والشماسية — كما جاء في دليل خارطة بغداد ، هي محلة الصليخ الحالية . أما جامع الرصافة ، فهو أحد الجوامع الثلاثة الكبيرة في بغداد الشرقية بمحلة العيواضية اليوم . ولهذه المحلة

مكانة خاصة في تاريخ عمران بغداد وحضارتها ، فقد بقيت عامرة زاهرة مدة أربعمائة سنة حيث امتد شارع منها الى سوق الثلاثاء ــ كما جاء في معجم البلدان .

إن ما وصل الينا من وصف لتلك القصور والمباني ، لا يغني الدارس الباحث عما يطلبه من معلومات فنية حول التأليف البنائي والتخطيط المعماري لتلك المنشئات ، إذ أن معظم المصادر العربية تناولت الوصف الظاهري لها وأفاضت في ذكر ما صرف عليها من أموال ، ومصيرها الذي آلت اليه بعد أن حلت سوحها النكبات وتناوبتها عوادي الزمان وأيدي الحدثان ! ومع ذلك ، فأنه يمكن الاستدلال عن الأسس التخطيطية لتلك المباني من الآثار الباقية ، والأوصاف التي دونت في المصادر المختلفة ، ومن طبيعة الحياة الاجتماعية ، ونوع المادة المستخدمة في البناء . ذلك أن تحديد الفضاءات كصالات مكشوفة ــ حسب أهميتها وارتباطاتها ــ والانتقال من فضاء الى آخر يفصل بينهما عدد من الغرفات والأروقة والمماشي ، تؤلف النظام الأساسي في التخطيط آنذاك ، وهو نظام استمر من بعد كما فرضته الطبيعة ، وكما انعكس في حياة المجتمع اليومية باستعمال الساحات الوسطية كمحاور أساسية في التخطيط المعماري .

ولعل أقرب مبنى نلتمس فيه مقاييس المعمار العباسي الاسلامي ، بسعة فضاءآته ، وتعدد غرفاته وردهاته ، هو بقايا مبنى « قصر الأخيضر » . ثم « قصر بكلوارا » في سامراء ، وقصور الحيرة . فنظام التخطيط في هذه القصور ، هو نفس النظام الذي سارت عليه من قبل القصور البغدادية ، وخاصة قصور الخلفاء والأمراء . وأهمية هذه المنشئات الباقية ، نابعة من كونها أدلة عيانية تعيننا اليوم على تفهم أوصاف تلك المباني التي زالت من الوجود ، ولم تستطع المصادر التاريخية والأدبية إغناءنا بوصف علمي موضوعي لها .

ومن العناصر الأساسية التي يضمها تكوين البناء : « الايوان » . فقد كان لقاعة الايوان والصالة الرئيسة ، المقام الأول في البناء نظراً لسعتها وعلوها ، واعتبارها المكان الرسمي الذي يستخدم في المقابلات والاجتماعات وعقد المجالس .

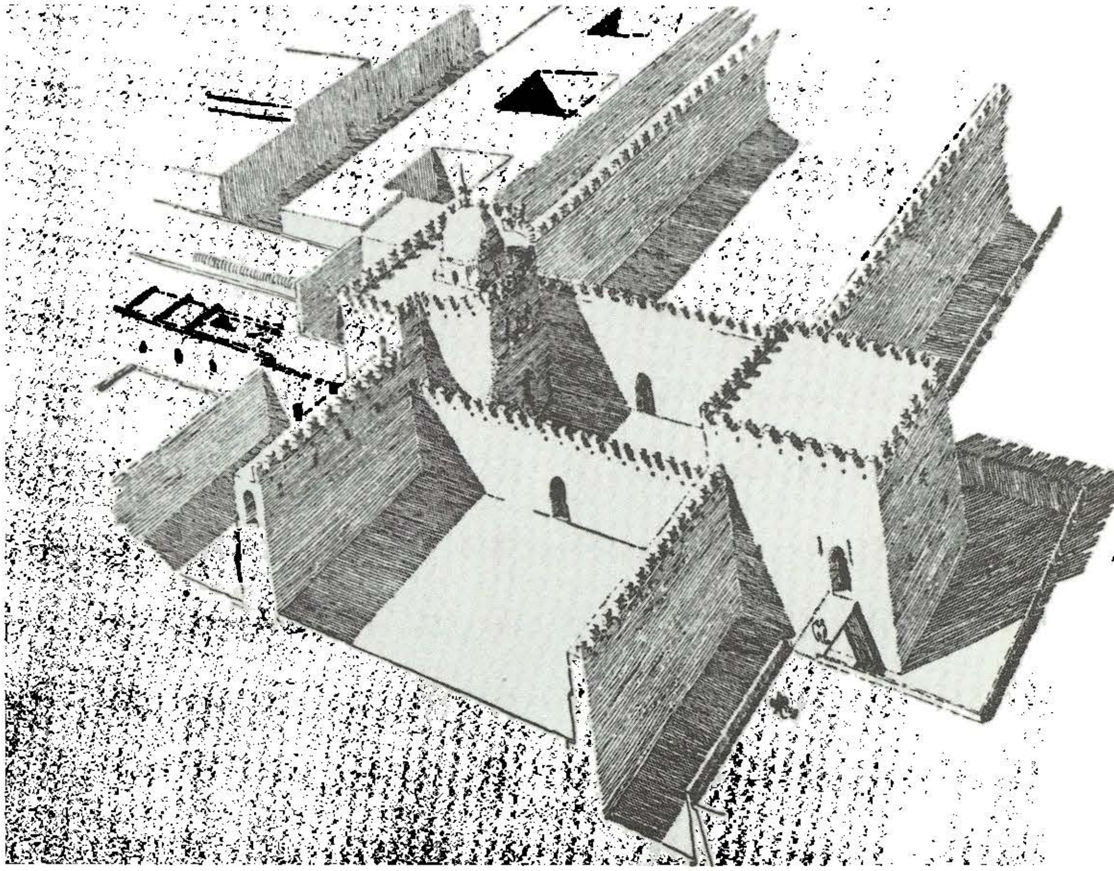
والايوان عبارة عن الفضاء الذي يتوسط أحد جوانب الفضاء الرئيسي ، ويكون سقفه على ثلاثة أضلاع . أما الضلع الرابع فيكون مكشوفاً ، حيث يتم الاتصال بالغرف الداخلية بواسطة ممرات وأبواب .

ومن الأبنية العامة والعمائر المهمة التي اشتهرت في بغداد وأشار اليها بعض الرحالة الذين وفدوا على هذه المدينة : « المارستان العضدي » الذي أنشأه عضد الدولة في بغداد الغربية في موضع قصر الخلد الذي كان قد تهدم يومذاك . حيث شرع في بنائه عام ٣٦٨هـ (٩٧٨م) وتم في عام ٣٧١هـ (٩٨١م) .

وفي منتصف القرن السادس للهجرة ، كتب الرحالة الاسباني « بنيامين » من مدينة طليطلة وصفاً لهذا المارستان الذي كان قائماً في الجانب الغربي من بغداد بين نهر دجلة وفرع من نهر يأتي من الفرات هو نهر الصراة . فقال بأنه مجموعة من أبنية واسعة يؤمها عدد كبير المعوزين من المرضى رغبة في الشفاء . كما أنه حوى داراً للأمراض العقلية . وقد أشار الى معالم هذا البناء ومكانته ــ بعد ثلاثين عاماً من رحلة بنيامين ــ الرحالة العربي الشهير ابن جبير ، فذكر أنه يقع في محلة سوق المارستان وأنه قصر كبير فيه المقاصد والبيوت وجميع مرافق السكن الملوكية والماء يدخل اليه من دجلة .

ومن العمائر ذات المكانة العالية في بغداد ، مبنى دار العلم التي أنشئت في عهد بهاء الدولة عام ٣٨١هـ (٩٩١م) وقد بناها الوزير أبو نصر سابور بن أردشير ، في الجانب الغربي من بغداد في محلة بين السورين . وذكر ابن الأثير أنها أنشئت سنة ٣٨٧هـ فكانت أشهر مكتبة ببغداد يتردد اليها العلماء والأدباء والفلاسفة ومنهم الشاعر الفيلسوف أبو العلاء المعري .

ومن العمائر التي اشتهرت في العصر السلجوقي (٤٤٧هـ ــ ٥٥٢هـ) الذي كان استمراراً للنفوذ السلجوقي الفارسي في إيران ــ هو مبنى جامع السلطان الذي أقامه ملكشاه سنة ٤٨٥هـ (١٠٩٢م) وكان يقع على مسافة ميل من جامع



رسم تصويري
لمدخل أسوار
مدينة بغداد
المدورة



مقطع مدخل
السور لمدينة
بغداد المدورة

الرصافة في موضع لا يبعد كثيراً عن الناحية الشمالية من العلوازية الحالية . وقد ذكر ابن الجوزي في مناقب بغداد أن أخشاب هذا الجامع جيىء بها من سامراء .

ولقد نشطت حركة بناء المدارس في الفترة السلجوقية ، حيث كان رجال السلطة بحاجة الى قضاة يتبعونهم ويحكمون باسمهم . ومن المدارس الأولى التي أنشئت في بغداد المدرسة النظامية فقد أنشأها نظام الملك وزير ألب أرسلان ، وابنه ملكشاه عام ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) . وكانت في آخر سوق الثلاثاء في محلة الحظائر (في موضع سوق الكمرك الحالي وخان جغان) وبقيت هذه المدرسة قائمة حتى منتصف القرن الخامس عشر الميلادي . وذكرها معظم المؤرخين والرحالة ، كابن جبير وابن بطوطة والمؤرخ الفارسي حمد الله الذي وصفها بأنها أم المدارس في بغداد .

إن المفهوم المعماري للمدرسة البغدادية يتألف من عناصر أساسية تعتمد على الربط بين الفضاء الخارجي المكشوف والأروقة التي تلعب دورها الوظيفي في الحياة اليومية ، باعتبارها حلقة الوصل التي تجمع بين وحدات الغرف الداخلية ، والفضاءات المكشوفة والأروقة شبه المكشوفة التي تساعد على حماية المبنى وكسر حدة حرارة أشعة الشمس العراقية المعروفة بنفاذها المباشر في أشهر الصيف .

إن التوسع العمراني الذي أصاب بغداد خارج سور دار الخلافة ، أحدث بالتبعية ، محلات وأسواقاً جديدة مترامية ، وقاد في النهاية الى إنشاء سور عظيم وخندق واسع أحاطا بالمدينة النامية في نهاية القرن الخامس الهجري واستمرا حتى أواخر القرن الثالث عشر للهجرة .

ولقد بقي من معالم هذا السور العتيد — واحد من أبوابه هو باب الظفرية أو ما كان يدعى أحياناً بـ (باب خراسان) . ويعرف اليوم بالباب الوسطاني . وقد اتخذته مديرية الآثار العامة متحفاً للأسلحة مدة من الزمن ، ثم نقلت الأسلحة منه الى بناية على دجلة بعد أن آل أمر هذا المتحف الى وزارة الدفاع . وهو يقع بالقرب من تربة الشيخ عمر السهروردي أحد المعالم المعمارية البغدادية المعروفة في الجهة الشرقية .

أما باب الطلسم ، وهو أحد الأبواب الأربعة لسور بغداد الكبير ، فقد كانت تسمى باب الحلبة نظراً لقربها من ميدان السباق — الذي كان في هذا الموضع كما جاء في الدليل — قبل انشاء السور . حيث كان يجري فيه لعب الصولجان أيضاً . وقد ورد ذكر هذا الباب في أخبار الحصار المغولي ،ومنه دخل السلطان العثماني مراد الرابع عند فتحه بغداد سنة ١٠٤٨هـ (١٦٣٨م) وأطلق عليه ، برج الفتح . وحين جدد الخليفة الناصر لدين الله بعض المباني — في أواخر القرن السادس للهجرة — قام بتجديد هذا الباب ، وأقام برجاً ضخماً فوقه . وظل قائماً يطاول الدهر حتى سنة ١٩١٧ حيث نسفه الأتراك بالبارود بعد انسحاب جيوشهم من بغداد . ويمكن بالرجوع الى صوره الفوتوغرافية والمعلومات المتيسرة حوله وسهولة تحديد موقعه ، إعادة إقامته من جديد ، باعتباره رمزاً تاريخياً له مدلولات عمرانية وسياحية كبيرة .

وقد أنشىء هذا البرج الشامخ بالآجر المحلي ، وزين باطار كتابي جميل ، كما زين عقد باب المدخل بنحت بارز يعتبر من الأمثلة الجيدة للفن السلجوقي . ويمثل هذا النحت ، الخليفة في وضع الجلوس وعلى جانبيه تنينان انعقد جسم كل منهما . ووصفه الأستاذ كوهيل بأنه من الأبراج الرائعة .

ومن الأبواب التي أتى عليها العمران الحديث قبل سنين جاهلاً لقيمتها التاريخية ، باب كلواذا التي كانت تقع في جنوب بغداد على جهة شاطىء دجلة ، أي في موقع الباب الشرقي الحالي .

أما الباب الرابع ، فهو باب السلطان الذي كان يقع في شمال سور بغداد ، أي عند باب المعظم الحالي في جنوب جامع السلطان وعلى مسافة قليلة منه .

المعالم المعمارية لبغداد في أواخر العصر العباسي

قد يكون من المفيد أن نأتي، عند وصفنا لمعالم بغداد المعمارية في العصر العباسي المتأخر، على ذكر ما دونه ابن جبير في رحلته الشهيرة عن هذه المدينة في القرن الثالث عشر (٥٨٠هـ ـــ ١١٨٤م). فقد سجل هذا الرحالة العربي مشاهداته الوصفية عن جانبيها الشرقي والغربي، حيث ساعدنا على معرفة التخطيط العمراني لمحلات بغداد أيامئـــذ، وفي وصفه للجانب الغربي يأتي على ذكر الخراب الذي شمل هـذا الجزء من المدينة. ولكنه رغم كل هذا يعـدد سبع عشرة محلة، ويصف كل واحـدة منها بالمدينة المستقلة حيث تشتمل على الحمامات، وتقام صلاة الجمعة في ثمانٍ منها. ومن هذه المدن، محلة باب البصرة التي يقع فيها جامع المنصور حيث يصفه بأنه «جامع عتيق البنيان». ومحلة الكرخ، وهي مدينـة مسورة. ولا يغفل عن ذكـر البناء الكبير للمارستان العضدي على شـاطىء دجـلة، حيث يبـدو آنذاك أشـبه بمدينـة صغيرة.

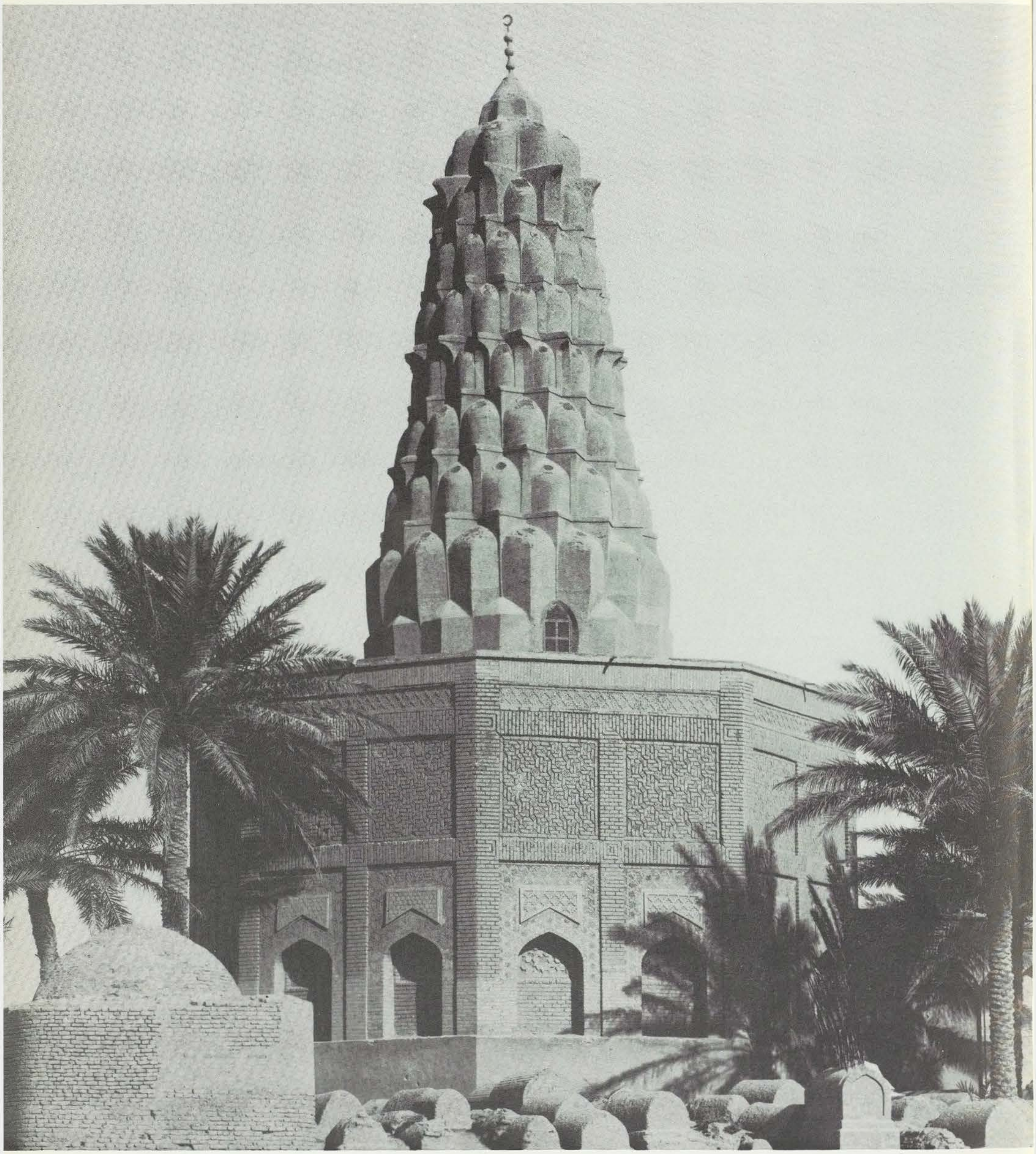
ويظهر لنا من وصف ابن جبير لبغداد، أن ما كان خارج سورها الكبير قد بدأ بالاندراس، واقتصرت المدينـة الشرقية في حدود سورها الكبير.

وتعتبر قبة زمرد خاتون ـــ التي تعرف خطأ عنـد الناس بقبر الست زبيدة ـــ القائمة في الجانب الغربي من بغـداد، من الأمثلة المعمارية الفريدة الباقية من العصور العباسية المتأخرة. وقد تناول هذا الأثر بالذكـر والرسم والتصوير معظـم السائحين والرحالة والباحثين، كما تناولته معظم الدراسـات التاريخية لفن العمارة الاسلاميـة، مع أمثلة أخرى لهذا الطراز المعروف لدى المعماريين البغداديين بـ (الميل) كقبة الشيخ عمر السهروردي. وتتميز هـذه الآثار المعمارية بقبابها المخروطية الجميلة التي تشير الى تطور فن العمارة العراقية وقابلية المعمار العراقي في تطبيق التقنية الآجرية بشكل مقرنص يتدرج من الأسفل الى الأعلى حتى ينتهي بنقطة تحل في قمة الكيان المخروطي للقبة.

إن الزخرفة الهندسـية المتأتية من التكوين الانشائي في التدرج البنائي، ليست في جوهرها تكسية ظـاهرية إزاء السطوح، أو تحلية يراد بها تجميل تلك السطوح، بل أن أهميتها تنبع من ائتلاف عناصر التكوين الانشائي لاعطاء شخصية البناء بشكل هندسي وتصميمي متفرق. وهذه هي من أهم الخصائص والمميزات المعمارية التي تحتفظ بها العمارة الاسلامية، والتي لم تنل ما تستحقه من الدراسة والتحليل بما يكفي لالقاء الضوء على منطويات قوامها الانشائي.

واستعمال الآجر في هذا البرج المخروطي المثمن الأوجه، يتم وفق أسلوب تقليدي بخصائص بنائية بغـدادية أصيلة ومستمرة، استثمر إمكانيات مادة الآجر حتى أقصاها، فأظهرها للوجود العياني من دون أن تفقد ميزاتها الذاتية.

ومن المعالم الباقية في غربي بغداد، تربة الشيخ معروف الكرخي والمنارة المعروفة بـ «منارة مسجد الجنائز» التي يعود تاريخ انشائها الى زمن الخليفة الناصر لدين الله. وتشير الكتابة الموجودة عليها أنها بنيت سنة ٦١٢هـ (١٢١٥م). وتمتاز هـذه المنارة العباسية بمنحنياتها ومقرنصاتها الآجرية التي تكون وحداتها شكلاً مدبباً ومصغراً للعقود الآجرية.



قبة زمرد خاتون (التي تعرف خطأ عند الناس بقبر الست زبيدة) والقائمة في الجانب الغربي من بغداد

ويشير النمط الزخرفي في هـذه المنارة الى بدء استعمال الآجر في المنائر البغدادية ذات الشكل الأسطواني ، التي قصـد فيها المعمار البغدادي ، تجنت إحداث الحافات والزوايا الحـادة والاستقامات العمودية ، نظراً لتعرضها للتآكل على مر الزمن ، وزوال تعبيرها الجمالي ، لذا فقد أصبحت تختلف جوهرياً عن المنائر الاسلامية في الأقطار الأخرى . من هنـا ندرك ، أن المعمار البغدادي قد تفهم خصائص المادة المحلية التي كان يستخدمها في البناء واستطاع السيطرة عليها في تكوين أبسط المنشئات المعمارية ثم الارتفاع بذلك الى انشاء القصور والأبراج الفخمة .

ومن المواقع التاريخية المهمة الواقعة بين بغداد والكاظمية ، المشهد المعروف بـ (مشهد المنطقة) . وقد أشـــار الدكتور مصطفى جـواد الى أنه موقع قرية سوثايا القديمة التي صـارت تعرف بـ (العتيقة) بعد انشاء مدينة بغـداد . ولقد زالت معالم هـذا الجامع واستبدل ببناء جـديد فقد خصائص العمارة للجامع المذكور الذي ما زالت تحتفظ بخصائصه المعمارية صورة فوتوغرافية نشرت له ، حيث استعمل الآجر بتواضع في تكوين الشكل المعماري البسيط له .

ومن الأبنية التي تعود الى العصر العباسي المتأخر ، منارة المسجد المعروف بـ (مسجد قمرية) التي ما زالت تطل على الضفة الغربية من دجـلة . فقد شيد جامع قمرية سـنة ٦٢٦هـ (١٢٢٨م) على عهد الخليفة المستنصر بالله ، ولم يبق من بنائه العتيق إلا منارته الحالية ، وورد ذكر هـذا الجامع ومنارته ، وخبر إعادة بنائها في « الحوادث الجامعـة » . ومن خصائص هذه المنارة البغدادية ، الاختلاف الواضح في نسب كتلتها الأسطوانية عما هو مألوف من رشاقة المنـائر البغدادية ذات الاتجاه العمودي الشامخ . ولعل ظاهرة القصر هذه بالنسبة لقطر البرج ، تعود الى كونها أكثر تخصصاً في إداء مهمة المنارة ، وأن شعور المعمار بهذه الحقيقة دعاه الى أن يجعل منها قاعدة للأذان ، وليس نصباً تذكارياً .

وتبدو النقوش المحيطة بالسطح الدائري بأشكالها المعينية البسيطة ، كما لو كانت قد حققت لتبرز من خلال الظلال المتباينة في الخط الآجري .

ويلاحظ المتأمل أن سعة قطر المنارة ساعد على إقامة الحوض على مسـاند آجرية بسيطة تتضاءل بجانبها أهمية المقرنص المألوف في شكل المنائر البغدادية المتأخرة .

ومن المواقع المهمة بالنسبة لخطط بغداد الشرقية ، محلة الشماسـية التي كانت بجوار محـلة أبي حنيفة . وقد أصابها الخراب ، فلم يبق من معالمها إلا مقبرة الامام الأعظم التي تضم تربة الامام أبي حنيفة المتوفى في حـــدود سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) . وقد عرفت هـذه المقبرة فيما بعـد ، باسم « مقبرة الخيزران » أو الخيزرانية نسبة الى الخيزران زوج الخليفة المهدي . ويعود تاريخها الى عهد الخليفة المنصور .

وقد أعيد بناء هذا المقام سنة ٩٤١هـ (١٥٣٤م) من قبل السلطان سليمان بعد احتلاله بغداد ، كما جدد من قبل السلطان مراد الرابع . أما القبة والمنارة (الماثلة حالياً) فقد شيدت من قبل الوالي العثماني عمر باشا بأمر من السلطان محمد ، وأجريت عليها صيانات متوالية ، وخاصة خلال حكم السلطان عبدالمجيد عام ١٨٧١م .

أما جامع الخليفة ، فقد ورد ذكره في رحـلة ابن جبير باعتبـاره واحـداً من ثلاثة جوامع كبيرة ، ثانيهما جامع السلطان ، وثالثهما جامع الرصافة . وقد زالت معـالم الجامعين الأخيرين ، ولم يبق من آثار الجامع الأول إلا منارته التاريخية الشهيرة والتي تسمى منارة سوق الغزل والتي تعتبر أعلى برج شهدته مدينة بغداد .

وهذه المنارة هي الأثر المعماري الوحيد الباقي من دار الخلافة العباسية ومسجدها الذي وصفه ابن جبير كـمـا وصفه الرحالة العربي بن بطوطة عندما زار بغداد سنة (٧٢٧هـ ـــ ١٣٢٧م) وأشار الى أن هذا الجامع متصل بقصـور الخلفاء ودورهم ، وهو جامع كبير فيـه سـقايات ومطاهر كبيرة للوضوء والغسل . وأن المحلات المحيطة بهـذه القصور داخل السور عامرة ومزدحمة وفيها أسواق ومساجد ودروب كثيرة وكان معظمها أحدث ما بني في بغداد الشرقية .

وتعقد في هذا الجامع ـــ كما جاء في دليل خارطة بغداد ـــ الندوات وحلقات الفقه والوعظ ، وفي رحبتـه كانت

تبنى مظاهر الحياة الاجتماعية والتجارية لأهل بغداد .

تم بناء برج هذه المنارة ، على عهد أباقين هولاكو الالخاني ، في ولاية علاء الدين عطا ملك الجويني على العراق . وقد أنشأ الوالي سليمان باشا الكبير ١٧٧٩ ـــ ١٨٠٢م جامعاً بقرب المنارة يعرف بجامع سوق الغـــزل ، هدم قبل سنوات من أجل إستقامة شارع الجمهورية الجديد .

شيدت هـذه المنـارة بالآجر ، وزينت بالكتابات والزخارف البارزة ، وعبرت بشموخها وإرتفاعها الذي يبلغ ٣٥ متراً عن جلال الخلافة وهيبتها .

المدرسة المستنصرية :

وحينما نأتي على ذكر بعض العمائر العباسـية الباقية في بغـداد ، نضع المدرسـة المستنصرية ـــ التي شيدت سـنة ٦٣١هـ (١٢٢٣م) ـــ في مقدمتها ، ذلك لأنها تعتبر من الوجهة الفنيـة والتاريخية والمعمارية ، نموذجاً موفقاً للبنـاء الدراسي . فقد توصل المعماري البغدادي في انجازات اظهار المقاييس التي تتلائم وطبيعة المواد واداء المهام العملية .

وينطوي تكوين البناء على خصائص جوهرية في العمارة البغدادية أهمها توصل المعماري الى دراسة العلاقة القائمة بين التأليف الشكلي للبناء ، وبين طبيعة الجو البغدادي المسرف بالنور والحرارة ، والخروج من هذه الدراسـة بنتيجة ، قد تكون ، حتى في عصرنا الراهن مفيدة شكلاً ومضموناً .

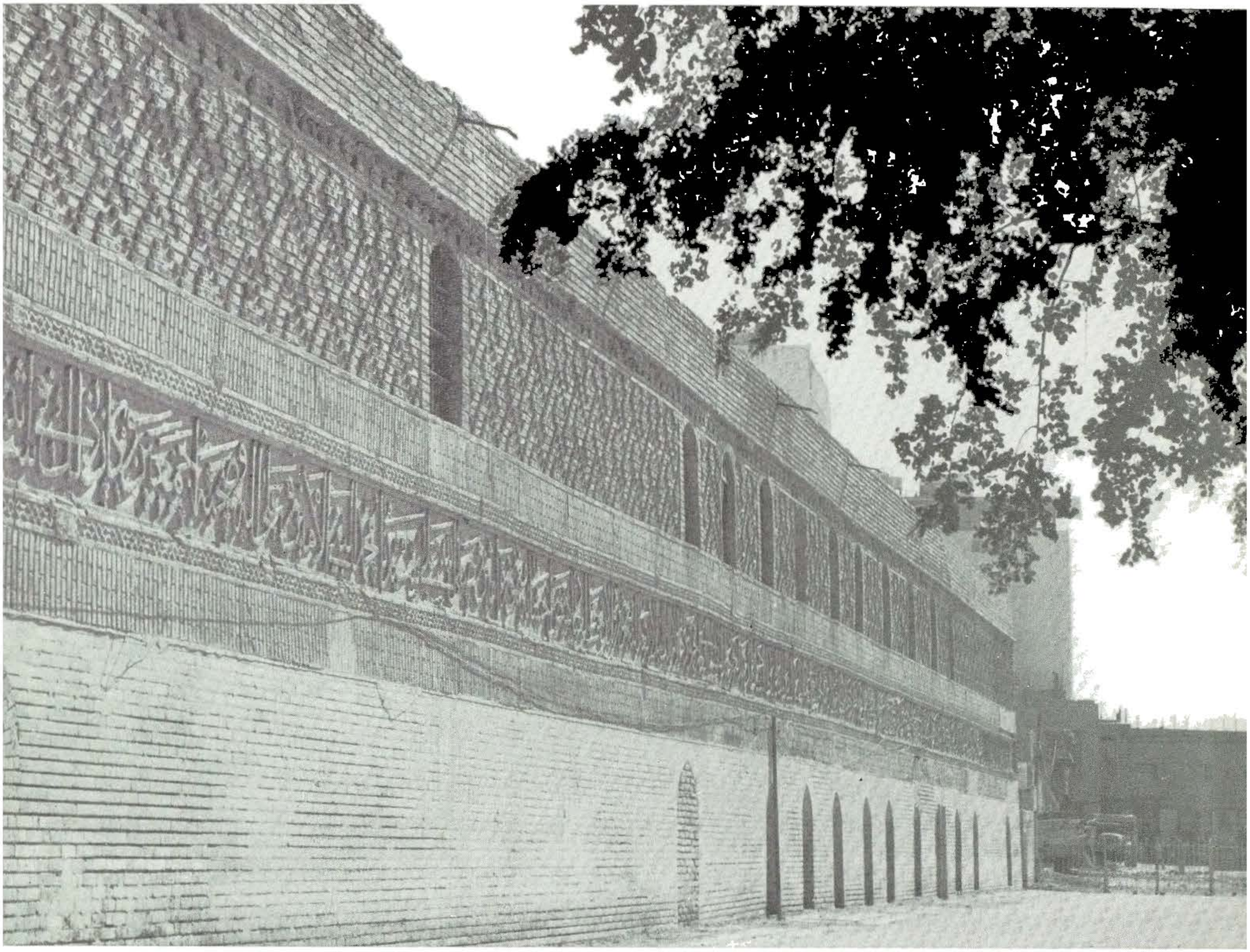
إن من أبرز ما انطوت عليه العمارة البغدادية ، هو إحلالها الصحن أو الرحبة الداخلية ، المكان الأول في التخطيط ، وتأتي الغرفات والأواوين والمداخل والممرات لتحتل مكانها حول تلك الباحة أو ذلك الميدان الداخلي الذي تتجه اليه كل مرافق البناء بينا تقتصر الواجهة الخارجية على الأبواب المؤدية الى الداخل .

ومن الميزات المعمارية الواضحة في بناية المدرسة المستنصرية إمتداد الايوان في وسط الواجهة الداخلية على طـابقين يحيطان بالبناء وهذا ما يؤكد أهمية الفضاء الأوسط لتنوير بناية كبيرة كهذه استخدمت للدراسة وتلقي العلم . ثم يأتي بعد الفضاء المكشوف الرواق المسقف المكشوف ، ثم الغرف والقاعات التي تحتوي على مرافق السكن والدرس والمطالعة .

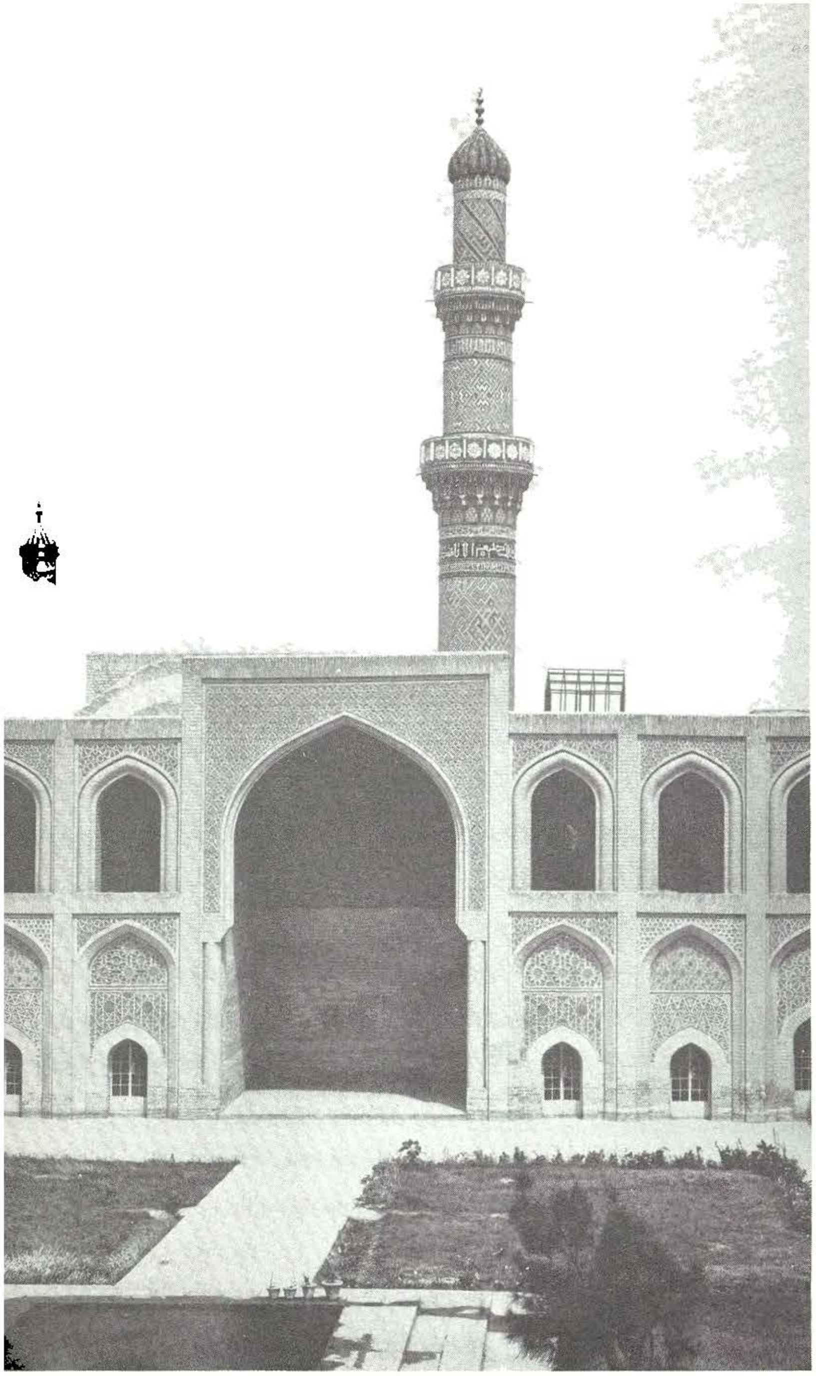
والتنسيق الذي اتبعه المعماري في تدرج الفضاءآت : ابتـداءً بالفضاء المكشوف والنور المباشر ومروراً بالفضـاء نصف المكشوف ، ثم انتهاءً بالفضاء المسقف ذو الاضاءة الداخلية ، يشير الى النظام الموروث في المباني الأسلامية والى أسلوب التخطيط المعماري الذي أكدته طبيعة البيئة ومتطلبات الحياة اليومية للفرد العراقي . فقـد استخدمت العقود الآجرية في تحقيق سقوف بطـابع محلي وبمقاييس أكاديمية في الارتفاع توصل المعماري عن طريقها الى حلول مناخيـة ملائمـة . لأنه استطاع أن يحمي الفضاء الداخلي من إشعاع الحرارة المباشر بواسـطة السقوف المعقودة والحيطان السميكة والأروقة والدهاليز الداخلية التي نظمت تيارات التهوية في البناء كله .

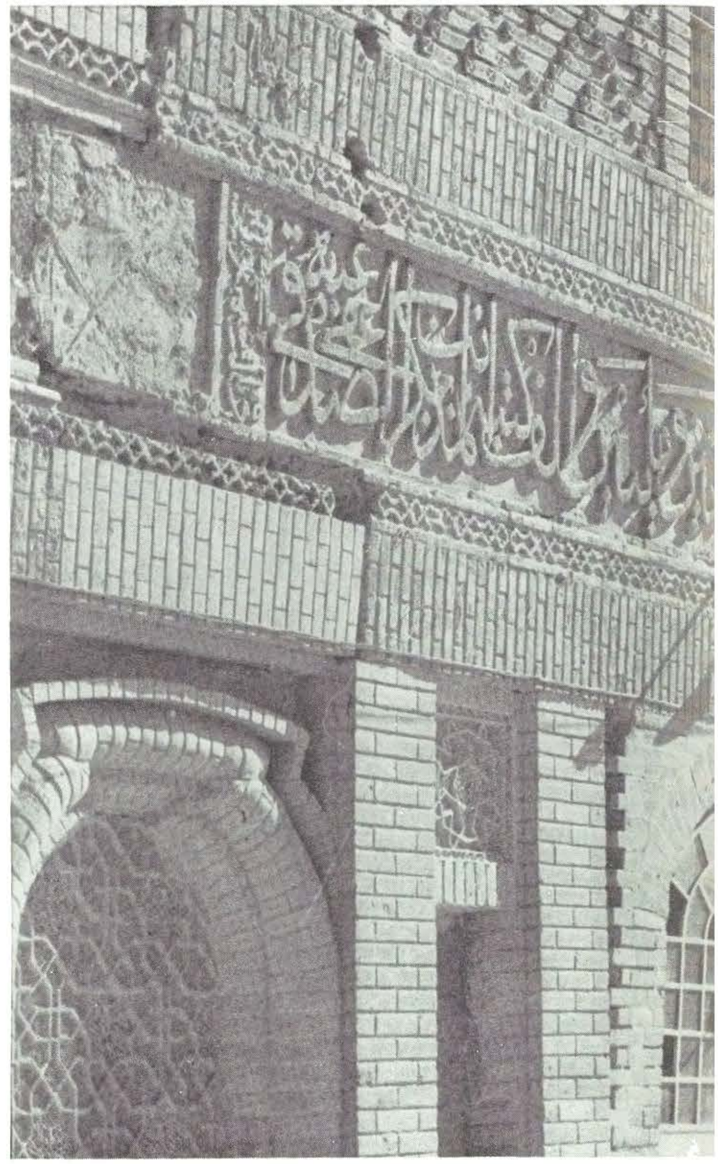
أما الاضاءة السقفية ، فقد نفذت بشكل يعطي أكثر ما يمكن من النور ، بأقل ما يمكن من اشعاع الحرارة .

وحينما يأتي دور الصانع الماهر في التشكيل التعبيري لأوجـه البناء الخارجيـة ، لا يمكن لمؤرخ العمارة البغدادية أن يتجاوز هـذا الدور ، دون أن يشير الى الاحساس الرفيع الذي صاحب عمل ذلك الصانع الفنان الذي أدرك الخصائص الأصيلة لمـادة الطابوق ، وتمكن أن يستخدمها في تكوين تشكيلات زخرفية من الحفر الغائر ، كمـا استطاع أن ينفـد ألواناً من النماذج الهندسـية للتعبير عن قيم جمالية ، بواسطة حفر ونحت وحـدات مختلفة الأحجام من ذلك الآجر ثم رصفها وفق حسابات رياضية خاصة فوق أقواس المداخل ، وعلى مساحات معينة من الجدران لاحراز تأثيرات تعبيرية من تغاير الظل والضوء .

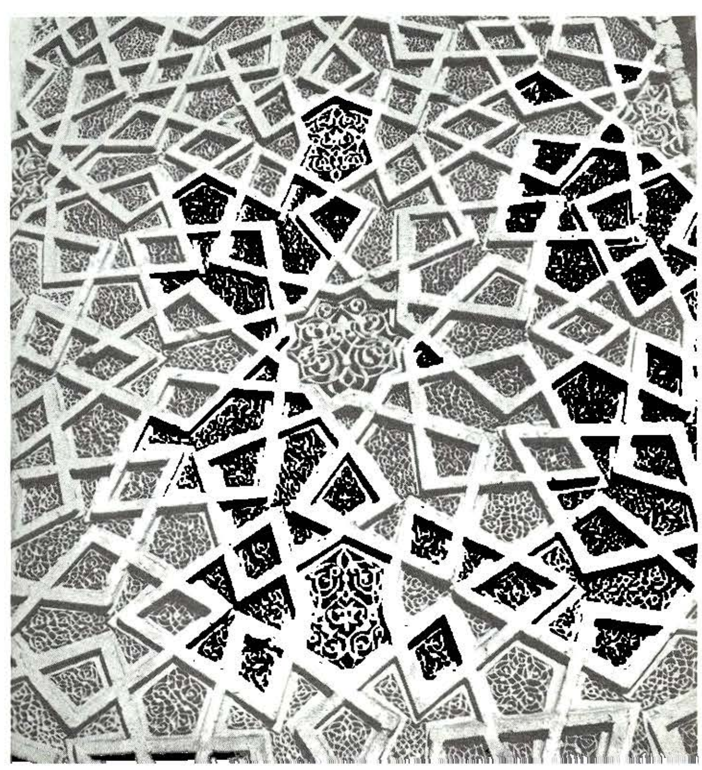


الكتابة الآجرية على جدار المدرسة المستنصرية المطل على نهر دجلة





قسم من الجانب الشمالي للمدرسة المستنصرية من الداخل



◀ تفاصيل زخرفية من المدرسة المستنصرية

وهناك مدرسة أخرى أقدم زمناً من المستنصرية ، لم يبق من معالمها ما يشير الى تخطيطها المعماري ، هي المدرسة النظامية التي شيدها نظام الملك وزير ألب أرسلان وابنه ملكشاه سنة ٤٥٧هـ (١٠٦٥م) . وتقع في وسط سوق الثلاثاء الذي هو اليوم « سوق البزازين الكبير » .

أما القصر العباسي ، فيأتي بدرجة هامة أيضاً في المعالم المعمارية البغدادية . وقد اختلف المؤرخون في نسبته فمنهم من أكد أنه « دار المسناة » ومنهم من قال بأنه مدرسة أسست في عهد المستنصر بالله ، من قبل شرف الدين إقبال الشرابي . على أن ما يهمنا في هذه الدراسة أن نأتي على تحليل الطبيعة المعمارية لهذا المبنى ، الذي يتألف من ايوان وأروقة وفناء كبير ، تحيطه غرفات لا تختلف كثيراً عن غرفات المدرسة المستنصرية .

ويعتبر هذا المبنى التاريخي اليوم نموذجاً من المعالم الرئيسة للريازة العباسية في عصرها المتأخر . فقد استخدم الآجر في تحلية العقود بهيئة فصوص ومقرنصات ذات تكوين هندسي ينحدر الى الأسفل فيكون مجاميع لنحوت هندسية تتميز بها العمارة البغدادية بصورة خاصة .

ومن المدارس المهمة التي بقيت بعض معالمها العمرانية ، المدرسة المرجانية ، التي غلب عليها إسم الجامع ، فأصبحت اليوم تعرف بـ (جامع مرجان) . وتتألف هذه المدرسة التي أنشأها أمين الدين مرجان في سنة ٧٥٥ـــ٧٧٣هـ (١٣٥٦ـــ١٣٧٤م) ، من قاعات للدرس ومساكن ومصلى تدور حول نقطة إرتكازية لفضاء الصحن الرئيسي ، شأنها في ذلك شأن المدارس الأخرى التي أتينا على ذكرها في هذه الدراسة . إلا أن الجديد في هذا البناء ، أن المعماري وقد أضاف لباب المدخل ، منارة من طراز العصر التيموري في ايران ، كما أقام قبتها ذات الشكل الفريد ، والانحناءآت الدائرية في تقويسها على رقبة مستقيمة ، مزينة بالنقوش الآجرية . وقد أتى عليها العمران الجديد في بغداد فأزالها قبل سنين ، ولم يبق من هذه المدرسة إلا الباب والمنارة .

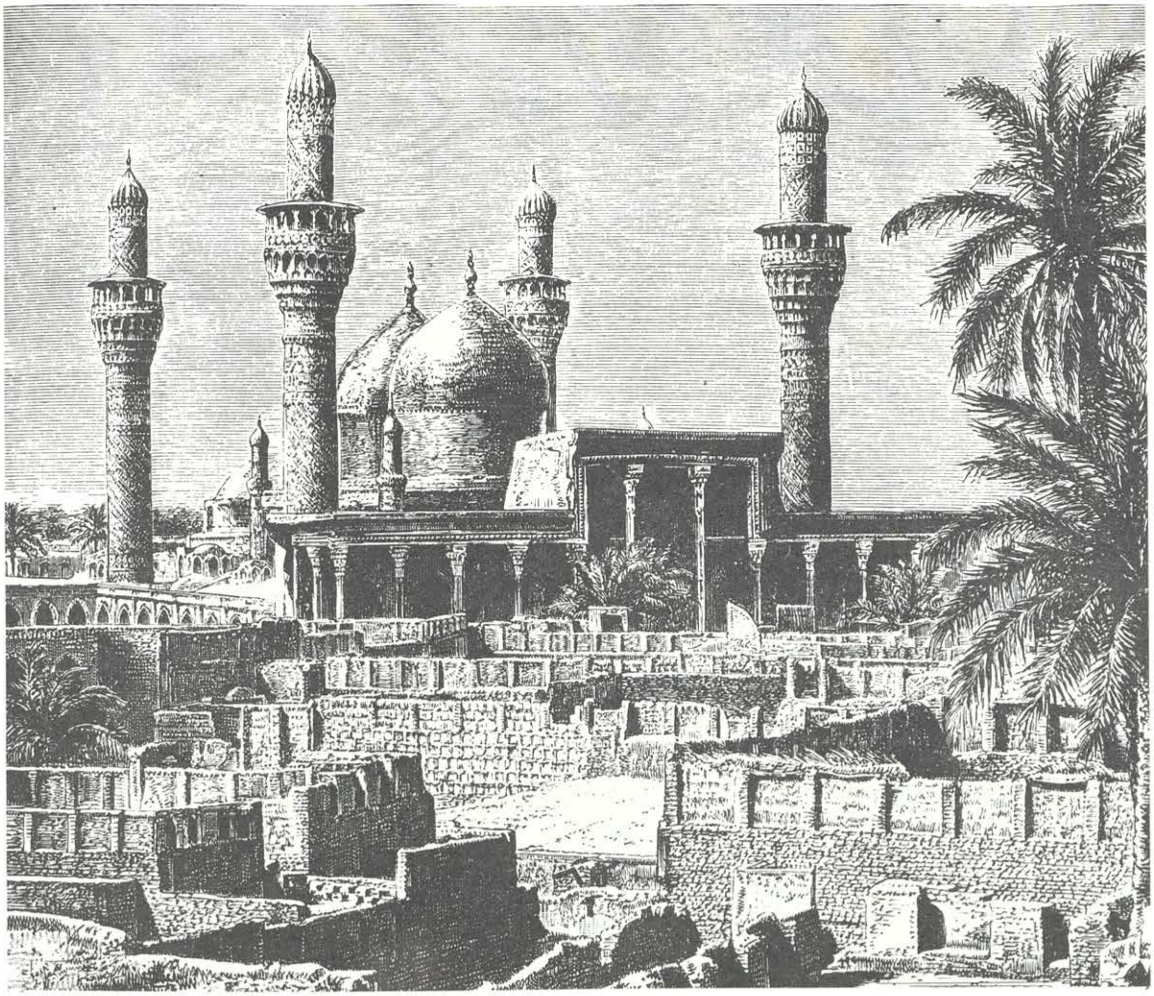
ومن الأمثلة النادرة النفيسة للتقبية للقاعات الداخلية الكبيرة ما نشاهده في مبنى خان مرجان أو « خان الأورتمة » الذي شيده أمين الدين مرجان سنة ٧٦٠هـ (١٤٥٩م) . والتسمية تعني الخان المسقوف خلافاً لما هو مألوف في سائر الخانات التي تتوسطها ساحة مكشوفة . ذلك لأنه عبارة عن قاعة بهو مسقوف ترتفع عقادته ١٤ متراً عن أرضيته ، ويتميز هذا المبنى بالاضافة الى سلسلة العقود المتوازية بنقوش كتابية تشكل سطور تزين البوابة للمدخل وكما هي عليه حتى اليوم من جهة سوق البزازين الحالي حيث تحوي تسعة أسطر من الكتابة حفرت عليها الكلمات بخط وصنعة دقيقة .

يتألف خان مرجان من طابقين : الأول يحتوي على (٢٢) غرفة والثاني على (٢٣) غرفة . وتفتح أبواب الطابق الأرضي الآجرية ذات المقرنصات الأصيلة التي يؤدي فيها البروز الآجري وظيفته الجمالية المثلى . وهو سلسلة من مشكاوات مقوسة تنحدر منها زخارف مقرنصة . ويعد هذا الطنف الذي يفصل ما بين الطابقين من أنفس آثار الريازة التي تشاهد في بناء الخان .

يستند الطنف على سلسلة من الحوامل المقرنصة والأفاريز البديعة تخرج من الجدار بصورة تدريجية حتى تبتعد عنه بما يقرب من المتر الواحد ، وتؤلف نطاقاً مزخرفاً يزيد عرضه على المترين ويحيط بالبهو من جهاته الأربع على إرتفاع أربعة أمتار .

لقد توفق مصمم هذه القاعة في طريقة إضاءتها بالنور الطبيعي ، وذلك باستعماله النوافذ المقوسة المخرمة والتي لم يسبق أن وجدنا لها أمثلة مشابهة من قبل في مباني هذه المنطقة .

ولا نغالي اذا قلنا أن هذا البهو الكبير ، بطنفه البديع وسلسلة عقاداته الجميلة ، يشكل بحد ذاته مثالاً معمارياً فريداً في نوعه ، ومن أجمل القاعات البغدادية والأبهاء الموجودة في المدينة .



صـورة تخطيطية لمشهد الكاظمين من « كتاب رحلات ديولافوا »

ولابد لنا قبل أن نتناول العمارات البغدادية الأخرى بالدراسة ، ألا نغفل ذكر تلك المنشآت الاجتماعية الخيرية التي كان يطلق عليها « الخانقاه » أو ما يراد به « الربط » وهي منازل أنشأها الخلفاء والأمراء لضيافة العلماء الراحلين من قطر الى آخر طلباً للعلم ، وأصبحت بمرور الزمان أشبه بدور الثقافة . ثم آلت الى أن تكون آخر الأمر مواطن للصوفية ، وتكايا للزاهدين وقد أشار الدكتور مصطفى جواد ، الى أن أقدم رباط أنشىء في بغداد هو الرباط الذي شيد في مقابل جامع المنصور في أرض مدينة السلام . وذكر بعض أسماء تلك الربط ، مثل رباط الاخلاطية ويقال أنه رباط سلجوقي ، وربط : زمرد خاتون وأرجوان والبديع الزنجاني ودار الشط والحريم الطاهري . ولم يبق من هذه الربط ما يشير الى تخطيطها المعماري . كما عفى الزمن أيضاً على آثار الأديرة والكنائس البغدادية القديمة وفقدنا لذلك أي أثر مادي للاستدلال على تخطيطها الهندسي وتكوينها المعماري .

إن من المعالم المعمارية والشواخص التاريخية الهامة في بغداد والى اليوم هو المشهد الكاظمي نسبة الى الامام موسى الكاظم (ع) الذي دفن فيه سنة ١٨٣هـ (٧٩٩م) ، كما دفن معه حفيده محمد الجواد (ع) سنة ٢٢٠هـ (٨٣٥م) . فهو بالاضافة الى قدسيته ، يعتبر أثبت مرجع خططي في تاريخ بغداد الغربية . لأنه حافظ على موقعه الأصلي حوالي ألف ومئة وخمسين عاماً . وكانت هذه المقبرة تعرف بـ « مقابر قريش » كما كانت تسمى أحياناً مقبرة الشونيزي الصغيرة لتمييزها عن مقبرة الشونيزي الكبيرة ، التي دفن فيها الشيخ جنيد . ولا يزال القسم الغربي من صحن المشهد يسمى « صحن قريش » حتى يومنا هذا .

لم يحظ هذا المشهد بالعناية أول الأمر إلا على عهد الأمير معز الدولة بن بويه الديلمي في سنة ٣٣٦هـ (١٠٤٧م) . فقد أمر بأن يعاد بناء الضريح وتعقد فوقه قبتان ، ويدار حول المقبرة حائط كالسور . ولم يصل الينا ما يشير الى وصف

القبتين اللتين أمر ببنائهما معز الدولة ، إلا أنهما كانتا من الساج ، وأنهما لم تكونا مخروطيتي الشكل من الطرز المعروفة بـ « الميل » لأنها ظهرت في القرن السادس للهجرة . وليس لنا بعد ، إلا أن نقول بأنهما كانتا كسائر قباب الأئمة والأولياء في العراق ، لأن الناس يتوارثون الفنون والصناعات والطرز والأساليب المعمارية من بينها .

وفي سنة ٣٦٧هـ (٩٧٧م) أمر أبو طاهر سباشي الحاجب التركي بحفر ذنابة نهر دجيل وسوق الماء منها الى مقابر قريش فتوفرت أسباب العمارة هناك .

وقد ذكر الشيخ محمد بن طاهر السماوي أن أبا الحارث البساسيري والملك البويهي ، رمما في سنة ٤٤٤هـ (١٠٥٢م) المشهد الكاظمي وجعلا الضريحين في صندوق وعقدا عليهما قبة وحوطاهما بحائط وجعلا للمشهد بهواً واسعاً متصلاً بمسجد وللمسجد مئذنة ، وبعده توالى على المشهد الحريق والغرق ثم جاء التعمير والتجديد .

وفي سنة ٧٢٧هـ (١٣٢٦م) دخل ابن بطوطة لأول مرة الى بغداد وقال في ذكر الجانب الغربي منها : « وفي هذا الجانب قبر موسى الكاظم بن جعفر الصادق والد علي بن موسى الرضا والى جانبه قبر الجواد والقبران داخل الروضة وعليهما دكانة ملبسة بالخشب عليه ألواح الفضة . » — وقد أراد بالدكانة ، المابين الذي يحول بين الزوار والصندوق الداخلي .

وفي سنة ٧٦٩هـ (١٣٦٧م) في عهد الشاه أويس بن الشيخ حسن الكبير أمر النوبان هو بنفسه بترميم المشهد ، فرمم وبنيت فيه قبتان ومنارتان وللضريحين صندوقان من الرخام بديع نقشهما ونحتهما ، وأمر أيضاً بتزيين الروضة بالآجر الكاشاني المكتوب بسور من القرآن الكريم وبنى رباطاً في الصحن .

وفي أيام حكم شاه اسماعيل أبي المظفر بن شاه حيدر الصفوي في سنة ٩٢٦هـ (١٥١٩م) جدد عمارة المشهد الكاظمي على طرز العمارة الفارسية — كما هو باق حتى أيامنا هذه — وجعل له صحوناً واسعة جداً وأروقة وحجرات لطلاب العلم والمجاورين وجعله آية من آيات الفن البنائي الباهر ، وفضض الأبواب والعتبات وزين مناطق القبتين من الداخل بآيات القرآن الكريم ، والمقرنصات البارعة ، وزين الصندوقين بأحسن زينة ، وشيد منارات شوامخ ، وكتب على الرواق المقابل للداخل الى الحضرة من باب القبلة على الآجر الكاشاني .

وفي سنة ٩٧٨هـ (١٥٧٠م) في عهد السلطان سليم الثاني تم بناء المنارة التي في الركن الشمالي الشرقي من المشهد الكاظمي .

وفي سنة ١٢٨٣هـ (١٨٦٦م) أمر ناصر الدين القاجاري بتفضيض الشباك وتزيين المنارات بالقطع الذهب .

هذه لمحة تاريخية موجزة عن مشهد الكاظمين ، تبين لنا التطورات المختلفة التي مر بها هذا البناء والتغيرات المعمارية التي جرت عليه . ويبدو لنا ، من دراسة تخطيط المدن الاسلامية ومكانة المسجد ووظائفه المتعددة فيها ، أن صحن مسجد الكاظمين يجمع الوظائف المدنية والاجتماعية والروحية بالنسبة للمنطقة وزوارها . فالصحن هو الميدان الرئيس للمنطقة ولا تنحصر مهماته في التعبد والصلاة والوعظ على غرار المعابد الأوربية ، بل تذهب الى أبعد من ذلك ، حين تكون ساحاته وسطاً لتجمعات شعبية كبيرة تقتضيها ظروف المواسم الدينية ، والمزارات الموسمية ، أو الأحوال الاجتماعية المختلفة .

فمن متسع فضائه الذي يمتد طولاً ٣٧٠ متراً وعرضاً ٣٥٠ متراً تنفتح عشرة أبواب تؤدي الى الشارع الذي يحيط بسور صحن المشهد .

أما البناء الذي يضم المرقدين الشريفين فتبلغ مساحته ٢٣٠ × ١٥٠م . وتعلوه قباب مغشاة بالذهب المطروق ، ويحيط من جهاته الأربع ، رواق بالاضافة الى أروقة المداخل المطلة على الصحن .

ومن الخصائص المعمارية التي يتميز بها سور الصحن ، أنه خال من الأروقة التي تشيع في صحون الجوامع ، وتتكرر

فيه وحدات من الأواوين المعقودة ، في كل ايوان باب تؤدي الى غرفة داخلية . وقد خصصت هذه الأواوين والغرف للدرس بحيث تحقق عزلة خاصة عن صحن الميدان .

ومن الميزات المعمارية التي ظهرت في هذا المشهد استعمال القاشاني في إكساء الجدران والقباب والمنائر ، فقد كان لهذه المادة القوية الجميلة أثرها الواضح في تطور العمارة الاسلامية في العراق ، حتى شاعت في اكساء القباب والمنائر بشكل ملحوظ .

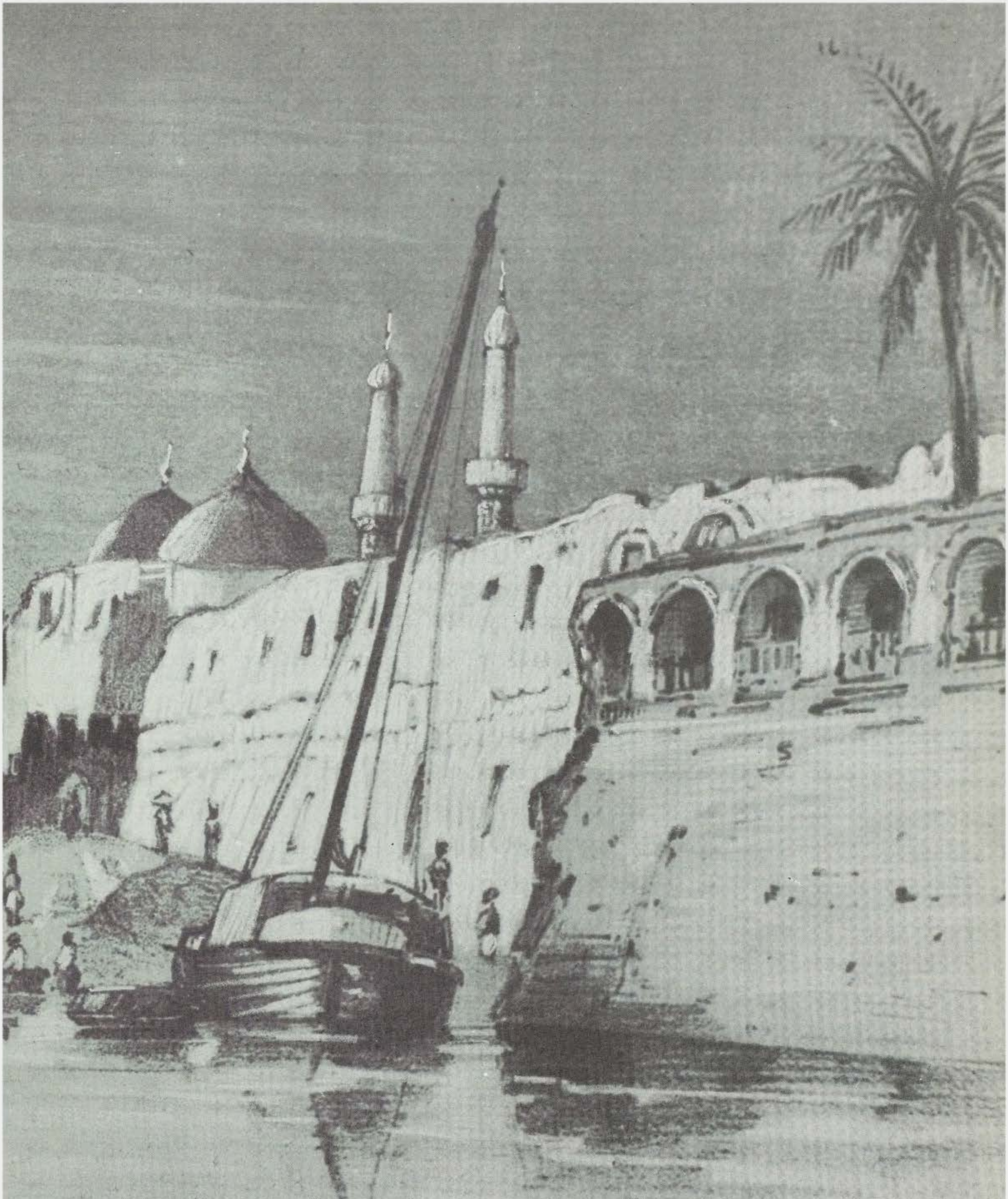
لقد أنشأ بعض السلاطين والولاة خلال الحكم العثماني جوامع ومدارس تنسب اليهم ، كما قام بعضهم بتجديد مبانيها . ومن أبرز المعالم التاريخية التي جرى تجديدها ، مشهد الشيخ عبدالقادر الجيلي المتوفى سنة ٥٦١هـ . وتعتبر تربة الشيخ الجيلي من المواقع المهمة التي كانت داخل سور بغداد الشرقية . وتكون قبابه وصحنه المستطيل ومنارته والمجموعات السكنية التي تحيطه كلاً معمارياً متناسقاً . وتشير المصادر التاريخية الى أن القبة التي تعلو الضريح ، كانت على الطراز السلجوقي الهرمي الشكل ، وقد هدمها السلطان سليمان الفاتح (١٥٢٠ــ١٥٦٦م) واستبدلها سنة ١٥٣٤ ، ثم بنى مسجداً قرب الضريح . أما القبة الواسعة المفلطحة القائمة الآن ، فقد شيدت سنة ١٦٣٦م. ويعتبر مشهد الشيخ عبدالقادر الكيلاني من المشاهد الاسلامية الشهيرة في بغداد ، فهو بالاضافة الى كونه مسجداً ومزاراً فأنه من المراكز الثقافية الدينية .

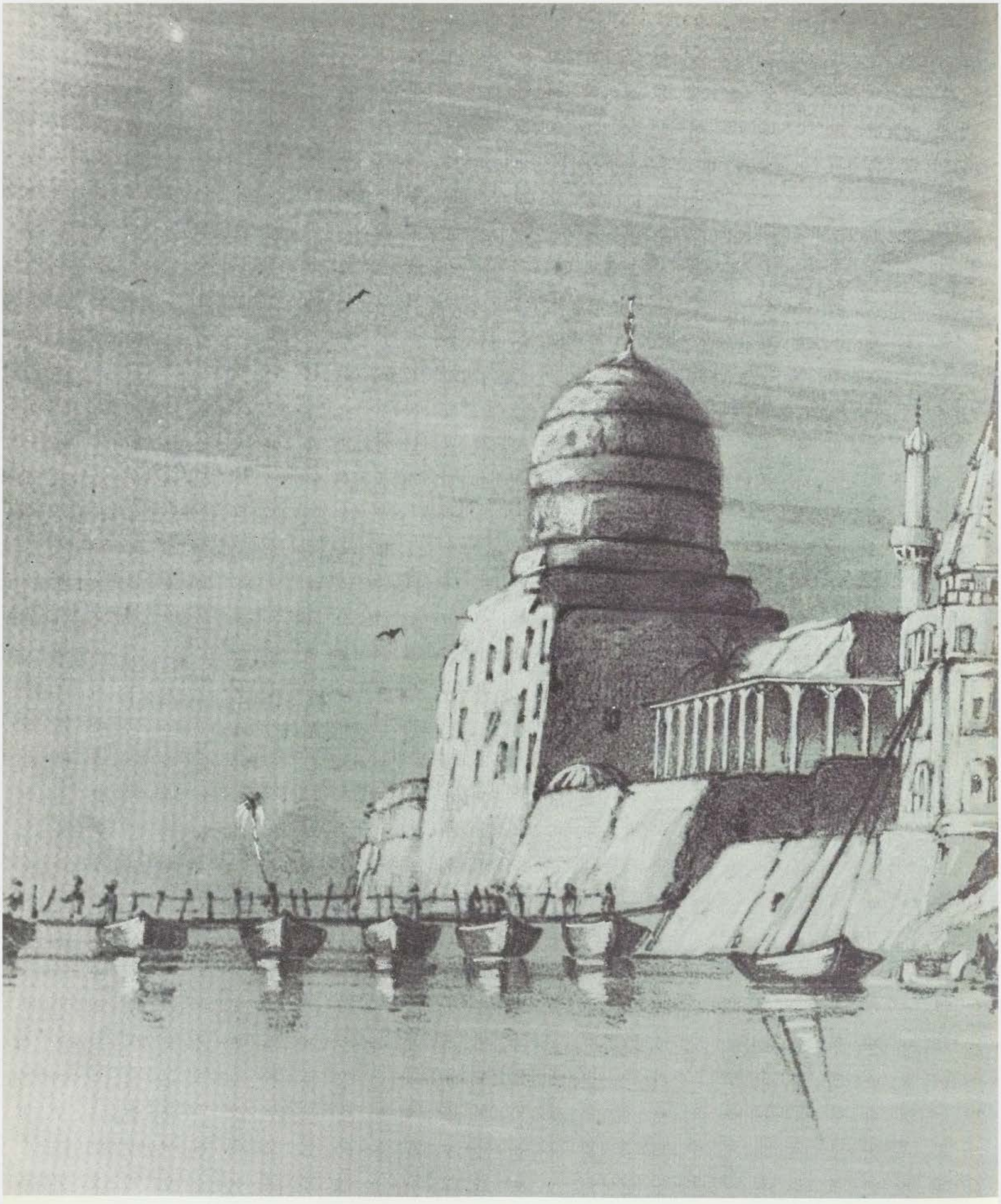
ومن المشاهد التاريخية المهمة التي جددت أيام الحكم العثماني للعراق ، مشهد الامام أبي حنيفة المتوفى سنة ١٥٠هـ (٧٦٧م) والذي يعود الى عهد الخليفة المنصور . وقد وصفه الرحالة ابن جبير سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤م) فأشار الى قبته الشامخة التي تعلوه ، غير أن ترميمات وتجديدات كثيرة جرت عليه خلال تلك العهود حتى آل أمره الى ما هو عليه الآن بعد أن شيد قبته الضخمة ومنارته الحالية عمر باشا بأمر من السلطان محمود . أما أروقته المشيدة بالآجر فقد أمر ببنائها السلطان مجيد سنة ١٢٨٨هـ (١٨٧١م) . واستمرت المظاهر المعمارية في التغير ، حين تناولت التكسية القاشانية للقبة ، وشكل المنارة ، والأقواس الآجرية للرواق الخارجي . وتشكل هذه التكوينات في منطقة الأعظمية محور الارتكاز للحياة الدينية والاجتماعية . غير أن مبنى السياج الحالي ، والمدخل الى المسجد ، والبرج المقفل ــ وهي التجديدات التي جرت على المسجد في السنوات الأخيرة ، لا تنسجم من الناحية المعمارية ، مع التأليف البنائي المتسم بالبساطة والهدوء للمشهد .

كنا قد أوضحنا أن المساجد البغدادية التي قام بتعميرها وتجديدها الولاة العثمانيون ، كانت ذات خصائص بغدادية في الشكل العام وطرق البناء واستعمال المواد . وأبرز هذه الأمثلة جامع الوزير القائم على ضفة دجلة الشرقية عند مدخل جسر المأمون الحالي ، وفي الموقع التاريخي لمدرسة الخليفة « المدرسة التتشية » . وقد سمي جامع الوزير نسبة الى الوزير حسن باشا الذي تسلم ولاية بغداد منذ عام ١٦٠٠ حتى ١٦٠٤م وقام بأعمال الترميم والتجديد لمساجد بغداد وجوامعها .

ثم جامع السراي ، وجامع الأحمدية في الميدان ، وجامع الخاصكي في رأس القرية ــ شارع النهر . وجامع الحيدرخانة الذي ما زال يطل بقبته العباسية الشامخة على شارع الرشيد . وجامع العاقولي وجامع سراج الدين وجامع المرادية وجامع الفضل وجوامع أخرى تطرقت لذكرها بالتفصيل والاجمال كثير من المصادر التاريخية . وسنكتفي بايراد رسومها والتعليق على بعض خصائصها المميزة التي يؤكدها الأسلوب البغدادي في العمارة .

وتشير أحداث القرن التاسع عشر الى الكوارث التي حلت ببغداد ، والى ما انتابها في عام ١٨٣١م من فيضان مريع خرب سبعة آلاف مبنى ، وما أعقبه من انتشار وباء الطاعون الذي أهلك من النفوس (٤٠) ألف نسمة ، وأتى





بغداد كما صورت في كتاب السائح (G. E. HUBBARD) ج. إي. هيوبارد

الخراب على ما في المدينة من عمران كما أصاب الحريق بعضاً من النفائس الموجودة في السراي ، وسربلها الظلام والموت أعواماً طويلة امتـدت حتى أواخر القرن ، حين اتصلت أيام الوالي مدحت باشا بالعالم الخارجي بواسطة خط الملاحة النهري الذي أوصل دجلة بالبحر عن طريق خليج البصرة . وهكذا بدأت بين عامي ١٨٦٠ و١٩١٤ تستقبل أول نسمات التمدن الحديث .

الاسَواق البغدادّية

تناولنا في الفصول السابقة ، دراسة الجانب المعماري للمنشئات البغدادية العامة ، كالقصور والمدارس والجوامع والمستشفيات وغيرها . وسنتناول في هذا الفصل ، الجانب الحيوي الآخر من كيان المدينة التاريخية ألا وهو : « المنشأة الاجتماعية » . ويدخل في إطار هذه التسمية : السوق والخان والمقهى ودار السكن .

وتبرز أهمية المنشأة الأولى في تخطيط بغداد ، بكونها التعبير الحياتي عن حاجة المدينة نفسها ، وحاجات المدن والأقطار الأخرى .

فقد أنشأت الأسواق البغدادية ضمن تخطيط المدينة فجاءت بحاول موفقة للمشاكل العمرانية والسكنية القائمة آنذاك . وكانت مباني الأسواق في المداخل الرئيسة للمدينة ، مراكز لتجمع التجار وأهل الريف والوافدين من الأقطار البعيدة للتزود مما تنتجه بغداد أو ما يصل اليها من نفائس البضائع . وتتميز تلك المباني بأطواقها وسقوفها الآجرية المعقودة التي ظلت آثارها شاهدة حتى اليوم ، على اهتمام المعماري البغدادي بالجو والمناخ ، واحلالهما المكان الأول في دراسة التصميم الأساسي لتلك المنشأة .

وقد ورد ذكر تلك الأسواق في كثير من المصادر التاريخية وكتب البلدانيين ، فوصفها ابن بطوطة في رحلته المشهورة بقوله :

« وهذه الجهة الشرقية من بغداد حافلة الأسواق عظيمة الترتيب ، وأعظم سوق يعرف بسوق الثلاثاء كل صناعة فيها على حدة » . وكتب عنها « القزويني » وهو أحد مؤرخي القرن الثالث عشر الميلادي ، ما يلي : « وبغداد عبارة عن المدينة الشرقية . كان أصلها قصر جعفر بن يحيى البرمكي والآن هي مدينة عظيمة كثيرة الأهل والخيرات والثمرات . تجيء اليها لطائف الدنيا وطرائف العالم ما من متاع ثمين ولا غرض نفيس إلا ويحمل اليها ، فهي مجمع لطيبات الدنيا وماستها ، ومعدن لأرباب الغايات وآحاد الدهر في كل علم وصنعة » .

ومما يشير الى انفراد كل سوق بنوع خاص أو صنف بعينه من أصناف البضاعة ، ما ورد في بعض المصادر من أخبار . فقد ذكر ابن خرداذبة أن الخزف الصيني كان يستورد للأسواق البغدادية . وجاء في وصف أسواق الضفة الشرقية ما يلي : « سوق الرصافة عظيمة جامعة . » ووصف أحد أسواق الجانب الغربي وهو السوق المسمى بـ « سوق يحيى » بأنه : « ذو الدكاكين العالية والدروب العامرة من دقاقين وجنازين وصلاويين . » وكتب بن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧هـ ، في وصف سوق الطير قوله : « وهو سوق يجمع الرياحين وفي حواشيه الصيارف الظراف وأصحاب الطيالس وفاخر الملابس . »

ولما كانت الأسواق البغدادية تؤلف بمجموعها وحدة من وحدات المنشأة الاجتماعية ، فهي ترتبط عضوياً بجامع خاص قريب منها يعرف باسم أهل الحرفة أو الصناعة الشائعة في تلك الأسواق . كما ترتبط بمقاهٍ خاصة يرتادها أهل تلك الأسواق للراحة وعقد الصفقات وقضاء الأوقات . وينتظم هؤلاء تقليد اجتماعي يؤلف بينهم في مناسبات الأفراح والأتراح الخاصة ، وكذلك في المناسبات الشعبية والدينية العامة .

ولقد اشتهرت بغداد ، بوصفها المدينة الكبرى للثقافة والعلم في العصر الوسيط ، بأسواق الوراقين ، وهي أسواق كانت عامرة بالكتب مزدانة بأهل العلم والأدب والفكر . وصف ابن الجوزي سوق الوراقين في كتاب « مناقب بغداد » فقال أنها سوق كبيرة وهي مجالس العلماء والشعراء .

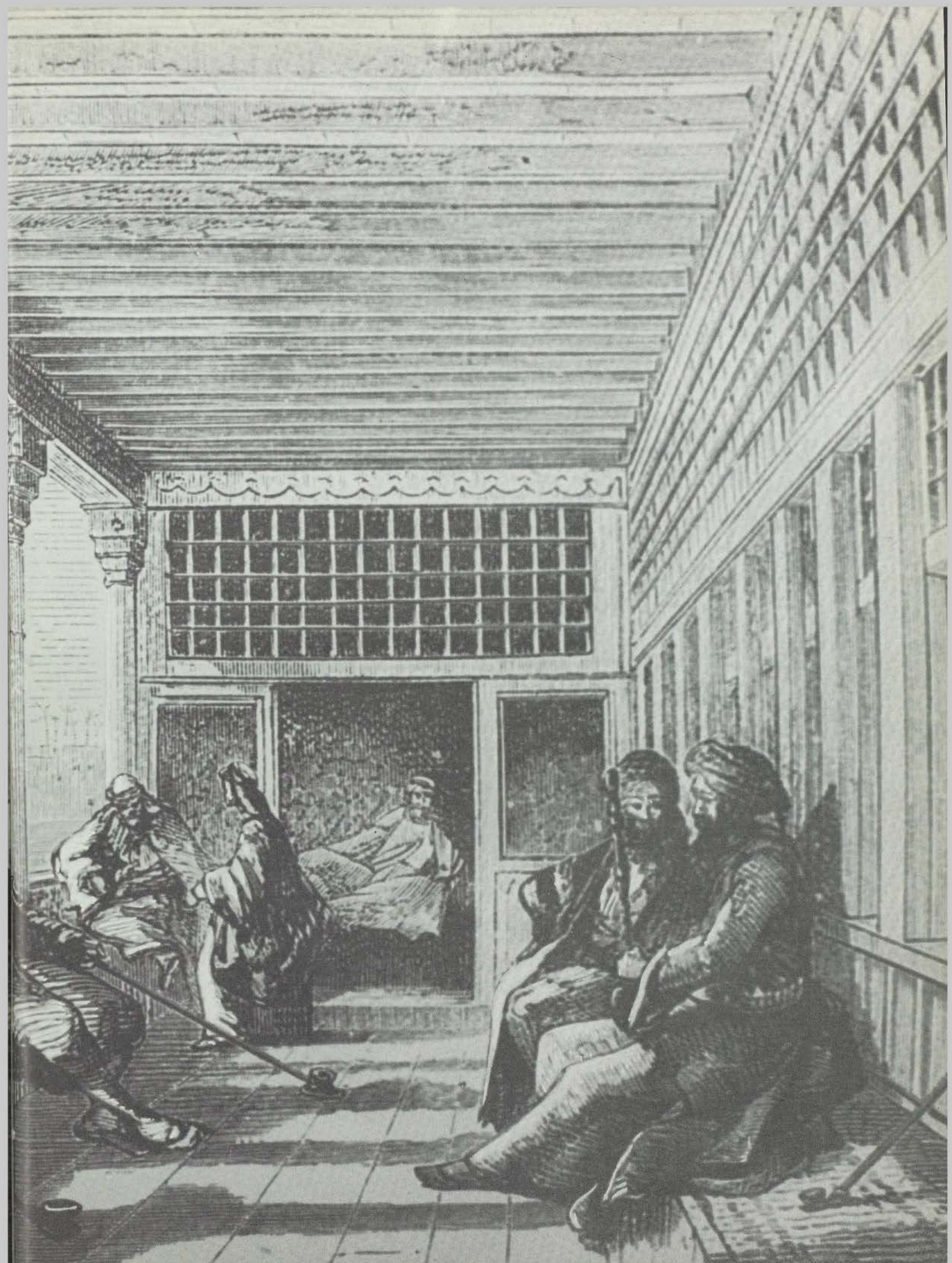
ويلاحظ في تصميم الأسواق الصناعية تفرع منشئات المتاجر منها وهي « الخانات » التي ما زال بعضها يؤدي دوره الفعال في الحياة التجارية حتى اليوم . وتتألف هذه الخانات من طابقين تتوسطها ساحة مكشوفة أو أكثر حسب شكل وسعة الموقع . ويحتوي الطابق الأرضي على غرف تفصلها عن الساحة أروقة بعقود آجرية . أما الطابق الثاني فيشيد في الغالب بمواد أخف وزناً ليحقق الفضاءآت المطلوبة لمكاتب التجار . وتخطيط الخان ، يكاد يشبه من النواحي الانشائية العامة ، تخطيط دور السكن . فان العمود الخشب الذي يعرف بالاصطلاح البغدادي « الدلك » يستعمل لحمل السقف الخشب في الطابق الثاني . وقد يلجأ الى التسقيف الموقت للساحة الوسطى من أجل تحقيق فضاءآت ذات أبعاد واسعة توفر إمكانات جديدة لخزن البضائع وإيصال النور الطبيعي للباحة الداخلية من جوانب السقف المؤقت .

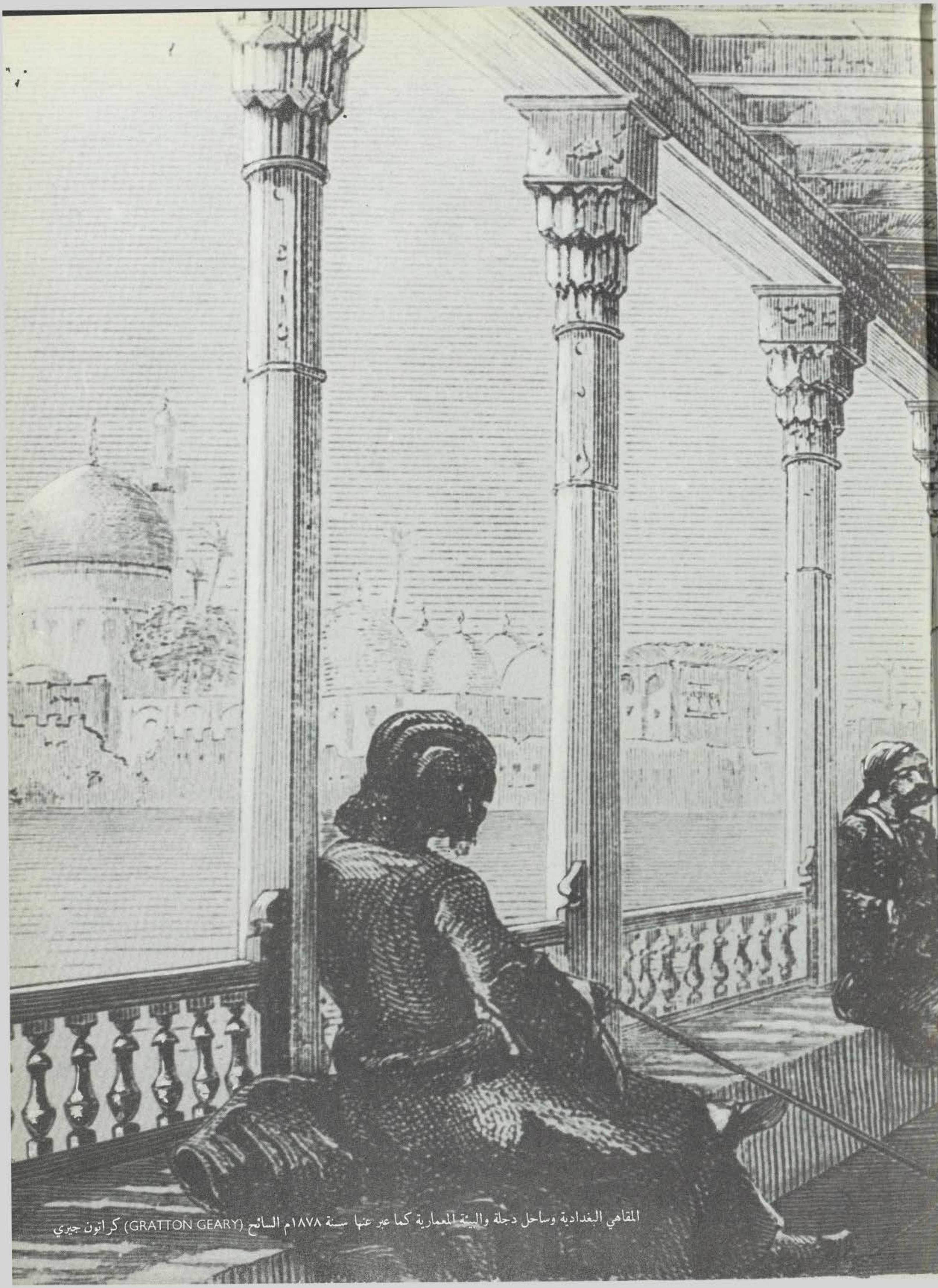
المقاهي البغدادية

إن أول اشارة وردت عن وجود مقهى في بغداد جاءت في كتاب « كلشن خلفا » في عام ٩٩٩هـ (١٥٩٠م) . وقد كانت تدعى آنذاك « قهوة جغالة زادة » ويؤكد الباحث يعقوب سركيس في دراسته عن موقع هذا المبنى ، أنه كان في موضع « خان الكمرك » الحالي . كما ذكره فيلكس جونس في منتصف القرن التاسع عشر بهذا الاسم أيضاً . ويعتقد يعقوب سركيس أنه أول مقهى بني في بغداد .

أما مقهى حسن باشا فيقول عنه أنه يقع في جوار جامع الوزير في مدخل السوق المؤدي الى المستنصرية ، وقد زاره الرحالة « تكسيرا » وجلس فيه في كانون الأول من عام ١٦٠٤م ووصفه بقوله : « ويستخدم في المقهى غلمان ملاح ملابسهم فاخرة لتقديم القهوة وقبض الدراهم . وهناك الموسيقى تعزف وغيرها من وسائل التسلية واللهو . والتردد الى هذا الموضع في القيظ أكثر ما يكون ليلاً ، أما في الشتاء فنهاراً . وهذا المقهى قريب من النهر « دجلة » وفيه نوافذ ورواقات تطل على النهر فتجعله متنزهاً لطيفاً جداً » .

تعتبر المقهى البغدادية من الاندية الاجتماعية التي تكمل دورة الحياة اليومية للسوق وللمحلة ، وهي بالرغم من خلوها من الطابع المعماري الخاص ، إلا أنها تمتاز بفضاءآت ذات أجواء متسعة وخصائص انشائية أساسية تستوعب أعداداً من الناس يفدون اليها طلباً للراحة واحتساء بعض أقداح الشاي أو القهوة المرة أو سحب بعض الأنفاس من دخان « الأرجيلة » .





المقاهي البغدادية وساحل دجلة والبيئة المعمارية كما عبر عنها سنة ١٨٧٨م السائح (GRATTON GEARY) كراتون جيري

الدور البغدادية والتراث السكني

تتميز الدور البغدادية ، شأنها شأن الدور العراقية الأخرى بخصائص انشائية وتخطيطية ذات طابع واحد يتمثل في توزيع المسقفات السكنية حول الساحة الوسطية المكشوفة التي يطلق عليها بالعامية « الحوش » وهو الفناء المكشوف أو الرحبة الداخلية للدار التي يمكن عن طريقها تحقيق منظور للفضاء ليلاً ونهاراً . وعلى الرغم من التأثيرات الواضحة التي تركتها تقاليد فن العمارة الفارسية والتركية في البيت البغدادي ، إلا أن التخطيط الأساسي لهذا البيت لم ينله ، التغيير خلال عصور متمادية ، بل ظل محافظاً على جوهره الأصيل .

ويختلف البيت البغدادي باختلاف المراتب الاجتماعية للناس فتتكون بيوت الأغنياء والوجهاء من عدة ساحات تتلو الواحدة الأخرى ، تبدأ بمجالس السلام التي تعد للضيوف ، ثم تنتقل الى مقاصير الحرم وتنتهي بحجرات الخدم . وتعتبر الساحات الوسطية ، قاعات مكشوفة ومحجوبة عن الأنظار بالاضافة الى الدور الذي تلعبه في توزيع الاضاءة الطبيعية للغرف التي تحيطها . وتطل الشبابيك المتسعة لهذه الغرف على الساحة الداخلية حيث تكون في هذه الحالة ، واجهات لغرف الطابق الثاني ، وتحقق عن طريقها الاضاءة والتهوية الطبيعيتين .

وينعزل السكن عن الشارع أو الطريق في مثل هذا التكوين الانشائي الذي يحقق ضمن مساحات قليلة ، مرافق كافية لسكن عائلي متعدد الأنفار . وقد يعجب الدارس حين يكتشف أن مساحة الدار بكاملها قد لا تتجاوز الـ (٥٠) متراً مربعاً ، مما يشير الى براعة المعماري المجرب في استغلال المساحات مع تأمين فضاء سماوي في حدود ضيقة وفسح قليلة غير منتظمة قد تكفي لغرس شجرة أو عدة أشجار ، الأمر الذي يدفعه للتفكير بجد في دراسة تلك النماذج المتعددة والتأمل في الحلول التي وضعها ذلك المعماري البسيط لمشاكل السكن وكثافة السكان . وهكذا يتميز تصميم البيت البغدادي بالهيمنة على مشاكل التخطيط ، وتحقيق ما يمكن أن يجعل متطلبات الحياة اليومية ميسورة .

ومن النقاط الجوهرية في تصميم البيت البغدادي توفير ما يسمى بـ « الطارمة » وهي الايوان المصغر للدار . وتستعمل « الطارمة » الأرضية للقيلولة صيفاً — في حالة عدم وجود السرداب — كما تستعمل أيضاً لتناول وجبات طعام الغداء وشرب شاي ما بعد القيلولة أو شاي العصر .

ومن الخصائص المميزة للدور البغدادية وجود المدخل المنكسر أو « المجاز » الذي يوصل الشارع بالساحة الداخلية . فقد تجنب المصمم أن يكون المدخل مباشراً ، وهذا أمر طبيعي قصده المخطط لعزل فضاء الساحة عن منظور الشارع ، وعن أنظار العابرين . ويعنى البغداديون بزخرفة أبواب هذه المداخل والاكثار من مقرنصات العقود للتأكيد على جمالية خاصة تشغل نظر الزائر وتثير اعجابه عند دخوله الدار .

ويتغلب البغداديون على مشاكل الثقل في الكتل البنائية باستخدام المواد الخفيفة في بناء الطابق العلوي ، كالخشب وحصر القصب وما أشبه ذلك . وتتميز الدور البغدادية البسيطة بنوافذها التي تكون في الغالب فوق مستوى النظر وهي تطل على الشوارع أو الطرقات الضيقة التي تكثر في المحلات المزدحمة بالسكان .

ويلاحظ الدارس للبيت البغدادي بصورة عامة أن ارتفاع الغرف في الطابق العلوي لا يتجاوز (٤) أمتار ، ويتسم بخصائص انشائية معينة منها كثرة الشبابيك وارتفاعها وخاصة في الواجهات المطلة على الشوارع والطرقات ، ومنها أيضاً احداث « الروازين » المتعددة من الداخل لتخفيف سمك الجدار والاستفادة منها كدواليب أو رفوف أو لاستعمالات

أخرى يفرضها التصميم الداخلي لتلك الغرف . وهذا الارتفاع ، يحقق في الغالب ، وجود طابق وسطي تنشأ فيه غرف خاصة صغيرة تدعى « كبشكان » وتستعمل لأغراض الخزن أو لاقامة الخدم ، وتكون في الغالب منعزلة عن المرافق العائلية .

أما ارتفاع الطابق الأرضي فيكون في العادة أقل من الطابق العلوي .

يتضح من تخطيط دار السكن البغدادي ، أن المصمم ، قد حاول التغلب على المشاكل الانشائية والاجتماعية والطبيعية التي كانت تواجهه ، واستخدم للوصول الى غايته شتى الوسائل ومارس عدداً من الحلول حتى استطاع أن يجعل من البيت موطناً للراحة .

فقد أعد « السرداب » لقضاء ساعات القيلولة الطويلة أيام الصيف القائظ . ويتصف هذا الملجأ بجدرانه السميكة وانخفاض أرضه عن مستوى أرضية الدار انخفاضاً قد يصل في بعض الأحيان الى عدة أمتار مما يساعد على حمايته من الحرارة اللاهبة أيام الصيف . وتجري تهوية السرداب بواسطة فتحات صغيرة جانبية تكون في مستوى أرضية الفناء ، ثم من أبواب المدخل والسلالم المؤدية له . كما يتميز بوجود مجارٍ عمودية للتهوية تكون متصلة بسطح الدار وتسمى « البادكير » .

ويلاحظ الناظر الى السطوح البغدادية أشكال هذه الفتحات بسطوحها المقوسة واتجاهها نحو مهاب الريح الشمالية الغربية . ويتصل « البادكير » في الغالب بتجويفة تؤدي الى مستوى منخفض في أرضية السرداب ، حيث يساعد الماء الموجود في قاعها على ترطيب الهواء الخارجي الجاف الآتي من السطح . ويصطلح على هذا الاتصال بـ « الزنبور » .

وللسرداب ، بالاضافة الى أدائه وظيفة الملجأ لمنام النهار الصيفي ، خصائص معمارية تقليدية تظهر في طرائق استعمالات الآجر ، والتفنن في بناء عقود التقبية ، حيث يتم الانتقال بهذه الفضاءآت من المسطحات المتعامدة الى التدوير ثم الانتقال من استعمال الحنايا الى الأشكال المسطحة التي تستخدم فيها مادة الآجر بأبعاد تتراوح ما بين ٢٥ – ٣٥ سم٢ ، وخاصة في رصف الأرضيات التي تحتفظ بالرطوبة والبرودة عن طريق رشها بالماء . ويستمر هذا التقليد في تبليط الأرضيات حتى أيامنا هذه .

ومن المفردات المعمارية الشائعة في البيت البغدادي ، العمود الخشب الذي يدعى بمصطلح العامة : « الدلك » . وينتهي هذا العمود بتاج متدرج مقرنص يساعد على تقليل مساحة الجسر الذي يعلو عدداً من هذه الدعائم . ويستدل من شكل العمود وطرق استعماله الى الاقتصاد في استخدام الخشب ، ذلك لأن عملية التضليع التي تجري لهذا العمود ، تنتهي الى المحافظة على أكبر سعة ممكنة لقطر هندسي ، مسدس أو مثمن . وقد يلاحظ المرء أن في استعمالات الخشب بأشكاله الهندسية وحجومه المختلفة ، وطرق تكسية السقوف وأسافل الشبابيك ، ما يشير الى ذات النظرة الاقتصادية التي ألمعنا اليها .

النهر في حياة البيت البغدادي

لماء دجلة أثر واضح في حياة البغداديين ، كما أن وجوده قد ساهم مساهمة أساسية في تكوين التصميم الأساس للمدينة . وقد جاء ذكر هذه المصاحبة التاريخية في مصادر كثيرة مثل كتب ابن خلدون والأصفهاني والأتليدي وابن خلكان .

إذ ينقل لنا الأستاذ جميل نخلة المدور في كتابه « دار السلام » وصف لمدينة بغداد العباسية مستنداً الى ما ذهب

اليه البلدانيون في ملامح أوصاف المدينة ، فقد جاء بهذا الصدد ما ذكره :

« ولما كان الحر يشتد وهجه في الزوراء ويفتقر أهلها الى رطوبة الماء افتقار النفس الى الهواء ، قل أن يخلو سوق من أسواقهم أو بناية من مبانيهم من سقاية يجري بها ماء دجلة .

ولأهلها في اقامة الأحواض عناية تامة فيرفعون عليها عمداً مزخرفة من الرخام ويعقدون من فوقها قباباً منقوشة بآيات من الذهب . »

ثم يأتي على ذكر ترف البغداديين فيقول :

« ويتخذون مقاعدهم في أوان الحر بين الماء المتدفق من صور السباع وأشكال الطيور وأشكال النباتات وغيرها . »

وفي وصف البيئة البغدادية عبر الحياة اليومية للناس ، تتلمس أهمية النهر في حياة المدينة ونشاطها ومواطن الترفيه فيها . فقد جاء في مناقب بغداد وصف لقصور الشواطىء :

« وكان لدور الشط أبواب الى شوارعها وعلى كل باب مراكب مسرجة مهيأة لركوب الظهر كما بين أيدي رواشنها خبطية أو زيزب (وهي ضرب من السفن) لركوب الشط . »

ثم يأتي على ذكر عدد القوارب النهرية لذوي اليسار فيقول : « بدجلة خمسمائة مصغرة مزينة لا يركب فيها إلا ظراف التجار والأجناد وأرباب المقاطعات . »

وللقنوات وامتداداتها وتفرعاتها أهمية كبيرة في تخطيط مدينة بغداد وتنظيم البرك الخاصة فيها . فقد أستفيد من نهر الصراة لاستحداث برك قصر الخلد الذي بناه المنصور على شاطىء دجلة .

وقد وصف ياقوت القنوات النهرية التي جيىء بها من نهر كرخايا الآخذ من الفرات بأنها كانت « عقوداً وثيقة من أسفلها محكمة بالصاروج والآجر من أعلاها . »

أما البساتين البغدادية واختلاف الناس اليها فقد وردت عنها أخبار كثيرة في الكتب التي تحدثت عن هذه المدينة ومرابعها . كما أشار دليل خارطة بغداد الى بعض المواضع التي اشتهرت في المدينة بقوله :

« إن في المواضع التي اشتهرت فيها بغداد موضع يقال له الشفيعي كان يقع في الحد الجنوبي من بغداد الشرقية على الطريق الذي يوصل بغداد الشرقية بالمدائن وكان فيه بستان عامر يقصده كبار القوم ، وأمراء وسلاطين وقواد . »

ويستدل من هذا أن للحدائق مكانة اجتماعية في البيئة البغدادية ومرافق الترفيه العامة والخاصة .

القباب البغدادية

تعتبر القباب البغدادية من أقدم المظاهر المعمارية التي احتواها جو وطابع المدينة ، فقد ذكر الخطيب البغدادي في حديثه عن انشاء المدينة المدورة أنه « ثبت على كل باب من أبواب مدينة بغداد المدورة قبة . »

والمتتبع لأصول هذا التكوين المعماري ، يجد أنه ليس إلا متابعة لامكانيات العقود والأقواس وحركتها ، فحين تكون التقوس باتجاه ما يكون « سقوفاً برميلية » وحين تكون الحركة حول المحور ، يتألف الشكل القبي وهذا ما ينفرد به شكل القوس نفسه ، فيصبح الشكل الجديد : القبة المقوسة .

ولقد استمر التقليد البنائي للقبة البغدادية ، حتى العصر الحاضر ، حيث يشاهد المرء قباب جوامعها الجميلة تبرز بوضوح في المسطح الأفقي لأحيائها القديمة ، وهو المشهد الذي أثار اهتمام كثير من الرحالة الذين زاروا بغداد فسجلوا انطباعاتهم عنه .

وحينما نذكر قباب بغـداد ، لابد أن نشير الى ما ورد في ذكر القبة الأولى التي شيدها المنصور في قصره ، فقد خصها ابن الجوزي في كتاب مناقب بغداد بهذا الوصف : « وكانت هذه القبة تاج بغـداد ، وعلم البلد ، ومأثرة من مآثر بني العباس ، بنيت أول ملكهم . »

وإذا أمعنا النظر في القبـة البغـدادية وتقصينا دراسة أصولها في العمارة العراقية ، وجـدنا أنها بنت البيئة الطبيعية التي نشـأت في أحضان الأبنية الريفيـة حيث يكون السقف ، استمراراً للجدار الطيني ، بشكل منحنٍ تدرجي مقوس . ويعود هذا الأسلوب في التسقيف الى طبيعة المادة الرسوبية للأرض العراقيـة التي يعتمد البناء فيها بالدرجـة الأولى على مادة الطين ، ويصبح من الصعب جـداً الاعتماد الكلي على المساند الحجر أو الجسور الخشب التي تكثر عادة في البـلاد الجبلية أو المواطن التي تكثر فيها الغابات ، كبلاد اليونان التي مهـدت للمعمار اليوناني طريق التسقيف التوصيلي بين المساند الحجرية ، وجعلت من هذا التأليف المعماري فناً كلاسيكياً لازم تطور فنون العمارة في تلك البلاد ، وانتشر منها الى أرجاء مختلفة من العالم القديم ، وخاصة سوريا ولبنان .

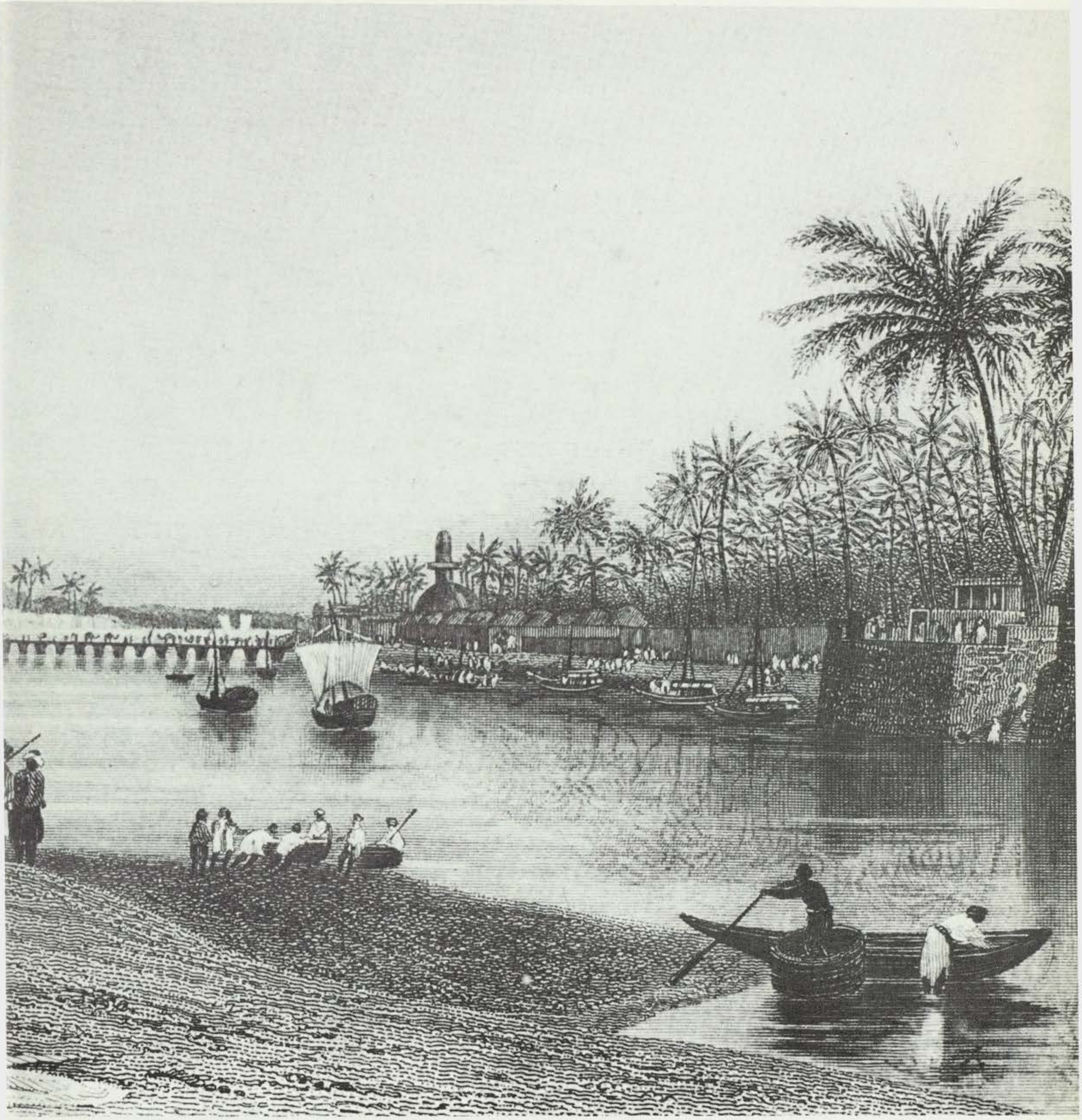
ولعل هـذا التحليل يقودنا الى حقيقة علمية بسيطة تتعلق بتأثيرات البيئة ، ومـوادها المحلية ، وانعكاس كل ذلك في طريقة تناول المعماري لتلك المواد . بحيث تصبح القباب ، ذات الأشكال المتبة أو المسطحة أو الهرمية ، تأكيداً لقدرات المـادة المحلية على التكيف الشكلي ، والتطور من القوس البسيط الى القوس المركب الذي يسير حول مراكز محورية .

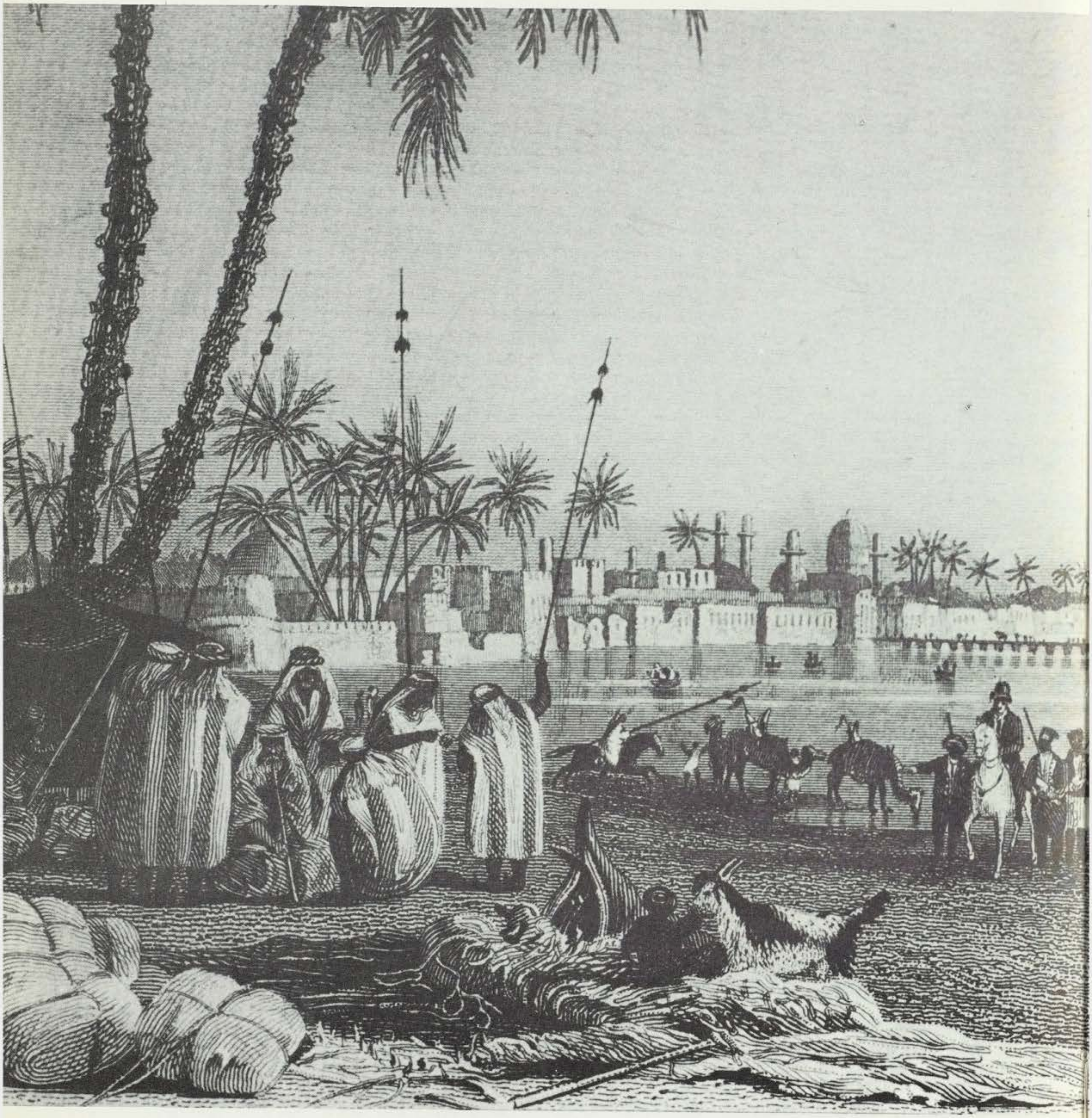
وتنقل لنا منحوتات حضارة وادي الرافدين صورة للبيئة الريفية التي تؤكد وجود القباب والسقوف البرميلية بأشكالها المختلفة . وجـدير بالذكر ، أن القباب والمنائر القائمـة في بغـداد ، لم تتأثر بالطراز العثماني المستوحى من الفن البيزنطي ، رغم أن معظمها قد شيد في فترات مختلفة من حكمهم الطويل لهذه البلاد . وهذا ما يؤكد لنا أصـالة الفن البغدادي ، وقدرته على الامتداد والبقاء .

المنائر البغدادية

لعل أبرز ما تميزت به المنائر البغـدادية عن مثيلاتها في البلاد العربيـة هو استعمال الخزف الملون « القاشاني » في تكسية سطوحها ، فقد أكسبها هذا المظهر الزخرفي الدائم اللون ، وجوداً حياً يتناسب والبيئة المناخية الجافة من ناحيـة ، وينسجم وطبيعة النور المتوهج صيفاً وشتاءً من ناحية أخرى . وتوضح هذه الطريقة المثلى في التكسـية الجدارية ، توصلات الفنان العراقي لاحياء مادة الطين ، وتهذيبها واخراجها بشكل ينافس أصلب المواد الطبيعية الجميلة كالمرمر ، وأنواع الحجر الملون وغيرها ، مما جعلها تتميز بخصائص عديدة في الاسـتعمالات الداخلية والخـارجية ، لاداء أغراض بنائية وتجميلية وزخرفية في آن واحد .

إن مقارنة سطحية لطرز وأسـاليب العمارة الخاصة بالمنائر الاسلاميـة ، يوصلنا الى حقيقة واضحة تتلخص في استقلال الأسلوب البغدادي في بناء هذا الرمز الديني الجميل وتميزه عن أي طراز آخر في البلاد العربية . مما أضفى عليه طابع التفرد ، وخصه بجمالية آسرة ، تشهد عليه النماذج الباقية حتى اليوم من قباب ومنائر مراقد الأئمة والعتبات المقدسة والجوامع الكبيرة في بغداد .





جانب النهر في بغداد كما صوره هوبارد

تحليل القوام الانشائي للعمارة البغدادية

نشأت بغداد كغيرها من مدن العراق الأوسط ، على أرض رسوبية يؤلف طين السهول قوام مادتها الانشائية . وهكذا اعتمدت في اقامة مبانيها على الآجر ، مقتفية بذلك ، أساليب البناء في مدن الحضارات القديمة التي نشأت ثم اندثرت في هذه المواطن العريقة .

ويتميز الآجر بمرونته وانصياعه لرغبة البناء الحاذق في تشكيل أعقد التأليفات والزخارف البنائية ، كالحنيات والنتوءآت والمقرنصات والعقود وغيرها من المحسنات الانشائية الأخرى . ويستطيع البناء عن طريق هذه المادة ، تبديل الاتجاه في التسقيف من الأشكال المستقيمة والزوايا القائمة الى الأقواس والحنيات والعقود المشتركة . ولا تتطلب هذه العمليات من الأدوات ما يحتاجه الحجر حين يستعمل لنفس الغرض ، فضلاً عن أن هذه المادة الأخيرة تفتقر بطبيعة تكوينها المادي الى الخفة والهشاشة اللتين يتمتع بهما الآخر ، وهما صفتان استطاع البناء البغدادي أن يستفيد منهما في تهذيب ونحت الكتل الآجرية وفقاً لمقتضيات البناء . لذا فقد أصبح الجدار الآجري ببساطته المألوفة يحقق عبر قابلية البناء وحذقه بجاذبية معمارية نرى بعض ملامحها اليوم تعود ثانية الى فن العمارة الحديثة بعاطفة لا تمتلك الخصائص التقليدية الموروثة .

وحتى تتسع فسحات الآجر ومسطحاته ، توحي للمصمم بأن إمكانيات المادة ما زالت مستمرة ومتجددة ، وأنها لم تسلك النطاق الآلي الثابت في الرصف ، بل تنمو وتتجدد تحت يد البناء المحترف والطاقات التصميمية الخلاقة .

إن صور السطوح الآجرية تعيش في تنوع دائم حيناً باستعمال (المونة) أو ما يصطلح عليه بـ (البندة) وحيناً آخر باستخدام التغاير في طرق الرصف من بنود وخسف . وهذه الطرق تزودنا بثروة من النصوص الآجرية لا يستطيع المعماريون الجدد تجاهلها حين يعمدون الى التمعن في دراستها واستقراء الأساليب التي اتبعها المعماريون القدماء في تنفيذها .

أما عملية تماسك الآجر ، فتعتمد بالدرجة الأولى ، على مادة محلية أخرى هي الجص . ولهذه المادة ميزات خاصة لها أثر كبير في عمليات البناء . فهي تمتلك قابلية عالية على الجفاف بسرعة فائقة بعد انتهاء البناء مباشرة . وقد ساعدت هذه المواصفات على اجراء عمليات التقبية ورصف الآجر في بناء الأطواق دون ما حاجة الى استعمال القوالب الخشب التي تهيأ عادة لضبط دقة التقوس ومنح الجص فرصة أطول للجفاف . هذا بالاضافة الى ما تحققه تلك المادة البلاستيكية من إمكانات أخرى في فن زخرفة الجدران ، ذلك الفن الذي ازدهر في سامراء ، وكان له ما يناظره في بغداد ، إلا أن الكوارث التي حلت بهذه المدينة لم تبق من عمائرها ما يحمل لنا ، عبر العصور اشارة الى وجود نماذج شبيهة باللوحات الجصية الرائعة التي عثر عليها في قصور سامراء ، وظلت شاهدة على تمتع فن الزخرفة الجصية بالجمال والتفرد .

هناك لون آخر من ألوان الفن التزييني في العمارة البغدادية هو فن بناء الآجر المقرنص . وهذا الأسلوب الانشائي لا يزال يشكل العنصر البارز في فن العمارة العباسية التي ظلت تحتفظ بتشكيلاته الجميلة في قصر دار المسناة أو ما يدعى اليوم بـ « القصر العباسي » ومئذنة مسجد الخلفاء ، وخان الأرتمة ، وبعض الشواهد البنائية الأخرى . وعند تحليل هذه النماذج ، نجد أنها تحمل معاني انشائية لا تقف عند حد الزخرفة التكعيبية الظاهرة ، بل تتعداها الى ما يمكن احتسابه في جملة الابداعات المعمارية التي ظلت تحتفظ بخصائص فنية جمالية ، بجانب تحقيقها

للوظائف الانشائية الصرف . فقد ساعدت المقرنصات على احداث التدرج من سطح الى آخر وقامت بدور الكوابيل في الأعمال الحجرية ، غير أن الدقة والمهارة التي تتطلبها صناعة فنية كهذه تتمثل في تركيب ورصف القطع الآجرية الصغيرة ذات السطوح التكعيبية ، إنما يمكن الوصول اليها بطريق المهارة والدقة والصبر لتحقيق أرفع المستويات الجمالية لمادة الآجر ، مما اعتبره بعض الدارسين ، بسوء فهم ، عمليات زخرفية محض ، يراد بها إثراء السطوح بالمحسنات الشكلية حباً للزهو والبهرجة .

إن الجوانب الثلاث التي يمكن أن يقوم عليها فن العمارة بشكل عام هي : التكامل الوظيفي للبناء وحصانة القوام الانشائي وتوفر عنصر الجمال . وهذه القواعد والأسس التي وصفها فيتروفيوس في عهد الامبراطورية الرومانية وما زال يؤكدها اليوم طليعة المعماريين في العصر الحديث ، هي التي ما زالت متوافرة في العمارة الاسلامية في بغداد ، ولعل فقدان الكثير من تلك المعالم قد أثر تأثيراً واضحاً على عدم تكامل الدراسات التحليلية لذلك التراث الحضاري الواسع .

ومن خصائص العمارة البغدادية استعمال الخزف الملون في تزيين الجدران والمداخل وأقواس الأبواب وغيرها . فقد ازدهرت صناعة الخزف في العصر العباسي ، وانتشرت من العراق الى ايران ثم تطورت هناك واستطاعت أن تحافظ على استمرار تقاليدها الموروثة في كل من الكاظمية وكربلاء حتى اليوم . ويدخل في إطار هذا الفن الجميل عنصر الخط العربي الذي يؤلف الشكل الأمثل لاعتناق الكلمة القرآنية المجيدة بالشكل الزخرفي المستمد من تجريدات الطبيعة .

إن فن (الأرابسك) يعتبر من الفنون الاسلامية ذات الصفة التعبيرية المجردة . فهو فن فلسفي لا يؤكد الذاتية الفردية بل يتحرر من قيودها عن طريق اللغة المجردة الشاملة التي يطلقها من محور النفس ويحققها في التشكيل . وهو بهذا يقف في اتجاه نظري ديني خاص يختلف كل الاختلاف عن الاتجاه الدنيوي الذي يقف عليه الفن الأوربي من الانسان والحياة والأشكال والظواهر .

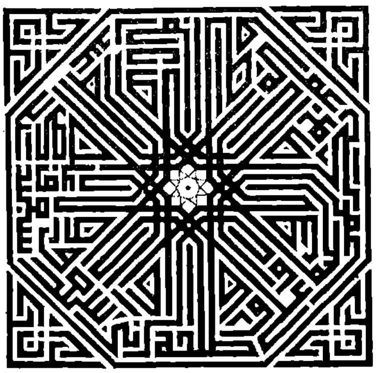
ولقد رافقت الزخرفة الكتابية الزخرفة الهندسية في البناء فاتحدتا لابراز التموج والتعارض القائم بين الظل والضوء ، ولم يقتصر استعمالهما في الأبنية ، بل تعداهما الى الصناعات الأخرى ، كصناعات الحفر في الخشب والصفر والمعادن الأخرى .

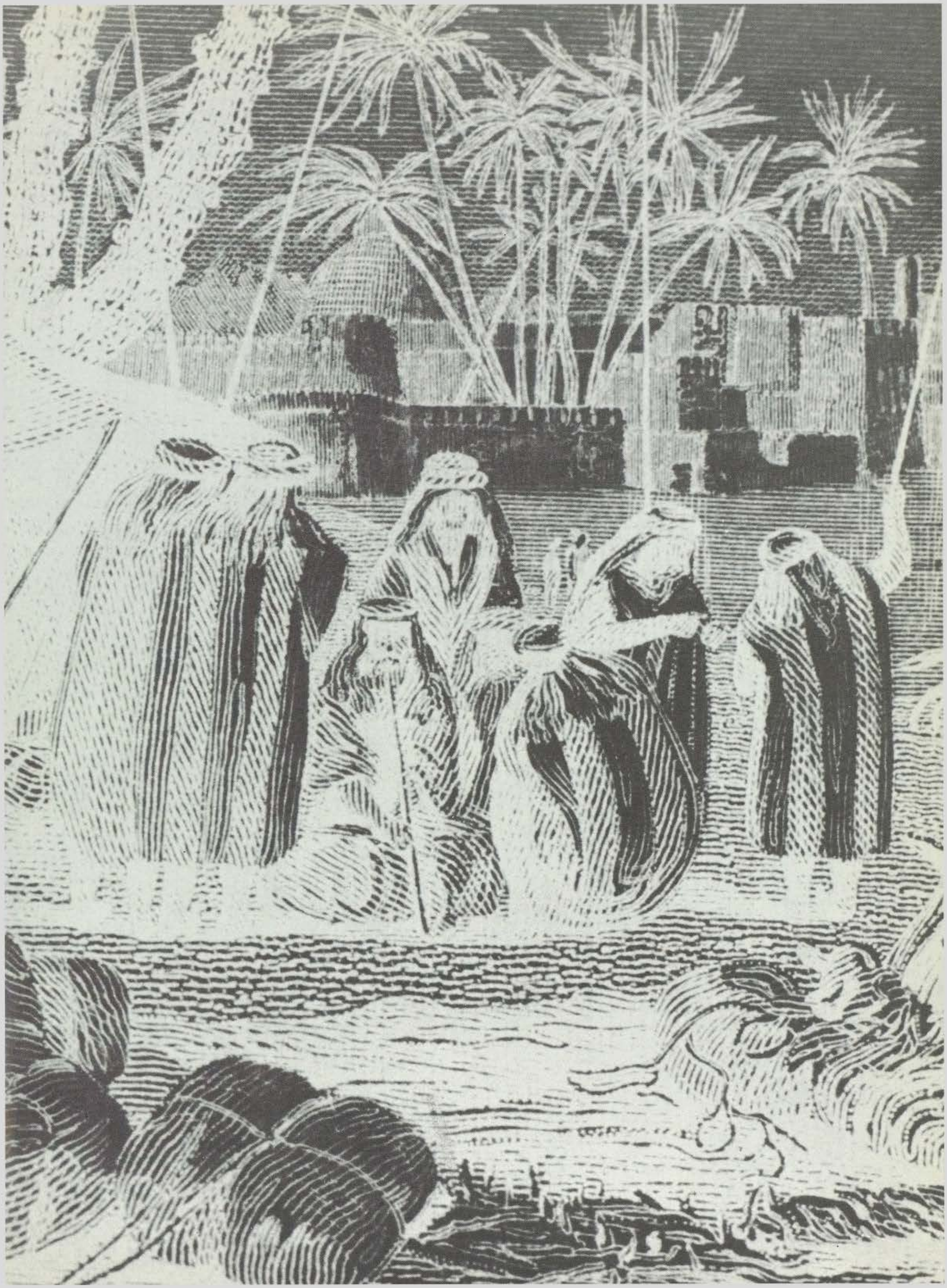
ويستدل من طابع الزخرفة العباسية في بغداد أن مقوماتها وجذورها الحضارية مستمدة من ماضيها وما انتقل اليها بفضل تمدنها الاسلامي واستجابة لشعوب الرسالة الاسلامية في ازدهار مدنيتها أن أنجزت وأخرجت في صناعاتها فناً جديداً له خصائص محلية تختلف عما سبقه من أساليب الفن الساساني الذي استمد منه الكثير ولكن لم يتمثل في الفن الجديد السطوة والسلطة للقوة الفردية للخصائص الساسانية التي سبقته .

ولم تنحصر العمائر البغدادية في استعمال المواد المحلية فتشير لنا المصادر التاريخية على أنها مركز استيراد لكافة المواد المتوفرة في العالم القديم وأن مظاهر ترف البغداديين وتنافسهم في تشييد القصور وزخرفتها حملتهم على جلب المواد البنائية من الخارج . وتشير الأوصاف لمجالس القصور وما حوته في بنائها وتكسية أرضيتها ومواد حيطانها الى استعمال الرخام والأحجار الملونة والأخشاب النادرة وغير ذلك .

فقد جاء في ألف ليلة وليلة وصف لقصر من قصور بغداد بأن : « أرضه وأساطينه وحيطانه مرخمة بأنواع الرخام وهو منقوش بأنواع النقوش الرومية » .

على أن هذه لا شك اقتصرت على بيوت الأغنياء والوجهاء وأظهرت مدى الترف الذي سبب أخيراً لبغداد تسيبها في مدنية دنيوية زاهرة فصح عليها ما قاله ابن خلدون فيما يؤول اليه العمران البشري وملاذ الافراط في الترف .





تطور فن العمارة في بغداد

ملحق الرسوم والتصاوير الايضاحية

تتضح خصائص التراث المعماري المتميز بـ « الطابع العراقي البغـدادي » في العرض التصويري الذي تضمنه هذا الملحق . وبالرغم من زوال كثير من المعالم الحضارية لهـذه المدينة الخالدة ، نتيجة لمـا أصابها من كوارث وأحـداث تفوق حد الوصف ، فقد مثلت البقية الباقية من آثارها المعمارية ، وفنونها الريازية ، ظاهرة استمرار ذلك التراث ، وبقاء تقاليده المعمارية التي استـمدت وجودها من الحاجات الأساسية للسكان ، ومن الأغراض التصميمية لتلك المنشآت . غير أن أهمية الصناعات الفنية التكميلية ، تبرز بشكل واضح في هذه الميادين باعتبارها العنصر الأساس في تكوين شخصية الأبنية البغــدادية ، التي يقترن غناها المعماري بما استهلكته من مواد ذات قابليات عالية وخصائص طبيعية فريدة ، استطاع المعماري البغـدادي أن يستفيد منها في بلورة غاياته الجمالية الى أقصى حد ممكن .

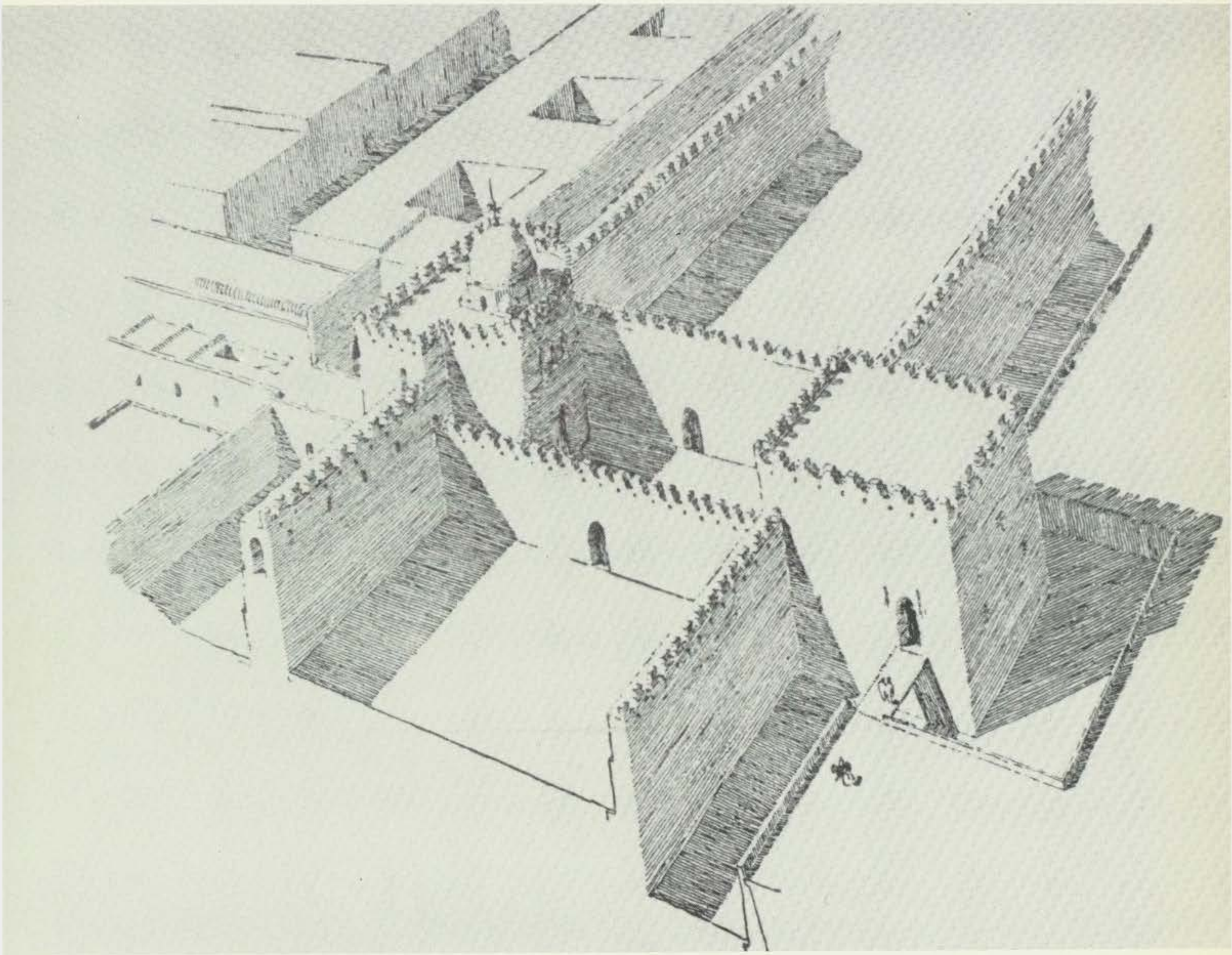
إن إزدهار فن الزخرفة في العمارة البغدادية ، يقترن ـــ في العادة ـــ بالوظائف الانشائيـة التي تمتلكها تلك المـادة ، كما يقترن بالمداليـل العمليـة لاستخدامها ، وهذا ما جعل منها نموذجاً فنياً عالياً للعمارة العربية في هـــذه الأصقاع ، كما جعـل منها في نفس الوقت ، نموذجاً عملياً تضمن كل الغايات الاقتصادية والحياتيـة الأخرى . فالزخرفة التي نلاحظها في الأعمـال الآجرية والخشبية للأبنية البغدادية ، تعكس هذه الظاهرة بوضوح تام ، وتبدو كما لو كانت ظاهرة تشكيلية عالية التكوين ، عميقة المضمون .

وهكذا يبدو للدارس المتأمل أن استمرارية التقاليد المعمارية ، متأت ـــ الى حد كبير ـــ من استمرار تلك الصناعات التي ظلت مقترنة أبداً بأساليب البناء التقليدية ، واستخدام المواد المتوفرة محلياً . كما نجد ذلك في فنون: الرصف والتكسية ، والأرابسك في الآجر . تلك الفنون التي تميزت بها المدرسة الاسلامية للعمارة البغدادية ومنحتها شخصيتها المستقلة بين سائر الفنون الاسلامية الأخرى.

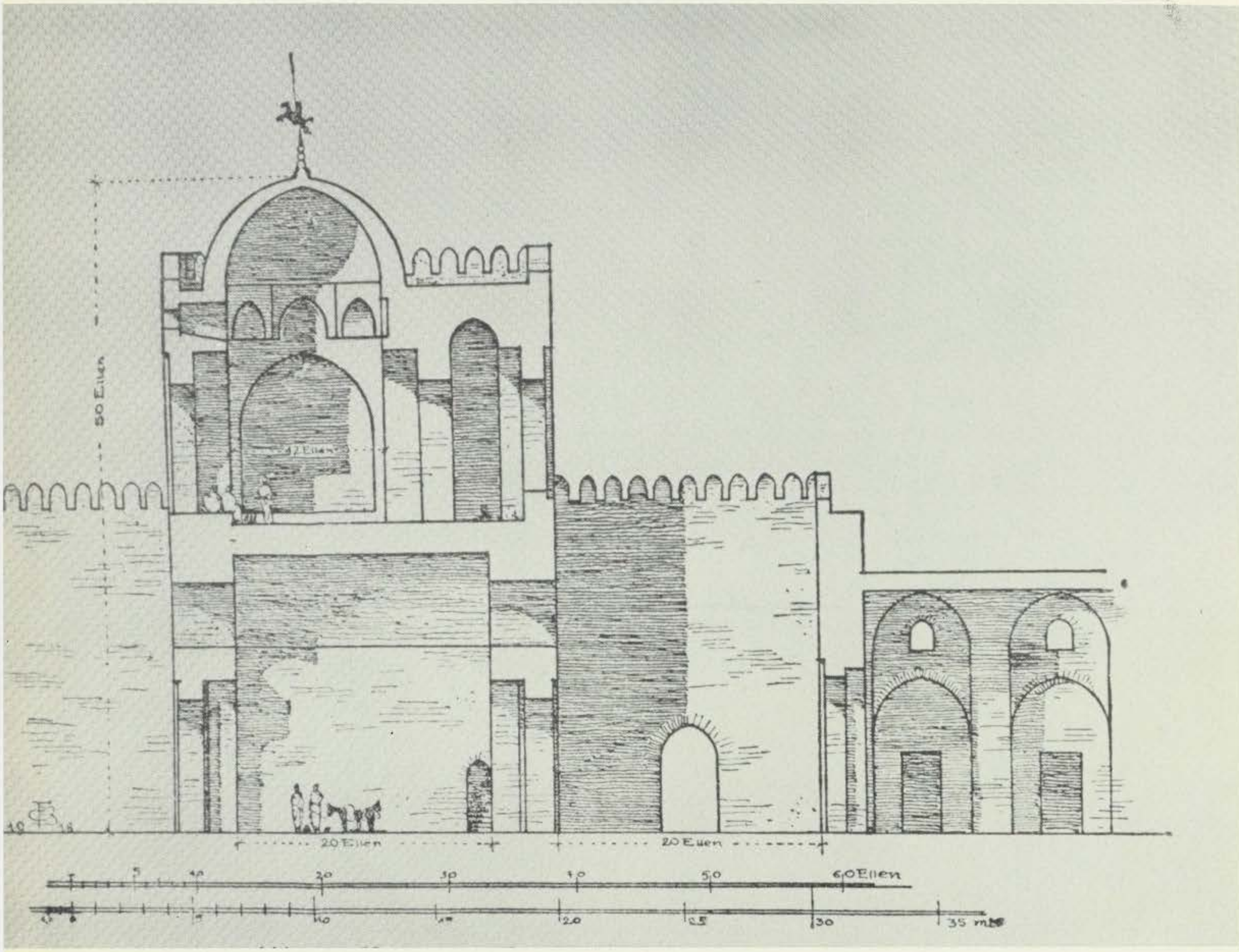
المعالم التاريخية المعمارية في بغداد

إن هذة الصور والرسوم ، توضح الى حد كبير ، مدى ما يحملة الأرث المعماري البغدادي من خصائص وميزات ومقاييس ، ذلك الأرث الخالد الذي عفى الزمان على اكثر شواهده ، ولم يبق منها اليوم إلا هذه الأمثلة التي اجتمعت فيها — على قلتها — كل عناصر الجمال والابداع .

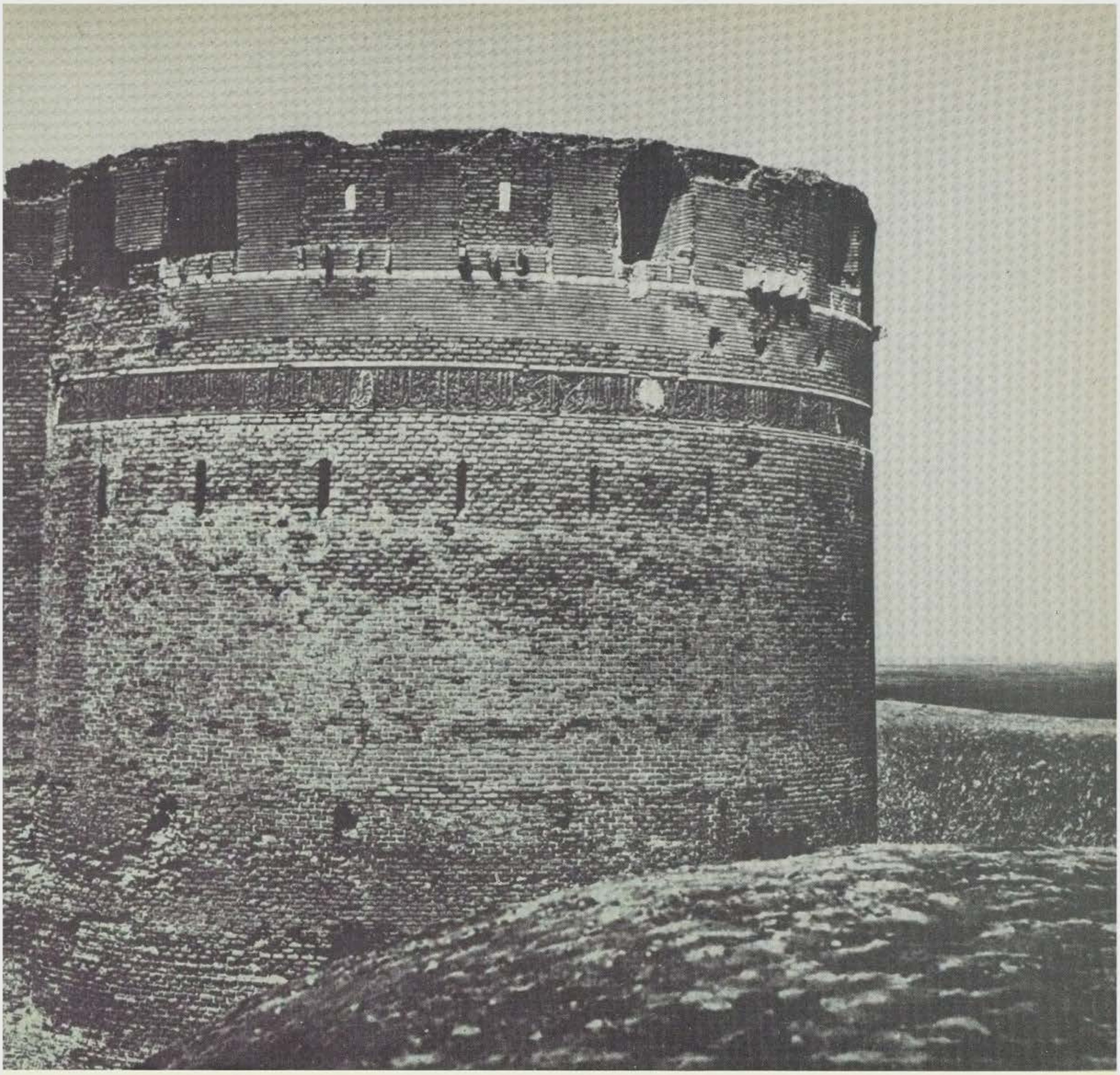
ففي أبنيـة المسـاجد ، وبعض العمائر التاريخية الباقية في بغـداد ، تتجمع الشواهد الحية لممارسات النشاط الفني والتفوق الحرفي للمعمار البغـدادي الذي استطاع أن يؤكد قدرته المثلى في البناء ، كما استطاع أن يضع للأجيال مقاييسه الجمالية التي تضمنت في جوهرها الأمتثال الكلي لعوامل الزمان وحدود المكان .



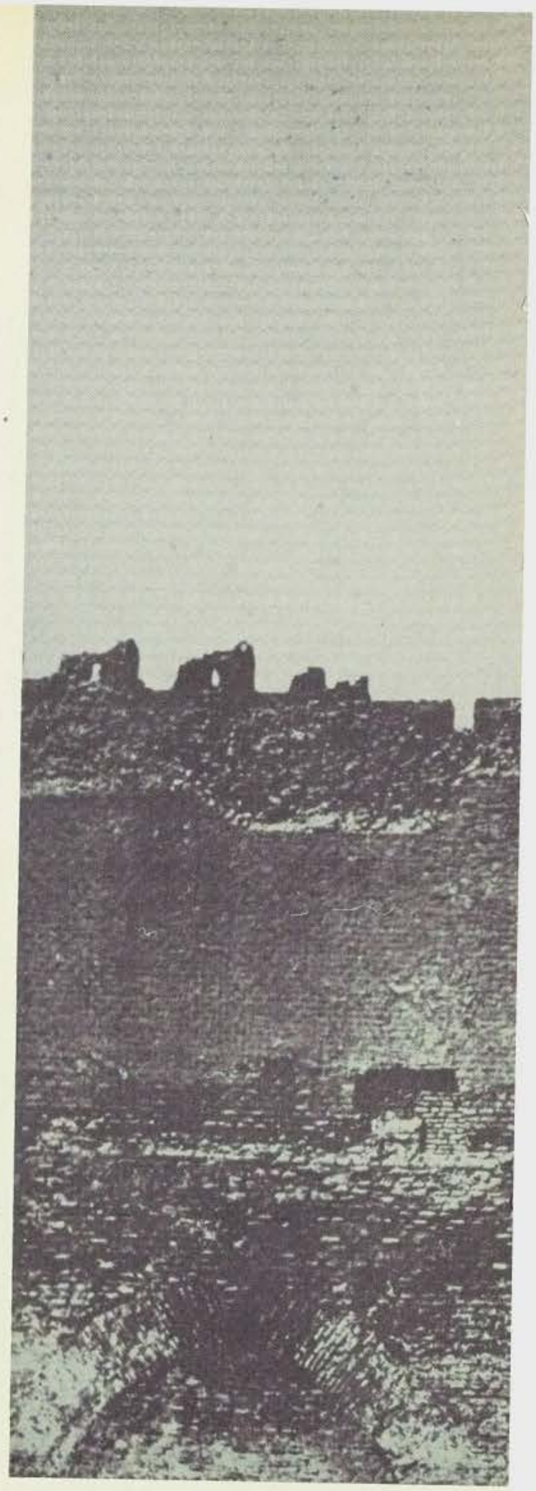
رسم تصويري لمدخل أسوار مدينة بغداد المدورة

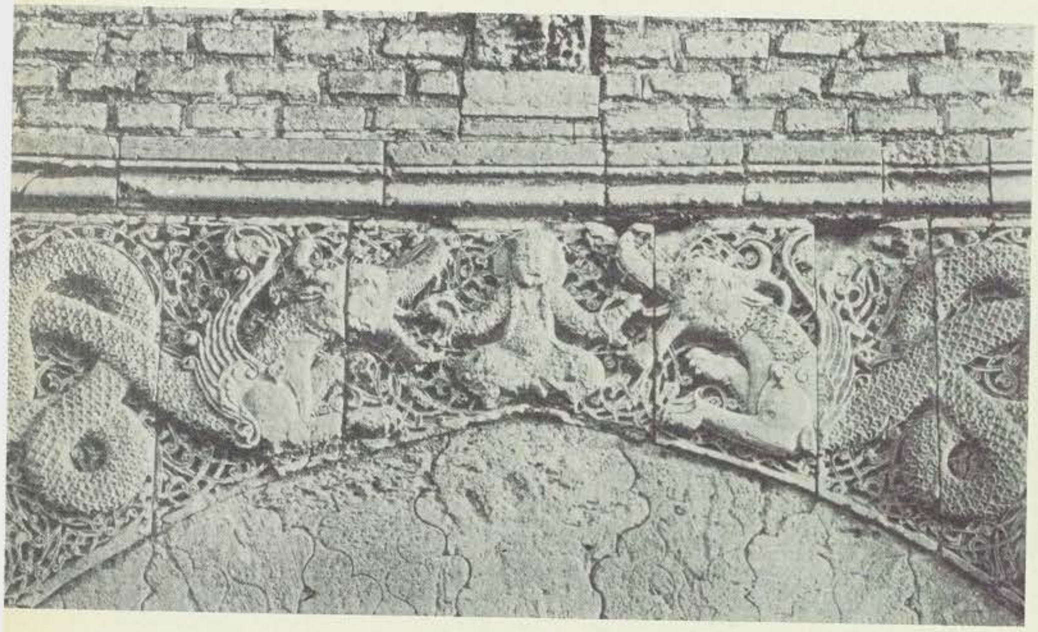


مقطع مدخل السور لمدينة بغداد المدورة

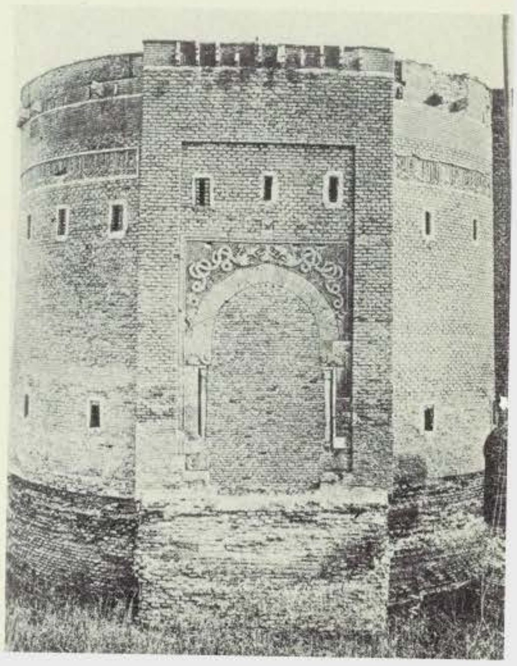


من أبواب سور بغداد الشرقية (باب الطلسم)

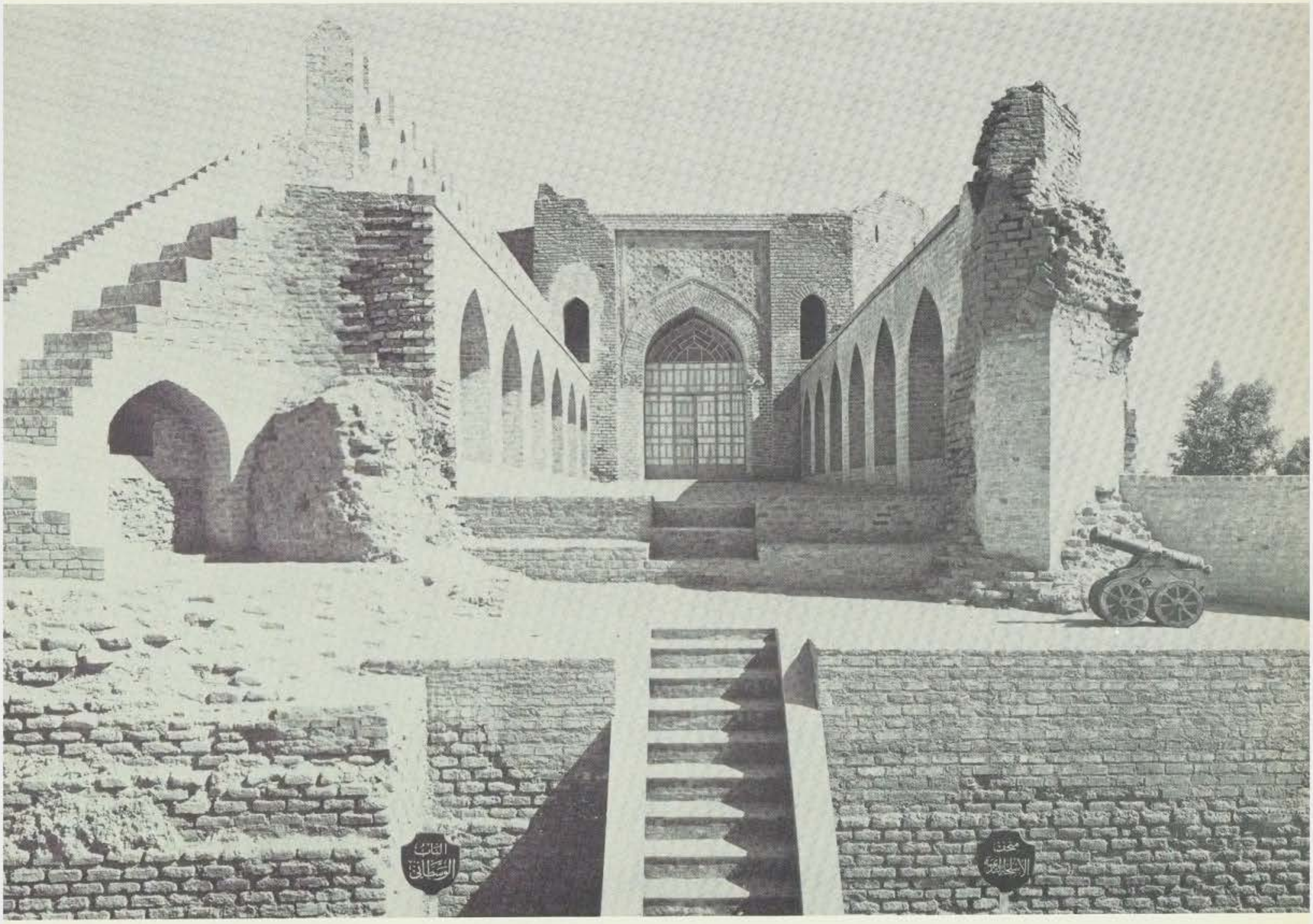




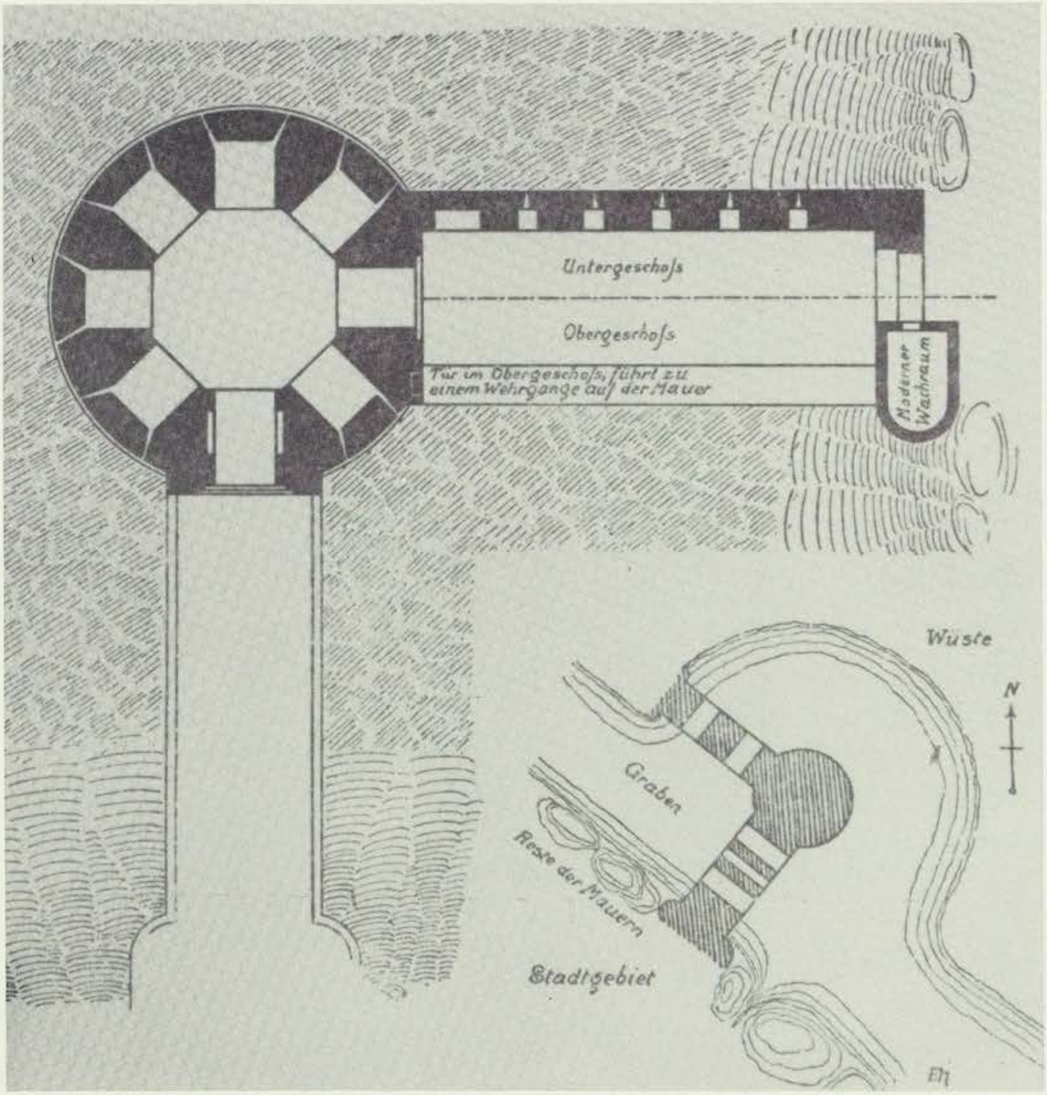
تفاصيل الزخرفة والنحت الآجري في مدخل البوابة « باب الطلسم »



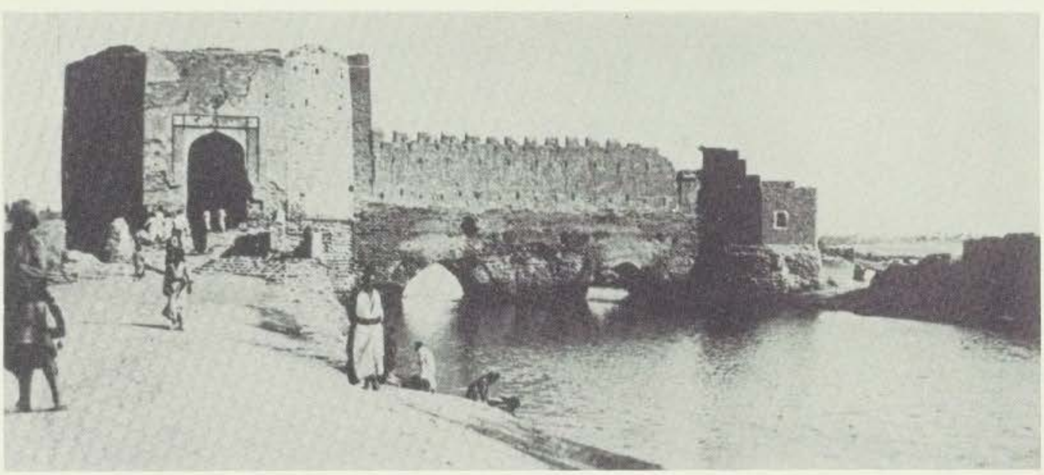
باب الحلبة ويعرف
باسم باب الطلسم



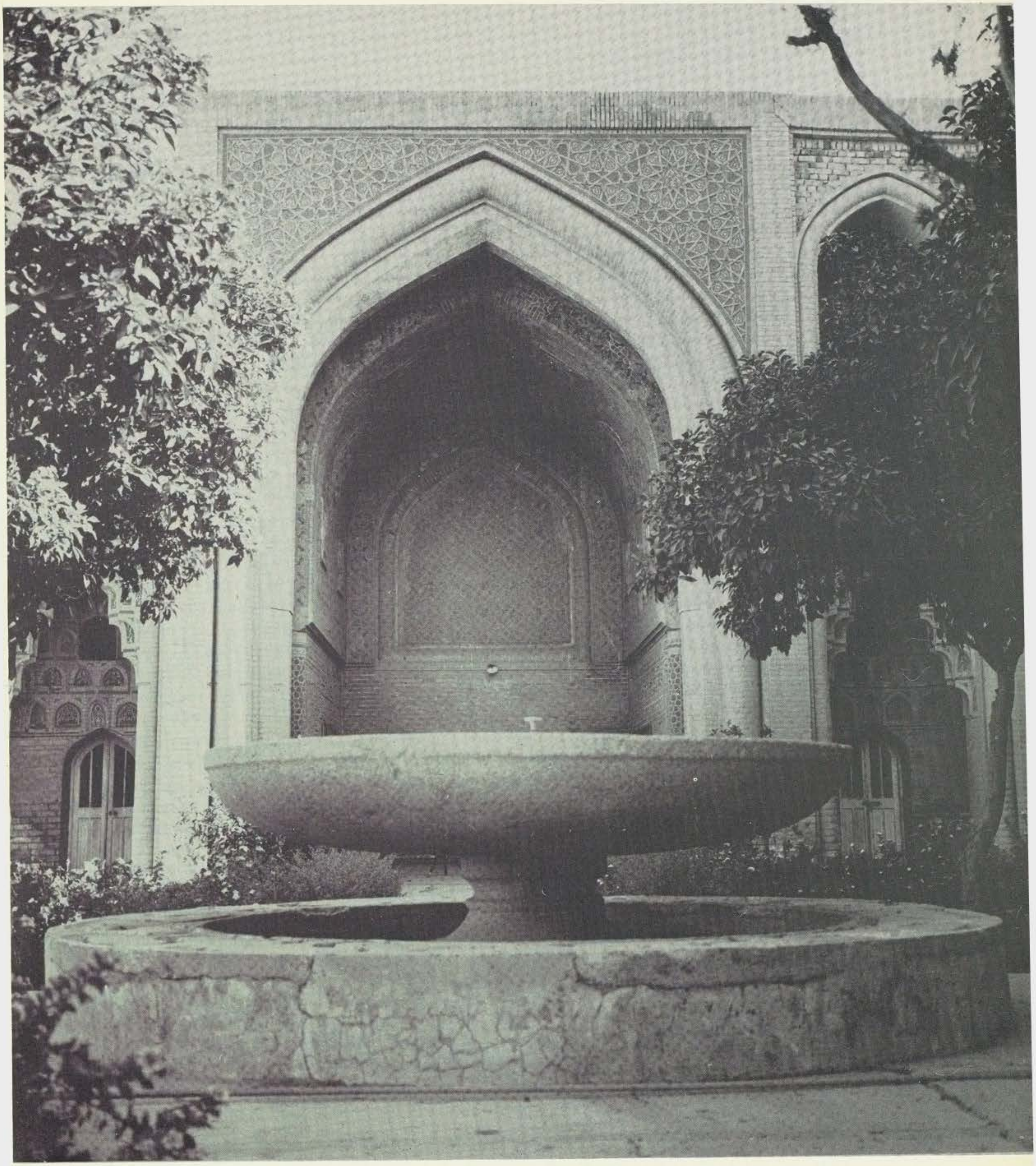
الباب الوسطاني بعد اجراء ترميمها بالوضع الحالي .



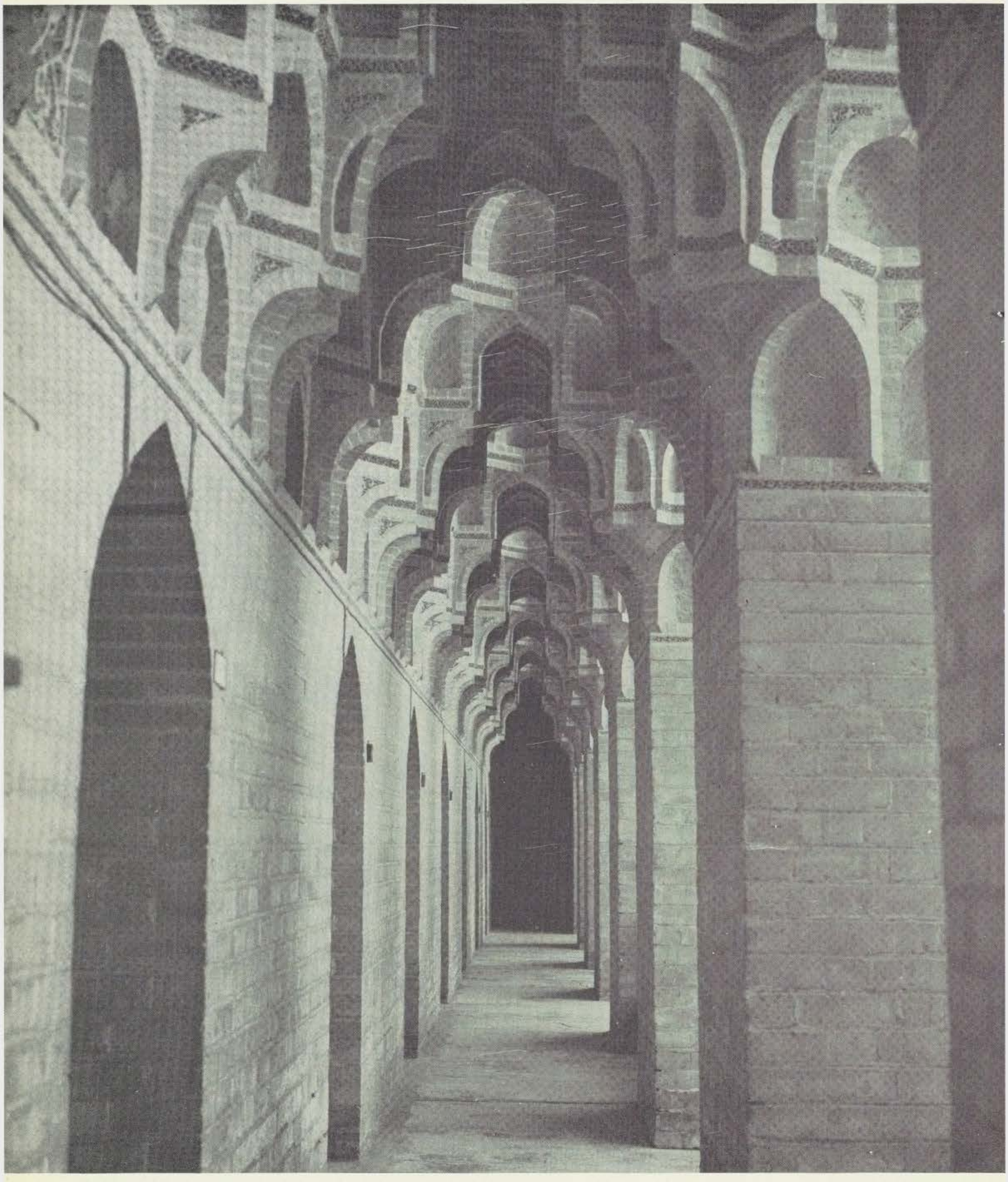
مخطط الباب
الوسطاني



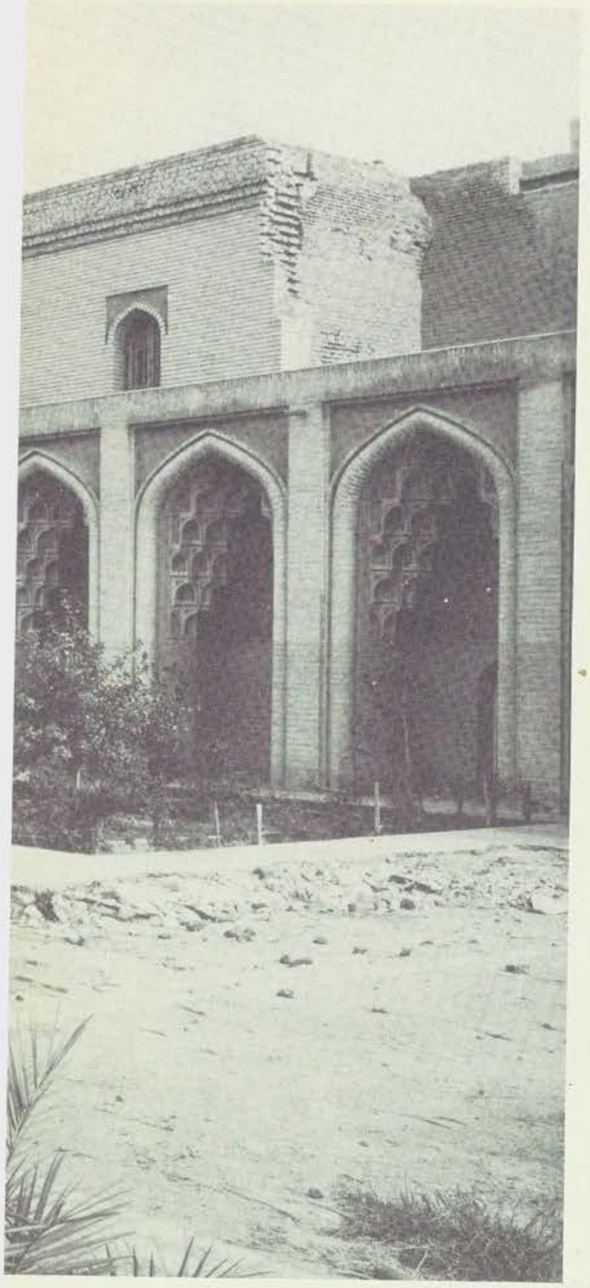
باب الظفرية
« الباب الوسطاني »

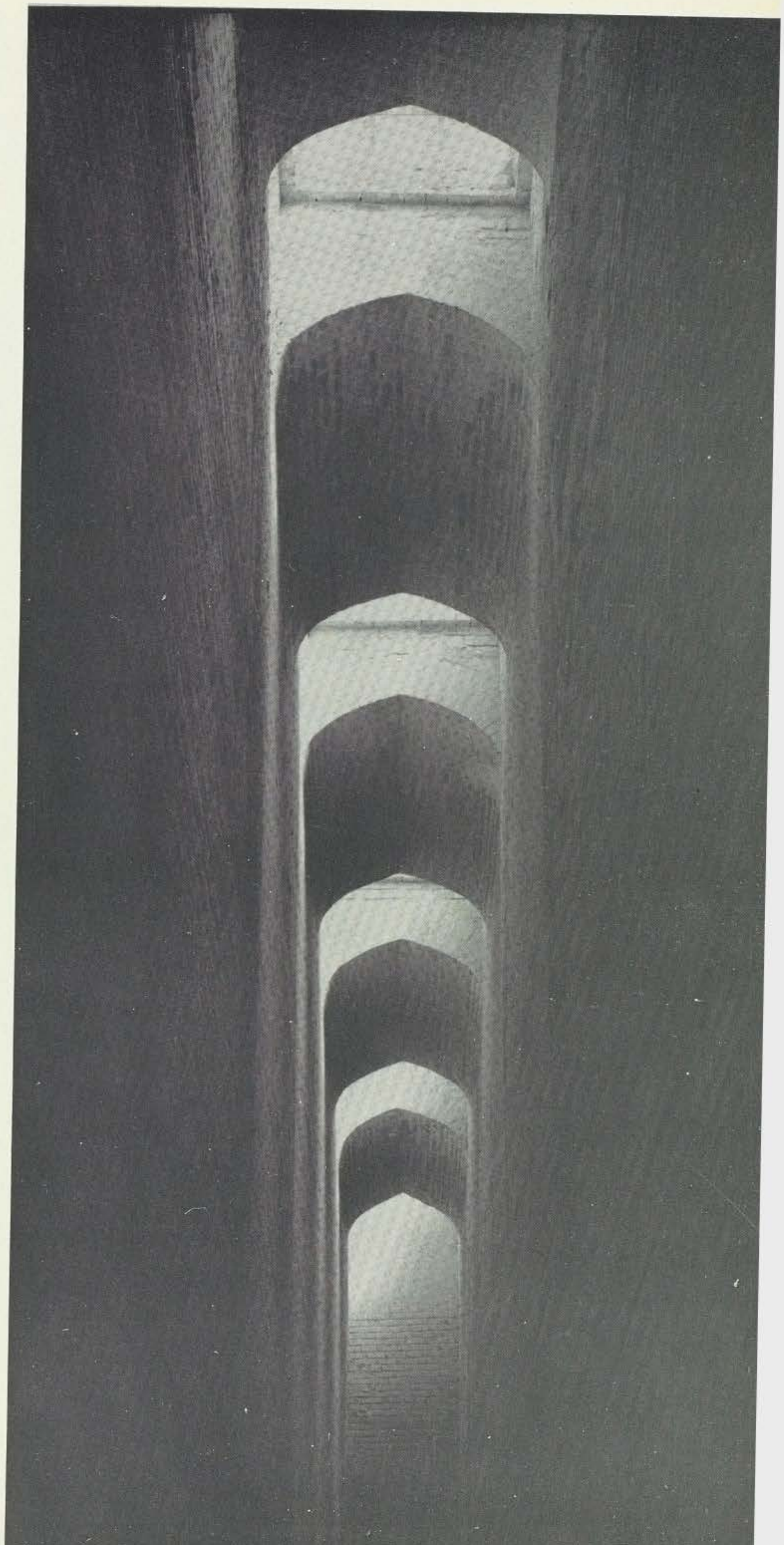


منظور الايوان الوسطي في القصر العباسي

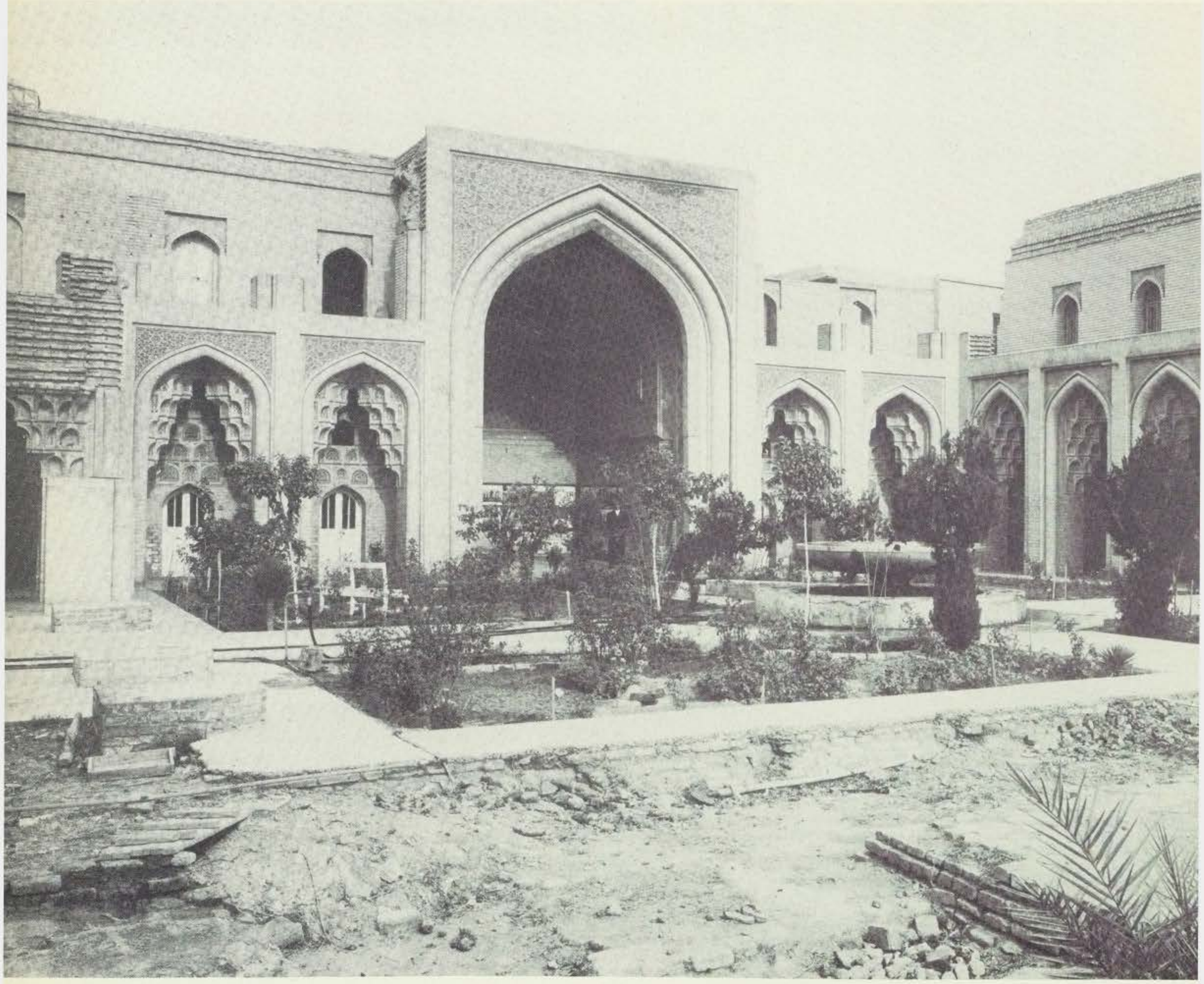


منظور عقود الرواق للساحة الوسطية ــ « القصر العباسي »





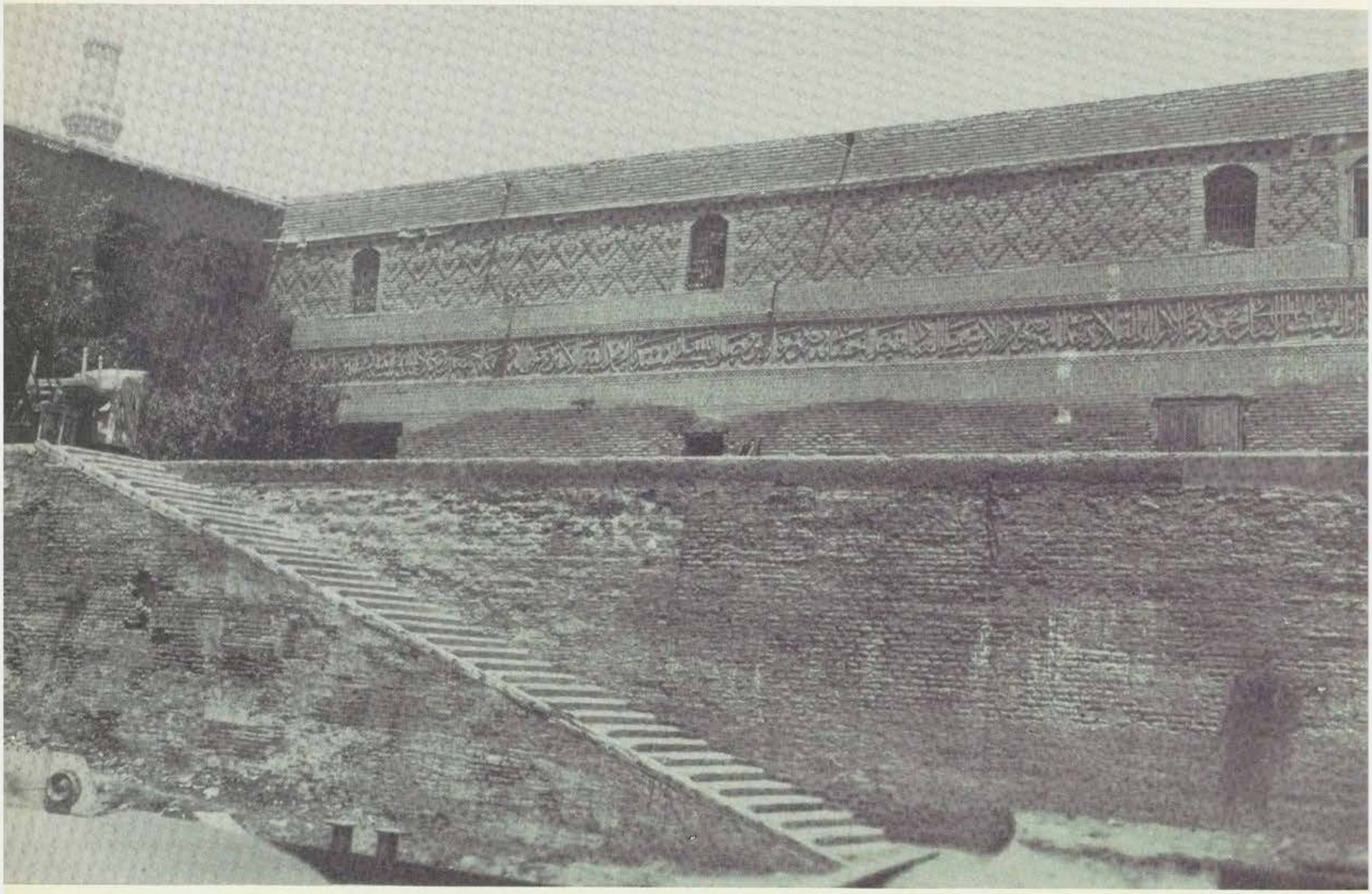
منظور الممر الداخلي
لغرف « القصر العباسي »



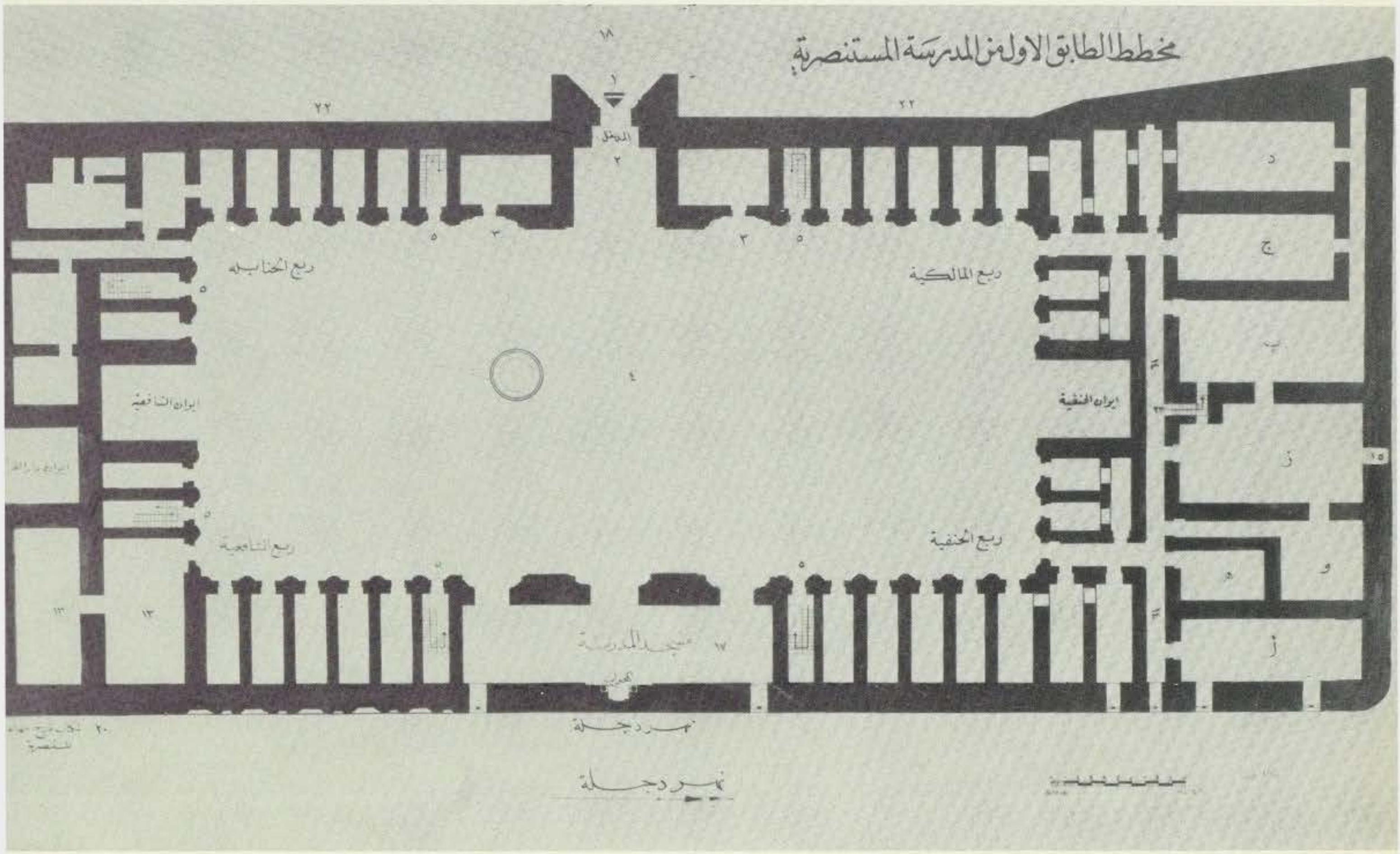
من المعالم التاريخية البغدادية الباقية المبنى المعروف بـ «القصر العباسي» أو دار المسناة الناصرية ــ منظور الساحة الداخلية



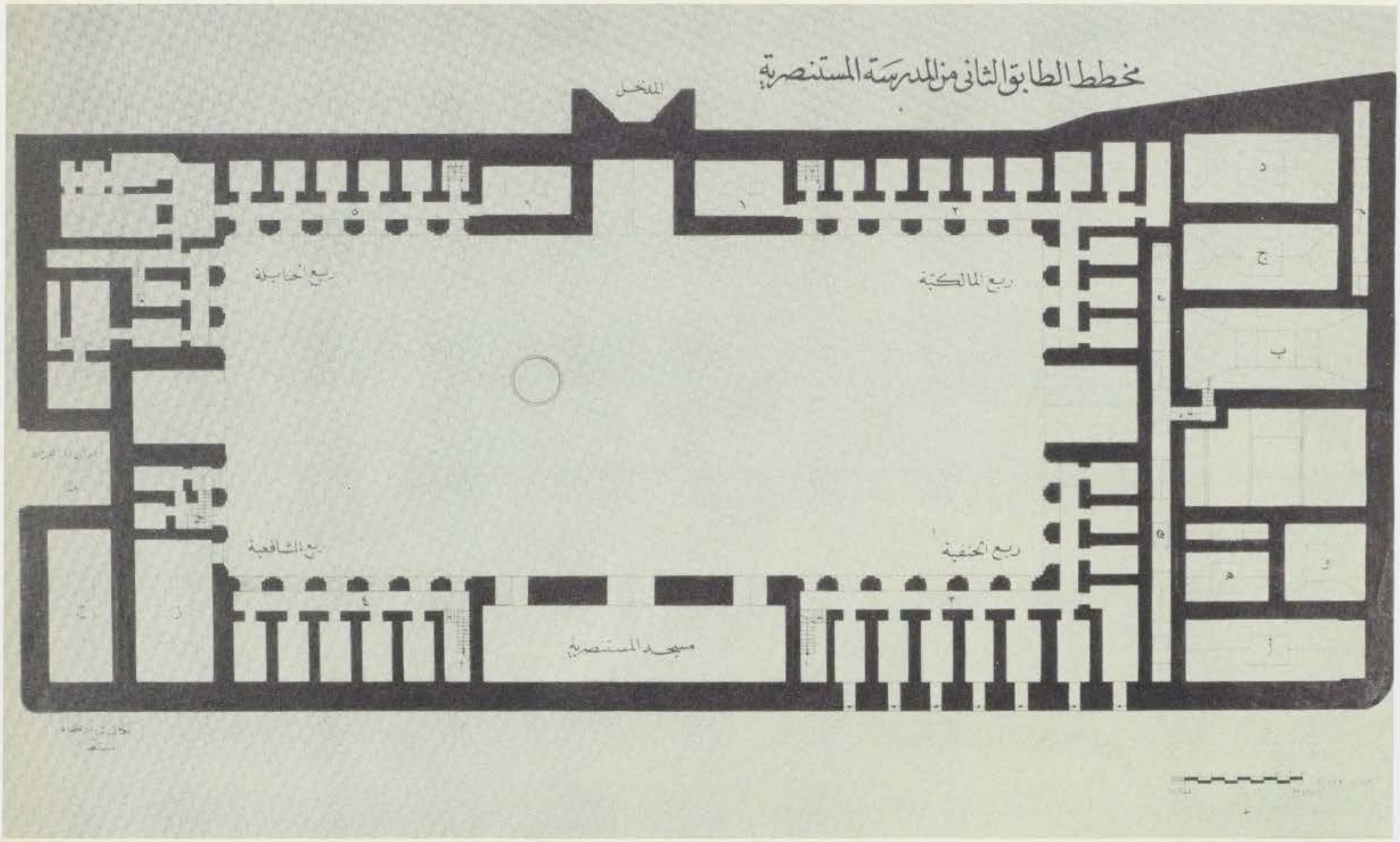
تفاصيل سقف ايوان « القصر العباسي »



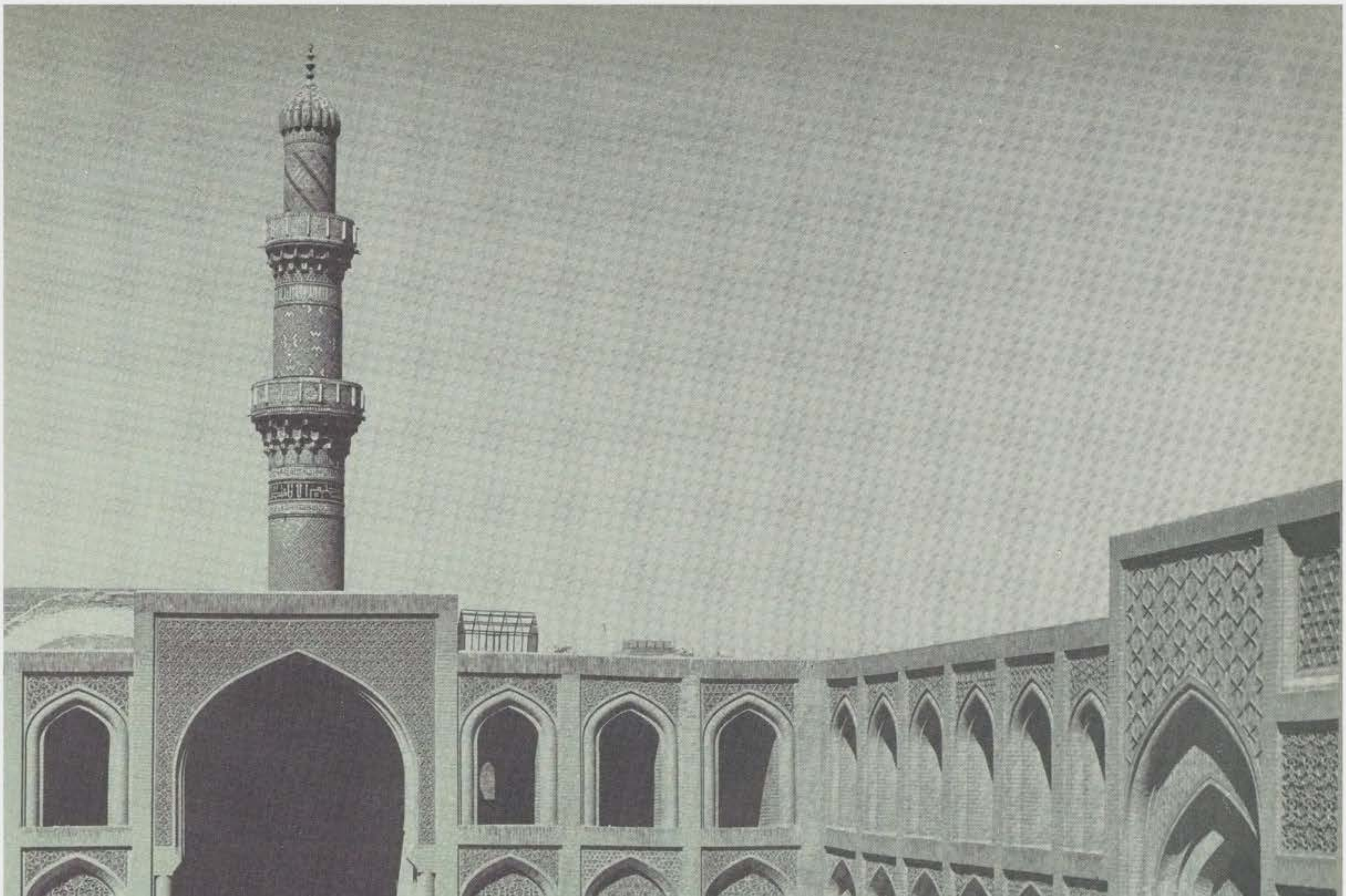
مدرسة المستنصرية ـــ الواجهة الجنوبية الغربية على ساحل دجلة



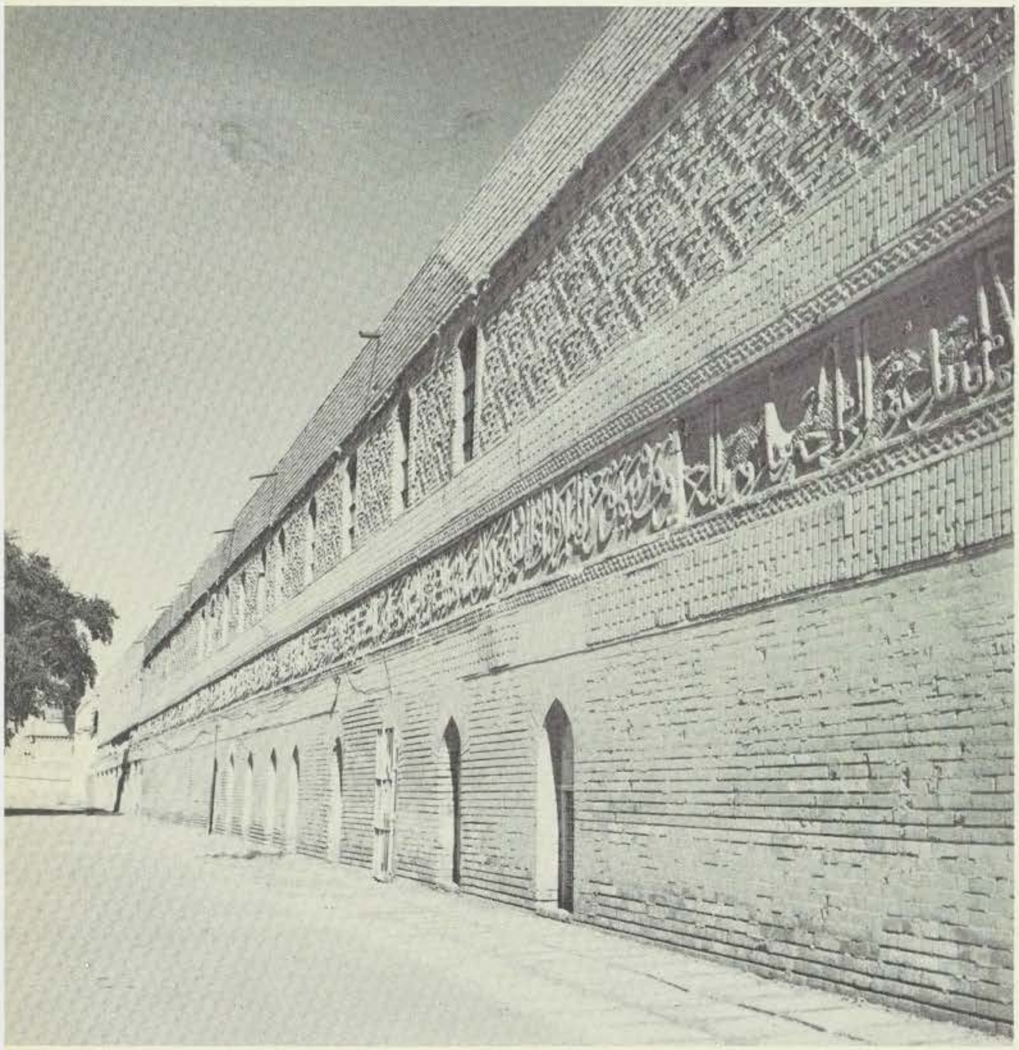
مخطط الطابق الأرضي لمدرسة المستنصرية

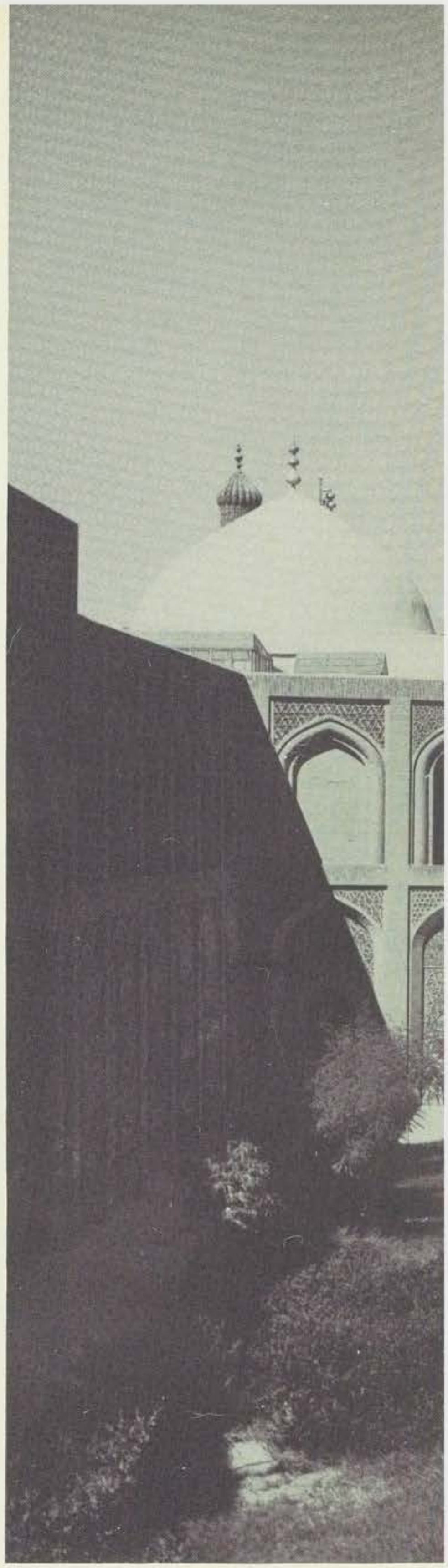


مخطط الطابق الثاني لمدرسة المستنصرية

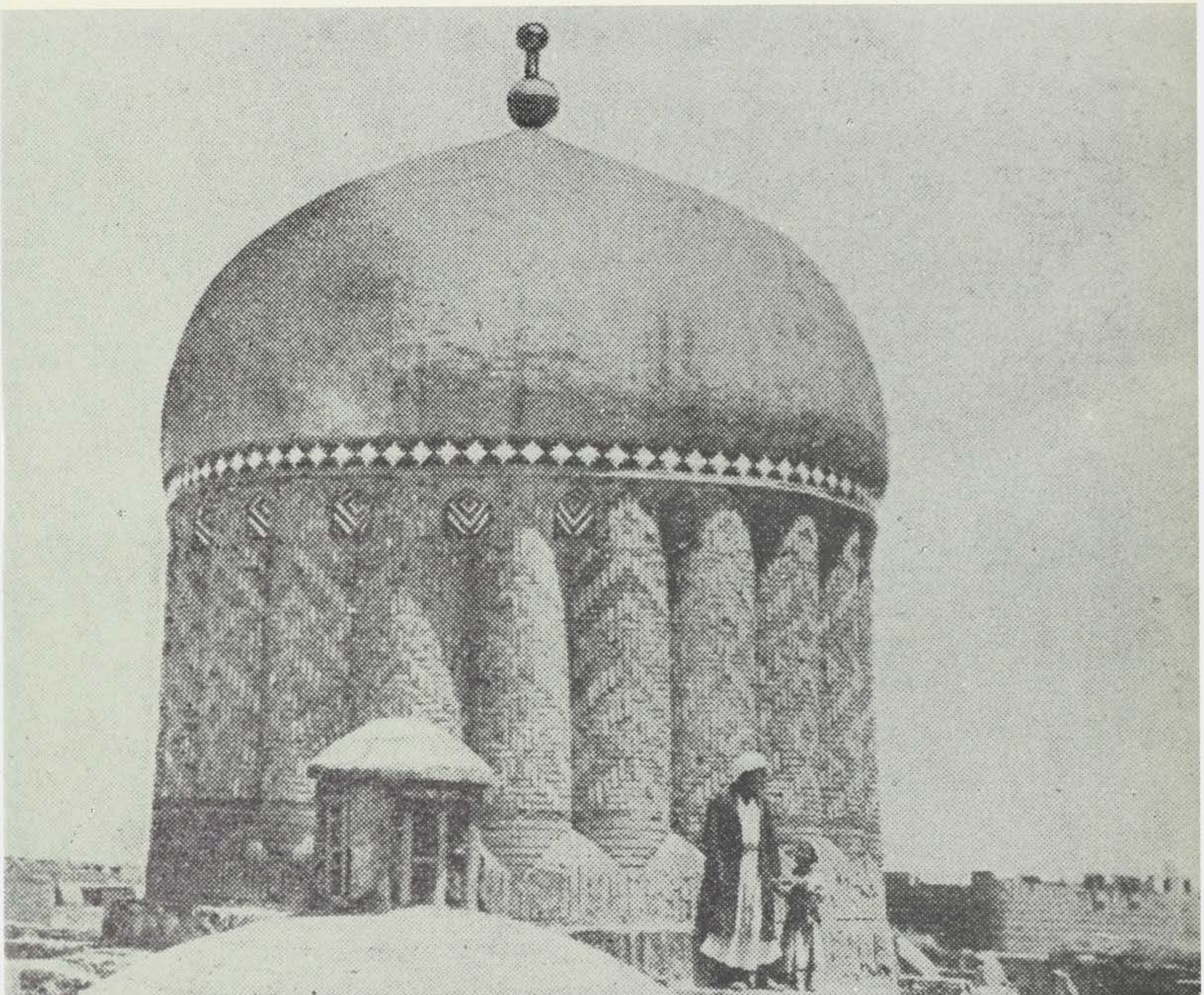


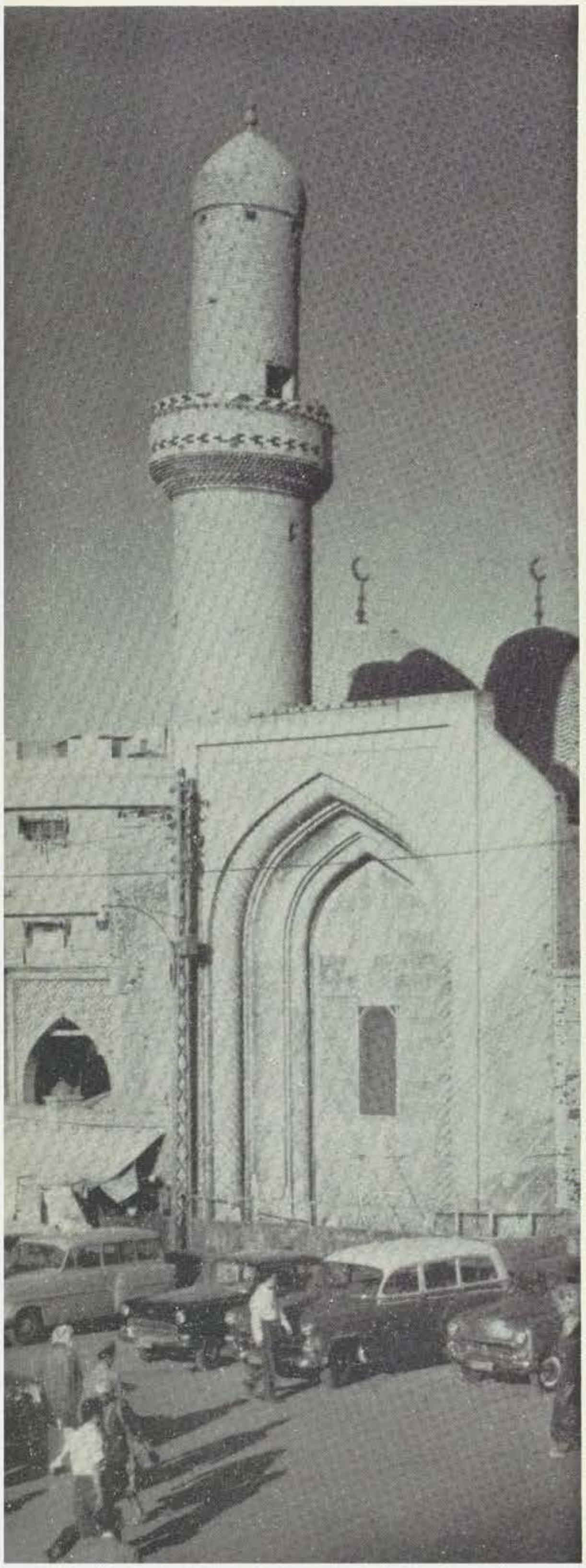
منظور الساحة الداخلية لمدرسة المستنصرية





تفاصيل لواجهة جدار مدرسة المستنصرية

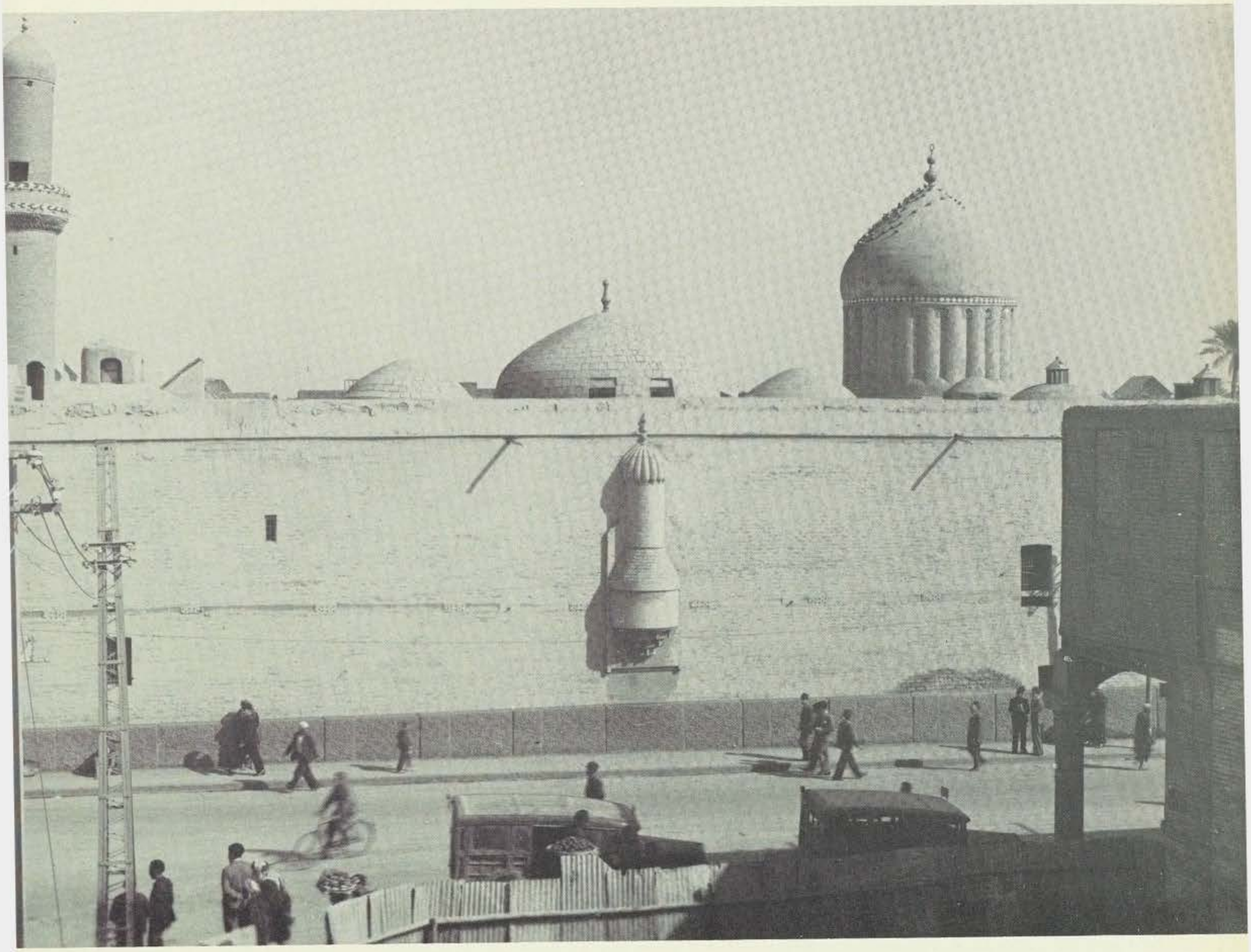




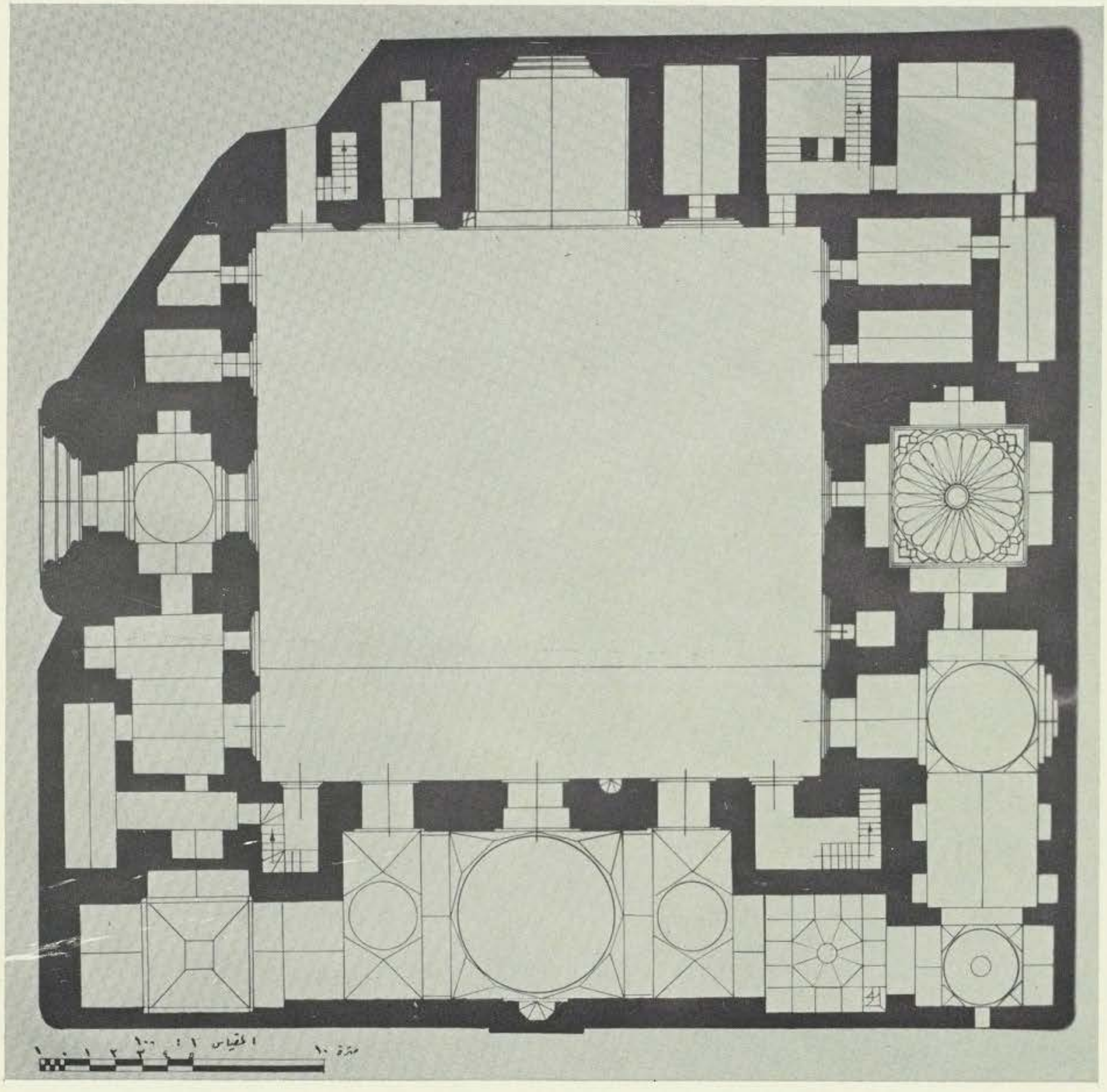
المدرسة المرجانية
بوابة المدخل
ومئذنة مسجد
المدرسة



قبة المدرسة المرجانية

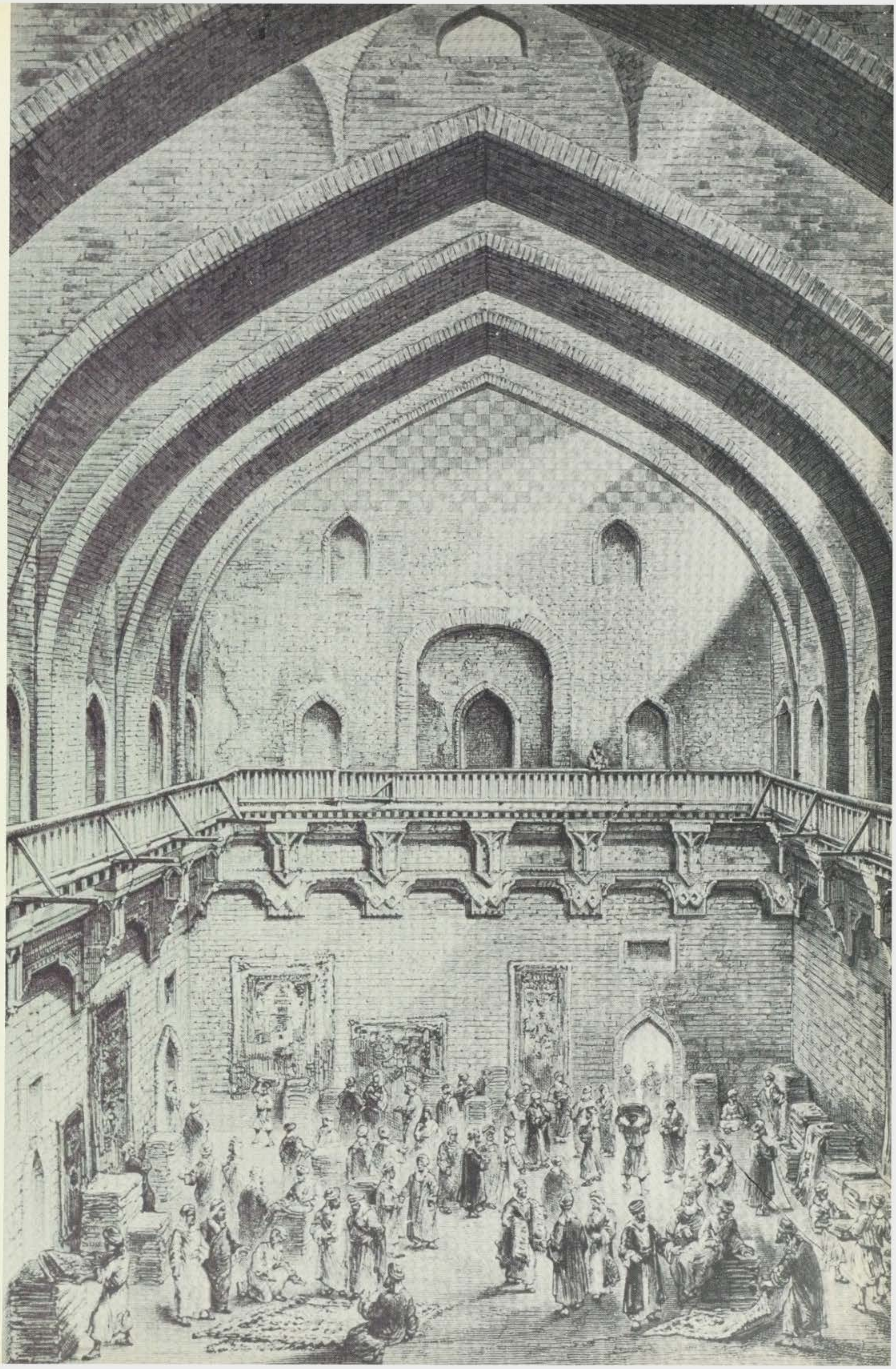


منظور جدار وقباب المدرسة قبل الهدم الأخير

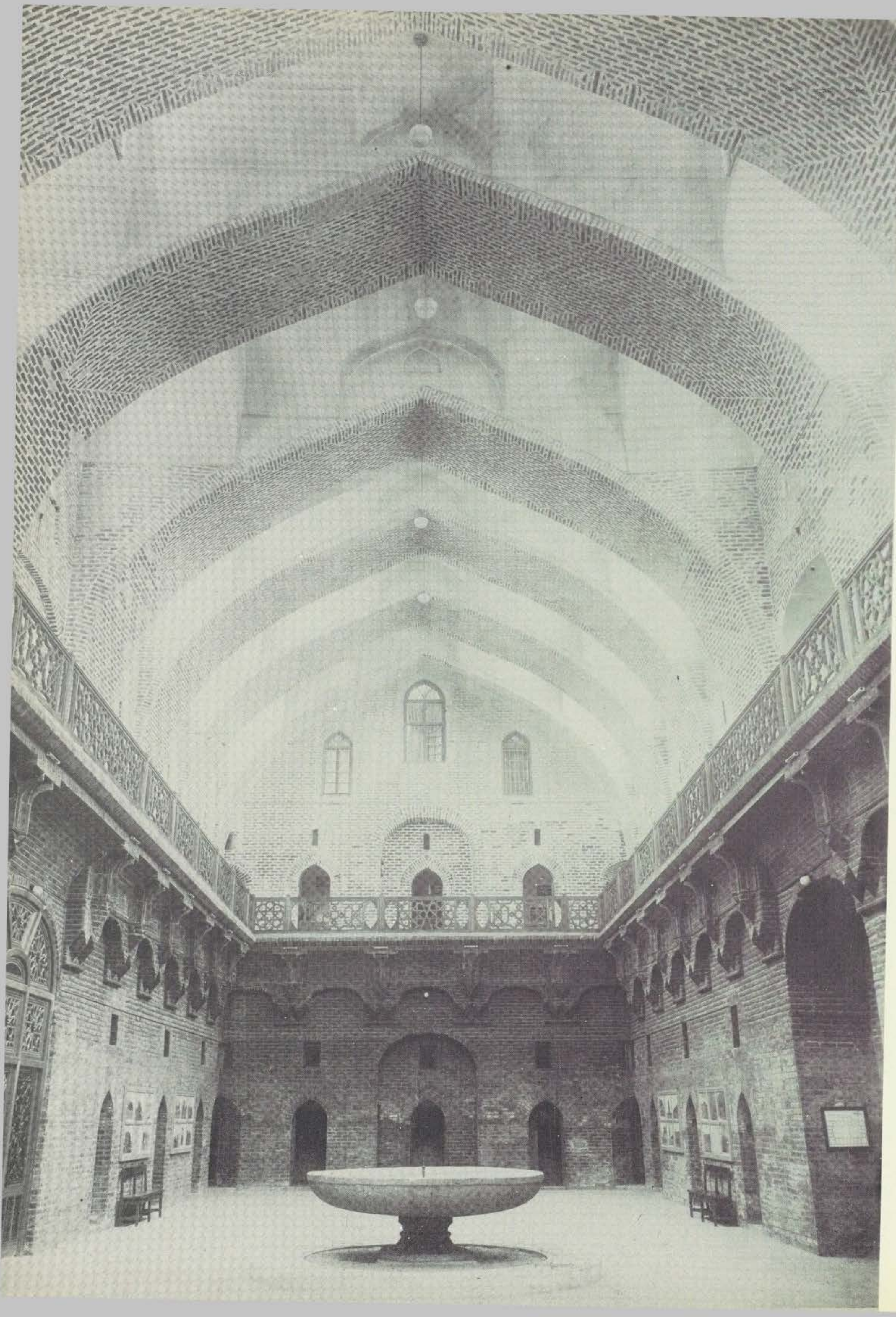




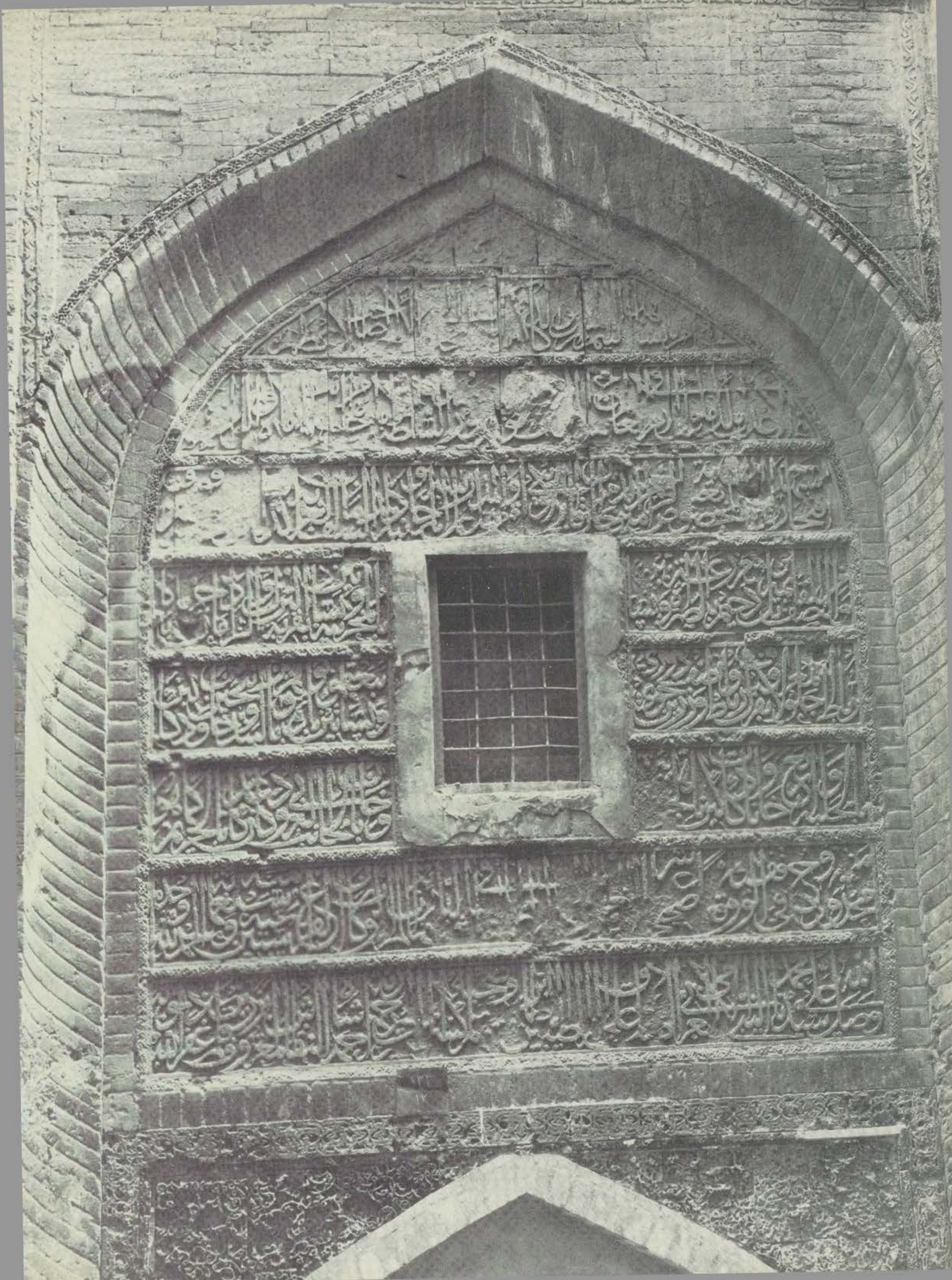
مخطط الطابق الأرضي للمدرسة المرجانية

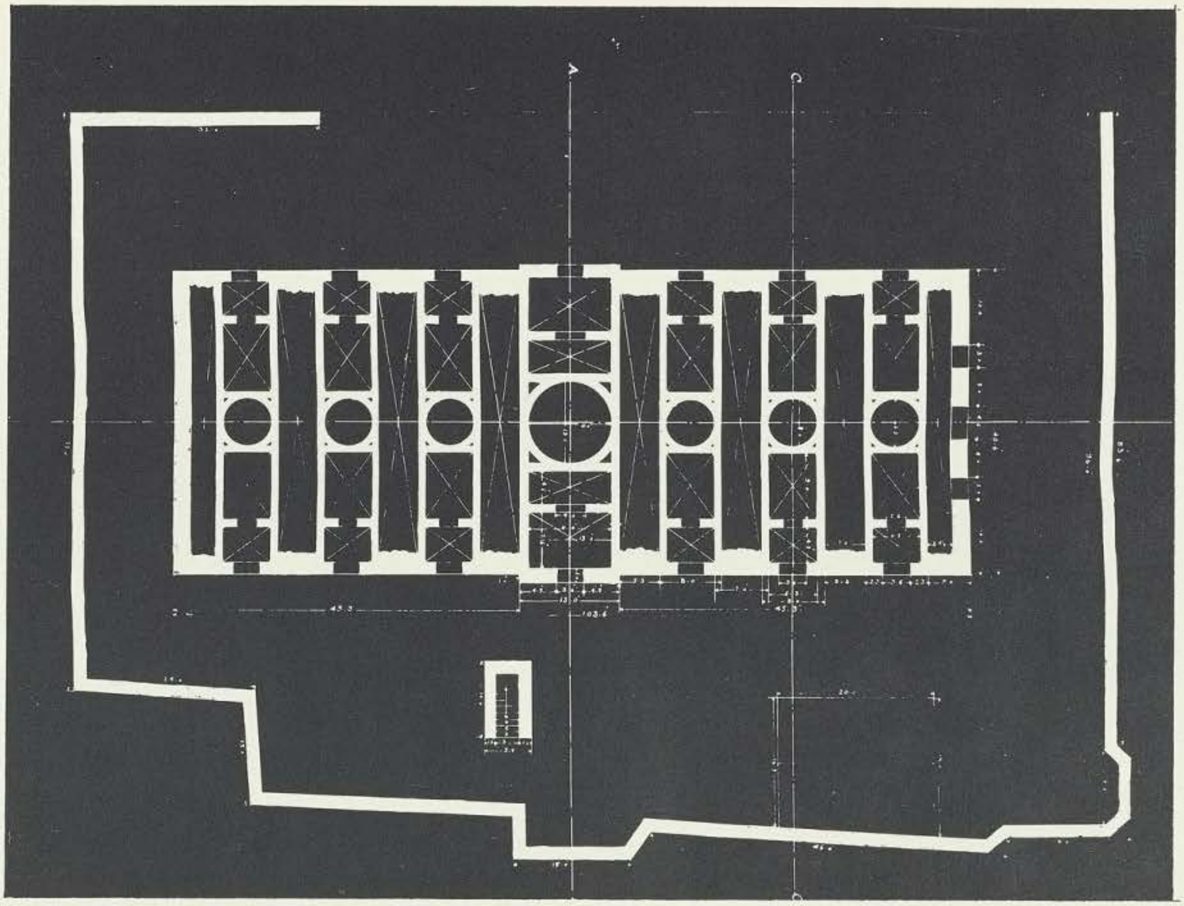


خان مرجان « خان الأورطة » كما صوره (٧٦٠هـ/١٣٥٨م) السائحون الى بغداد

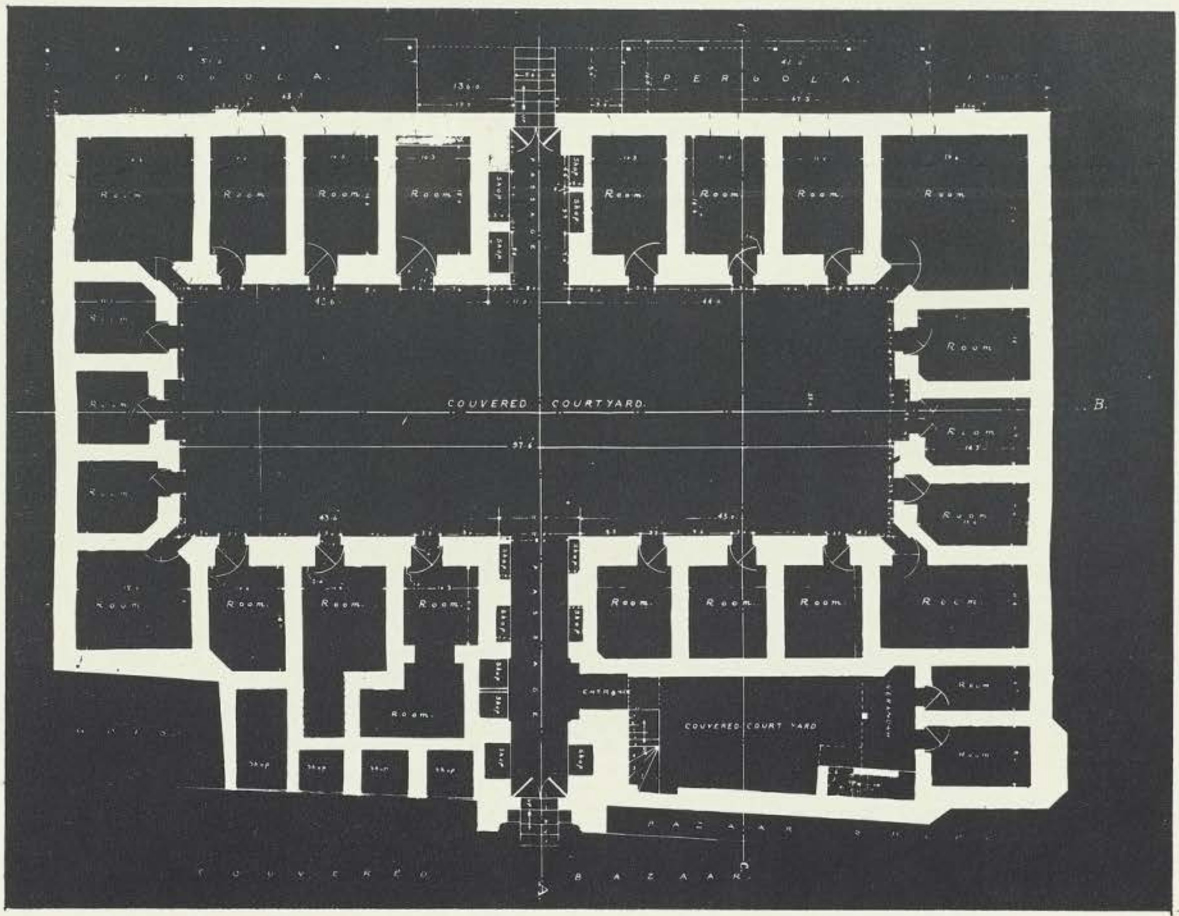


المنظور الداخلي للقاعة المسقفة لخان مرجان بوضعه الحالي



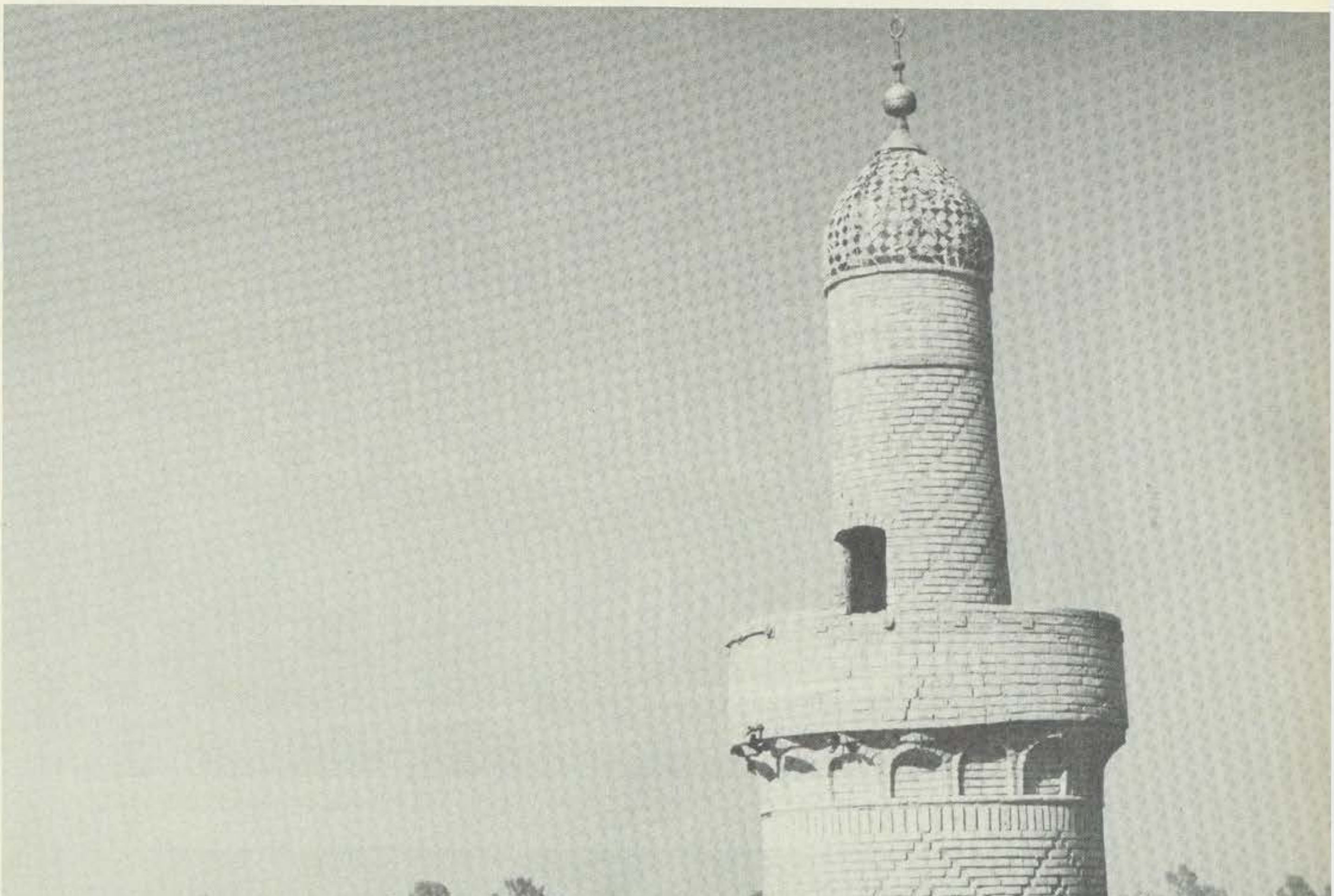


مخطط عقود السقف ــ خان مرجان

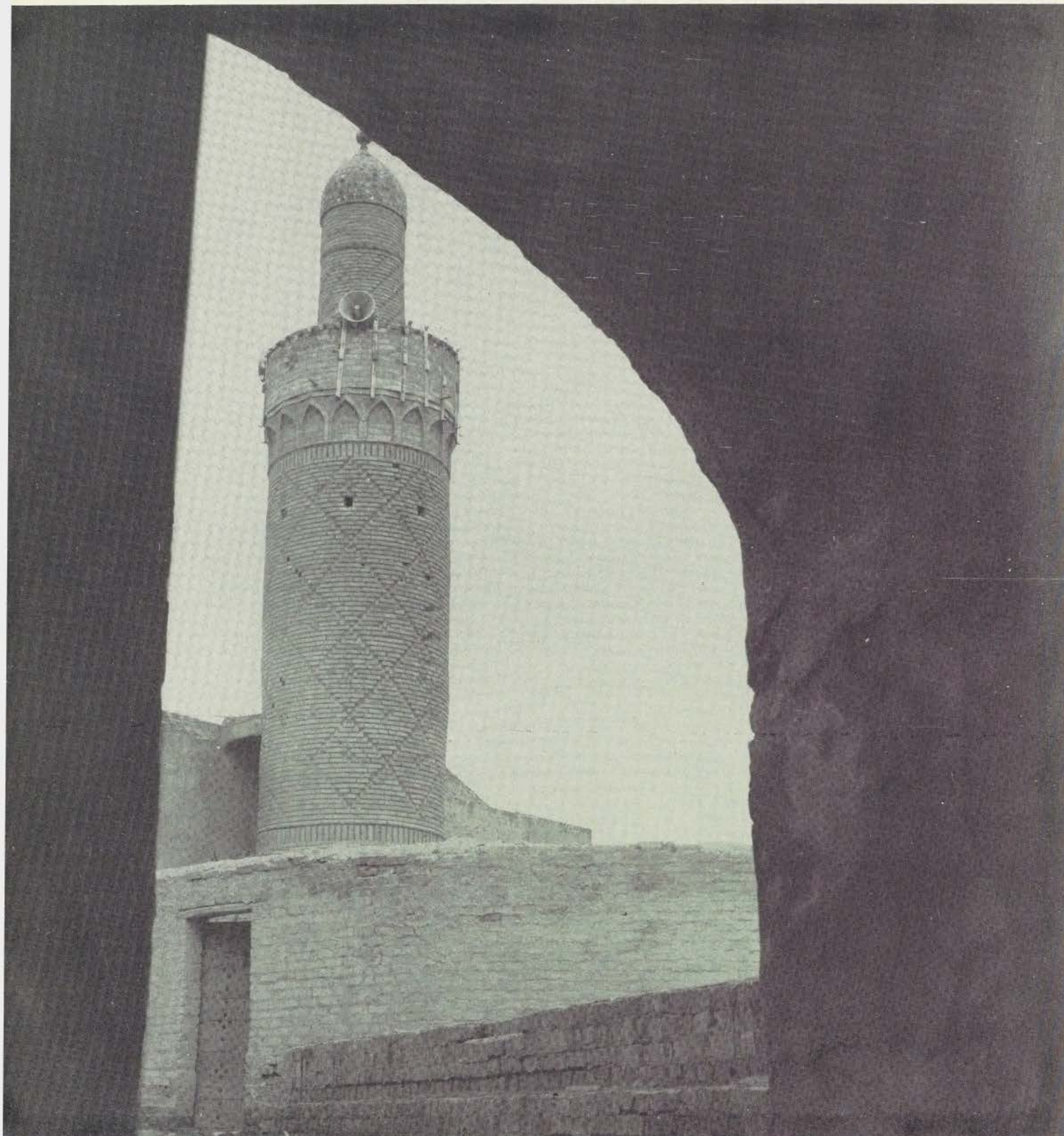


المخطط الأرضي ــ خان مرجان

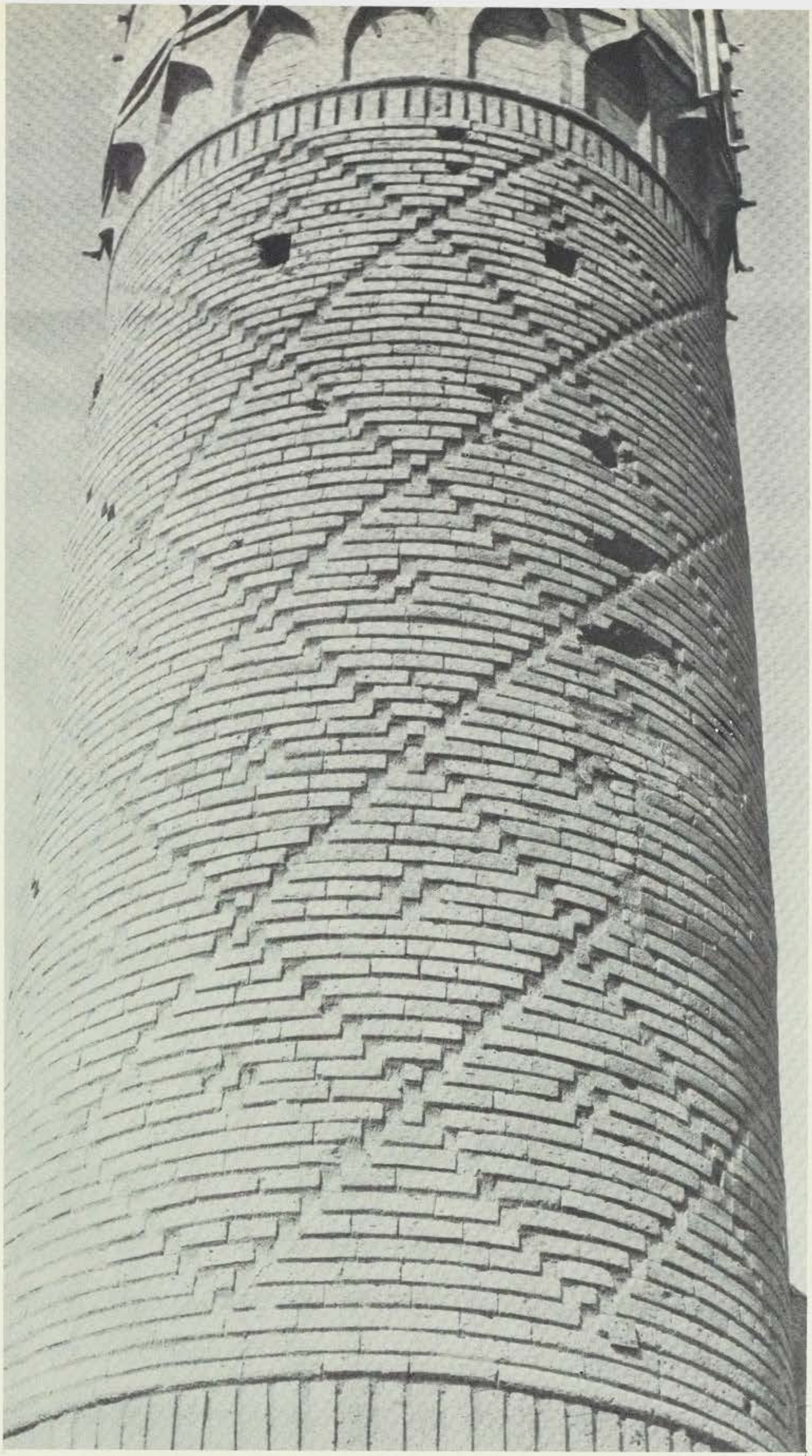
تفاصيل الزخرفة الكتابية في عقد مدخل خان مرجان



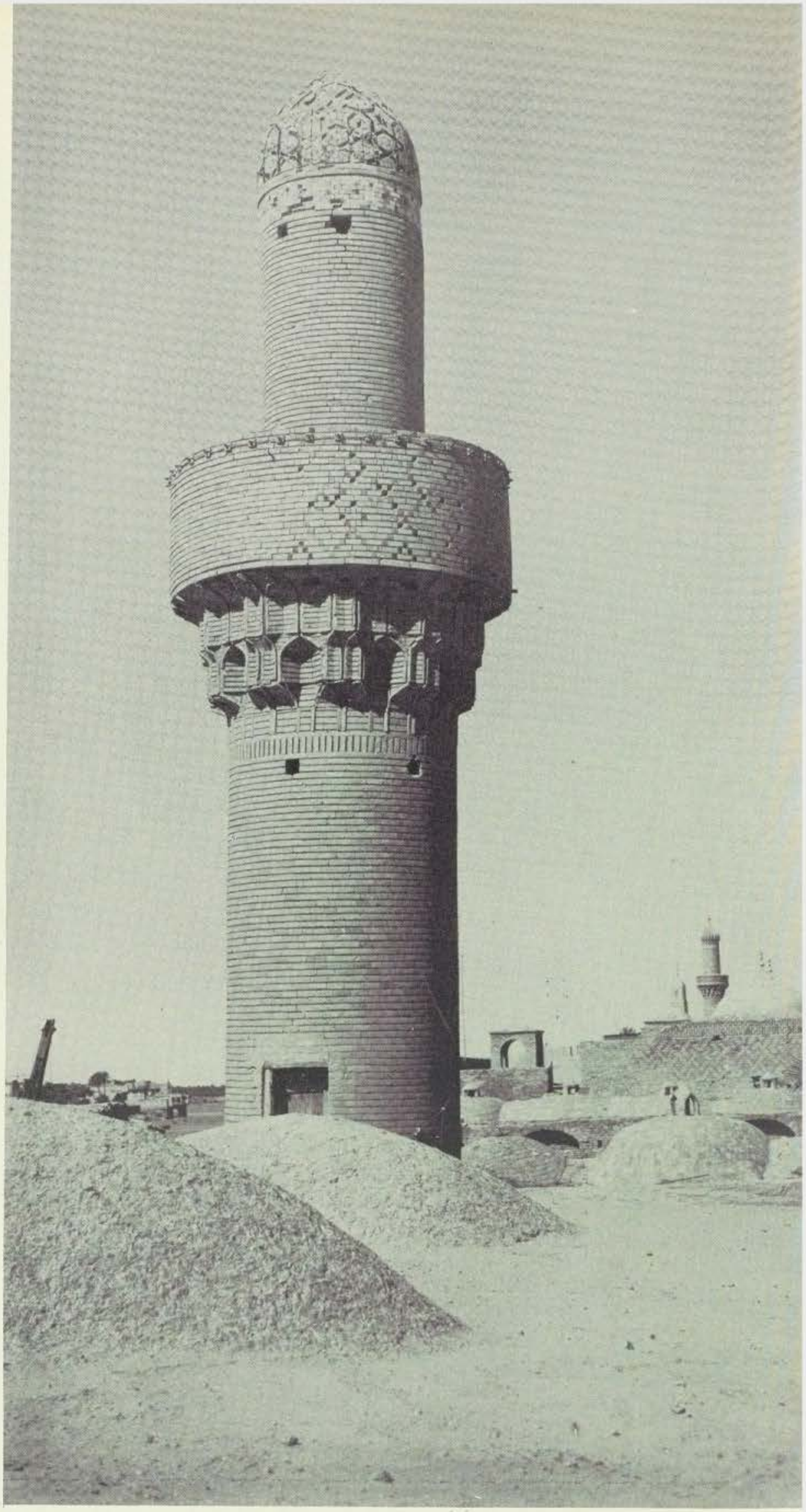
مئذنة مسجد قمرية في الضفة الغربية لبغداد



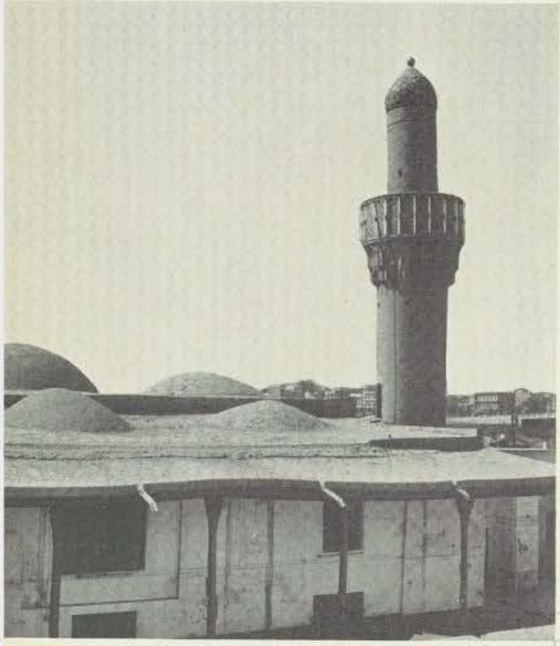
منظور المئذنة والمسجد على الضفة الغربية لنهر دجلة



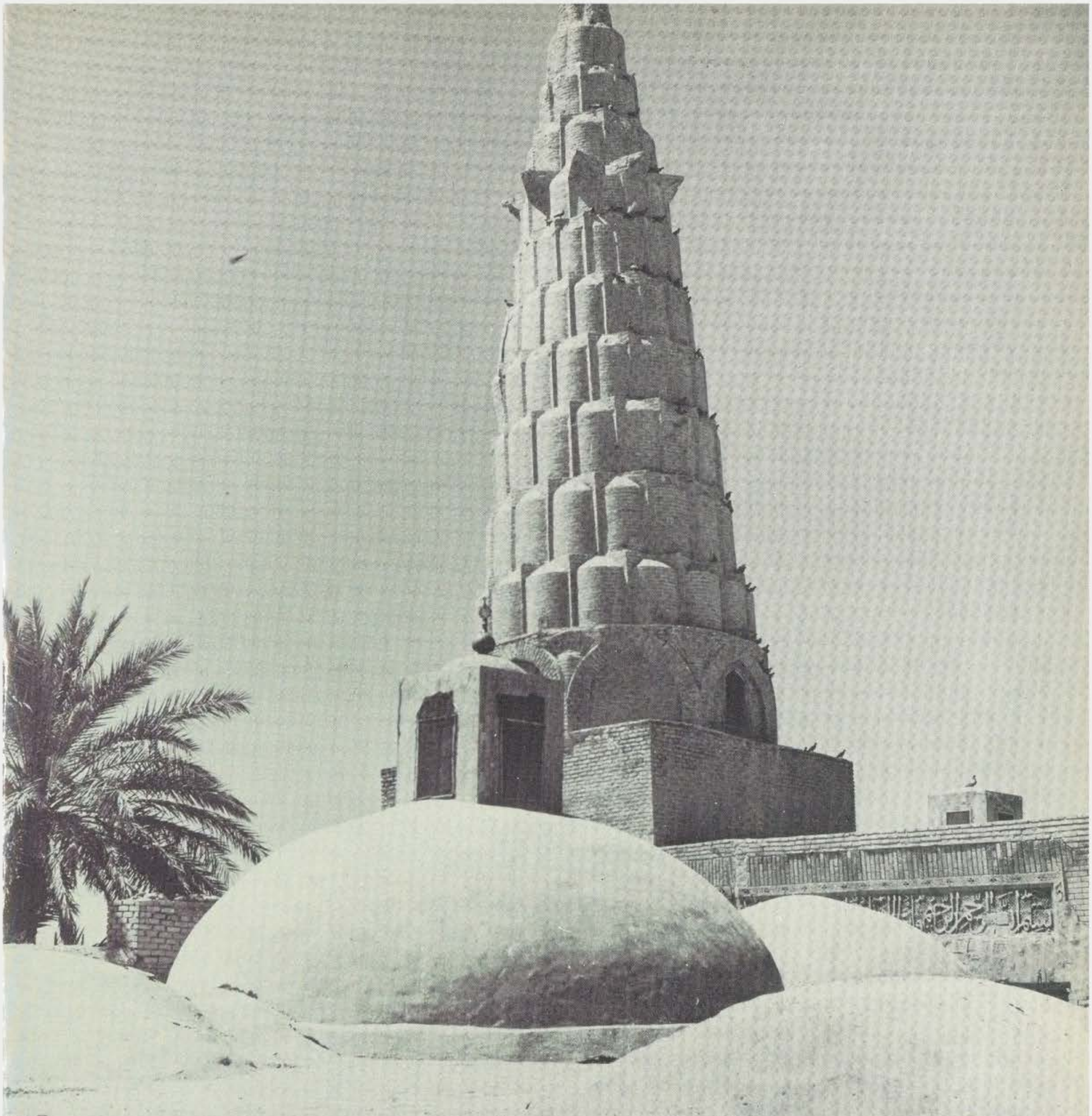
التفاصيل
للتكسية الآجرية
لأسطوانة المئذنة
« مسجد قمرية »



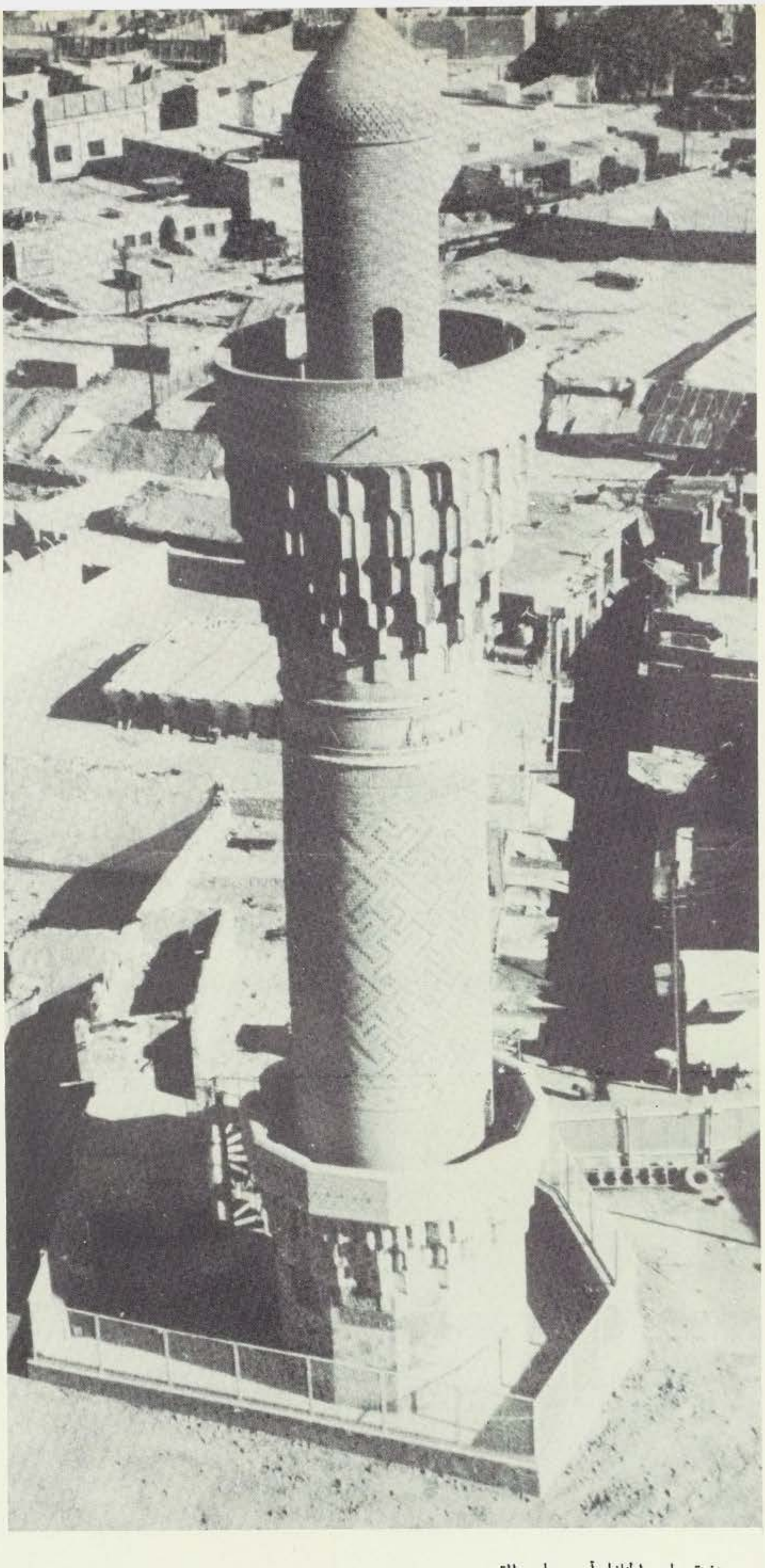
مئذنة مسجد الحظائر « جامع الخفافين »



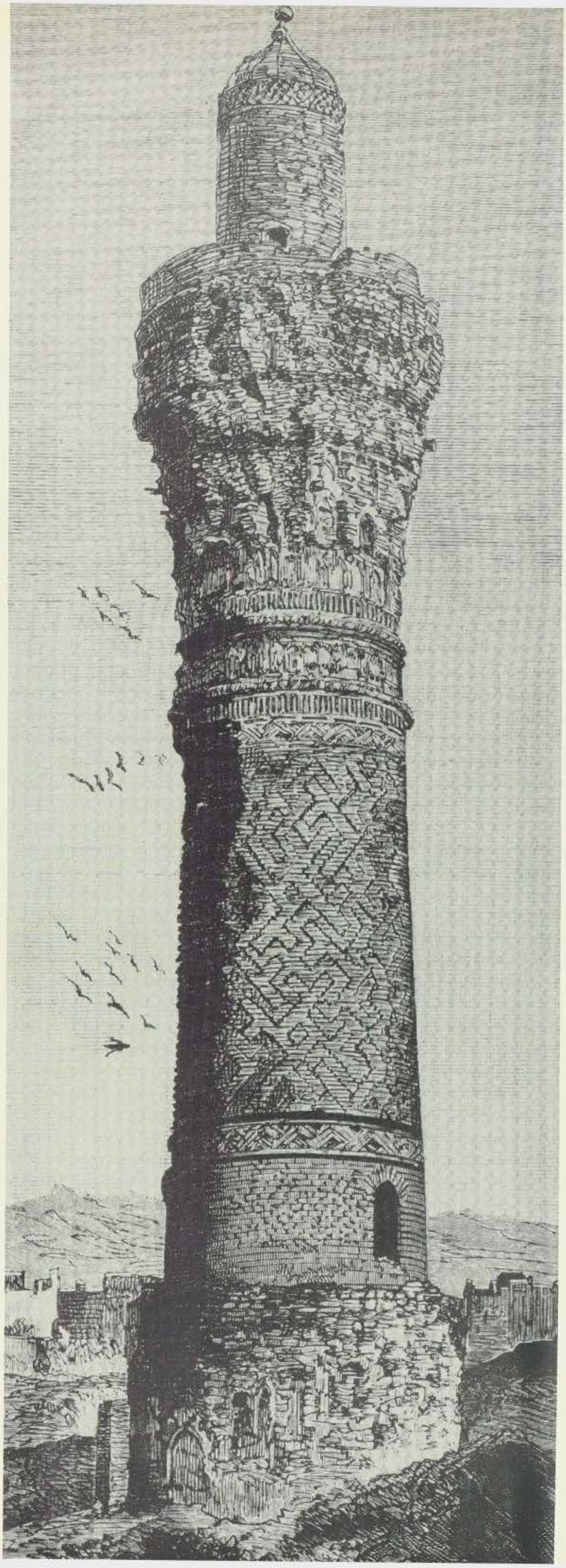
منظور عام لمئذنة مسجد
الحظائر « مسجد الخفافين »



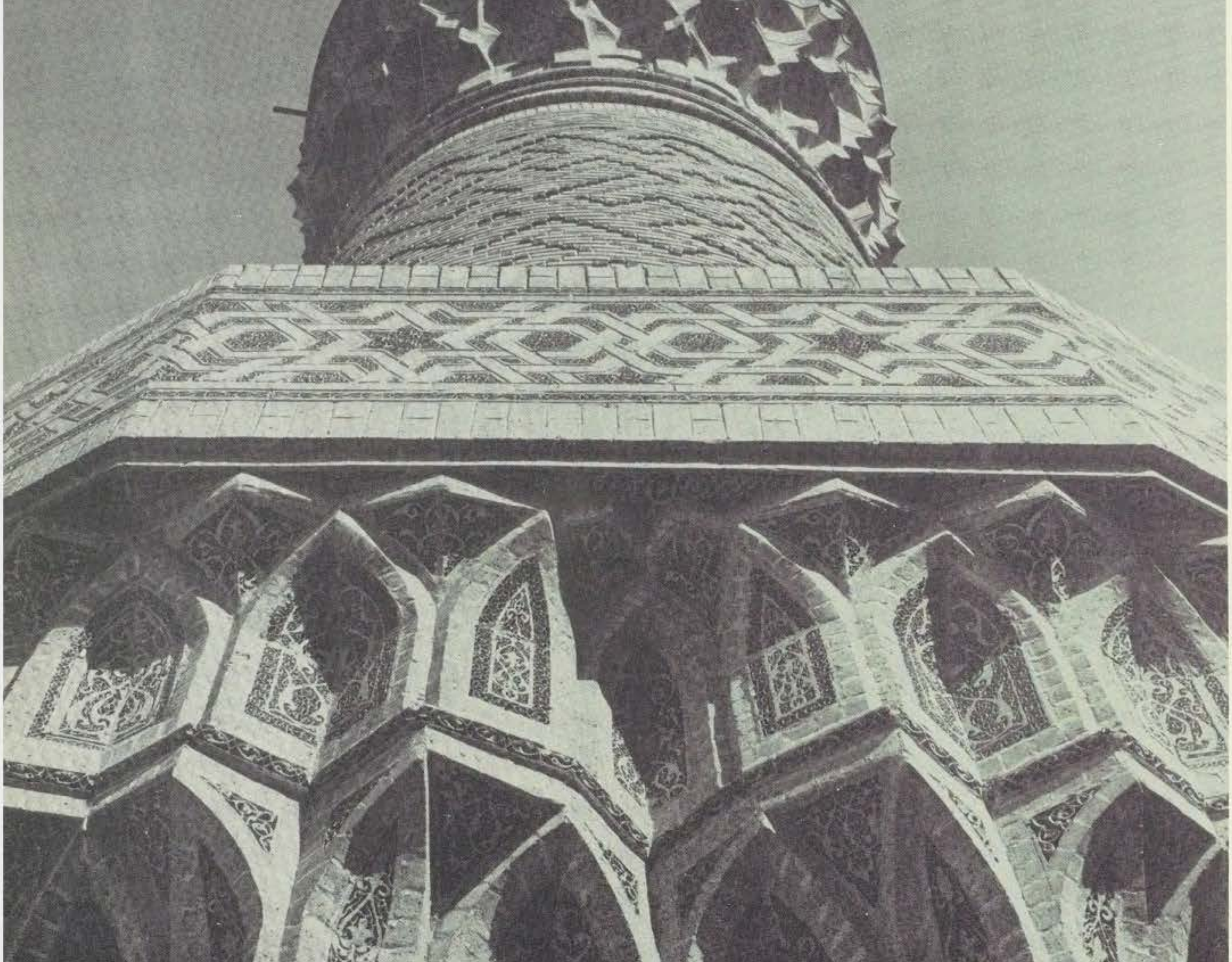
قبة تربة الشيخ عمر السهروردي — في الجانب الشرقي من بغداد



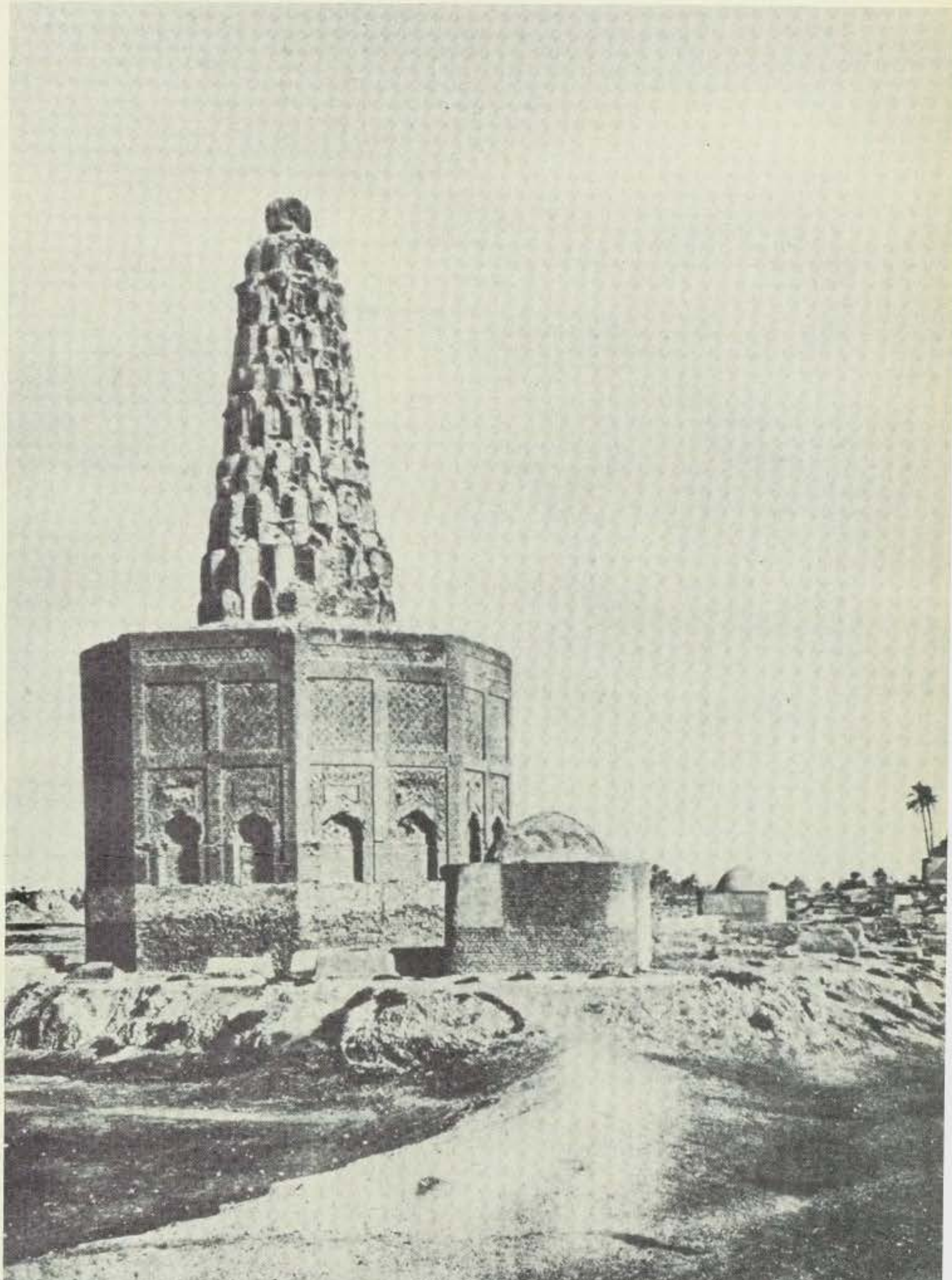
مئذنة جامع الخلفاء أو « جامع القصر »



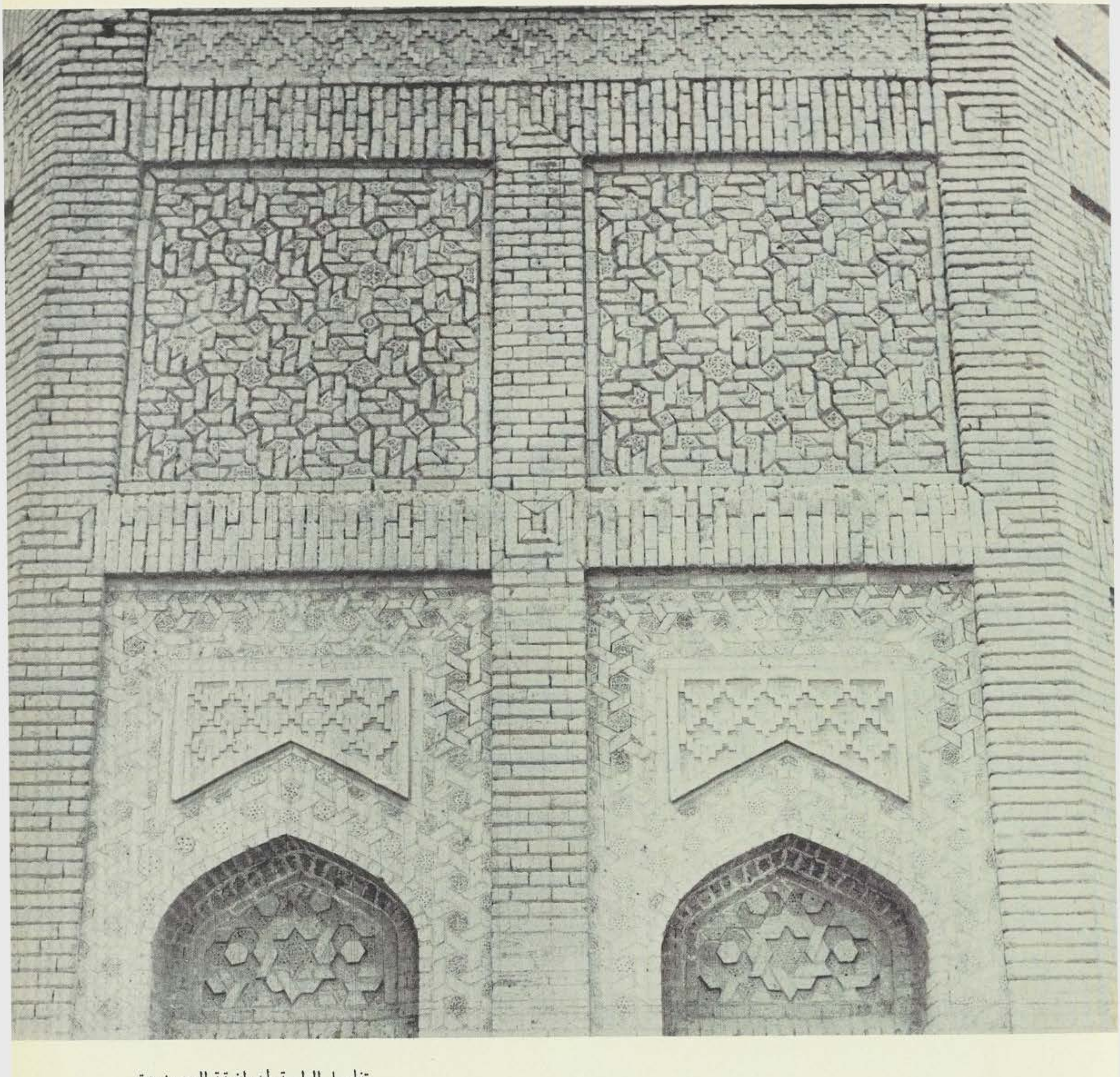
رسم للمئذنة كما
رسمها السواح الى
بغداد وقبل الترميم



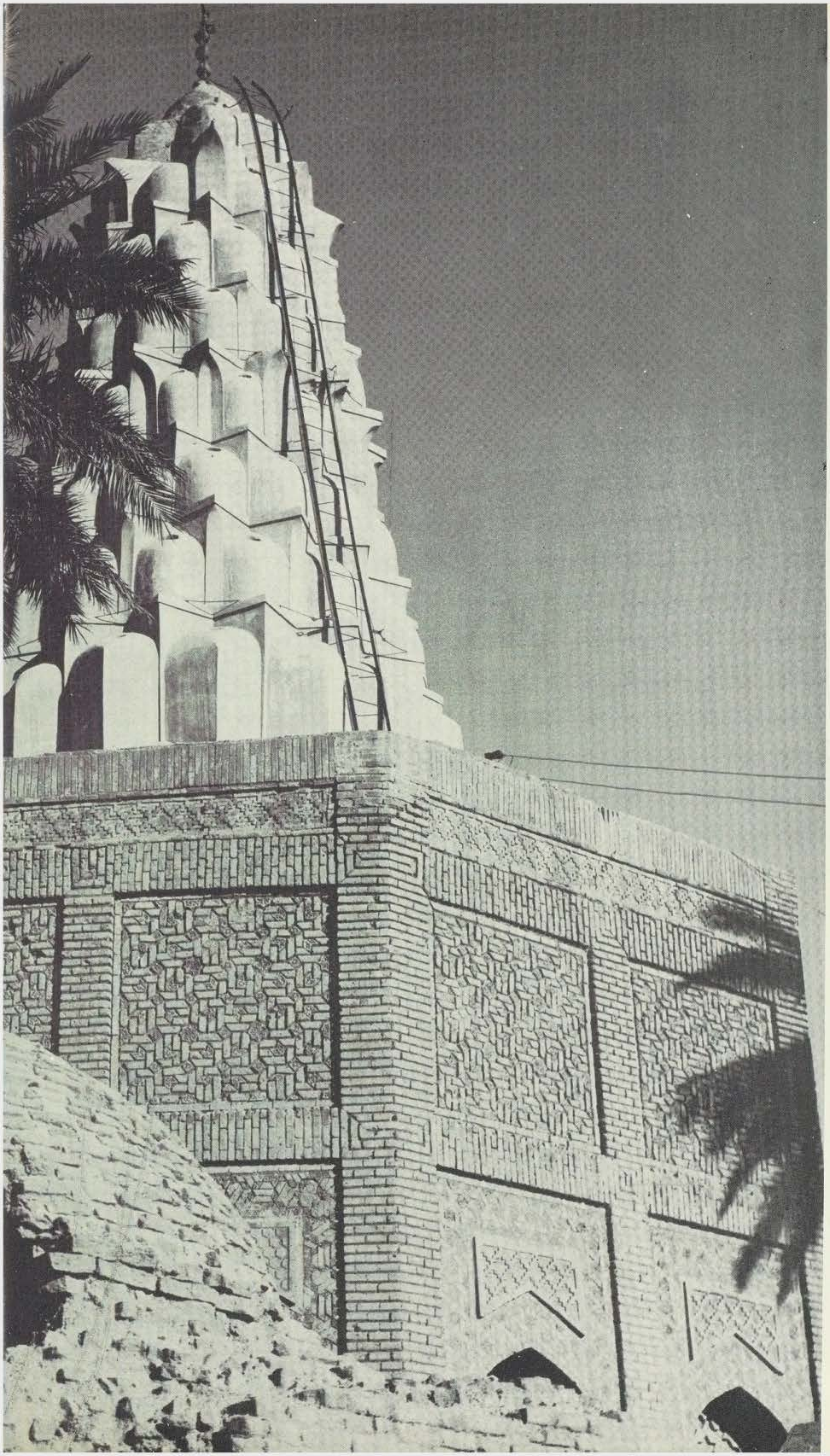
مئذنة جامع الخلفاء ، وتظهر على القاعدة الزخارف الآجرية

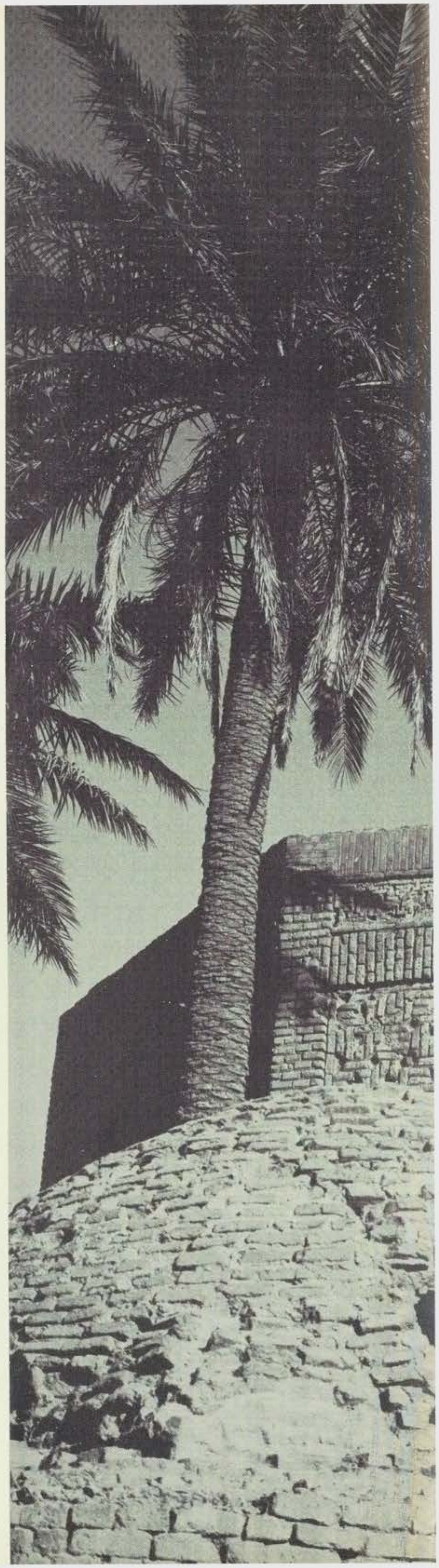


منظور عام لقبة الست زبيدة « تربة زمرد خاتون »

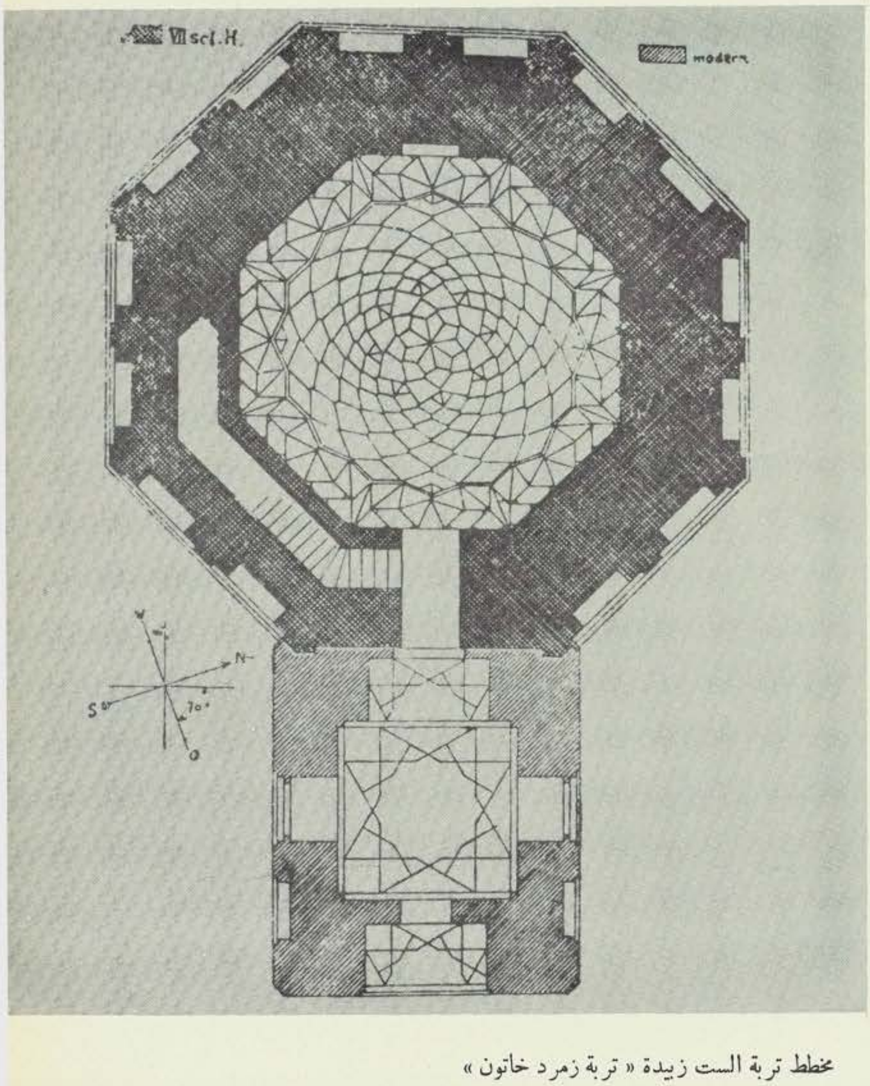


تفاصيل الواجهة لجدران قبة الست زبيدة

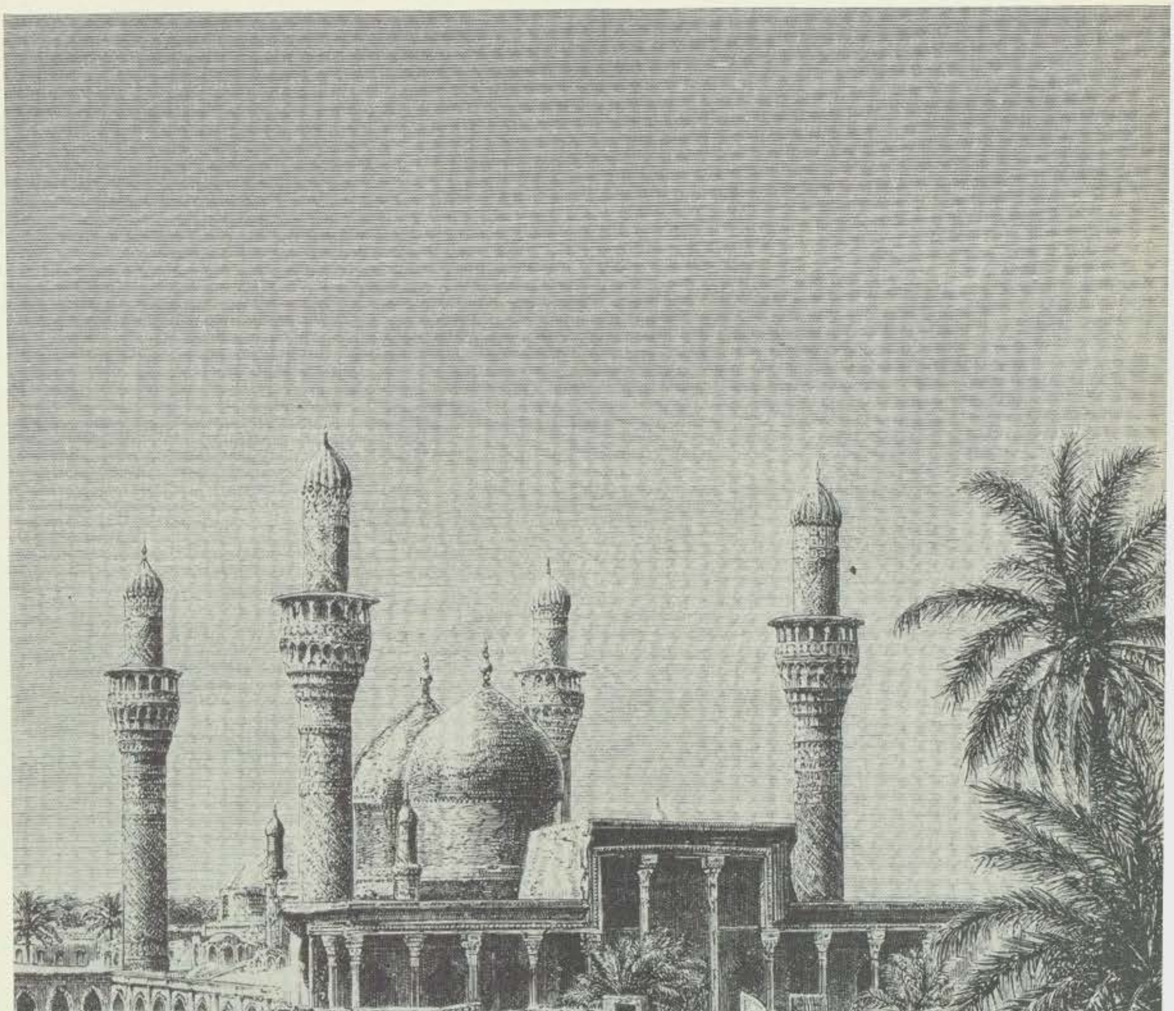




قبة الست زيدة
« تربة زمرد خاتون »



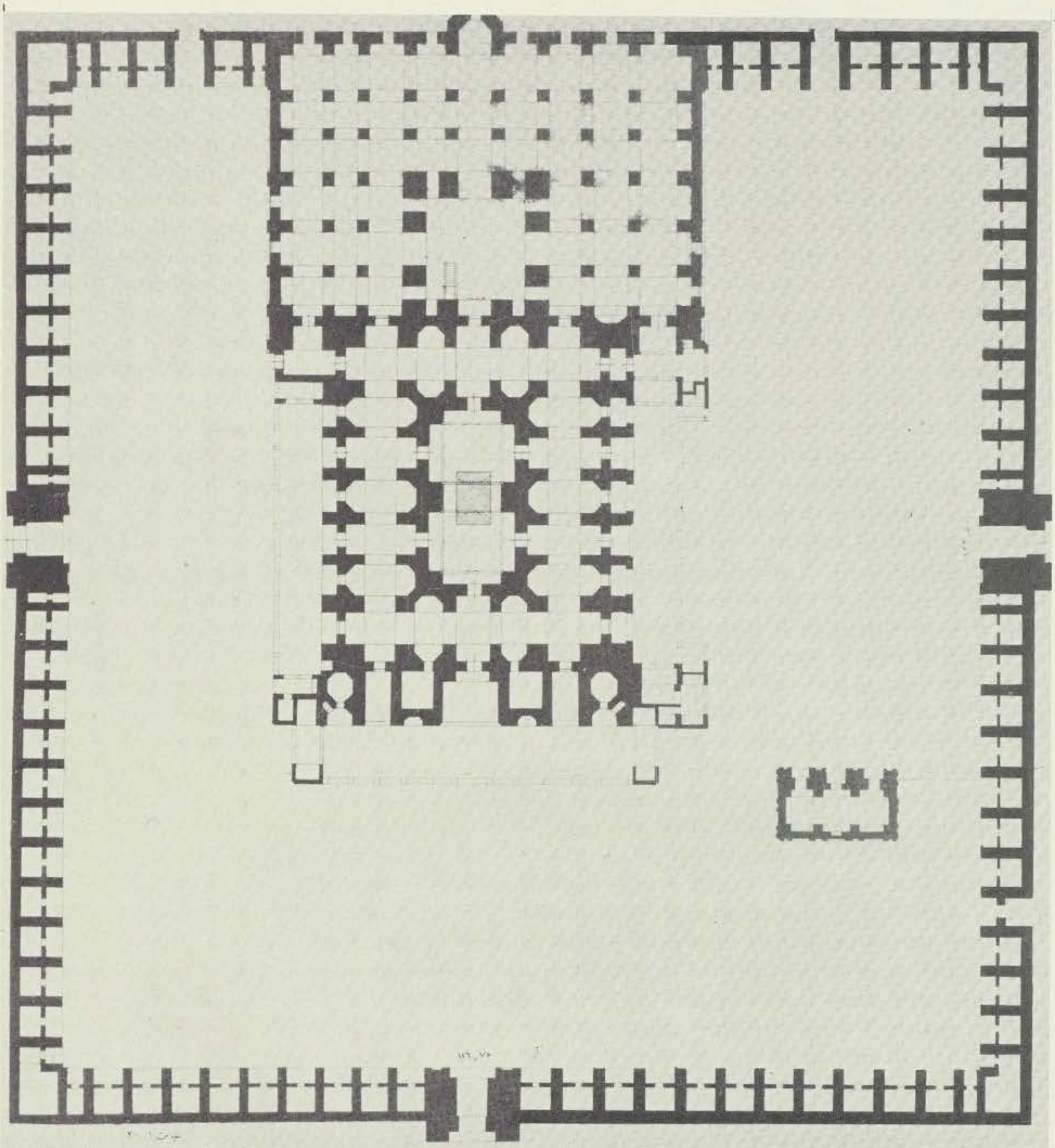
مخطط تربة الست زيدة « تربة زمرد خاتون »



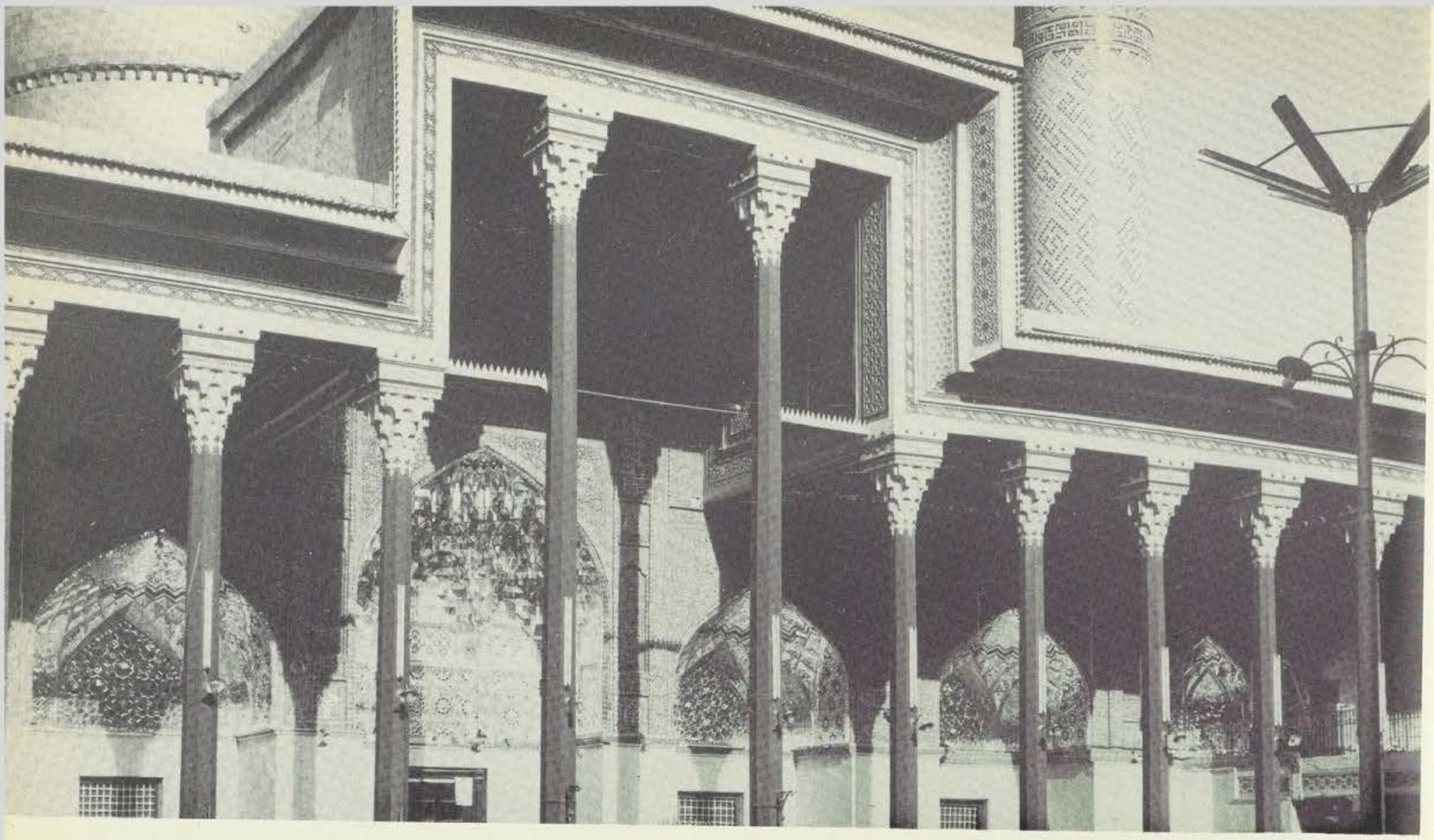
المشهد الكاظمي ــ منظور عام للقباب والمآذن كما رسمها السواح



المشهد الكاظمي ــ منظور جوي للصحن الخارجي ومبنى مرقدي المشهد

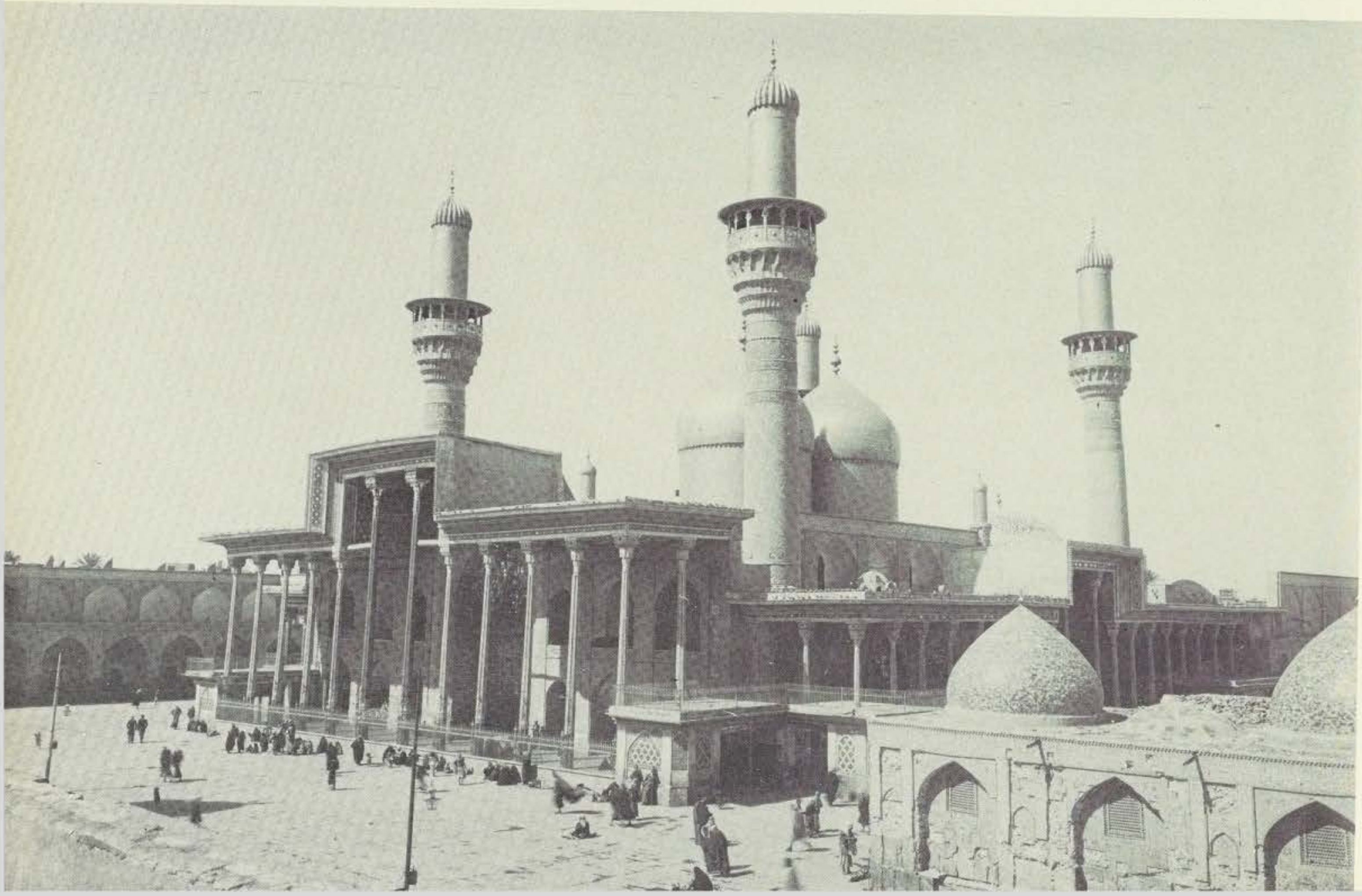


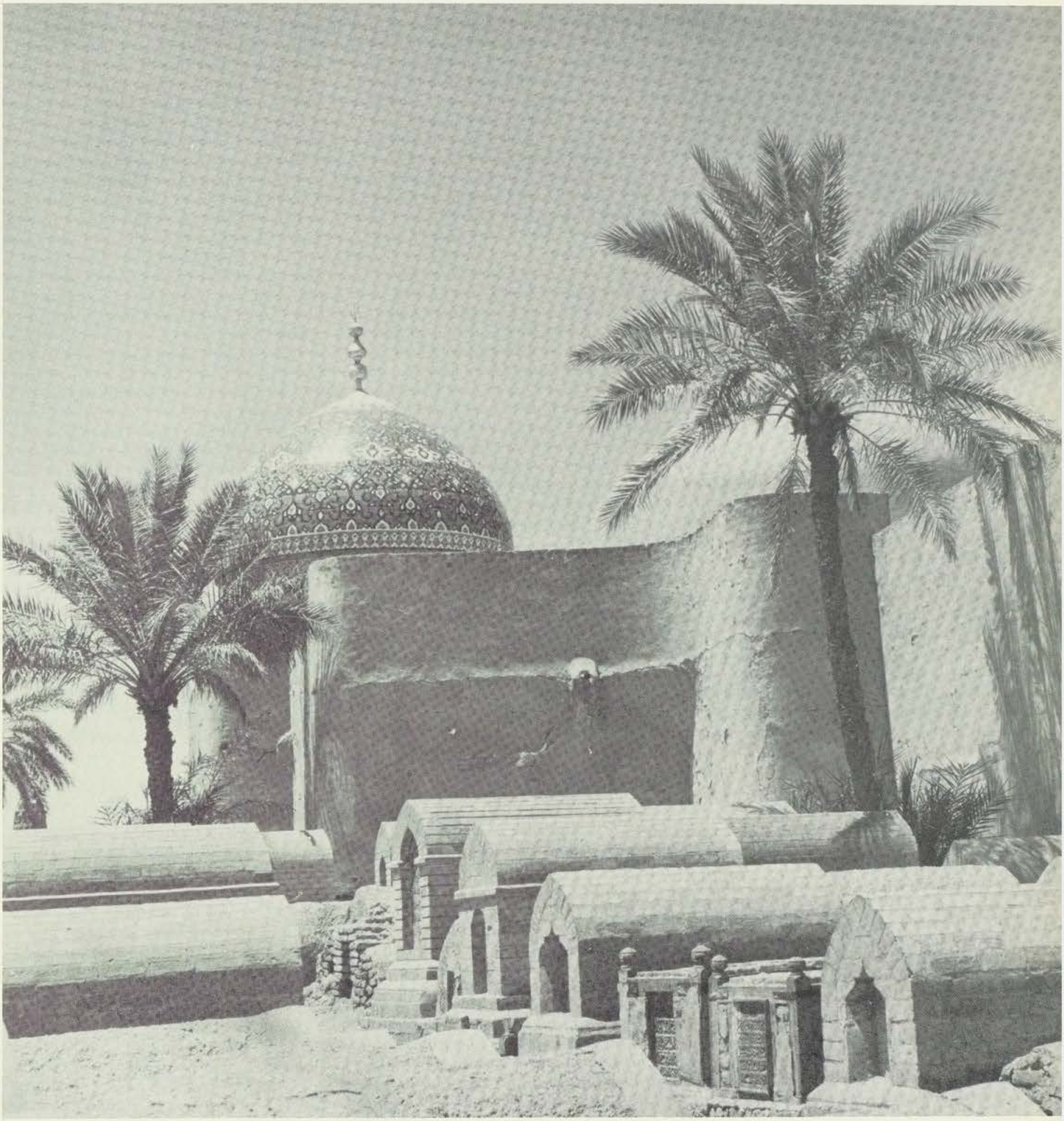
المشهد الكاظمي ــ مخطط الطابق الأرضي



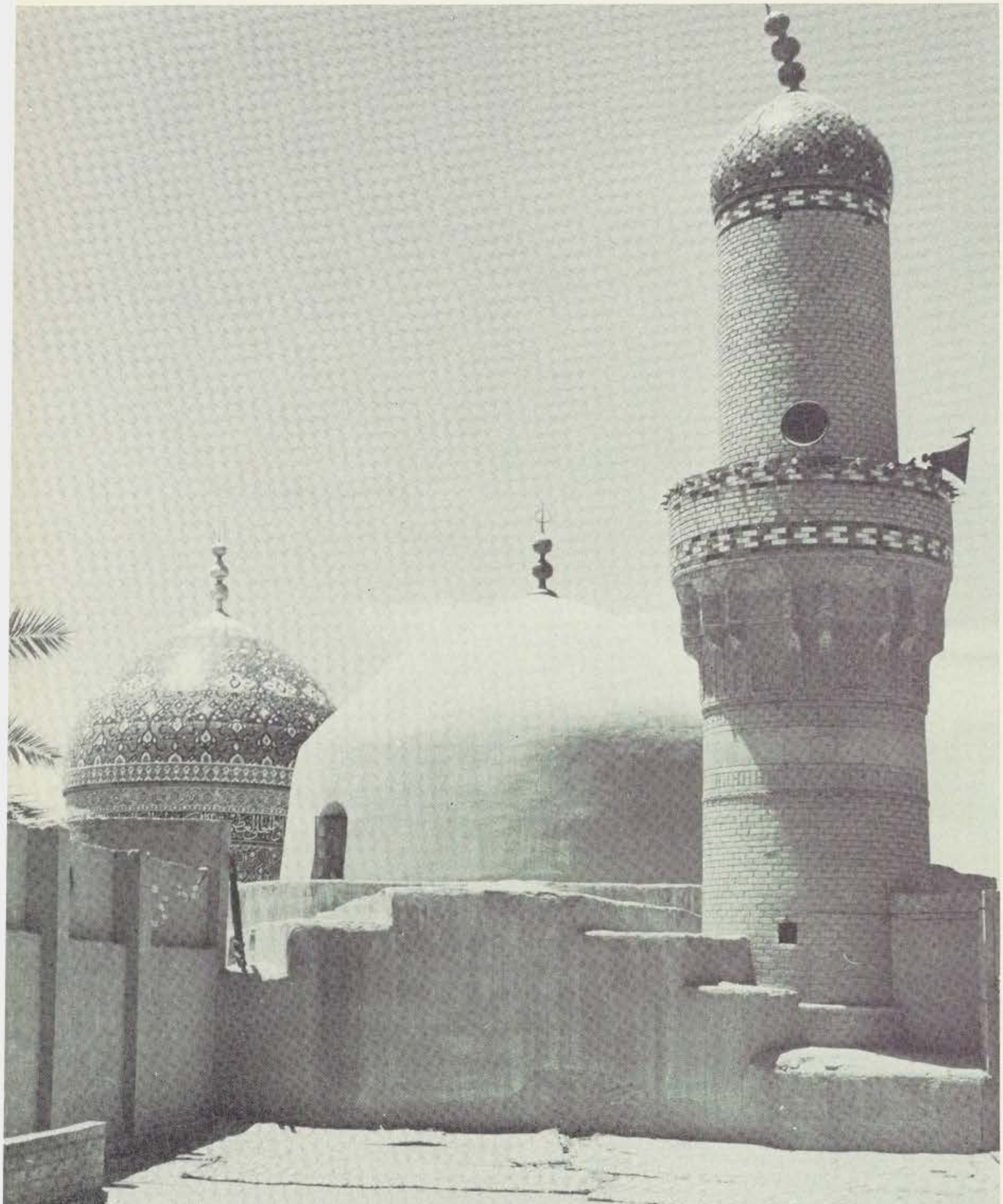
المشهد الكاظمي ــ منظور رواق المدخل في داخل الصحن

المشهد الكاظمي ــ الأروقة المحيطة بالمرقد والقباب القاشانية في داخل الصحن





من مواقع بغداد العباسية ومعالمها مقبرة الشيخ معروف



منارة وقبة جامع الشيخ معروف في غربي بغداد



منظور الصحن الداخلي لجامع المنطقة

جامع المنطقة

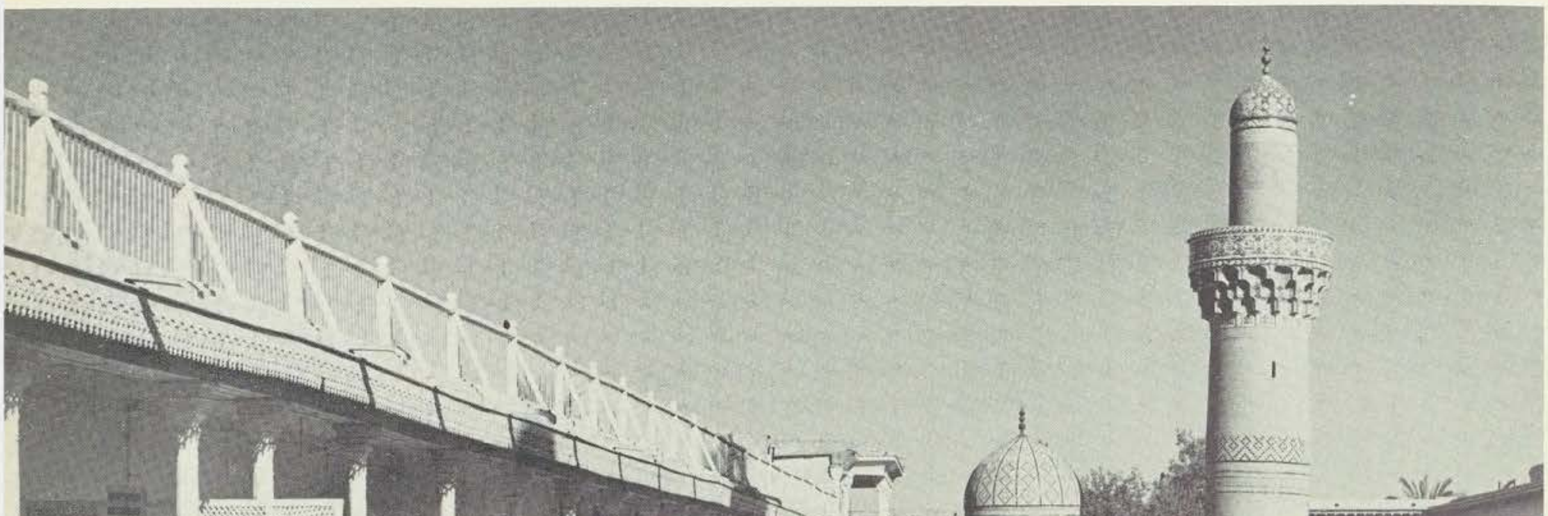




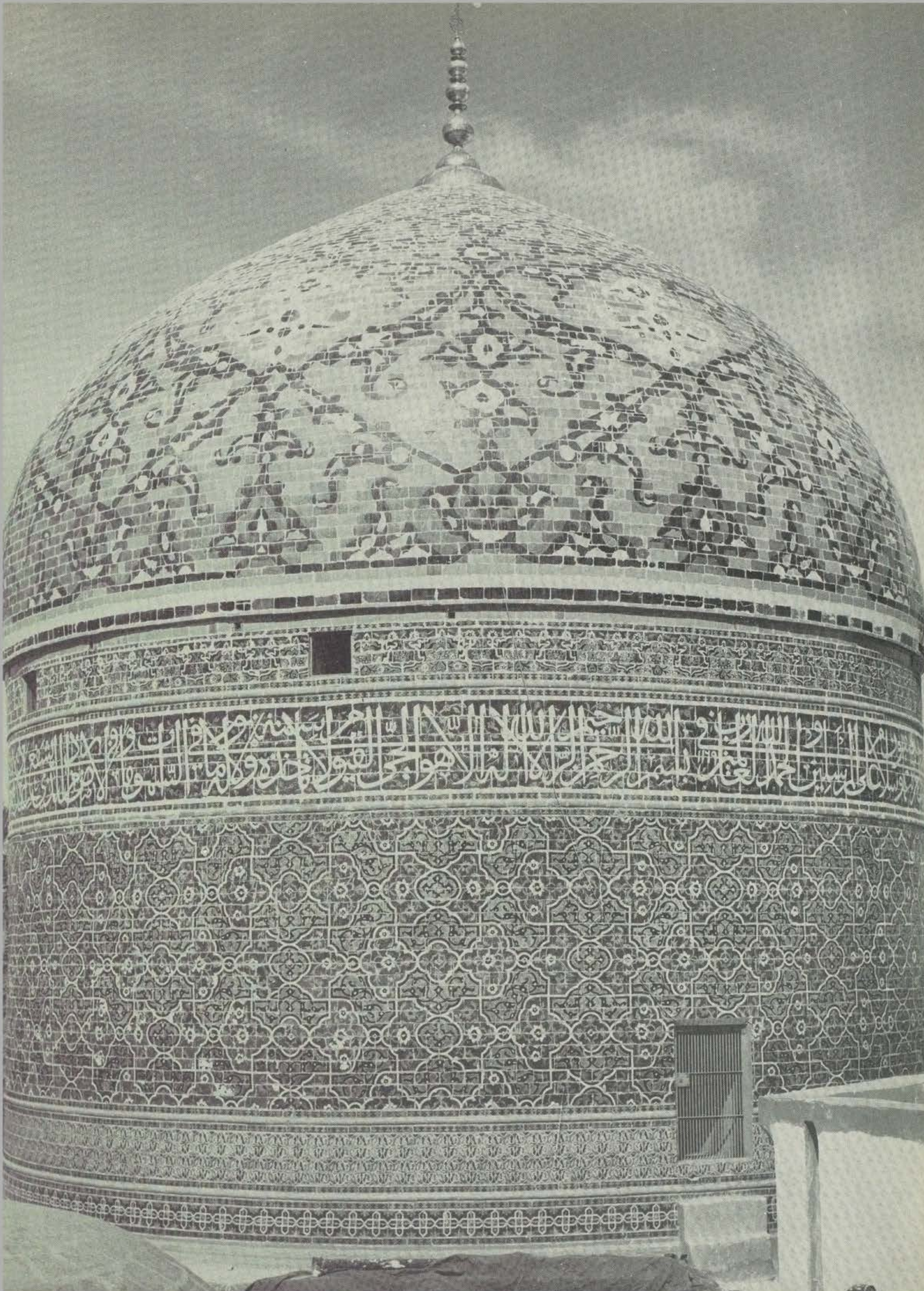
جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي (الكيلاني). منظور داخلي



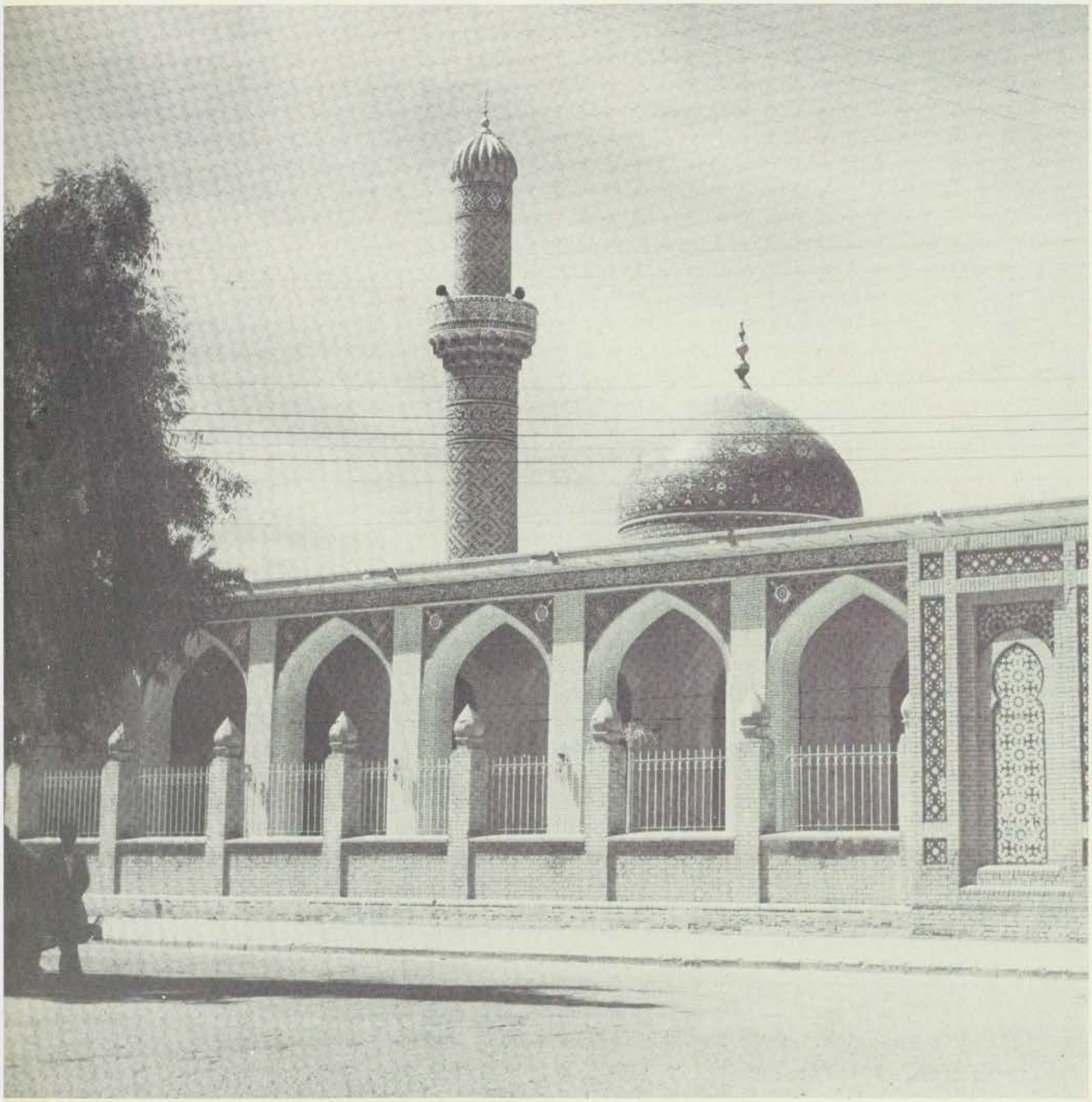
جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي (الكيلاني) ـ منظور الصحن الرئيسي



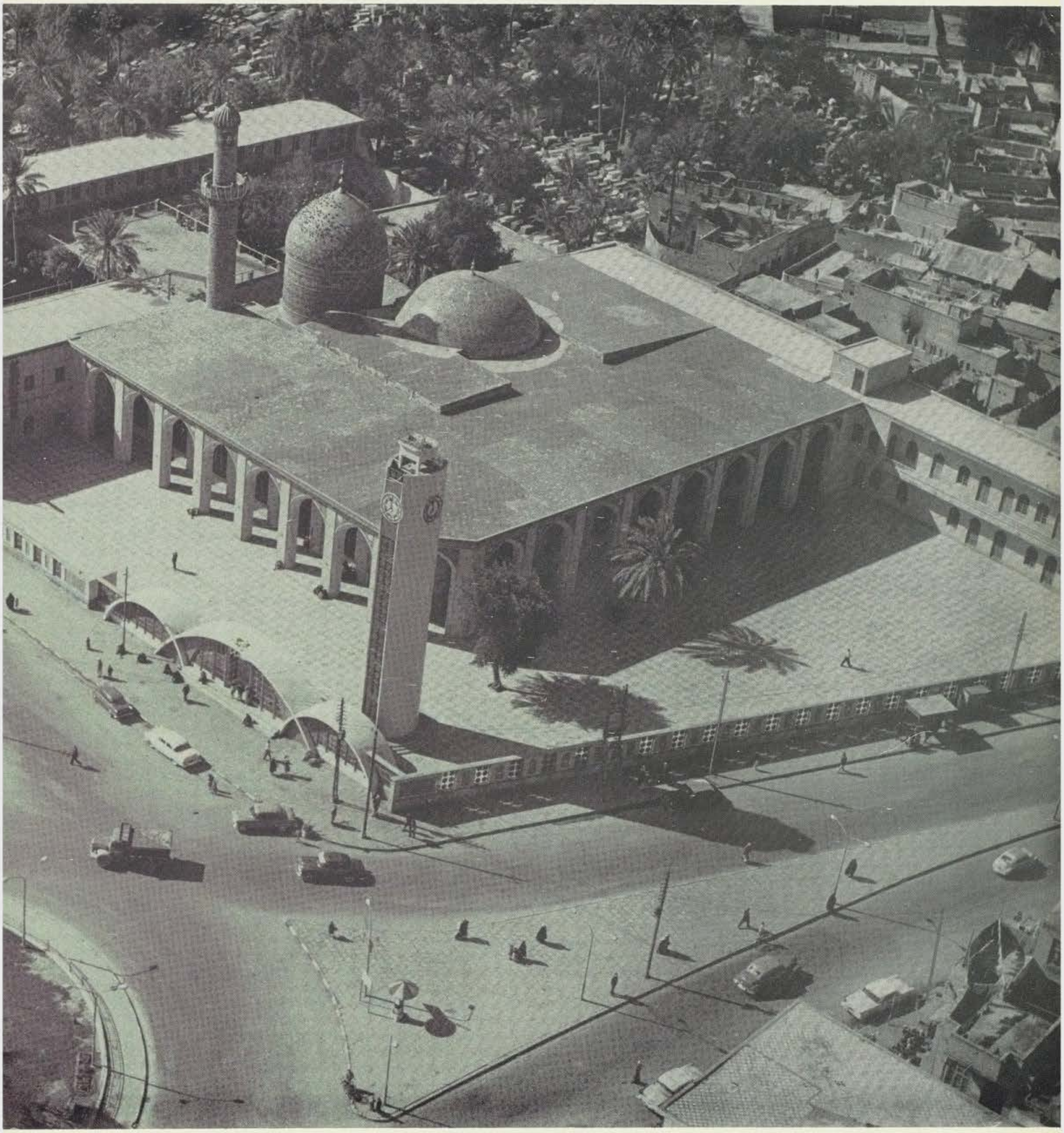
جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي (الكيلاني) - منظور واجهة المسجد



جامع أبي حنيفة (جامع الامام الأعظم) منظور الرواق الامامي



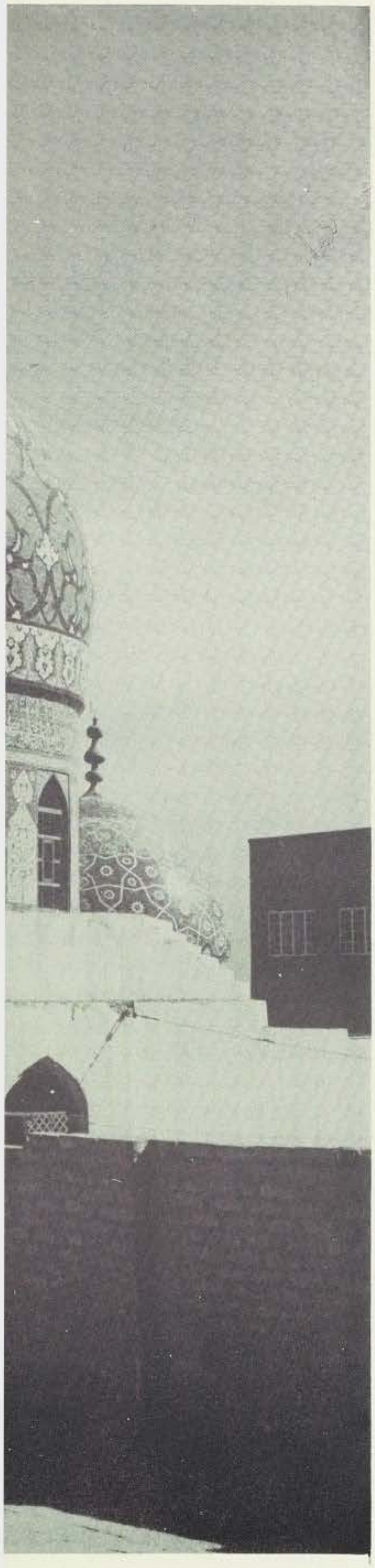
جامع الشيخ عبدالقادر الجيلي (الكيلاني) تفاصيل القبة القاشانية



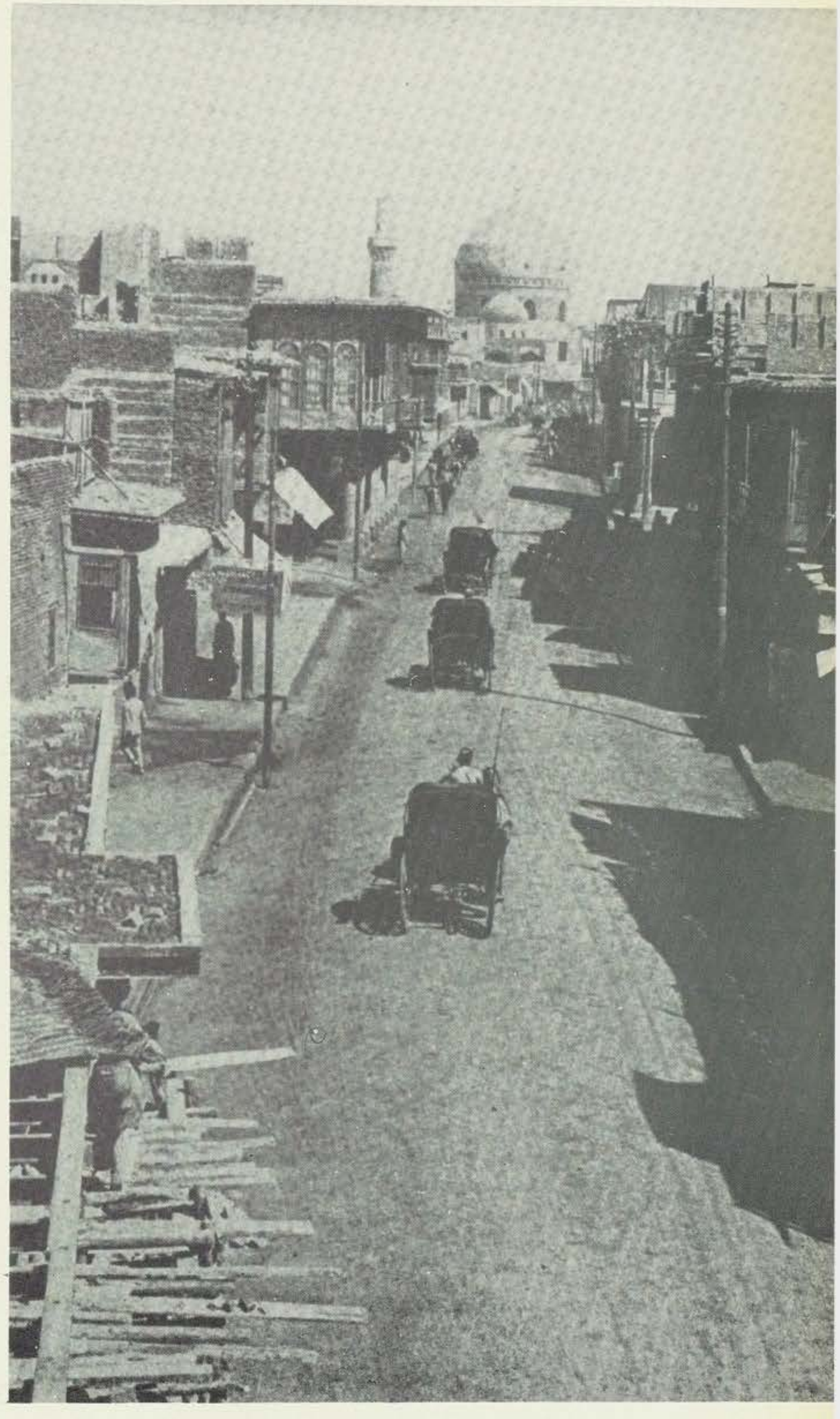


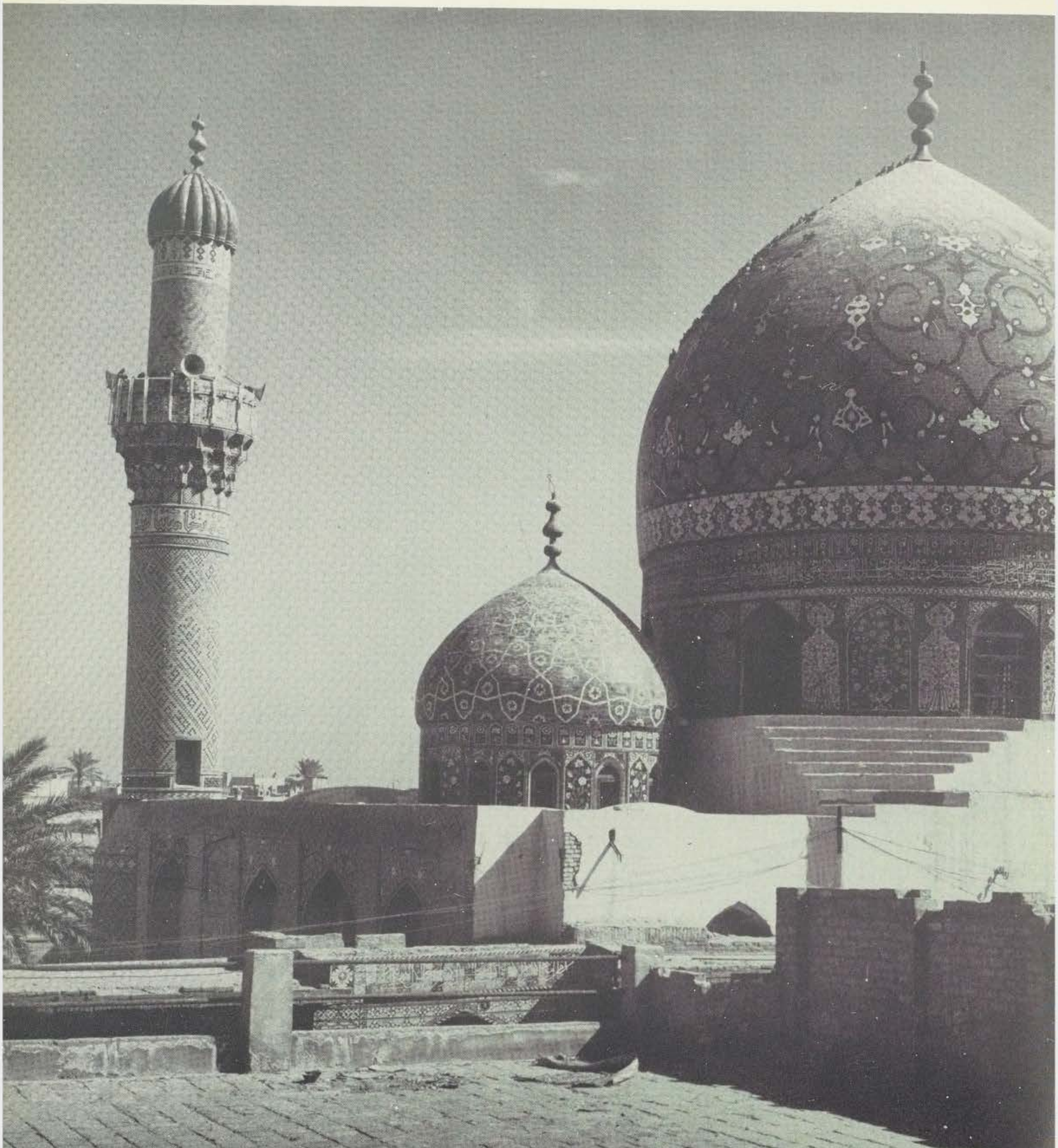
جامع أبي حنيفة (مقبرة الخيزران) منطقة الاعظمية

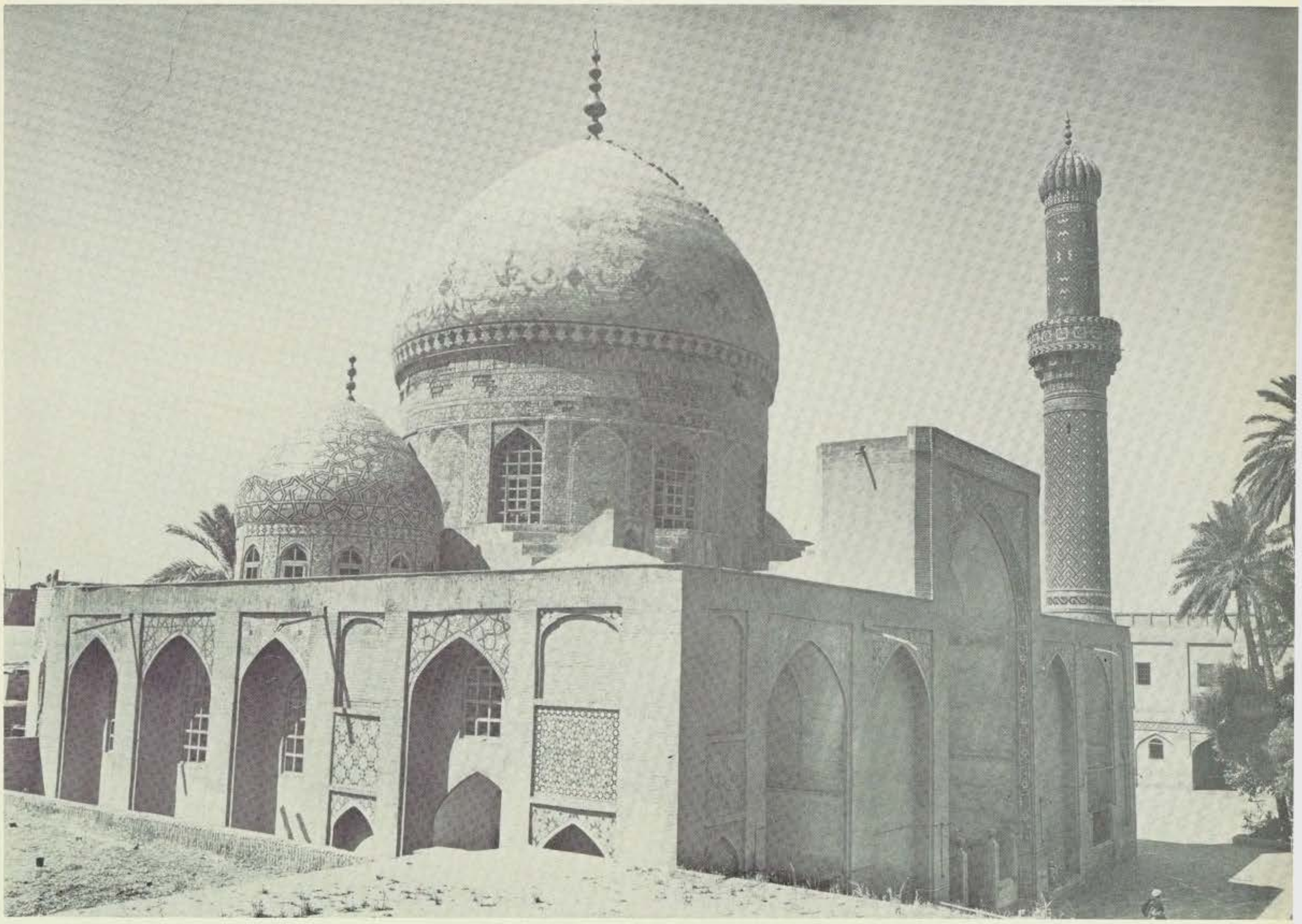
جامع الحيدرخانة ـ
قبة الحرم والمئذنة



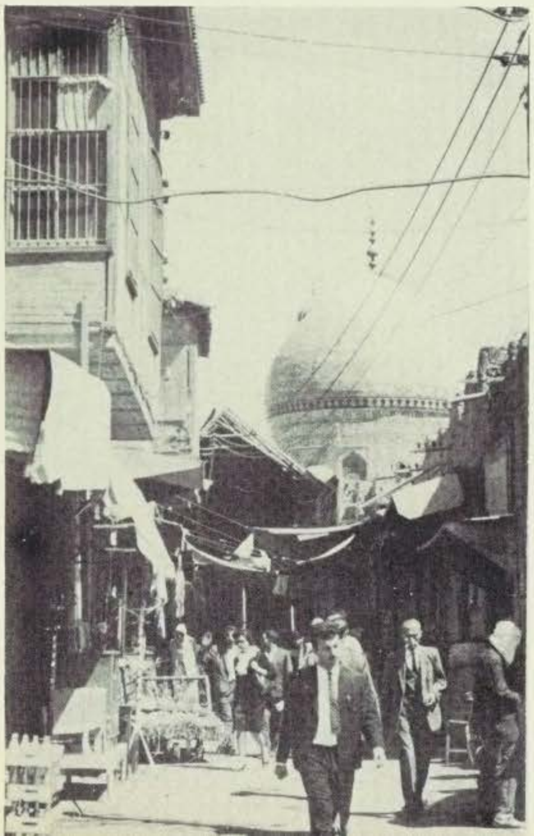
جامع الحيدرخانة ـ القبة من شارع الرشيد القديم



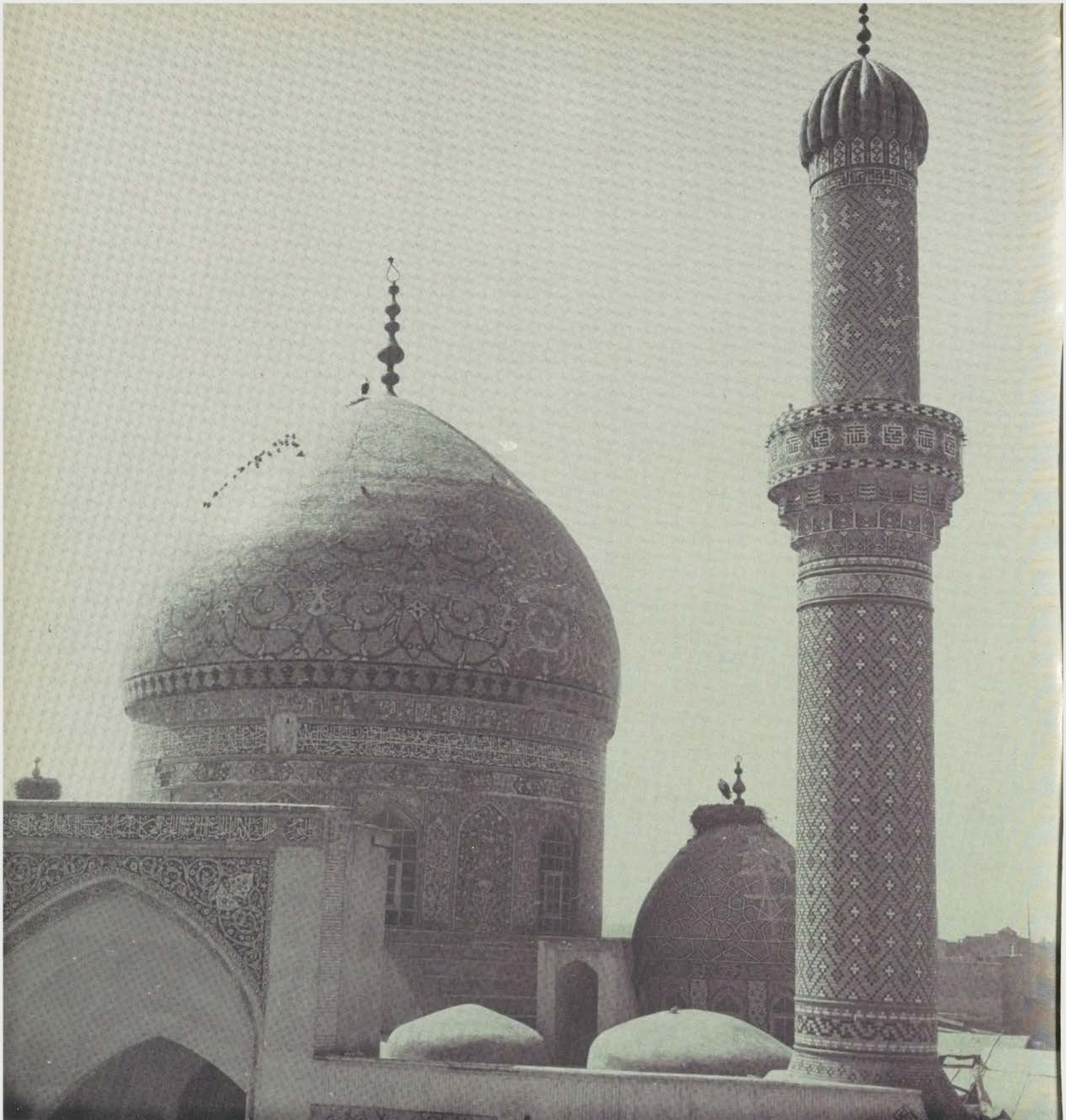




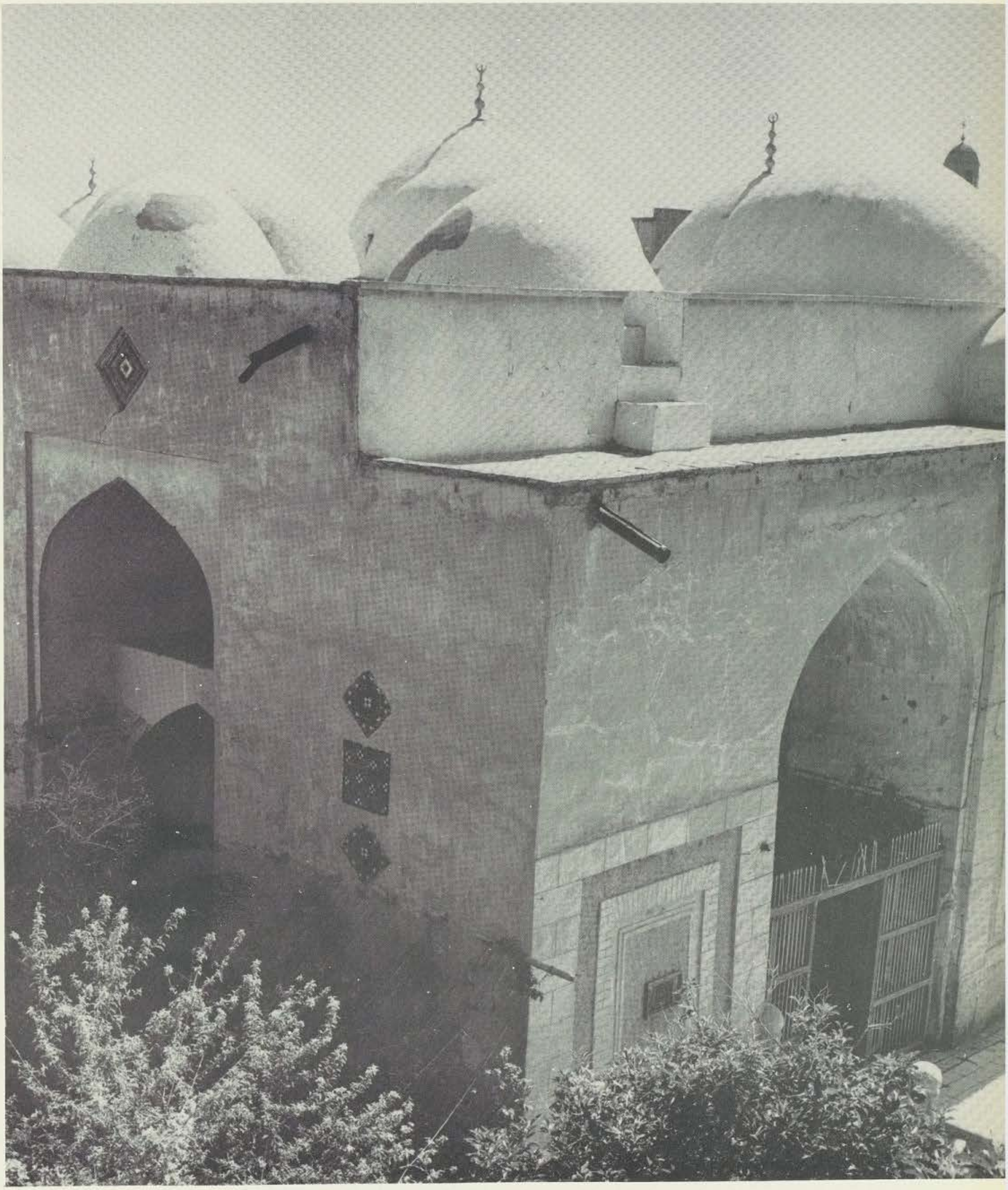
جامع الحيدرخانة ـ شارع الرشيد الجانب الشرقي



جامع الميدان ـ
منظور القبة من
سوق الميدان



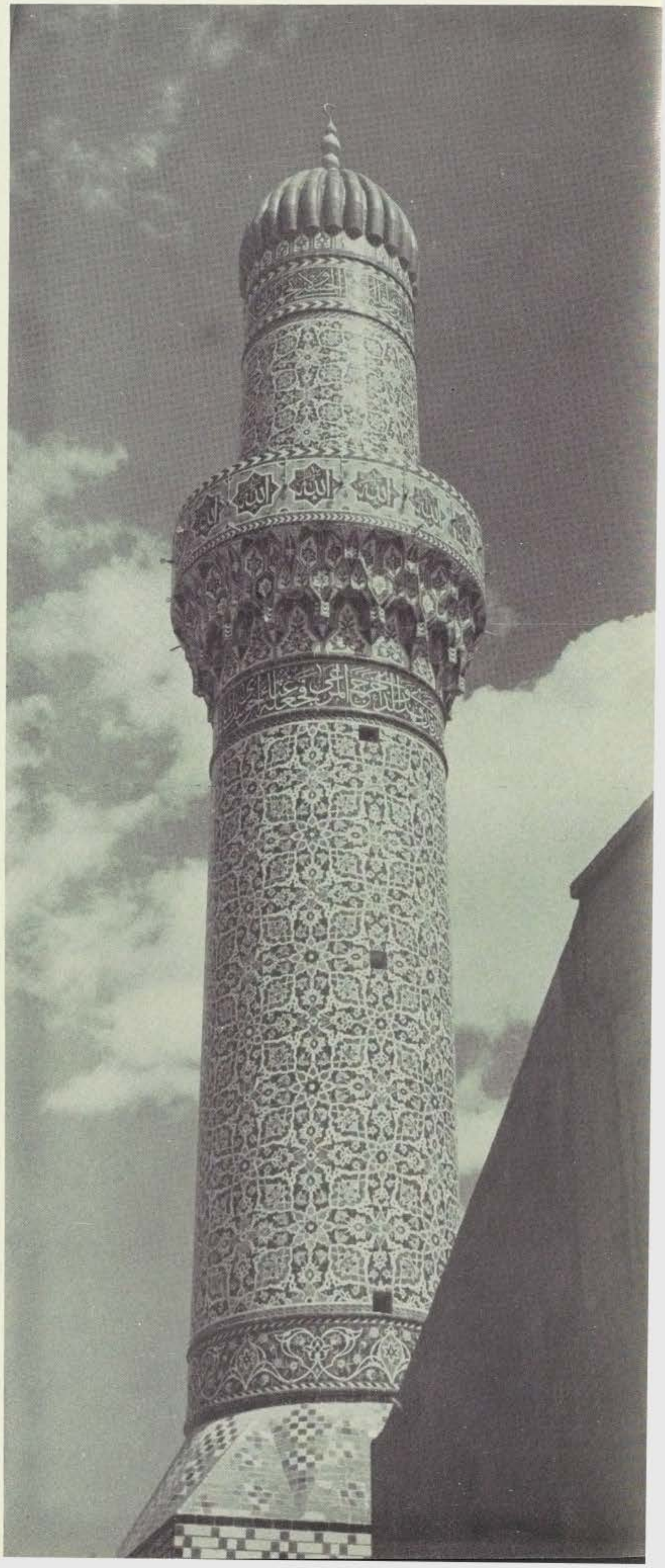
جامع الميدان (جامع الاحمدية)



جامع حسن باشا الجديد ـ الجانب الشرقي



منارة الجامع العاقولي ـ محلة العاقولية ـ الجانب الشرقي

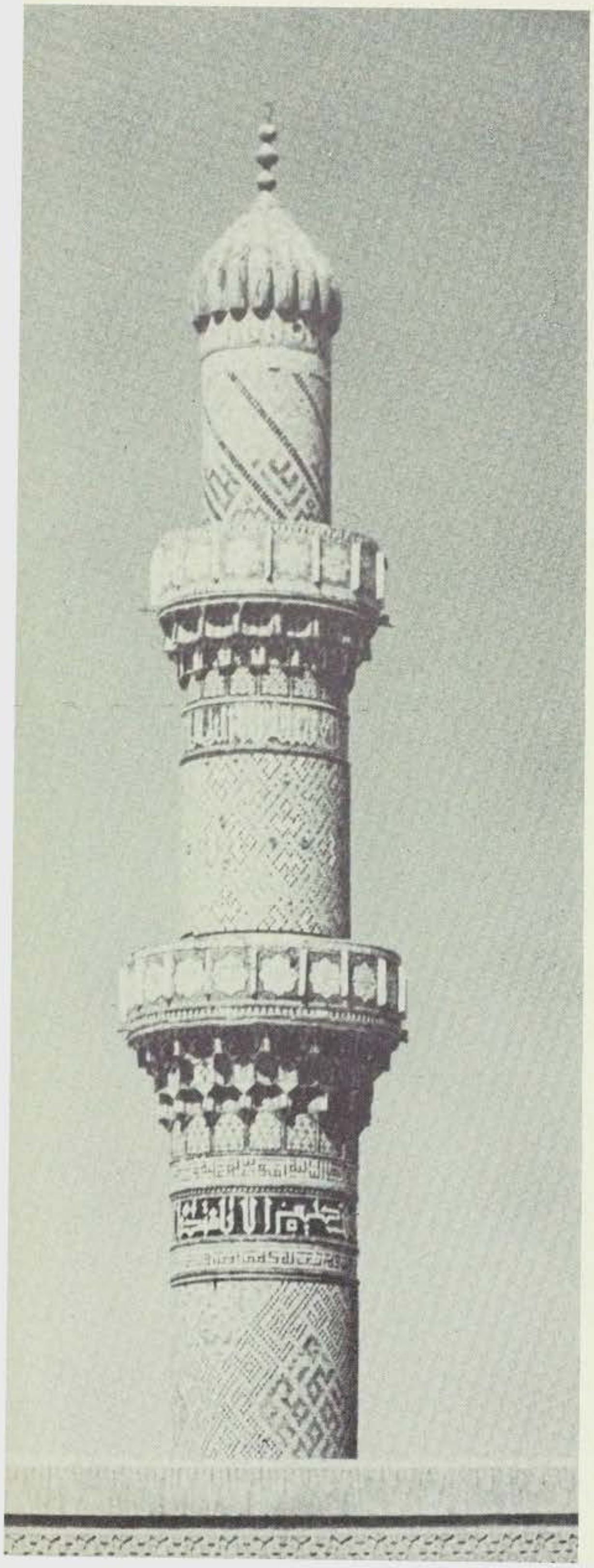


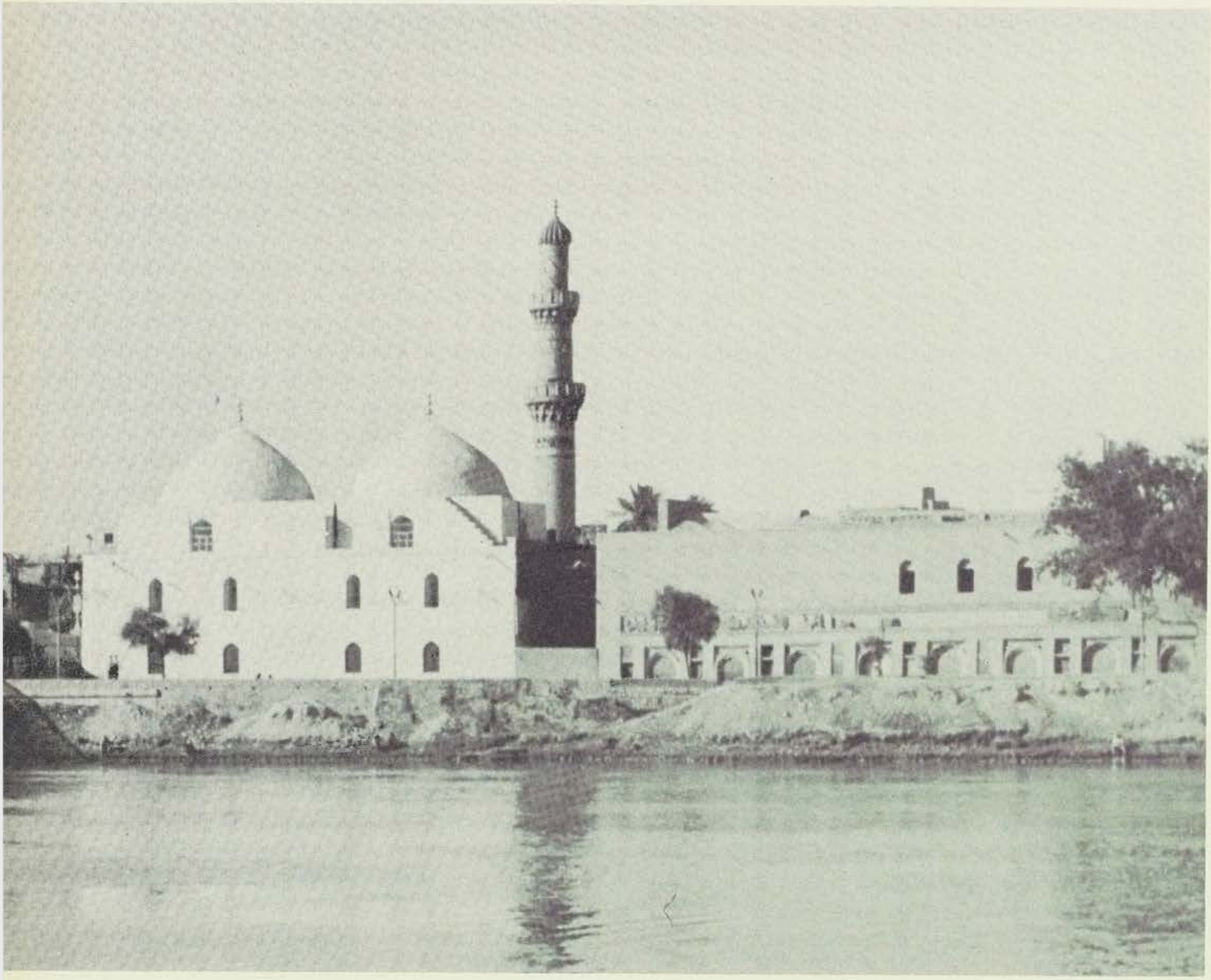
جامع علي أفندي في محلة البارودية ـ الجانب الشرقي



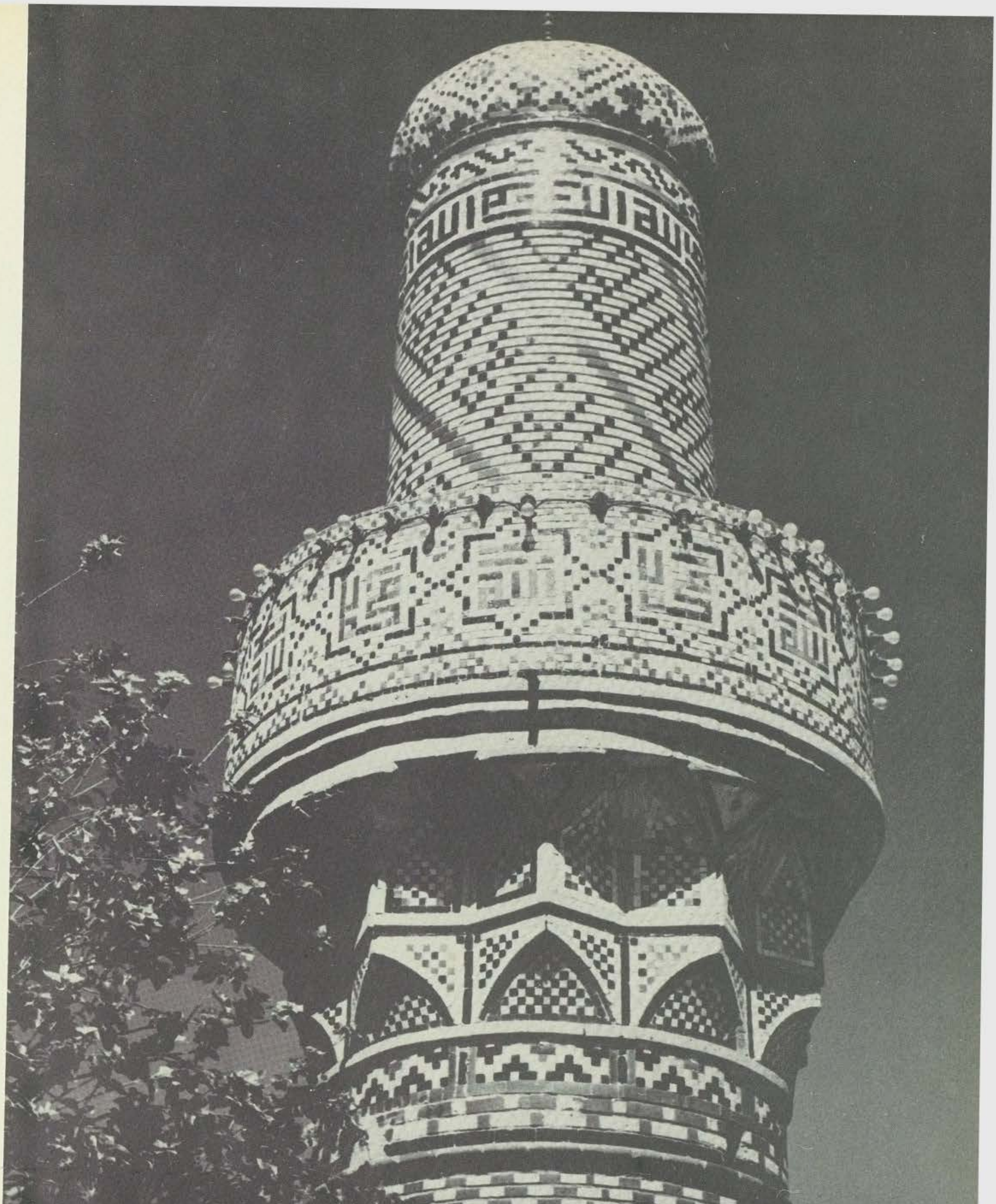
مئذنة مسجد الخلاني ـــ شارع الجمهورية

مئذنة ذات برجين ـ جامع الآصفية





جامع الآصفية في الجانب الشرقي من بغداد (دار القرآن) بجانب المستنصرية

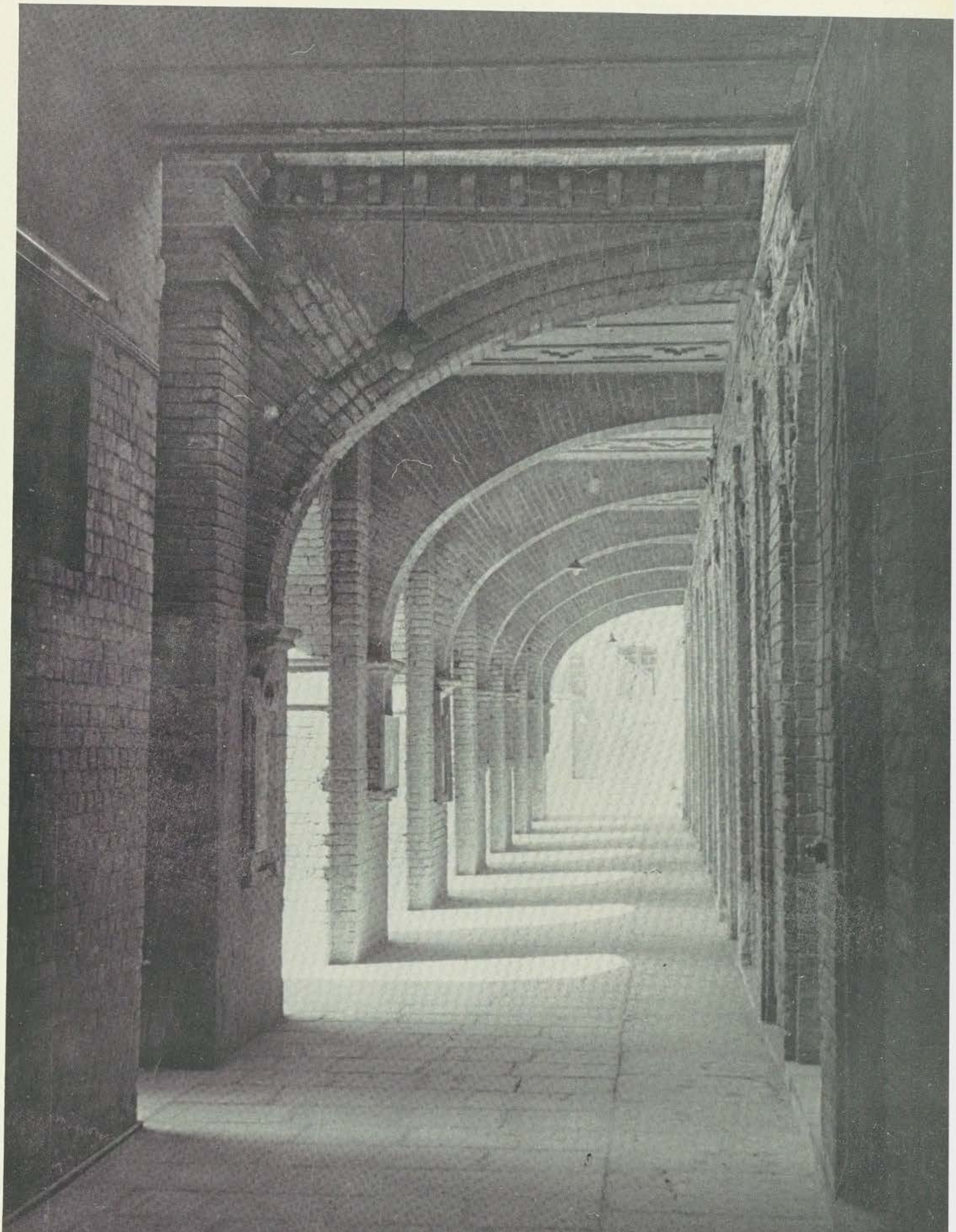


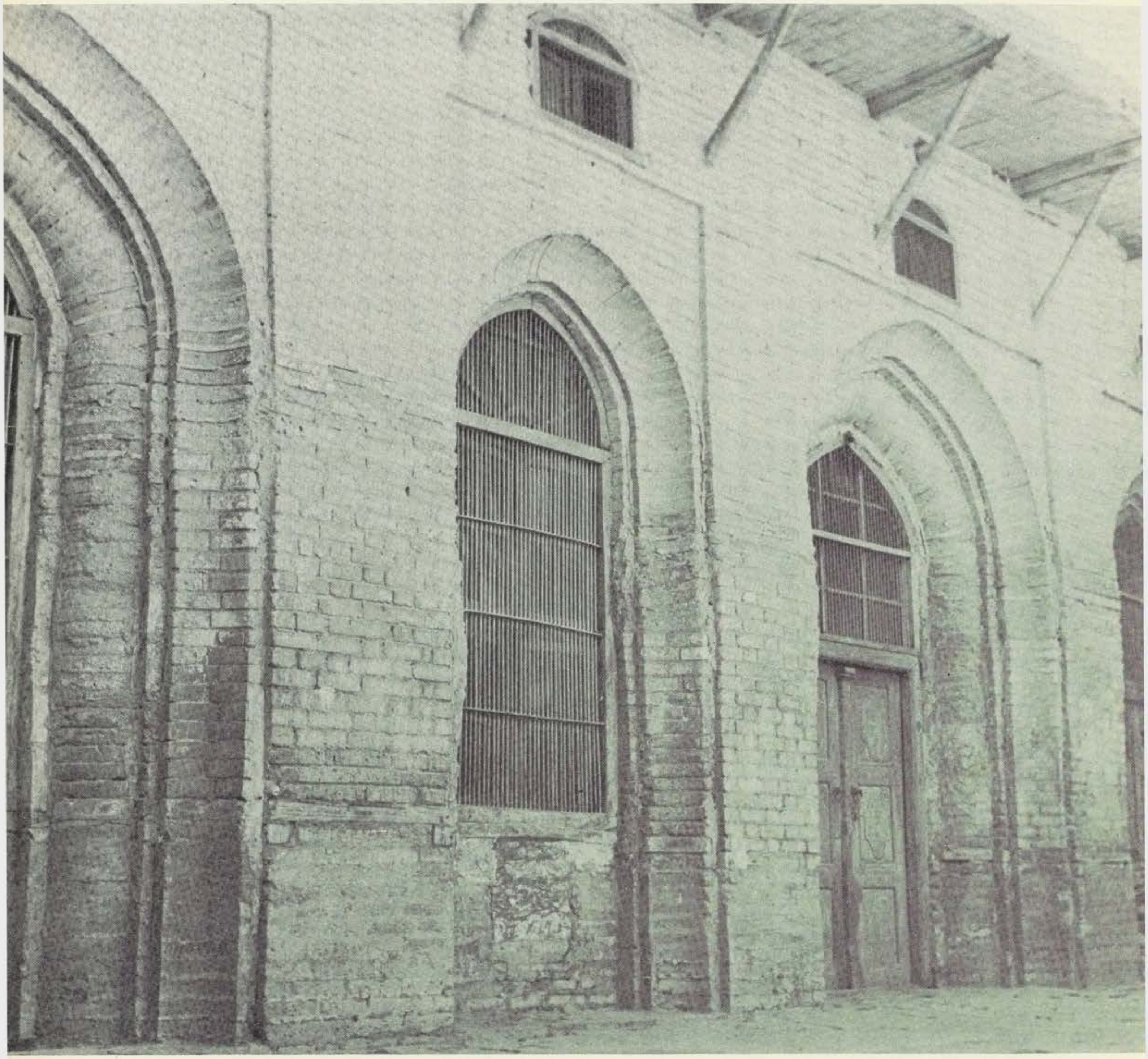
جامع النعمانية ـ الجانب الشرقي



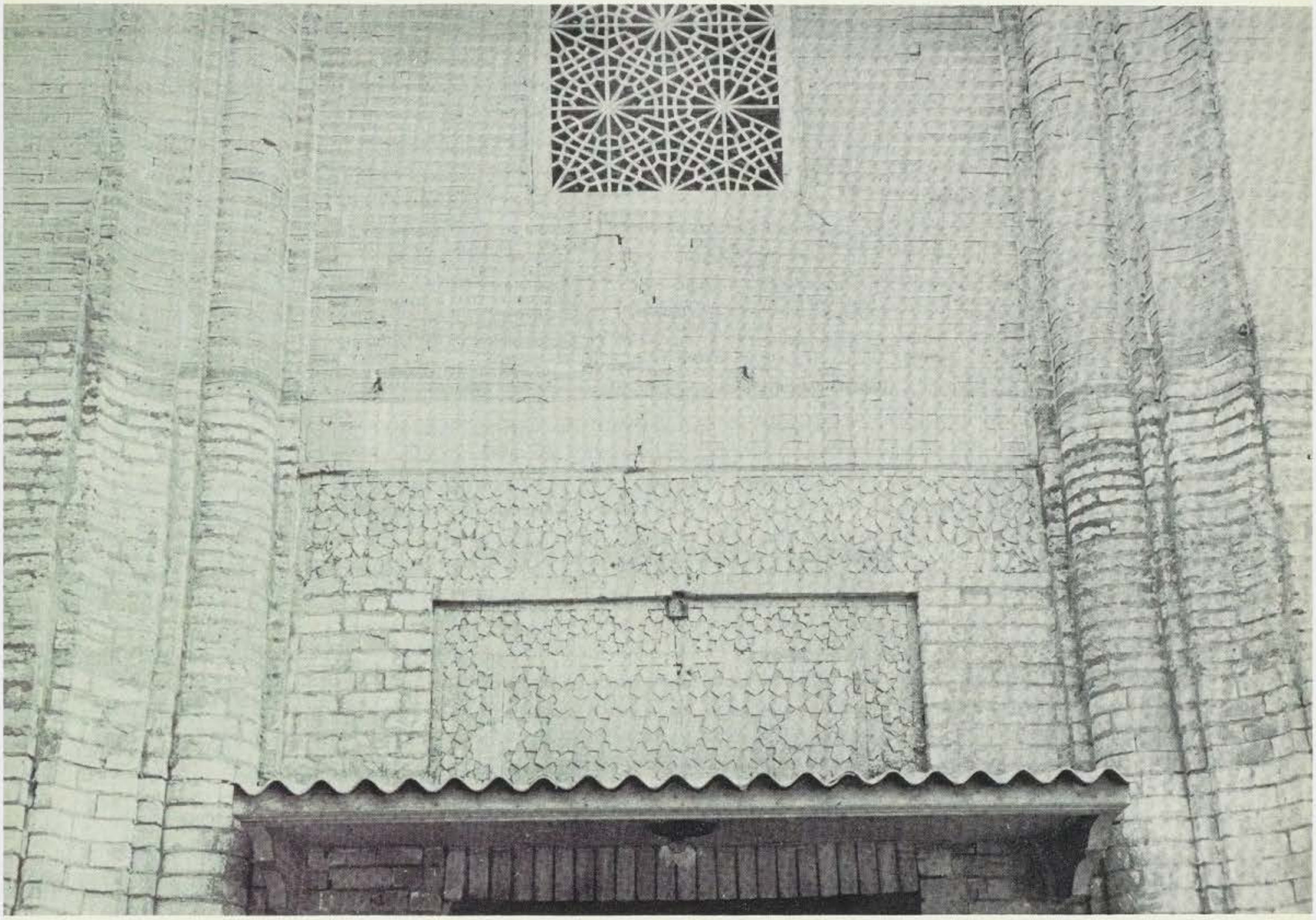
كنيسة اللاتين ــ شارع الجمهورية

رواق لاحدى الكنائس البغدادية

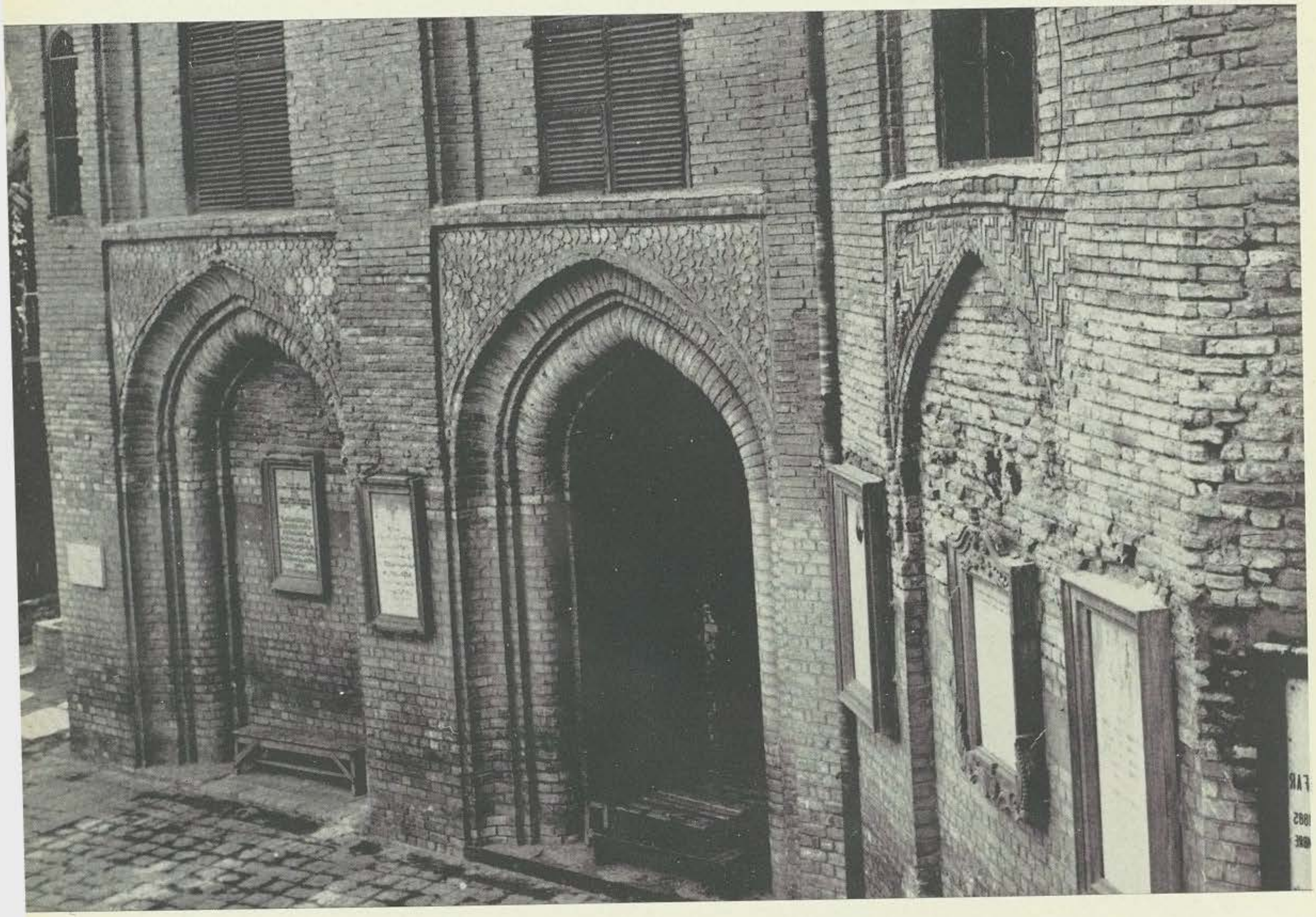




كنيسة العذراء في الميدان من أقدم الكنائس البغدادية

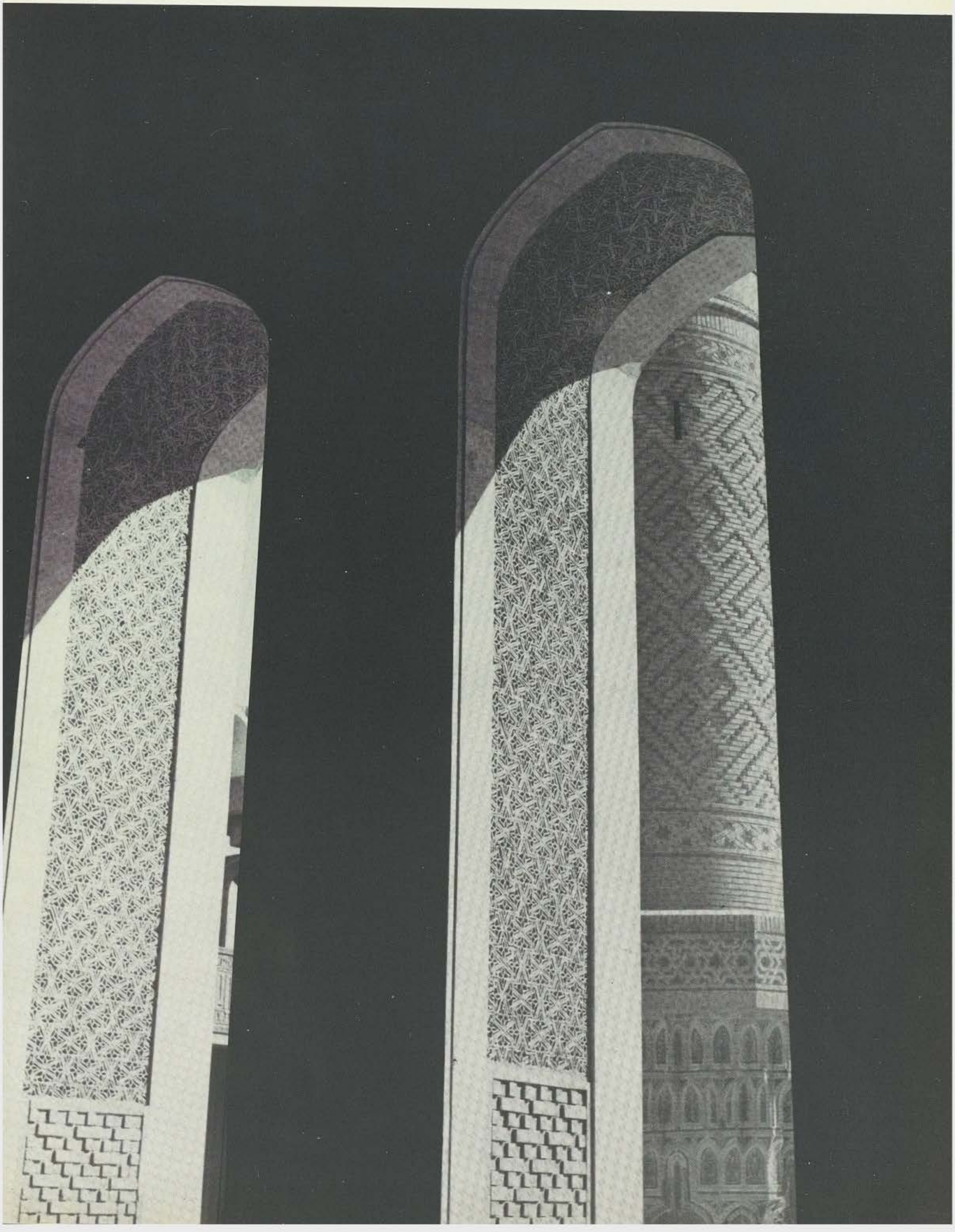


تفاصيل في كنيسة اللاتين

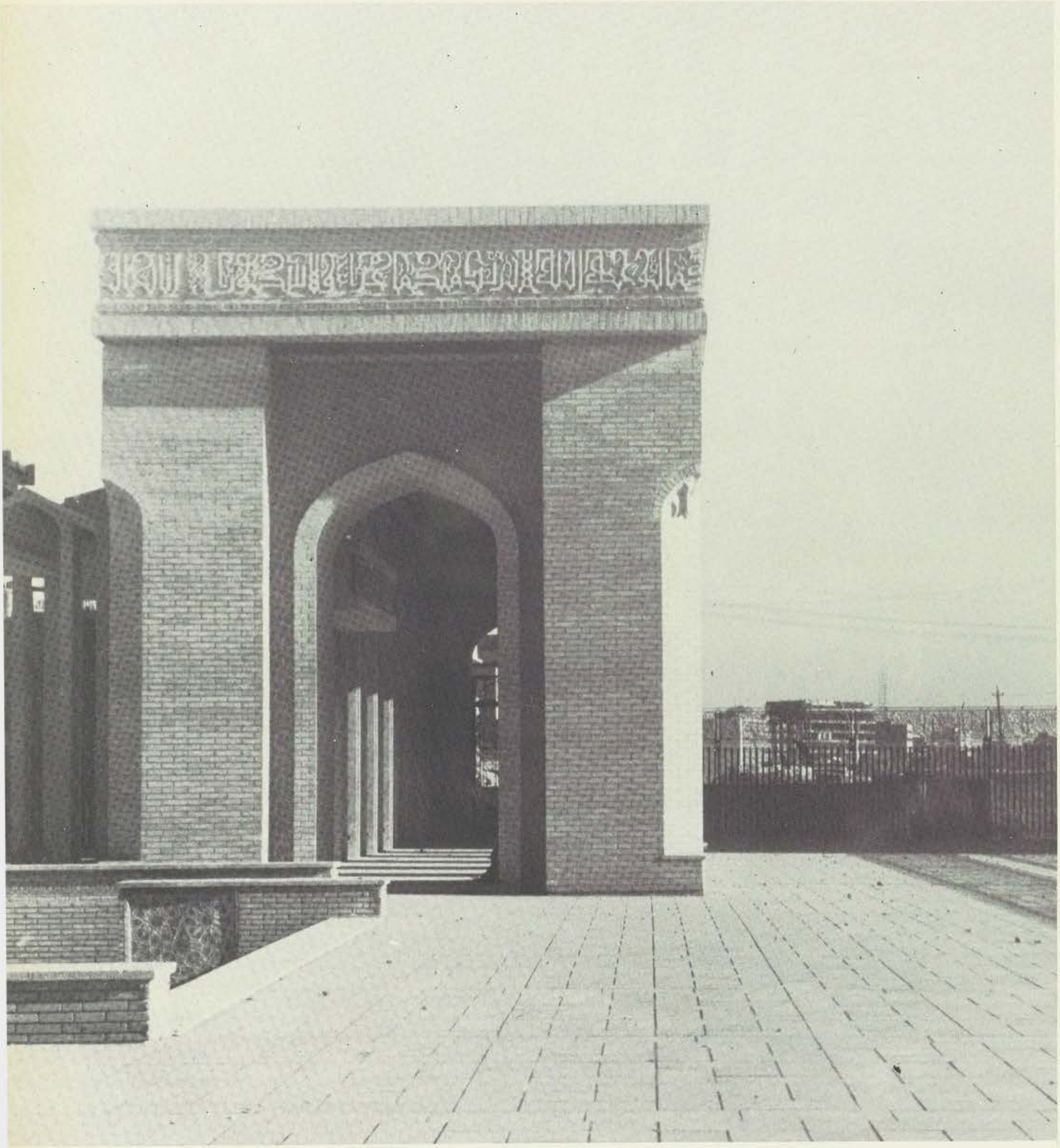


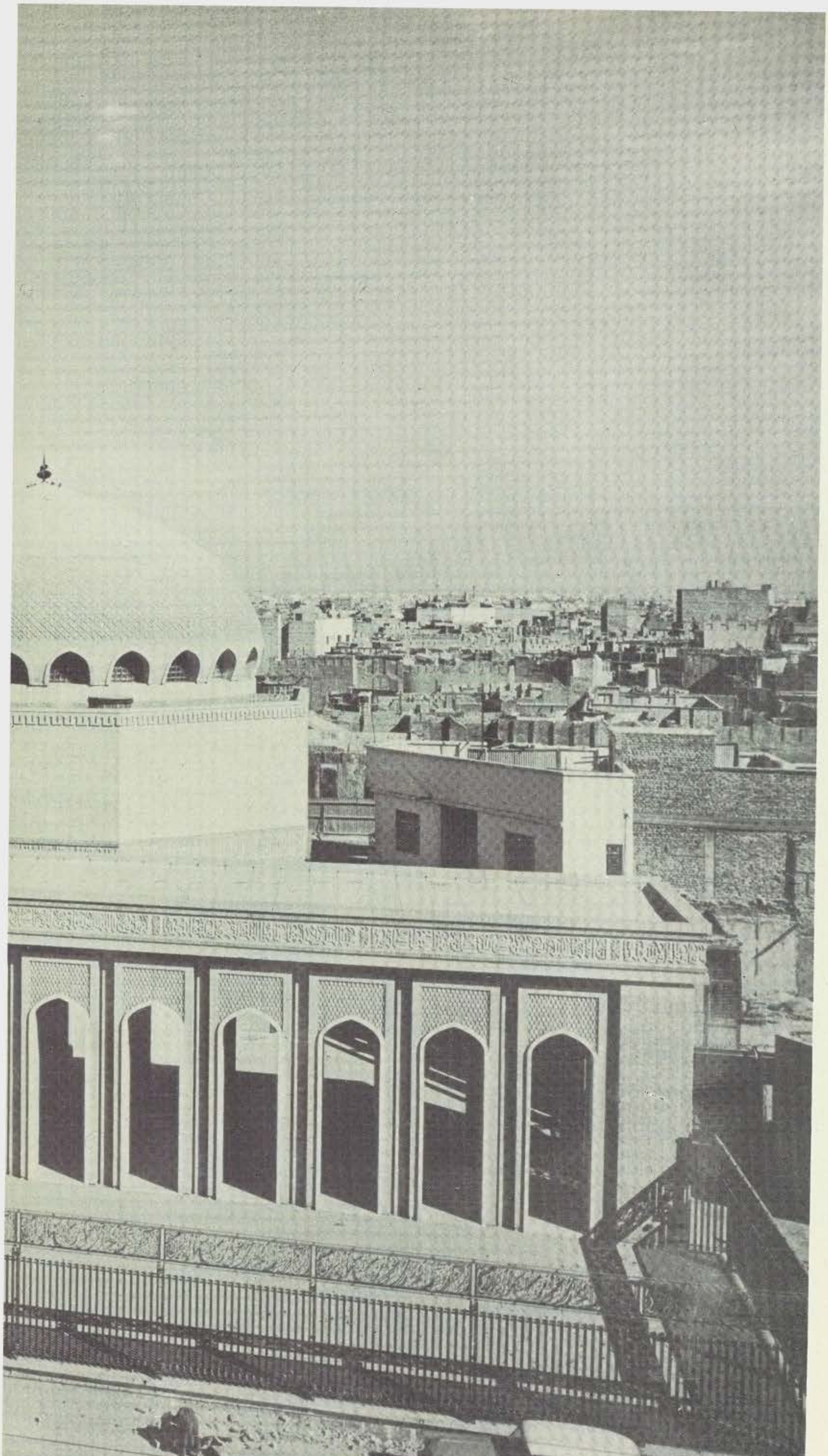
كنيسة القديس يوسف اللاتينية

الزخرفة الآجرية في رواق مدخل مسجد الخلفاء

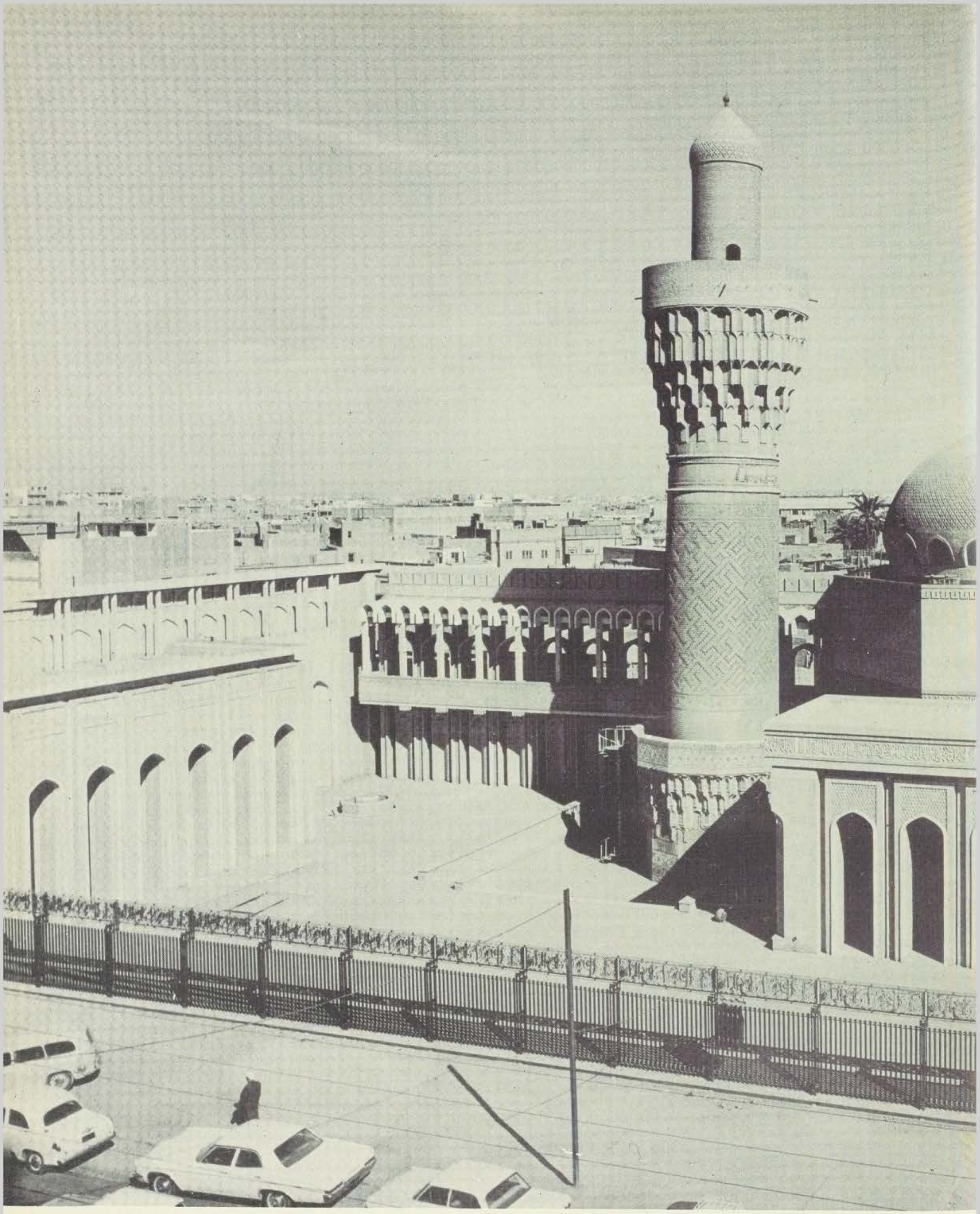


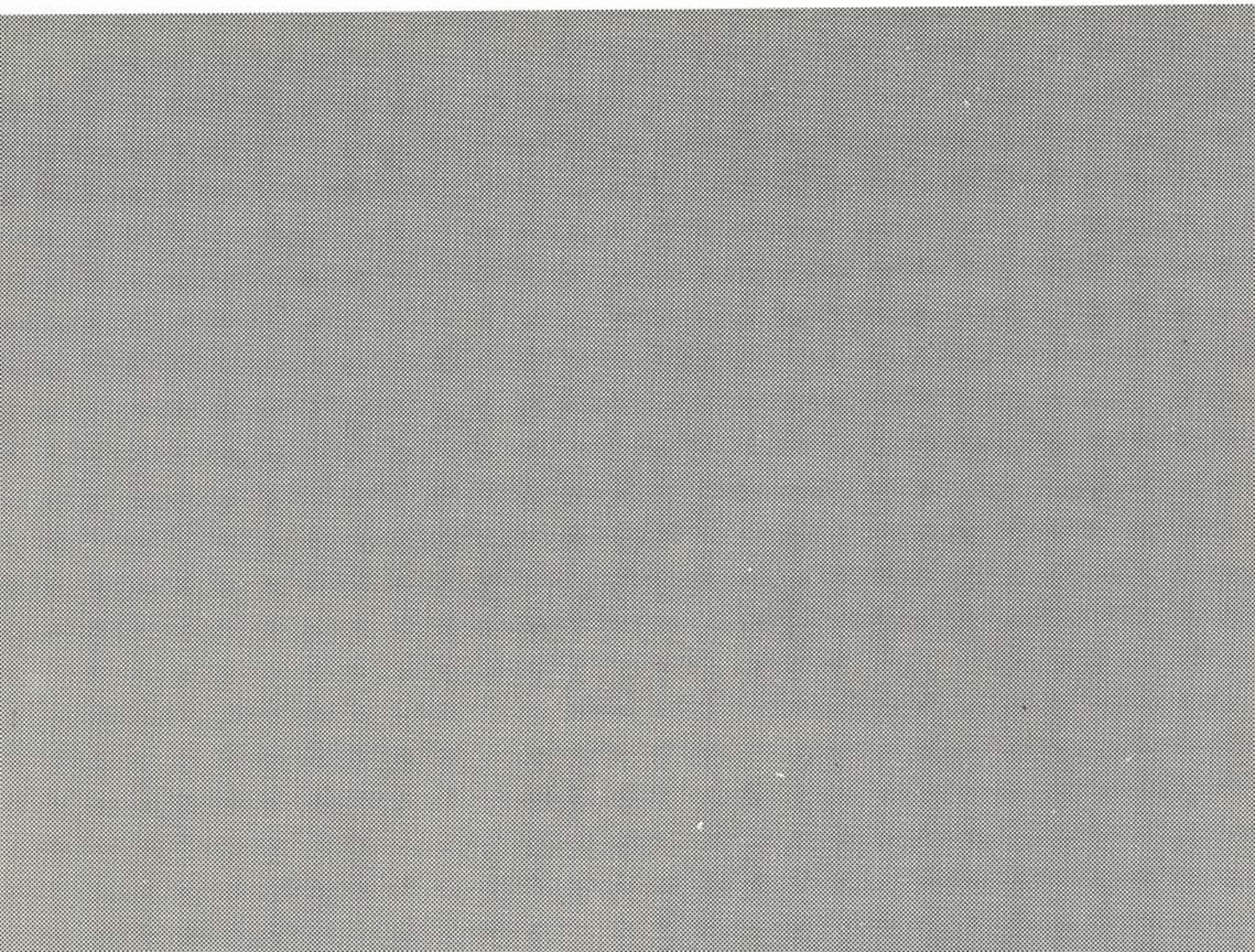
باب الرواق الأمامي لحرم مسجد الخلفاء





منظور عام لجامع الخلفاء (الجديد)





البيئة المعمارية

■ **تؤلف الأسواق** ، واحياء السكن القديمة في بغداد ، الصورة **الكلية** للتراث المعماري الباقي من ماضي هذه المدينة العريقة . ويتميز هذا التراث ، بصفات وخصائص معمارية أصيلة استمدت من روح الكيان الاجتماعي للسكان ، كما عكست متطلبات الحاجة وضرورات المناخ فيها .

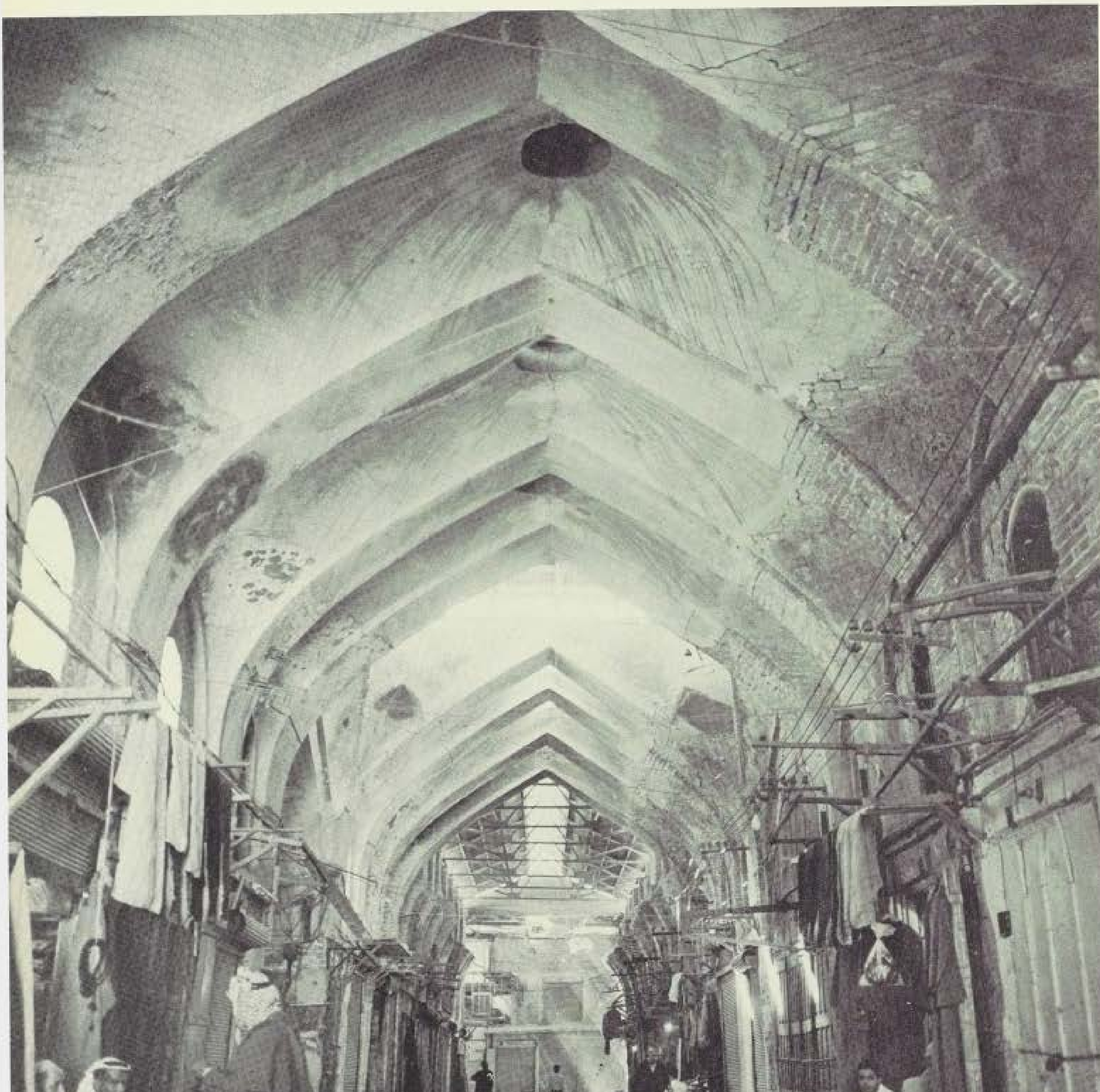
ولعلنا ، ونحن نتصدى ، لهذا الموضوع بمزيد من التبسط ، والشرح في هذا الفصل ، سوف لا ننسى الاشارة الى ما أحرزه المعماري البغدادي من سبق في ايجاد الحلول المناسبة لتلك الجوانب الحيوية الهامة التي تتصل بروح المجتمع أولاً ، كما تتعلق بضرورات البيئة ثانياً . وهذا أمر يجعل من استمرار تلك التقاليد المعمارية ، استمراراً لروح بغداد الرمز ، وحضوراً لبغداد الواقع .



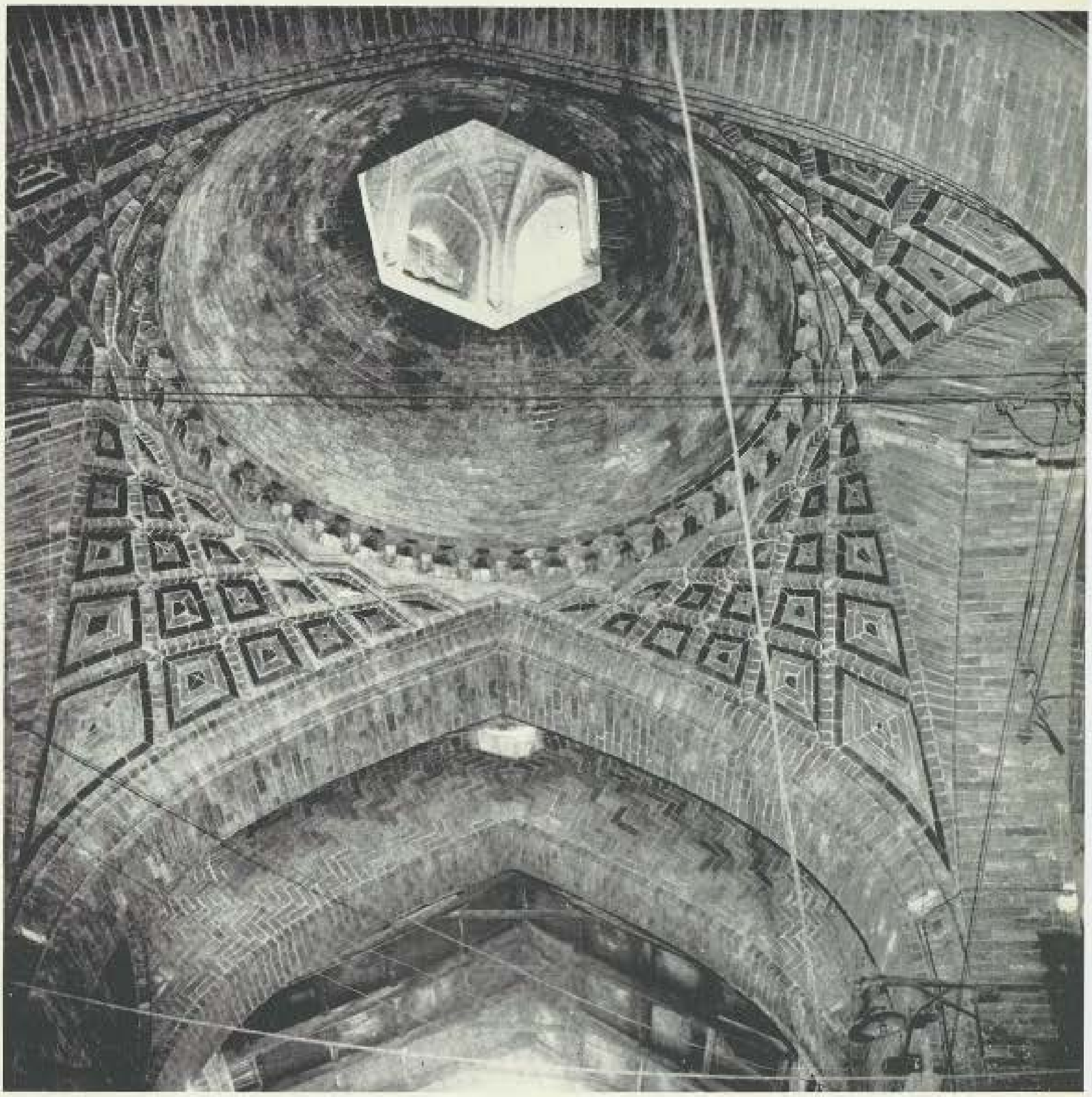
أحد الأسواق المعقودة في بغداد



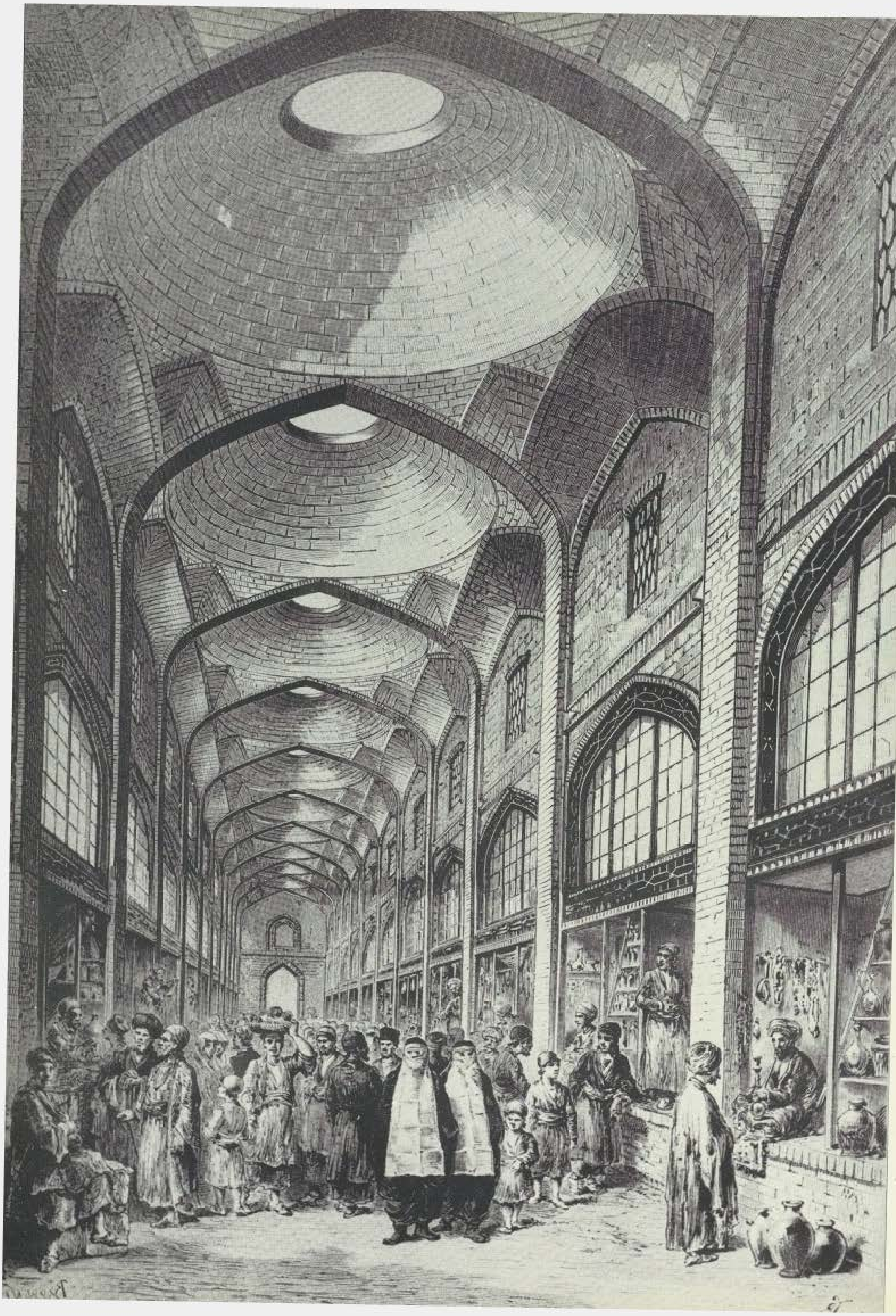
تفاصيل التقبية لسوق السراجين في بغداد



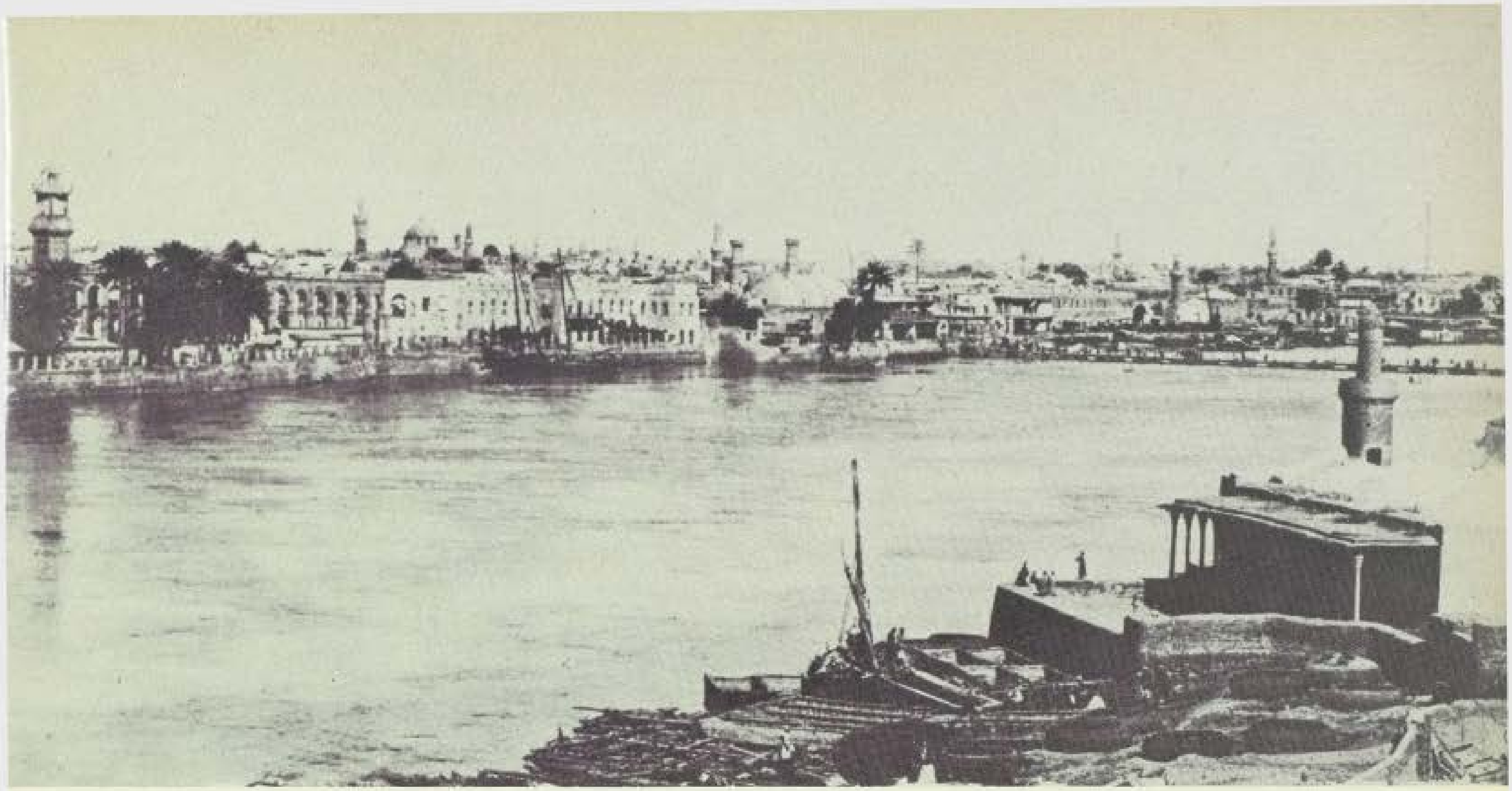
سوق معقود قرب المستنصرية



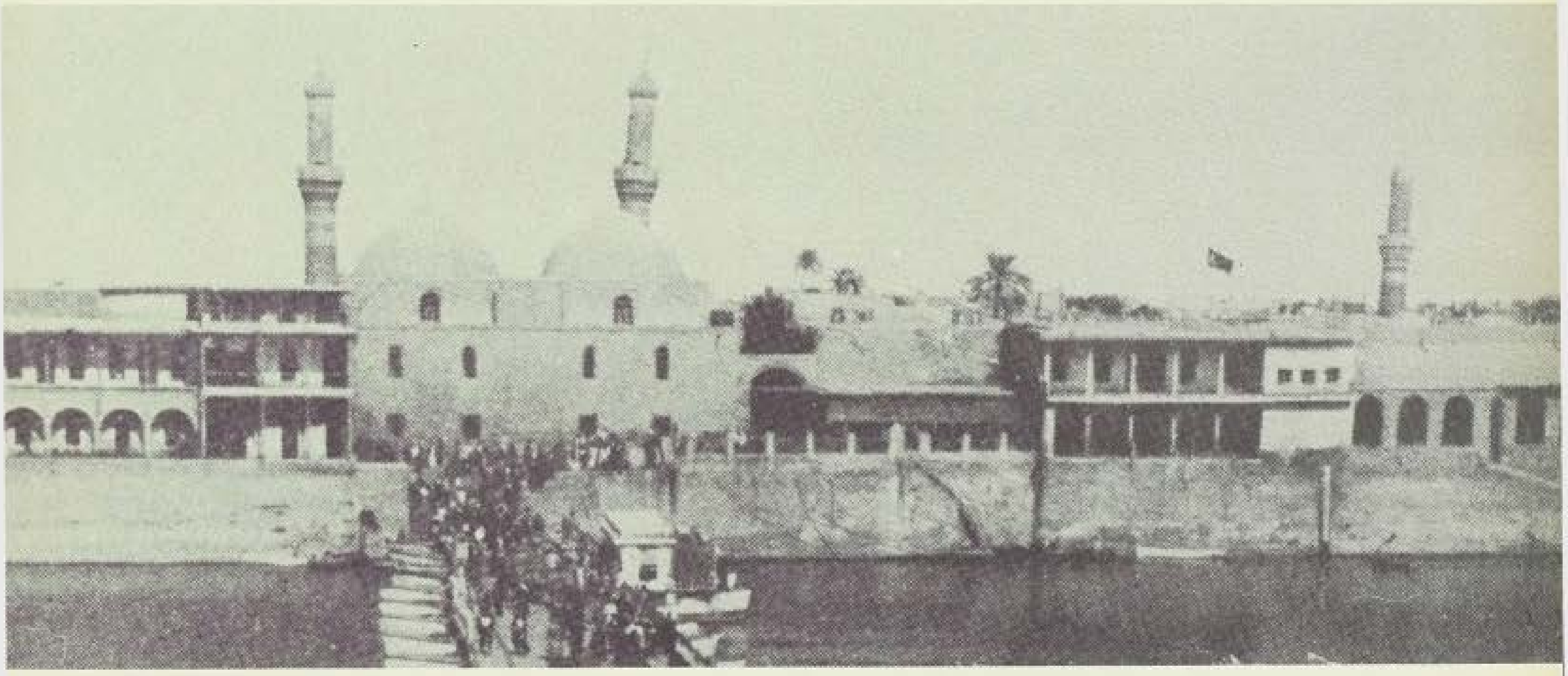
تفاصيل تقبية سوق السراجين



سوق في بغداد - من رسم أحد السواح

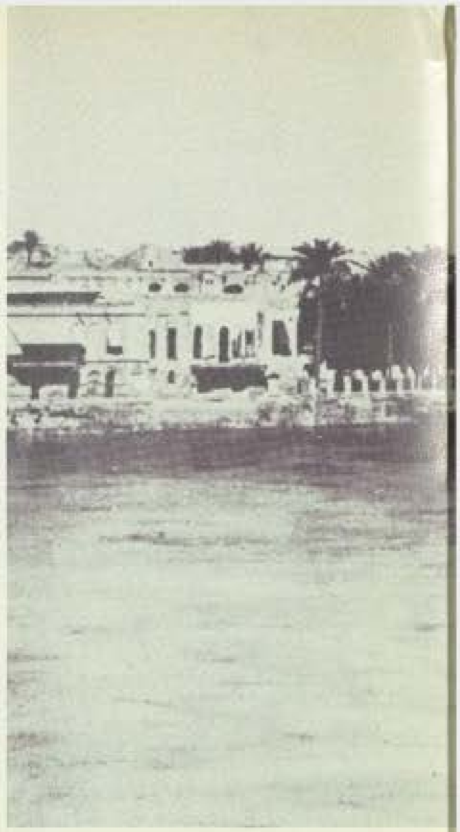


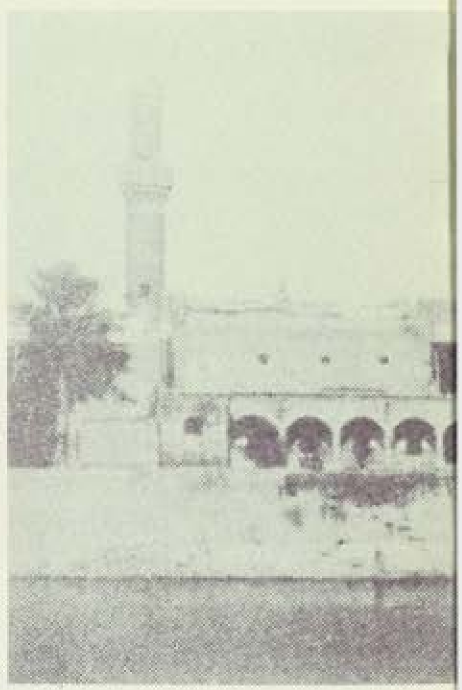
منظور عام للجانب الشرقي النهري



نهاية الجسر القديم (جسر الشهداء) الجانب الشرقي



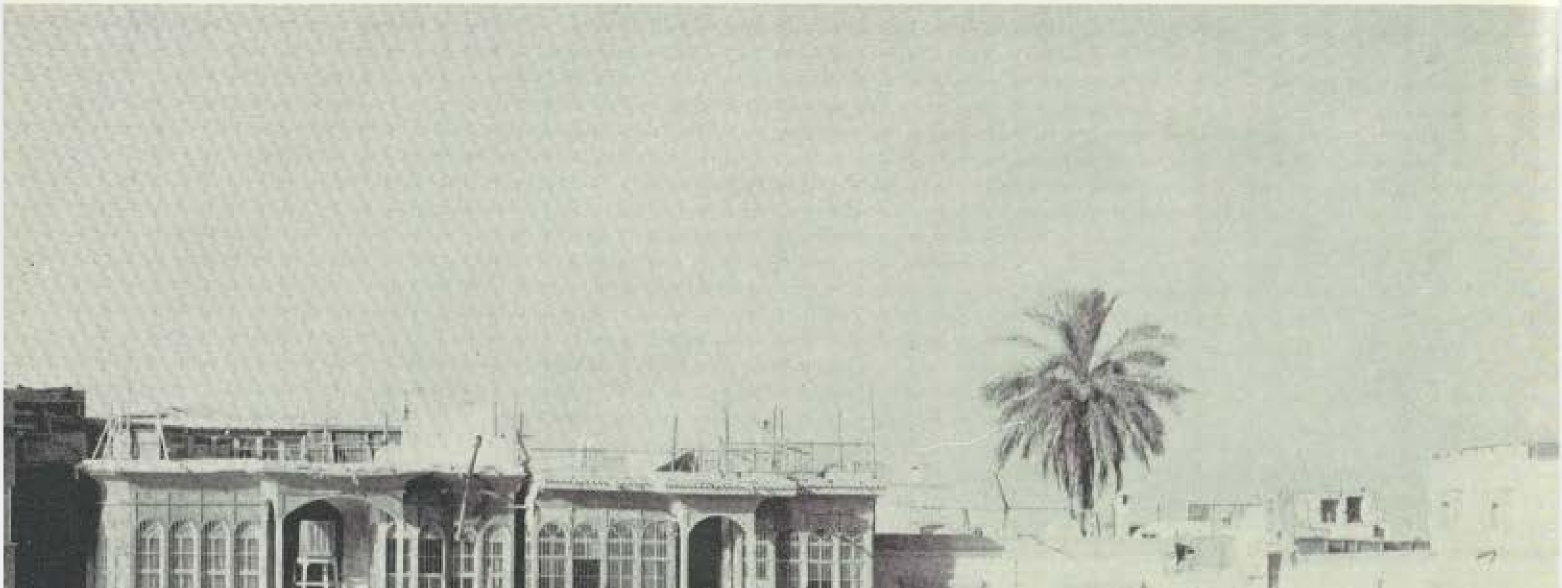




بيت بغدادي على النهر

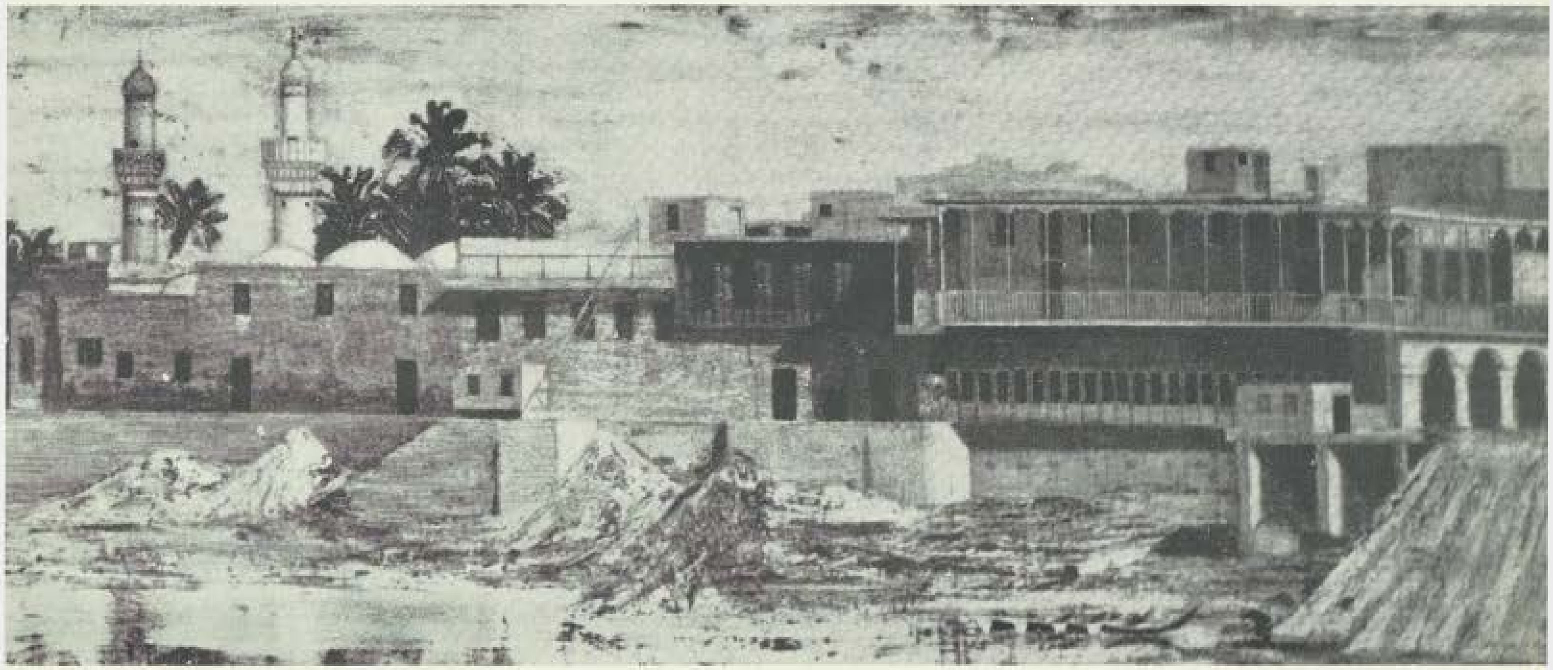


بيوت وزقاق مطلة على النهر في الضفة الشرقية



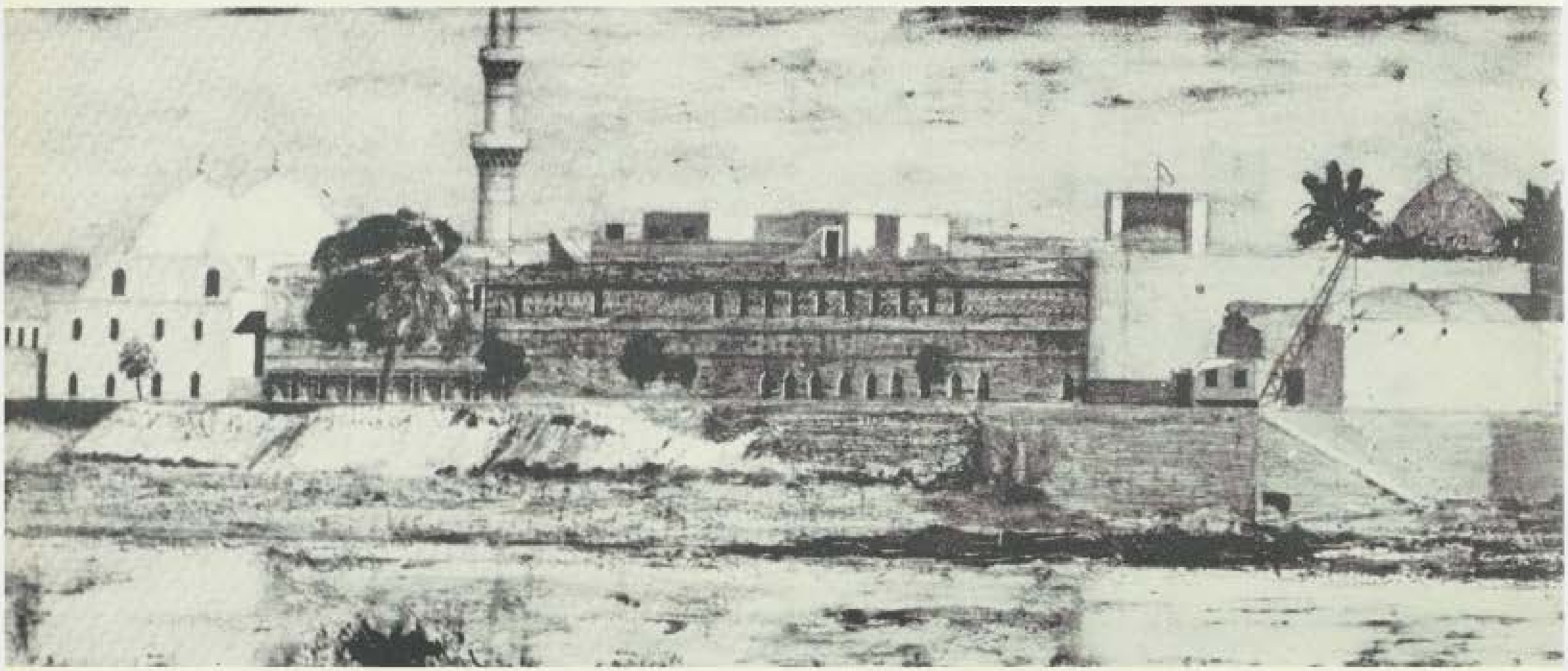
الواجهات النهرية يعض البيوت البغدادية

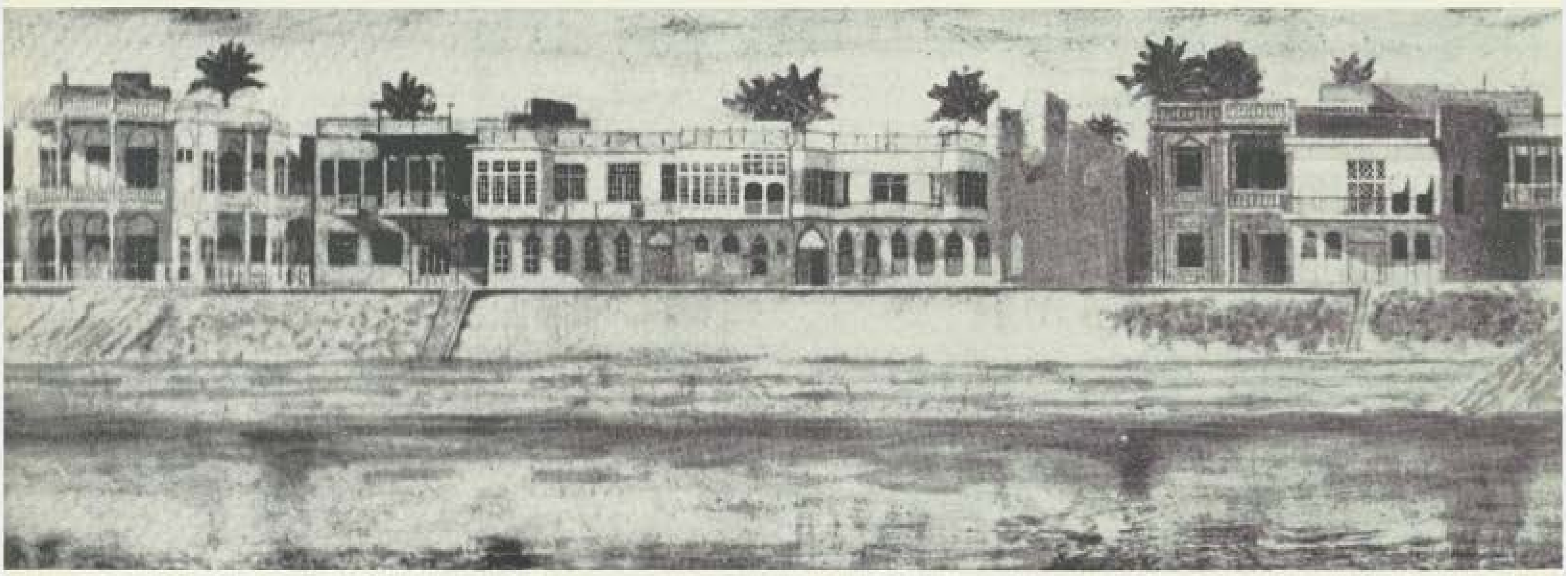
الساحل النهري (لجانب الرصافة) ـــ للورنا السعيد





الساحل النهري (لجانب الكرخ) ـــ للورنا سعيد





من أطراف بغداد الساحلية

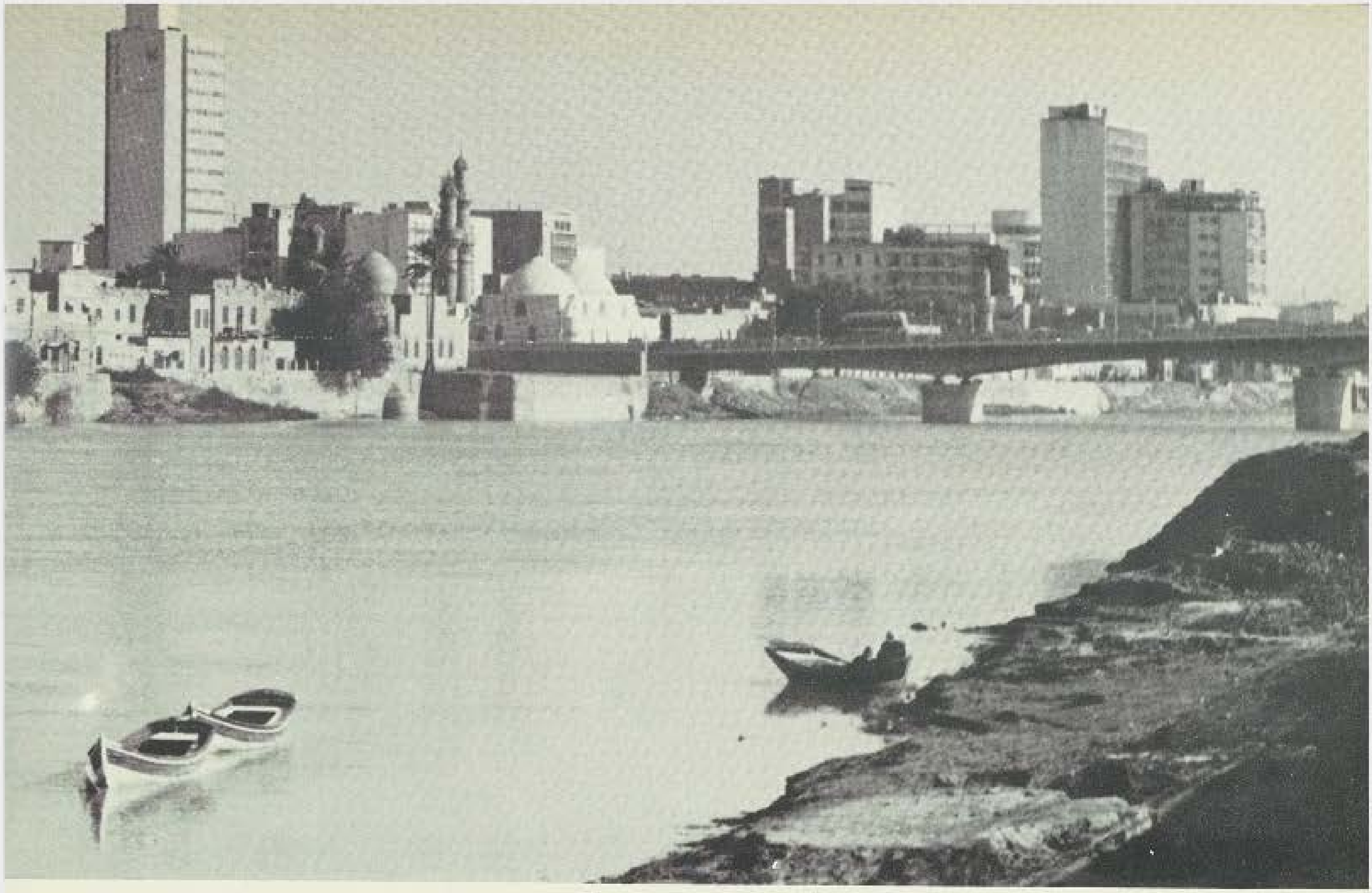


من بيئة معالم بغداد النهرية (في بداية القرن الحالي)





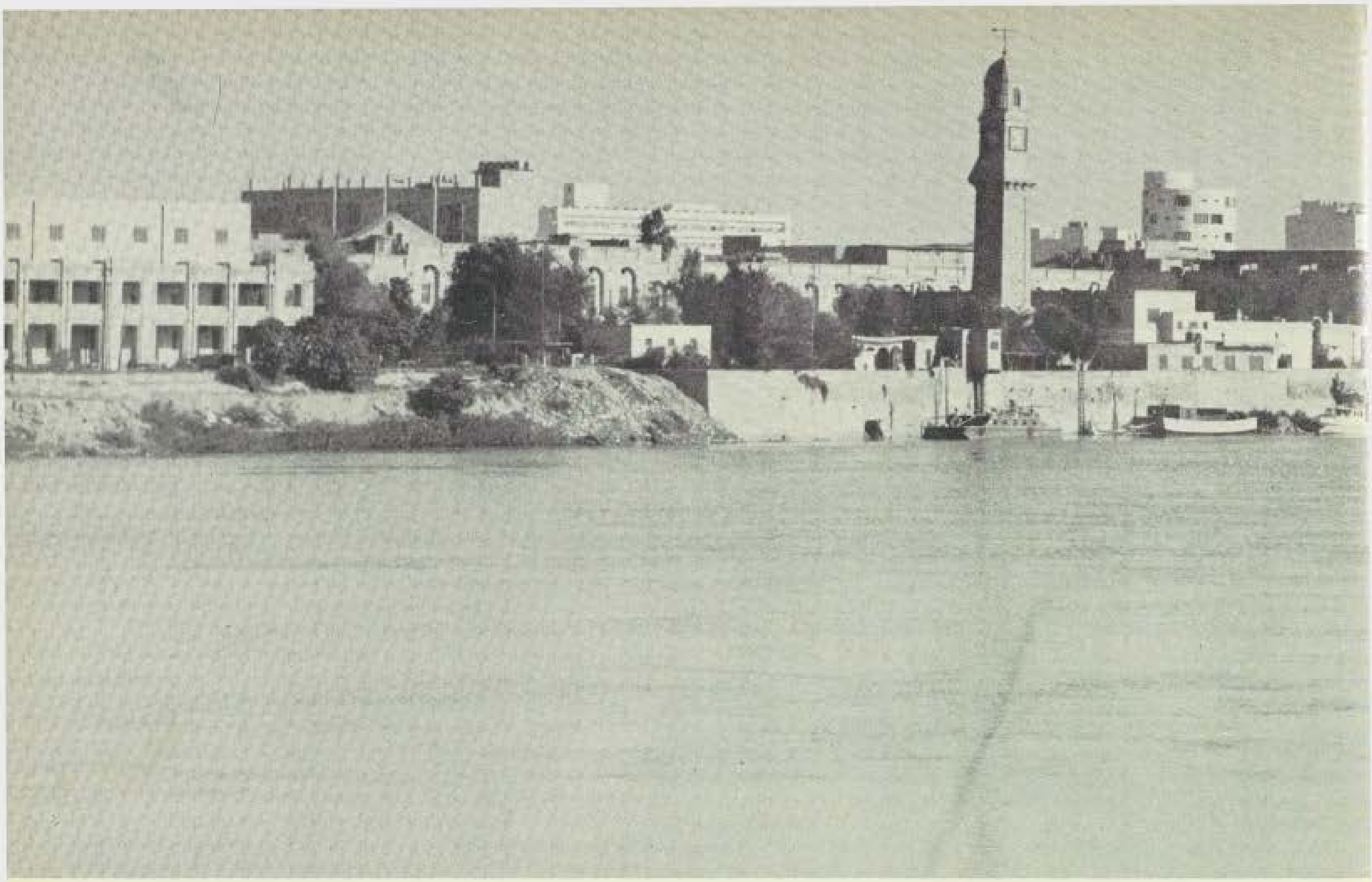
أحد البيوت البغدادية على ساحل دجلة

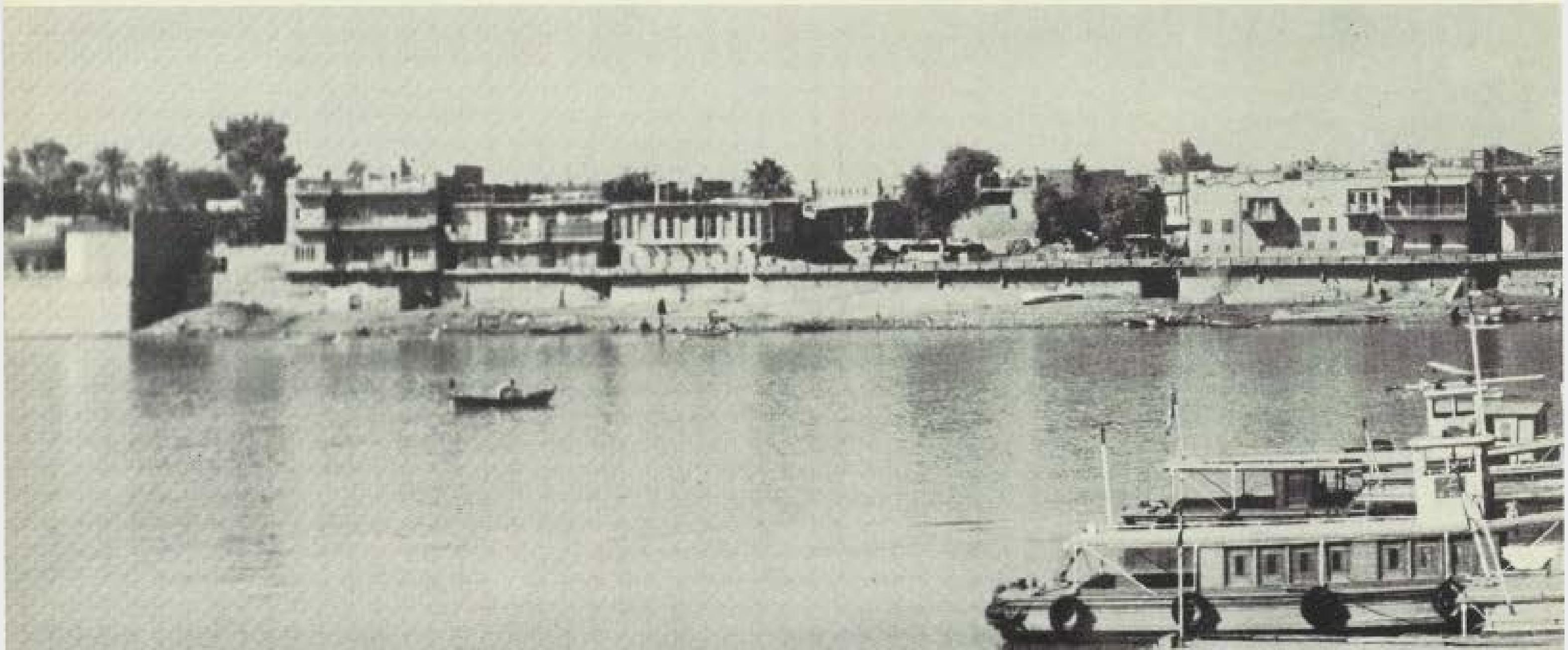


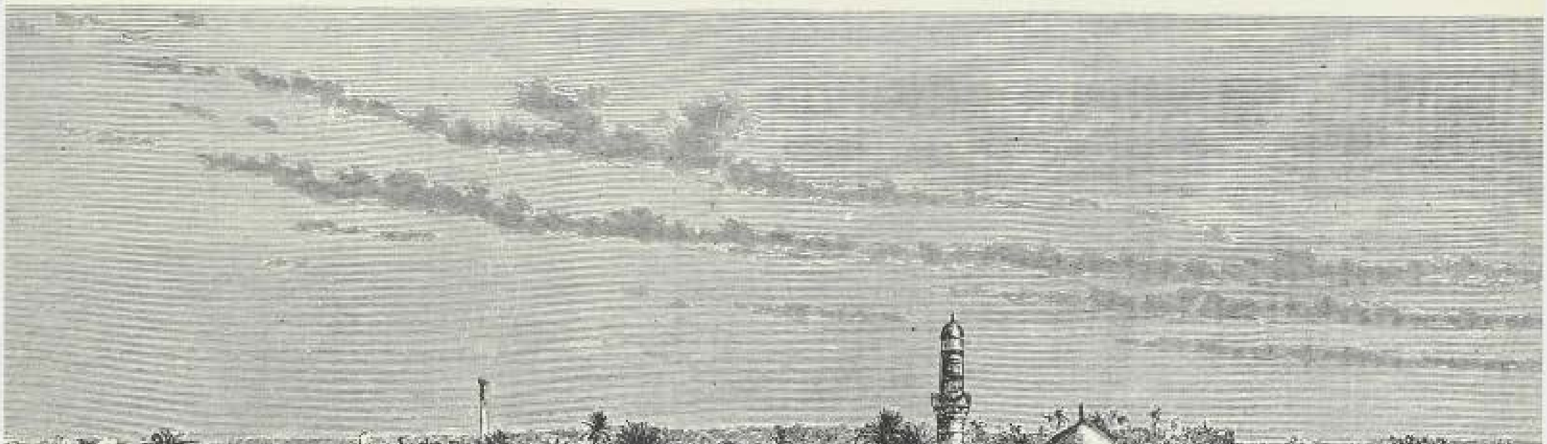
الساحل النهري (لجانب الرصافة)

الساحل النهري الغربي لمدينة بغداد (الكرخ)

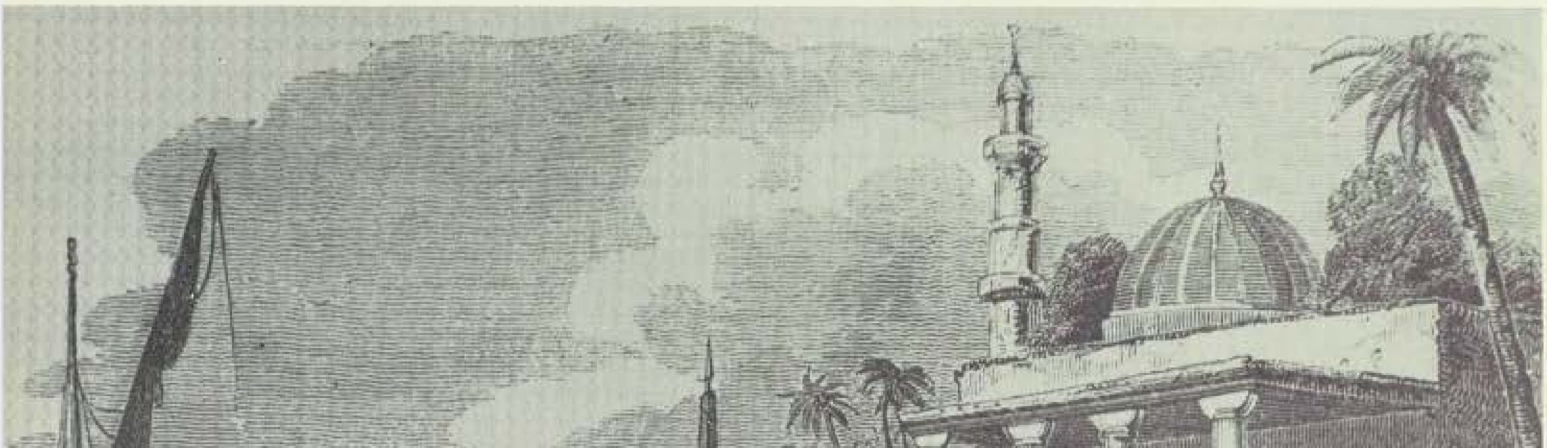








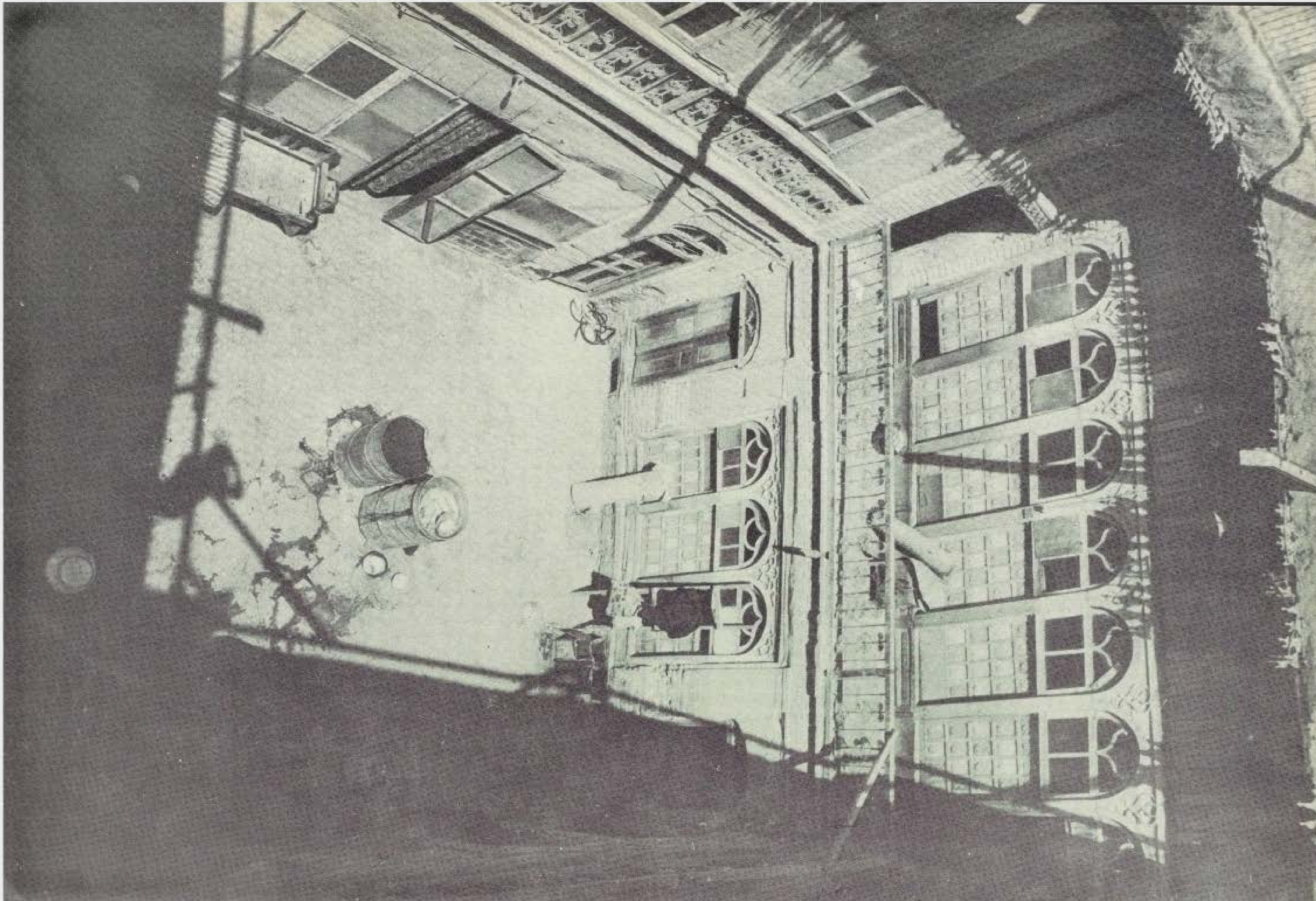
بغداد ـ من رسم أحد السواح



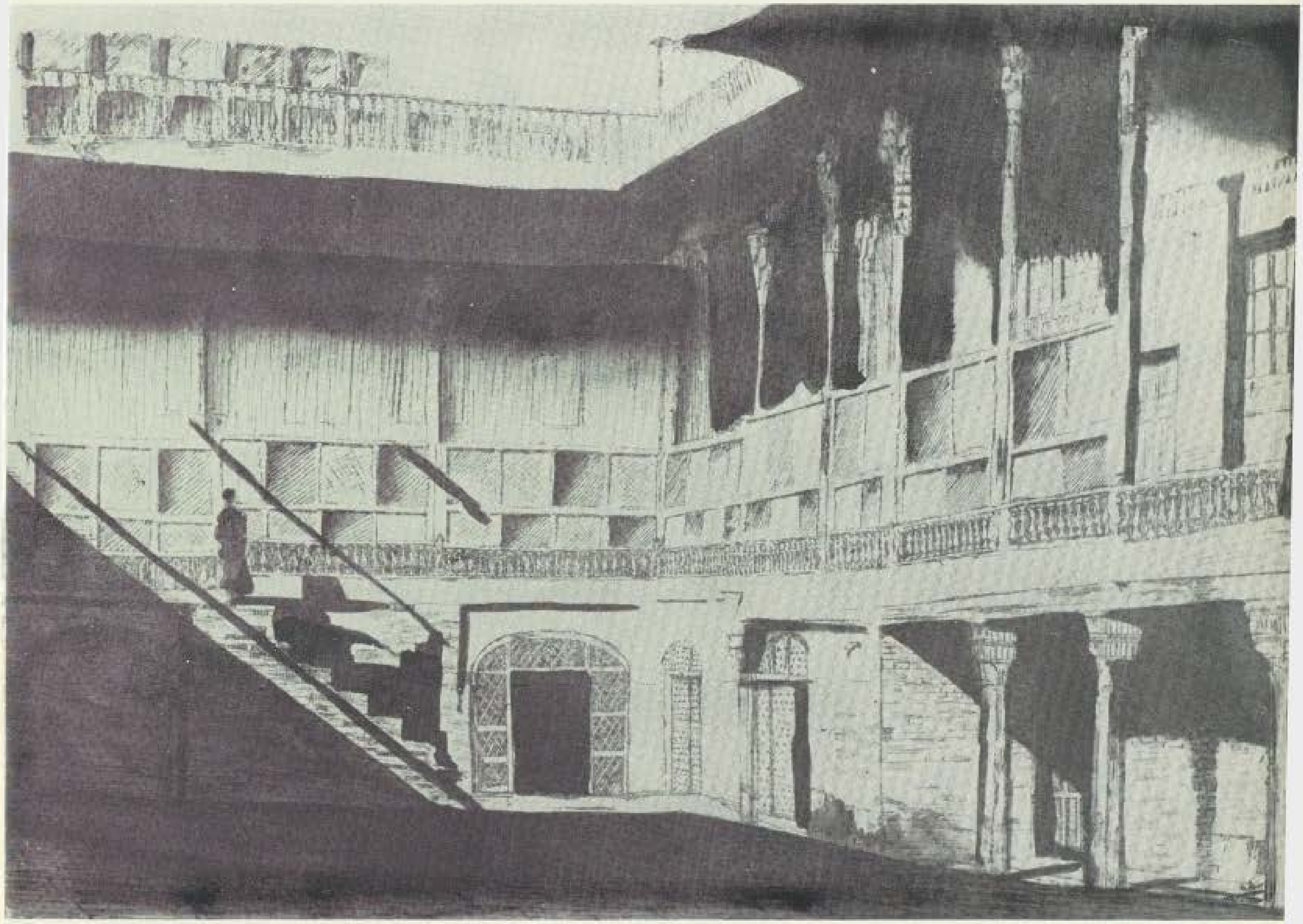
مقهى بغدادي على ساحل دجلة كما صوره السواح



منظور داخلي لمدرسة بغدادية



الساحة الوسطية داخل البيت « نموذج للدور البغدادية »



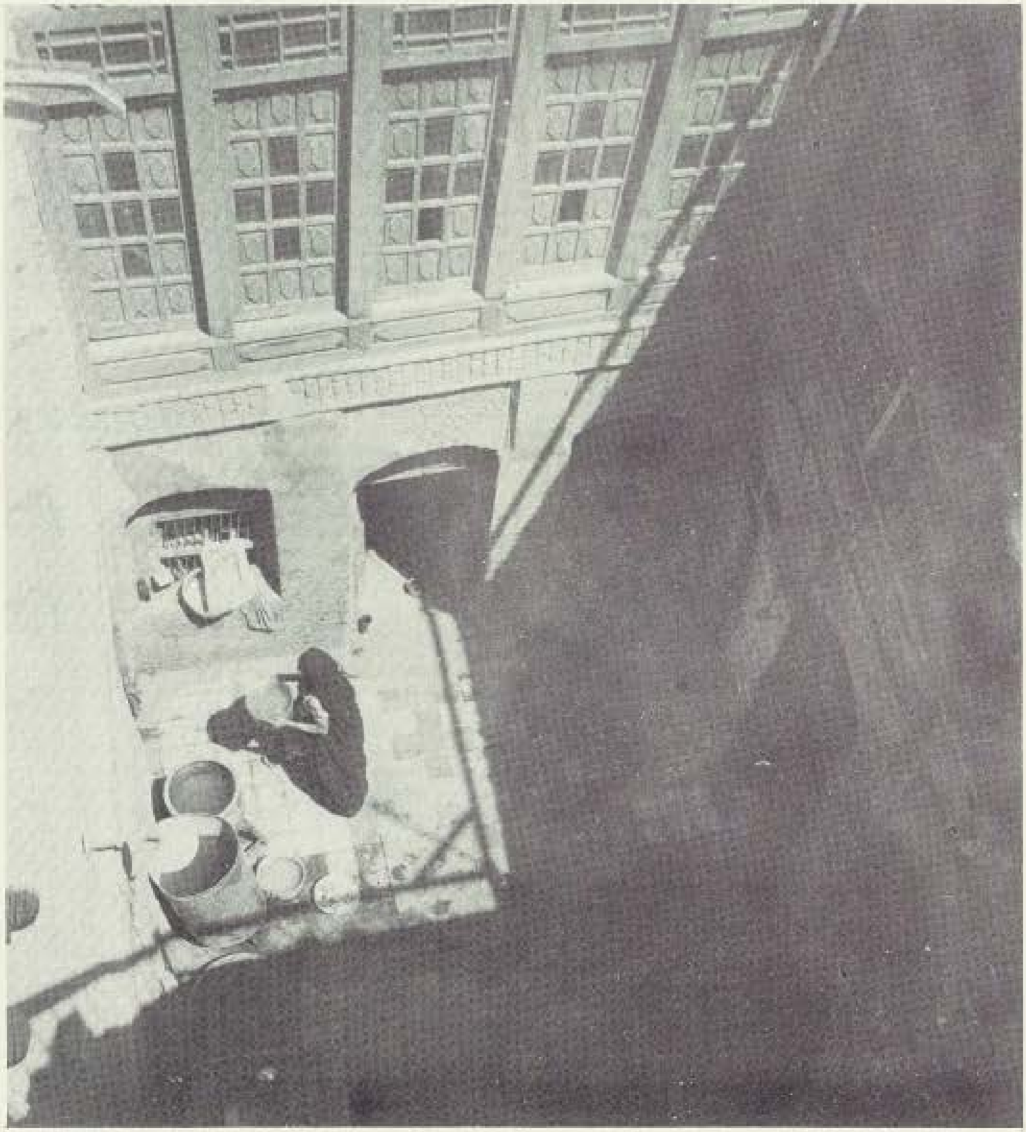
الساحة الوسطية لمبنى السفارة البريطانية كما نشرت في كتاب فلكس جونس عن بغداد



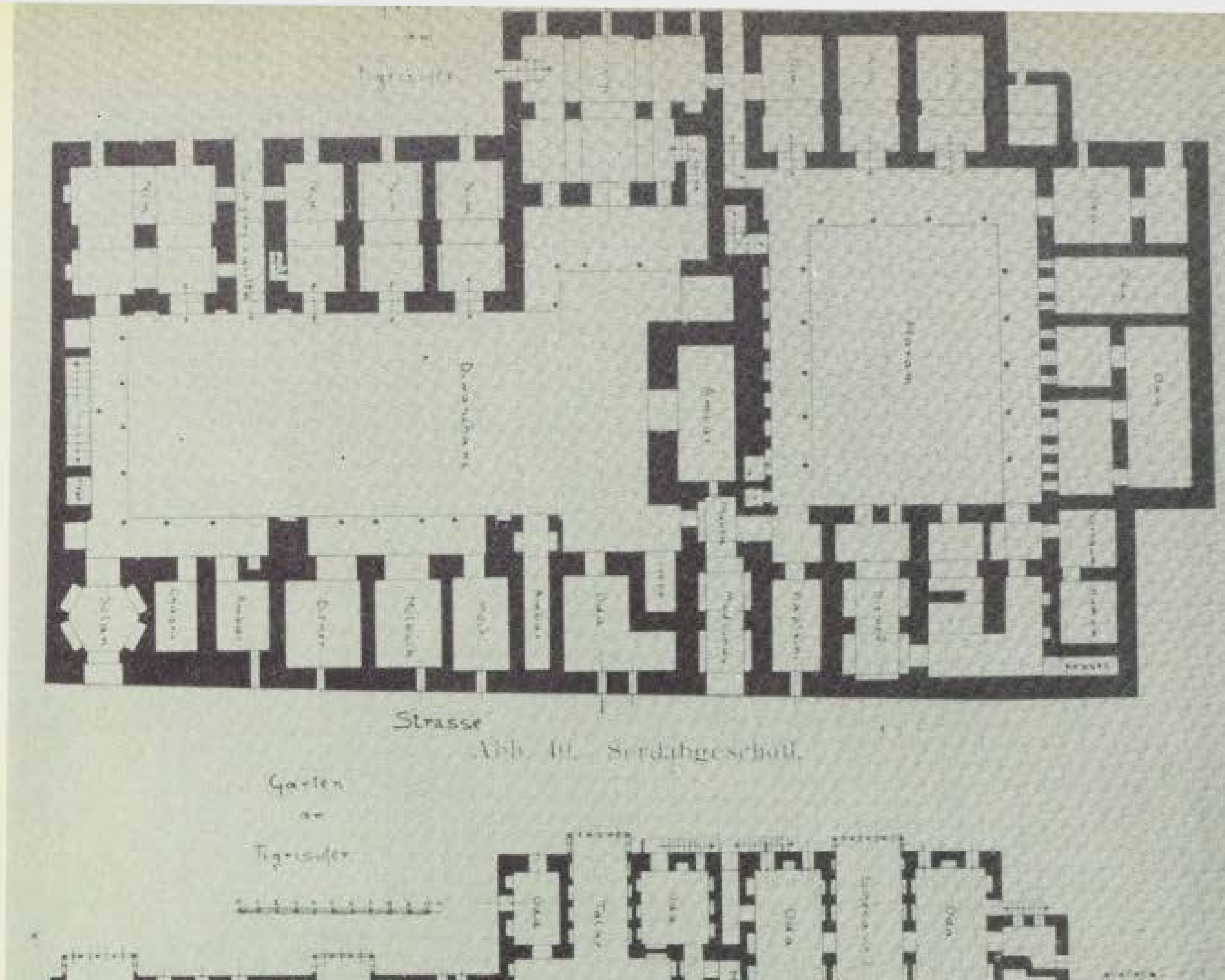
قوام العمود الخشبي في الهيكل العام ـــ حسينية الحيدري



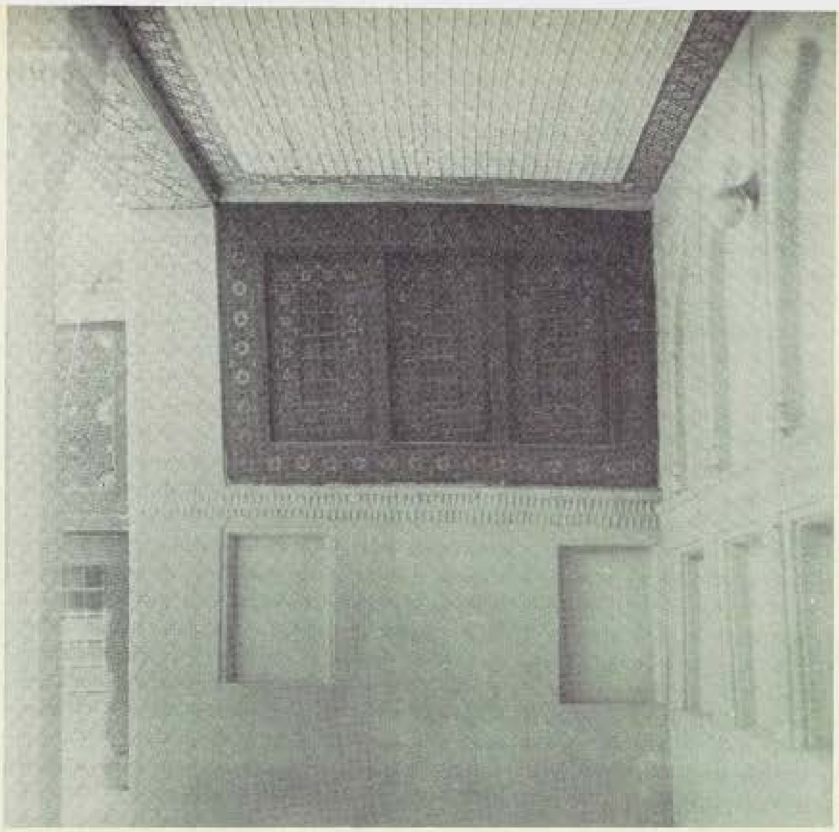
الرواق الداخلي حول الساحة الوسطية في مباني الدور ذات المنزلة الاجتماعية الهامة «مبنى وزارة التربية والتعليم ـــ السراي



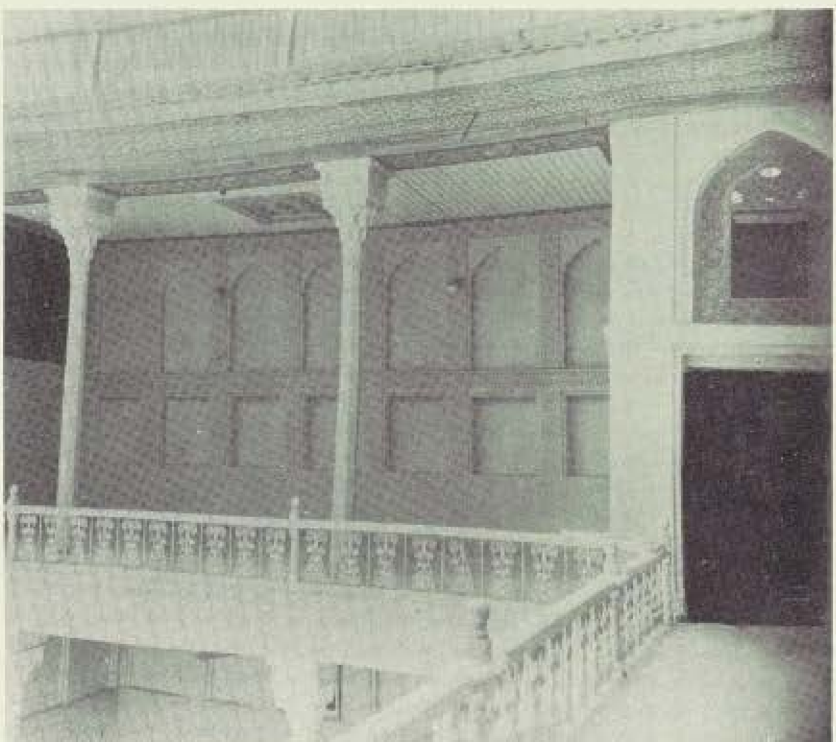
مثال آخر للساحة الوسطية في بيت بغدادي صغير



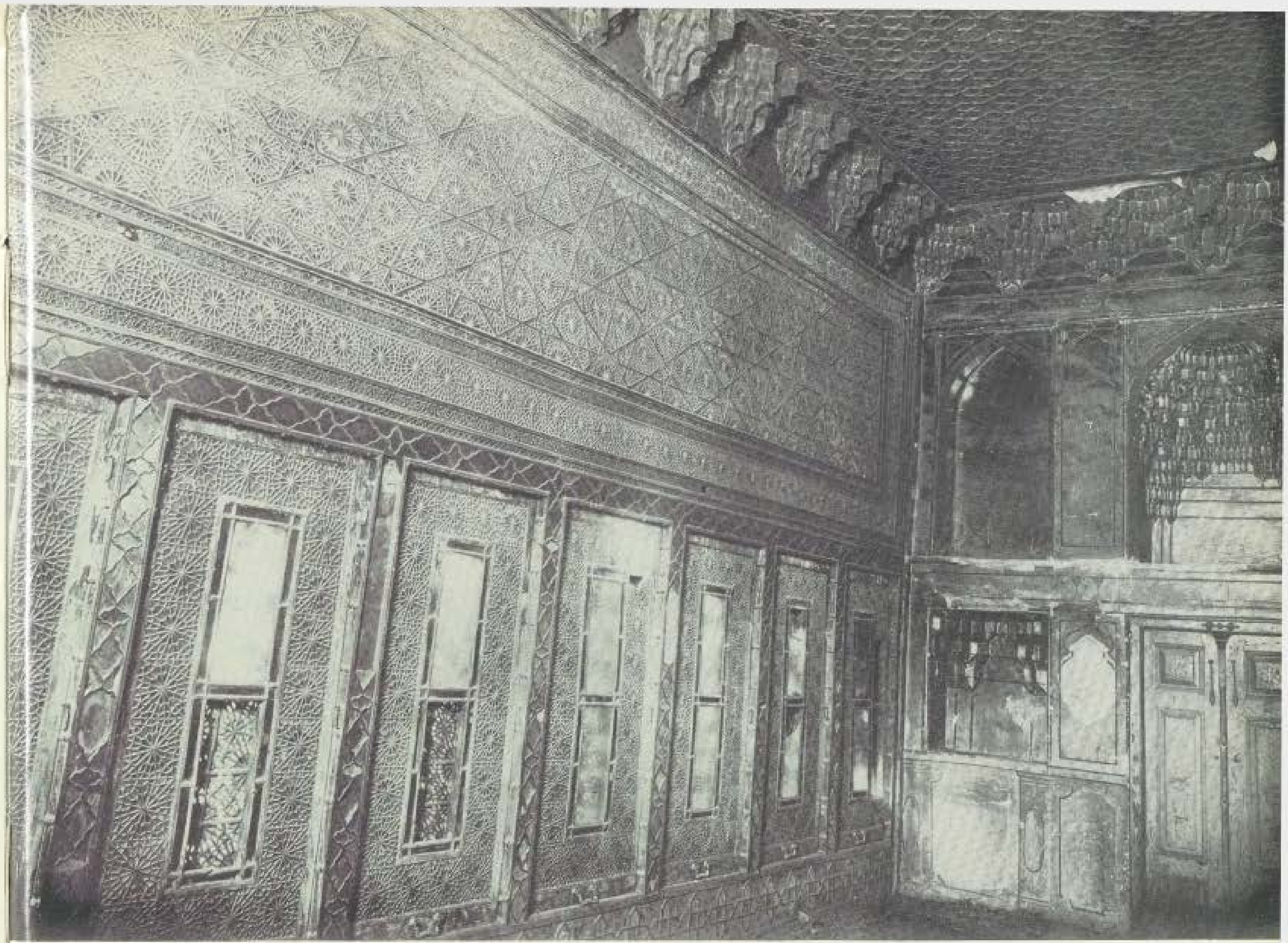
مخطط الطابق الأرضي والطابق الأول ـــ بيت النواب



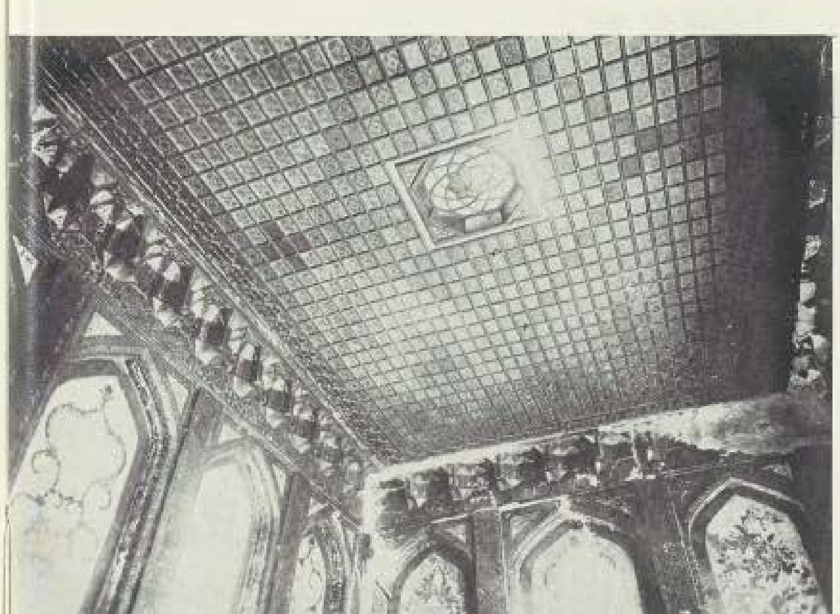
احدى شرف
« طارمة » دار السيد
محمود الاسترابادي
وتظهر غرفة « الكفشكان »
في المؤخرة



ايوان الطابق
الثـاني ـــ دار
الاسترابادي



الربازة الخشبية في دار السيد احمد السيد عيسى

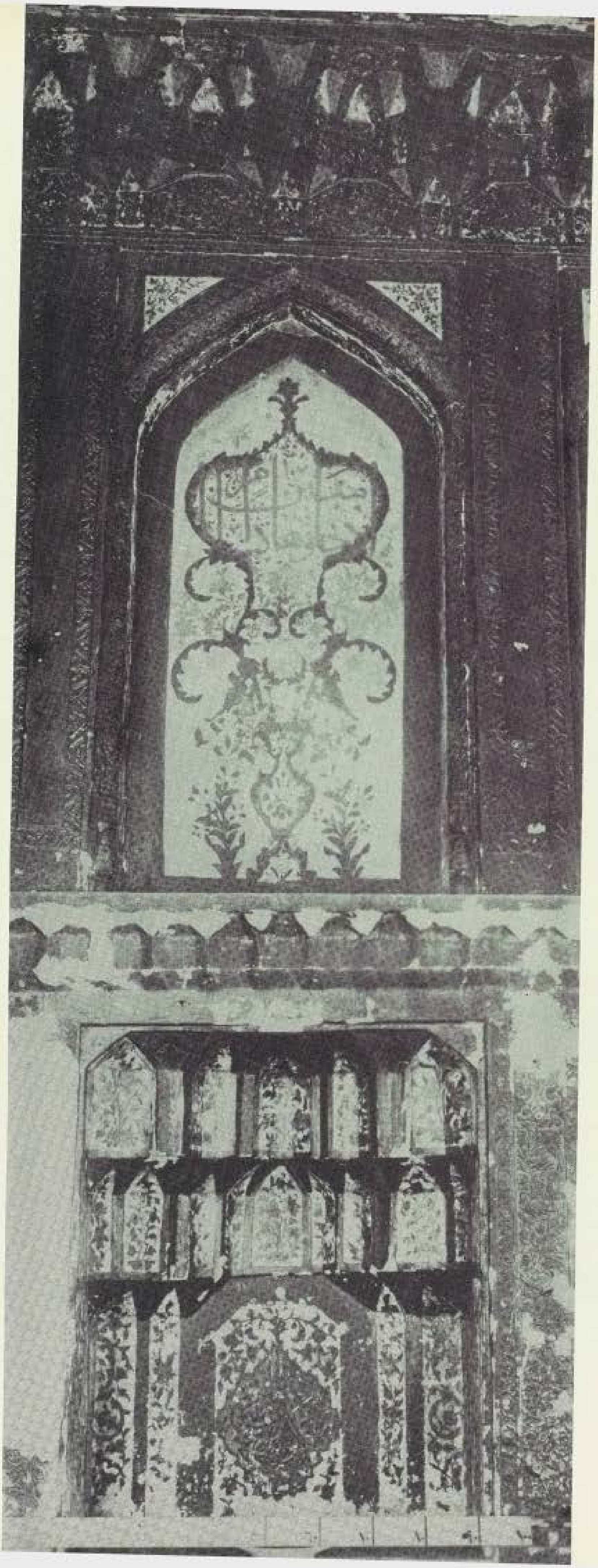


التكسية الخشبية لسقف احدى الغرف في دار الاسترابادي

إي غرفة الضيوف ــ دار الاسترابادي

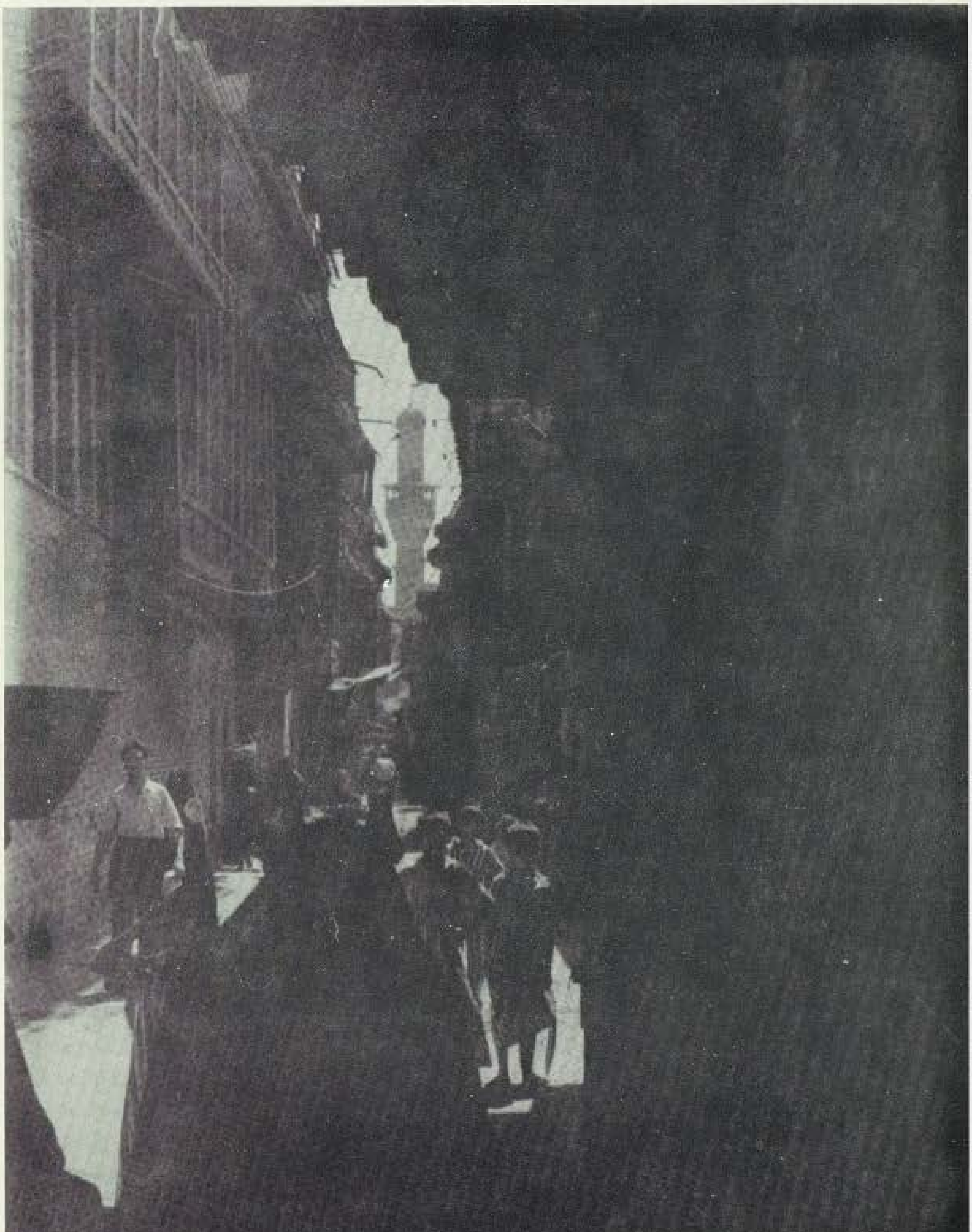




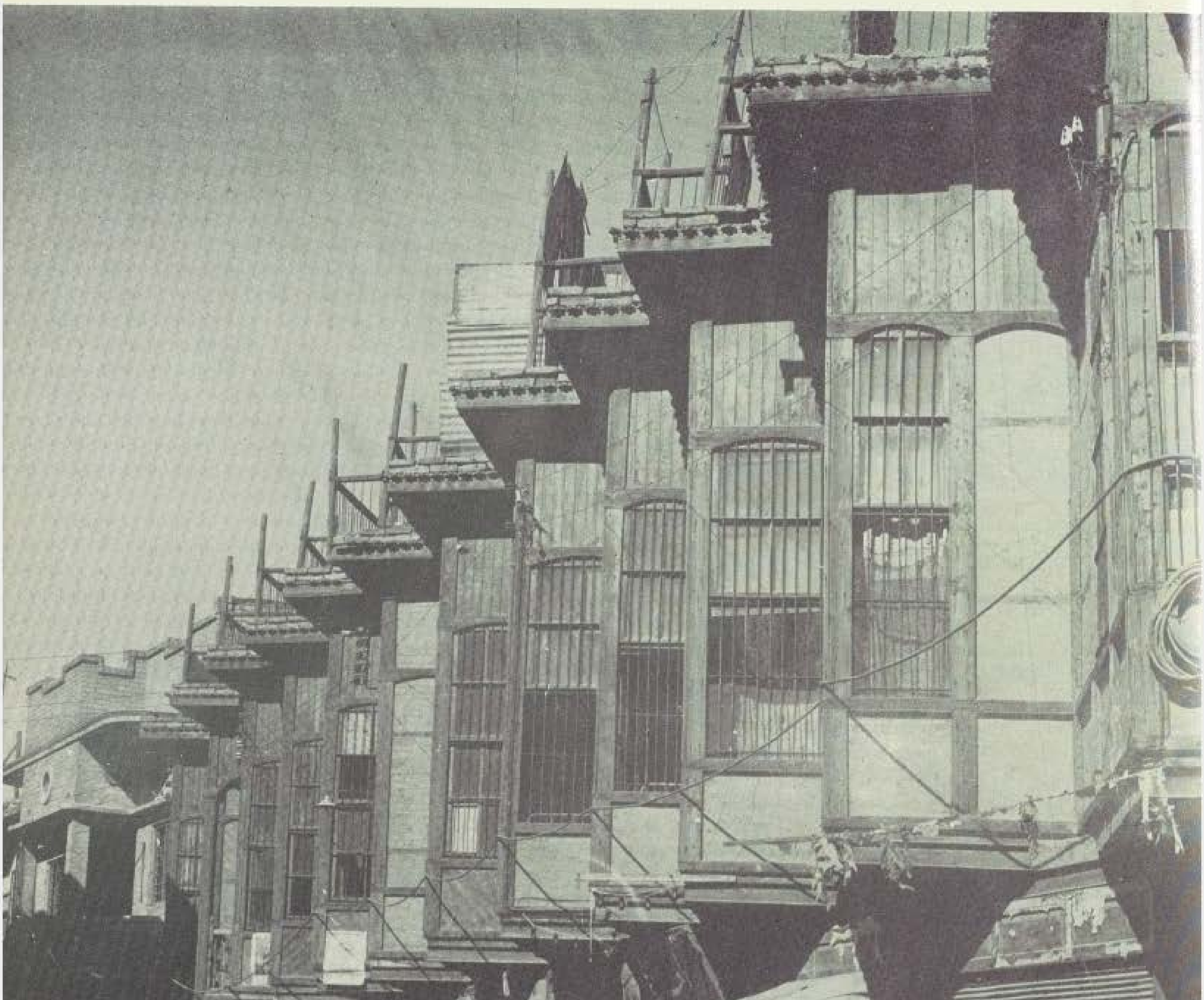


الزخرفة الجدارية
— دار الحاج
جعفر جواد

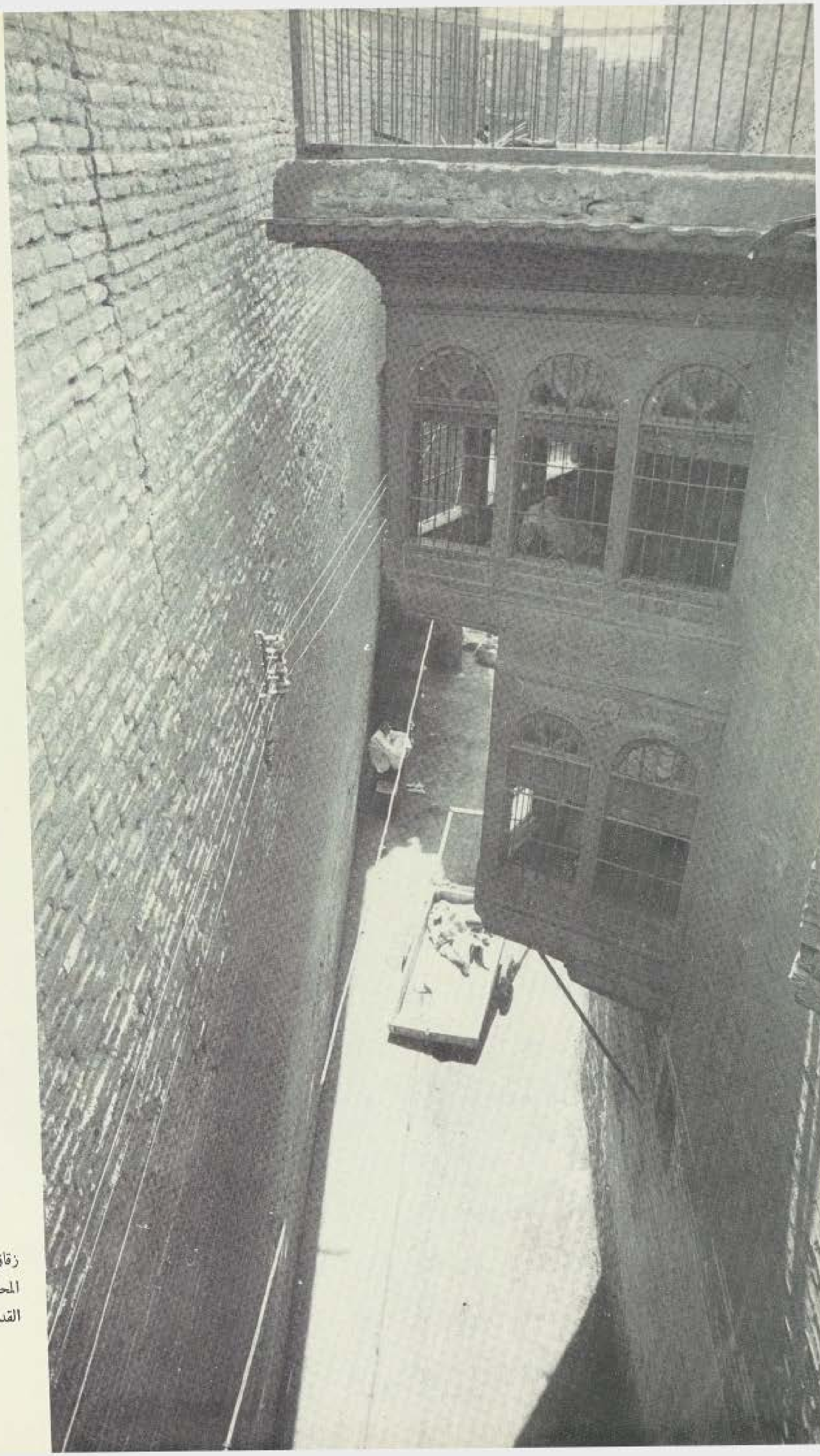
الرسوم الجدارية في التزيينات الداخلية لصالات الغرف البغدادية — دار الحاج جعفر جواد — بيت الملائكة »



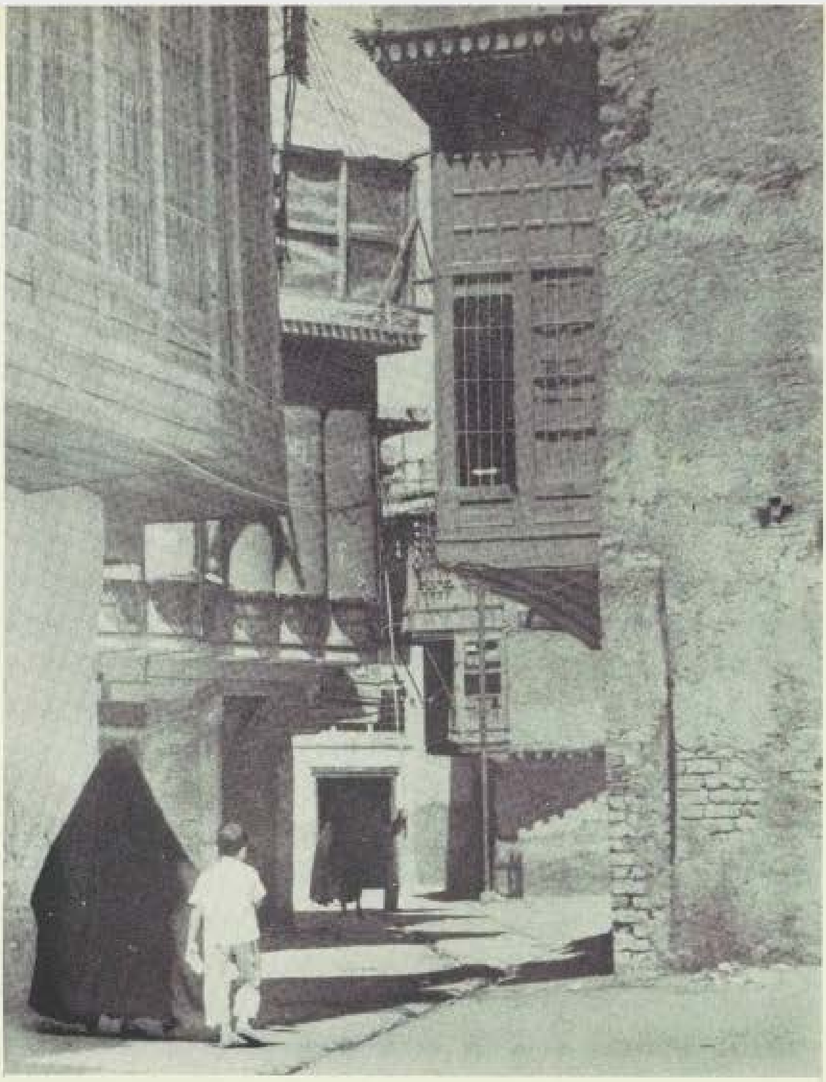
منظور لأحد الأزقة السكنية



واجهة لبيوت سكنية في محلة الصابونجية



زقاق في احدى
المحلات البغدادية
القديمـــة



الشبابيك الخشبية
التقليدية في احدى
البنايات المطلة على النهر

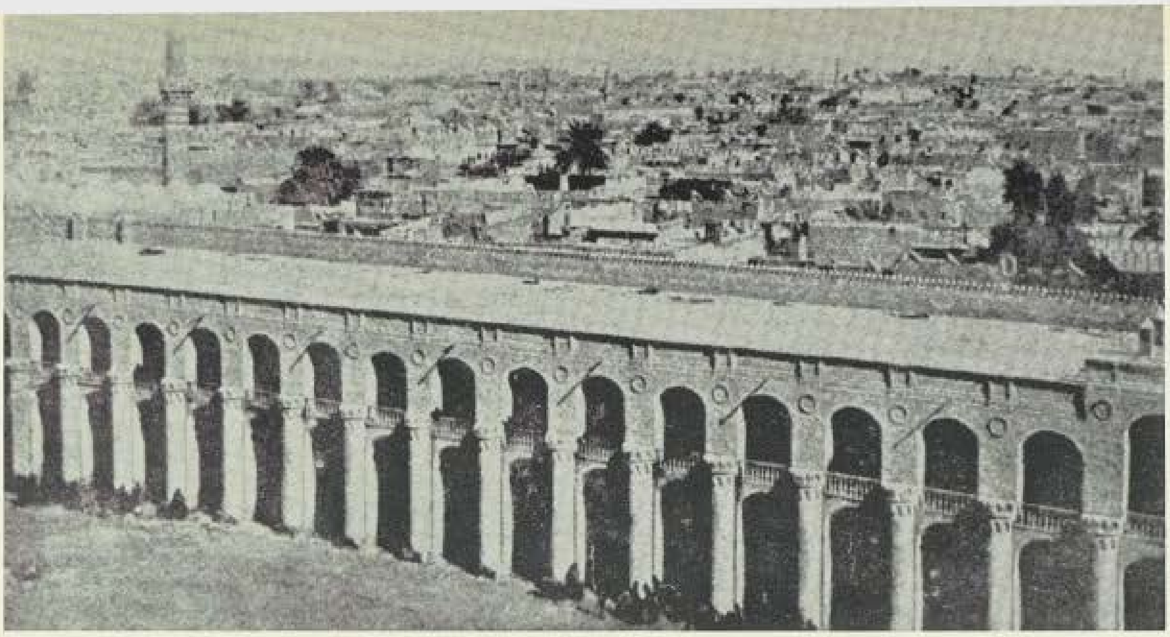


دور السكنى
في الأحياء البغدادية
القديمـــة

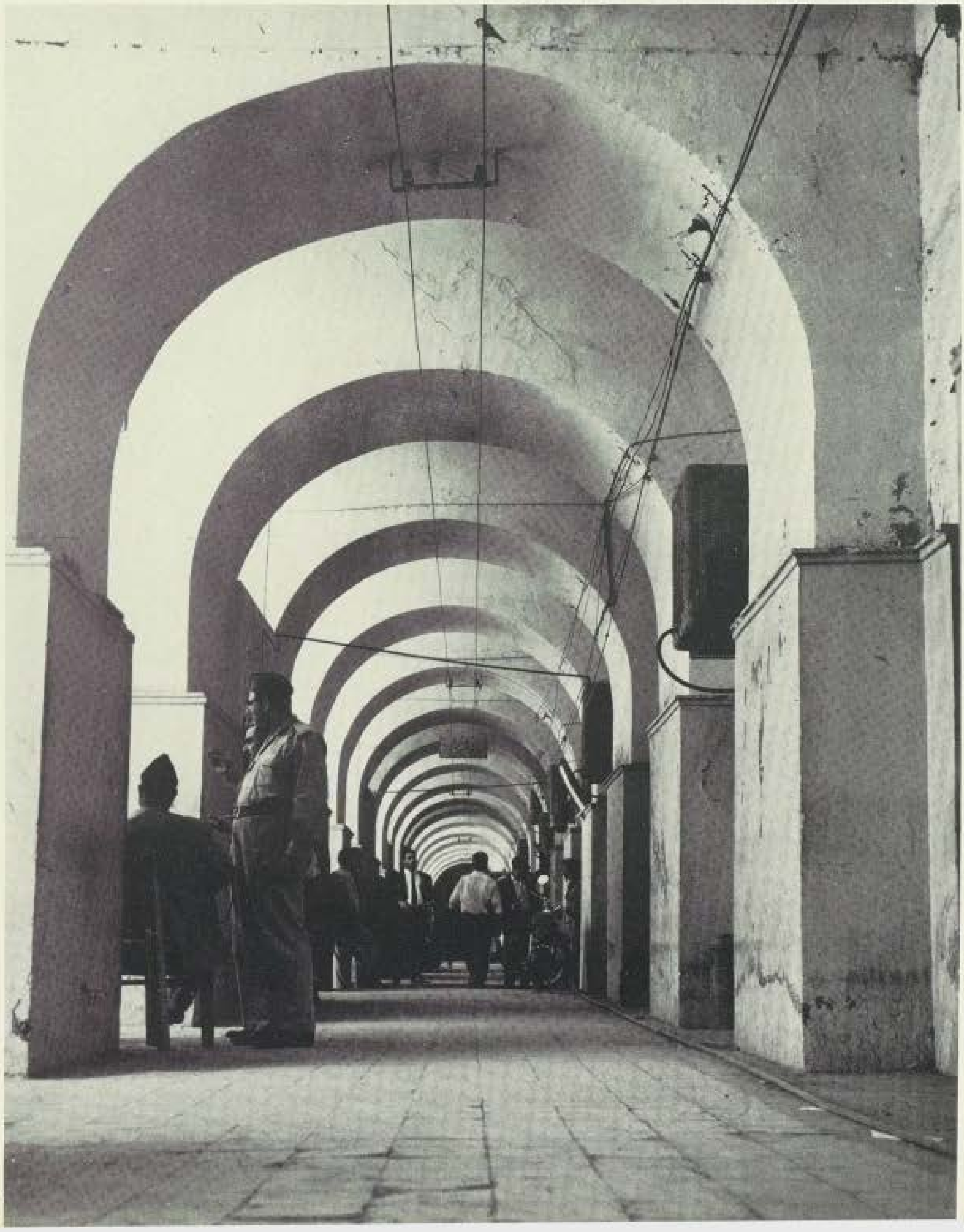
التطور الحديث للعمارة في بغداد

توضح الرسوم استمرار الخصائص المحلية في بدء مراحل التأثير الأوروبي . وأن الأبنية المعاصرة تمثل الانتقال السريع للمرحلة الأخيرة من تأثير نفوذ المدرسة المعمارية الحديثة وما يقترن بها من تأثيرات للخصائص الانشائية للقوام الكونكريتي المسلح والمواد الحديثة والمقاييس المعمارية لهذه المعالم الجديدة .

إن الجذور التاريخية للبيئة وتأثير الطبيعة والمناخ والمؤثرات والمقومات الفنية التشكيلية واستمرار امكانية الآجر كمادة انشائية ، استطاعت أن تكون تراث معماري جديد . هذا التراث الذي بامكانه أن يمتلك ادام المهام والوظائف الاجتماعية الجديدة في التمدن وكذلك أمانة وصراحة ما يتطلبه التعبير الفني في الكيان الجديد للبيئة البغدادية .



مبنى
السراي
الحكومي



رواق
السراي
الحكومي



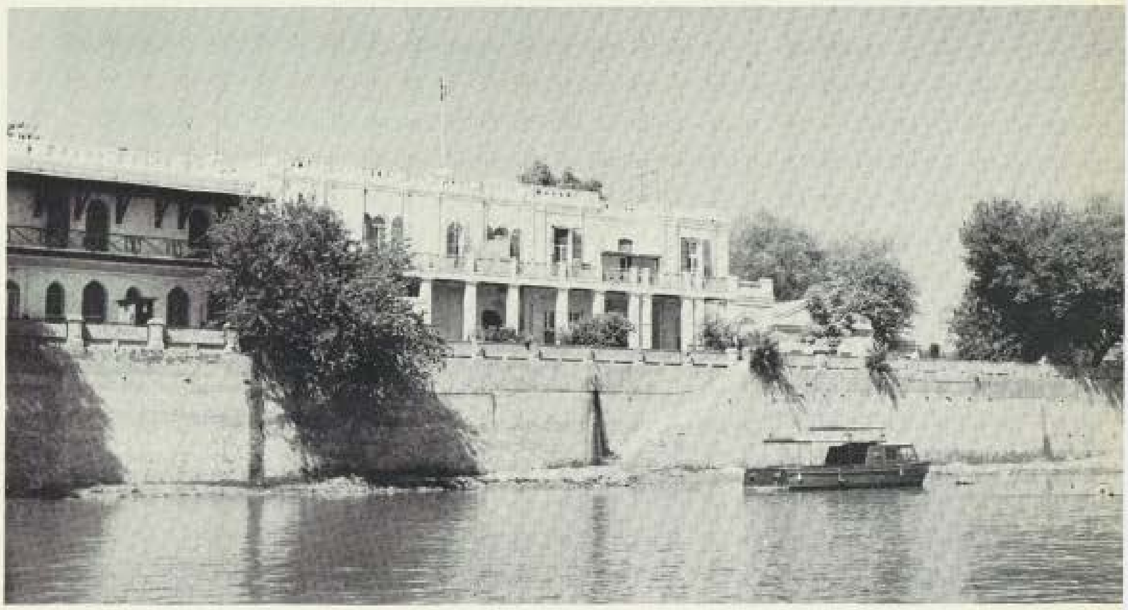
مبنى عمارة لنج ـــ شارع الرشيد



منظور لشارع في جانب الكرخ



بناية دار المعلمين ــ الأعظمية



دار السفارة البريطانية ــ الكرخ



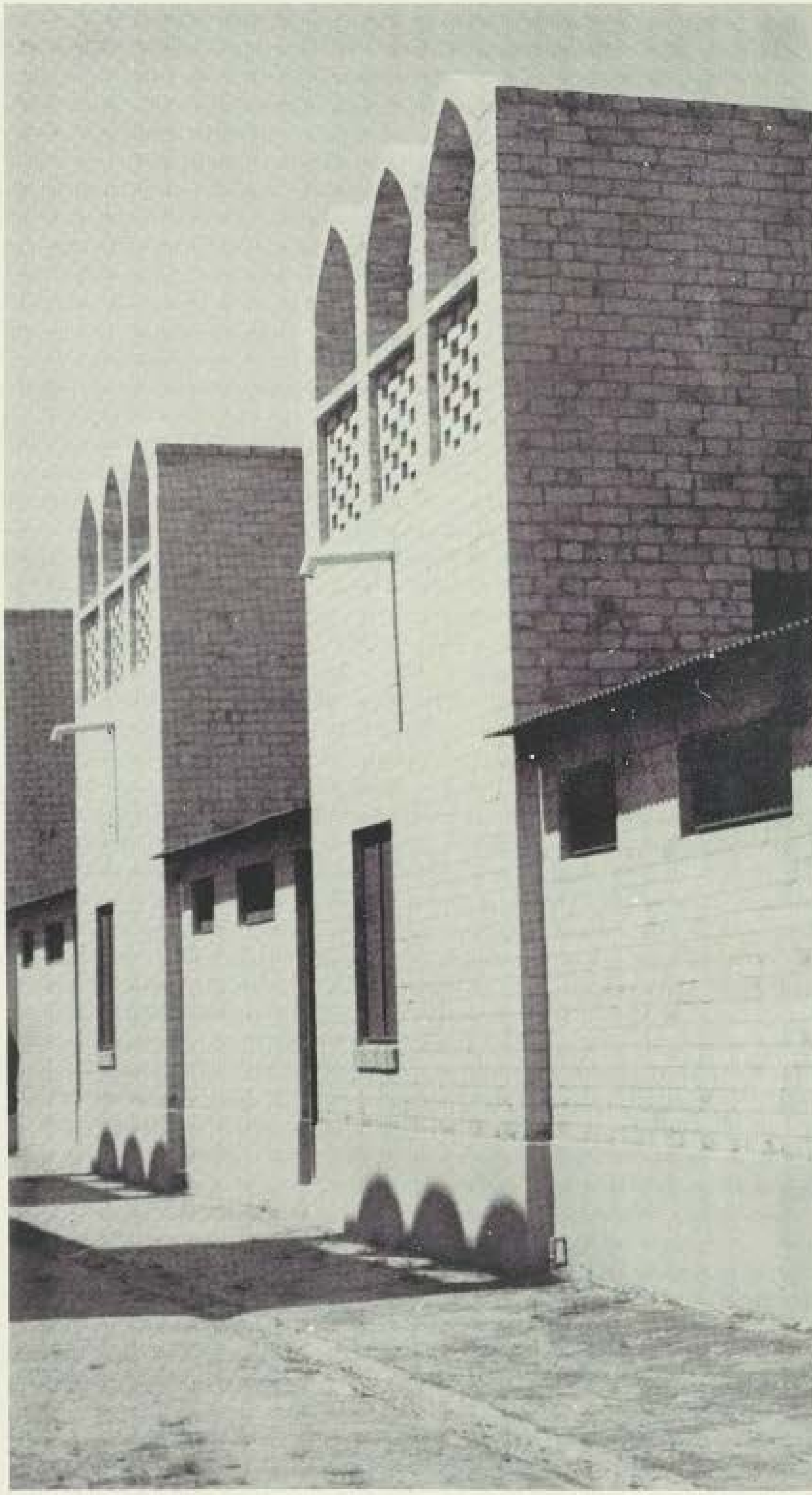
شارع البنوك

مقاييس التطور الحديث لمركز بغداد ــ الساحل النهري ــ الرصافة

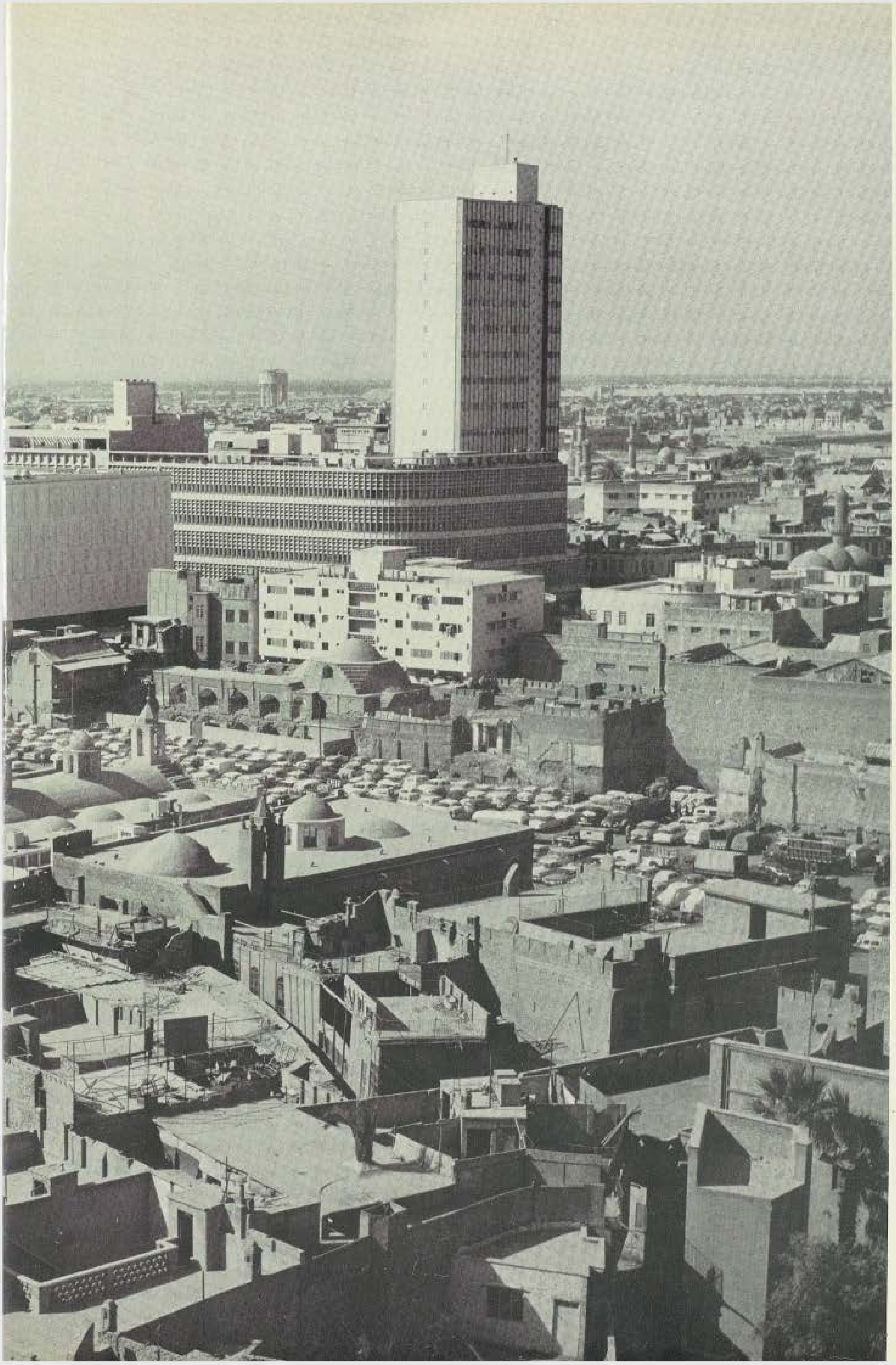


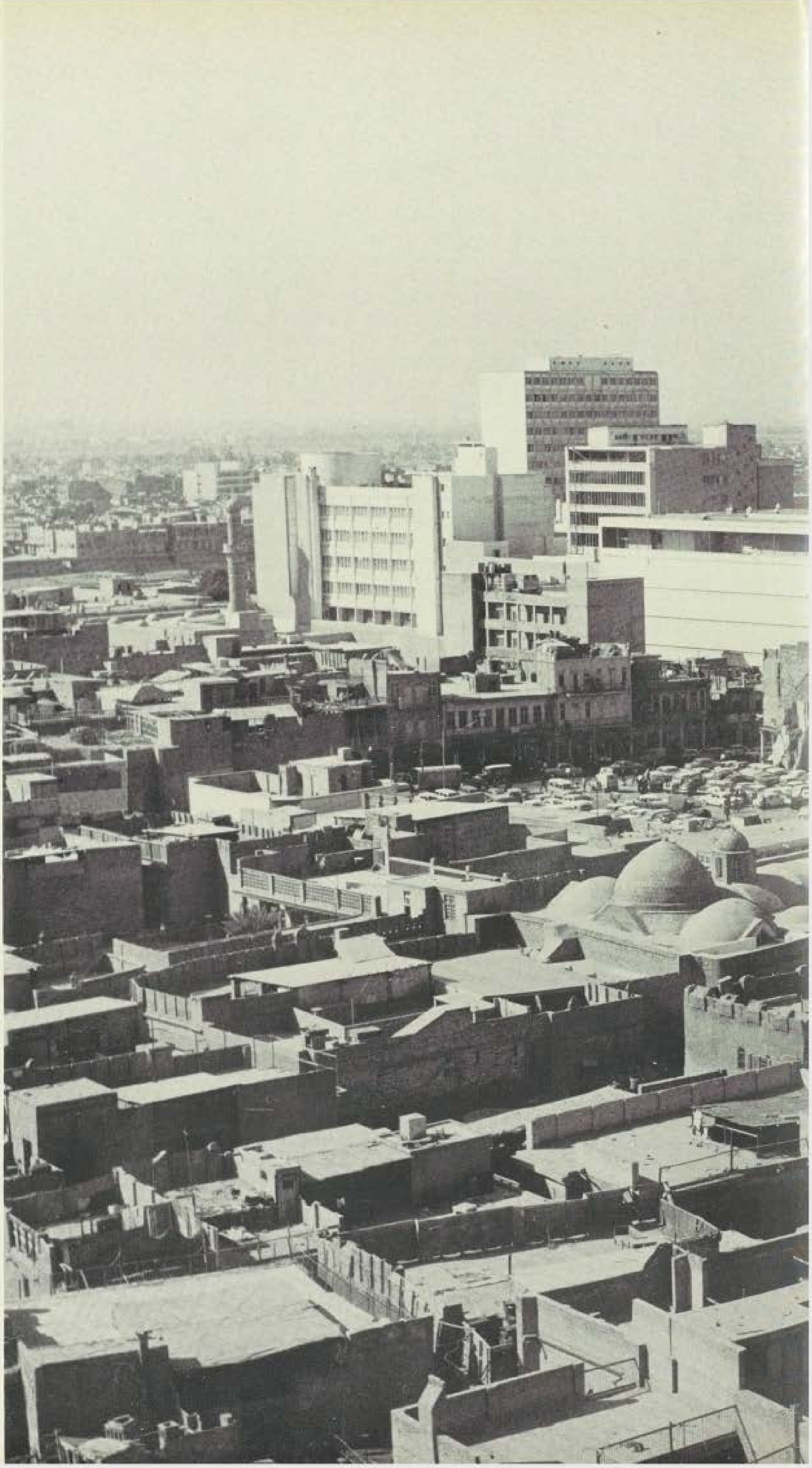


الأحياء السكنية الشعبية الجديدة



تفصيل لأحد دور السكن الشعبية



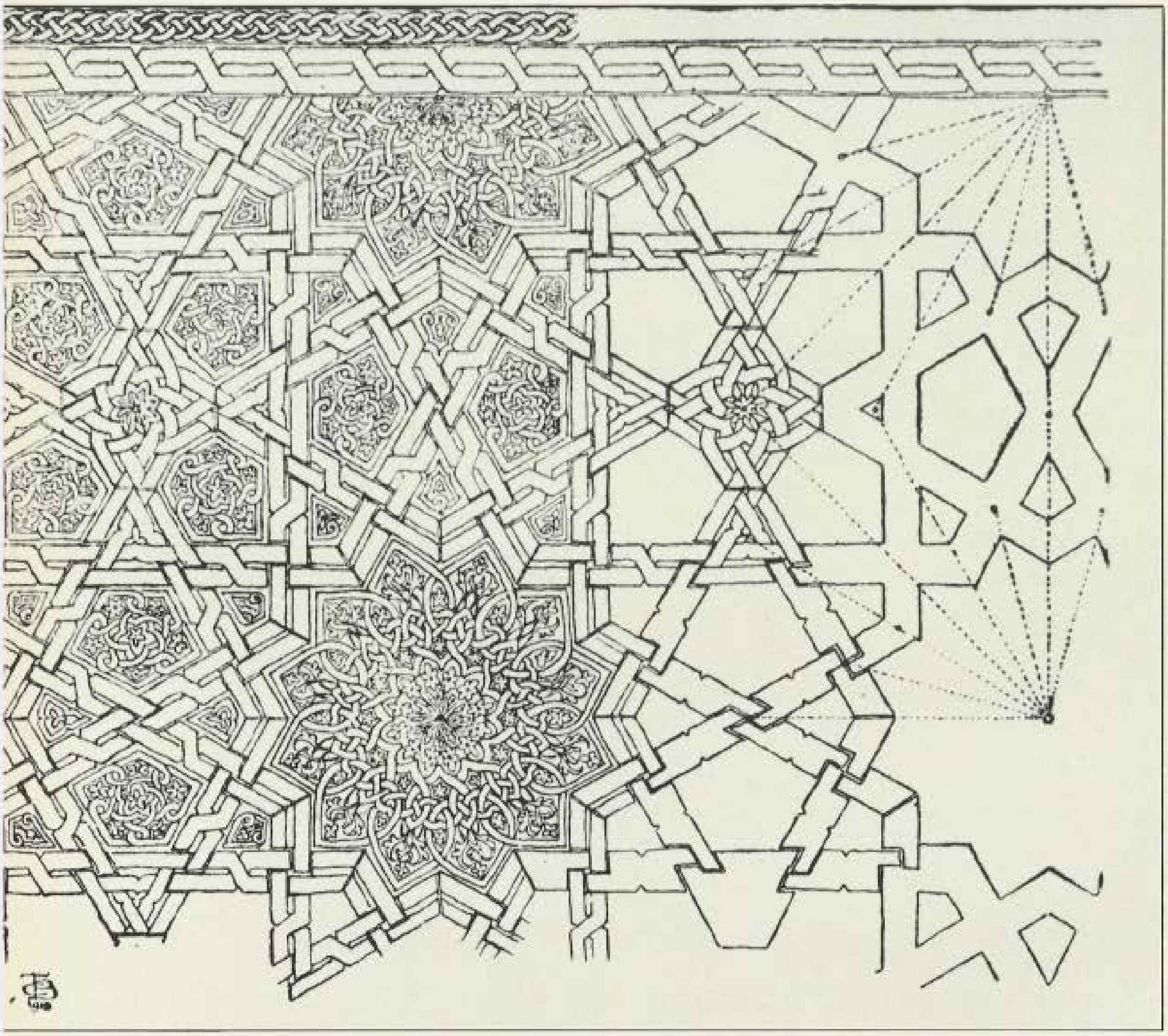


التطور في مركز
المدينة التجاري

الزخارف الآجرّية

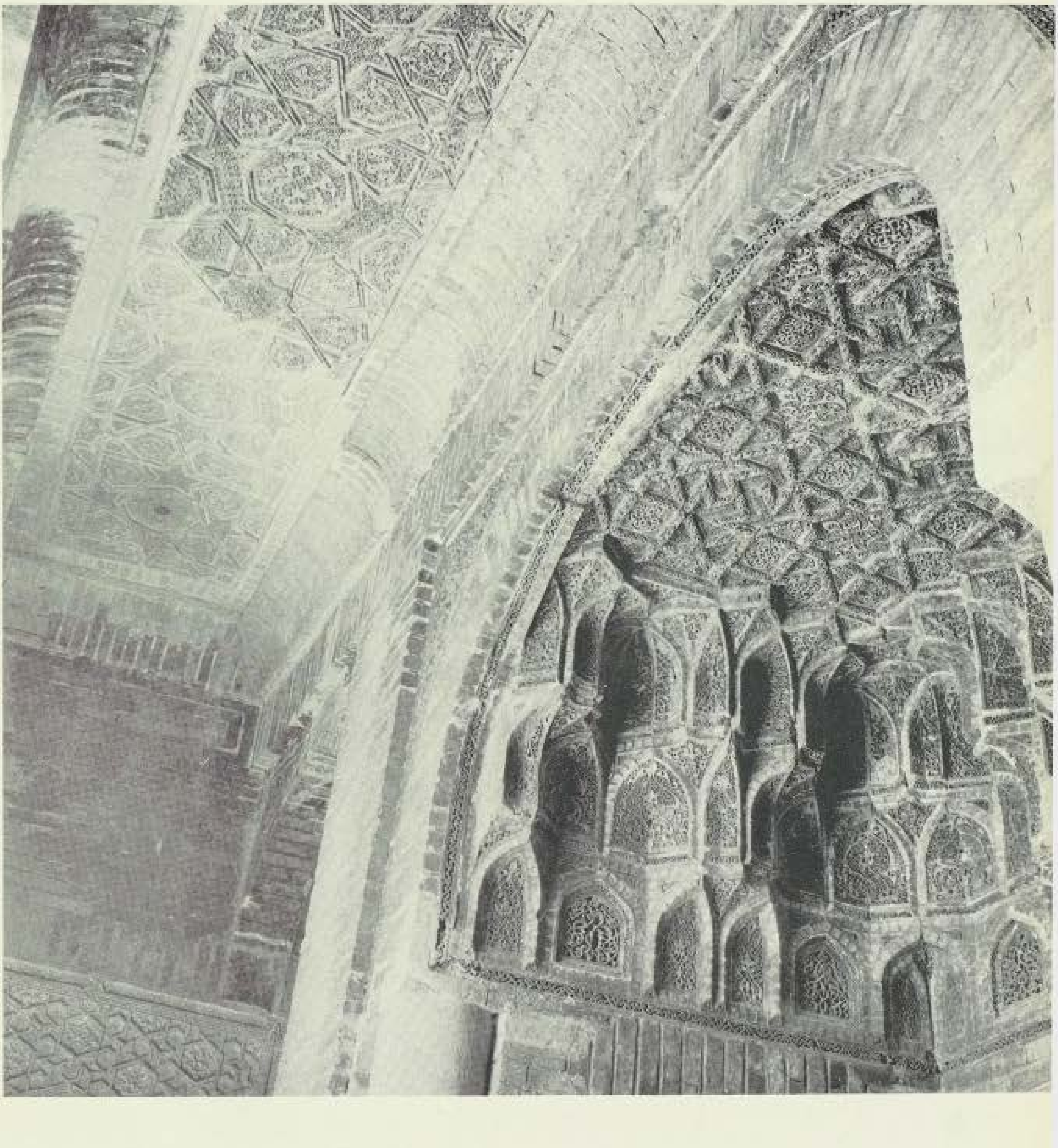
توضح الرسوم التأكيد الذي تطرقت اليه الدراسة لخصائص العمارة البغدادية في استعمال الآجر وامكانياته ودوره في التكسية كمادة أصيلة وعنصر أساس في ذاتية التكوين للأبنية البغدادية .

والألواح الآجرية بزخارفها ونقوشها الهندسية والنباتية والنصوص الكتابية تعطي أهمية توازي دور فن النحت للأبنية الأوروبية الحجرية ، كما يتضح هذا أيضاً في الزخرفة الخشبية ونقوشها « الأرابسك » .

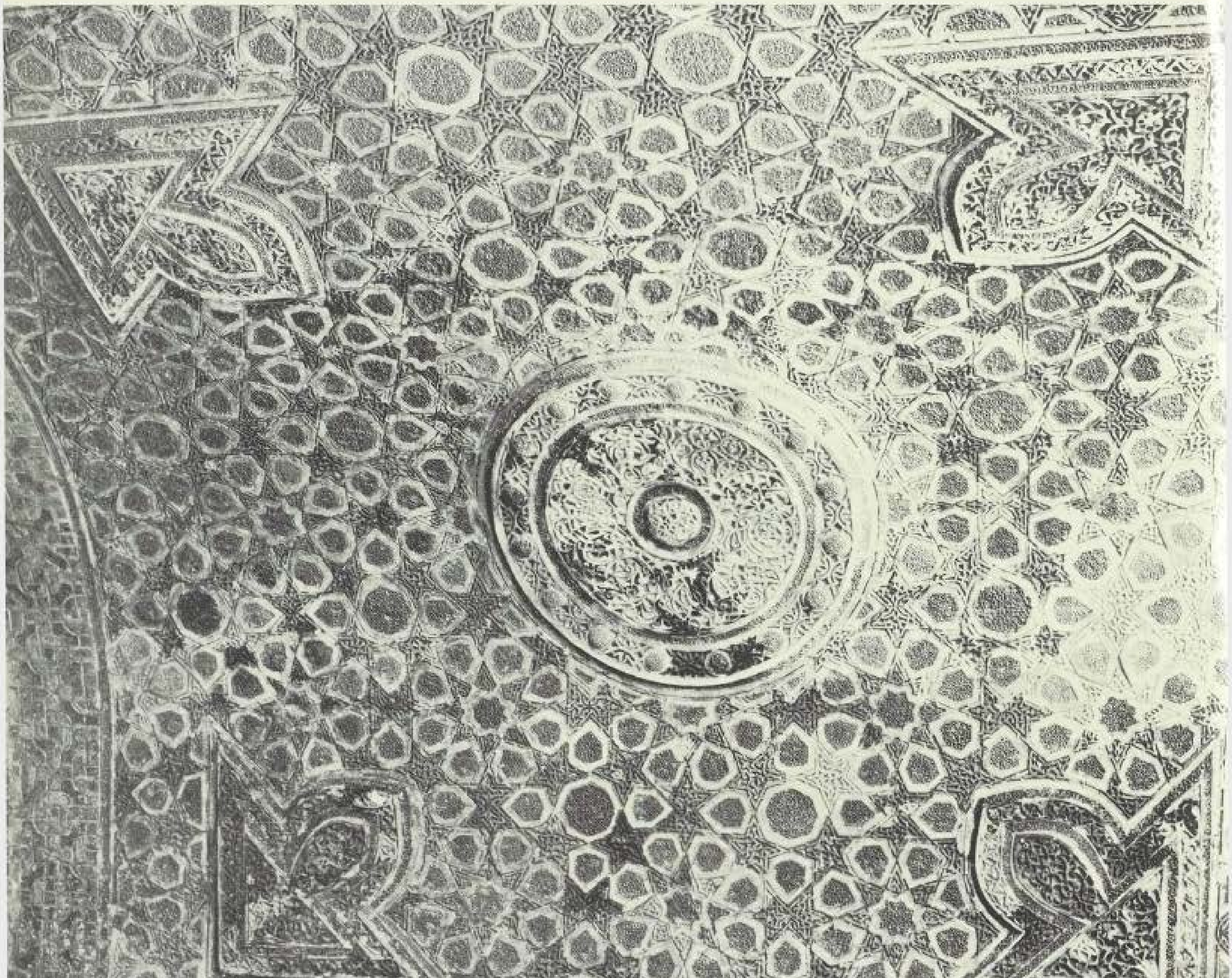


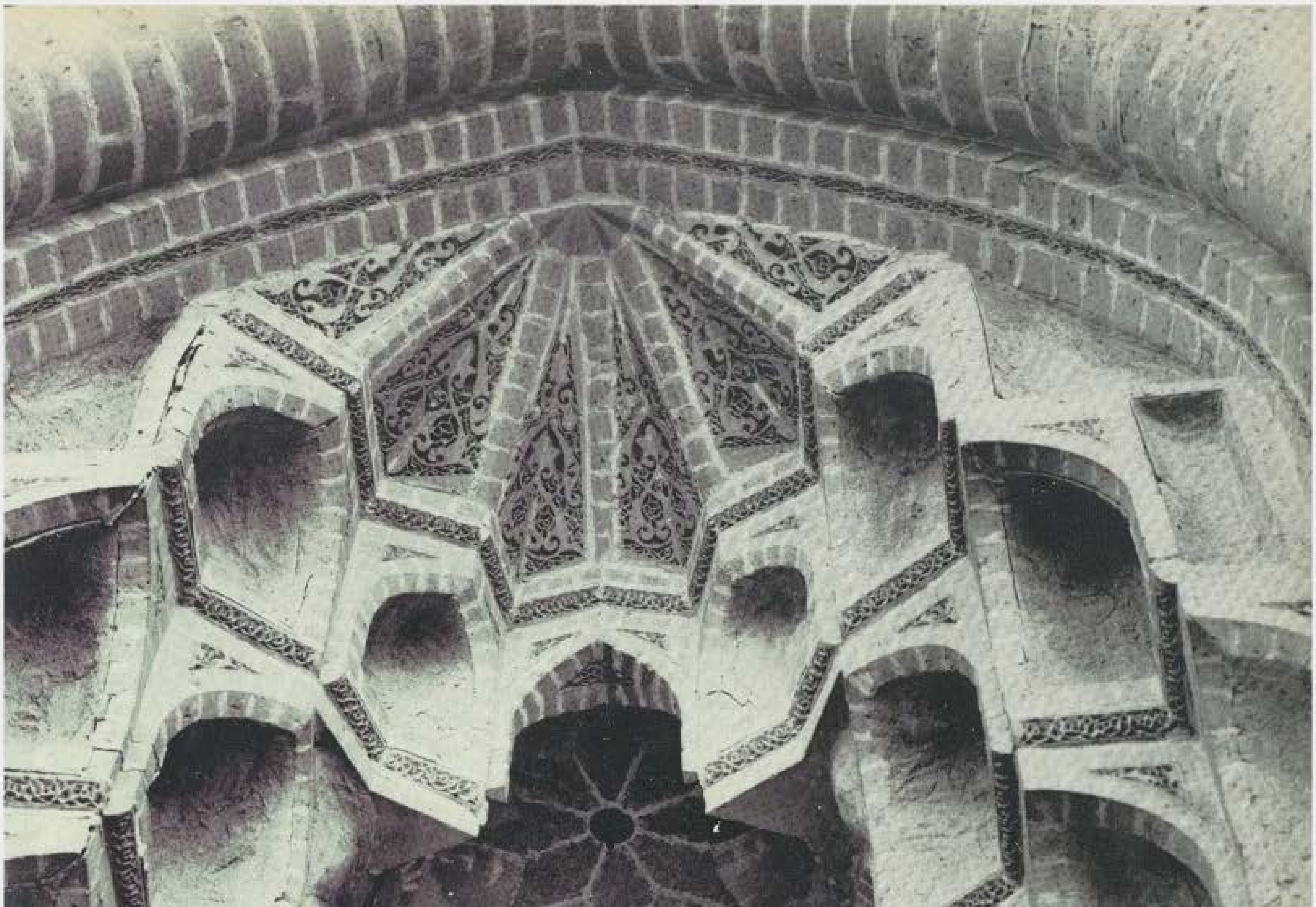
زخرفة آجرية (الباب الوسطاني)

زخرفة أروقة دار المسناة (القصر العباسي)



سقف الايوان الكبير دار المسناة (القصر العباسي)

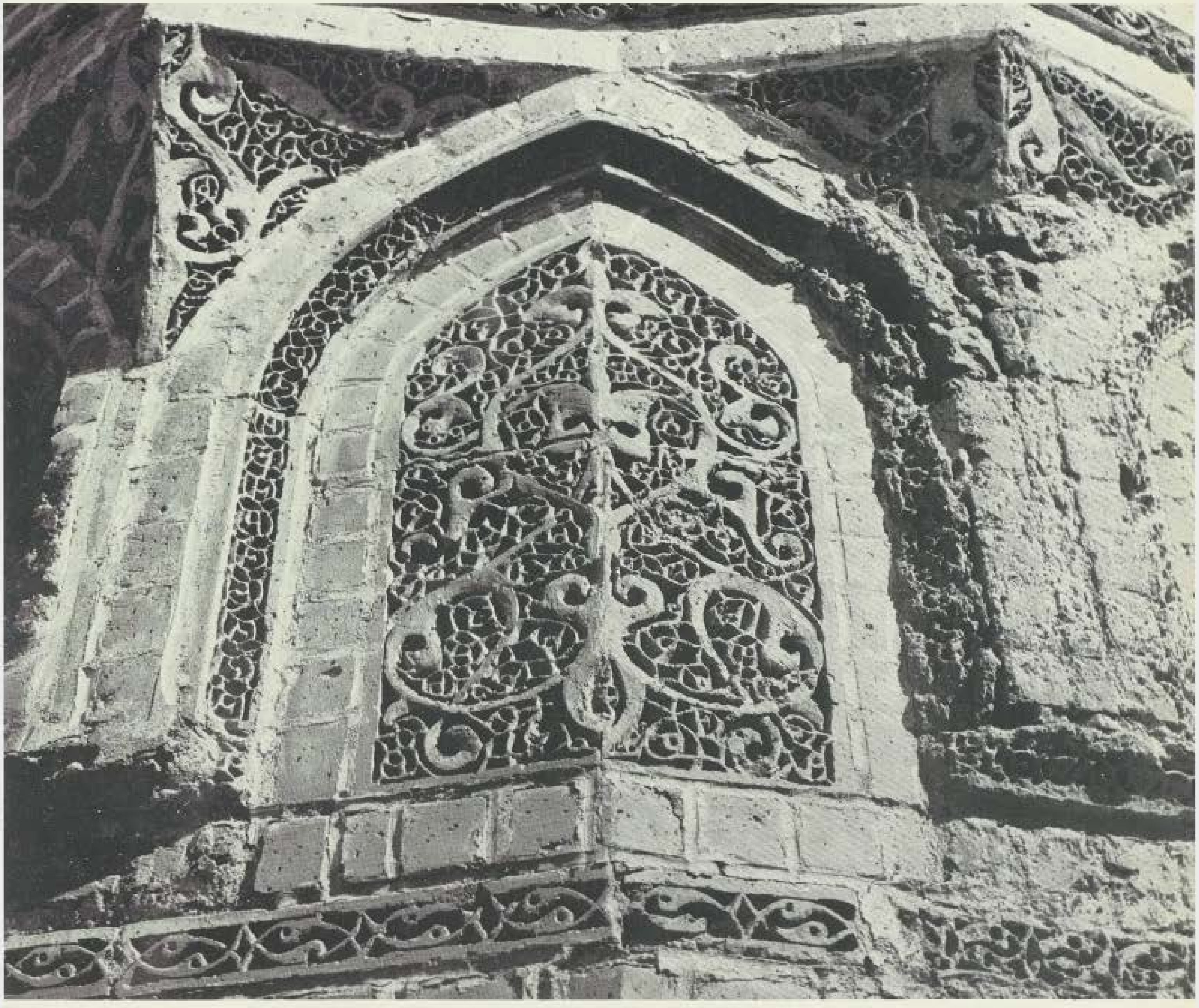




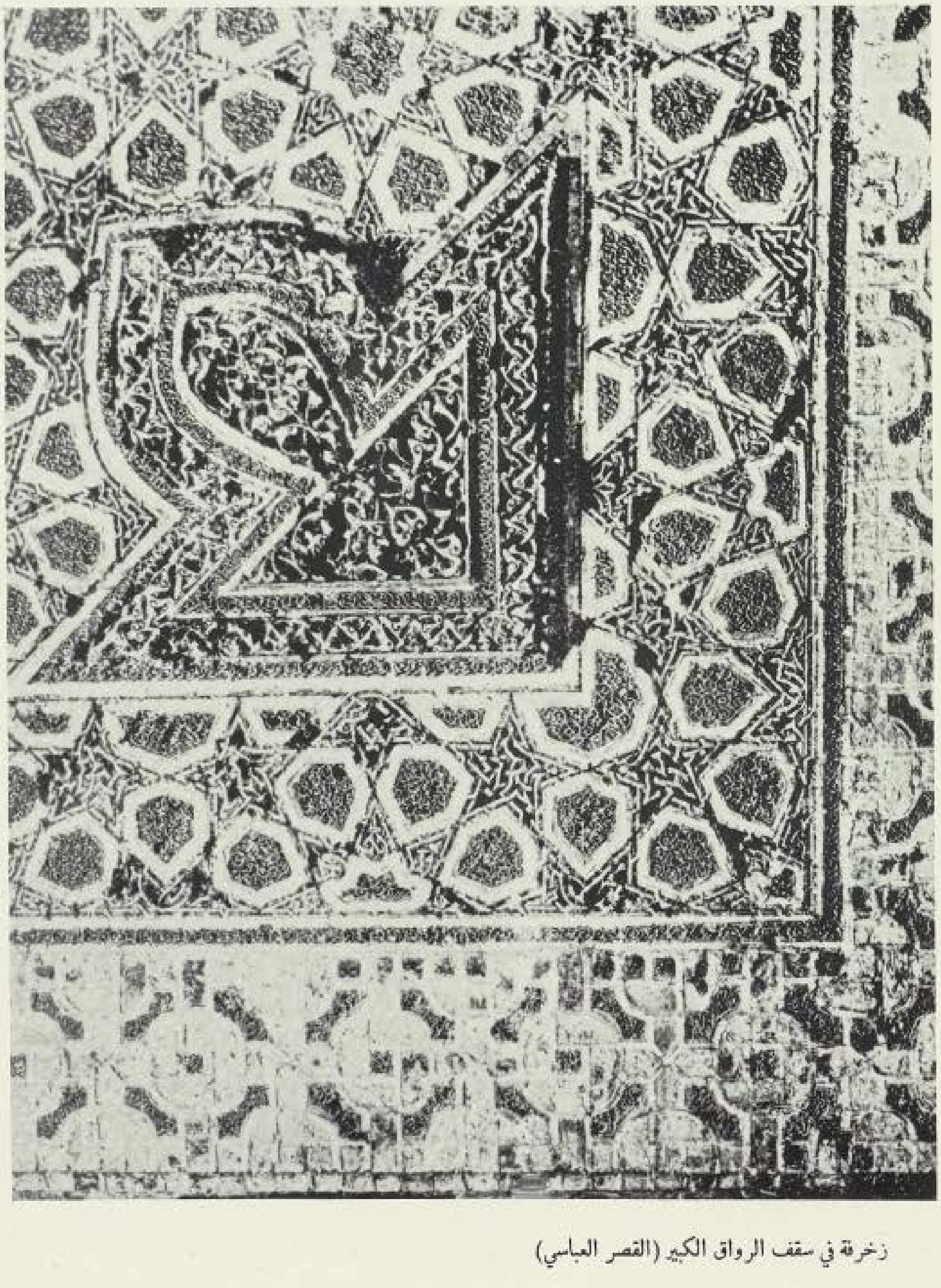
تفاصيل زخرفية في رواق دار المسناة (القصر العباسي)



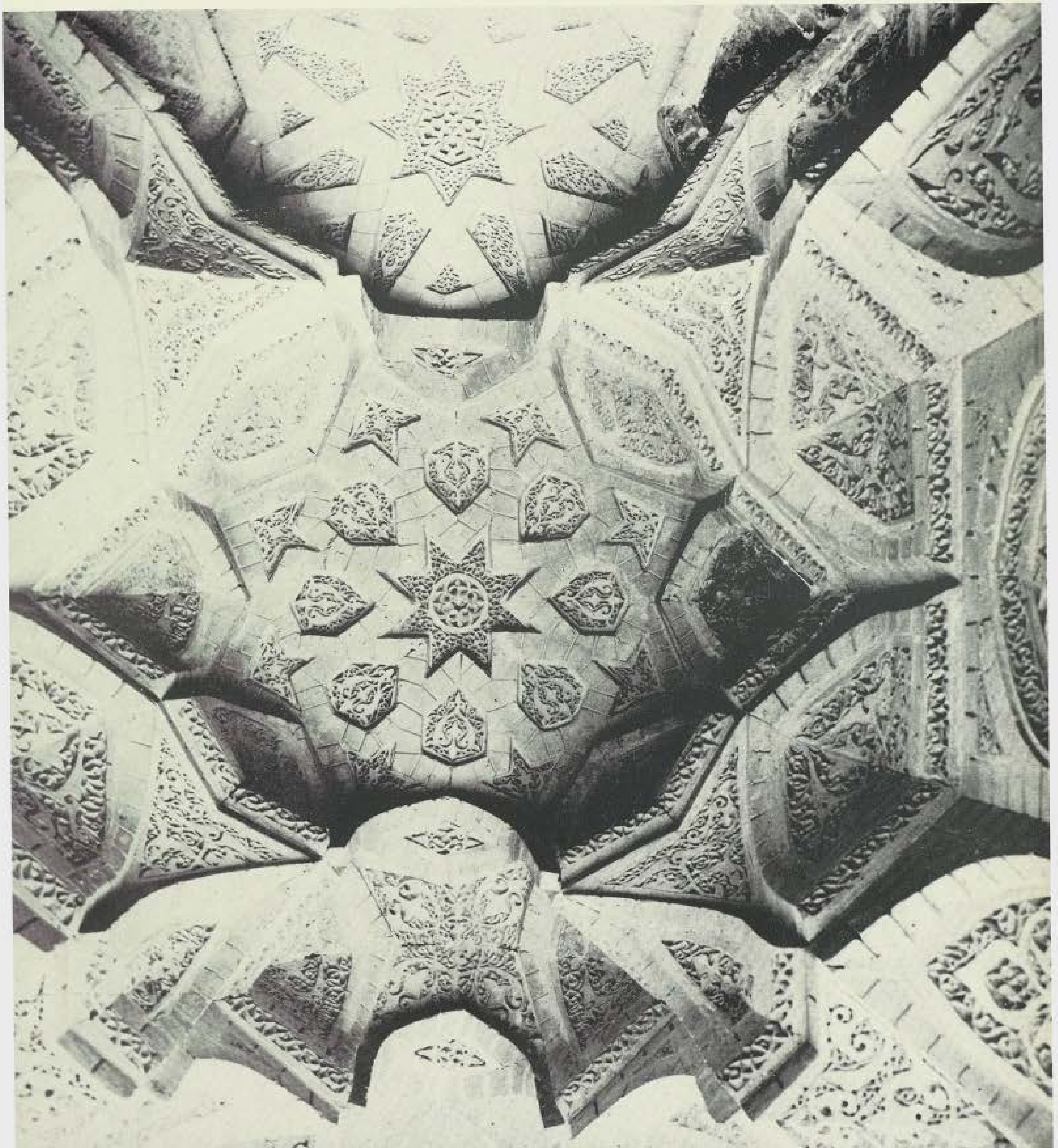
مقرنص زخرفي في دار المسناة (القصر العباسي)



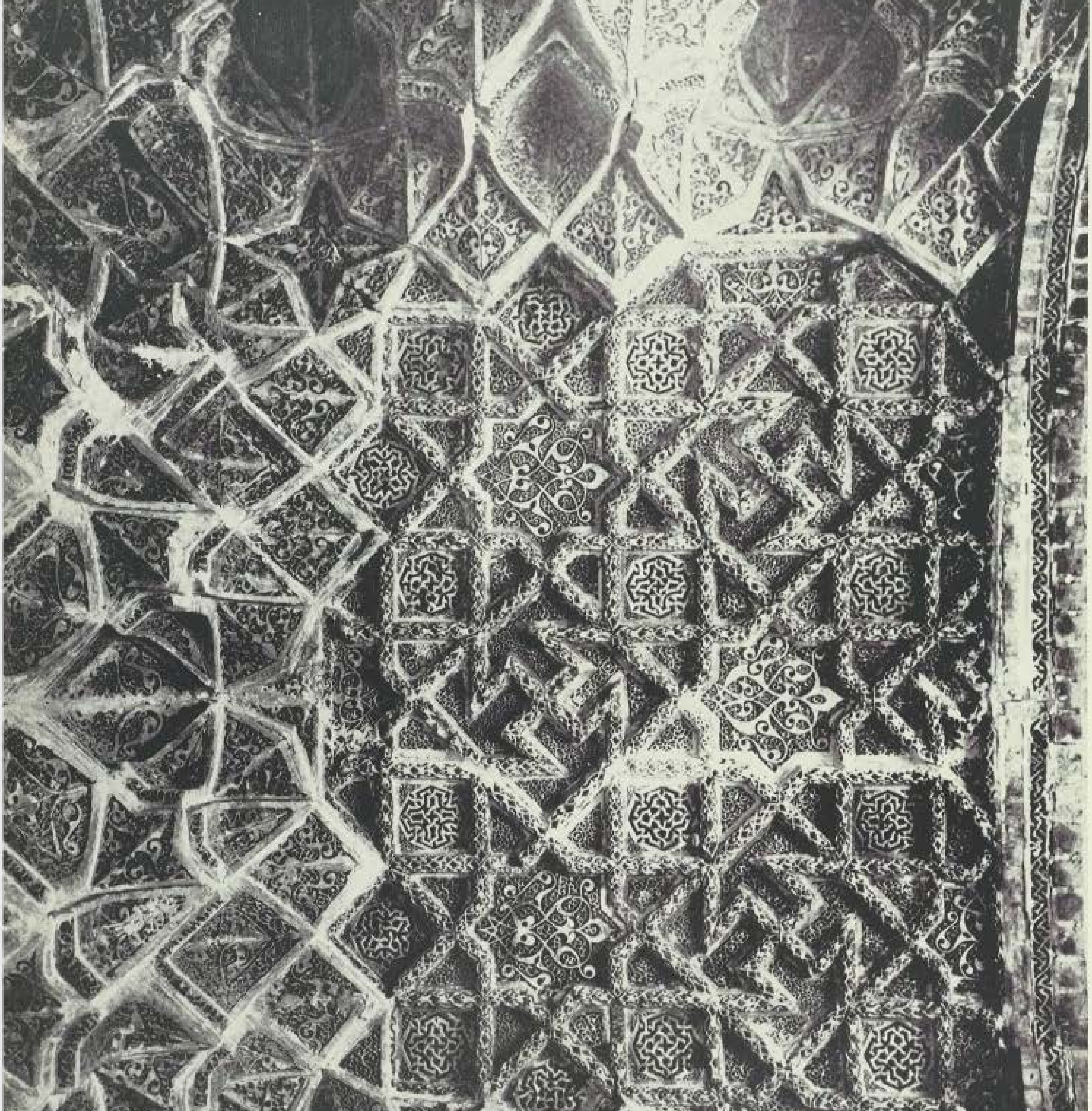
تفصيل زخرفي في منارة جامع الخلفاء



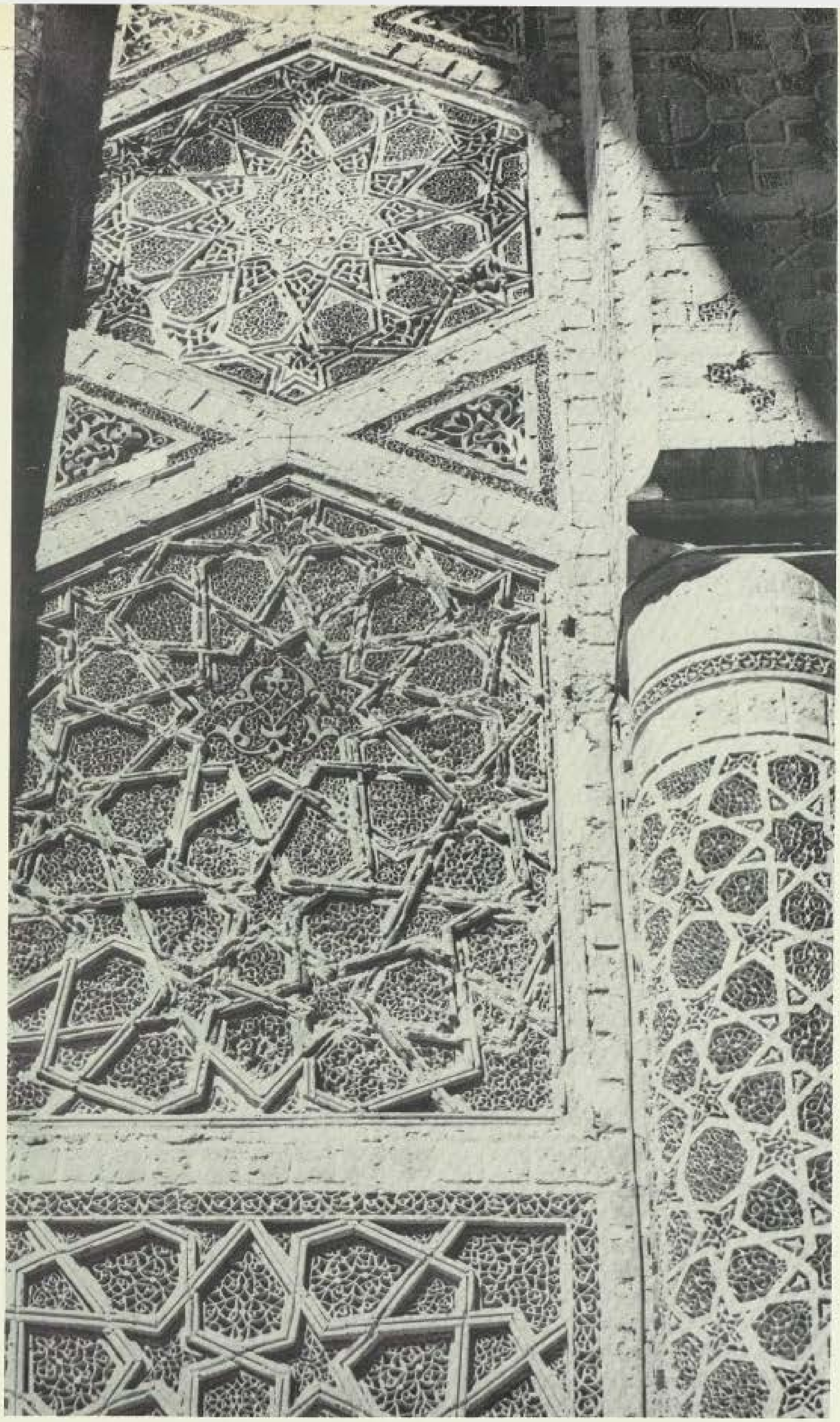
زخرفة في سقف الرواق الكبير (القصر العباسي)



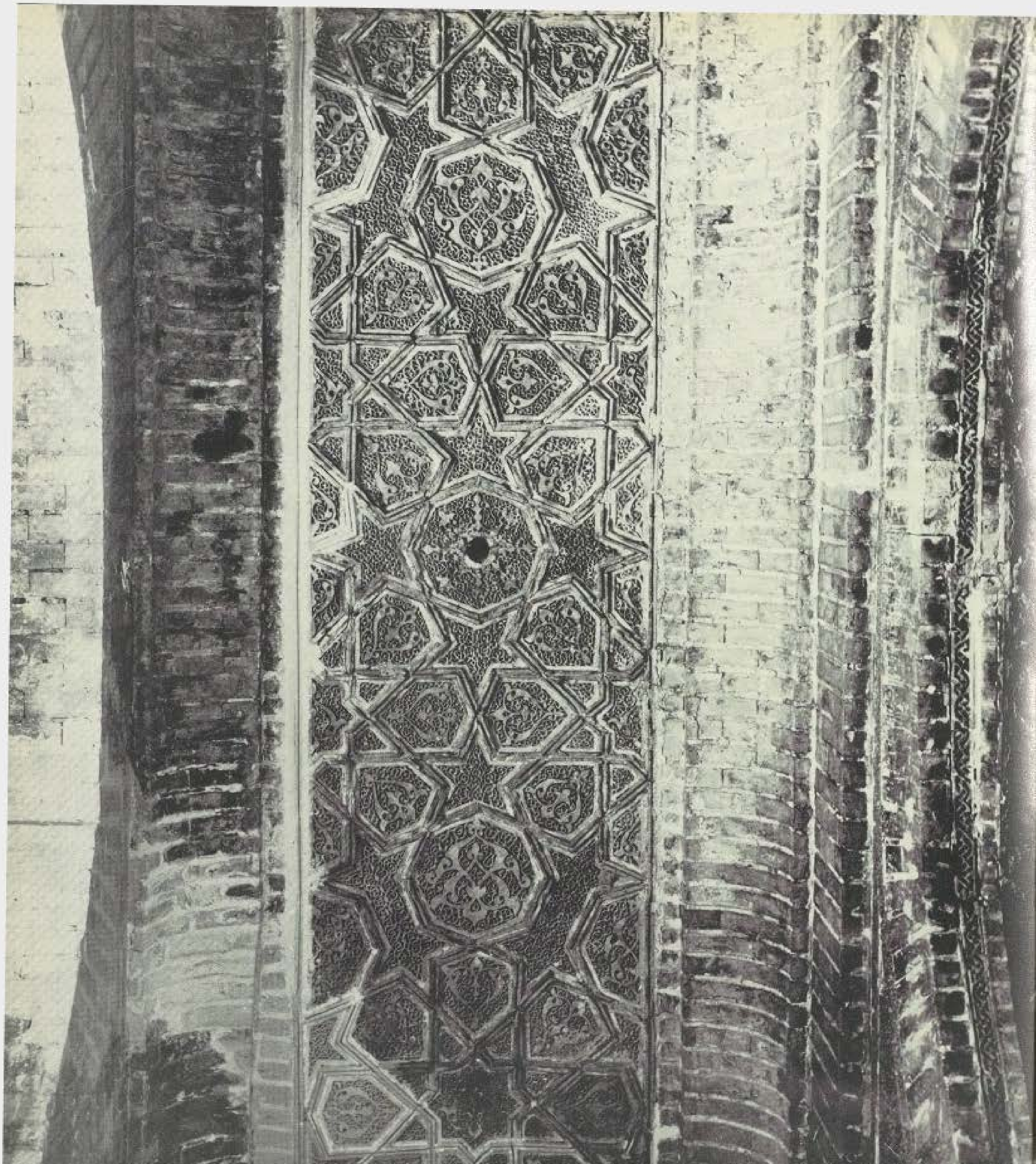
المقرنص في آجريات التقبية (القصر العباسي)



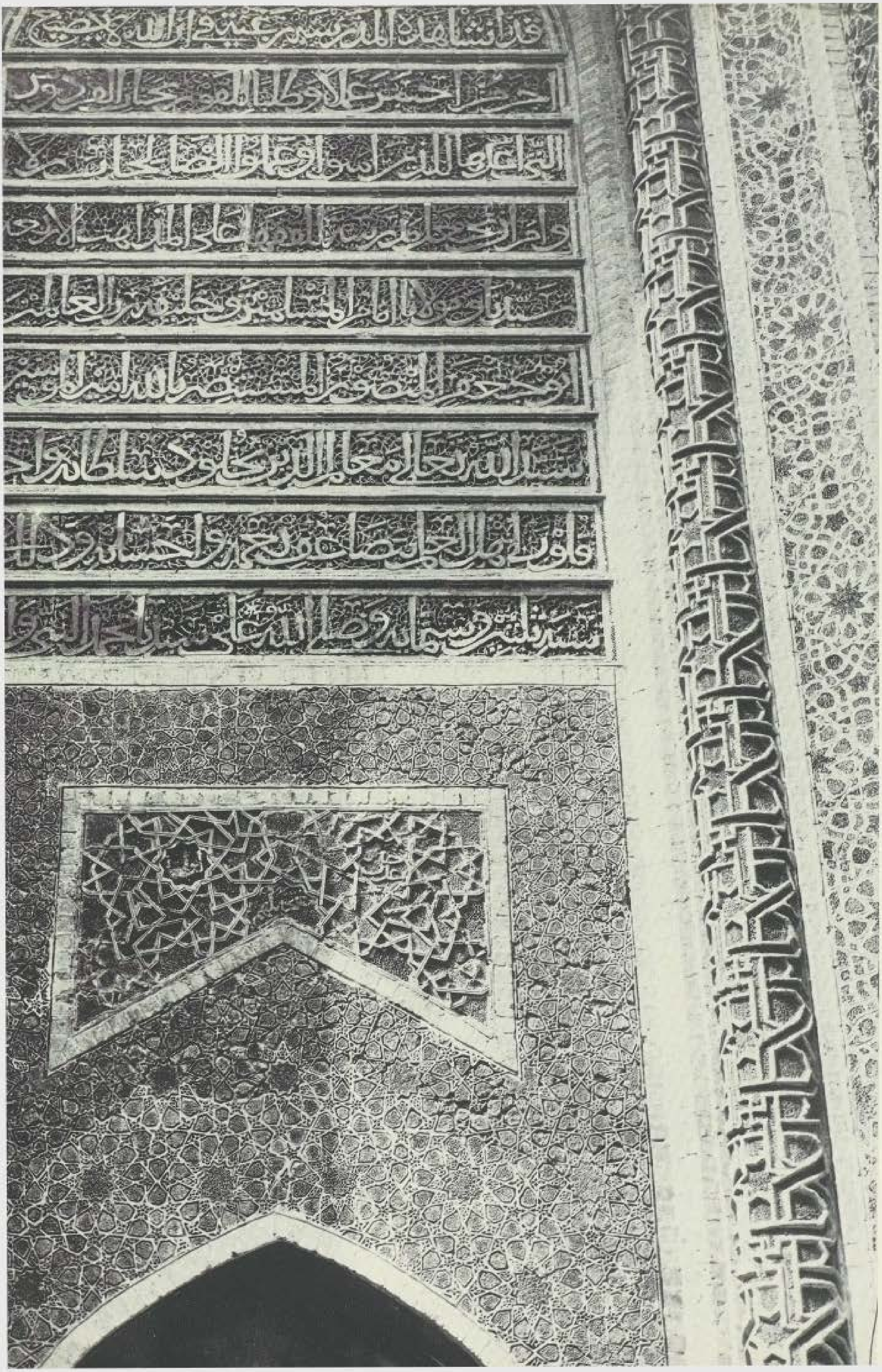
من النماذج المتميزة للتكسية الآجرية في دار المسناة (القصر العباسي)

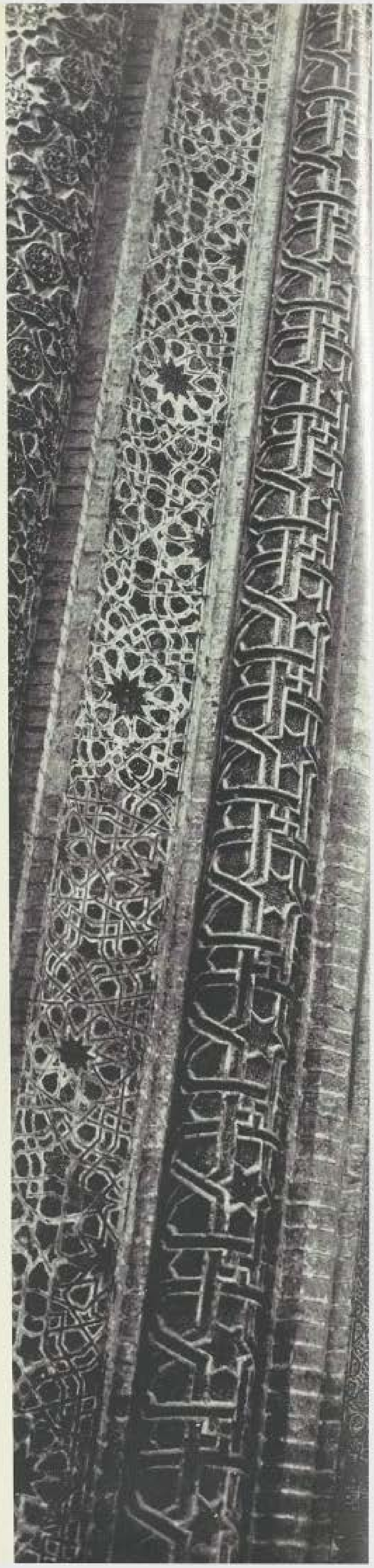


تفصيل اطار الزخرفة للايوان الكبير (القصر العباسي)

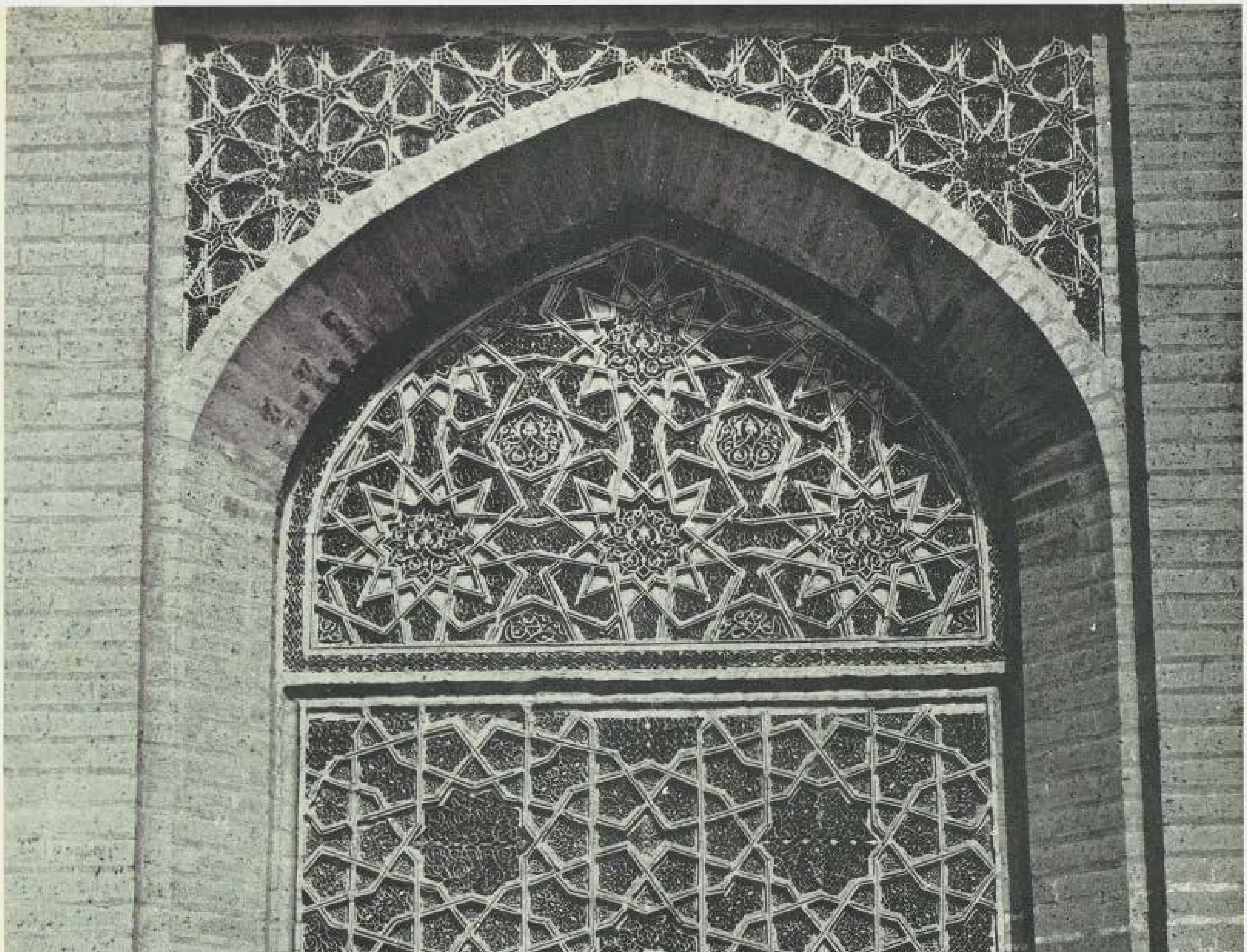


اطار الزخرفة في العقود الآجرية (القصر العباسي)





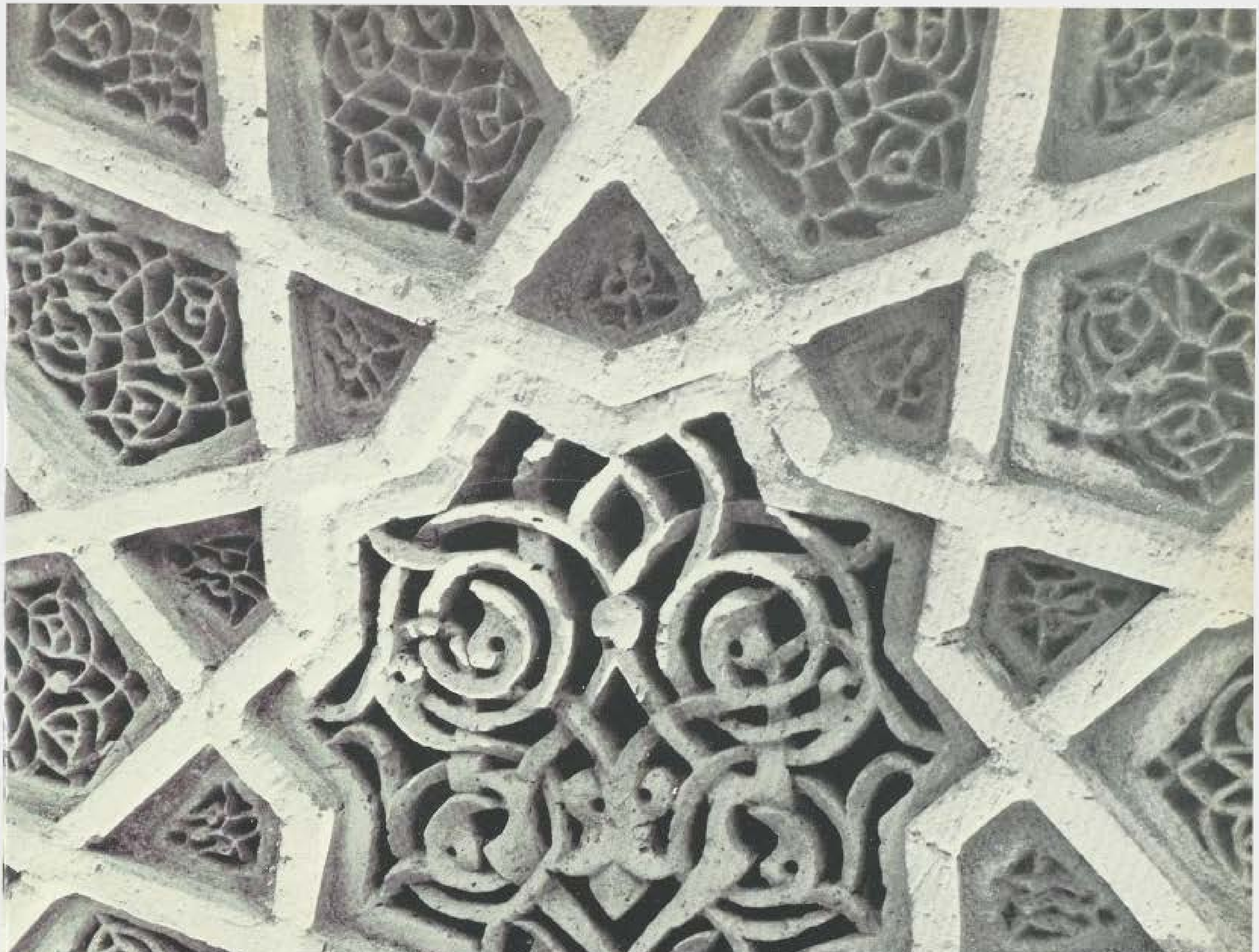
مجموعة الزخارف في التكسية الآجرية لبوابة المدرسة المستنصرية



نموذج لتوزيع الزخرفة الهندسية في اطارات الاقواس (المستنصرية)



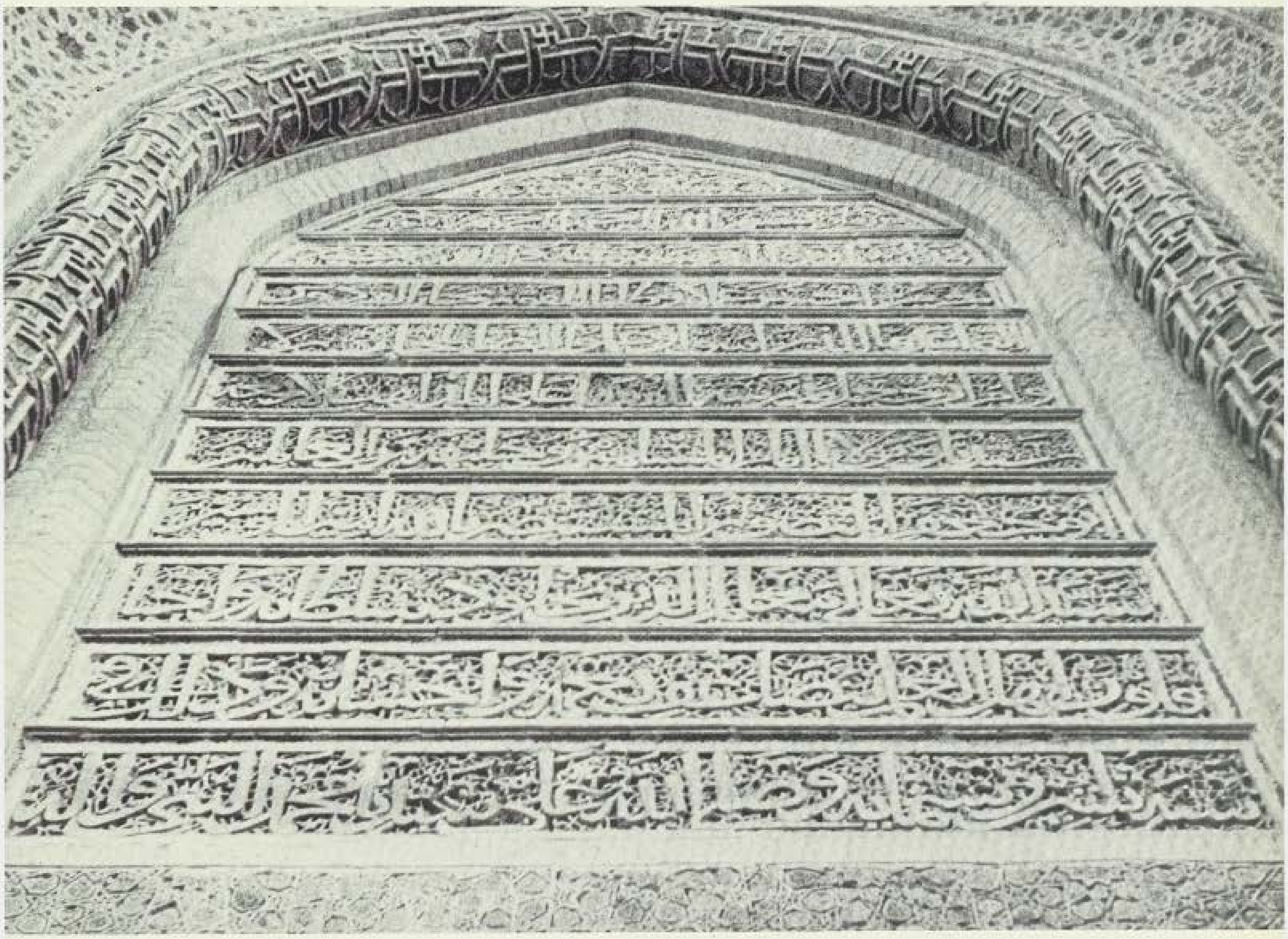
اطار الزخرفة الكتابية ـ الواجهة النهرية للمدرسة المستنصرية



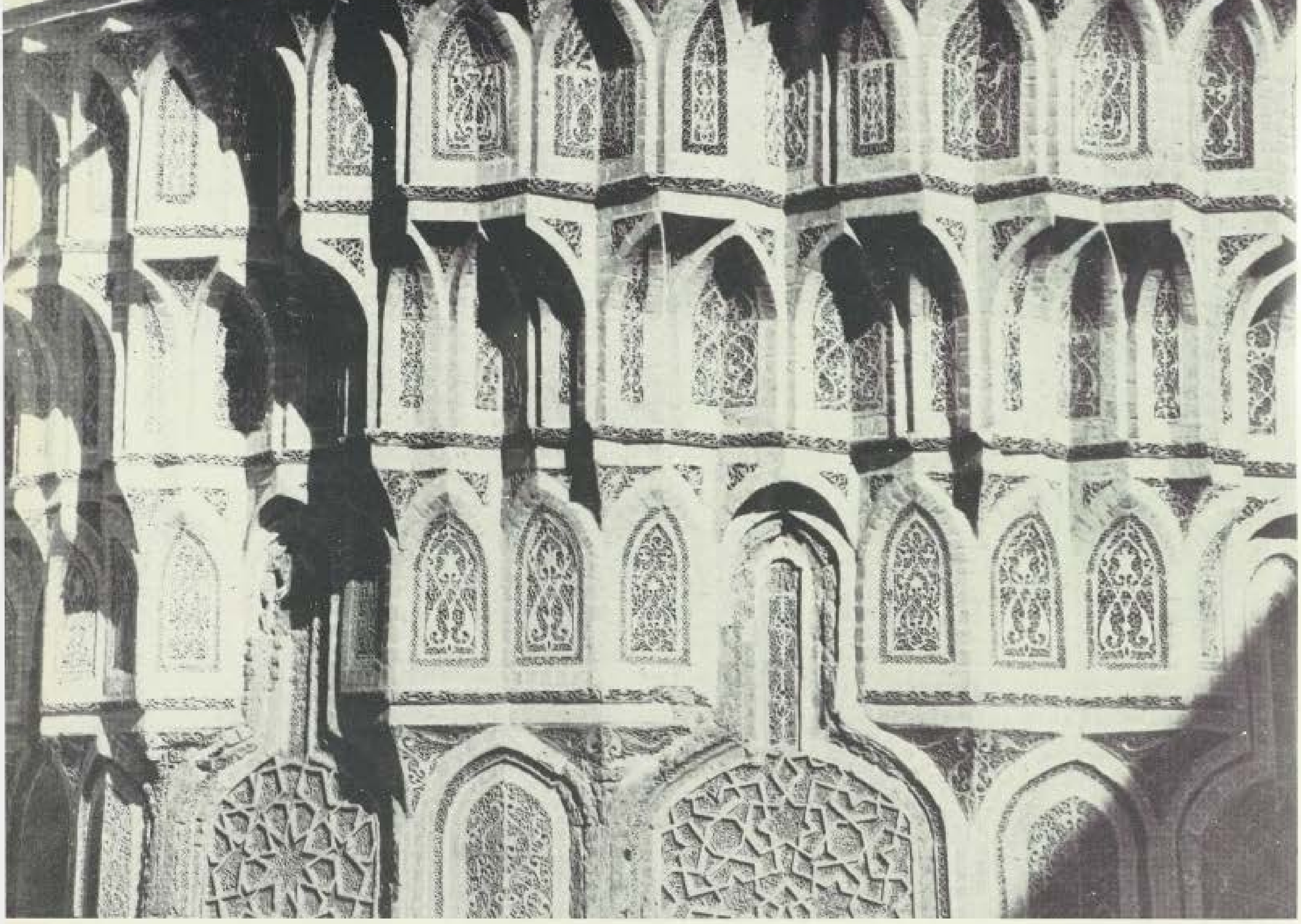
احدى النماذج التي تتكرر في الزخرفة الآجرية البغدادية



لوحة زخرفة آجرية (المدرسة المستنصرية)

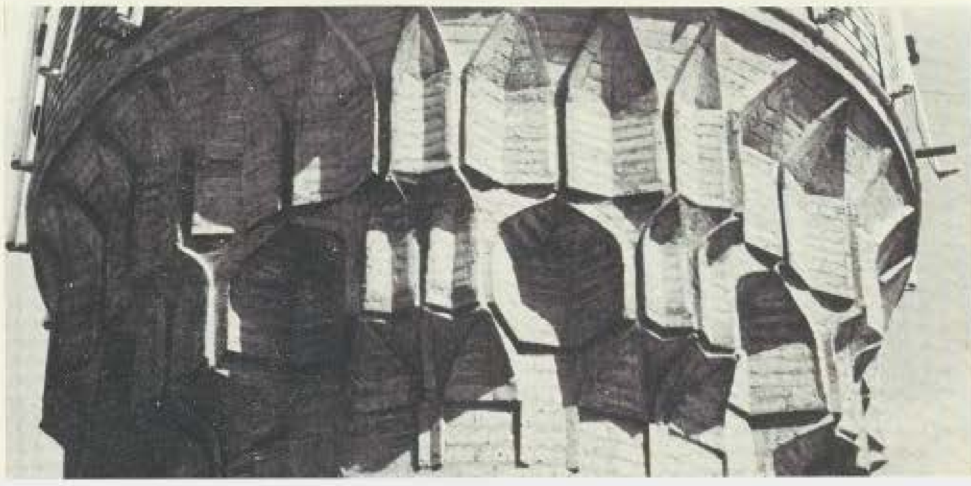


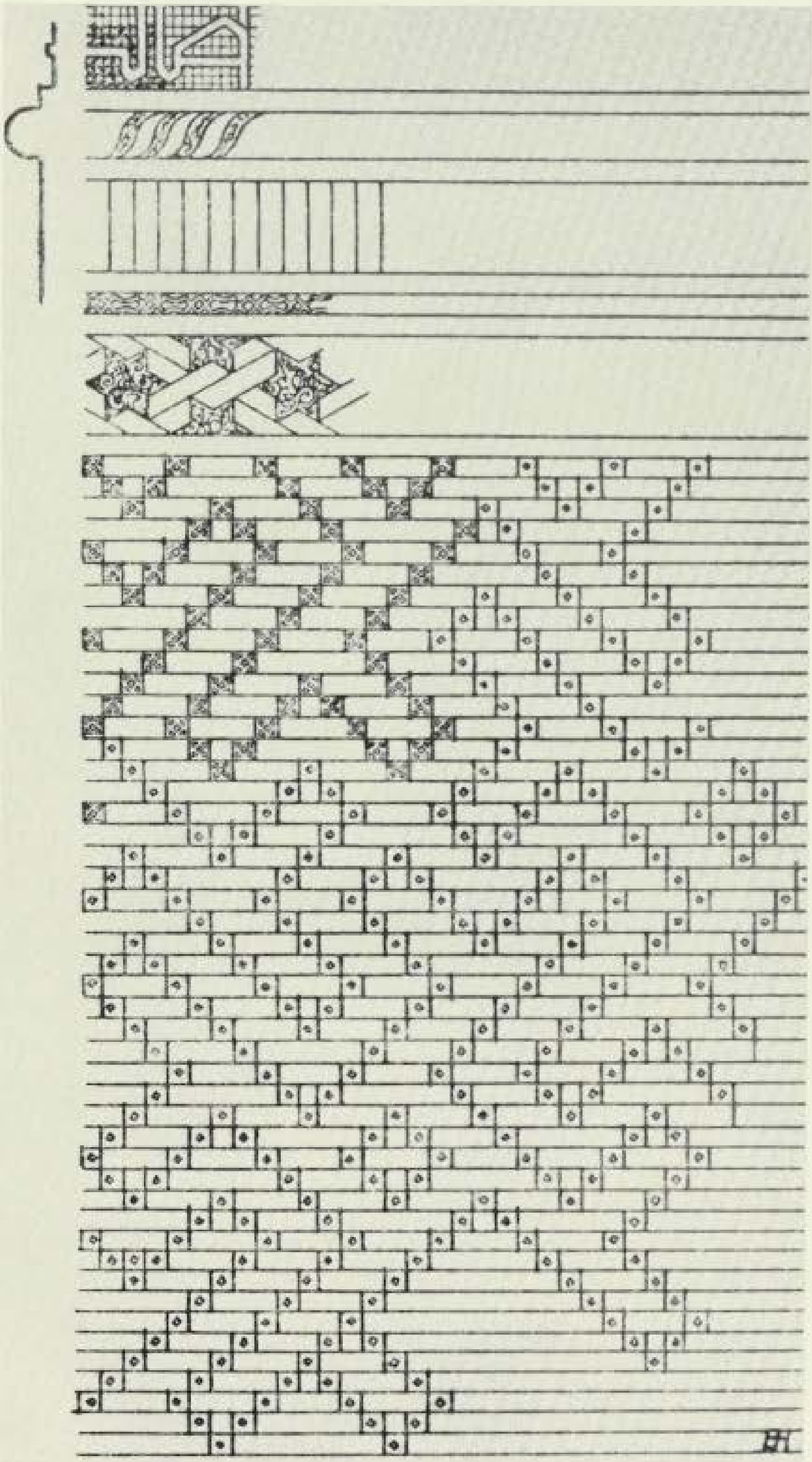
زخرفة الكتابة في تكسية بوابة المدرسة المستنصرية



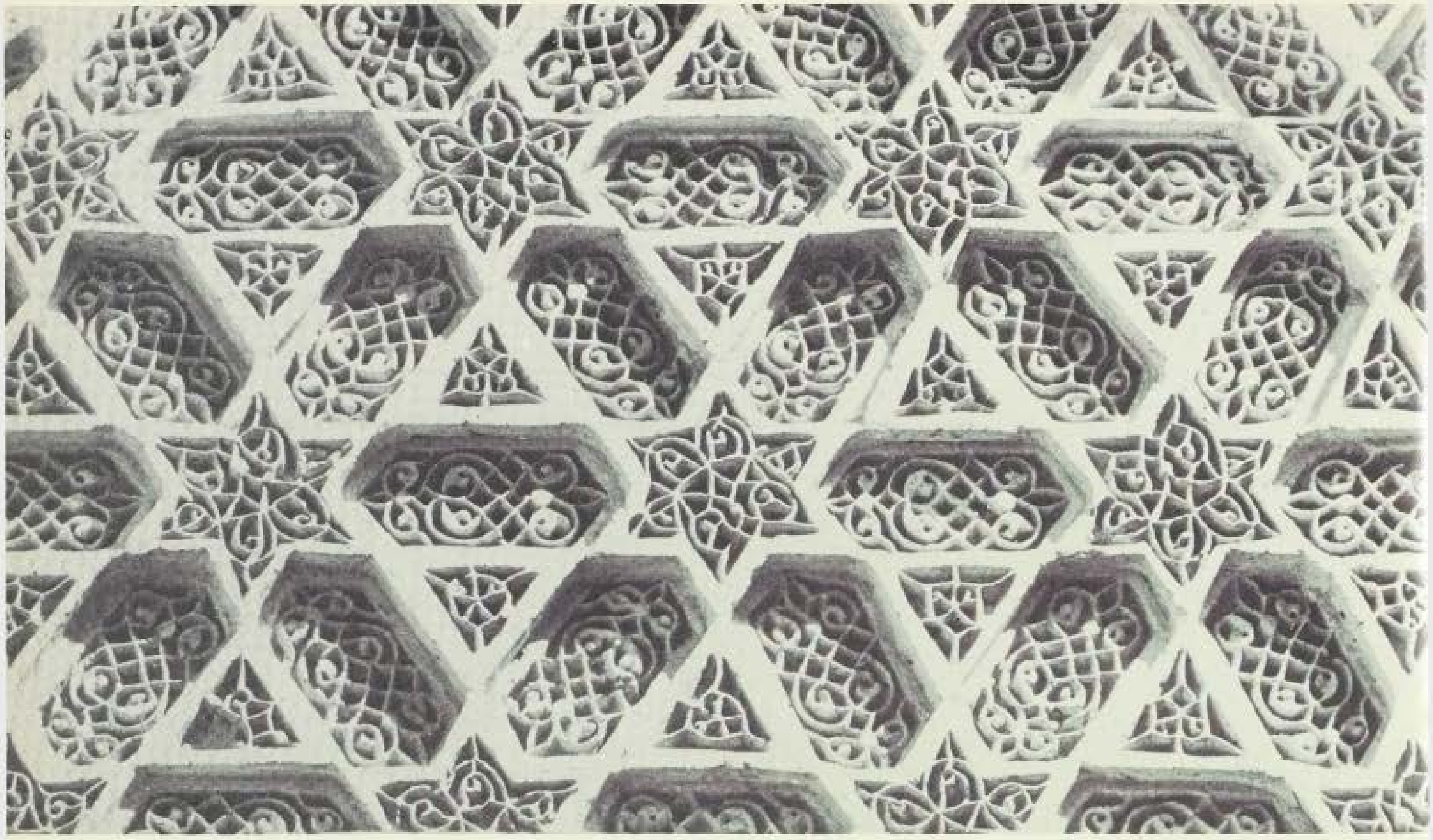
المقرنص المزخرف من البرج الاسفل لمئذنة سوق الغزل (جامع الخلفاء)

مقرنصات الآجر في مئذنة
مسجد الحظائر (جامع الخفافين)



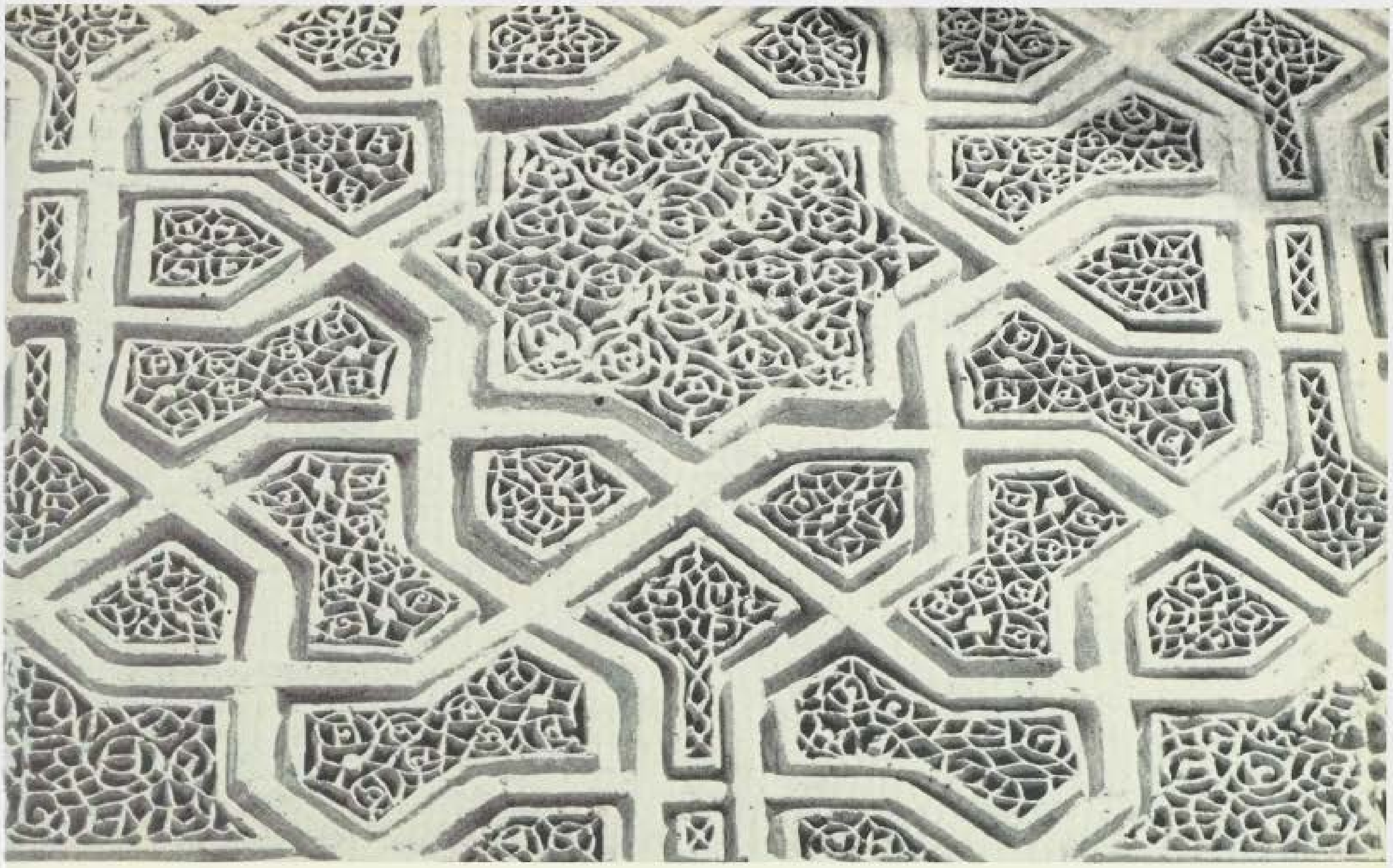


مخطط التنظيم الهندسي للتكسية الآجرية في مئذنة سوق الغزل (جامع الخلفاء)

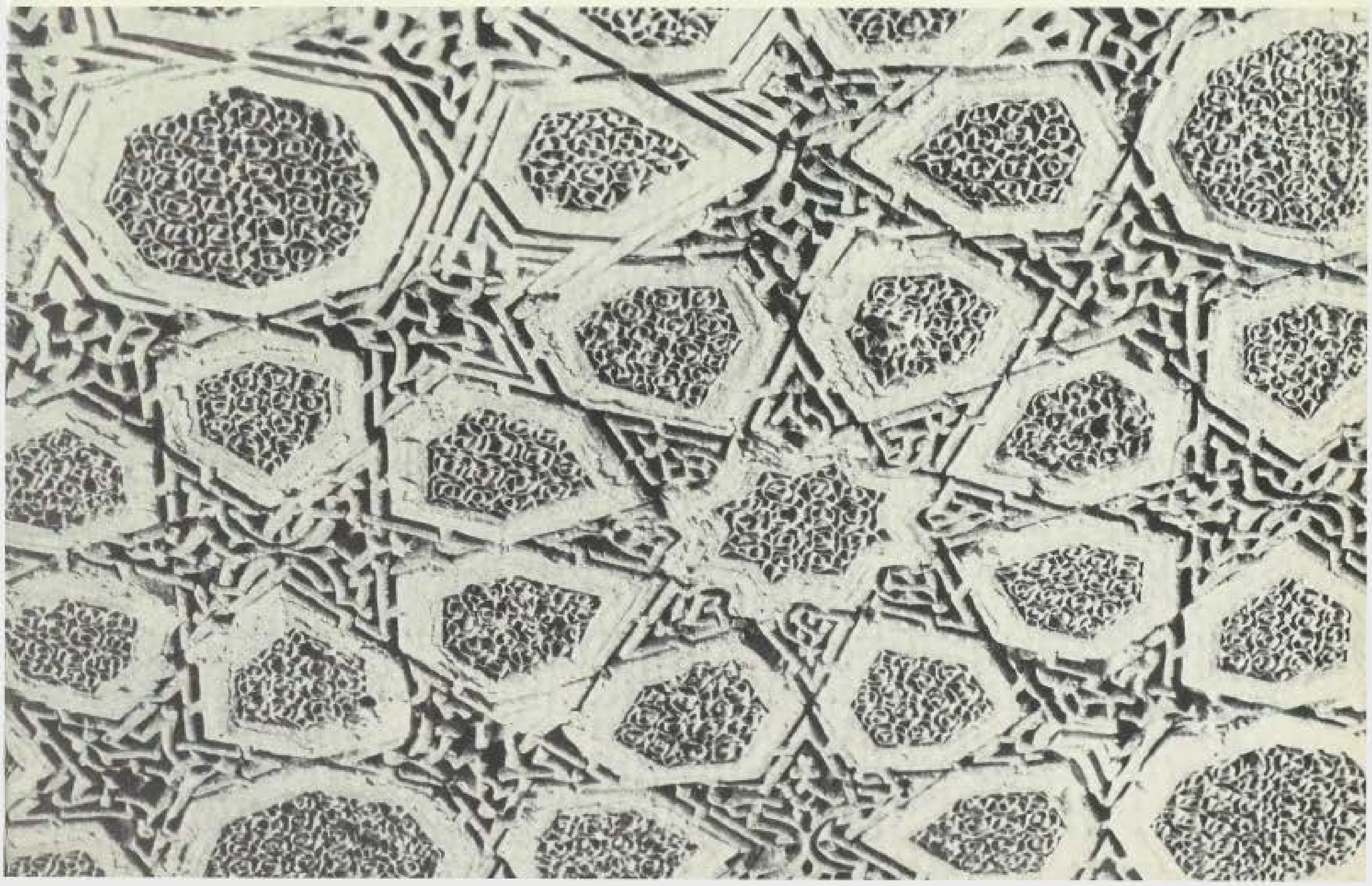


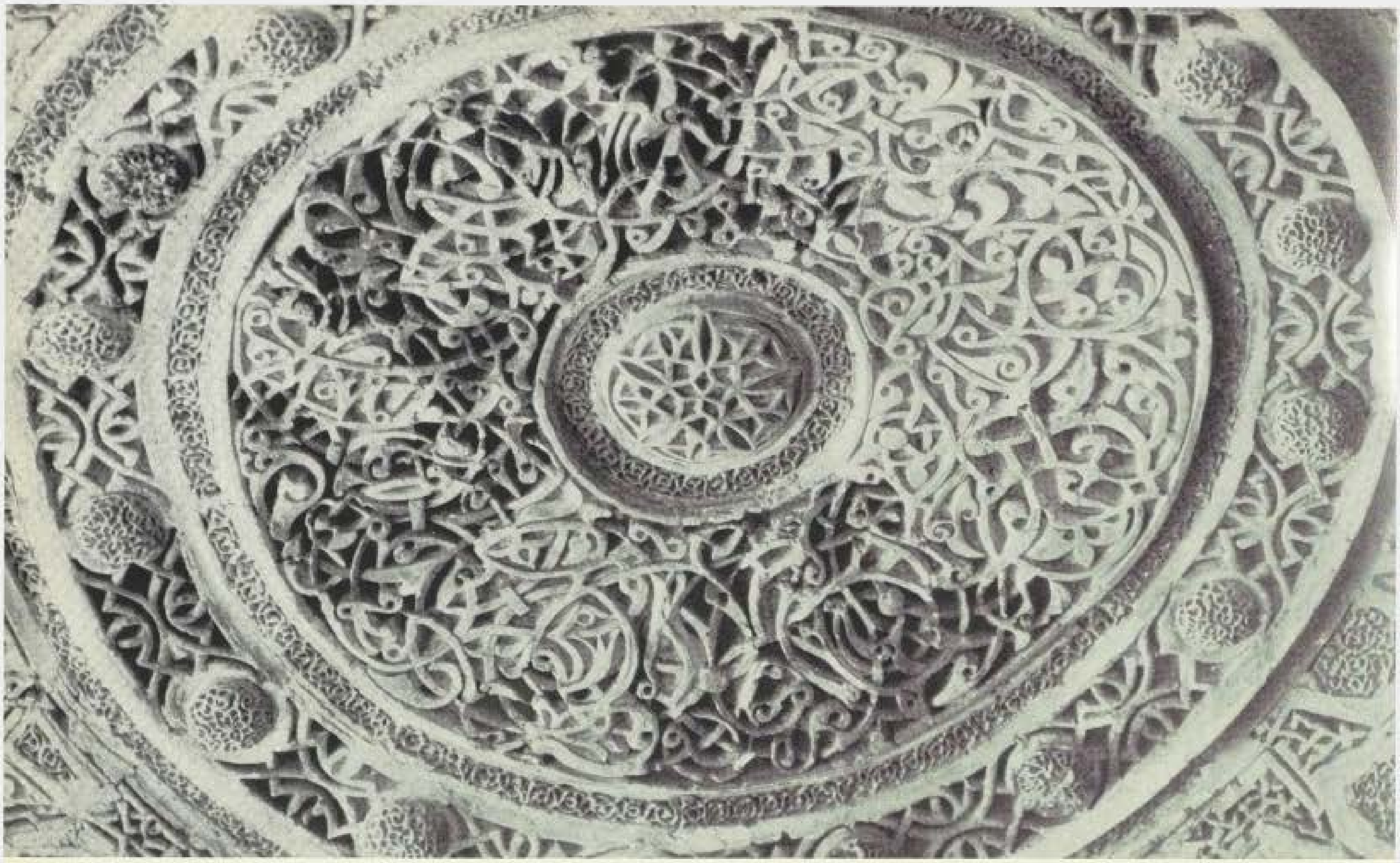
من زخارف المدرسة المستنصرية





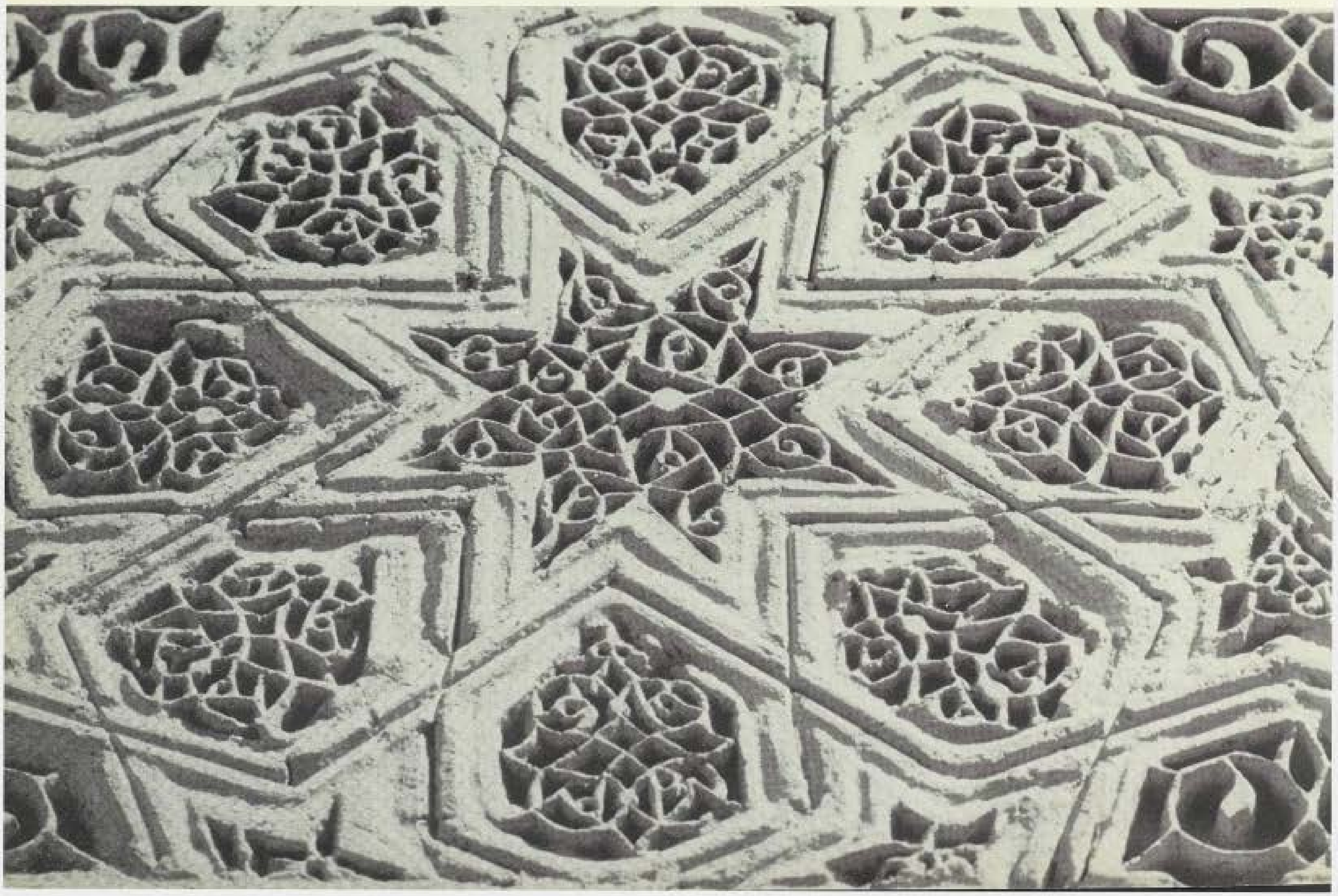
من زخارف المدرسة المستنصرية

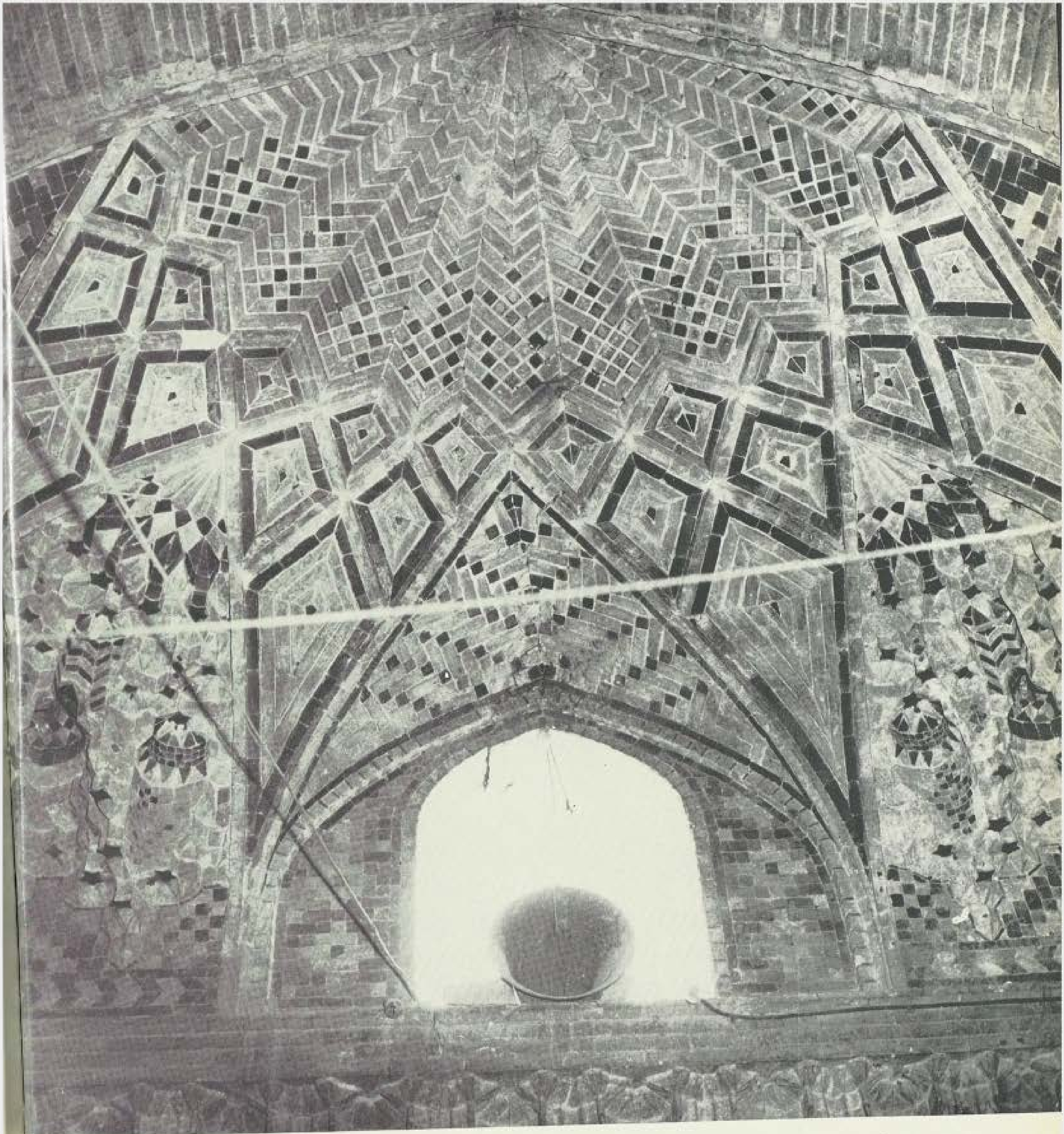




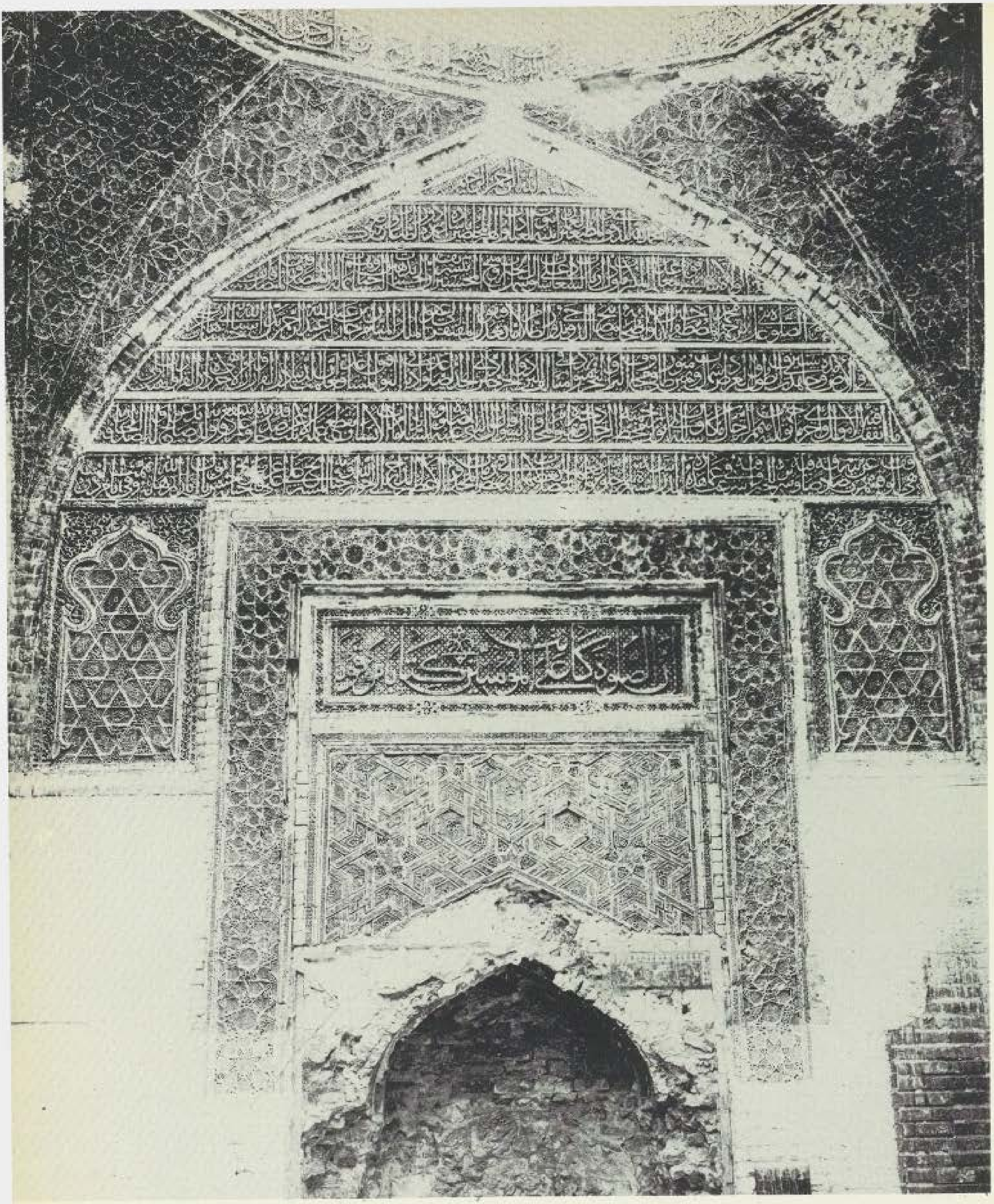
زخرفة آجرية تتوسط سقف الايوان الكبير — القصر العباسي

من زخارف المدرسة المستنصرية



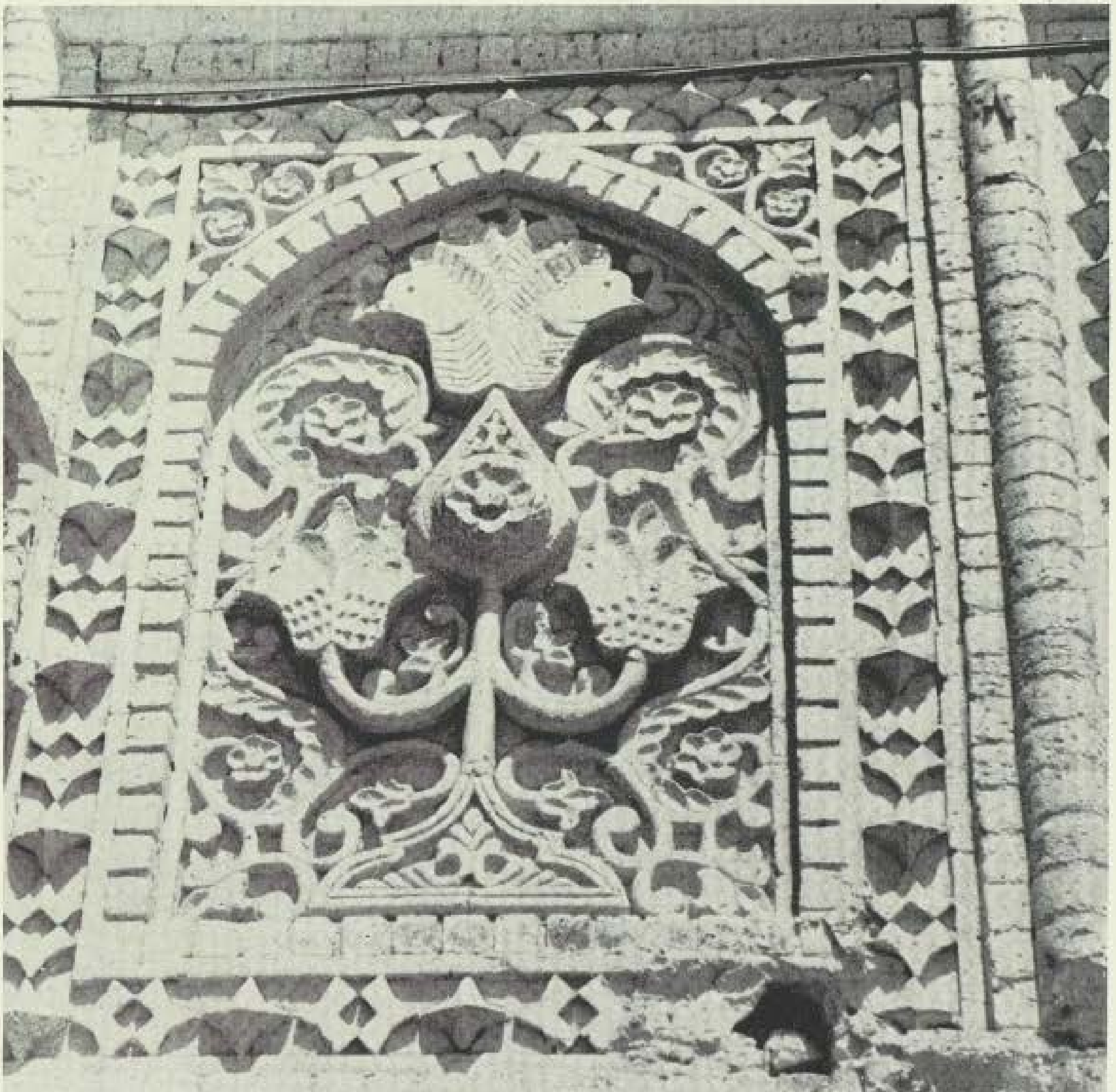


الزخرفة الآجرية مع استعمال القاشاني في التقبية لسوق السراجين

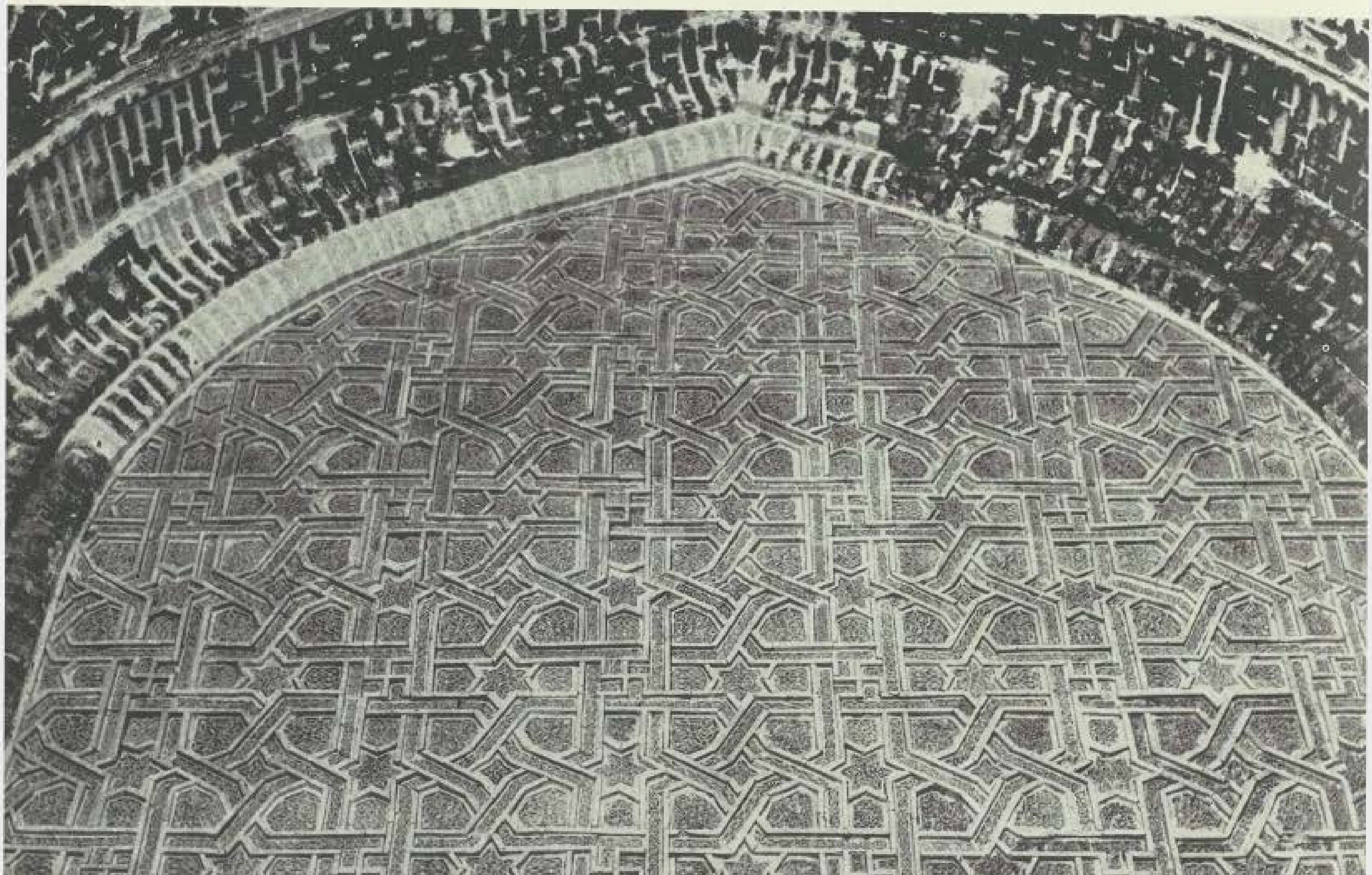


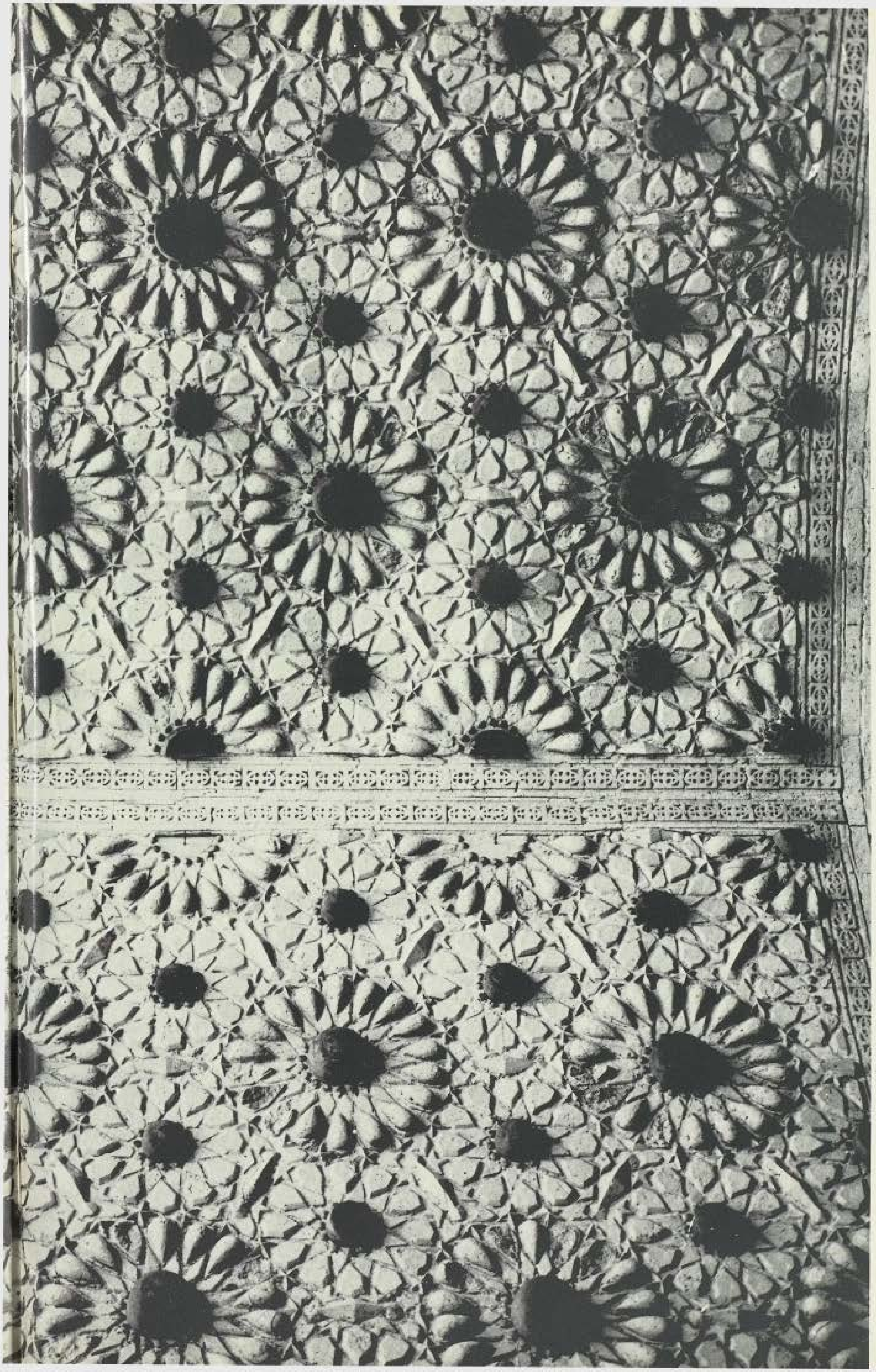
كتابات وزخارف آجرية المدرسة المرجانية

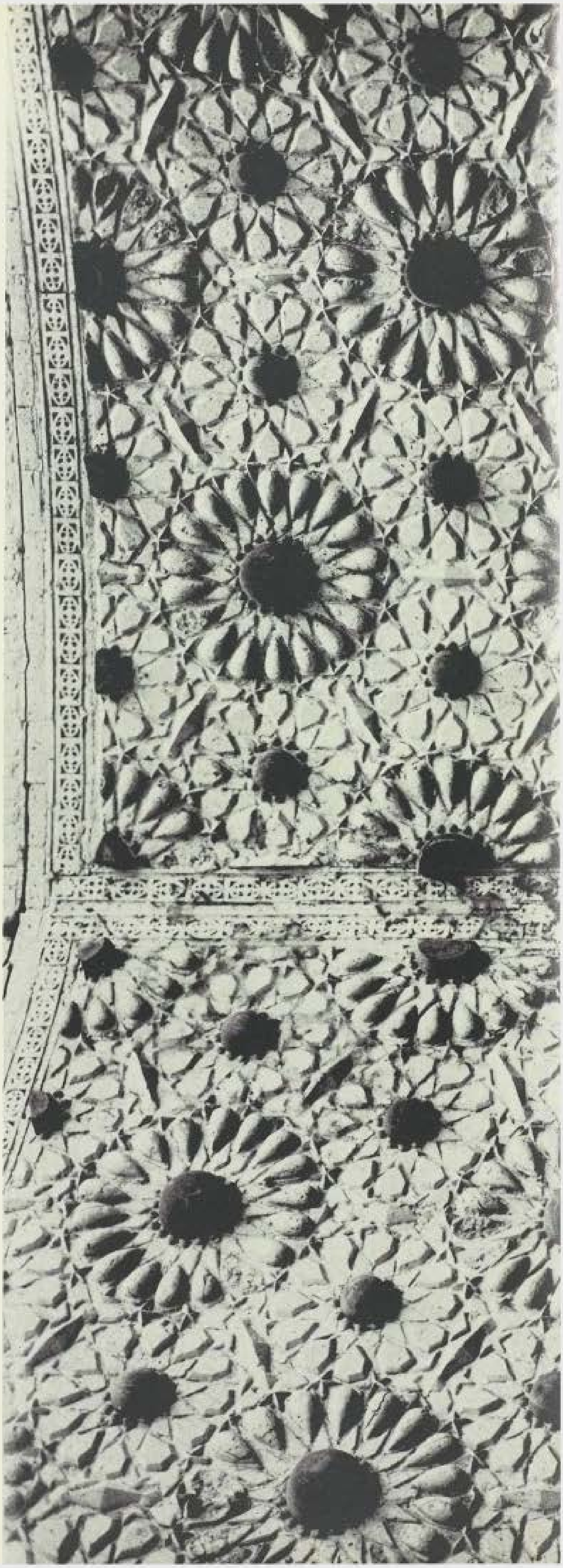
زخارف هندسية ونباتية ، آجر وجص ـــ من البيوت البغدادية



زخارف آجرية ـــ ايوان المدرسة المستنصرية







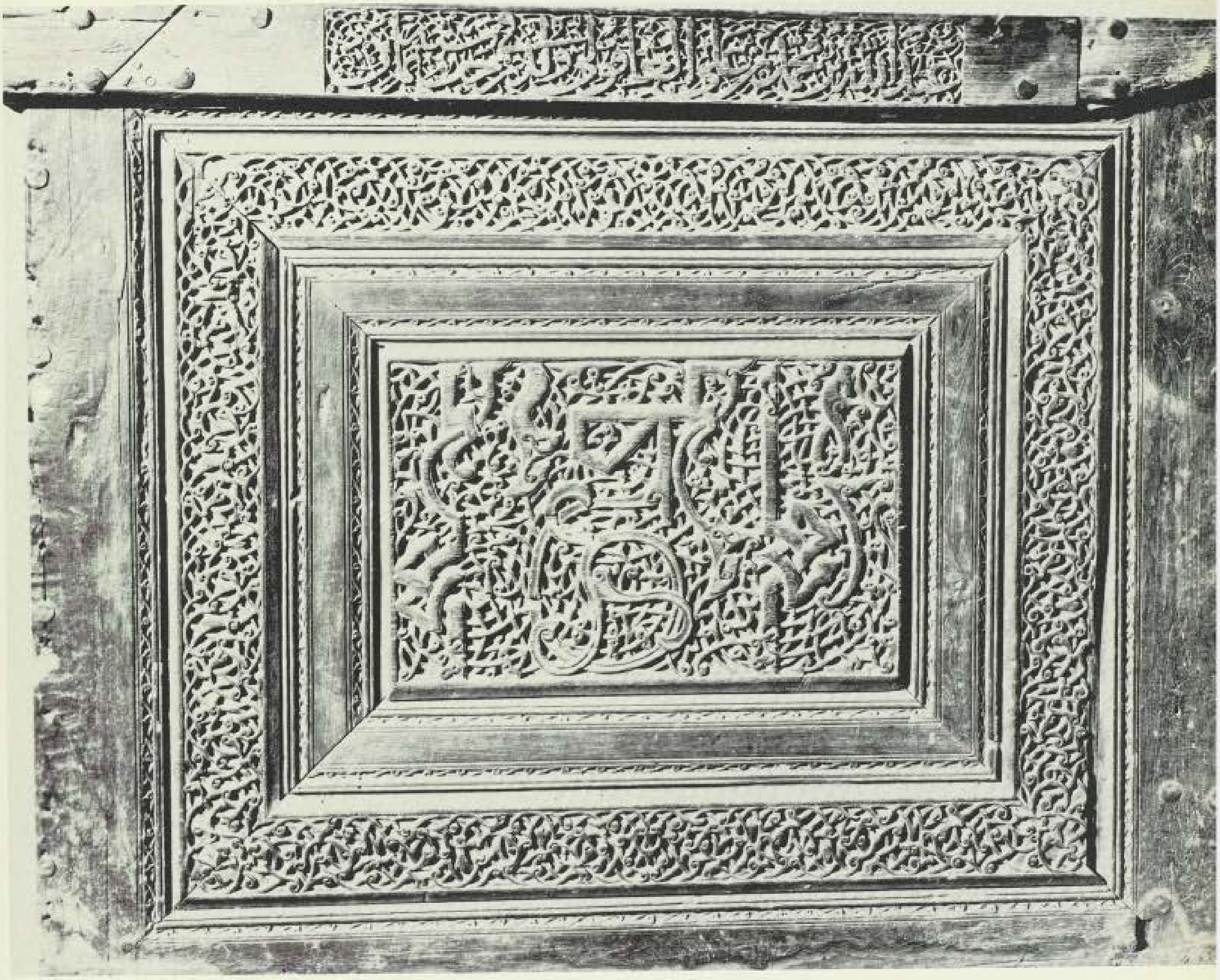
زخرفة آجرية مطعمة بالنحاس
في سقف مدخل السراي الحكومي

الأعمال الخشبيّة

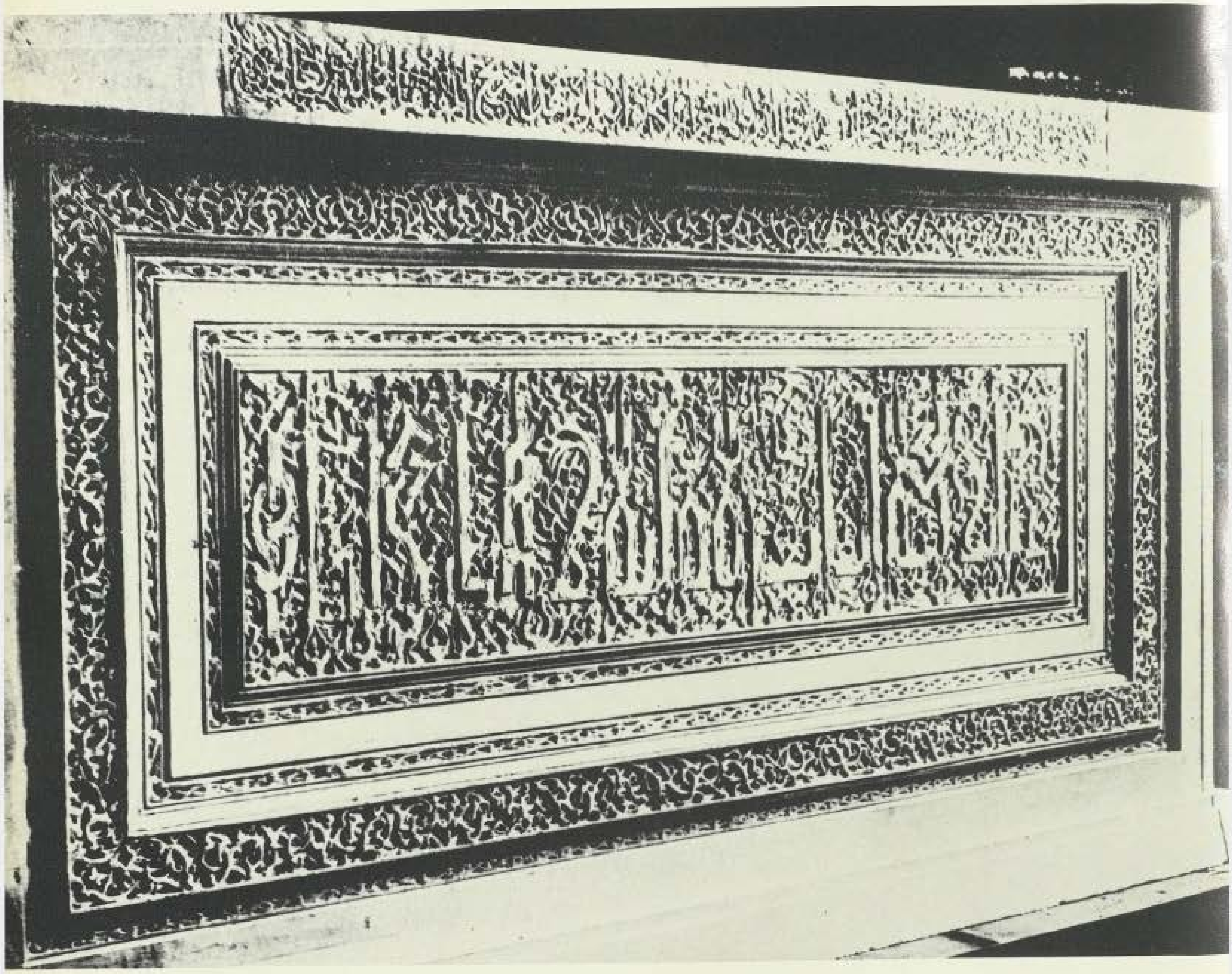
لم تقتصر أعمــال النقوش الهندسية والنباتيّة (الأرابسك) على الآجر ، بل شملت الأعمال الخشبية في البنــاء ، وأظهر النجارون تفوقاً في الدقة والمهارة في أعمال التكسية الخشبية والنوافذ . وخاصة في بعض الأبواب وألواح المشبكات التي ظهرت بخصــائص متميزة في الواجهات الداخلية للابنية .



من امثلة الزخارف للحشوات الخشبية في الابواب ــ المشهد الكاظمي



كتابات وزخارف على صندوق ضريح العاقولي

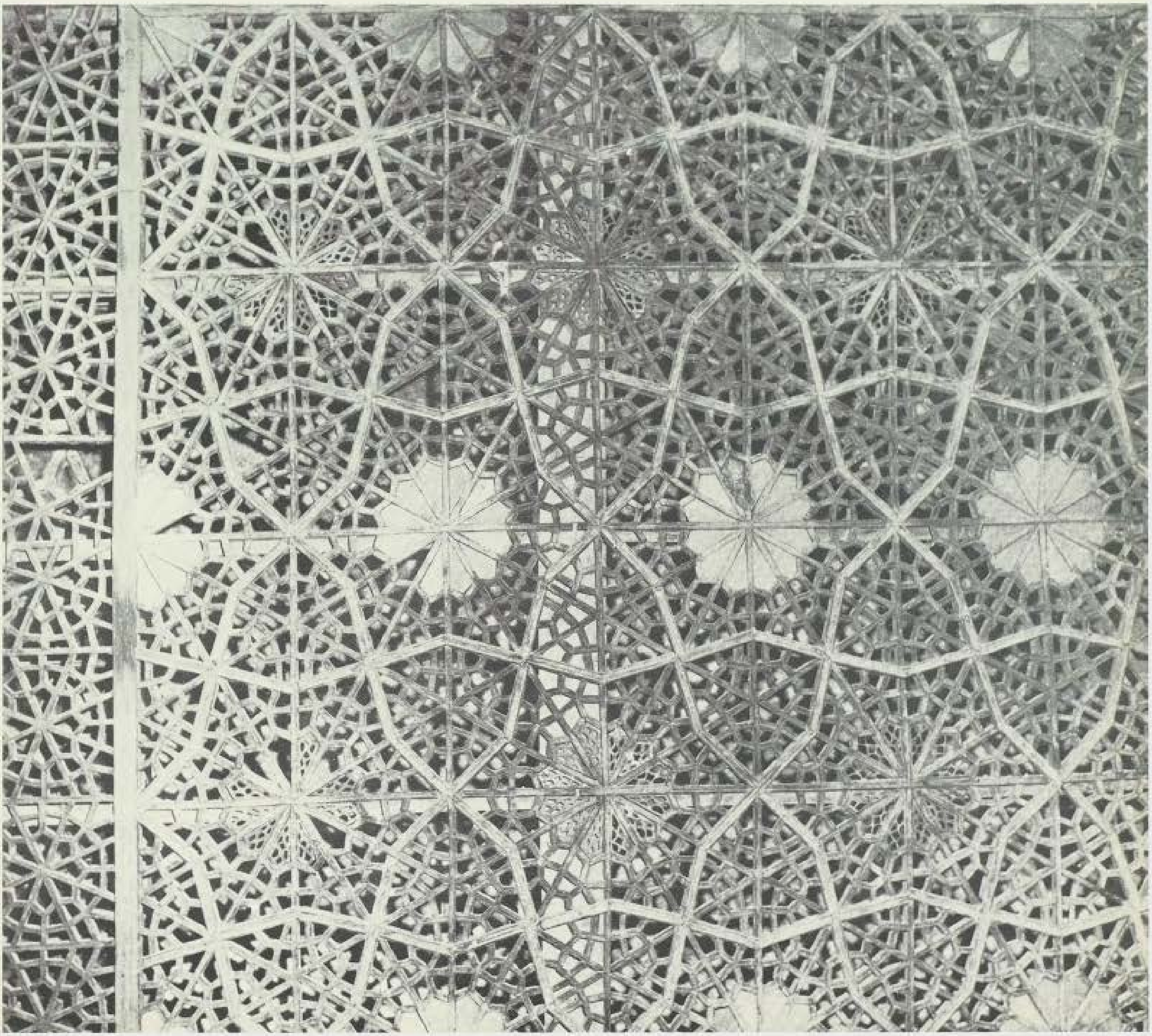


كتابة كوفية وزخرفة نباتية ـــ صندوق ضريح في جامع العاقولية

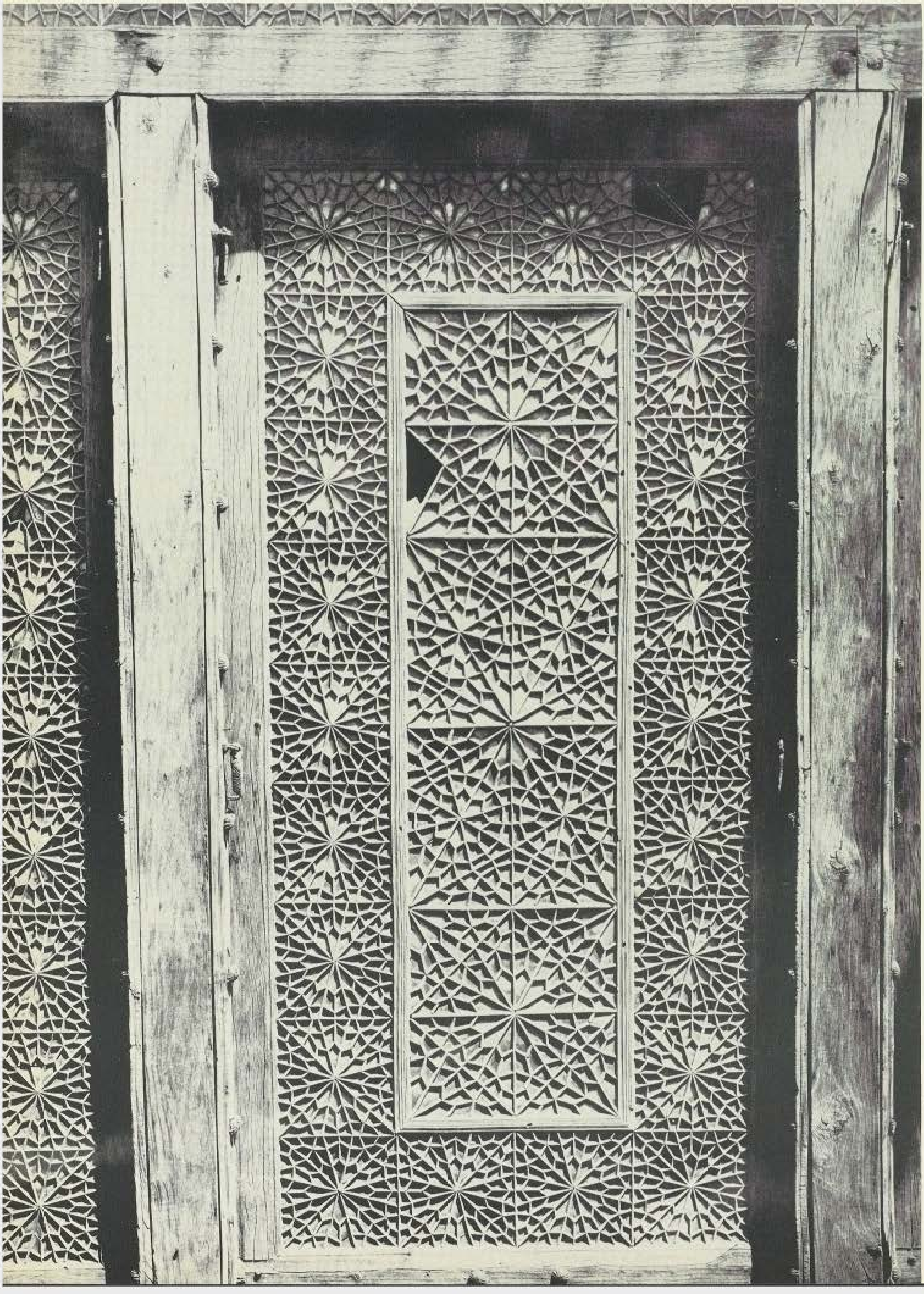
زخرفة كتابة كوفية ــ من مجموعة القصر العباسي

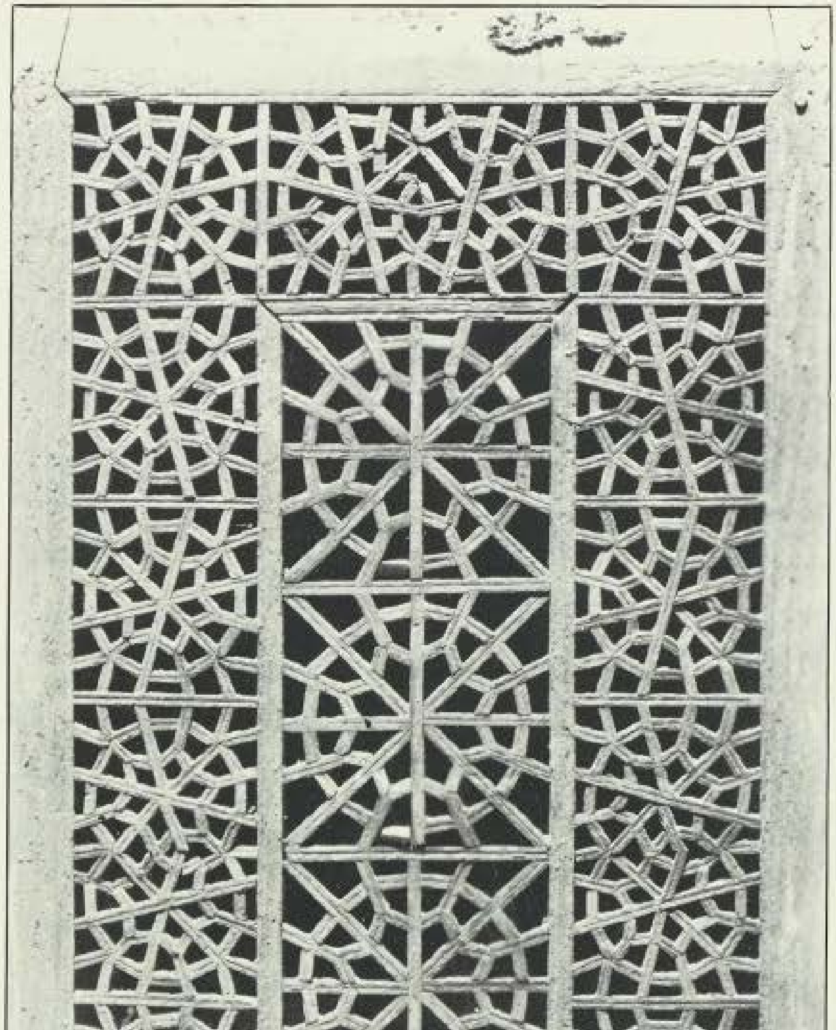


من الزخارف الخشبية الدقيقة الصنع في احدى البيوت البغدادية ــ من مجموعة القصر العباسي

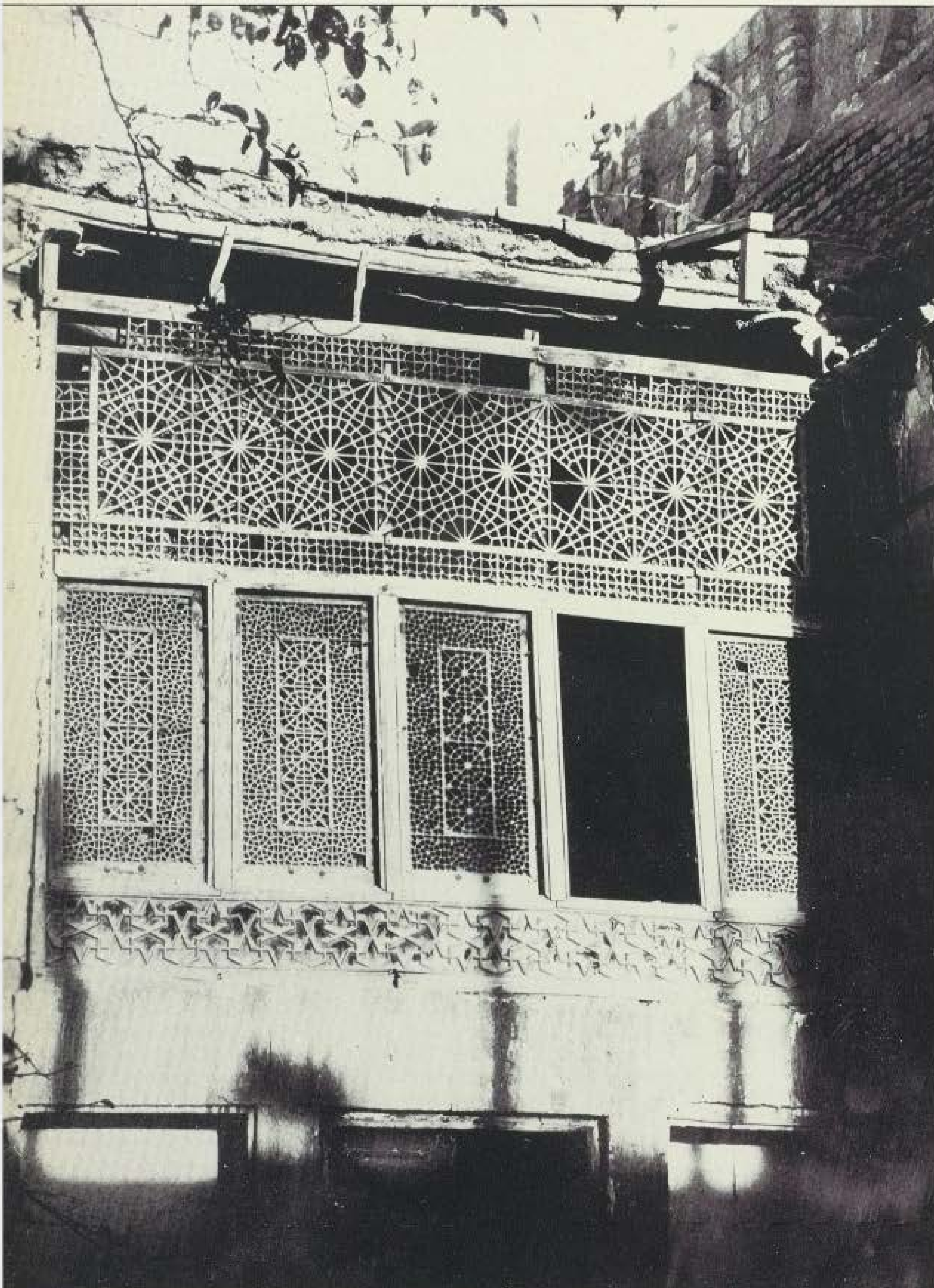


نموذج وحدة شباك خشبي مزخرف

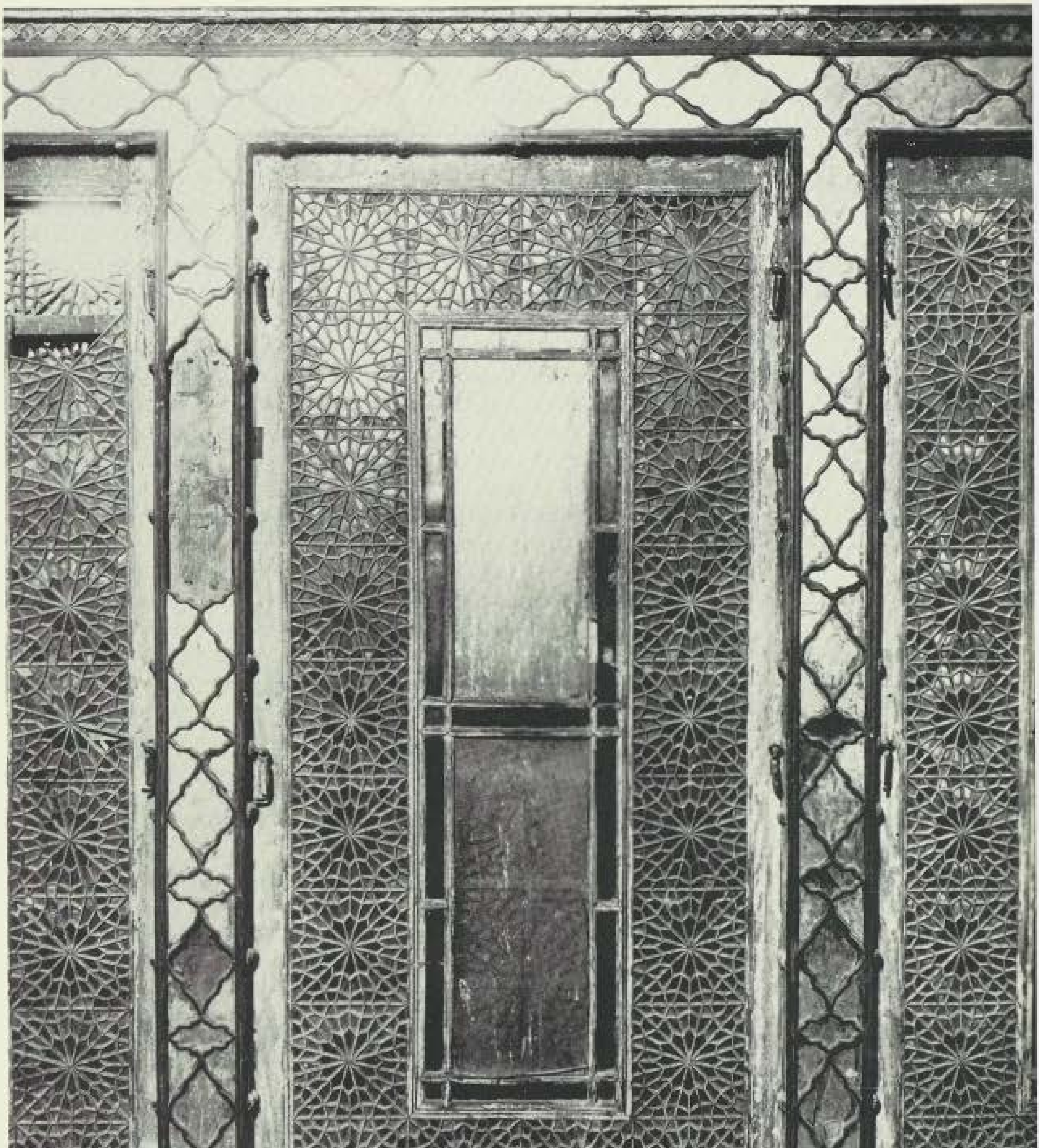




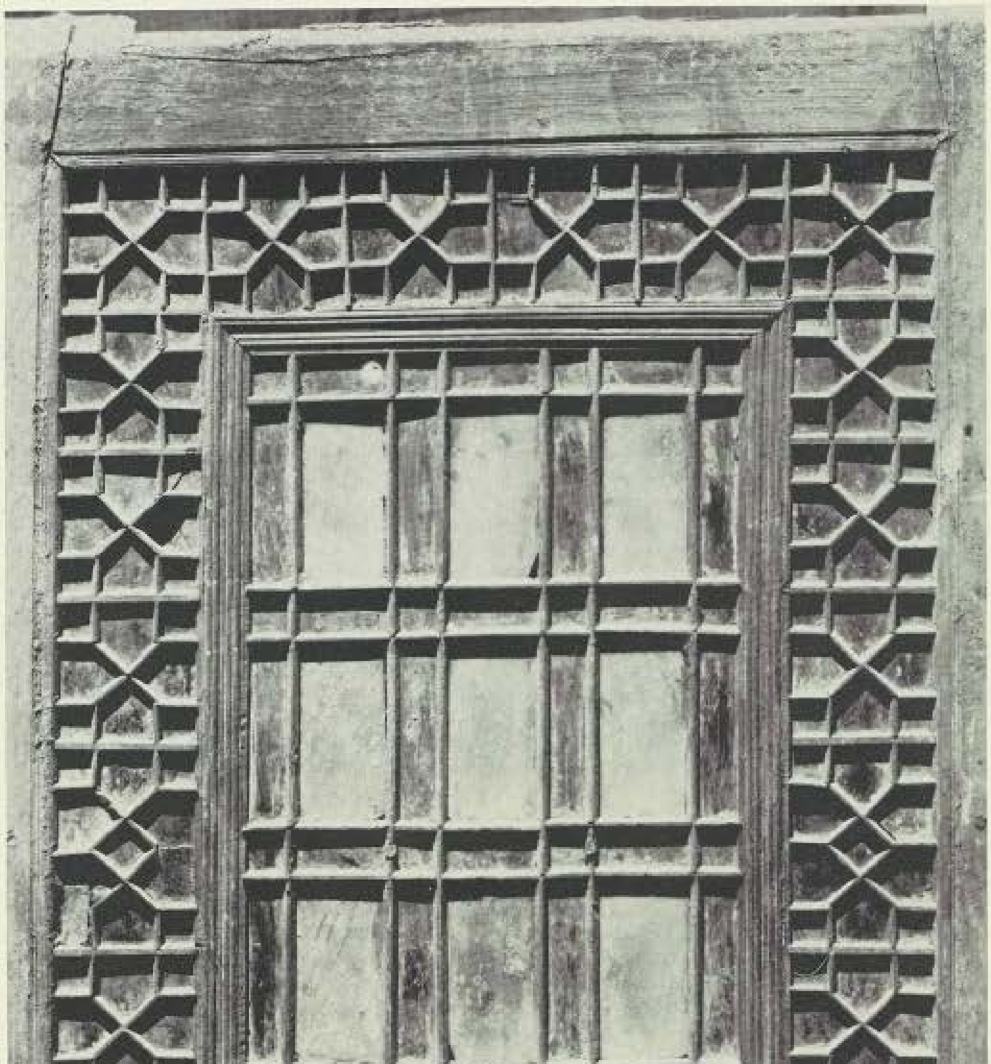
وحدة اطار شباك خشبي — دار السيد احمد السيد عيسى



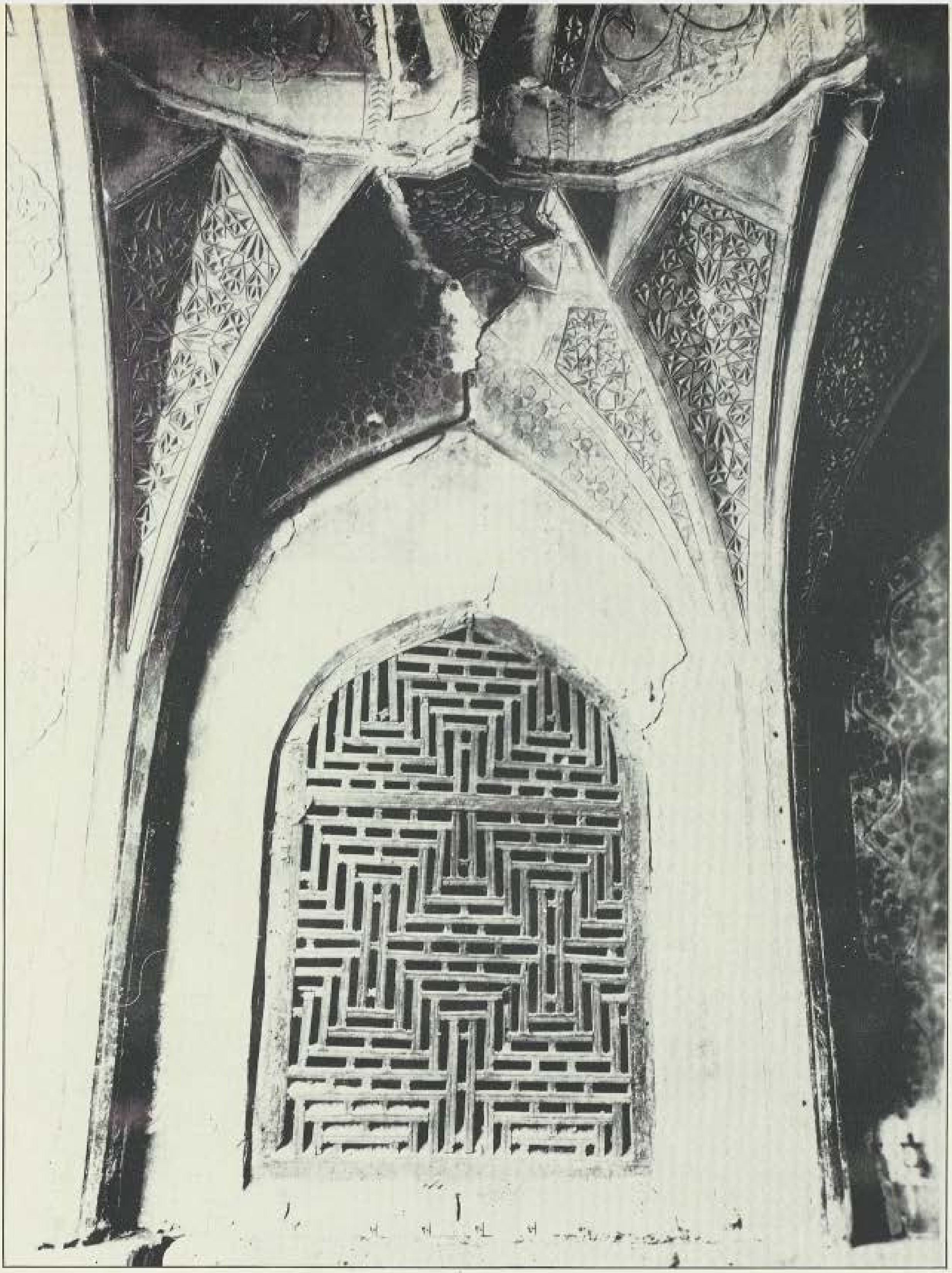
جانب من الواجهة الداخلية ــ دار السيد احمد السيد عيسى



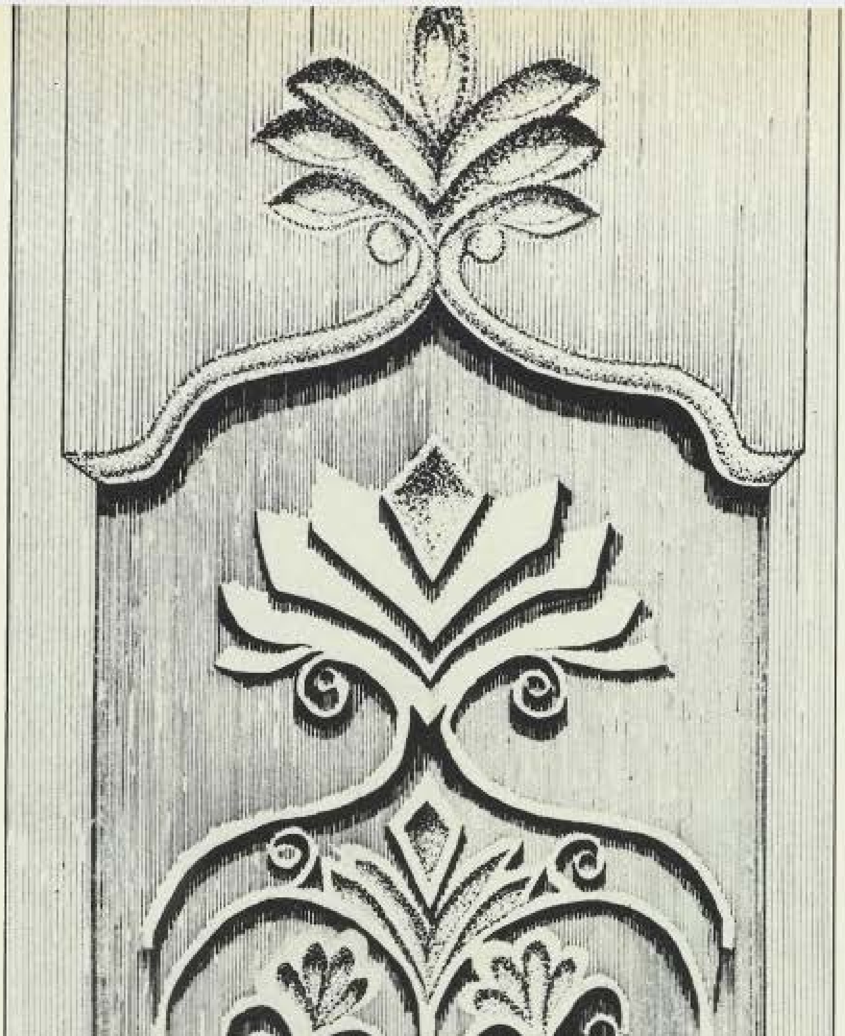
أحد نماذج الشبابيك الزجاجية ــ دار السيد أحمد السيد عيسى



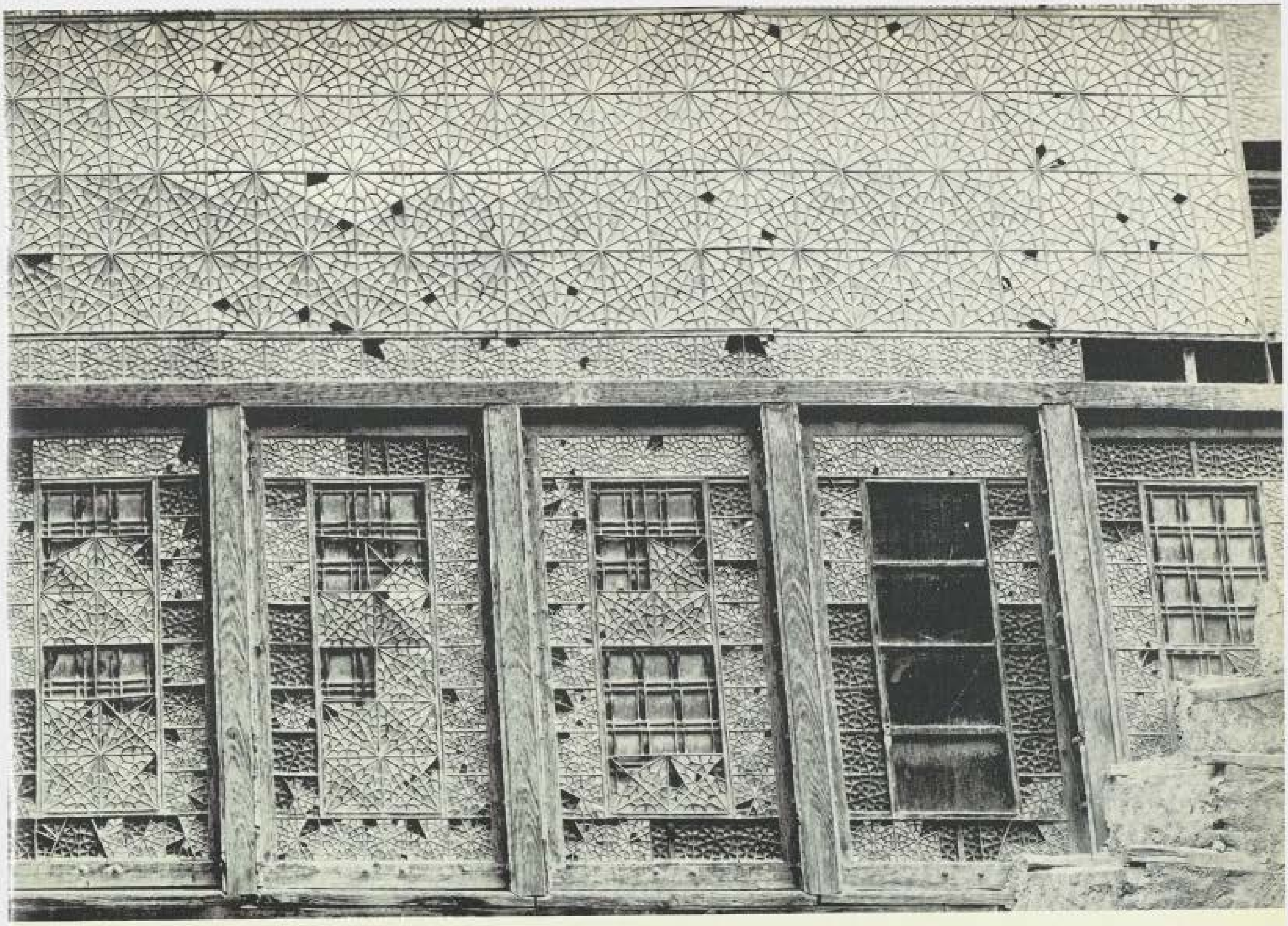
وحدة اطار شباك خشبي ــ دار السيد احمد السيد عيسى



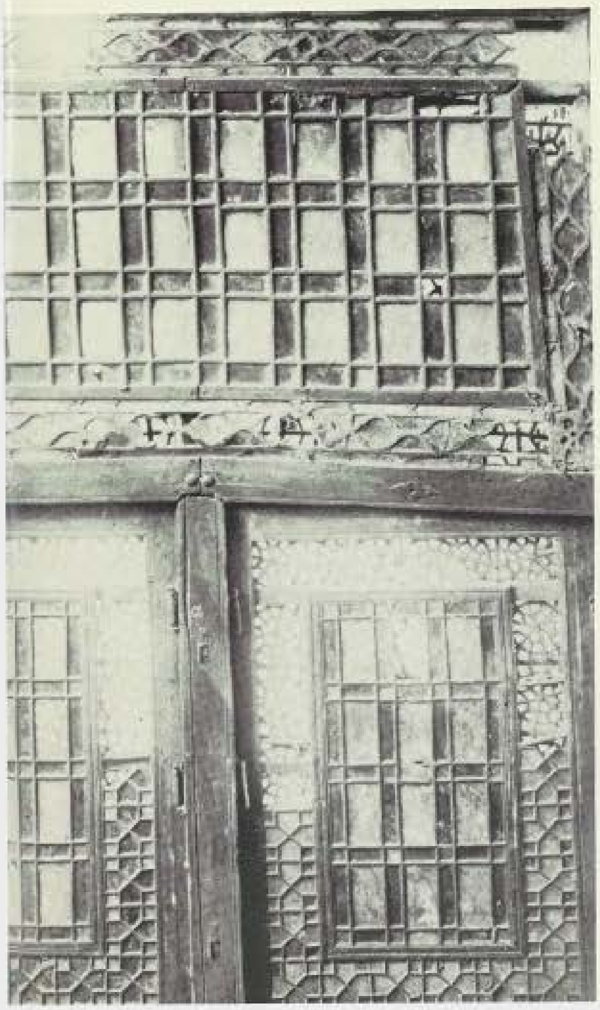
مشبك خشبي ــ دار الخضيري

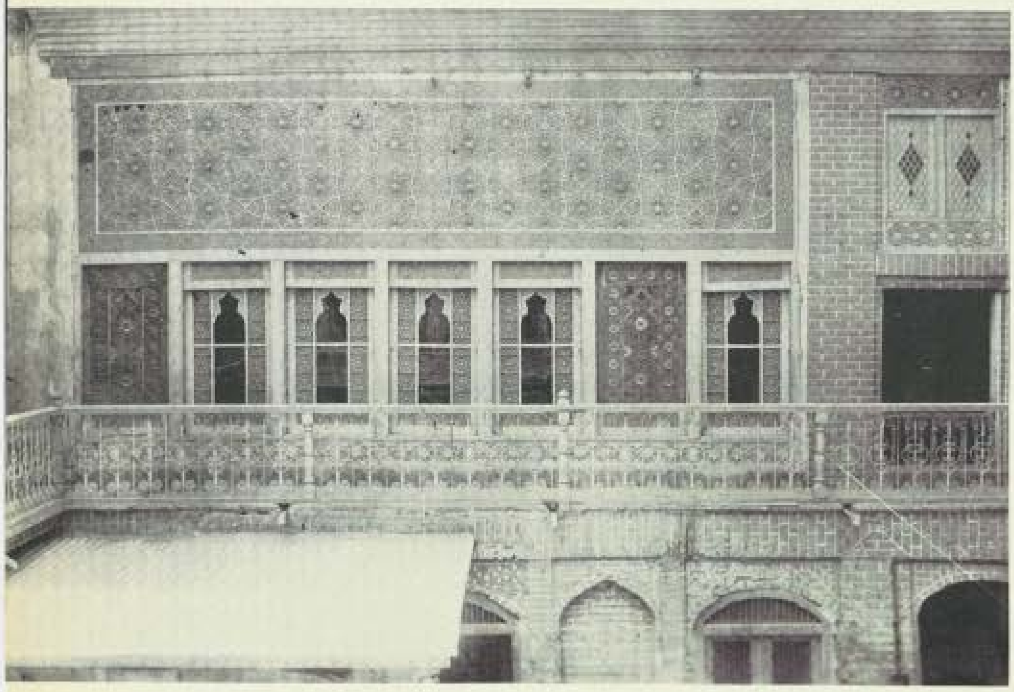


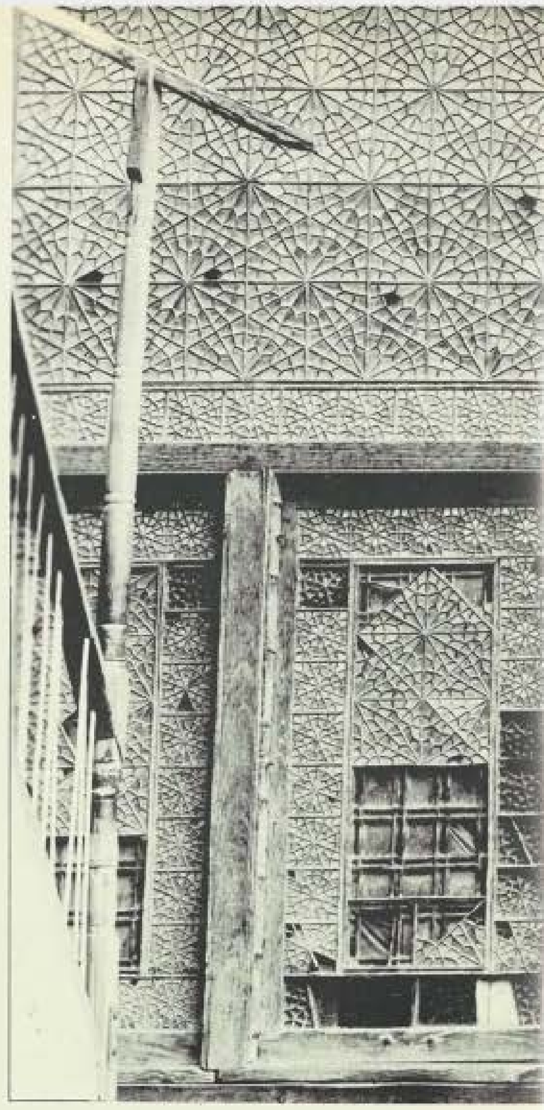
نموذج للزخرفة الخشبية النافرة في ايوان البيوت البغدادية



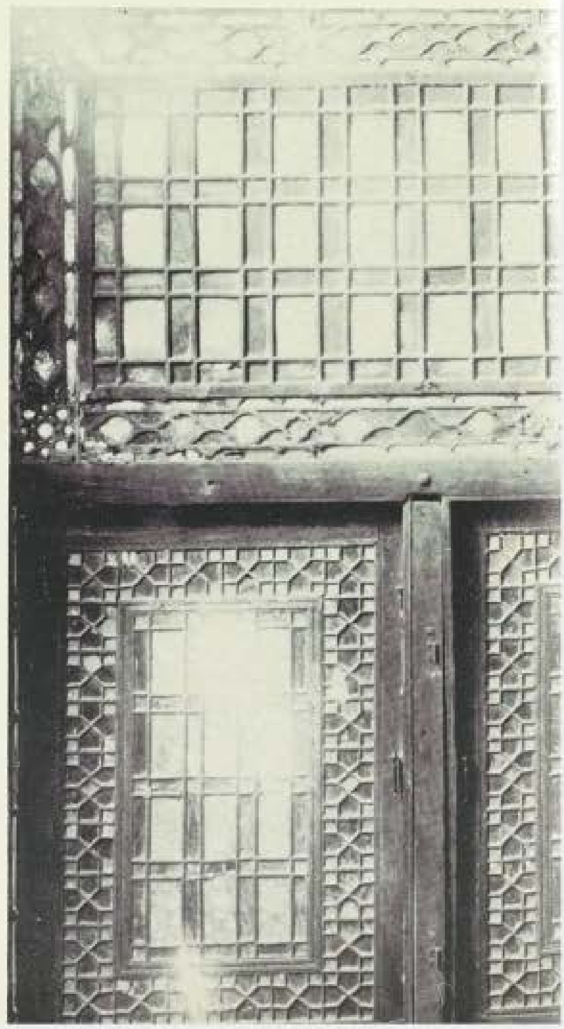
الشبابيك والاعمال الخشبية في الواجهة الداخلية للغرف الفوقانية ــ دار السيد رشيد فرج



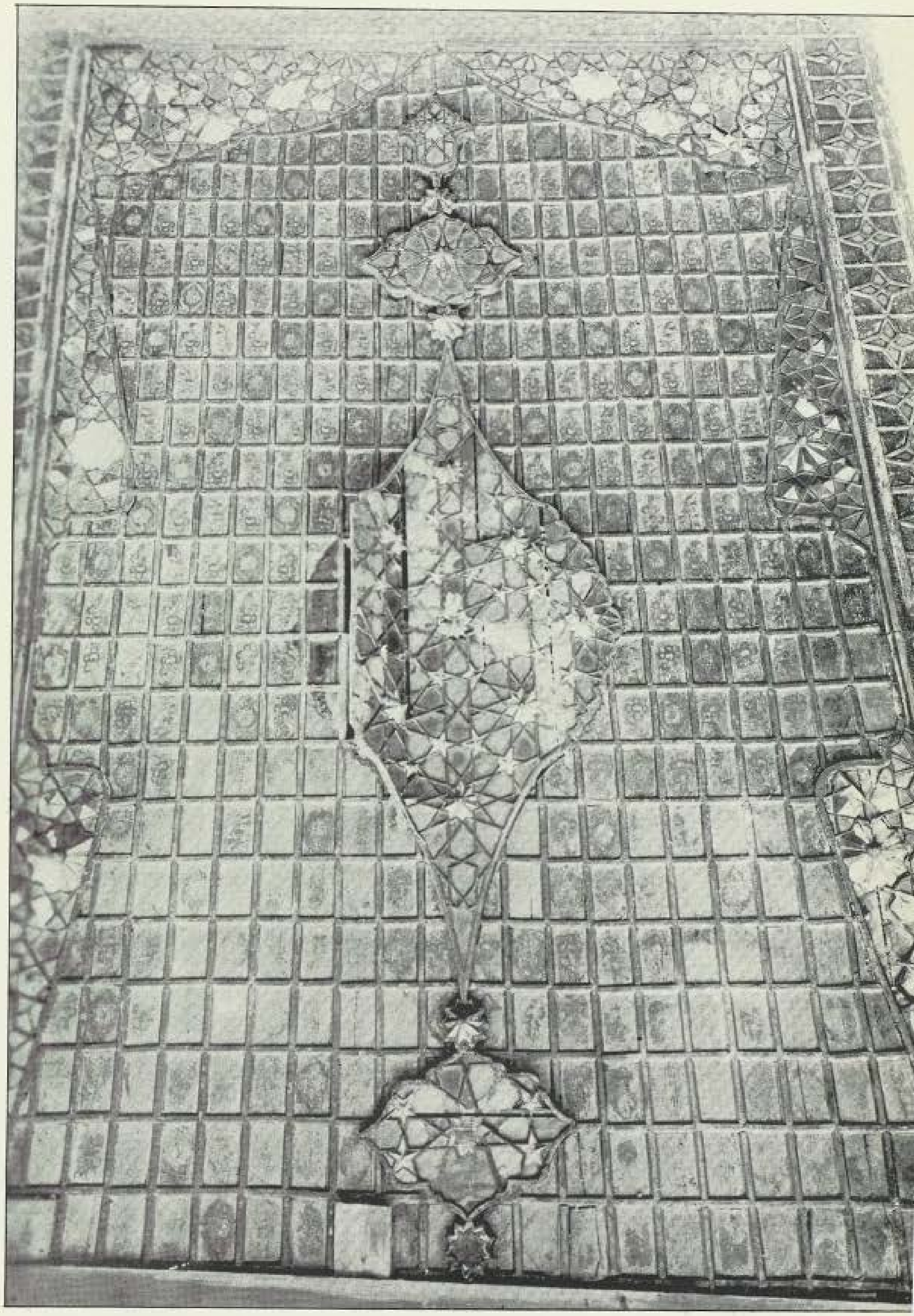




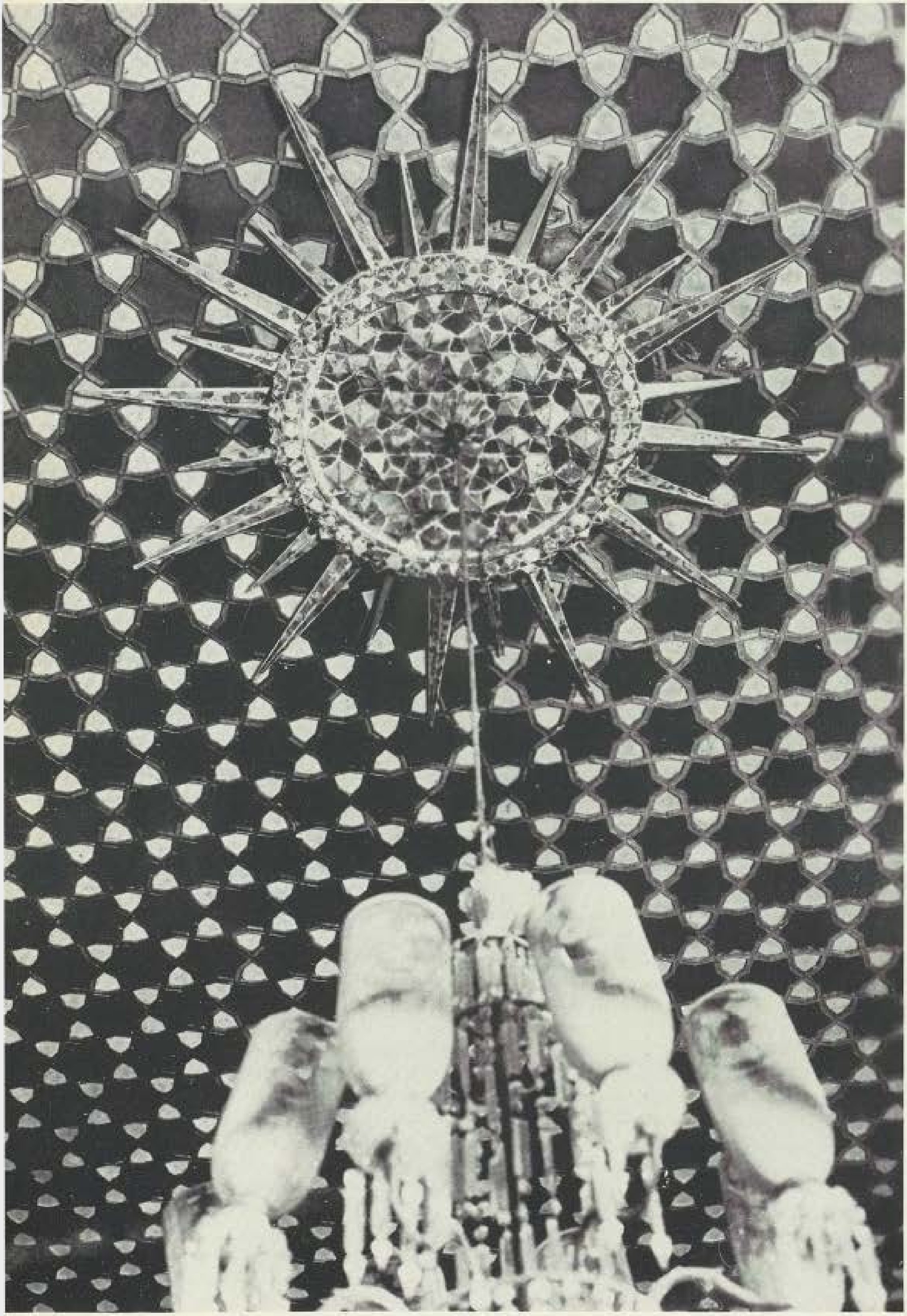
الواجهات الداخلية للبيوت البغدادية ـــ دار الاسترابادي ـــ كاظمية



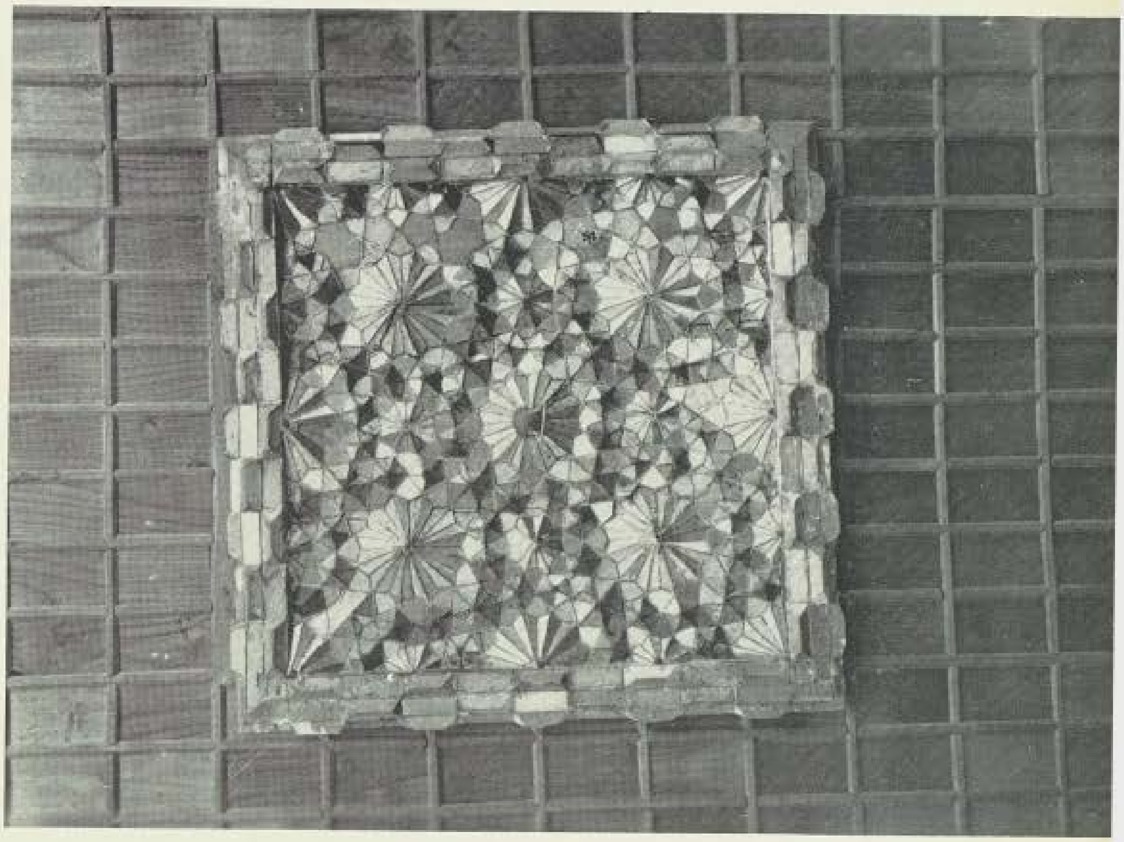
توزيع الاطارات والشبابيك في الغرف المطلة على الفناء الداخلي



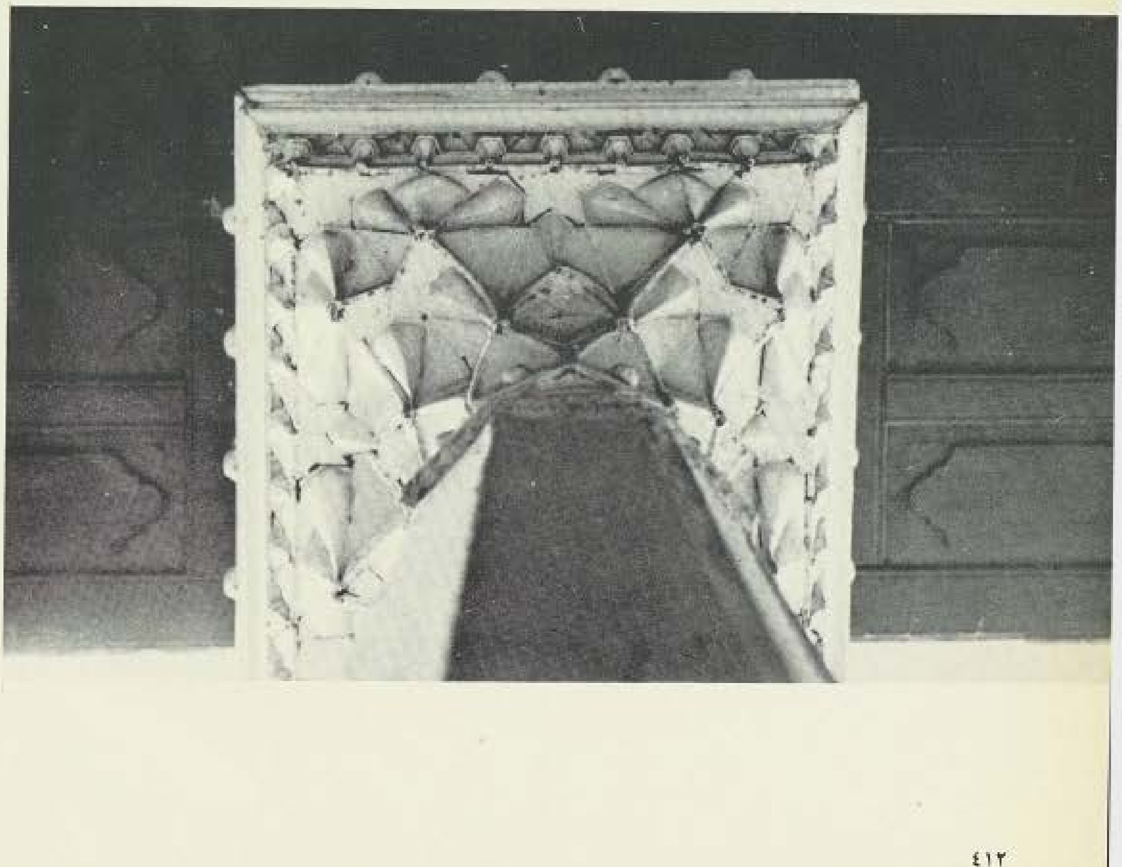
التكسية الخشبية والتزيينات في سقف دار بيت الملائكة



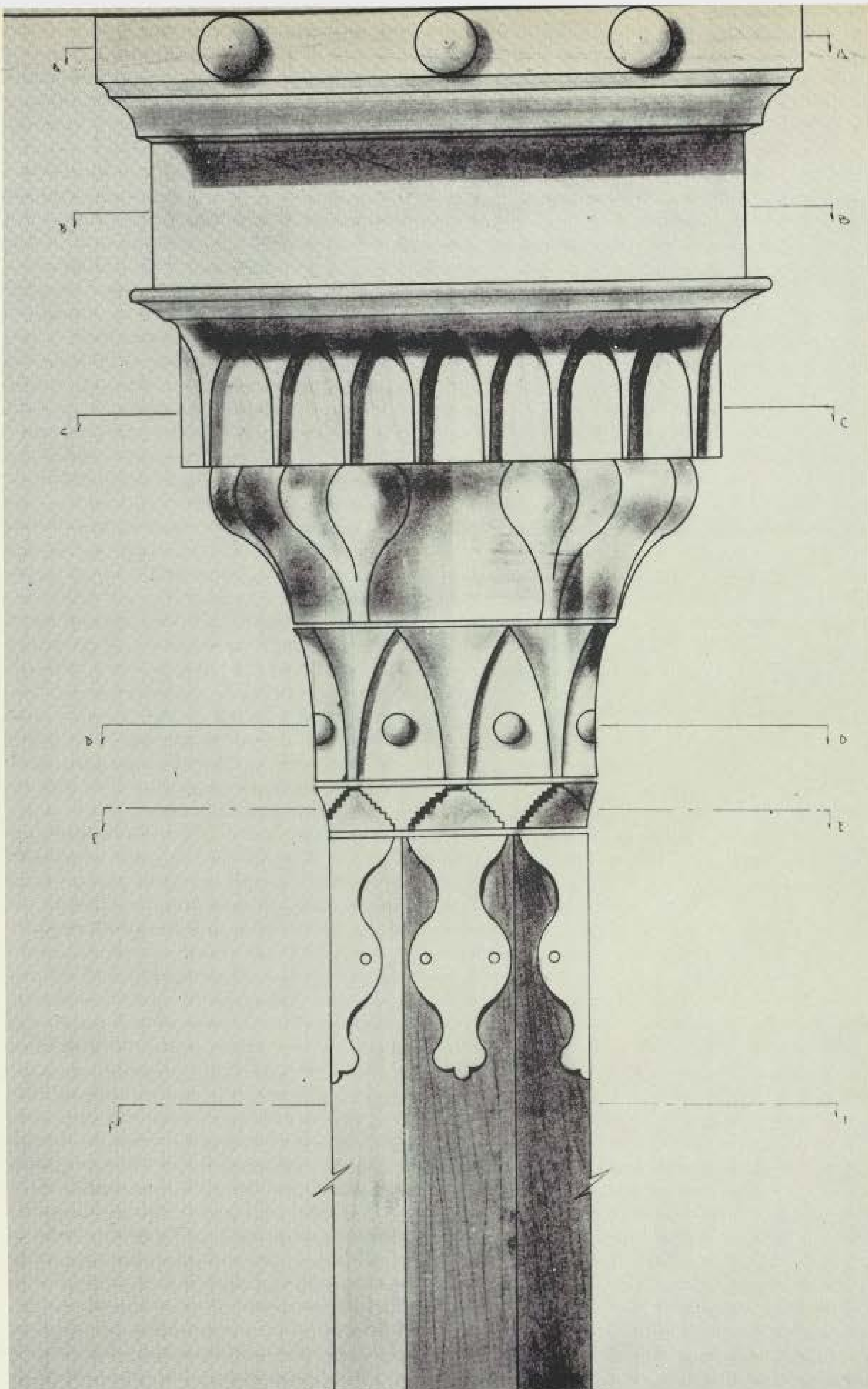
تكسيه سقوف الغرف الرئيسة ـــ دار السيد صبحي رشيد دروش علي



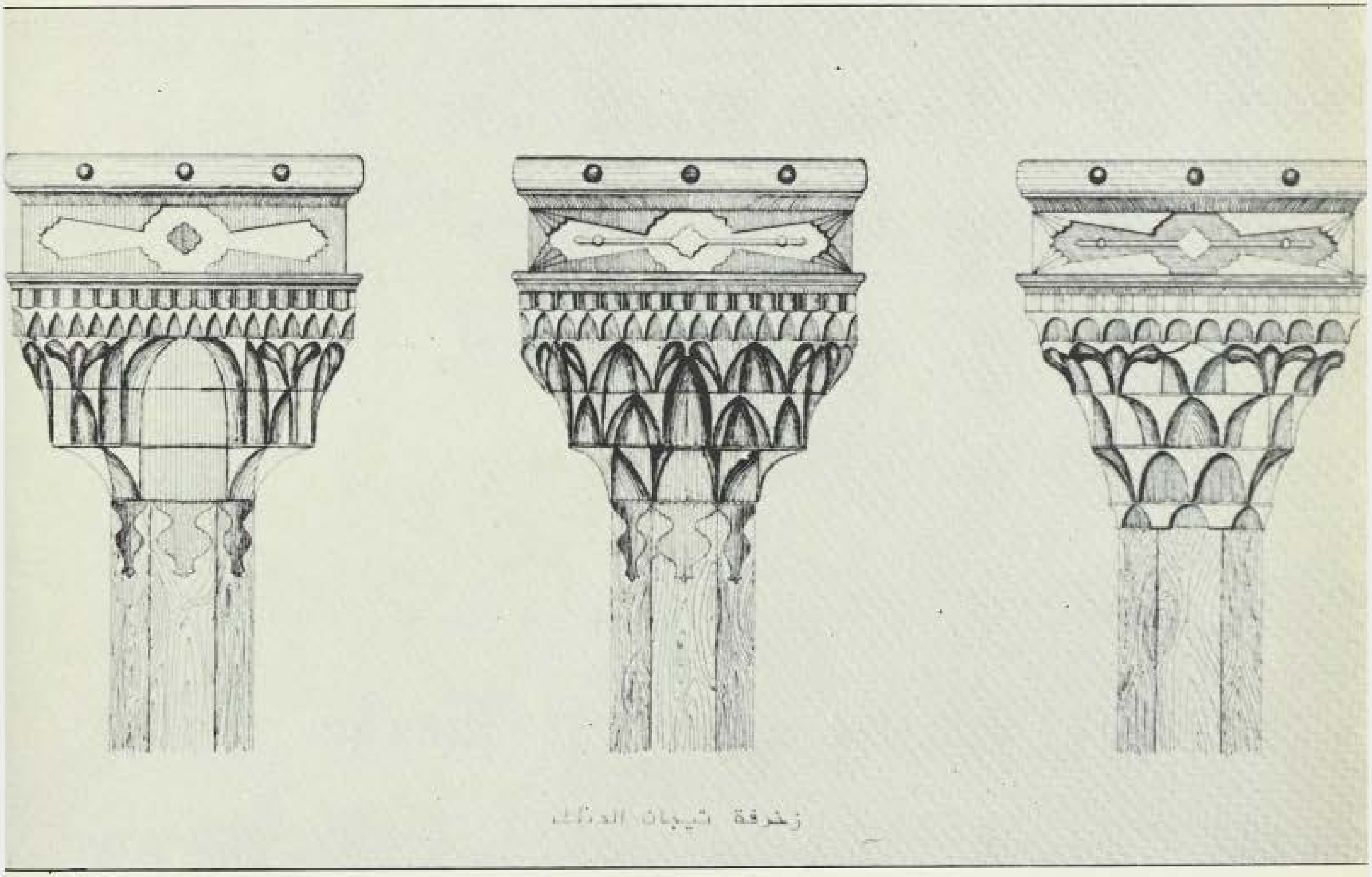
نموذج لوحة زخرفية تتوسط السقوف للبيوت البغدادية



منظور نهاية العمود الخشبي البغدادي



نموذج لتيجان الاعمدة الخشبية ـــ مدرسة كنيسة القدس يوسف اللاتينية .

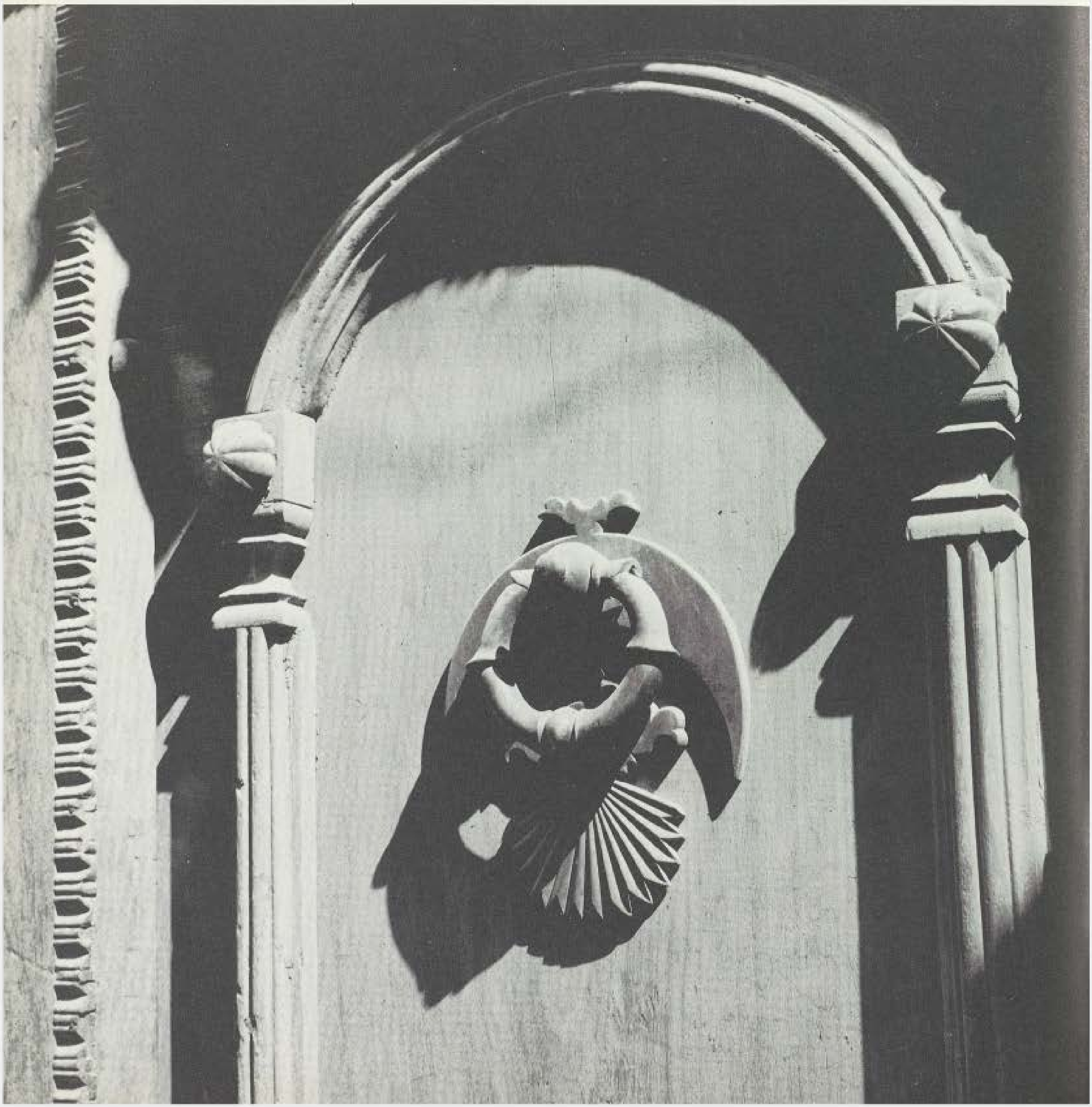


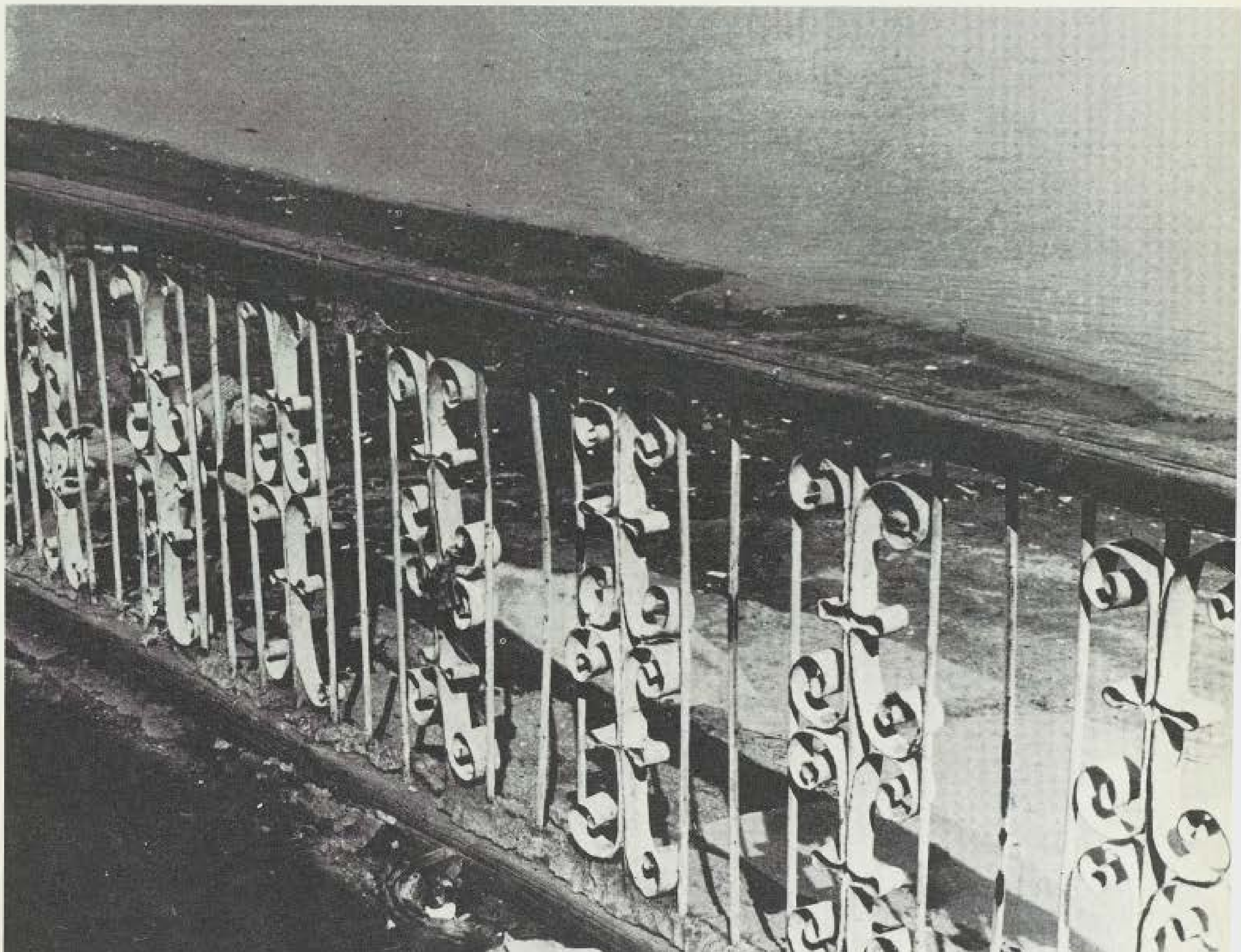
نماذج لتيجان الاعمدة الخشبية

اعمال الحديد

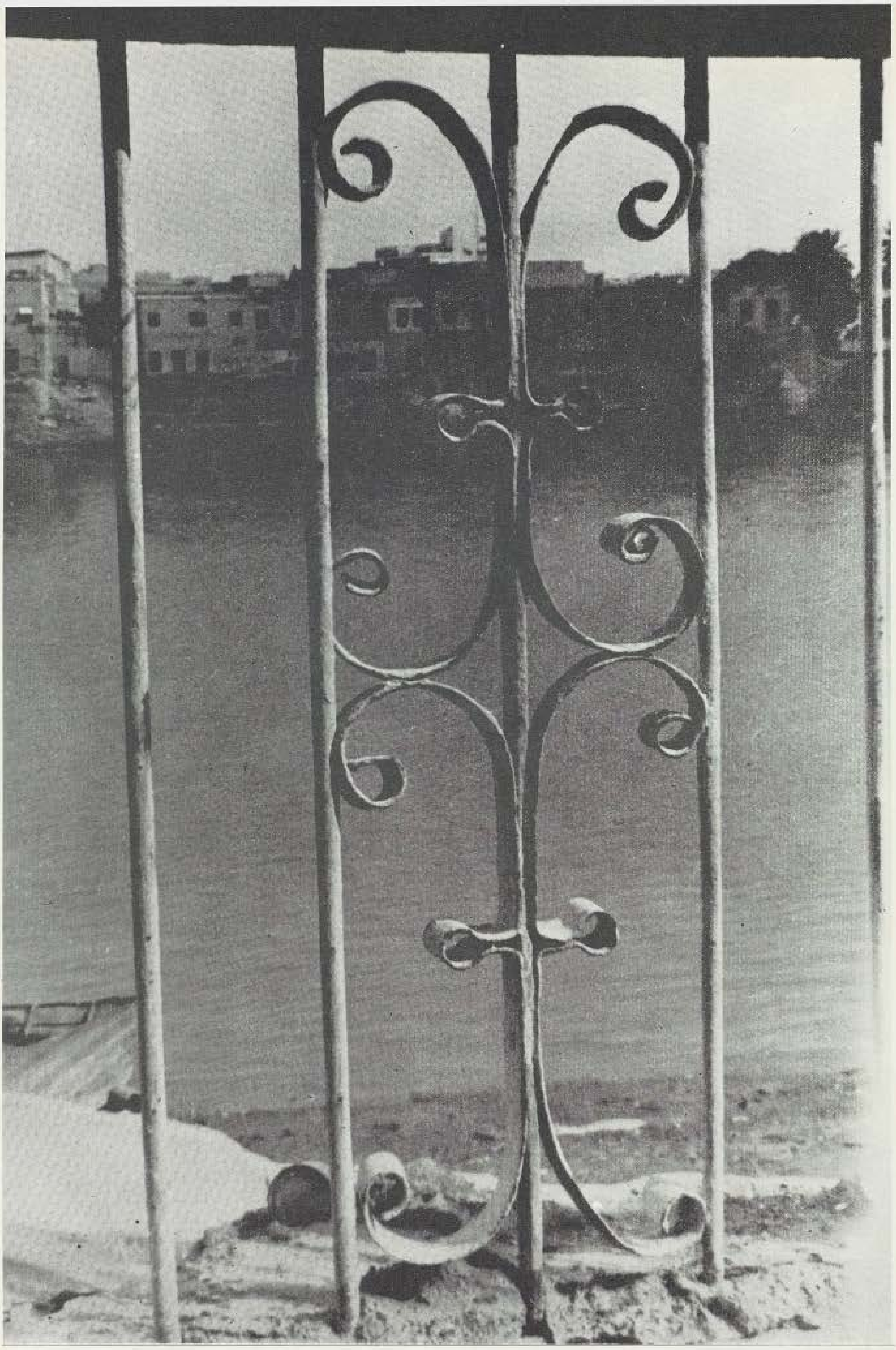
■ توضح الرسوم بعض التفاصيل لأعمال الحديد والمعادن الأخرى واستعمالاتها في التفاصيل البنائية ، وتوضح الأشكال المستعملة نماذج لها طابع متميز بالنسبة للعمارة في العراق .

مطرقة باب نحاسية

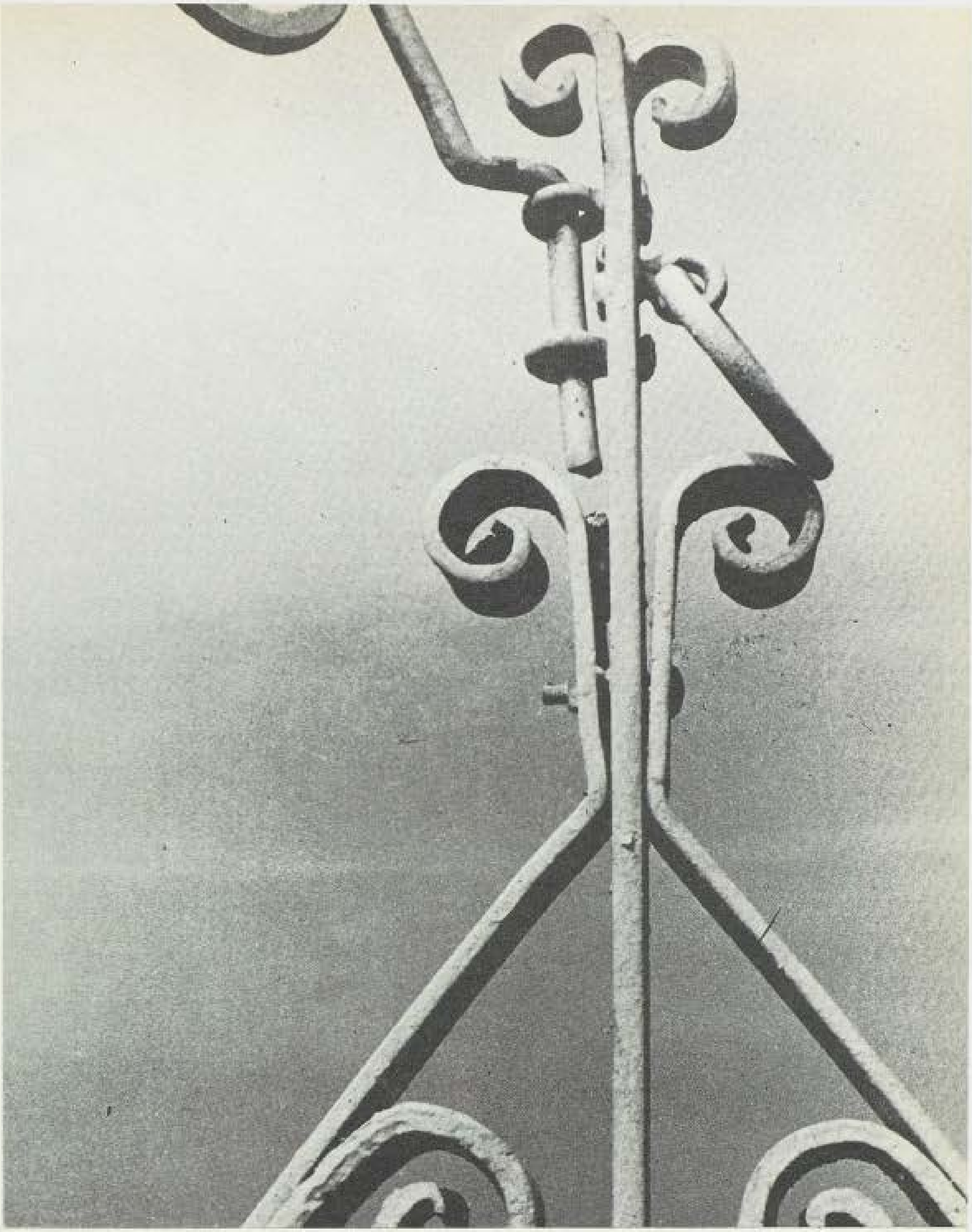




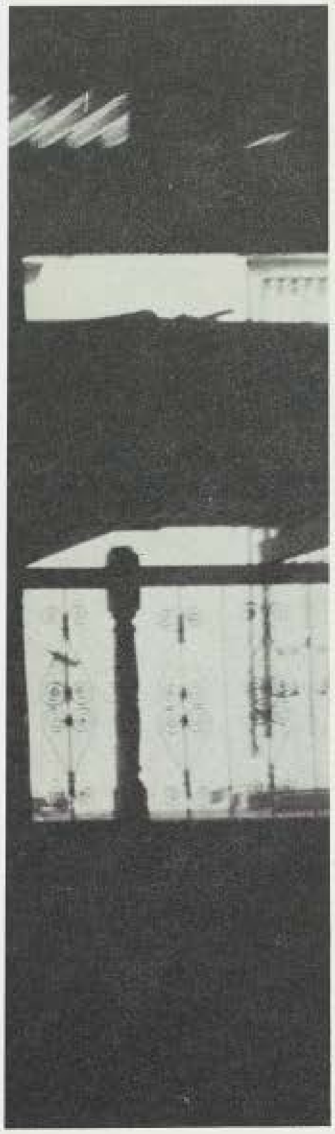
نموذج من الأسيجة الحديدية



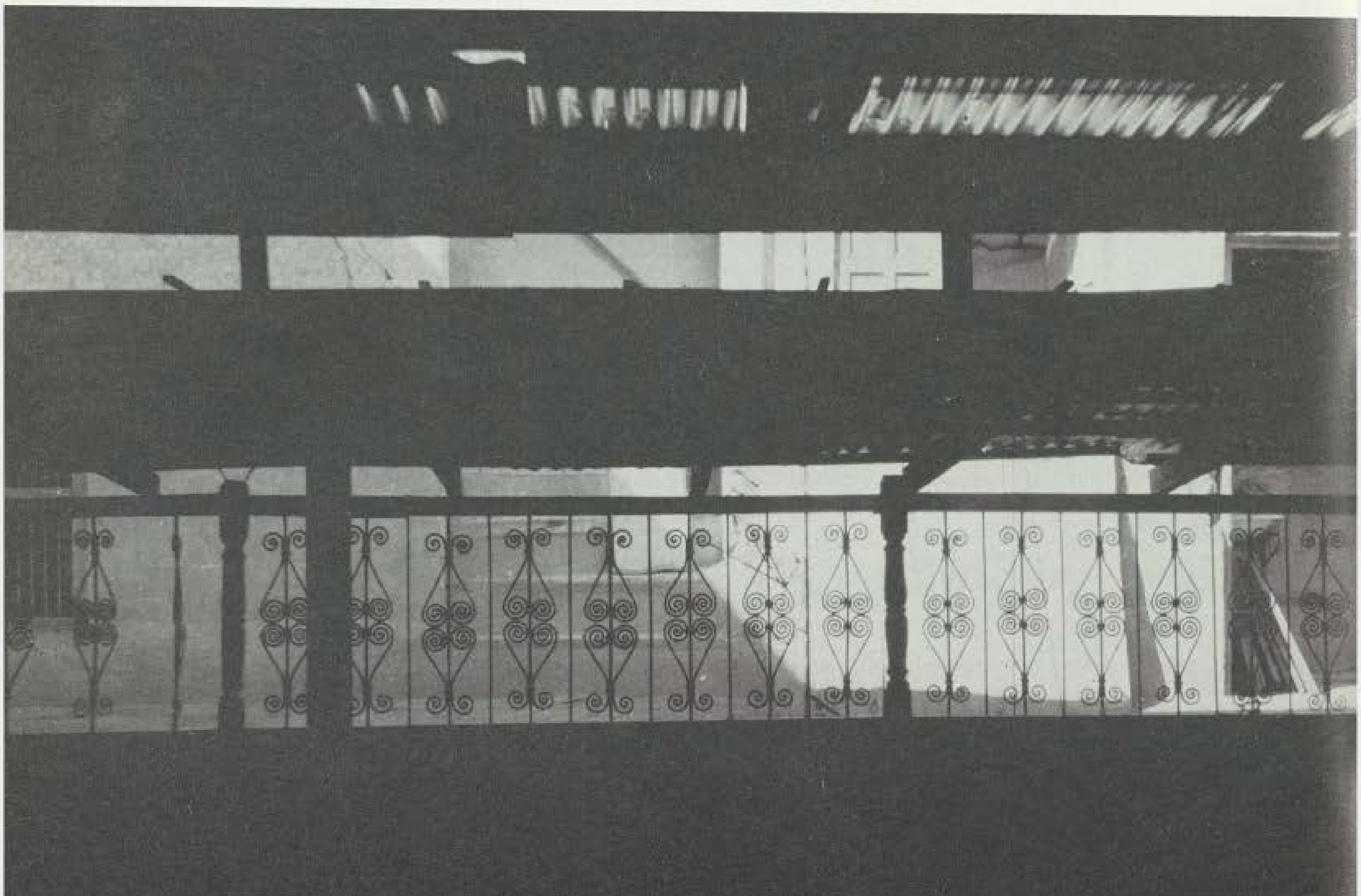
تفصيل لسياج حديدي

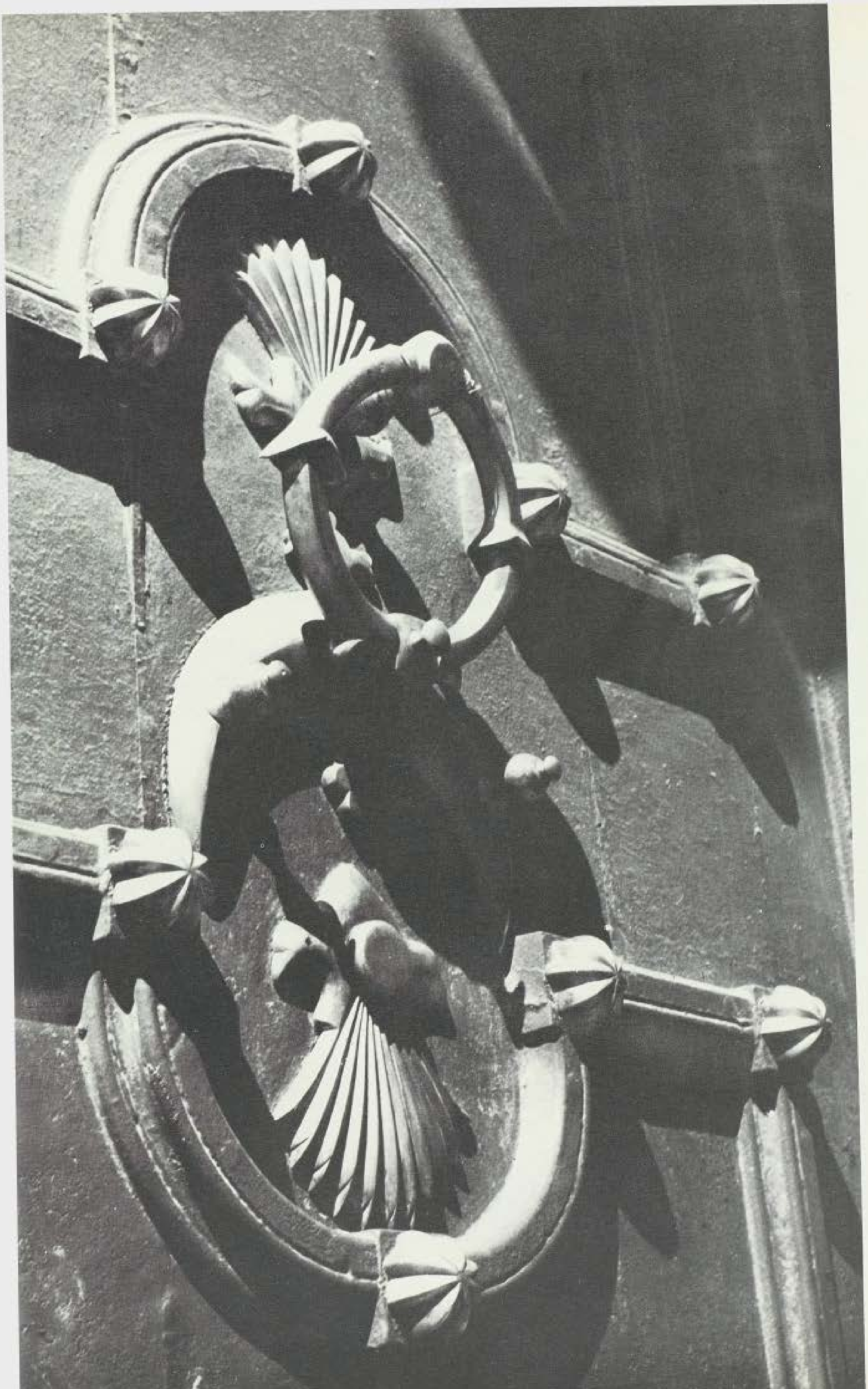


تفصيل لعلاقة حديدية

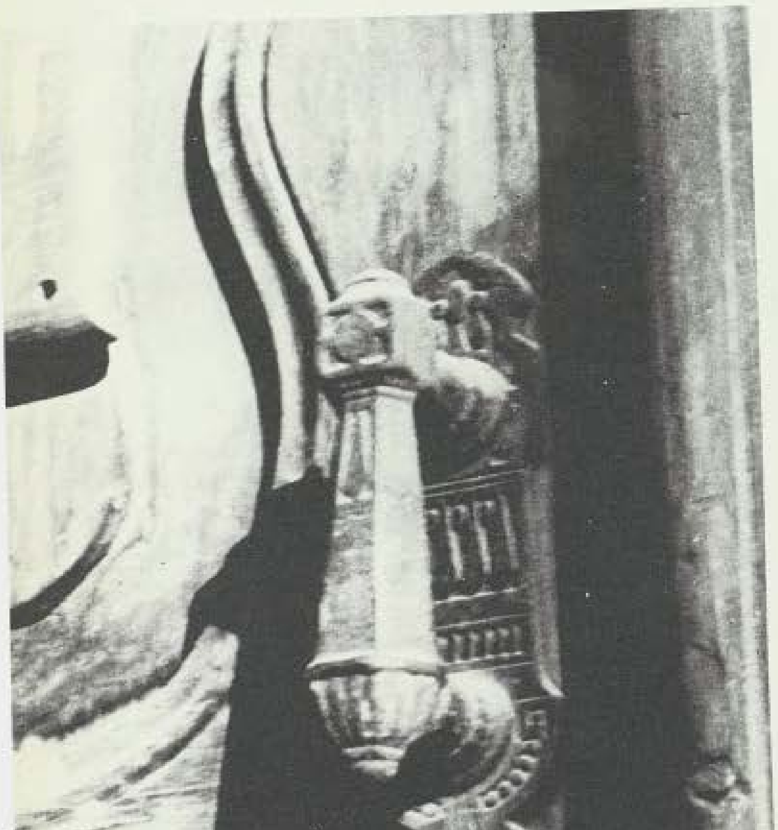


سياج حديدي









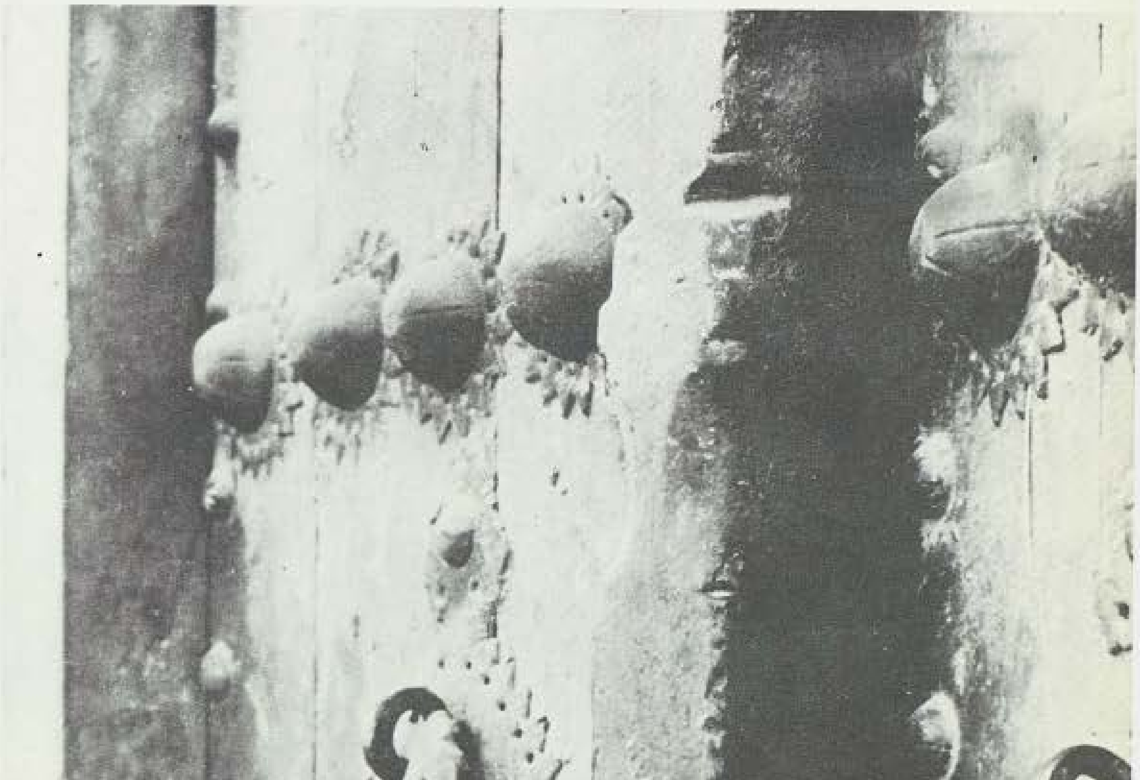
مطرقة باب نحاسية



مطرقة باب نحاسية

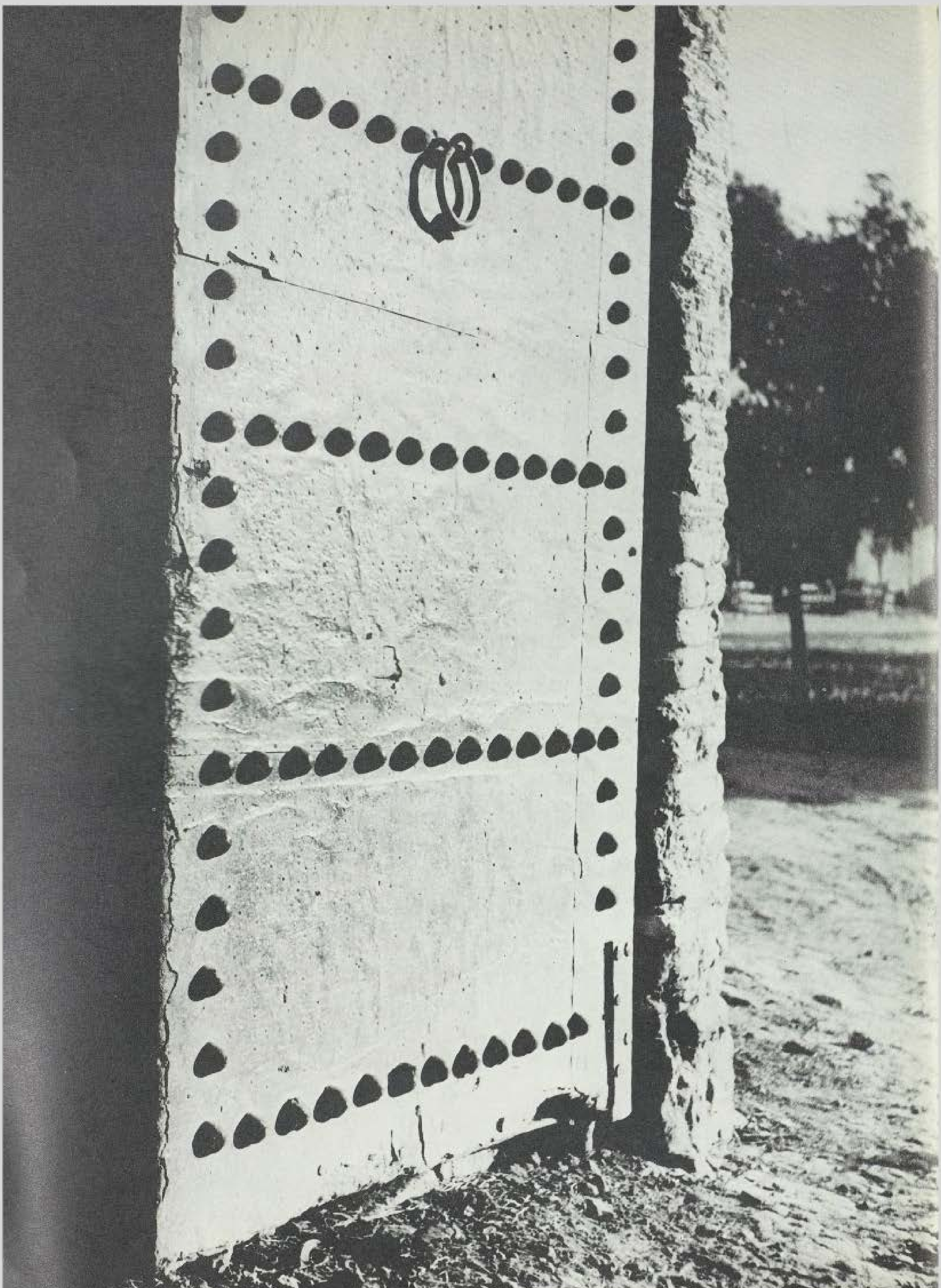


مطرقة باب نحاسية



مطرقة باب حديدية

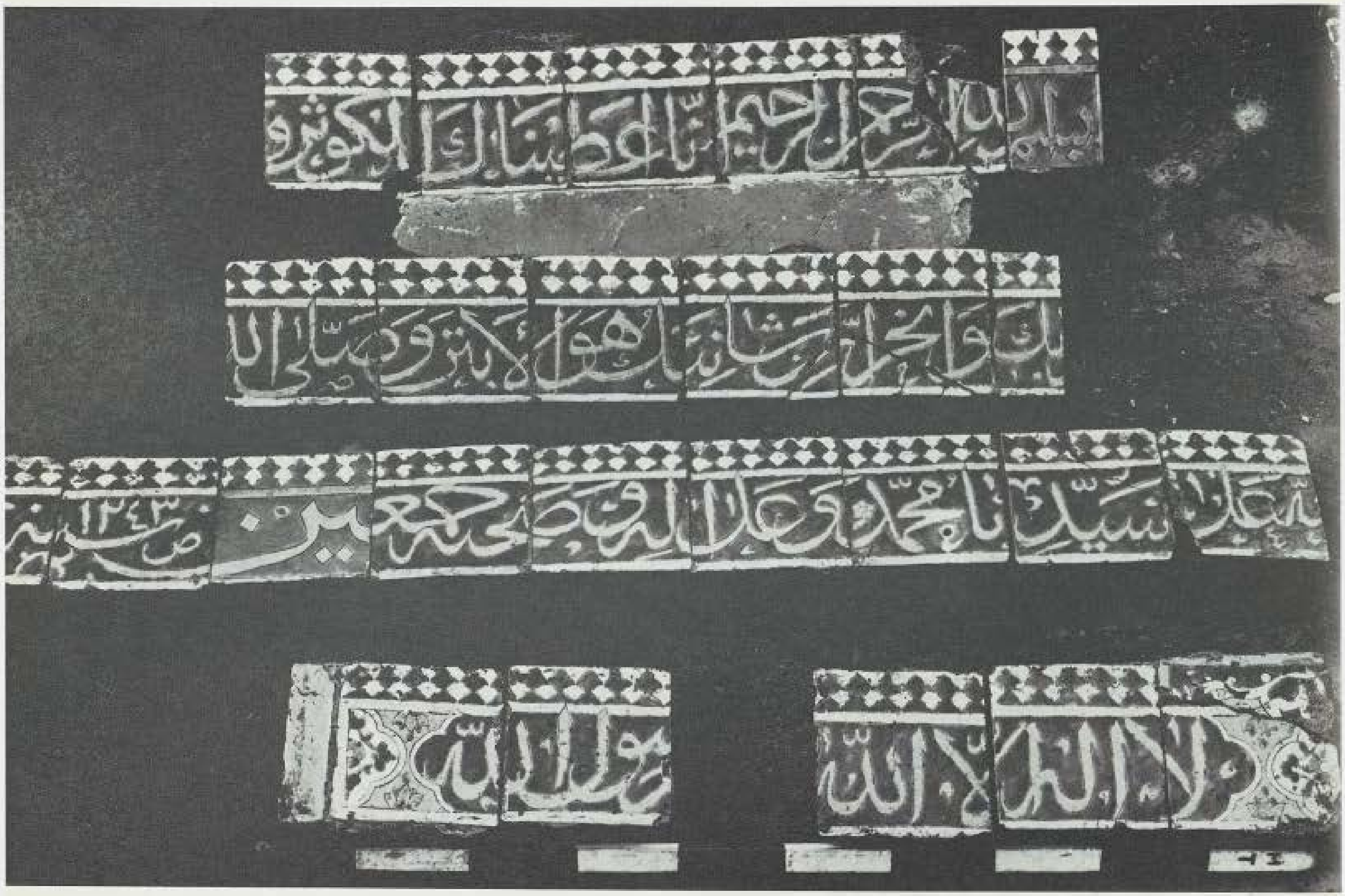
باب كبيرة مطعمة بمسامير حديدية نائتة



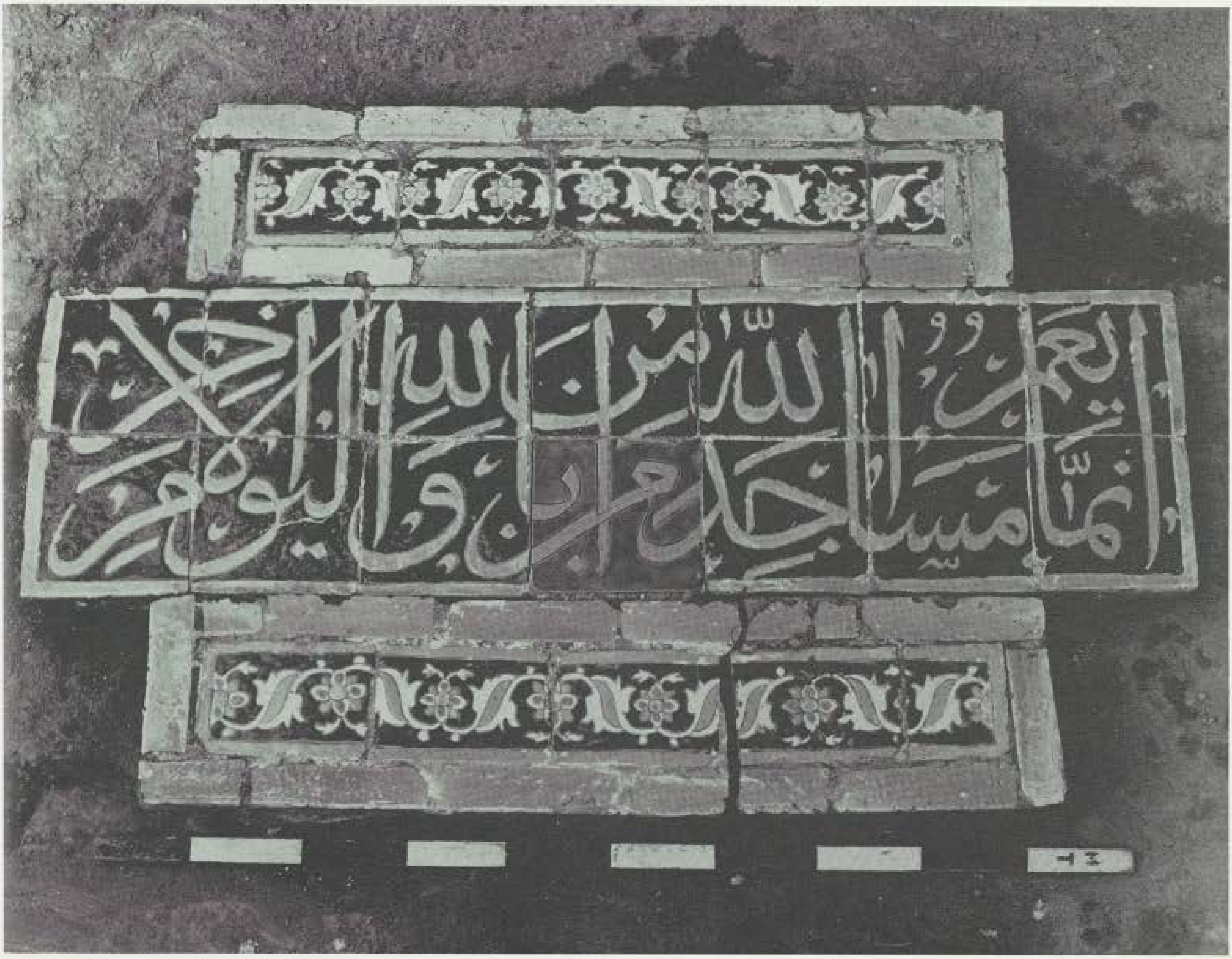
القاشاني

تميزت التكسية وخاصة في أبنية المساجد والأضرحة باستعمال البلاط المزجج (القاشاني) والذي يعتبر من أهم ما تتميز به العمارة الاسلامية ومدرستها في بغداد .

وهذه المادة المحلية الصنع عوضت عن استعمال المرمر والحجر في مهام التكسية للحيطان والعقود والتقبية ، والتي اتضح فيها التفوق والمهارة الفنية بأعلى مستوياتها .



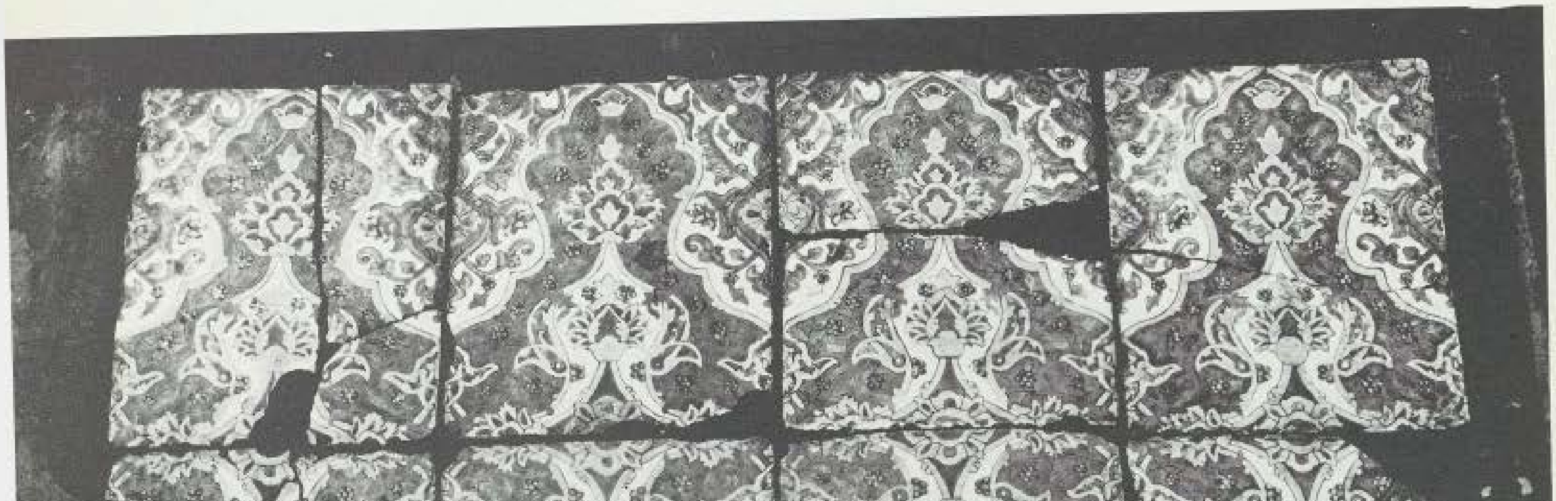
نماذج من النصوص الكتابية في ألواح من إطارات القاشاني



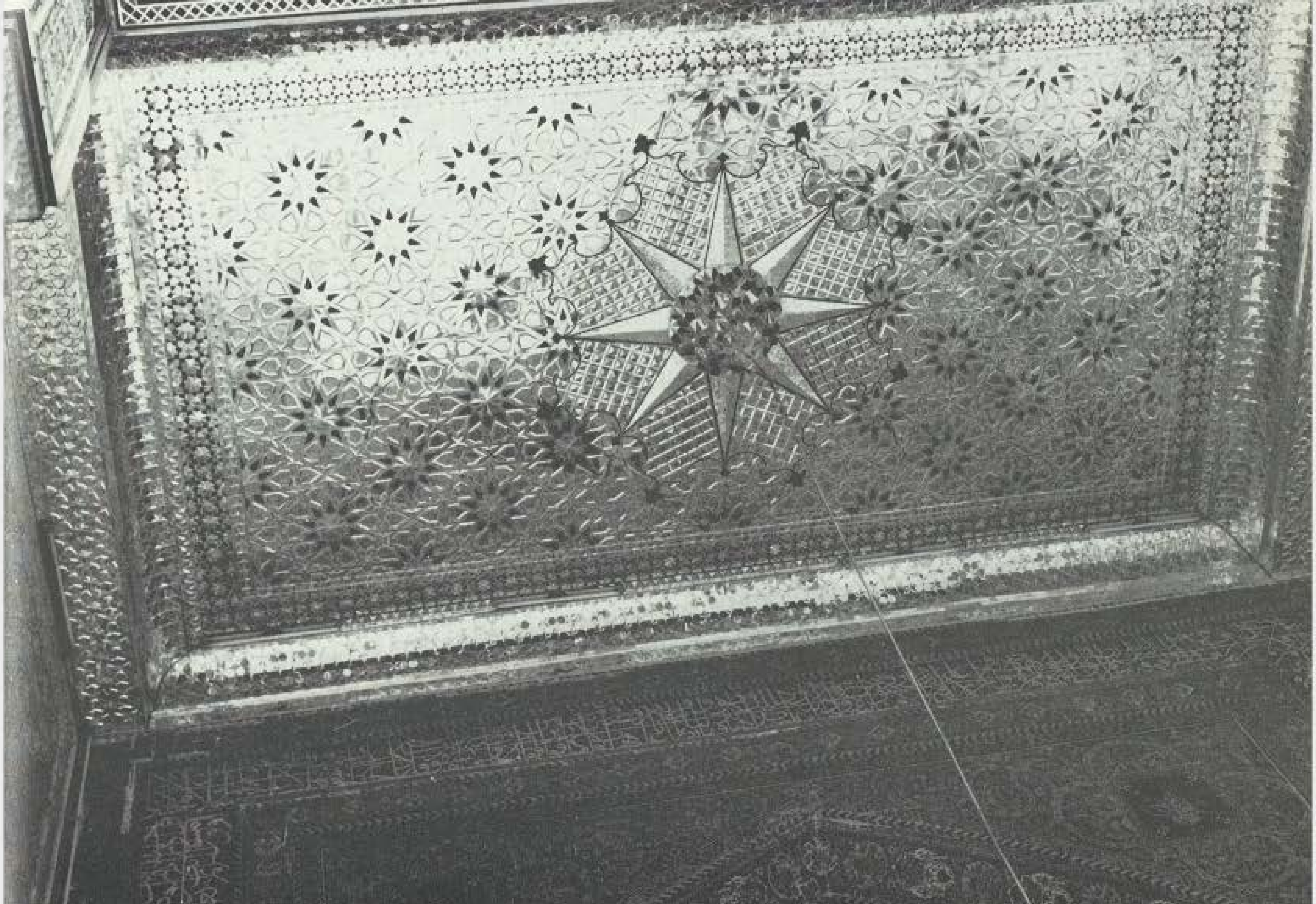
ألواح كتابية قاشانية محاطة باطارات ونقوش نباتية



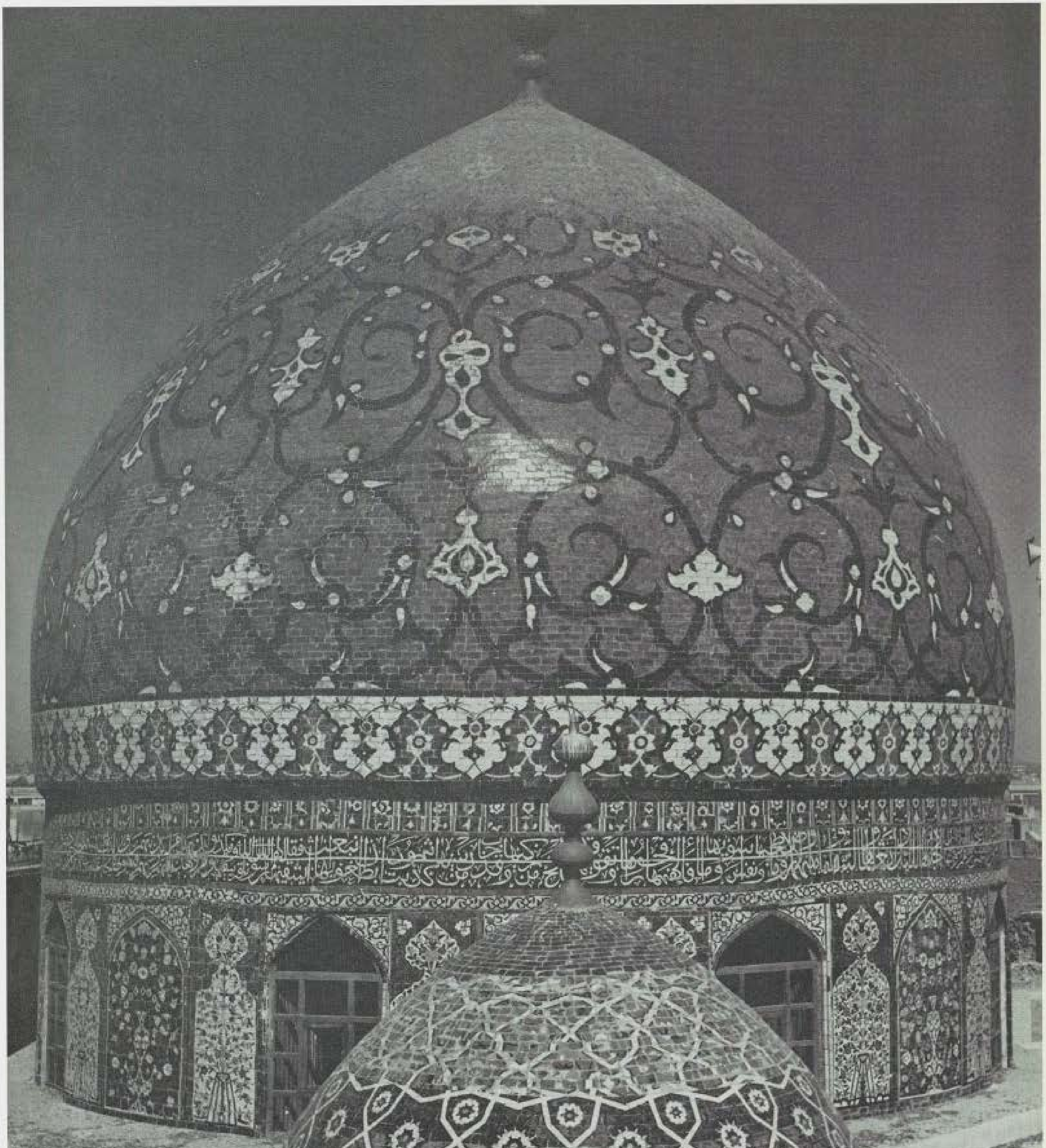
لوحة مزخرفة بنصوص كوفية مربعة



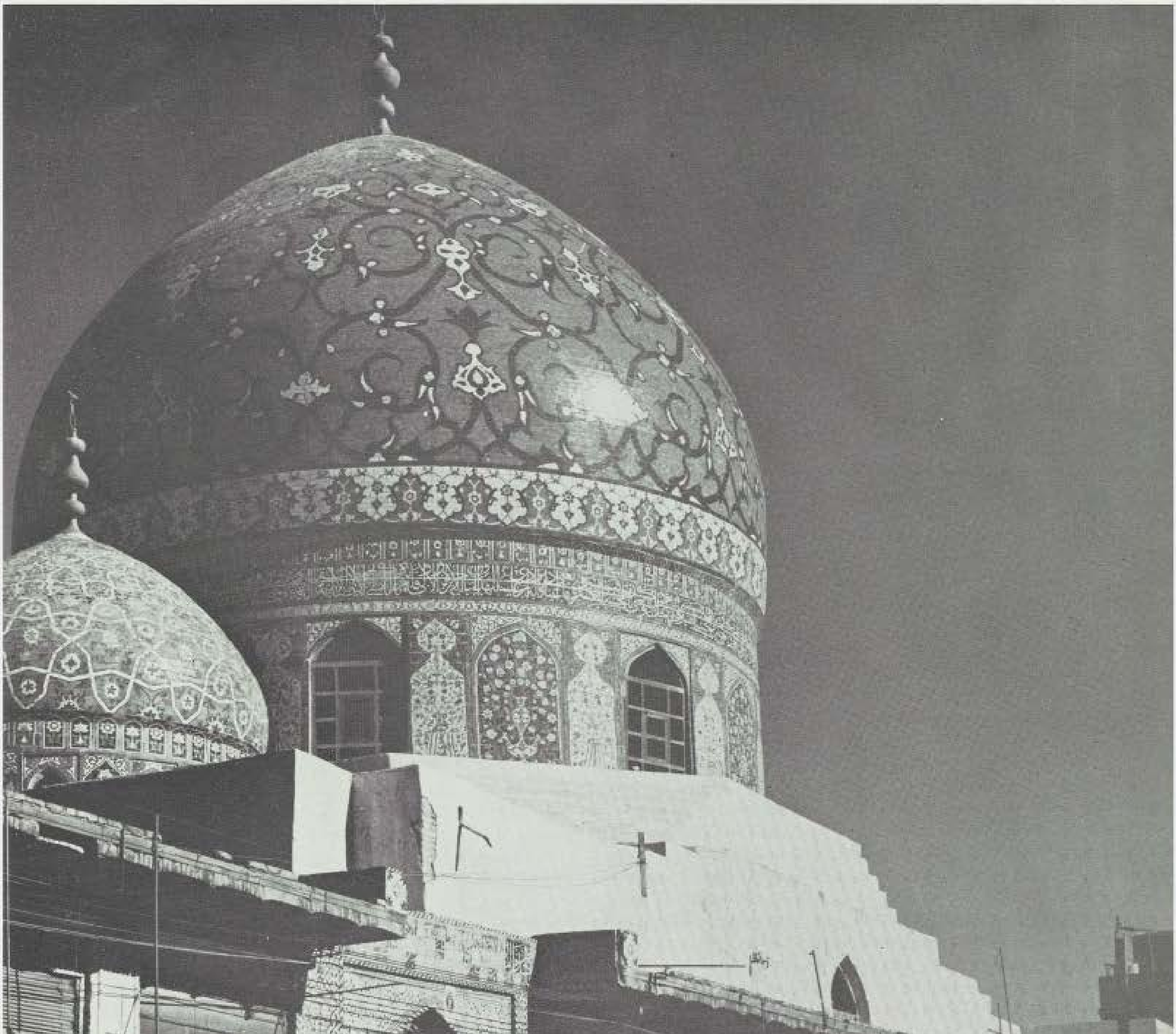
بلاطات القاشاني المستعمل في التكسية الجدارية



زخرفة قاشانية مطعمة بالخشب والزجاج في المشهد الكاظمي



قبة جامع الحيدرخانة وتظهر في المقدمة القبة الصغيرة



منظر عام لجامع الحيدرخانة





زخارف من القاشاني تزين منارة جامع المرادية



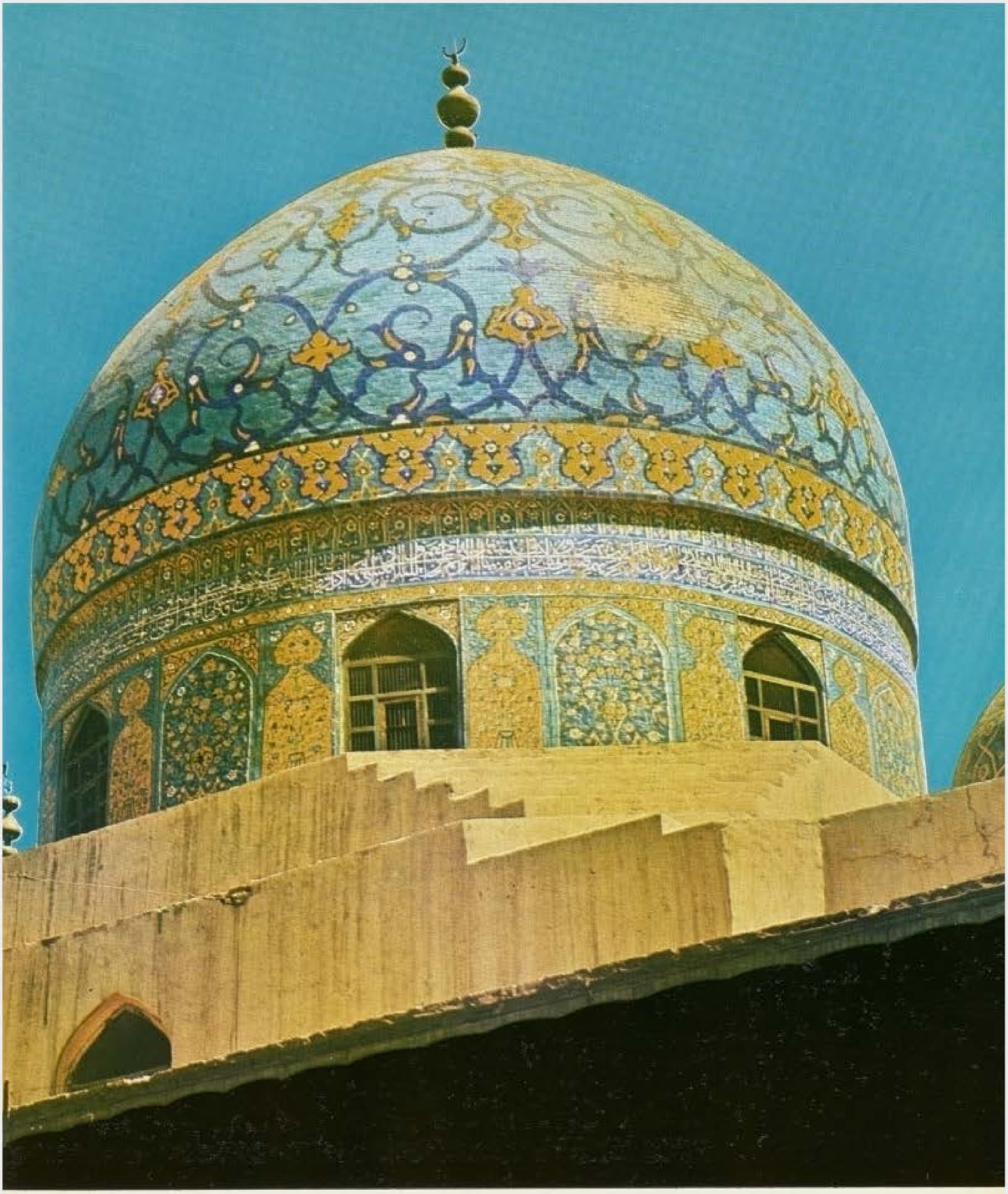
نماذج من الزخرفة النباتية



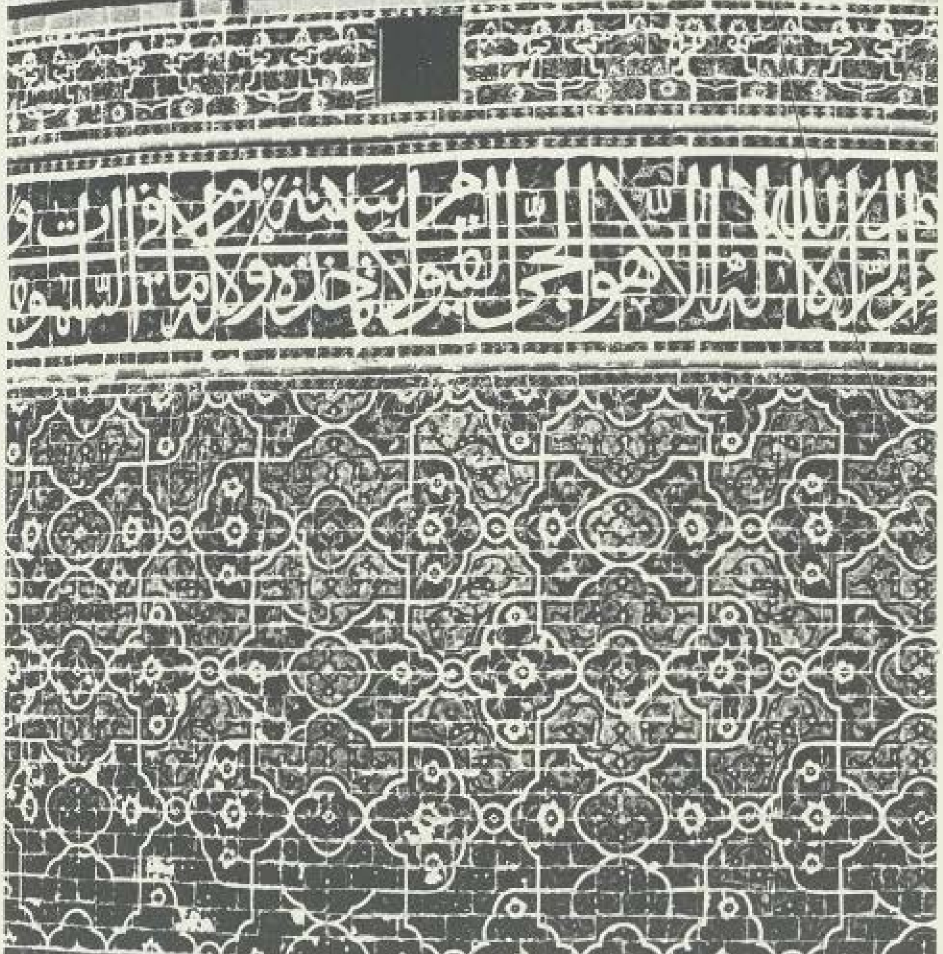
نماذج من الزخرفة النباتية



زخرفة نباتية مع رسوم



جامع الحيدرخانة ، التكسية القاشانية للقبة



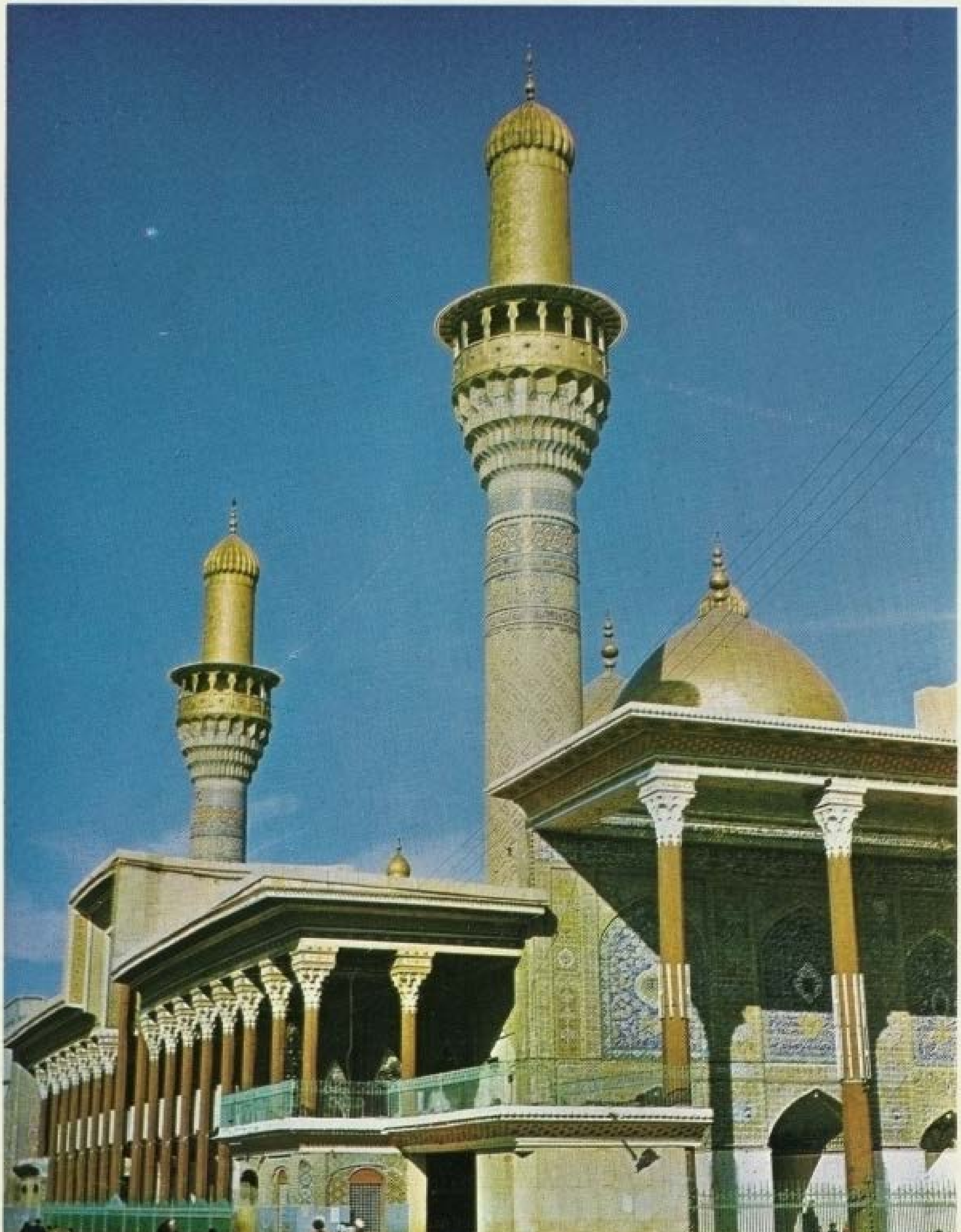
إطارات كتابة وزخرفة نباتية هندسية



زخرفة نباتية لألواح جدارية مدخل للايوان — المشهد الكاظمي



زخرفة نباتية مع رسوم



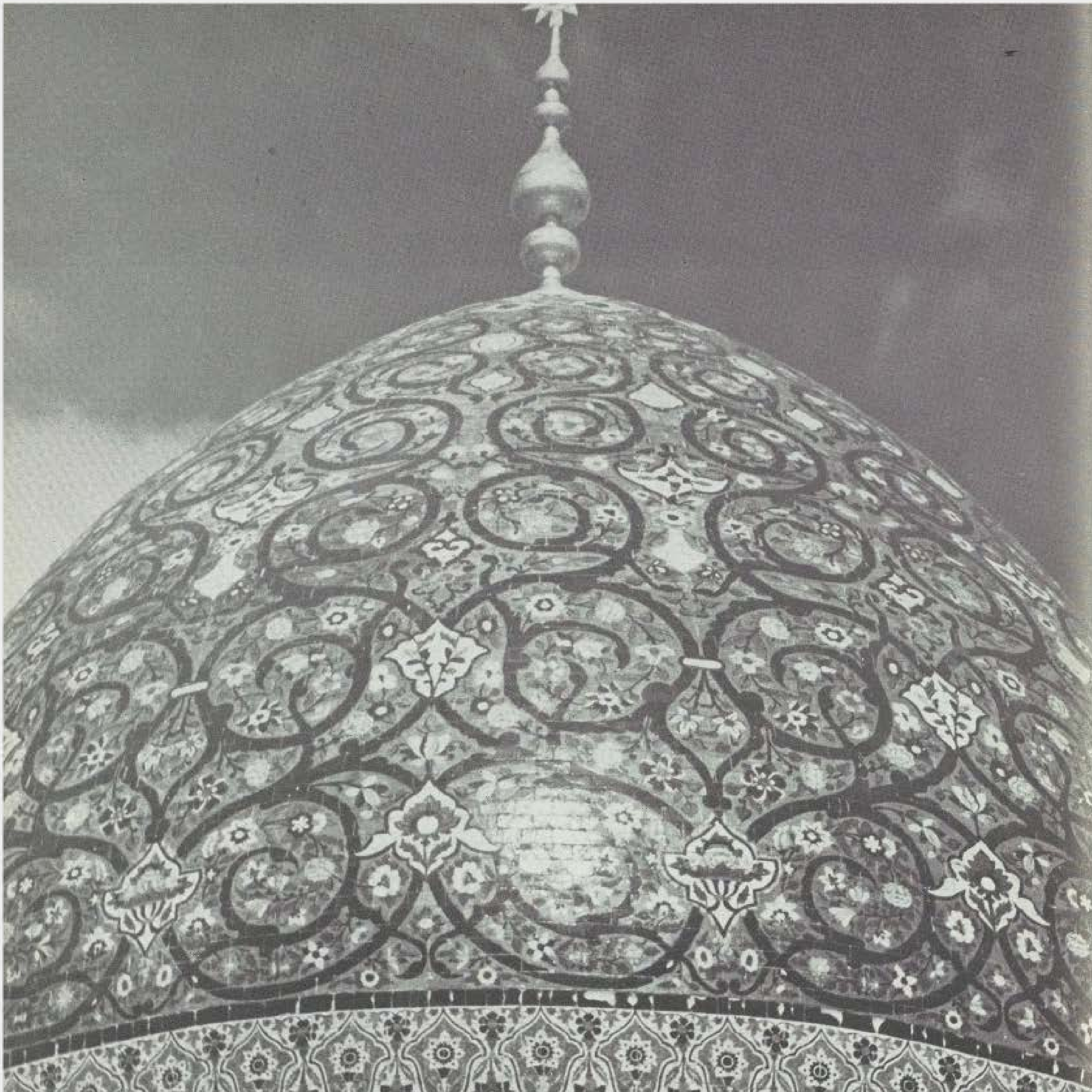
المشهد الكاظمي



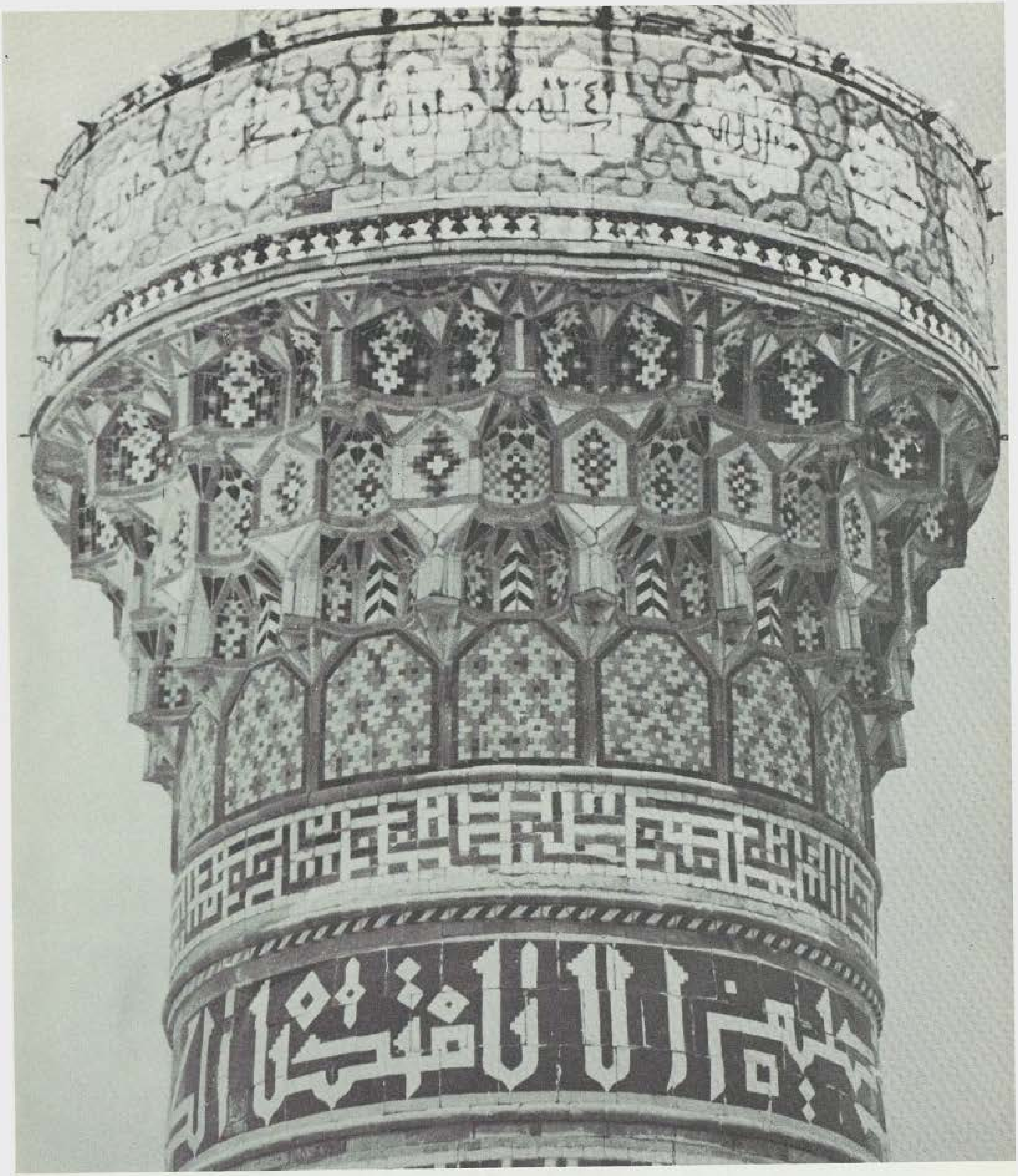
جامع الآصفية ــ كتابات وزخارف



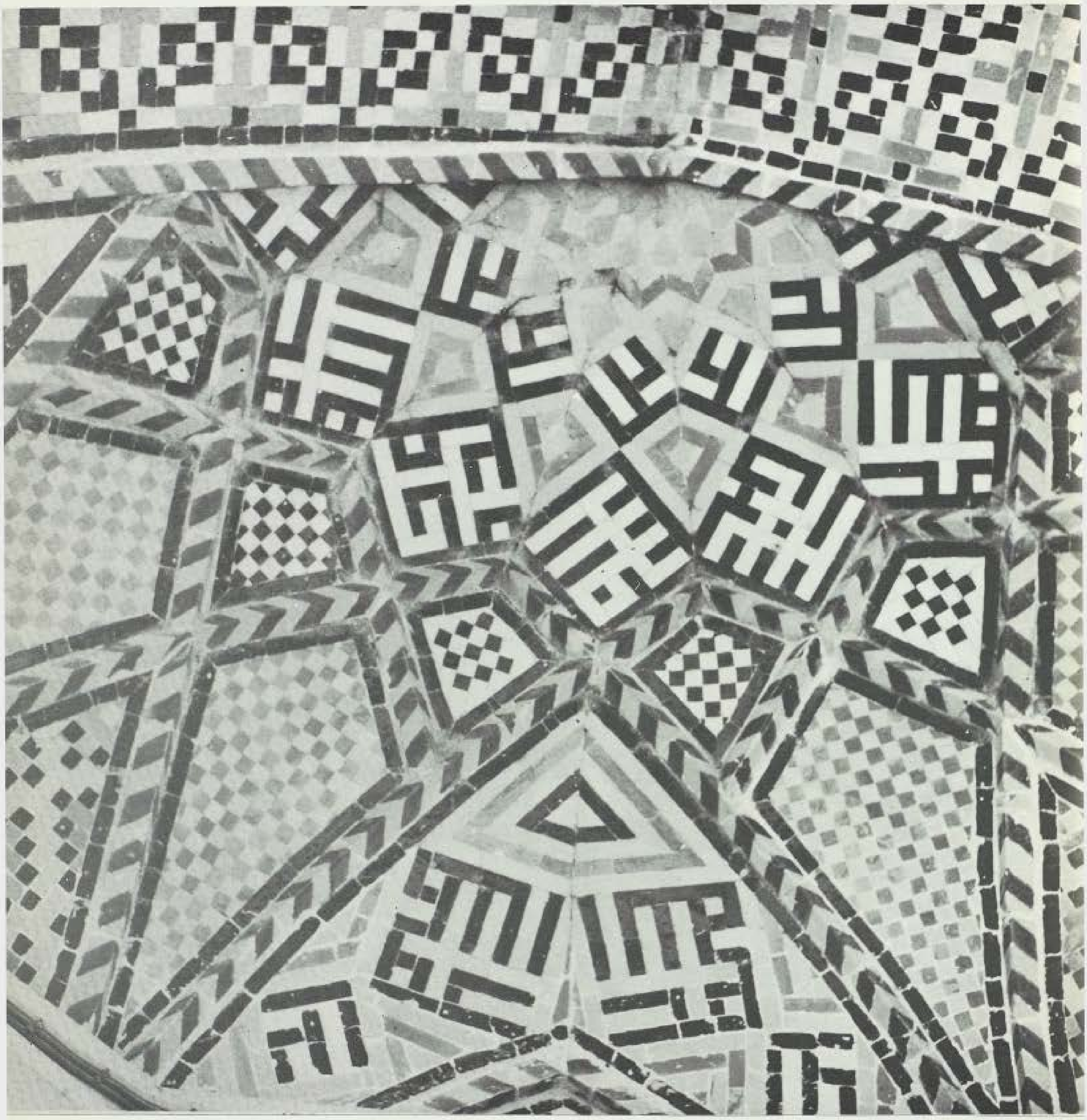
عملية فخر القاشاني



قبة جامع الشاوي في جانب الكرخ



بعض زخارف منارة جامع الآصفية



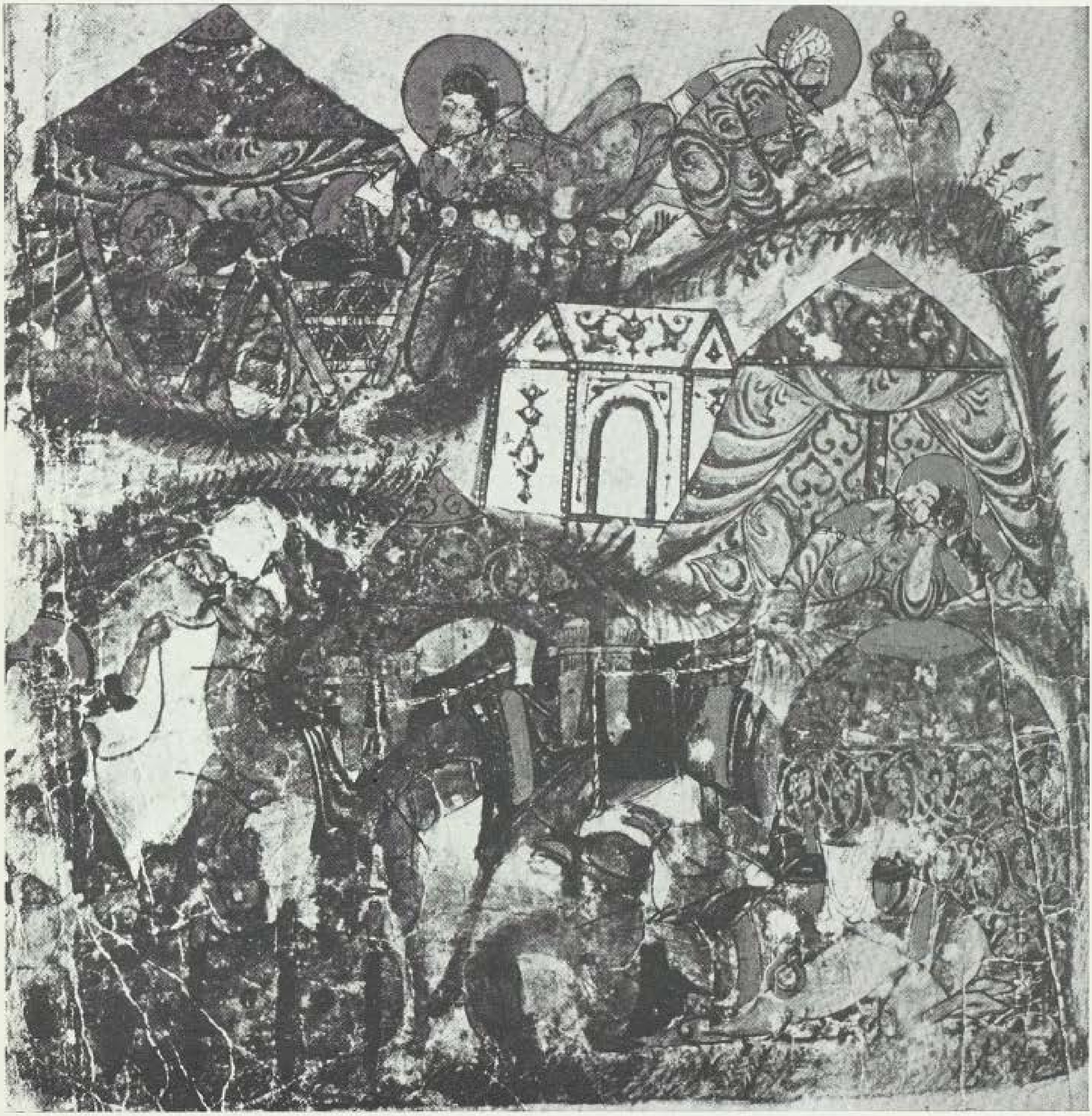
زخرفة هندسية بكتابات كوفية

مدرسة بغداد للرسم

كانت بغداد الوسط الأمثل لنشوء فن التصوير الاسلامي المتميز بطابع الاصالة . وقد حصل الفنان ـ كما تشير اغلب المصادر التأريخية ـ على كثير من الامتيازات الأدبية والاجتماعية يومذاك . ويعتبر عنصر (التسطيح) من العناصر التشكيلية المميزة للتراث التصويري الاسلامي في بغداد وهو بهذا يبتعد عن الاسلوبين اليوناني والهلنستي الشرقي ، لأنه يسعى لخلق عالم تشكيلي خاص به ويعبر عن مفهوم اجتماعي . عاشت المدرسة البغدادية للتصوير في الفترة التاريخية الواقعة بين القرنين السادس والثامن الهجريين وعايشت حقبة من الزمن المدرسة المغولية في التصوير . وإليها تعود اولى المصادر الاسلامية التي وصلت الينا في فن التصوير وتزويق الكتب . وبالرغم من ان تلك الآثار الفنية لم تكن كلها من انتاج المصورين البغداديين إلا أنها اتسمت بطابع هذه المدرسة وتأثرت بها ، وجارت اساليبها .



من مقامات الحريري ـ المقامة العاشرة ـ من مخطوطات المكتبة الوطنية ـ باريس .



من مقامات الحريري ـ المقامة الرابعة ـ من محفوظات معهد الدراسات الشرقية ـ لنينغراد .



صورة لنبات الاثراخالس من كتاب الصيدلة ـ ٦٢١هـ ـ ١٢٢٤م من محفوظات ـ أيا صوفيا ـ اسطنبول .



من مقامات الحريري ـ المقامة التاسعة والثلاثون ـ من محفوظات معهد الدراسات الشرقية ـ لنينغراد .



من كتاب ـ رسائل أخوان الصفا ـ (المدرسة البغدادية) ٦٨٦هـ ـ ١٢٨٧م



فارسان ـ من كتاب البيطرة لأحمد بن الحسين بن الأحنف (المدرسة البغدادية) ٦٠٦هـ ـ ١٢١٠م



من كتاب مقامات الحريري ـ المقامة التاسعة والثلاثون ـ رسم يحي الواسطي (٦٣٤هـ ـ ١٢٣٧م)



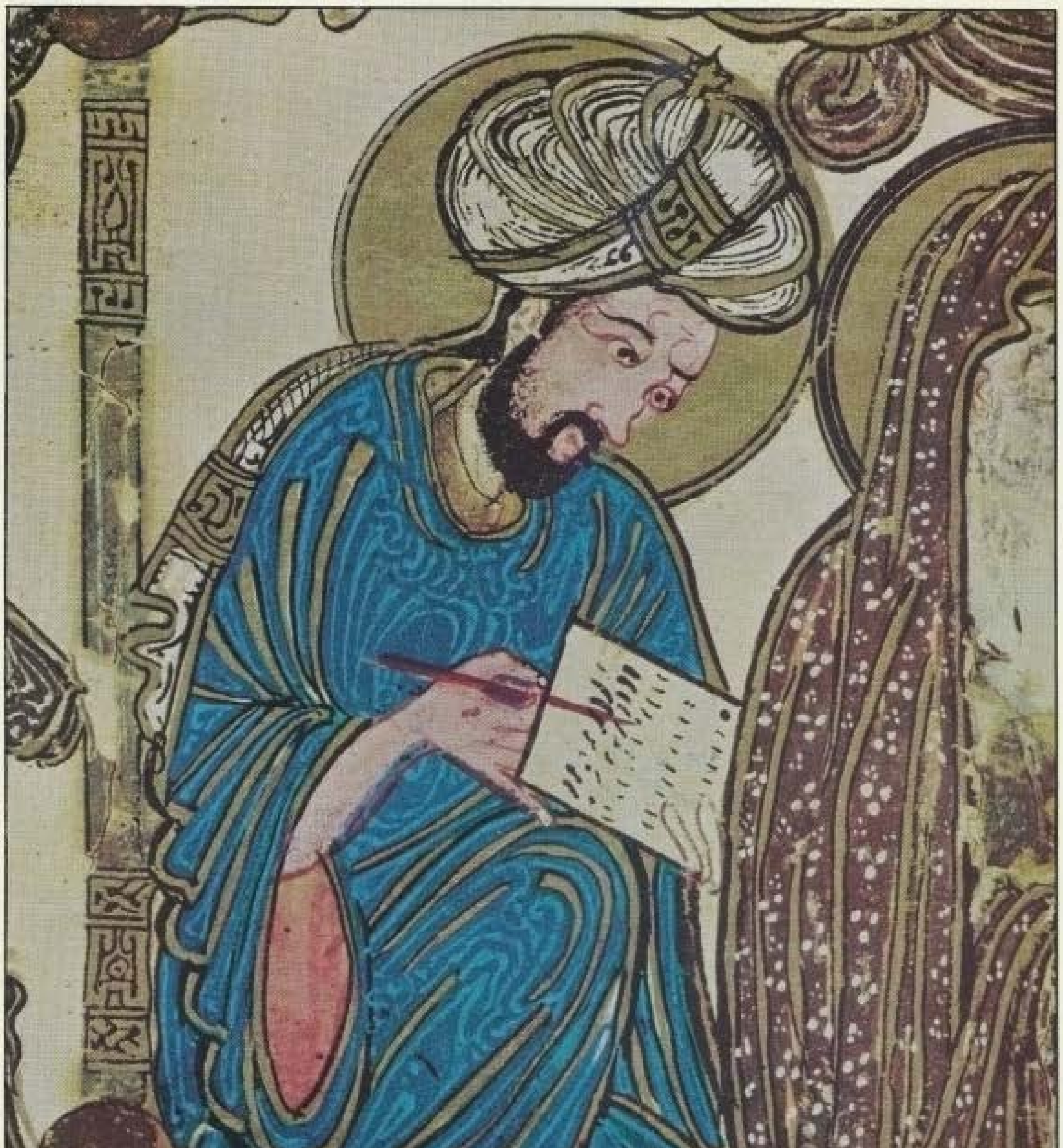
من كتاب مقامات الحريري ـ المقامة السابعة ـ رسم يحى الواسطي (٦٣٤هـ ـ ١٢٣٧م) المدرسة البغدادية



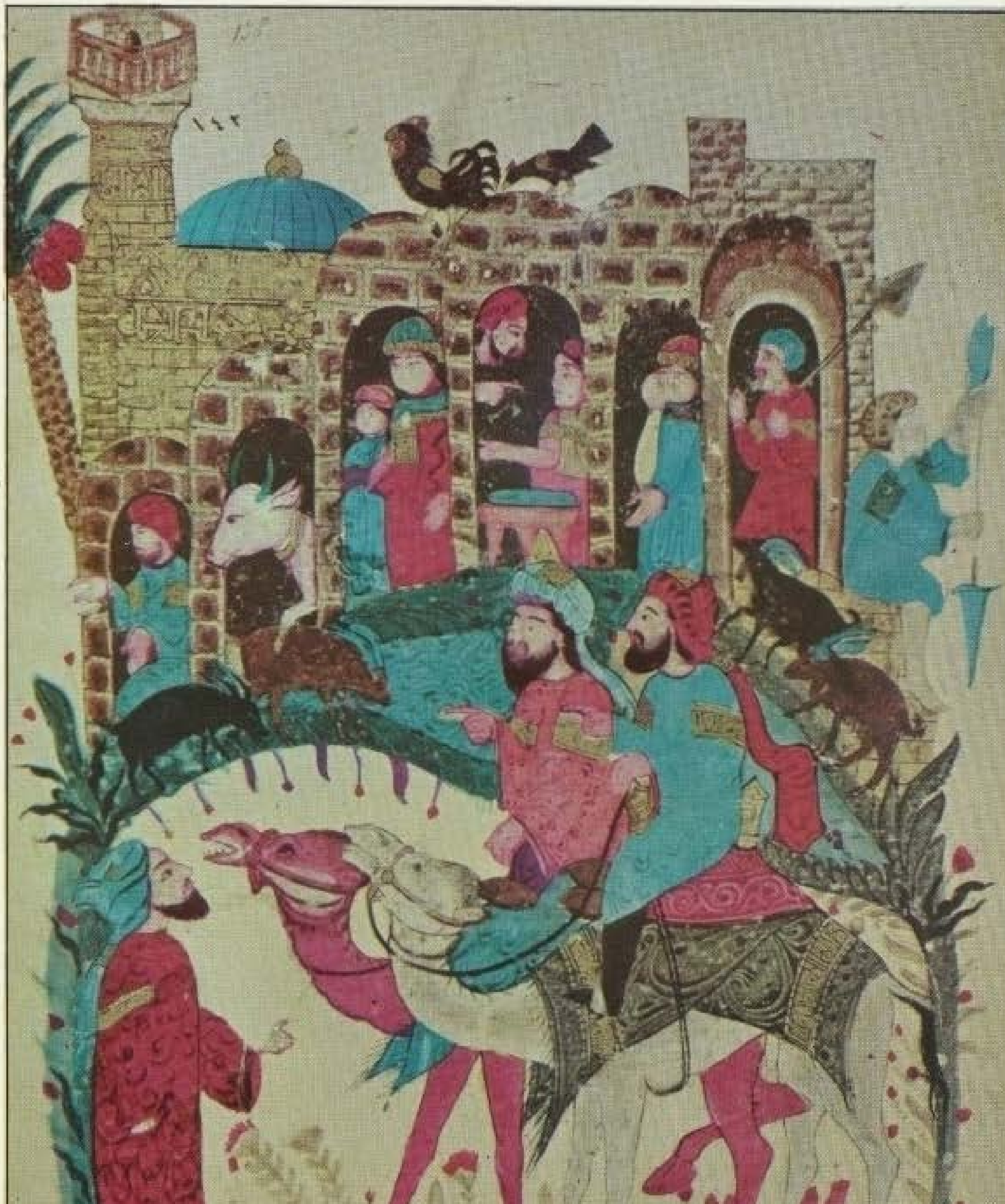
من كتاب مقامات الحريري ـ المقامة الحادية والثلاثون ـ رسم يحى الواسطي (٦٣٤هـ ـ ١٢٣٧م) المدرسة البغدادية



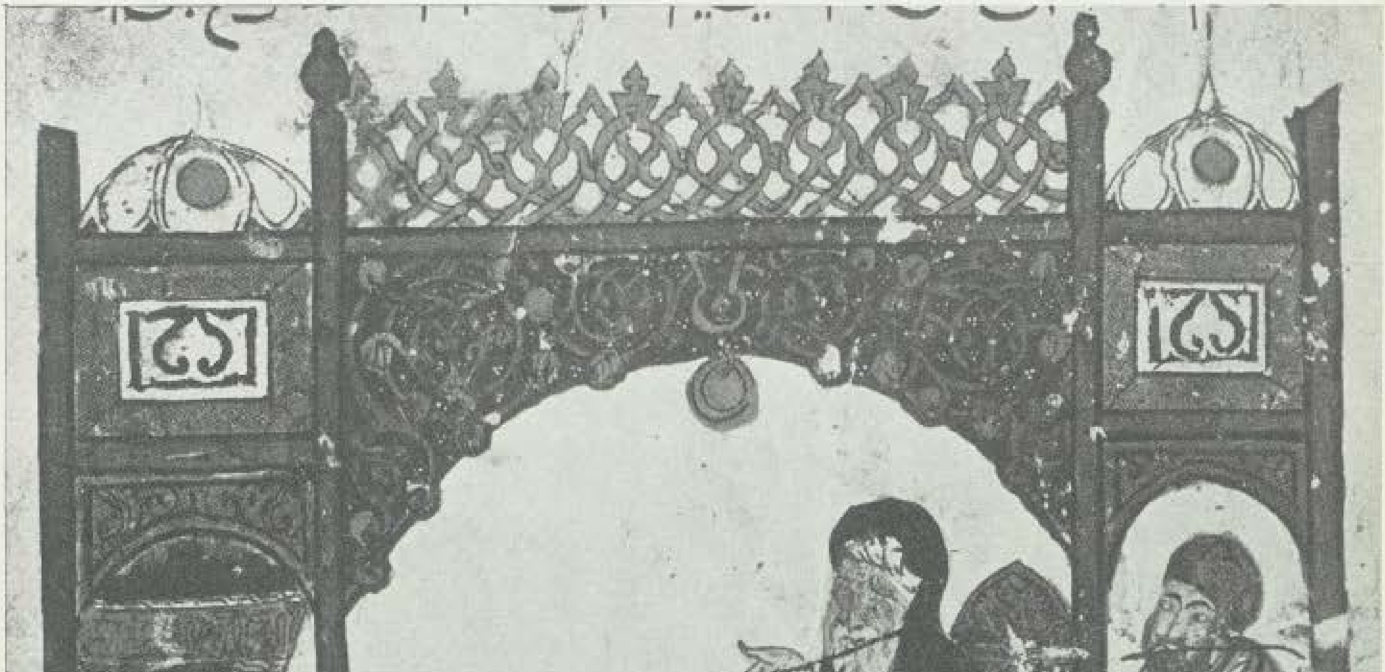
من كتاب مقامات الحريري ـ المقامة الثانية والثلاثون ـ رسم يحى الواسطي (٦٣٤هـ ـ ١٢٣٧م) المدرسة البغدادية



تفصيل لصورة من كتاب ـ رسائل اخوان الصفا ـ (٦٨٦هـ ـ ١٢٨٧م)



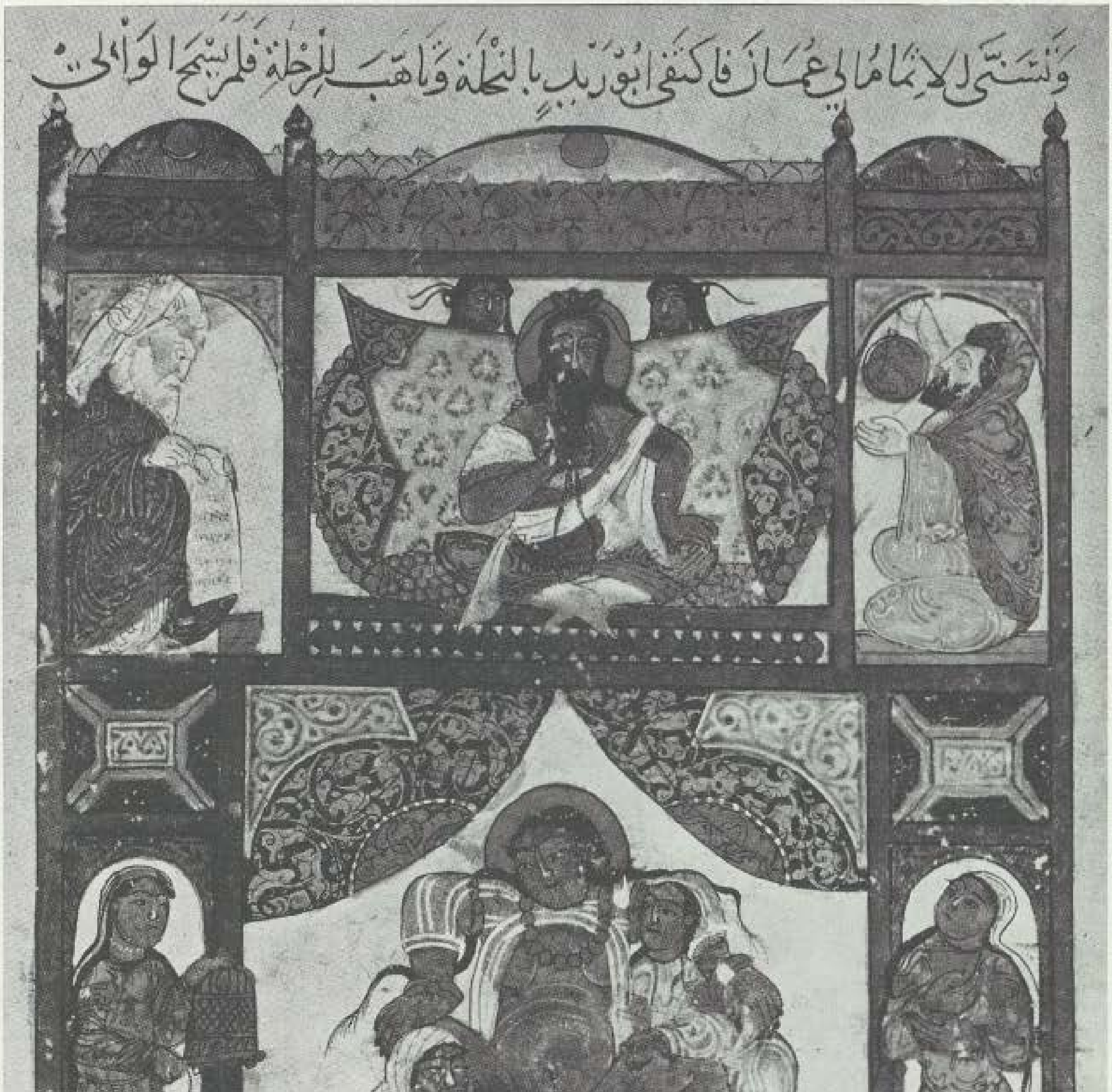
من كتاب مقامات الحريري ـ المقامة الثالثة والأربعون (رسم يحى الواسطي (٦٣٤هـ ـ ١٢٣٧م) المدرسة البغدادية



من مقامات الحريري ـ المقامة الثانية والثلاثون ـ من محفوظات معهد الدراسات الشرقية ـ لنينغراد ·



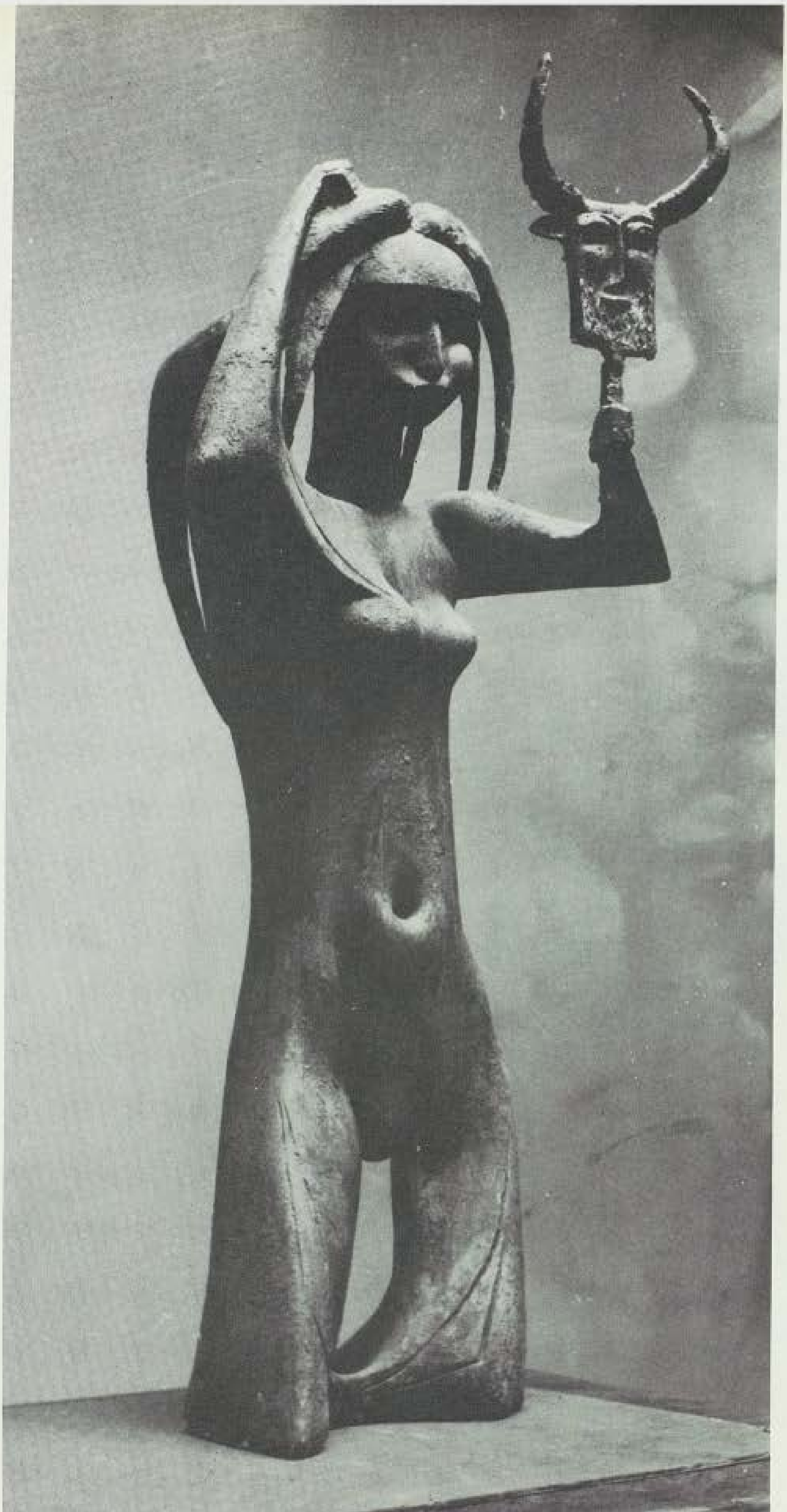
من مقامات الحريري ـ المقامة السابعة والثلاثون ـ من مخطوطات معهد الدراسات الشرقية ـ لنينغراد .



من مقامات الحريري ـ المقامة التاسعة والثلاثون ـ من رسم يحيى الواسطي ٦٣٤هـ ـ ١٢٣٧م من مخطوطات المكتبة الوطنية ـ باريس.

مدرسة فن التصوير الحديثة

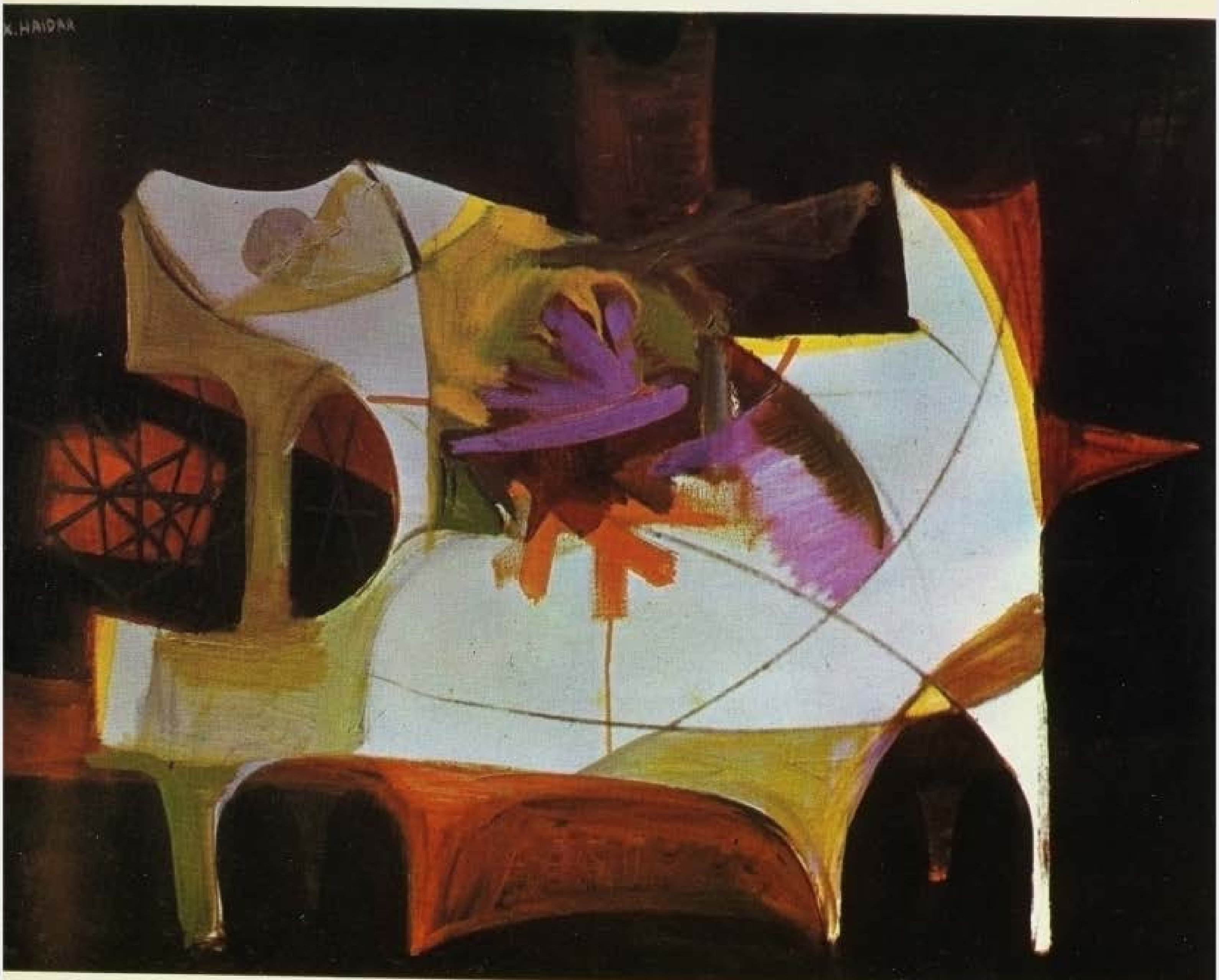
اتضح في نشاط مدرسة فن التصوير المعاصرة تأثيرات للتراث التصويري لمدرسة بغداد والذي ينعكس في أعلى مستوياته بالحس الرفيع والتأملات التي أظهرتها رسوم الفنان البغدادي جواد سليم وغيره ، والرسوم الملحقة تعبر عن هذه المقومات في الطابع المميز لهذا الكيان الحديث والتي استوعبت في مضمونها الفن الأوربي المعاصر مضافاً اليه عائدية مستوحاة من القيم الزمانية والمكانية للبيئة البغدادية وتقاليدها الموروثة .



العروســة ــ للنحات خالد الرحال



باب خشبية ــ للنحات محمد غني حكمت

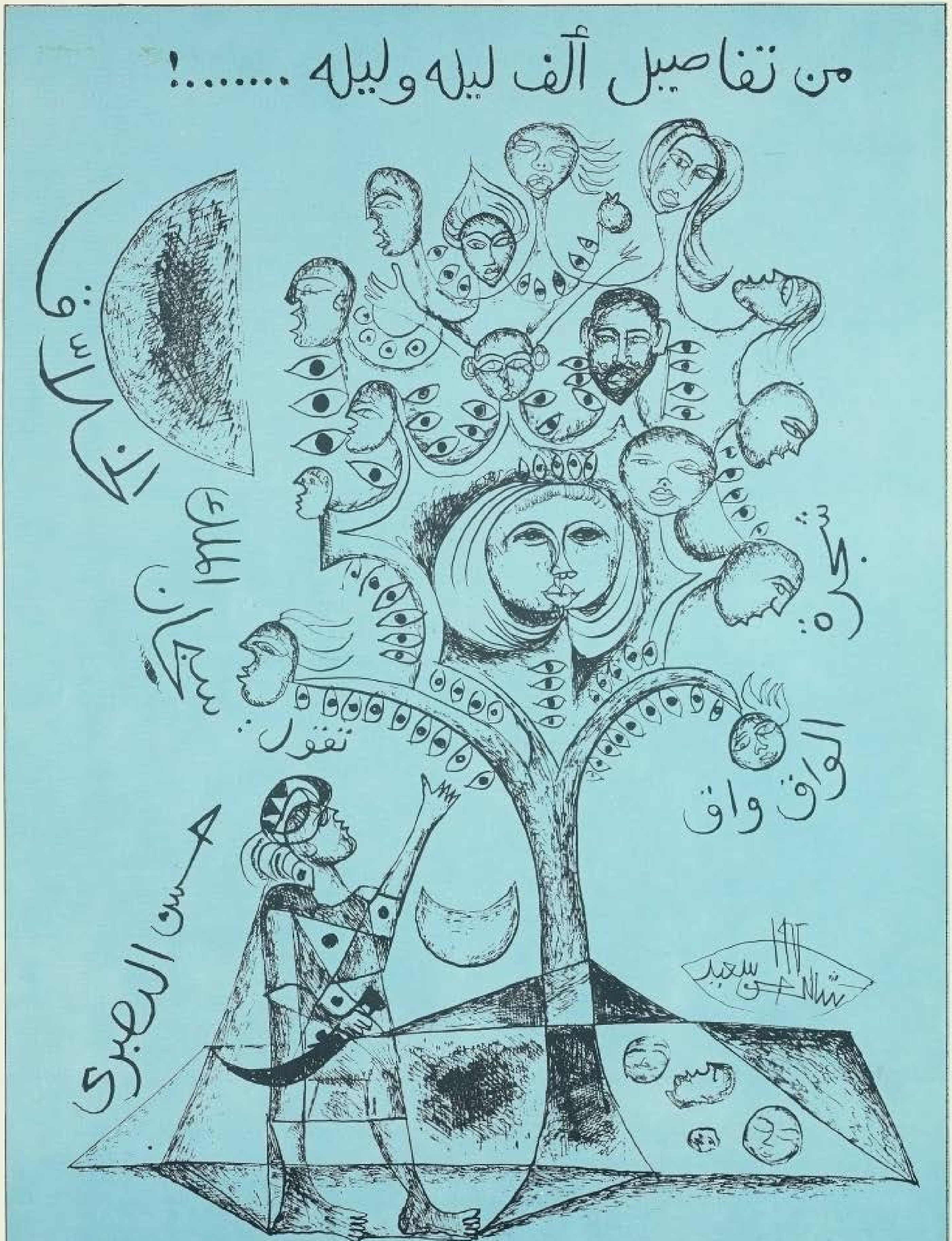


تجـــريد لـ (كاظم حيدر)

الراقصة لـ (حافظ الدروبي)



شجرة الواق واق لـ (شاكر حسن آل سعيد)





فتاتان لـ (فائق حسن)



صبيان يأكلان الرقي لـ (جواد سليم)

بائع العرق سوس لـ (جواد سليم)



عائلة لـ (ضياء العزاوي)





استراحة لـ (اسماعيل الشيخلي)



الجـــزائر ــ للفنان محمود صبري حسن



تفصيل من نصب الحرية ـــ للفنان الراحل جواد سليم

BAGHDAD